حقائق ورقائق
(١)

الباحثون عن الله

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

حقائق ورقائق

(1)

الباحثون عن الله

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثالثة

1437-2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

هذه السلسلة

تهدف هذه السلسلة (حقائق ورقائق) إلى أمرين:

الأول: البحث عن الحقائق التي يهتم لها العقل الإنساني، والتي جاءت الأديان والإسلام خصوصا للدلالة عليها، ولكنها - للأسف- صادفت الكثير من التشويه من طرف الذين خلطوا بين المقدس والمدنس، وبين الدين والأهواء، وبين الإلهي والبشري.

وهي لذلك تحاول أن تقوم بالاستعانة بالمصدرين المقدسين: العقل والنقل، أن تصل إلى الحقائق السامية التي تجتمع على قبولها الفطر السليمة التي هي الحصن الحصين الذي يلجأ إليه عند الخلاف.

الثاني: هو الصياغة الرقيقة الجميلة المسالمة لتلك الحقائق.. فلا تلقى بعنف ولا بشدة، ولا بألفاظ تجرحها، ولا بجدل يبعدها عن غايتها.. بل تلقى برقة ولطف وعذوبة حتى تستمتع بها النفس.. وحتى تسري إليها من غير أن تخدش مشاعرها أو تفرض أي وصاية عليها.

وانطلاقا من هذين الهدفين جاءت أكثر أجزاء هذه السلسلة في شكل روايات بسيطة ممتلئة بالحوار الذي يخاطب العقل والعاطفة وكل اللطائف الإنسانية.

وننبه في هذه الطبعة كما نبهنا في الطبعة السابقة إلى أن هدف هذه السلسلة هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، ولذلك اهتممنا في أصل كل جزء منها بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش، أو بالدلالة على

المراجع التي يمكن أن يستفاد منها لتحقيق ذلك..

وننبه كذلك إلى أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر، لأن توثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها الرواية.. بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

وننبه أخيرا إلى أننا من منطلق الحرص على الوحدة الإسلامية، واعتقادنا بحرية الرأي والخلاف بين المسلمين، جعلنا أبطال هذه الروايات من مختلف المدارس الفكرية المنتشرة في العالم الإسلامي، وهذا لا يعني تأييدنا الكلي لكل الشخصيات التي نختارها، بل أردنا فقط تعريف القارئ بها، وخدمة بعض الجوانب الفنية التي يتطلبها أي عمل يحاول الجمع بين العلم والفن.

وبما أن الكثير من أجزاء هذه السلسلة له علاقة بالحوار الإسلامي المسيحي، أو الحوار مع الآخر، فقد حاولنا أن نصيغها صياغة خاصة تمثل المنهج الإسلامي المحمدي الأصيل في التعامل مع الآخر والحوار معه، ولهذا حاولنا نجمع فيها بين المزايا التالية:

الأدب: فقد حاولنا صياغتها بلغة مهذبة عالية الأدب، حرصا على تنفيذ قوله تعالى: وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (العنكبوت: من الآية46)، فليس في جميع هذه الأجزاء إهانة أو أي لفظ قد يجرح أي مسيحي، أو غير مسيحي... لأن أكثرها عبارة عن ذكريات يسوقها رجال دين مسيحيين عن رحلاتهم التي تعرفوا من خلالها على الإسلام، ونبي الإسلام.

الشمول: فقد حاولنا الرجوع في كتابة هذه السلسلة إلى مراجع كثيرة جدا مسيحية وإسلامية، حتى نحصي أكبر عدد من

الشبهات، وأن نجيب عنها بكل ما يمكن الإجابة عنه بما يقنع المسيحي المتدين، وغيره من اللادينيين والعلمانيين.

المتعة: فقد حاولنا صياغة كل تلك المعلومات والشبهات في قالب روائي جذاب، مليء بالأحداث المشوقة، ليجمع القارئ بين العلم والتسلية.

التبسيط: فقد حاولت هذه السلسلة أن تخرج بالمعارف المرتبطة بهذا الباب من مدرجات الجامعات إلى الشوارع والطرقات في لغة بسيطة تمكن الكل من فهمها...

التعليم: فهذه السلسلة تعلم كل محب لرسول الله ﷺ، وكل حريص على دينه، كيف يجيب المخالف، بل كيف يقنعه... فهي تبين لهم منهج الحوار مع المخالفين، وتعطيهم من القدرات العلمية، والطرق المنهجية ما لا يملك معه المخالف إلا التسليم... وهدفها من كل ذلك أن تجعل من كل مسلم داعية إلى الله، ومحاميا يذب عن دينه، ويحمي حمى رسوله، ومناظرا ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات.

المقدمة

هذه الرواية تحاول أن تنشر في قلب المؤمن وغـير المـؤمن أهمية معرفة الله وضرورتها، وأن الحيـاة لا تسـتقيم من دونهـا، وأن القلب لا يدرك ضالته من دونها.

وهي تتوسـل لـذلك بكـل أنـواع الحجج العقليـة والعاطفيـة وغيرها..

وتـدور أحـداثها حـول رجـل دين مسـيحي يـزور المؤلـف، ثم يحكي له قصة اهتدائـه للـه، والـتي بـدأت من خلال تكليفـه من طرف الكنيسة بالذهاب صـحبة هيئـة علميـة أرسـلها الفاتيكـان لحضور مؤتمر علمي حول الله في الأديان المختلفة.. وكل هذه الهيئة من العلماء الراسـخين في العلم ممن تثـق الكنيسـة في قدراتهم.

وقبـل الوصـول إلى المـؤتمر نـزلت الطـائرة الـتي تقلهم اضـطراريا في مكـان مجهـول، وحين ييأسـس الركـاب من أن ينقذهم أحد يقفون مواقف مختلفة.. أمـا الملاحـدة واللاديـنيون، فمنهم من ينتحـر، ومنهم من يصـاب بـالجنون.. وأمـا غـيرهم، فيتضـرعون إلى اللـه.. كـل حسـب دينـه الـذي يعتقـده.. لكن شخصـا منهم خـاطبهم بقولـه: (نحن من بلاد مختلفـة.. منـا من يـؤمن باللـه.. ومنـا من لا يـؤمن بـه.. ونحن نختلـف فيمـا بيننـا اختلافا شديدا في معارفنـا المرتبطـة باللـه.. ولا يمكن لـدعواتنا أن ترتفع للآلهـة المزيفـة.. فلـذلك لا منـاص لنـا من البحث عن الإله الحقيقي حتى نرفع أكفنا بالضراعة إليه)

وهنا يبدأ كل باحث من الهيئة العلمية يدلي بشهادته الصـادقة عن معارفــه الــتي وصــل إليهــا من خلال أحــداث وحــوارات ومناظرات يمر بها هو أيضا.

وقد جمعت تلك الشهادات كل القضايا الكبرى الـتي تدرسـها

العقيــدة الإســلامية في هــذا الجــانب، ابتــداء من الوجــود، والوحدانية والتقديس وانتهاء بغيرها من الأسماء الحسنى.

وفي الأخير.. وبعد اهتدائهم لله.. ودعائهم له، قيض اللــه لهم من ينقذهم..

وتهدف هذه الرواية من خلال هذا الطرح المبسط إلى:

1. التعريف باللـه من خلال العقـل والعلم والمصـادر المقدسـة بعيدا عن الجدل والترف الفكري الذي يخوض فيما لا يستفاد منه.
2. جمـع أكـبر عـدد من الأدلـة والـبراهين المرتبطـة بالحقـائق العقدية المتعلقة بالله.
3. الاســتفادة من منتجــات العلم الحــديث في تغذيــة العقائــد الإسلامية بأكبر عدد من البراهين والأدلة.
4. البعد عن الصراع المذهبي الذي حال بين الكثير، وبين طـرح العقيدة الإسلامية صافية نقية.
5. تيســير المعــارف العقديــة وتبســيطها بحيث يســتفيد منهــا المتخصص وغير المتخصص.

وفي الأخير نعتذر للصعوبة قـد تعـترض البعض في فهم بعض ما نطرحه في الرواية من براهين، ذلك أننـا قصـدنا من الروايـة خطــاب الجميــع من المتخصصــين وغــير المتخصصــين، وهم أصحاب مناهج فكريـة مختلفـة.. ولهـذا اعتمـدنا الأدلـة بأنواعهـا المختلفة.

ولا حــرج على من لم يفهم دليلا من الأدلــة أو منــاظرة من المناظرات أن ينتقل إلى غيرها، فالقصد من التنويع هو خطــاب العقول بمناهج تفكيرها المختلفة.

البداية

في تلك اللحظات المؤلمة التي لم يمر عليها مثلها في حيـاتي، سمعت بعض أهل البيت يردد بصوت مرتفع (الله!!)، يقولها متعجبا أو مستحسنا كما تعودنا أن نقولها، من غير أن نشـعر بهـا أو نلتفت لها.

لكني في تلك اللحظة شعرت بهـا شـعورا لم أشـعر بمثلـه في حياتي..

لقـد رحت أبحث عن تلـك الكلمـة، وعلى من تطلـق.. فكـدت أسقط..

إن (اللـه) هـو اسـم صـاحب الوجـود الحقيقي في هـذا الكـون جميعا.. أما ما عداه فليس إلا ظلال أو آثار أو مظاهر، ليس لها من هدف إلا الدلالة عليه والتعريف به..

و(الله) هو اسم أكبر غني في هـذا الوجـود.. فهـو اسـم الملـك الذي يملك هذا الكـون جميعـا بأرضـه وشمسـه وأقمـاره ونجومـه ومجراته وأفلاكه الواسعة ما نرى منها، وما لا نرى..

و(الله) هو اسم القادر على كل شـيء.. والـذي يسـتوي عنـده كـل شـيء.. وليس عنـده أي مسـتحيل.. فبإمكانـه أن يحـول من الأرض جنة ونعيما مقيما.. وبإمكانه أن يحول منها نارا تلظى..

وبإمكانه أن يشفي من عجز جميع الأطباء عن شفائه..

وبإمكانه أن يعلم من عجز جميع المعلمين عن تعليمه..

وبإمكانه أن يحول من الشقي الذي امتلأ كـدورة وألمـا سـعيدا يمتلئ فرحا وسرورا..

و(اللـه) هـو اسـم العليم بكـل شـيء.. والـذي لا محـل عنـده للجهل.. فهو يعلم ما كـان ومـا يكـون ومـا لا يكـون لـو كـان كيـف يكون.

و(اللـه) يعلم ــ لـذلك ــ كـل الأسـرار الـتي حـار فيهـا العلمـاء والمفكرون والفلاسفة وجميع العقول..

الله يعلم أسرار الحياة والموت.. وأسـرار السـعادة والشـقاء.. وأسـرار الصـحة والمـرض.. وأسـرار الوجـود والمصـير.. وجميـع الأسرار التي نقدم أرواحنا فداء لأجل كشـف بعض حروفهـا.. ومـع ذلك لا ننال منها إلا الهباء..

و(الله) هو اسم الحي السـميع البصـير المتكلم.. الـذي لـه من القدرات الذاتية ما لا تطيق العقول والأوهام تخيله.

و(الله) هو اسم القدوس الذي لا يعرف الموت ولا المــرض ولا المكان ولا الزمان.. فهو الغني بذاته عن كـل شـيء.. وكـل شـيء مفتقر إليه، متواضع بين يديه، لا يملك لنفسـه من الضـر والنفـع إلا ما أعطاه الله.

و(الله) هو اسم القيـوم الـذي لا قيـام لوجودنـا ولا لحياتنـا.. ولا لوجود كل شيء وحياته إلا به.. فكل شيء بـه يقـوم.. وكـل شـيء إليه يفتقر.

و(اللـه) هـو اسـم الـرحيم الـرحمن الـذي ملأ الكـون بمظـاهر رحمته..

و(الله) هو اسم الودود الذي تودد لكل شيء.. وتـودد إليـه كـل شيء.

وهو اسم الحنان الذي حن على كل شيء..

وهو اسم البديع الجميل الذي ملأ الكون إبداعا وجمالا.

وهـو اسـم السـلام الـذي لا يعـرف الصـراع.. فليس لـه من يصـارعه، وليس مـا يصـارع من أجلـه.. فهـو الواحـد الأحـد الفـرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

***

بقيت لحظات طويلة وأنا واقف في مكـاني أحـاول أن أختصـر في ذهـني المعـاني العظيمـة الجليلـة الكثـيرة الـتي يحملهـا اسـم

(اللــه).. إلى أن كــدت أغيب عن بيــتي وعن نفســي وعن الكــون جميعا..

في تلـك اللحظـات المقدسـة قلت لنفسـي، وأنـا ممتلئ همـة وعزيمة: أليس من الهمة الدنية يا نفس أن ترغبي عن صـحبة هـذا الملــك الجليــل.. لتبحــثي في القمامــات والمزابــل عن الأصــنام لتطأطئي رأسك لها خاضعة ذليلة.. وتأبى الأصنام إلا أن تذيقك من الهوان ما يذيقه كل مستبد بكل ضعيف؟

أليس من الهوان أن تصحبي العجـزة وأنت قـادرة على صـحبة القادر الذي لا يعجزه شيء؟

أليس من الجهل أن تصحبي الجهلة الممتلـئين خرافـة وأوهامـا وترغبي عن صحبة العليم الذي بيده خزائن علوم كل شيء؟

أليس من الضعة أن تصحبي الفقـراء الـذين لا يملكـون شـيئا.. حتى أنفسهم لا يملكونها.. وترغبي عن صـحبة الغـني المالـك لكـل شيء.. ابتداء منك وانتهاء بأصغر ذرة في هذا الوجود؟

لكن الكــدورة الــتي تعــودت أن تغــير بجحافــل جيوشــها على مشاعر سعادتي، فتحولها إلى ألم وشقاء.. أبت إلا أن تــزورني في تلك اللحظات الممتلئة بالسعادة:

لقد قالت لي نفسي، وكأنها تسـخر مـني: من أنت أيهـا القـزم الحقير، وصحبة الملك الجليل الذي تنقطع العقول والقلوب دونه؟

من أنت ـ أيها الممتلئ بالحظوظ الدنية ــ حـتى تتخطى رقـاب الصـديقين الـذين سـلكوا المفـاوز والقفـار وبـاعوا كـل الحظـوظ، ليشتروا بذلك نعمة المعرفة بالله، ونعمة المصاحبة له؟

من أنت أيهــا الملطخ بــالأوزار، الممتلئ بالأقــذار، المــدنس بأرجاس الليل والنهار.. والتطلع لصحبة الملك الجليل الجبار؟

ألا تستحيي من نفسك؟

أنت لا تليق لصحبة ملك ولا وزير.. بـل ولا شـرطي ولا خفـير.. فكيف تتطلع لصحبة من الأمر كله بيده، منه يبدأ، وإليه ينتهي..؟

من أنت أيها..

قاطعتهـا، وأنـا ممتلئ بـالألم، قـائلا: كفي عـني أيتهـا النفس.. فلطالما كدرت سعادتي.. أنا إن لم أصحبه، فمن أصـحب.. وأنـا إن لم أبحث عنـــه فعلى من أبحث.. أليس من الـــدناءة أن أتركـــه لغيره؟.. أليس من الغبن أن أربح كل شــيء، ثم أخســره؟.. أليس من العجز أن أستعمل جميع قدراتي من أجل تحقيق أتفه الأشـياء، ثم لا أستعملها من أجله وأجل البحث عنه؟.. أليس من..؟

قاطعتني نفسي.. نفسي الأمارة بالسـوء.. وقـالت: وأنـا.. لمن تتركني.. إن انشغلت عني به.. فمن يشتغل بمطالبي.. من يشتغل بمصالحي.. من يشتغل بأهوائي..؟

رفعت يـدي، وكـأني أريـد أن أبطش بشـيء.. لكـني لم أجـد سواي.. فارتخت يدي.. وامتلأت بالعجز عند ارتخائها.. وخرجت من كل تلك العوالم الجميلة بعد أن ملأتني نفسي إحباطا وكآبة.

لم أجد بعـدها إلا أن أسـير إلى ذلـك الضـيف الغـريب الممتلئ بأنوار القداسة، والذي لم أعرف إلى ذلـك الحين من أين جـاء، ولا أين يقصد..

عندما اقتربت من غرفته سمعته يـردد بصـوت خاشـع مـا ورد في الآثار القدسية من حديث الله لعباده.. لقد سمعته يقول:

(عبدي.. متى جئتني قبلتك..

إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك.

إن تقربت مني شـبرا تقـربت منـك ذراعـا.. وإن تقـربت مـني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.

لا تحجبك الخطايا عني، فلـو لقيتـني بقـراب الأرض خطايـا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة..

ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك.

هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما..

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.

إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلـق ويعبـد غـيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نـازل وشـرهم إلى صـاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصـي وهم أفقـر شيء إلي.

من أقبـل إلي تلقيتـه من بعيـد، ومن أعـرض عـني ناديتـه من قـريب، ومن تـرك لأجلي أعطيتـه فـوق المزيـد، ومن أراد رضـاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهـل شـكري أهـل زيـادتي، وأهـل طاعتي أهـل كرامـتي، وأهـل معصـيتي لا أقنطهم من رحمـتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عنـدي بعشـر أمثالهـا إلى سـبعمائة ضـعف إلى أضـعاف كثـيرة، والسـيئة عنـدي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.

رحمتي سبقت غضبي وحلمي سـبق مؤاخـذتي وعفـوي سـبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها..)[1]

***

لست أدري كيف دخلت عليه، وأنا ممتلئ فرحا وسعادة بعد أن سمعت منه هذا الحديث الرباني الجميل.

لقد دخلت، وأنا أردد بصوت مرتفع ممتلئ فخـرا وزهـوا: لكـأن الله يخاطبني بهذا.. أنا العبد الضعيف.. لقـد كـانت نفسـي تثبطـني عن السلوك إليه وطلبه.

التفت إلي الشيخ الصالح مبتسما، وقـال: النفس هي الحجـاب الأكبر الـذي يحـول بينـك وبين ربـك.. فمـتى سـمعتها لم تسـمعه..

1) وردت هذه العبارات في أحاديث قدسية متفرقة.

ومتى رأيتها لم تره.. ومتى صحبتها لم تصحبه.. ومتى عشت من أجلها لم تعش من أجله.

قلت: ولكني لست سوى نفسي.. فكيف أصفعها صفعة تعيد إليها وعيها؟.. إني أراها كالمخدر الذي يرتمي في المزابل، وهو يحسب نفسه في القصور..

قال: عندما تنشغل به عنها ستنشغل عنك بما كلفت به من خدمتك.

قلت: لكنها لا تحول بيني وبينه فقط.. بل إنها تسرب إلي من الأوهام ما تنهد الجبال دون سماعه.

قال: ذلك سلاح من أسلحتها.. فهي إن لم تطق أن تشغلك عنه.. شغلتك بالأوهام والشبهات التي تحول بينك وبينه.

قلت: فأين المصير؟

قال: إليه..

قلت: ولكني أخاف أن يكون مصيري إلى الآلهة التي تصنعها الأوهام.. ألا ترى أن كل ملة من الملل، وكل نحلة من النحل تحسب أنها على الحق.. وأن الحق لن يتجاوزها إلى غيرها.. فما أدراني لعلي مثلها.. وأني عندما أضحك عليها لا أضحك إلا على نفسي؟

قال: لقد جعل ربك للحقائق علامات وشروطا وقوانين يستحيل أن تتخلف..

قلت: أي قوانين؟

قال: لقد خلق الله لنا العقول.. وبرمجها بالبرامج المهيأة لإدراك الحقائق.. فمن سار على ضوئها يستحيل أن يصل إلا إلى الحقائق.

قلت: أليس للبشر جميعا عقول يفكرون بها؟

قال: بلى..

قلت: فلم يختلفون إذن؟

قال: لأن فيهم من يغلب عقله.. وفيهم من يغلب هواه.. وفيهم من يمزج عقله بهواه.. وفيهم من يسخر عقله لهواه.

قلت: فكيف نميز بين ما يقوله العقل، وما يقوله الهوى؟

قال: لقد جعل الله في قدرة العقول هذا التمييز.

قلت: لا يزال عقلي كليلا دون إدراك صدق ما تقول.

قـال: أرأيت لـو أن رجلا من النـاس زعم لـك اسـتحالة تحـول الماء إلى بخار.. كيف تخلصه من هذا الوهم؟

قلت: ما أسهل ذلك.. سأحضر نارا وماءا.. فما تلبث النار حـتى تتغلب على الماء، وتحوله إلى بخار.. وحينها سيتبخر وهمه.

قال: فهكذا من سـرب إليـك وهمـه.. أحضـر لـه مـا يتبخـر بـه وهمه.

قلت: الأمـر مختلـف تمامـا.. ذلـك مـاء ونـار.. وكلاهمـا تدركـه حواسي.. ولكن الحقائق التي نتحدث عنها تختلف تماما.

قال: هي تختلف من حيث الصورة فقط.. لكنها في الحقيقـة لا تختلف.. لقد جعل الله لكل حقيقـة السـلم الـذي يصـعد إليهـا بـه.. والباب الذي يدخل إليها منه.

قلت: ما دام الأمر بهذه البساطة.. فلم كانت أعقـد قضـية في هذا الوجود هي معرفة الله؟

قال: لقد عرفت أن النفس هي أكبر حجـاب بين الإنسـان وبين ربـه.. ولـذلك فإنهـا إن لم تطـق أن تملأ القلـوب والعقـول غفلـة أسرعت فملأتها أوهاما.

قلت: لم تسرع إلى الأوهام؟

قال: لتعبد من خلالها.. فالنفس في طغيانها لا تردد إلا مـا ردده فرعون عندما قال:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعــات: من الآية24)..

بل إنها لا ترضى بالشرك، ولذلك، فهي تردد مع فرعون قوله:﴿ يَـا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي ﴾ (القصـص: من الآية38).. ولذلك فهي تلبس من الألبسة المختلفة ما تعبد به من خلالها.

قلت: أكل أولئك الذين لم يعبدوا الله كانوا يعبدون أنفسهم؟

قال: أجل.. فكل من لم يعبد الله لابد أن يقع في عبادة هـواه.. وقد قال ﷺ: (ما تحت ظل سماء من إله يعبد من دون اللـه أعظم عند الله من هوى متبع)(1)

قلت: المسيحيون واليهود والبوذيون.. وكل أولئك الجموع..

قاطعني وقال: كل أولئك الجموع.. حتى الكثير من المســلمين ممن امتلأت عقــولهم بــالأهواء.. هم لا يعبــدون إلا الأوهــام.. ولا يركعون إلا للأوهام.. وإذا سجدوا لا يسجدون إلا للأوهام.

قلت: أراك تملؤني مخافة.

قال: من لم يخف في هذا الباب لن يصل إلى شـيء.. ومن لم يحرص في هذا الباب فلن يطمع في شيء.

قلت: ما تعني؟

قـال: ألا تـرى الخلـق كيـف يحرصـون من أجـل مصـالحهم المحـدودة.. فيتحـرون ويـدقفون في التحـري حـتى لا يقعـوا في أحبولة أي محتال؟

قلت: أجل.. وقد اخترعوا لذلك القوانين الكثـيرة الـتي تحميهم من دجل الدجالين واحتيال المحتالين وزيف المزيفين.

قال: ولكنهم في هذا الباب تجدهم.. أو تجد أكثرهم يصم أذنيه، ويغلق عينيه.. ولا يكاد يتساءل عن الحقيقة.

قلت: لم أفهم ما الذي ترمي إليه؟

قال: لو أن البشر.. جميع البشر.. تعاملوا مع اللـه كمـا تعـاملوا مع الأطباء.. لصاروا كلهم مسلمين لله خاشعين لله ظافرين بالله.

1() رواه الطبراني وأبو نعيم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تـراهم لا يسـلمون أجسـادهم إلا لمن يثقـون فيهم من الأطباء ممن تـبين لهم أنهم قـد حصـلوا من العلـوم مـا يصـلح لأن يسلموا أجسادهم لهم؟

قلت: أرى ذلـــك.. بـــل إنهم أحيانـــا يحتـــاطون لـــذلك أعظم الاحتياط، فيختارون أكثرهم خبرة وتجربة.

قال: فلو أن هؤلاء تعاملوا مع ربهم على هذا الأساس.. فراحـوا يتحرون عن إلههم..

انتفضت غاضبا، وأنا أقول: التحري لا يكون إلا عن المجرمين.

رد علي بهدوء: صدقت.. ولذلك لابد من التحري.

قلت: كيـــف يتحـــرى عن اللـــه.. التحـــري لا يكـــون إلا على المجرمين؟

قال: لأن هناك كثـير من المجـرمين ملأوا هـذا البـاب خرافـات وأباطيل راحت تزاحم الله.. فلـذلك لن تسـلم لأحـد معرفتـه باللـه حتى يخلص عقله من الأوهام التي يسربها المجرمون.

قلت: التحري يكون بين جمع من الأطباء.. فكيف يكون التحري في معرفة الله؟

قال: مثل التحري بين الأطباء.. فهنـاك (اللـه) الحقيقي.. الـذي خلق هذا الكون ودبره.. وهناك آلهة كثيرة مزيفة أنشـأتها النفـوس المدنسة تريد أن يمنح لهـا من القداسـة مـا يمنح للـه.. ولا ترضـى بدون ذلك.

قلت: ومـا أدرانـا أن يكـون (اللـه) الحقيقي بين هـذه الآلهـة الكثيرة المزيفة.. ألا يمكن أن لا يكون لأي أحد من الناس الحقيقـة المرتبطة بهذا؟

قال: ذلك مستحيل.. فالله الذي خلق هـذا الكـون ودبـره.. بـل دبر أبسط ذراته يستحيل أن يترك هـذا الكـون من غـير أن يعرفـه بنفسه.

قلت: فكيف نصل إلى تلك المعرفة؟

قال: بالسيرين.. السير العقلي.. والسير الحسي.. بكليهما تستطيع هذه البشرية التائهة أن تصل إلى ربها الحقيقي وتميزه عن الآلهة الكثيرة المزيفة..

قلت: فهل سرت مثل هذا السير؟

قال: لقد رزقني الله في رحلة من رحلاتي من اختصر لي الكثير من الأسفار.. وقد رزقني الله في تلك الرحلة من الأشعة الهادية إلى شمس محمد ﷺ ما لا يمكن للعقل وصفه.

قلت: فهل ستحدثني عنها؟

قال: أجل.. فلا يمكن لمن لم يتنعم بهذا النوع من الأشعة أن يعرف محمدا ﷺ.. فلا يعرف محمدا ﷺ من لا يعرف الله.. فلا يعرف الرسول من لم يعرف مرسله.

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد الله، وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك.. ثم قال: في يوم من أيام الله المملوءة بالنفحات والبركات.. شعرت فجأة بمشاعر ملحة تدعوني للبحث عن الله..

وقد بدأني ذلك الشعور، وأنا أنظر إلى المرآة.. وقد أرعبني ما رأيته من شيب يشتعل في رأسي كما يشتعل النار في الهشيم..

لم أحزن في ذلك الحين على دنيا فاتتني.. فقد بدأ الزهد يملأ قلبي أنفة من الدنيا ورغبة عنها.

ولم أحزن على لذات أو شهوات تتحرك لها النفوس.. فقد امتلأت بالعفة التي جعلت بيني وبينها من الحواجز ما نغصها في عيني.

لم أحزن على أي شيء.. فكل شيء لا يستحق أن يحزن عليه.

ولكني عندما تذكرت (الله) امتلأت هما وغما..

لقد قلت لنفسي: ها هو قطار العمر يمضي إلى محطته النهائية.. وقد ركب الكل في عربات قطاري.. الكل ما عدا (الله) (1)

لقد جلست مع الكل، ولكني لم أجلس مع الله لحظة واحدة.

واتصلت بالكل، ولكني لم أتصل بالله.

وبحثت عن الكل، ولكني لم أبحث عن الله.

أصابني ألم عظيم، وأنا أردد في ذهني المقولة التي سمعتها كثيرا في جميع ديار الإسلام (إلهي ماذا وجد من فقدك.. وماذا فقد من وجدك)

في تلك الأيام كنت أردد هذه العبارة كثيرا.. إلى أن سمعني مرة أخي، وكان رجلا من كبار رجال الكنيسة.. فاستدعاني إلى مكتبه، وقال: أعرف المشاعر التي تشعر بها.. لقد مررت مثلك بهذه المرحلة.. ولم يعالجني منها إلا مؤتمر كبير لعلماء اللاهوت.. حضرته.. وهناك عرفت الله، واتصلت به، وسمعته..

قلت: أنت!؟.. كيف لم تخبرني؟

قال: ألست إنسانا؟.. إن كل إنسان يحن إلى مصدره.. كل إنسان يحن إلى ربه..

لست أدري كيف قلت من حيث لا أشعر: أنت مسلم إذن؟

غضب أخي غضبا شديدا، وقال: مسلم!؟.. وما علاقة الإسلام بهذا؟

تداركت الموقف، وقلت: لا أعني بالإسلام دين الإسلام.. وإنما أعني به الاستسلام لله والركون إليه والخضوع بين يديه.

قال: صدقت في هذا.. فليس هناك ما يعبر عن تلك الروحانية

---

1) لا يخفى ما في هذا التعبير من المعاني.. فالمراد بـ (الله) هنا هو معرفة الله والاتصال به لا ذات الله..

مثل هذه اللفظة.. لولا أن شوهها الإسلام.

قلت: كيف شوهها؟

قال: ألا تعلم الصـورة المشـوهة الـتي يحملهـا المسـلمون عن ربهم؟

قلت: كنت أتصور أن ربنا وربهم واحد.. وأننا لا نختلف كثيرا في تصورنا لله، وإنما نختلف فيما عدا ذلك.

قــال: أنت لا تعــرف عقيــدة المســلمين في اللــه إذن.. إن المسلمين يحملون صورة من أخطر صور الانحراف عن الله..

إن ربهم الذي يدينون له بالعبودية ليس إلا إفرازا من إفــرازات الحقد التي تمتلئ بها نفوسهم..

إن إلههم مـاكر ومخـادع ومسـتهزئ.. وهـو منتقم جبـار.. وهـو ينسى ويمل.. وهو..

قاطعته وأنا أقول: أهذه عقيدة المسلمين في الله؟

قـال: هـذه بعض عقيـدة المسـلمين في اللـه.. ليتـك كنت قـد حضرت معنـا ذلـك المـؤتمر لتسـمع بأذنيـك من التشـويهات مـا لا يتحمله عقلك وقلبك.

قلت: ألا يمكن أن تكرر مثل هذه المؤتمرات؟

قال: من حسن حظك أن هناك مؤتمرا سينعقد في هذه الأيــام في البلاد التي كانت مقرا للشيوعية في يوم من الأيام.. نحن نريــد أن نعيد إحياء الإله الذي قام الشيوعيون بقتله هناك.. وقد أرســلت إليك لأجل ذلك.

قلت: وما دوري في هذا المؤتمر؟

ضحك، ثم قال: أريد أن أرسلك لتقوم بعمليـة غسـيل لـدماغك الذي ملأه المسلمون بالشبهات.

قلت: إن كان الأمر كـذلك.. فسـأكتفي بغسـل دمـاغي هنـا ولا

حاجة بي للسفر الطويل من أجل هذه المهمة؟

ابتسم، وقال: كنت أمزح فقط.. أنا أعلم صعوبة إقناع أي شخص لك.. عداي..

قلت: ما دام الأمر كذلك.. فما الوظيفة التي تريد إسنادها لي في هذه الرحلة؟

قال: سأرسلك مرافقا للهيئة العلمية التي يرسلها الفاتيكان لحضور هذا المؤتمر.. وكل هذه الهيئة من العلماء الراسخين في العلم ممن تثق الكنيسة في قدراتهم.

قلت: ما أعظم سروري بهذه الوظيفة..

قال: فحضر نفسك لحضور هذا المؤتمر، فليس بيننا وبينه إلا أيام معدودات.

***

كانت تلك الأيام التي انتظرت فيها تلك الرحلة الموعودة طويلة ثقيلة مملة.. لقد كنت أعد ساعاتها ساعة ساعة، ودقيقة دقيقة، وثانية ثانية..

كنت أرقب قرص الشمس كل يوم في انتظار تلك اللحظات التي أسمع فيها الحديث عن الله.. لأزيد من خلالها معرفتي بالله.. لأني علمت علم اليقين أنه لا يمكن أن أتصل بالله إلا من خلال معرفتي به.

في عشية تلك الرحلة قدر الله لي أن ألتقي بمعلمك معلم السلام.

قبل غروب الشمس بلحظات كنت بجانب بيتي أسير.. فإذا بي ألمحه من بعيد.. فأسرعت إليه.. وأمسكت بيده، وقلت: ها أنت أخيرا بجانب بيتي.. لابد أن تدخله.. لا بد أن أتشرف باستضافتك اليوم.. لطالما حلمت بهذا.

نظر إلي مبتسما، ثم قال: أترى أن دخولي بيتك سيسرك؟

قلت: لا يسرني شيء مثل دخولك بيتي.

قال: لم؟

قلت: أراك رجلا ممتلئـا حكمـة.. وليس هنـاك أشـرف من أن تدخل الحكمة بيتك.

ابتسم، وقال: وكيف تدخل الحكمة إلى البيوت؟

قلت: بدخول أهلها.. إذا دخل الحكماء دخلت الحكمة معهم.

قال: ألا أدلك على من هو أشرف مني وأكرم.. وهو أولى مـني بالدخول إلى بيتك؟

قلت: من هو؟

قال: لقد ذكرت لك أن مهمتي هي الدلالة لا التعريـف.. فلـذلك سأصفه لـك.. لتبحث عنـه.. ثم لتدخلـه بيتـك.. بيتـك الـذي لا تنهـد جدرانه.

قلت: أهناك بيت لا تنهد جدرانه؟

قال: أجل.. هو بيتـك الحقيقي الـذي يسـير معـك حيث رحلت، ويأوي معك حيث أويت.

قلت: أراك تقصد قلبي؟

قال: أقصد قلبك وعقلك وروحك وحقيقتك.. فهذه المحـال هي بيتك الحقيقي الذي لا تفارقه ولا يفارقك.

قلت: فصف لي من تراه أهلا ليسكن فيه.

قال: لا تدخل بيتك معدوما.. فالعدم هباء.. ولن تنـال من الهبـاء إلا ما يناله الظمآن من السراب.

قلت: وهـل يمكن لأحـد عـاقلا كـان أو مغفلا أن يـدخل بيتـه معدوما؟

قال: ما أكثرهم.. إنهم ينتشرون في الأرض.. ويملأون قاراتهـا..

وليس في بيوت قلوبهم وعقولهم إلا الهباء.

قلت: هذه الأولى.. فما الثانية؟

قال: إن اجتمعت الحكمة في واحـد.. فـاكتف بـه.. فلن يفيـدك التعدد إلا التشتت.. ولن يفيدك التشتت إلا التمزق والضياع.

قلت: فما الثالثة؟

قـال: لا تـدخل بيتـك مدنسـا.. فالمـدنس يوشـك أن يدنسـك، ويدنس حقيقتك..

قلت: فما الرابعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا كاملا اجتمع له الكمال بجميع معانيه.

قلت: فما الخامسة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا بديعا اجتمع له الجمال بجميع معانيه.

قلت: فما السادسة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا من لا ملك لأحـد عليـه.. وهـو فـوق ذلـك ملك الملوك.

قلت: فما السابعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا عدلا اجتمع له العدل بجميع معانيه.

قلت: فما الثامنة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا رحيما اجتمعت له الرحمة بجميع معانيها.

قلت: فما التاسعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا الودود المحب الذي لا يريد لـك ولا يريـد منك إلا الخير.

قلت: فما العاشرة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا المقصـود في كـل الحـوائج.. فمن الغبن أن تدخل من يردك أحوج ما تكون إليه.

قلت: أراك تشير إلى الله.

قال: إن كان (الله) هو اسـم الـذي ذكـرت أوصـافه.. فلا يصـح للعاقل أن يغفل عن البحث عنه، أو يغفل عن الاتصال به.

قال ذلك، ثم سار، وتركني كعهدي به.

***

في صباح اليوم التالي قصـدت المطـار.. وهنـاك رأيت عشـرة من الرجال.. كلهم قد امتلأ شعره بالشيب الـذي ملأ شـعري.. بـل إن بعضهم أحنت ظهره الأيام، فطأطأ رأسه لها.

ذهبت إليهم وسلمت عليهم واحدا واحـدا.. ثم ركبنـا الطـائرة.. وقد قدر الله أن لا نصل إلى مبتغانا..

لقد حصل للطائرة ـ ونحن في وسط الطريق ـ من العطب مـا كاد يقضي على حياتنا.. ولولا مهارة السـائق لكنـا جميعـا في عـداد الموتى.

لكن السـائق بعـد جهـد جهيـد اسـتطاع أن يحـط بهـا في غابـة موحشة ممتلئة بالظلمات والبرد الشديد..

وقد ملأنا السائق والطاقم الذي معه حزنـا حين أخبرنـا أن كـل أجهزة الطائرة قد حصل لهـا من العطب مـا يحـول بينهـا وبين أي تحرك.. بل حصل لكل أجهزة الطائرة من العطب مـا يحـول بينهـا وبين الاتصال بأي جهة من الجهات.

ثم عاد وأخبرنا بأننا في مكان يستحيل على أي جهاز في الـدنيا أن يرقبه.. فالباحث في تلـك الغابـة كالبـاحث عن إبـرة في كومـة عظيمة من القش.

قـالوا لنـا ذلـك.. ثم راحـوا يوزعـون علينـا مـا بقي من الـزاد القليل..

بقينا في تلك الغابة شهرا كاملا إلى أن أدركنا الله بفرجه..

قلت: كيف حصل ذلك، وقد أخبركم السـائق أنكم في مكـان لا يمكن أن يتعرف عليه أحد من الناس؟

قال: لا تعجل.. فإن لذلك قصة كانت هي المفتـاح الأكـبر الـذي اهتديت به إلى الإسلام.. بل إني في نهاية رحلتي هذه أعلنت لربي استسلامي له، وإسلامي بين يديه..

امتلأت سرورا، وقلت: كيف كان ذلك؟

قـال: سـأحكي لـك الحكايـة من البدايـة.. فلا يمكن أن تفهم النهاية من دون العروج على البداية.

قلت: لقد ذكـرت لي أن الطـائرة نـزلت بكم في ذلـك المحـل الموحش الذي لا يمكن أن يعرفه أحد من الناس.

قـال: أجـل.. وقـد تقلبت بنـا الأحـوال في تلـك الأيـام تقلبـات عجيبة.

أما في الأيـام الأولى.. حيث كـان الـزاد مـوفرا، فقـد انشـغلنا، وانشغل الكثير منا باللهو واللعب.. وكأن الموت لا ينتظرنـا، بـل إن بعضنا عندما عوتب في لهوه ولعبه، قال ما قال قبله امرؤ القيس: اليوم خمر، وغد أمر.. وقال آخـر: دعـني.. لأن أمـوت وأنـا أضـحك خير من أن أموت وأنا أبكي.

هذا في الأيام الأولى..

أمـا عنـدما بـدأ الـزاد ينفـذ، وبـدأت الحقيقـة تنجلي.. فقـد بـدأ الإحباط ينشر أشعته على أكثر من امتطوا معنا الطـائرة مـع كـون الكثـير منهم من المثقفين.. بـل إن الأمـر وصـل ببعضـهم إلى حـد الانتحار، ووصل بآخرين إلى حد الجنون..

ففي يوم من تلك الأيام الممتلئة بالغفلة سمعنا صـوتا مزعجـا، فأسرعنا إلى مصدره، فوجدنا أحد رفاقنـا قـد طعن نفسـه بخنجـر قاتـل.. بحثنـا في ثيابـه عن هويتـه، فتعجبت إذ رأيت أن اسـمه

عربي.. كان اسمه (إسـماعيل أدهم)[1].. ولكن عجـبي زال عنـدما رأيته في جواز سفرته رحلاته الكثيرة إلى روسيا في الـوقت الـذي تـزعمت فيـه الإلحـاد في العـالم.. وزال عجـبي أكـثر عنـدما رأيت عضويته في جمعية اسمها (المجمع الشرقي لنشر الإلحـاد).. وزال عجبي أكثر من ذلك كله عنـدما رأيت في حقيبتـه كتابـا من تأليفـه سماه (لماذا أنا ملحد؟)

وفي يوم آخر.. بل في اليوم التـالي لـذلك اليـوم، أصـيب آخـر بالجنون، وكان في جنونه كثيرا ما يردد، وكأنه يخطب في المجـامع قولـــه: (الجـــداول الرياضـــية) و(الطاقـــة الذريـــة) و(الطاقـــة الهيدروجينيـة) و(طـائرات الميـغ) و(الأقمـار الصـناعية) و(حضـارة القرن العشرين) و(موسكو) و(نهر الراين) و(جبال هيمالايا)

ثم يصيح بصوت عال، وبهستيرية: (إن الله قد مات، أو هـو في طريقه إلى الموت)..

---

1) أشـير بـه إلى إسـماعيل بن أحمـد بن إسـماعيل بن إبـراهيم باشـا أدهم: عرفـه صاحب الأعلام بأنه عارف بالرياضيات، وله اشتغال بالتاريخ، ولـد بالإسـكندرية وتعلم بهـا، ثم أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو عـام 1931، وعين مدرسـاً للرياضـيات في جامعـة سـان بطرنسـبرج، ثم انتقـل إلى تركيـا فكـان مدرسـاً للرياضـيات في معهـد أتاتورك بأنقرة ، وعاد إلى مصر سنة 1936 فنشـر كتابـاً وضـعه في (الإلحـاد) وكتب في مجلاتها، أغرق نفسه بالإسكندرية منتحراً.

وقد وجدت الشرطة في مساء الثالث والعشـرين من شـهر يوليـو عـام 1940م جثتـه طافية على مياه البحـر المتوسـط، وقـد عـثرت في معطفـه على كتـاب منـه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنـه يوصـي بعـدم دفن جثتـه في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها.

قال في رسالته التي سماها (لماذا أنـا ملحـد؟) متحـدثا عن نفسـه: (أسسـت جماعـة لنشر الإلحاد بتركيا، وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منهـا: ماهيـة الـدين، وقصـة تطـور الدين ونشأته… وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكيـة، وكـانت نتيجـة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى المجمع الشرقي لنشر الإلحاد)

وقد رد على رسالته هذه: الدكتور أحمـد زكي أبـو شـادي برسـالة عنوانهـا: (لمـاذا أنـا مؤمن؟)، ورد عليها محمد فريد وجدي بمقالة عنوانها (لماذا هو ملحد؟)

وقد كان له من العمر عند انتحاره تسعة وعشرون سنة؛ فكانت نهايته نهايـة مأسـاوية لشاب موهوب، قال عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات: (كان شديد الذكاء.. واسع الثقافة)، وقال عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بأنه صاحب (ذهن متوقد لامع)، كـان الأول على دفعتـه في البكالوريـا، ثم حـاز الـدكتوراه وألّـف مؤلفـات كثـيرة، ودرّس، وكـان يحسـن التحدث بسـت لغـات، كـل هـذا وهـو في هـذا العمـر.. (انظـر: الأعلام للـزركلي (1/310 بتصرف). وله ترجمـة في الأعلام الشـرقية لـزكي مجاهـد (ص 858-860)، وفي تـراجم عربية، لمحمد عبد الغني حسن)

ثم يسير كما يسير في الجنازات.. وهو ممتلئ حزنا وهما، وهو يقول:(إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض، فإنه لابد للمؤمنين بالحس الأرضي أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة)

ويقول: (طوبى لأتقياء القلب، لأنهم لا يعاينون الله.. لقد صرنا بشراً، ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض، إلى أين مضى الله؟ سأقول لكم إلى أين مضى؟ لقد قتلناه، أنتم وأنا.. أجل، نحن الذين قتلناه، نحن جميعاً قاتلوه، ألا تشمون رائحة العفن الإلهي؟ إن الآلهة أيضاً تتعفن، لقد مات الله وسيظل ميتاً)

سألت صاحبا له عن سر الرجل، وسر كلماته، فقال: هذا نيتشة.. وهو رجل كان في أصله مؤمنا.. ولكنه كان ضعيفا في إيمانه.. وقد بلغ به الانبهار بالحضارة الحديثة إلى أن أسلم كيانه كله لها.. وقد سقط بين يدي جماعة كانوا كل حين يحشرون له الإلحاد تحت هذه العبارات.. وها أنت ترى المسكين قد نسي كل علومه، ولم يبق له منها إلا هذه الألفاظ يرطن بها.

في يوم آخر بعد ذينك اليومين المشؤمين، جن رجل آخر.. كان اسمه (أوجست كونت)(1).. كان اسمه يشبه اسم ذلك الفيلسوف الفرنسي المعروف.. وكان في مظهره ومخبره لا يكاد يختلف عنه.. وقد عجبت له في جنونه إذ كان يقف كهيئة المصلي.. ولكنه لا يردد في صلاته إلا اسم امرأة لست أدري من كانت بالنسبة له.

أهمني أمر هذا الرجل.. فرحت أسأل عنه إلى أن ظفرت

---

1) أشير به إلى (أوجست كونت) (1798-1857) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي ، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن ، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة.

أسس المذهب الوضعي القائل ان لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة و الخبرة، وهو يرى أن تاريخ البشرية ينقسم إلى ثلاث مراحل من التقدم الشامل: المرحلة الدينية ؛ والمرحلة الميتافزيقية، ثم المرحلة العلمية.

وقد قدم مقترحات على جانب كبير من التعقيد لإقامة دولة وضعية تقوم على صفوة من علماء الاجتماع لإدارة المجتمع وتوجيهه.. من أهم أعماله كتاب (الفلسفة الوضعية) الذي ظهر لأول مرة في ستة أجزاء (1830- 1842)

وننبه إلى أن كل ما ذكرنا في الرواية عن سميه كان قد حصل له مع بعض التصرف الذي اقتضاه المقام.

برجل من أهل بلده كان صديقا له.. وقد أخبرني أن هذه النوبة من نوبات الجنون كانت تعرض له كل مرة يتعرض فيها لأي أزمة..

وأخبرني أنه في صغره لما بلغ سنّ الرابعة عشرة من عمره نبذ الإيمان بمبادئ الدين.. وأنه حينها عكف على كتب الفلسفة، معتمداً على قراءته الخاصة لا سيما كتب (هيوم) و(دي مستر) و(دي بونالد)

وأخبرني أنه تعرّف بعد ذلك على كاتب من أهل بلده يسمى (سان سيمون)، وأن هذا الكاتب كان من رواد المذهب الاشتراكي في ذلك الحين..

وأخبرني أنهما اتفقا على الاشتغال معاً بالعلم والسياسة، أما (سان سيمون) فقد كان شغوفاً بالسياسة وذا بصر نافذ فيها، وأما (أوجست كونت) فقد كان شغوفاً بالعلم، وغير مهتم بالأمور السياسية.

وأخبرني أنه افترق بعد ذلك عن أستاذه، لأنه كان يختلف معه في الاتجاه.. وانصرف بعدها للمطالعة والبحث طلبا لأن يصير مثل سميه الفيلسوف الفرنسي..

لكن المسكين ما إن ألقى ثلاث محاضرات إلحادية حتى انتابته أزمة عقلية، فعُنِيَتْ بِهِ زَوجته، حتى عاد إليه اتزانه العقلي، فاستأنف محاضراته بعدها.

ولم يطل به الوقت حتى تعرض لأزمة عقلية أخرى، كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرَّف عليها، ثم توفاها الأجل بعد سنتين فقط من تعرفه عليها، فأخذ منها دينا سماه (الإنسانية)، وكان يتوجه لها كل حين بالفكر والصلاة كل يوم.

في يوم آخر.. انتحر رجل آخر عرفت بعد انتحاره أن اسمه (فان جوخ)(1).. وأنه من هولندا.. وكان كسميه الرسام المشهور مستغرقا طول الوقت في لوحاته.. وتنتابه بين الحين والحين نوبات صرع كان يصيح فيها صياحا لا يزيدنا إلا أسى ومرارة..

---

1) أشير به إلى (فان جوخ، فينسنت) (1853 ـ 1890م).. وهو واحد من أكثر الرسامين شهرة في فن التصوير التشكيلي.. وقد انتحرعام 1890م.

لم يكن ملحدا.. ولكنه كـان يحمـل صـورة مشـوهة عن الإلـه.. وكان تصوره للحياة لذلك مملوءا بالكـدورة.. فقـد كـان يتصـور أن الله يتسلى بتعـذيب عبـاده.. وأنـه لم يخلقهم إلا ليعـذبهم بأصـناف العذاب..

لم يكن راضيا عن هذا التصور الذي كان يصـرخ بـه كـل حين.. ولكن المسكين لم يجد من يصحح له هذا التصور..

في ذلك اليوم وجدناه مشنوقا.. وأمامه لوحة من لوحاتـه كلهـا سواد.. وقد كتب فيها عبارة فيها من التهجم على اللـه والاعـتراض عليه ما لا يطيق لساني التعبير عنه.

وبجانبها عبارة أخرى لا تقل عنها بـذاءة.. ولكنـه وجههـا لرجـال الدين..

قال لي صاحبه: لقد كتب في لوحته هذه ما ظـل طـول عمـره يحلم بأن يقوله لكنه لم يطق.

قلت له: لم؟

قال: لقد شعر ذات يوم بحاجتـه إلى اللـه.. فـراح يبحث عنـه.. لكنه اصطدم برجال صوروا له صورة مشـوهة عن اللـه.. ولم يكن للمسكين القدرة على أن يعارضهم، فكتم ذلـك في نفسـه إلى أن باح به في هذا الموقف.

قلت: فلم لم يبحث عند غيرهم؟

قال: لقد ذكرت لك عجـزه.. لقـد قعـد بـه العجـز عن البحث.. فلذلك استسلم.. وتعذب باستسلامه.. وقد كانت نهايته ما رأيت.

***

بعد هذه الحوادث وغيرها رأيت خوفا كبيرا بدأ يدب إلى قلــوب المسافرين معنا.. وقد استحث ذلك بعض المسافرين معنـا، وكـان – على ما يبدو رجلا حكيما – لكني لم أعرف سـره إلى الآن.. لقـد اسـتحثه ذلـك على أن يجمـع من بقي من المسـافرين عـدانا، ثم ينفرد بهم، ويناجيهم ويناجونه بما لم نتمكن من سماعه..

وبعد تلـك المناجـاة أتـوا إلينـا، وقـالوا: لقـد علمنـا أنكم رجـال عـارفون باللـه.. وأنكم مـا خـرجتم من بلادكم إلا لتعرفـوا الخلـق بالله.. فهيا عرفونا بربنا لندعوه لينقذنا مما نحن فيه..

قال رجـل منهم: نحن من بلاد مختلفـة.. منـا من يـؤمن باللـه.. ومنا من لا يؤمن بـه.. ونحن نختلـف فيمـا بيننـا اختلافـا شـديدا في معارفنـــا المرتبطـــة باللـــه.. ولا يمكن لـــدعواتنا أن ترتفـــع للآلهـــة المزيفة.. فلذلك لا منـاص لنـا من البحث عن الإلـه الحقيقي حـتى نرفع أكفنا بالضراعة إليه.

قال آخر: نحن كمرضى نحتـاج إلى طـبيب.. ولـذلك نحتـاج إلى التعرف على الطبيب قبل أن نطلب منه أن يعالجنا.. حتى لا نسلم أجسادنا للدجالين.

قــال آخــر: في موقفنــا هــذا لا تجــدينا إلا الحقــائق.. فحــدثونا بالحقائق لا بالرسوم.. فقد فنيت في موقفنا هذا كل الرسوم.

طأطأنـا رؤوسـنا جميعـا.. ثم ركنـا إلى صـمت طويـل.. قطعـه أحدنا بقوله: اسمحوا لي أيها الجمع أن أعترف الآن بين أيديكم في هذه اللحظات ـ التي ربما تكون آخر لحظات حياتي ـ بــأني لم أكن مسافرا للتعريف بالله.. وإنما كنت مسافرا للتجارة بالله..

سرت ضوضاء في الجمع الملتف بنا، قطعها بقوله: لا تتعجبوا.. هذه هي الحقيقة التي كنت أتفنن في سترها بأنواع الطلاء.. نعم أنا مكلـف بـأن أقـدم محاضـرة تحـاول أن تعـرف باللـه.. ولكنهـا في الحقيقة محاضـرة لم تؤسـس إلا على مطـامعي وأهـوائي، لا على الحقائق التي تفرضها العقول، ويدعو إليها المنطق.

قال آخـر: مثلـك أنـا في هـذا.. فلم أخـرج من بلـدي إلا لأنصـر مذهبي وطائفتي سواء كان الحق معهــا أو لم يكن.. ولا يمكن لمن هذا حاله أن يمسك إلا بالسراب.

قــال آخـر: ومثلكمـا أنـا في ذلـك.. لقـد صـنعت صـنما لإلهي، وعجنته بجميع أهوائي.. وقد حملته معي لأقدم لـه من الإشـهار مـا تخدم به مصالحي، وتنتصر به أهوائي.

ردد أصحابي البـاقون مـا ردد هـؤلاء.. فقـال رجـل من الجمـع: فماذا نفعل إذن.. كيف نبحث عن ربنا.. فلا يمكن لدعواتنا أن تصل إلا إلى الله الحقيقي.. هكذا أخبرنا الحكيم؟

أولا ـ الله

بعد صمت طويل ممتلئ بالألم، قام أحدنا، وكان – على ما يبدو – أكبرنا سنا، وقال: سأحدثكم أنا عن بعض لحظات الصدق التي عشتها عساها تكون مقدمة لبحثنا عن الله.. بل لا يمكن لمعرفتنا بالله إلا أن تؤسس عليها.

في البداية أعرفكم بأن اسمي (آرثر شوبنهاور)(1).. كنت في يوم من الأيام تلميذا من تلاميذ أكبر الملاحدة الذين عرفهم العالم.. فلذلك لم أكن أعرف الله، ولم أكن أؤمن بوجوده.

لقد امتدت بي هذه الحال أعواما طوالا.. كنت حينها أصيح بملء في ساخرا من المتدينين، أقول لهم عابثا أو ماجنا(2): (أنتم تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق.. ولا بد لكل صنعة من صانع.. ولا بد لكل موجود من موجد.. صدقت وآمنت.. ولكن أخبروني من خلق الله.. أم أنه جاء بذاته.. فإذا كان قد جاء بذاته، وصحّ في تصوركم أن يتم هذا الأمر.. فلماذا لا يصح في تصوركم ـ أيضاً ـ أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق، وينتهي بذلك

1) نشير به إلى (آرثر شوبنهاور) (1788-1860م)، وهو فيلسوف ألماني، ولد في دانزيج (غدانسك ببولندا).. أهم أعماله: العالم رغبة وعَرَض (عام 1819م، الطبعة الثانية عام 1844م). إضافة إلى مجموعة مقالات بعنوان باريرجا وباراليبومينا عام (1851م) جلبت له شهرة عالمية حتى نهاية حياته.

وقد اخترناه هنا بسبب كون آرائه من الدعائم التي اعتمد عليها الإلحاد في العصر الحديث، فقد كان فكره يدور حول (أن الدين هو من صنيعة البشر ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسبا وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية وأنه من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد فالاله الشديد البطش الذي أنزل 12 مصيبة على المصريين القدماء وقتل كل مولود أول ليخرج اليهود من أرض مصر هو ليس نفس الإله الذي ينصحك بأن تعطي خدك الآخر ليتعرض للصفع دون أن تعمل شيئا)

وقد تزامنت هذه الأفكار مع أبحاث تشارلز داروين الذي كان مناقضا تماما لنظرية نشوء الكون في الكتاب المقدس وأعلن فريدريك نيتشه من جانبه موت الخالق الأعظم وقال: إن الدين فكرة عبثية وجريمة ضد الحياة إذ أنه من غير المعقول أن يعطيك الخالق مجموعة من الغرائز والتطلعات وفي نفس الوقت يصدر تعاليم بحرمانك منها في الحياة ليعطيك إياها مرة اخرى بعد الموت.

2) بعض الحكاية المذكورة هنا منقولة بتصرف من كتاب (رحلتي من الشك إلى الإيمان...) لمصطفى محمود، وهو كتاب يؤرخ فيه المؤلف للطريق الذي سلكه للإيمان.

الإشكال الذي تطرحونه)

كنت أقـول هـذا وأنـا ممتلئ زهـوا وفخـرا، فتصـفر من حـولي الوجوه، وتنطلق الألسـنة تمطـرني باللعنـات، وتتسـابق إليّ أحيانـا اللكمات.. أما أصحاب القلوب التقيـة فيكتفـون بـأن يسـتغفروا لي ويطلبون لي الهداية.. أما المتمردون، فيجدوني فرصتهم السـانحة، فيجتمعون معي ويتزلفون إلي.

لسـت أدري هـل كـان مـا أتفـوه بـه هـو حقيقـة مـا كـان يملأ وجـداني، أم أن زهـوي بعقلي الـذي بـدأ يتفتح، وإعجـابي بموهبـة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها كان هو الحـافز والمشـجع والدافع.. لست أدري.. وإلى الآن لا أزال لا أدري.

لكن الذي أدريه هـو أني رفضـت التسـليم بوجـود اللـه لسـبب واحد هو أني استغرقت في عبادة نفسـي، وأعجبت بومضـة النـور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبدايـة الصـحوة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الـذي كـان يتكرر كل يوم..

لقد غاب عـني حينهـا المنطـق الـذي كنت أدعيـه.. فلم أدرك ـ بسبب عبوديتي لنفسي ـ أني أتناقض مـع نفسـي إذ كيـف أعـترف بالخـالق، ثم أقـول: ومن خلـق الخـالق، فأجعـل منـه مخلوقـاً في الوقت الذي أسميه خالقاً، وهي السفسطة بعينها..

هذه بدايتي.. وقد احتـاج الأمـر مـني بعـدها سـنين طويلـة من الغرق في الكتب، والغرق في التأمل، والحوار مع النفس، وإعــادة النظر وتقليب الفكر على كل وجه لأقطـع الطريـق الشـائكة الـتي أيقنت من خلالها بوجود الله.

لم يكن الأمر سهلاً.. لأني لم أشأ أن آخـذ الأمـر مأخـذاً سـهلاً.. فلـو أني أصـغيت إلى صـوت الفطـرة، وتـركت البداهـة تقـودني لأعفيت نفسـي من عنـاء الجـدل.. ولقـادتني الفطـرة إلى اللـه.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطـرة حتى صار همساً، وارتفع صوت العقـل حـتى صـار لجاجـة وغـروراً

واعتداداً..

لقـد كنت أردد في تلـك الفـترة مـع سـميي (آرثـر شـوبنهاور) دعواه بأن الدين بمـا يحملـه من العقيـدة في اللـه هـو من صـنيعة البشر ابتكروه لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظـواهر طبيعيـة أو نفسية أو اجتماعية.. وأن الغرض منه لا يعدو تنظيم حياة مجموعـة من الناس حسـب مـايراه مؤسـس الـدين مناسـبا، وليس حسـب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية.

وكنت أردد مع كارل ماركس بأن الدين أفيون الشـعوب.. فهـو يجعل الشعب كسولا وغـير مـؤمن بقدراتـه في تغيـير الواقـع، وأن الـدين تم اسـتغلاله من قبـل الطبقـة البورجوازيـة لسـحق طبقـة البسطاء.

وكنت أردد مـع سـيغموند فرويـد دعـواه بـأن الإلـه وهم كـانت البشرية بحاجة إليه في بداياتها، وان فكرة وجود الالـه هي محاولـة من اللاوعي للوصـول إلى الكمـال في شـخص مثـل أعلى بـديل لشخصية الأب.

كانت الصيحة التي غمرت العـالم حينهـا هي.. العلم.. وليس إلا العلم.. ولا شيء غير العلم.

كان أكثر المثقفين يصيح: (لنرفض الغيبيات، ولنكف عن إطلاق البخور، وترديد الخرافات)

وكان كثير من العامة يـردد: (من يعطينـا الـدبابات والطـائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات)

قام رجل من الجمع، وقال: لكأنك تتحدث عن الكثير منا.. كلنـا ذلك الرجل.. كلنا قد بهرنـا العلم.. وكلنـا قـد بهرتنـا منجـزات هـذه الحضارة حتى انصرفنا انصرافا كليا عن الله..

والشأن ليس في أن تحدثنا عن هـذا.. وإنمـا الشـأن أن تحـدثنا في كيفية خروجك منه.

قال آرثر: صدقت.. فما يجديكم أن تعرفوا ذلـك الماضـي المـر

الذي عشته.. ولذلك سأمر بكم إلى المسلك الذي أخرجني الله بـه من تلك الدوامة العنيفة التي كنت أتقلب فيها.

في يوم من الأيام.. ولست أدري السبب.. شعرت بنـور يقـذف في قلبي يدعوني إلى البحث عن الله(1)..

وقد ارتبط ذلك بظروف كثيرة جعلتني أراجـع نفسـي، وأراجـع كل الأفكار التي كنت أحملها..

وقـد رأيت بعـد بحث طويـل ومراجعـات كثـيرة أن وجـود اللـه قضية يقينية لا تختلف في قوتها عن كل القضايا الـتي نسـلم لهـا.. بل نرمي بالجنون والسفسطة من ينكرها.

لقــد رأيت العلم والعقــل جميعــا يتظــافران على الدلالــة على وجود الله.. بل على الدلالة على أن وجـود اللـه هـو أعظم حقيقـة في هذا الوجود.

1 ـ العلم

قال رجل منا: أليس العلم هو الـذي صـرفك عن اللـه.. فكيـف

---

1) نشير بهذا النور إلى ما وضـعه اللـه في فطـرة الإنسـان من المطالبـة كـل الحين بالبحث عن الله واللجوء إليه، وهو ما يشير إليه قوله تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (لأعراف:172)

وقد ورد في الحديث ما يدل على هذا، فقد سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (الأنعام: من الآية125) قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: (نور يُقْذَف فيه، فينشـرح لـه وينفسـح)، قـالوا: فهـل لـذلك من أمـارة يُعرف بها؟ قال: (الإنابـة إلى دار الخُلُـود، والتَّجَـافِي عن دار الغـرور، والاسـتعداد للمـوت قبل لقاء الموت) (تفسير عبد الرزاق (1/210) ورواه الطبري في تفسيره (12/99) من طريق عبد الرزاق به)

وقد أشار الغزالي إلى تأثير هذا النور في إخراجه من حالـة الشـك الـتي عرضـت لـه، فقـال في (المنقـذ من الضـلال): (لمـا خطـر لي هـذه الخـواطر، وانقـدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليــل إلا من تركيب العلوم الأولية. فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الـدليل. فأعضـل الـداء، ودام قريبــاً من شــهرين، أنــا فيهمــا على مــذهب السفســطة بحكم الحــال، لا بحكم النطــق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصـحة والاعتـدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتـاح أكـثر المعـارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة)

تزعم أن العلم هو الذي دلك على الله؟

قال آرثر: لقد ذكرت لكم أني في الفترة التي تخليت فيها عن زهوي وكبريائي راجعت كل ما كنت أعرفه من معلومات كانت تحجبني عن الله.. فوجدت من يدلني على العلم الصحيح البديل الذي لا يدل إلا على الله[1].

سأضرب لكم أمثلة على التطورات الكثيرة المتلاحقة التي قضت على كل ذلك الزهو الذي كان يملأ أقطار نفسي بسبب العلم الذي نلته من أساتذتي القدماء:

المادة:

وسأبدأ لكم حديثي بالنظريات المرتبطة بالمادة..

لقد كان النظام الذي تعلمته في الفيزياء هو نظام نيوتن[2].. وقد تعلمت من هذا النظام ثلاث حقائق: المادة، والمكان، والزمان.

أما المادة، فقد رأيتها ــ حسب نظر نيوتن ــ مكونة من جسيمات كبيرة وصلبة ومتحركة وغير قابلة للاختراق وذات أحجام وأشكال مختلفة.. أما خواص المادة فقد عدد لي نيوتن منها:

1) استفدنا الكثير من المعلومات حول التطور العلمي هنا من كتاب (العلم فى منظوره الجديد)، وهو كتاب من سلسلة (عالم المعرفة) التى كان يصدرها المجلس الوطنى للثقافة بالكويت، وعنوان الكتاب الأصلي هو (The New Story of Science)، من تأليف Robert M. Augros وGeorge N. Stanciu.

وقد قام بترجمة الكتاب الأستاذ (كمال خلايلى) الذى عرف الهدف من الكتاب بقوله في (ص7): (صنف هذا الكتاب اثنان من الأساتذة المعروفين فى أمريكا الشمالية أحدهما متخصص فى فلسفة العلوم والآخر فى الفيزياء النظرية، والهدف الذى يرمى إليه المؤلفان هو هدم أركان المادية العلمية، تلك النظرية الكونية التى استهلها فرانسيس بيكون وجاليلو فى مطلع القرن السابع عشر، واستمرت إلى العقود الأولى من القرن العشرين، ثم إثبات وجود الله تعالى، وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التى انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين المعاصرين فى مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا ومبحث الأعصاب وجراحة الدماغ وعلم النفس الإنسانى.

2) هو السِّير إسحق نيوتُن، (1642-1727م). عالم رياضيات وفلكي إنجليزي، اكتشف كيفية تماسك مكونات الكون بعضها ببعض من خلال نظريته عن الجاذبية، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعًا من الرياضيات يسمى حساب التفاضل والتكامل.

التمدد، والصلابة، واللااختراقية، والقصور الذاتى..

وكنت أوقن إلى جانب هذا ـ على حسب ما تعلمت من نيوتن ـ أن طبيعة هذه الجسيمات ـ أى الذرات ـ وخواصها ثابتة إلى الأبــد.. وأن الذرة هي أصغر جسيم يمكن تصوره.

أما الزمان والمكـان فكلاهمـا ــ ــ على حسـب مـا تعلمت من نيوتن ـ حقيقتان مطلقتان، وأنهما سيظلان كوجودين حتى لو فنيت كل الأشياء المادية فى الكون..

أما التغيرات الحاصلة للمادة، فقد قصرها لي نيوتن على مجرد عمليات انفصال هـذه الجسـيمات الثابتـة، وعلى عمليـات اتحادهـا وحركاتها الجديدة.

وفسر لي كيفية طروء التغيرات بـأن القـوانين الطبيعيـة تنظم حركة المادة في إطار الزمان والمكان المطلقين.

ووصف لي الهدف المثالي لنظامه قائلاً: (إن استخلاص مبدأين عامين أو ثلاثة مبادئ عامة للحركة من الظـواهر، ثم إظهـار كيفيـة انبثاق خواص ونشاط جميع الأشياء المادية من هذه المبـادئ الـتي يكــون قــد تم اســتجلاؤها، ســيمثلان خطــوة كبــيرة في ميــدان الفلسفة)

لقد كنت شديد الإعجاب بكل هـذه الحقـائق الـتي تعلمتهـا من نيوتن.. ولم أكن فريدا في ذلك.. فقد حقق نظام نيوتن نجاحــاً في العديد من المجالات، ولاسيما في مجالي الفيزياء والكيمياء، وتمت له الغلبة بشرحه ظواهر الحركة والحرارة والضوء والكهرباء.

ولكن هــذا الإعجـاب لم يتوقــف عنــد المعــاني الـتي طرحهـا نيوتن[1].. فقد ولدت في تلـك المعـارف كمـا ولـدت في كثـير من العلماء الذين تتلمذت عليهم رغبة في توسيع نطاق هـذا الأسـلوب في الشـرح بحيث يشـمل جميـع حقـول المعرفـة بمـا فيهـا علـوم

1) نحب أن ننبه هنا إلى أن نيوتن لم يكن ملحدا، بل حاول أن يحتفظ بمكان للألوهية في نظامه الميكانيكي الخاص بالسماوات، ففي رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشـارد بنتلي في عام 1692 أكد له فيها على أن الله ضروري لإحداث حركـة الكـواكب وإرسـاء البنيـة الأصلية للمجموعة الشمسية قائلاً: (إن حركـات الكـواكب الراهنـة لا يمكن أن تكـون قـد انبثقت من أي علة طبيعية فحسب، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة)

الأحياء والنفس والتاريخ والإقتصاد.

وقد أسفرت إمكانية الكشف عن أسرار جـزء كبـير من العـالم الطـبيعي، بـافتراض وجـود المـادة وحـدها عن دفـع بعض العلمـاء تدريجيا إلى اعتبـار المـادة جـزءا من الأسـلوب العلمي ذاتـه، على نحو جعل الباحث العلمي، بصرف النظر عن معتقداتـه الشخصـية، يمضي في حججه العلمية على أساس افتراض كون المادة وحـدها هي الحقيقة، أو أنهـا، على الأقـل، كـل مـا يمكن معرفتـه بطريقـة علمية.

وقد كتب لهذا البرنامج البقاء وحقق بالفعل آمالاً كبيرة.. وكــان لدى العلماء في القرن التاسع عشر كل مـا يـدعوهم إلى الإعتقـاد بأن القرن العشرين سيكمل بنـاء هـذا النظـام، بـل كـان كثـير من علمـاء الفيزيـاء يعتقـدون أن دورهم في تقـديم هـذا التفسـير قـد اكتمل أساساً.

قال رجل منا: فهل خيب القرن العشرون ما كان يأملـه علمـاء القرن التاسع عشر؟

قال آرثر: أجل.. فالاكتشافات الجديدة لم تكمل فيزيـاء نيـوتن، بل أطاحت بها:

فقد هدم أينشتاين في عام 1905 ركنين أساسيين من أركــان النظام القديم.. فنظرية النسـبية الخاصـة قـادت علم الفيزيـاء إلى التخلي إلى الأبد عن فكرتي المكـان المطلـق والزمـان المطلـق.. ذلك أن أينشتاين أثبت أن علاقات المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بوصفها الموقف الشخصي للمراقب ولظروفـه المادية..

أما السمات الأخرى لنظريـة النسـبية الخاصـة، كتكـافؤ المـادة والطاقـة، فهي في الواقـع نتـائج مترتبـة على محوريـة المـراقب.. وبفضل النسبية الخاصة أضحى المراقب ـ فجـأة ــ جـزءا أساسـياً من عالم الفيزيـاء، ولم يعـد في مقـدور البـاحث العلمي أن يعتـبر نفسه متفرجاً حيادياً كما في نظام نيوتن.

ثم حـدثت ثـورة متشـابهة في فيزيـاء الجسـيمات، فقـد أثبت

إيرنست رزرفورد عـام 1911 أن الـذرة تتكـون من نـواة متناهيـة الصغر يحيط بها حشد من الإلكترونيات.

لقد حاول الفيزيائيون ـ حينها ـ أن يفسروا تركيب الذرة استناداً إلى فيزياء نيوتن، غير أن كل محاولة من محـاولاتهم كـانت تسـفر عن تناقضـات تبعث على الإحبـاط.. وقــد أدى هــذا الفشــل إلى التخلى كلياً عن نظام نيوتن على المسـتوى الـذري، وإلى التعجيـل بتطـوير (ميكانيكـا الكم)[1] في العشـرينات من هـذا القـرن على أيدي علماء من أمثال نيلزبور وفـيرنر هـابزنبرغ، وبمجيء ميكانيكـا الكم تضاعفت أهمية دور المراقب في النظرية الفيزيائية..

لقد قـال الفيزيـائي مـاكس بـورن[2] يعـبر عن ذلـك: (لا يمكن وصــف أي ظــاهرة طبيعيــة في مجــال الــذرات إلا بــالرجوع إلى المراقب رجوعاً لا إلى سرعته فحسب كما في حالة النسـبية، بـل إلى جميع أنشطته لدى قيامـه بالمراقبـة وبـتركيب الآلات ومـا إلى ذلك)

وهكـذا أصـبحت أصـغر جسـيمات المـادة غـير قابلـة للتعريـف بمعزل عن خيارات وأفعال المراقب الذى هـو ضـرورى لا كشـاهد فحسب، بل كمشارك أساسي.

وقد وصف فيغنر وجهة نظر النظـام القـديم فقـال: (كـان جـل العلماء الطبيعيين إلى عهد غير بعيد، ينكرون بشدة وجود العقل أو الروح على أن النجاح الباهر الذي حققـه علم الفيزيـاء الميكانيكيـة والعيانيــة بصــورة أعم، وكــذلك علم الكيميــاء، قــد حجب الواقــع الجلي، ذلك الذي يقول أن الأفكار والرغبات والعواطف ليست من

---

1) ميكانيكا الكم: هي ميدانٌ من ميـادين علم الفيزيـاء، يصـف تـركيب الـذرّة وحركـة الجسيمات الذرية، ويوضح كيف تمتص الذرات الطاقـة في شـكل ضـوء، وكيـف تطلقهـا، ويوضح طبيعة الضوء.. وهي تتجاوز الحدود القصوى للفيزيـاء التقليديـة، الـتي تقـوم على أساس القوانين التي صاغها نيوتن.. وهي تُعد من المُنجَزَات العلمية الكبرى الـتي تحققت في القرن العشرين.. وبالإضافة إلى أهميتهـا النظريـة، فقـد سـاهمت في تطـوير أجهـزة عملية مثل أجهزة الليزر والترانزستور، كما مكنت العلماء من تحقيق فهم أفضل للروابط والتفاعلات الكيميائية.

2) هو مَـاكْس بُـورن (1882 ـ 1970م) فيزيـائي ألمـاني أدى دوراً كبـيراً في تطـوير ميكانيكا الكم.. في عام 1954م نال جائزة نوبـل للفيزيـاء مناصـفة مـع فالتربوتـا تقـديرًا لأعماله.. ساهم بورن أيضاً في مجالات علم البلـورات والبصـريات. وحصـل على شـهادة دكتوراه من جامعة جتجين عام 1907م. وُلد في برسلو، بألمانيا (حالياً روكلاو في بولندا)

صنع المادة، وكان مقبولاً عند العلماء الطبيعيين على نحو يشبه الإجماع إن لاشيء هناك سوى المادة)

ونتيجة لهذا، فإن نظرية النسبية وميكانيكا الكم تمثلان خروجا مشتركاً بينهما على تفسير نيوتن بإدخالهما العقل في المعادلة.

وهكذا حلت الفيزياء في القرن العشرين تدريجياً محل المذاهب المادية بتأكيدها أن الفكر يقوم بدور جوهري في الكون، وأنه لأمر مثير حقاً أن يصدر هذا التأكيد عن علم الفيزياء.. فلو قدر للمادة أن تصادف نجاحاً في أي مكان لتوقع لها المرء أن تنجح في مجال دراسة المادة ذاتها.

العقل:

بعد أن انهار كل ذلك البنيان الذي كنت أبنيه على المادة.. وبعد أن عرفت حاجة المادة إلى العقل رحت أبحث عنه (1)..

لقد كانت نظرتي البدائية إلى العقل في غاية البساطة والتفاهة.. وكانت مرتكزة على ذلك الأساس المادي الذي كنت أفسر به الكون جميعا..

لقد كنت أرى بأن جميع الأشياء الطبيعية تنشأ في نهاية المطاف عن تفاعلات بين جسيمات تتكون منها هذه الأشياء.. فالماء سائل لأن جزيئاته تنزلق بجانب بعضها بعضا بقليل من الاحتكاك.. والمطاط متمغط لأن جزيئاته بحكم مرونتها تغير شكلها بسهولة.. وهكذا قست الأمر على العقل.

وقد أكد لي هذا النظر أساتذتي الكبار الذي تتلمذت على أيديهم..

منهم عالم الأحياء الشهير توماس هـ. هكسلي(2).. لقد علمني هذا الأستاذ أن الأفكار التي أعبر عنها بالنطق، إنما هي عبارة عن

---

(1) انظر: (العلم فى منظوره الجديد)

(2) هو تُومَاس هِنرِي هَكْسِلِي (1825 - 1895م). عالم حيوان ومحاضر ومؤلف.. وكان من الذين مالوا إلى نظرية تشارلز داروين التحليلية الخاصة بالتطور العضوي، كما أنه توسّع في هذه النظرية ودافع عنها.

تغيرات جزيئية.. فخير طريقة للبحث في العقـل هي إظهـار كيفيـة انبثاق العقل من المادة.

لقد كنت أحمل مع هذه التصورات مفـاهيم خاطئـة عن العقـل الإنساني.. فقد كنت أتصور أن العقل البشري لايسـتطيع أن يختـار بحرية، لأن المـادة لا تتصـرف إلا بضـرورة ميكانيكيـة.. ولهـذا فقـد كنت أميـل إلى تفسـير تصـرفات الإنسـان بلغـة الغريـزة، و(علم وظائف الأعضاء)، والكيمياء والفيزياء، لأنه لا مجال لحرية الاختيار.. فالتغيرات المادية هي التي تسبب الأفكار، لا العكس.

ومن المستلزمات التي نتجت عن هذه التصورات.. والتي كنت أوقن بها يقينـا لا شـك فيـه هـو أن لاشـيء في الإنسـان يمكن أن يبقى بعد الموت.. فإذا كان التفكـير والإرادة نشـاطين من أنشـطة الـدماغ، فليس هنـاك سـبب يجعلنـا نفـترض أن هـذين النشـاطين يمكن أن يستمرا بعد فناء الـدماغ.. وإذا كـان كـل جـزء من أجـزاء الإنسان مادة فلابد من أن يكون كل جـزء منـه عرضـه للفنـاء.. فلا خلود إلا للمادة.

ومـع كـل هـذا اليقين لم يكن لـدي ولا لأي أحـد من أسـاتذتي الكبار الذين لقنوني هذه التعاليم أي تفسـير لكيفيـة انبثـاق العقـل من المادة..

لقد كان أساتذتي الكبـار من علمـاء الفسـيولوجيا يتوقعـون أن يأتي المستقبل بالجواب.. ولكن الأيام والمراجعات لم تثبت صــدق تبؤاتهم..

لقــد جــاءت البحــوث الجديــدة الكثــيرة بكشــوف رائعــة عن الفسيولوجيا، ولكنها لم تكن بأي حال من النوع المتوقع.

لقد بـدأت المراجعـات بالسـير تشـارلز سـرنغتون الـذي يعتـبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة.. ونتيجـة بحوثـه الرائـدة في الجهاز العصبي والدماغ خلص شرنغتون إلى هذه النتيجة التي عـبر عنها بقوله: (هكذا ظهر فـرق جـذري بين الحيـاة والعقـل، فالحيـاة هي مسألة كيمياء وفيزياء، أما العقل فهو يستعصـي على الكيميـاء والفيزياء)

لقــد قصــد شــرنغتون بالحيــاة الإشــارة إلى التغذيــة الذاتيــة، واستقلاب الخلايا والنمو، فهو يذكر أن هـذه الظـواهر تتم بواسـطة قوانين الفيزياء والكيمياء، ويمكن تفسيرها بلغة هذين العلمين، أمـا أنشطة العقل فهي تتجاوز آليات الفيزياء والكيمياء.

وعلى هـذا المنهج سـار السـير جـون اكلس، المتخصـص في مبحث الأعصاب، الذي عبر عن نتيجة أبحاثه بقوله: (التجارب الـتي تنم عن الوعي تختلف في نوعها كل الاختلاف عما يحدث في آليــة الأعصاب، ومع ذلك فإن مايحدث في آلية الأعصاب شرط ضروري للتجربة، وإن كان هذا شرطاً غير كاف)

سأورد لكم مثالا يقرب ما يريد أن يقوله اكلس وشرنغتون..

أجيبوني.. ماذا يحدث، مثلا، عندما يرى أحدنا شجرة؟

قال رجل منا: تدخل أشـعة الشـمس المنعكسـة من الشـجرة في بؤبؤ العين، وتمر من خلال العدسة الـتي تركـز صـورة مقلوبـة ومصغرة للشجرة على شبكة العين، فتحدث فيها تغيرات فيزيائيــة وكيميائية.

قال آرثر: فهل ترون هذا هو الإبصار؟

قال الرجل: هذا ما نعرفه عن الإبصار.

قال آرثر: لا.. ليس هذا هو الإبصار.. فلو سـلطنا هـذه الصـورة على عين فاقد الـوعي، فإنهـا سـتحدث نفس التغـيرات الفيزيائيـة والكيمائية، ومع ذلك لايبصر شيئا.. وبالمثل، تركز آلة التصوير على صـورة مـا، فيتعـرض الفيلم الموجـود في الآلـة لتغـيرات فيزيائيـة وكيميائية، ولكن آلة التصوير لاتبصر بـالمعنى الحـرفي في الألـوان والأشكال التي تسجلها.

قال الرجل: فكيف تفسر الإبصار؟

قال آرثر: إذا أردنا أن نفسر الإبصار فنحن بحاجة إلى أكـثر من ذلك.. فالشبكية - وهي صفحة من المسـتقبلات شـديدة الـتراص - تبدأ حين ينشطها الضوء المنبعث من الشجرة بإرسال نبضـات الى العصب البصري الذي ينقلها بدوره إلى قشرة الدماغ البصرية..

قاطعه الرجل، وقال: إن ما تـذكره أيضـا يفسـر بلغـة الفيزيـاء والكيمياء..

قال آرثر: أجل.. ولكن أين مكان اللون الأخضـر من كـل هـذا؟ فالدماغ نفسه رمادي اللون أبيضه.. فكيف يسـتطيع أن يتلقى لونـا جديداً دون أن يفقد لونه السابق؟.. وكيف يستطيع الدماغ أن يبصر الضوء إذا كان مغلقاً ومعزولاً تماما عن أي ضوء؟

إن الأمر يكون معقولا لو أننا حين نوجه أبصرنا نحـو الشـجرة، لم نحس إلا بأزيز الكهرباء في أدمغتنـا.. ولكن النشـاط الكهربـائي والكيميائي لأدمغتنا الـذي يمكننـا من الإبصـار بطريقـة مـا لا نـراه، وبدلا من ذلك نـرى الألـوان والأشـكال والحركـات والضـوء، وكلهـا بأبعادها الثلاثة.. بل من العسير أن نتخيل كيف يمكن لأي من هــذه الأشياء أن تنشأ عن المواد الكيميائية والكهرباء.

لقد عرفت من خلال هذا وغيره أن عـالم الإحسـاس لا يتوقـف على عالم الفيزياء والكيمياء.. بل يتوقف على عوالم أخر أكــبر من أن نحيط بها..

سأقربها لكم بمثال.. أنتم تعلمـون أن وجـود كتـاب مـا يتوقـف على عناصر الورق والصمغ والحبر التي يتكون منهـا، ومن دونهـا لا يمكن أن يوجد الكتـاب.. ومـع ذلـك، فالكتـاب لا يُفهم فهمـاً كافيـاً بمجرد إجراء تحليل كيميائي للحبر ولألياف الورق.. حتى لـو عرفنـا طبيعة كل جزء من جزيئات الورق والحبر معرفة كاملة، فـإن ذلـك لايكشف لنا شـيئا عن محتـوى الكتـاب.. فمحتـوى الكتـاب يشـكل نظاماً أسمى يتجاوز عالم الفيزياء والكيمياء.

على هـذا النهج يؤكـد العلم في آخـر تطوراتـه أن أحاسيسـنا لا تتوقــف على أعضــاء الجســم، فلا يمكن حصــر الأحاســيس في الخواص الفيزيائية والكيميائية للمادة.

بعد أن اقتنعت بكل هـذا.. وبعـد أن علمت أن الإدراك الحسـى ليس هـو المـادة، ولا هـو من خـواص المـادة، وليس فى مقـدور المادة أن تفسره، رحت أبحث عن حقيقة العقل..

لقــد بــدأت ذلــك بــالبحث عن ســائر الطاقــات الحســية الــتي

يستخدمها العقل..

أنتم تعلمون أن الإدراك الذي يعني (المعرفة أو الوعى) يبدأ بالإدراك الحسى.. فالحواس الخارجية هى الأساس الأول لكل المعارف الإنسانية ومصدرها.. ومن دون المعلومات الآتية من هذه الحواس لا يكون لدى الذاكرة أى شىء تتذكره، ولا للخيال أى شيء يتصوره، ولا للعقل أى شىء يفهمه.

وإلى جانب الحواس الخارجية نجد تحت تصرفنا مجموعة كبيرة من ملكات الإحساس الداخلى.. يدل على ذلك أننا نملك القدرة على المقارنة بين الإحساس بالبياض وبحلاوة الطعم مع عظم الفارق بينهما.. فالعين تدرك البياض، ولا تدرك الحلاوة، واللسان يدرك الحلاوة، ولا يدرك البياض، فلا اللسان ولا العين يستطيعان التمييز بين البياض والحلاوة، لأن أيا منهما لا يدرك الاثنين معا، وما من حاسة خارجية تستطيع أن تؤدى هذه المهمة.. فلذلك لا بد من أن تكون فينا حاسة داخلية تستطيع أن تدرك جميع الصفات التى تدركها الحواس الخارجية، وأن تميز بينها.

ونحن كذلك نملك القدرة على أن نستدعى أمورا لم تعد حاضرة، فعملية التذكر شىء حاضر بالفعل، ولكن الشىء الذى نتذكره ليس كذلك، إذ أن إدراكنا الحسى الأصلى قد زال على نحو ما، ولكنه مع ذلك تحت تصرفنا، فالذاكرة لا تستحضر التجربة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصفها حدثا ماضيا، وتستطيع ترتيبها من حيث صلتها بتجارب أخرى ماضية.. بل إن المدهش هو قدرتنا على أن نجعل أنفسنا نتذكر الشىء المنسى.

بالإضافة إلى كل هذا.. فالخيال ملكة حسية داخلية أخرى نستطيع بواسطتها أن نتصور لا الأشياء المدركة بالحواس فحسب، بل الأشياء التى لا تدركها هذه الحواس كجبل من ذهب أو فيل بحجم البرغوث، فالخيال، بخلاف الذاكرة، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخارجية بحرية وبطريقة إبداعية.

بالإضافة إلى كل هذا، فلدينا على قدرات عجيبة على الإحساس بالعواطف، كالحب والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن، تربطنا بالعالم بطريقة أخرى مختلفة كذلك..

فكل عاطفة تنشأ من فعل ملكة حسية، سواء كانت حاسة خارجية كالخيال، أو الذاكرة.

بعد أن وصلت إلى كل هذا عرفت أني لم أصل بعـد إلى عقـل الإنسان.. فأكثر الحيوانات تمارس معظم القدرات المذكورة حـتى الآن..

لقد قلت لنفسـي: (إذا كـان الإنسـان أكـثر من مجـرد حيـوان، فمن المحتـوم أن تكـون هنـاك قـدرة خاصـة تمـيزه من سـائر الحيوانات الأخرى)

لقد دلني على هذا نظري في مراتب الأحياء:

لقد عرفت أن النباتات تحرك نفسـها، ولكنهـا لا تـدرى إلى أين تمضـى.. وأن الحيوانـات تـدرك إلى أين تمضـى، ولكنهـا لا تعـرف السبب..

وقد دلني هذا على أنه ـ لإكمال مراتب الأحياء ـ لا بد من وجـود مخلوقات لا تعرف فقط إلى أين تمضى، ولكن لماذا تمضى أيضا..

وقد عرفت من خلال تأمـل بسـيط أننـا نحن البشـر هم الـذين نشكل هذه المخلوقات، والملكة التى تمكننا من فهم علل الأشـياء تسمى العقل أو الفكر، وهى تسـمى كـذلك سـلطان العقـل، لأننـا بواسطتها نتعرف على علل الأشياء، وما من قـوة حسـية تسـتطيع أن تؤدى هذه الوظيفة.. فاللسان، مثلا، يدلنا على أن البحـر مـالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.

والعقـل كـذلك يمكننـا من إدراك ماهيـة الأشـياء.. وهـو أمـر لا تستطيع الحواس القيام به، ولا ملكة الخيال ذاتها، فـإذا حاولنـا مثلا أن نتخيل ما هو الحيوان، فالصورة التى ترتسم فى أخيلتنا الحسية تختص بحيوان بعينه لـه صـفات محـددة من حيث الحجم والشـكل واللون، ومن المستحيل تكوين صورة حسية لما يشترك فيه جميـع الحيوانات، ومع ذلك فليس من المستحيل على العقل أن يفهم مـا هو الحيوان.

بالإضافة إلى هذا الرقي الذي يتميز بـه الإنسـان عن الحيـوان..

فإن هناك شيئا آخر لا يقل عن هذا أهميـة.. إنـه الإرادة.. فـالحيوان يتبع حكم الإحسـاس والعاطفـة، ولكن الإنسـان يتمتـع بقـدرة على الاختيار وفقا لما يفهمه عقلـه.. فالأعمـال الجريئـة الـتي يقـوم بهـا الإنسان تبرهن على أن الإرادة تفـرض نفسـها حـتى على الخـوف من الموت، فالعواطف تثيرهـا الحـواس، ولكن الإرادة تختـار وفقـا لما يراه العقل.. بل إننا كثيرا ما نقول إن فلانا من الناس قـد تغلب على عاطفته، لأنه كان عنده سبب وجيه للقيام بذلك.

بعد كل هذا.. وبعد أن ألغيت من عقلي كل تلك المفاهيم الـتي كانت تقيده، وتحمل صورة مشوهة عنه.. يسر الله لي أن أؤكد كل هذا بدليل حسي من خلال عمليات جراحية أجراهـا صـديقي ويلـدر بنفيلد(1) على أدمغة ما يربو على ألف مريض فى حالة الوعى.

لقـد كـانت ملاحظـات بنفيلـد حـول وظيفـة الـدماغ تفـوق فى حجيتها وكمالها جميع الأدلة السابقة غير المباشـرة المسـتفادة من بحوث أجريت على حيوانـات، ومن عمليـات جراحيـة أجـريت على أدمغة أشخاص مبنجين.

لقد اكتشف بنفيلد عام 1993 بمحض الصدفة أن تنبيه مناطق معينه فى الدماغ بالكهربـاء تنبيهـا خفيفـا يحـدث اسـترجاعا فجائيـا للذاكرة عند المريض الواعى.

لقـد سـاورت بنفيلـد الشـكوك أول الأمـر، ثم أخذتـه الدهشـة، فعندما لامس القطب الكهربائى قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسا يشاهد لعبة (بيسبول) فى مدينـة صـغيرة، ويـراقب ولدا صغير يزحف تحت السياج، ليلحق بجمهور المتفرجين، وهنـاك مريضة أخرى سمعت آلات موسيقية تعزف لحنا من الألحان.. لقـد حدثني بنفيلد عن هذا الخبر، فقـال:(أعـدت تنبيـه الموضـع نفسـه ثلاثين مـرة محـاولا تضـليلها، وأمليت كـل اسـتجابة على كاتبـه الاختزال، وكلما أعدت تنبيه الموضع كـانت المريضـة تسـمع اللحن من جديد، وكان اللحن يبدأ فى المكان نفسه، ويستمر من اللازمـة إلى مقطع الأغنية، وعندما دندنت، مصاحبة الموسيقا، كان إيقاعهـا يسير بالسرعة المتوقعة له)

---

1) هو بنفيلد، وايلدر جريفز (1891-1976م). اختصاصي أعصاب كندي.

لقد كان المرضى يحسون دائما بالدهشة لتذكر الماضى بمثل هذه التفاصيل الحية، ويفترضون على الفور أن الجراح هو المسؤول عن تنبيه الذاكرة التى ما كانت تتاح لولاه، وكان كل مريض يدرك أن التفاصيل هى من واقع تجاربه الماضية، وكان من الواضح أن الأشياء التى كان قد أولاها عنايته هى وحدها التى أودعها فى محفوظات دماغه.

وكان بنفيلد من وقت لآخر يحذر المريض أنه سينبه دماغه، ولكنه لا يفعل ذلك، وفى مثل هذه الحالات لم يكن المريض يذكر أى ردود فعل إطلاقا.

ونتيجة مراقبة مئات المرضى بهذه الطريقة انتهى بنفيلد إلى أن عقل المريض الذى يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بد من أن يكون شيئا آخر يختلف كليا عن فعل الأعصاب اللاإرادي، ومع أن مضمون الوعى يتوقف إلى حد كبير على النشاط، فالإدراك نفسه لا يتوقف على ذلك.

وباستخدام هذه الأساليب المراقبة استطاع بنفيلد أن يرسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسؤولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية غير أنه لم يكن فى المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة فى أى جزء من الدماغ، فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة، ولكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.

لقد أعلن بنفيلد عن نتائج أبحاثه قائلا: (ليس فى قشرة الدماغ أى مكان يستطيع التنبيه الكهربائى فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئا، والقطب الكهربائي يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقى، أو يحل مسائل فى الجبر، بل إنه لا يستطيع أن يحدث فى الذهن أبسط عناصر الفكر المنطقى، والقطب الكهربائي يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك، ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه، إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة، فواضح أذا أن العقل البشرى والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية)

قال رجل منا: لقد قدم بنفيلد بهذه الكشوف البرهان الحسي

على شيء كان من المستحيل أن يبرهن عليه بالحس.

قال آرثر: عندما يتخلى العلم عن كبريائه لابد أن يصل إلى هذه النتائج.. لقد كان بنفيلد كما ذكرت لكم صديقا لي.. وكان يؤمن بكل ما كنت أؤمن به من النظرية المادية.. وعندما انطلق في أبحاثه لم يكن له من غرض إلا إثباتها.. لكن الحقيقة التي أراد محوها أبت إلا أن تظهر على يده.. لقد قال معبرا عن ذلك: (طوال حياتى العلمية سعيت جاهدا كغيرى من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل)

الإنسان:

بعد أن عاد إلي عقلي الحقيقي.. عقلي الذي حجبني عنه العلم المغرور.. رحت أراجع تلك الأفكار الكثيرة التي كنت أحملها عن الإنسان.. والتي كانت تملؤه بالتشويه..

لقد كنت ـ قبل أن اكتشف عقلي ـ أعتقد أن المادة أساسية والعقل ثانوي.. ولذلك، فقد كنت أنظر نظرة زراية للعقل البشري في مقابل إعلاء لشأن الكون المادي اللامحدود واللاشخصي.. لقد كنت أقول كل حين: (من هو الإنسان.. إنه ليس شيئا إذا قيس بالأرض أو الشمس أو المجرة.. إنه تافه من حيث الحجم.. وغير ذي شأن من حيث القوة)

وكنت أقول كل حين: إن كوبرنيكوس[1] قد خلع الإنسان المغرور عن عرشه في مركز الكون، وأن عليه أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكباً تافهاً يدور حول نجم لا شأن له.

لكني بعد أن راجعت ما تعلمته من علم متخلصا من رداء الكبرياء الذي كنت أتوشح به رأيت الإنسان أعظم بكثيرة من تلك الصورة المزرية الحقيرة التي كنت أحملها عنه، ويشاركني في حملها أولئك الذين انبهروا بالعلم ولم يتثبتوا فيه.

---

1) كوبرنيكوس، نيكولاس (1473 ـ 1543م) عالم فلك بولندي، طور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.. ونحب أن ننبه هنا إلى أن ديفيد كينج اكتشف عام 1970م أن كثيرًا من النظريات المنسوبة لنيكولاس كوبرنيكوس هي للفلكي العربي ابن الشاطر (ت 777هـ، 1375م)، وبعد ذلك بثلاث سنوات (1973م) عثر على مخطوطات عربية في بولندا اتضح منها أن كوبرنيكوس قد اطلع عليها. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

لقد تحدث ويلر عن جملة الأكـوان، ولكنـه يشـير إلى أن عـدداً صغيراً جداً منهـا كـان يمكن أن يصـلح للحيـاة، وبعـد أن اسـتعرض دايسـن هـذا النمـط العـريض ينتهي إلى أن ذلـك يـدل على غايـة مسـتهدفة، لا على الصـدفة، قـائلاً: (كلمـا ازددت دراسـة للكـون وفحصاً لتفاصيل هندسية وجـدت مزيـداً من الأدلـة على أن الكـون كان يعرف بطريقة مـا أننـا قـادمون). فبعض الظـروف الضـرورية للحياة كان قد ركب تركيباً في الانفجار العظيم منذ بداية البداية.

ويؤكد ويلر أنه (لم يظهر سبب واحد يفسر لمـاذا يكـون لبعض الثوابت والظروف الأولية ما لها من القيم سوى أنه لـولا ذلـك لمـا تيسرت المراقبة كلما نعرفها)

وهو تبعاً لذلك، يتساءل قـائلا: (أليس من الأرجح أن نقـول إنـه ما من كون يمكن أن يبرز إلى حيز الوجود ما لم يكن مضـموناً لـه أن ينتج لحياة والوعي والشـهود في مكـان مـا ولمـدة قصـيرة من الزمن في تاريخه المقبل؟)

ويؤكد ويلر أن (ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجدية ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً، وهي أن المراقب لازم لخلـق الكـون لزوم الكون نفسه لخلق المراقب)

ومـع أن الإنسـان ليس ماديـاً فى مركـز الكـون فهـو علي مـا يظهر في مركز الغاية من خلقه(1)، وكما يقول إيرون شـرود نفـر، فالكون من دون الإنسان يكـون أشـبه بمسـرحية تمثـل في قاعـة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين.

والكون الذي يسـتهدف ظهـور الإنسـان يسـتلزم بداهـة وجـود عقل يوجهه، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسـها أن تهـدف إلى أي شيء..

---

1) مما يشير إلى هذا ما ورد في الأثر الإلهي: (لـولاك لمـا خلقت الأفلاك)، وهـو وإن جزم العلماء بوضعه إلا أن الشيخ القاري قال فيه: (لكن معناه صحيح فقد روى الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك مـا خلقت الـدنيا ، ولـولاك مـا خلقت النار)، وفي رواية ابن عساكر: (لولاك ما خلقت الدنيا)

ووجه الإشارة في هذا أن رسول الله ﷺ هـو المثـل الأعلى للإنسـان.. وبالتـالي تكـون غاية الكون هي الإنسان.. وغاية الإنسان هو المثـل الأعلى فيـه.. والمثـل الأعلى فيـه هـو رسول الله ﷺ كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)

ولهـذا، فـإن النظـرة العلميـة الدقيقـة تقـود مـرة أخـرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميـع نـواميس الطبيعـة وجميع خواص المادة إلى غاية..

وهذا ينـاقض تمامـا مـا كنـا ندعيـه في ميكانيكـا نيـوتن وجميـع الأجزاء الأخرى من الفيزياء الكلاسيكية الـتي صـيغت على نسـقها، والتي انطلقت من الافتراض القائل بأن المـرء يسـتطيع أن يصـف العالم من غير التحدث عن الله أو عن أنفسـنا، أي عن عـالم ليس وراءه عقل يدبره.. ولكن النظرة العلمية الدقيقـة بينت أن العكس هو الصحيح في كلتا الحالتين.. فالانفجار العظيم والمبـدأ الإنسـاني كلاهما يشير إلى وجود عقلين في كلا طرفي الكون.

الكون:

بعد أن عرفت الإنسان وقيمته.. رحت أبحث عن تصـوراتي عن الكون.. فلا شك أن الأخطاء المنهجية التي كنت أحملها أثناء بحـثي فيه قد تسربت إلى نظرتي إليه..

لقد وجدت تصوري البدائي للكـون هـو أنـه مجـرد كـائن مـادي عملاق لا غاية له..

وقد دعاني إلى هذه النظرة مـا كـان يسـيطر علي من منطـق الماديـة الـتي تنكـر الغائيـة.. ولـذلك فـإن الكـون في نظرهـا ليس سوى مـادة، وبالتـالي لا يمكن أن يكـون في الأشـياء الطبيعيـة أي هدف، لأن المادة لا تستطيع أن تقصد هدفاً أو ترسم خطة، بل هي تتصرف بضرورة ميكانيكية داخلية فحسب.

ولهذا، فإن التفسيرات العلمية تفرض على البـاحث أن يقتصـر على الأسـباب الماديـة والميكانيكيـة فحسـب.. فـبيكون وديكـارت كلاهما يستبعد من العلوم الطبيعية أي دعوة إلى الغائية[1].. يقــول بيكون: (إن مطلب الغائية يفسد العلـوم بـدلا من أن يـرقى بهـا).. ويقول ديكارت: (كل ضروب الغائية لا قيمة لها في الأشياء الماديـة أو الطبيعية)

---

1) هذا الرفض ـ كما هو معلوم ـ يستند إلى أسباب منهجيـة، لأن بيكـون وديكـارت لم يكونا من المؤمنين بالمذهب المادي أو من الملاحدة.

وانطلاقـا من هـذه النظـرة.. فإنـه لا مكـان للـه في مثـل هـذا الكون..

لقـد سـأل نـابليون الرياضـي والفلكي الشـهير بيـير سـيموت لابلاس[1] عن مكان الله في نظامـه الميكـانيكي الخـاص بـالأجرام السـماوية، فأجابـه بقولـه: (يـا سـيدي لسـت بحاجـة إلى هـذا الافتراض)

لقد كان العلماء في ذلك الحين يحتجـون لهـذا بـأن الكـون آلـة تدير نفسها بنفسها، وبالتالي لا تحتاج إلى أي سبب فوق الطبيعـة.. وإذا كانت المادة أزلية فلا يبدو أن هناك حاجـة إلى خـالق.. وهكـذا اعتبر الكثيرون أن الإلحاد أدنى إلى الصدق وأكثر اتساقاً مع العلم.

وفرويد كان أحد ممثلي هذا الموقـف من الـدين[2]، فهـو يعلن أن (أديــان البشــر يجب أن تصــنف باعتبارهــا وهمــاً من أوهــام الجماهير، فالإنسان في الأديان إنما يبحث عن مهرب من الواقع)

ويتابع فرويد حديثه قائلاً: (إن الأفكار الدينية نشأت من ضـرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة)

والناس في رأي فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم، بوصفهم أطفالاً، بحاجة ماسة إلى رعايـة أب، وهكـذا فإن الإنسان هو الذي يخلق الله، لا العكس.

وانطلاقا من هذا تنبأ فرويد بأن هـذه الطفوليـة مقـدور لهـا أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصي.

لم يدل على هذه النظرة ما ذكرته لكم من تصـريحات فقـط.. بل كانت نظرة سائدة لها ما ينشرها ويؤكدها في أذهان الجماهير.. ففي سنة 1875 كتب جـون و. دريـبر ــ وهـو أول رئيس للجمعيـة الأمريكية لعلوم الكيمياء ـ كتابه الذي يحمل عنوان (تـاريخ الصـراع

---

1) بيير سيمون لابلاس (1749 ـ 1827م). فلكي ورياضي فرنسي اشتهر بنظريتـه حول أصل النظام الشمسي.

2) وهـذا لا ينفي تشـبثه بيهوديتـه كمـا ذكرنـا ذلـك في مواضـع مختلفـة من هـذه السلسلة.. فاليهودية تتقبل مثل هذا النوع من الأفكار.

بين الدين والعلم).. وبعد ذلك بعشرين عامـاً، أي في 1895، ألـف أنـدرو د. وايت ــ وهـو أول رئيس لجامعـة كورنيـل ــ كتابـه (تـاريخ المعركـــة بين العلم واللاهــوت في المســيحية).. ويكفي عنوانـــا الكتابين دليلاً على الاتجاه السائد آنذاك.

في ذلـك الحين كـان أكـثر النـاس اعتــدالا من ينتســبون إلى اللاأدرية (أو الغنوصية).. بل إن لفظـة (لا أدريـة) كـانت من ابتكـار عالم الأحياء توماس هكسلي في عام 1869.

كانت هذه هي نظرتي عندما كنت مزهوا بالعلم فانيا فيه..

لكني بعد أن ارتـد إلي وعـيي وصـحوت من سـكرتي رأيت أن الأمر مختلف تماما.. وأن الكون لا يحمـل تلـك الصـورة المشـوهة التي حملها العلماء الذين سكروا بما اكتشـفوه من اكتشـافات عن حقيقة العلم.

لقد قال عالم الفيزياء الفلكيـة دنيس شـياماً يعـبر عن النظـرة الجديدة: (لعل أهم اكتشاف علمي من اكتشافات القرن العشرين هو أن الكون بأكملـه، بوصـفه كليـة واحـدة، قابـل للبحث العقلاني باستخدام أساليب علمي الفيزياء الفلك)

لقد تيسرت هذا بمجيء نظرية النسبية العامة لأينشــتاين، فهي ـ خلافاً لنظرية نيوتن في الفيزياء ـ قد جمعت بين الجاذبية والمكان والزمـان.. يقـول ويلـر: (لقـد علمنـا أينشـتاين أن المكـان عنصـر مشارك في الفيزياء، لا ميـدان للفيزيـاء فحسـب).. والأمـر نفسـه ينطبق على الزمان.

وعملية التوحيـد هـذه زودت الفيزيـائيين للمـرة الأولى بـأدوات البحث المفصل في بنيـة الكـون بأكملـه وفي أصـله ومآلـه.. فبعـد نشــر النســبية العامــة رأينــا الفلكي ويلم دي ســيتر، والرياضــي ألكساندر فريدمان يسـتنتجان كـل على حـدة، أن الكـون آخـذ في التمدد.

ثم جاءت إشارة ثانيـة من مجـال الفيزيـاء النوويـة.. فقـد كـان كيميــائيو القــرن التاســع عشــر يعرفــون أن الشــمس لا يمكن أن تحرق وقوداً تقليـدياً.. فـالاحتراق الكيميـائي العـادي لم يكن يصـلح

تفسيراً لطاقة الشمس، إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحماً لأحرقت نفسها في غضون ثلاثمائة عام..

وظلت الشمس لغزاً إلى حين اكتشاف الطاقة النووية في السنوات الأولى من القرن العشرين عندما تمكن الفيزيائيان هانز بيته، وكارل فون فايتزساكر في عام 1938 من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية.

وأخيراً، تقدم الفيزيائي جورج غاموف في عام 1948، بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم، برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه اسم (الانفجار العظيم)

لقد زودنا العلم من خلال هذه الكشوف الكثيرة أن عالمنا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، وفي جزء من السكستليون (أي 6 على مليون) من الثانية.. بعد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذي يشغله بروتون واحد.. وكانت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال.. تصوروا أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها، وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواة في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً.. وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق.. وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة..

لا ينبغي أن تتصوروا أن الانفجار العظيم أحدث تمدداً في المادة في مكان قائم بالفعل.. فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان.. وهذا يمكن أن يفهمه العقل، ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال.

عندما ظهرت هذه النظريات هب الكثير ممن لا زالوا سكارى العلم المتكبر.. ليتداركوا ما لقنه لهم أساتذتهم.. فراحوا يضعون نظريات بديلة في أصل الكون لاستنقاذ أزلية المادة..

لكن كل تلك النظريات باءت بالفشل.. وثبت علميا أن المادة ليست أزلية بالرغم من كل شيء.. هكذا أعلن عالم الفيزياء

الفلكية جوزف سلك حين قال: (إن بداية الزمن أمر لا مناص منه)

وهكــذا أعلن الفلكي روبــرت جاســترو حين قــال: (سلســلة الحـوادث الـتي أدت إلى ظهـور الإنسـان بـدأت فجـأة وبعنـف في لحظة محددة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة)

لقد جعلني هذا أبحث عن إله يحكم هذا الكون.. فقد كانت كـل الدلائل تدل عليه.. وصار كـل العلمـاء الـذين لقحـوا أنفسـهم ضـد فيروس الكبر يعترفون به..

يقول الفيزيائي ادمونـد ويـتيكر: (ليس هنـاك مـا يـدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجـودتين قبـل الانفجـار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الـذي يمـيز تلـك اللحظـة عن غيرهـا من اللحظـات في الأزليـة؟ والأبسـط أن نفـترض خلقـاً من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم)

وينتهي الفيزيائي إدوارد ميلن بعد تفكـره في الكـون المتمـدد، إلى هذه النتيجة: (أما العلة الأولى للكـون في سـباق التمـدد فـأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غــير الله)

2 ـ العقل

بعد أن عجزت معارفي العلمية أن تقاوم الأدلـة الكثـير الـتي لا تدل إلا على الله.. وبعـد أن شـعرت بحلاوة وجـود اللـه.. وشـعرت بأن البحث عنه لا يقل عن البحث عن أي حقيقة من حقائق الوجود التي نتفانى في البحث عنها مع أنه قد لا توجد بيننا وبينها أي صلة.. تحركت في عزيمة شديدة إلى خوض غمار البحث عن الله..

لكني بعد أن علمت هذا.. وشعرت بهـذا.. وعـزمت على هـذا.. جاءت جحافل الشياطين تريد أن تعترضني بالوساوس والشبهات..

في ذلك الحين شعرت بآلام كثيرة.. ولم تطل تلك الآلام إذ أني ومن غير أن أقصد سمعت رجلا يقول، وأنا في السـوق: (في بلـدة

من البلاد.. يقــال لهــا (الله أباد)(1) يــذوب الإلحــاد، وتنتفي وســاوس العباد)

أسرعت إلى الرجل أسأله عن هذه البلدة العجيبة الـتي يـذوب فيها الإلحاد، فابتسم الرجـل، وذكـر لي أنـه لم يقـل شـيئا، وأن مـا سمعته منه قد لا يكون سوى بعض تلك الأحاديث التي نسمعها من غير أن نعرف مصدرها.

لكني صممت أن أبحث عن مدينة تحمل ذلك الاسم.. فســألت عنها.. إلى أن وجدت من يدلني عليها..

عندما دخلت إليهـا تعجبت من نظامهـا البـديع وجمالهـا البـاهر، فقلت لنفسي: أيمكن لمن يعيش في مثل هـذه البلـدة المتطـورة أن ينشغل بالله؟

فأمسك بيميني رجل منهم، وقال: لاشك أنك تبحث عن الله..

قلت: وما أدراك؟

قال: لا يقصدنا هذه الأيام أحد إلا لأجل هذا.

ضحكت، وقلت: وهـل حـل (اللـه) ببلادكم حـتى تـأتي الخلائـق لتزوره(2)؟

تغير وجهه تغيرا شديدا، وقال: اللـه أعظم من أن يحـل ببلـدة، فالله لا يحيط به المكان ولا الزمان.. وكيف يحيـط بـه، وهـو الـذي خلق المكان والزمان.

قلت: فما الذي تقصد بزيارة الخلق لبلادكم بحثا عن الله؟

قال: أنت تعلم أن للإلحاد سوقا في هـذا الزمـان، وأنـه ينتشـر

---

1) الله أباد، اسم فارسي يعني (مدينة اللـه)، وأقصـد بهـا مدينـة رمزيـة، وهي في الواقع إحدى مدن ولاية أوتار براديش الـتي تقـع في شـمال الهنـد، وهي المركـز الإداري لمقاطعة الله أباد.

2) لم نذكر مثل هذه التعابير في هذا المحل إلا للضرورة التي استدعته، وإلا فلا يجوز الحديث عن الله بمثل هذا..

في بلاد الله كما ينتشر النار في الهشيم..

قلت: أعلم ذلك.

قال: لقد تعذب الخلق بهـذا.. ولهـذا تـراهم يبحثـون عن اللـه.. ويبحثـون عن الأدلـة على وجـوده وكمالـه ليقضـوا بهـا على تلـك الوساوس التي ملأهم بها الشياطين.

قلت: أعلم كل ذلك.. ولكني أتساءل عن علاقة ذلك ببلدتكم.

قـال: عنـدما رأى رجـال من أهـل اللـه من هـذه البلاد مـا حـل بالخلق راحوا يبحثون في موازين العقول عن الأدلة التي تنفي كـل شبهة، وتقمع كل وسواس.. ونحن نسميهم هنا (المتكلمون).. وهم حقيقـة (متكلمـون)، فلـديهم من القـدرات العقليـة.. ولـديهم من طرائق الإقناع الحقيقي لا الوهمي ما يملـؤك بـالعجب.. وهم فـوق ذلـك نـذروا أنفسـهم للـه، فلا تـراهم يحـامون إلا عنـه، ولا تـراهم ينتصرون إلا له.

قلت: لقد شوقتني إليهم.. فدلني عليهم.

قـال: سـر فقـط في هـذه البلاد.. سـر في شـوارعها شـارعا شارعا.. فلن تعدم في أي شارع من أي متكلم.

قلت: وكيف أعرفهم والخلق كثير؟

قال: يسير ذلك.. حيثما رأيت الخلق مجتمعين، فثمة متكلمون.

قال لي ذلك، ثم انصـرف.. وقـد رأيت كـل مـا ذكـره لي.. فلم أسر في شارع من الشوارع، إلا ورأيت فيه من ينتصر لوجود اللــه، وينفي كل الشبه التي تقذفها الشياطين.

لن أحدثكم بكل ما سمعت.. سأكتفي بعشر منـاظرات فقـط.. لعل فيها ما يقنع أي عاقل..

وقد اخترت لكم ما يتناسب مع العقول المختلفة.. فالمتكلمون نهجوا مناهج مختلفة، لأنهم يخاطبون عقولا مختلفة.

المناظرة الأولى:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الأولى.

قال: في شارع من شوارع (اللـه أبـاد) رأيت قومـا من النـاس يلتفون حول رجلين(1)..

أما أحدهما، فيلبس ما يلبسه علماء الأزهر من ثياب.. وقد كانوا يطلقون عليه لقب (الباقلاني)(2).. ويظهـر من خلال حديثـه أن لـه براعة وخبرة طويلة في المناظرة.

وأما الثاني.. فهو ــ على مـا يبـدو ــ يونـاني الأصـل، فقـد كـان الناس يطلقون عليه لقب (ديموقريطس)(3)، ولست أدري هل هـو لقبه.. أم أنه تسـمى بـه تـأثرا بـذلك العـالم اليونـاني الكبـير الـذي ينسب إليه (المذهب الذري)(4)

---

1) تعمدنا في هذا المبحث أن نذكر في كل مناظرة حقيقيـة أو افتراضـية رجلين: أمـا أحدهما فيكون من المتكلمين وقد حاولنـا أن نختـار متكلمين من مـدارس مختلفـة لنـبين أنهم جميعا ـ مهما اختلفت مدارسهم ـ لا يقصدون إلا خدمة الحقيقة.

وأما الثاني، فهو من الملاحدة، باختلاف مدارسهم كذلك.. وذلـك لأن من مقاصـد هـذه الرسالة التأريخ للإلحاد والتعريف بالملحدين وشبههم.. وننبه هنـا كمـا نبهنـا مـرات كثـيرة إلى أن أكثر ما نذكره من مناظرات هي مناظرات افتراضية، وذلك حتى لا يرمينا أحد من الناس بالكذب والدجل.

2) نشير به إلى القاضي أبي بكر البـاقلاّني(338-403هـ)، وهـو محمّـد بن الطيّب بن محمّد بن جعفر، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسـة في مـذهب الأشـاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفيّ فيها. وقد قيـل: إنـه صـنف سـبعين ألـف ورقـة في الدفاع عن الدين.. كل ليلـة خمسـة وثلاثين ورقـة.. بيـد أن أشـهر كتبـه على الإطلاق هـو كتابه (إعجاز القرآن) الذي حدّد فيه مفهومه للإعجاز القرآني. (انظر: الأعلام وغيره)

3) نشـير بـه إلى ديمـوقريطَسْ (460؟ ق.م -370؟ ق.م)، هـو فيلسـوف مـادّي يوناني ، حاول أن يبرهن أنَّ العالم مكوَّن من عدد غـير محـدود من الـذَّرات، يتحـرك في فراغ لا حدود له. وهذه الذَّرات جُسَيمات من المادَّة غير المرئية، وغير القابلـة للانقسـام، وغير المولّدة أو القابلة للإتلاف. وتختلف عن بعضـها في الحجم والشَّـكل والوضـع. وكـل شيء في هذا العالم مكوّن من مجموعة مختلفة عن غيرهـا من هـذه الـذَّرات، وقـد جـاء عالمنا من تركيب عَرَضي لهذه الذَّرات. وبسبب وجود عدد غير محدود من الـذَّرات، فقـد وجدت عوالم أخرى أيضًا.

4) المذهب الذرّي هـو عبـارة عن فكـرة فلسـفية تطـوّرت في اليونـان خلال القـرن الخامس قبل الميلاد.. وهي ترى أن العناصر الأساسـية للحقيقـة تتشـكّل من الـذرة غـير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادة سابحة في الفضاء.. ويظنّـون أن الـذرّة لهـا حركـة، ولكنها تنعدم وترتدّ بعد ارتطامها. وقد تكوّنت الدنيا نتيجة هذه الحركـات. ووجـدت لفـترة من الزمن ثم اختفت. وهذه العوالم والأشياء الظاهرية التي وجـدت عليهـا تختلـف فقـط في الحجم والشكل وموضع ذراتها.

سأنقل لكم بعض ما وصل إلى سمعي من حديثهما:

قال الباقلاني لديموقريطس: أنت الآن تريـد أن تحـيي بيننـا مـا ذهب إليه ديموقريطس من أفكـار.. ولا ألومـك في ذلـك.. ولكـني أريـد أن أسـألك: هـل دعـاك لـذلك المنهج العلمي الـذي تفرضـه العقـول السـليمة، أم أنـه مجـرد تعصـب لرجـل تـزعم أنـه من أجدادك؟

قال ديموقريطس: بكليهما أنا أحتج.. ولكليهما أنا أجنح.

قال الباقلاني: لا أستطيع أن أنـاظرك في الثـاني.. فقـد علمنـا قرآننا أن المنهج الذي يعتمد على الآباء والأجداد منهج خاطئ، قـال تعالى يعاتب من استعمله:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَـالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَـا أَلْفَيْنَـا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ شَـيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:170)

قال ديموقريطس: وما يمنعك أن تناظرني، وقد ذكرت لك أني أجمع بين المنهجين.. ناظرني بالمنهج الذي تشاء منهما.

قال الباقلاني: أرى أن هذا لن يصل بنا إلى أي نتيجــة.. لأني إن أقنعتك بالأول عدلت إلى الثاني، ولا طاقة لأحد في الدنيا أن يغلبك في الثاني إلا إذا كانت لـه طاقـة إحيـاء المـوتى.. فيحـيي لـك هـذا الديموقريطس الذي حجب عقلك عن رؤية الحق والإذعان له.

قـال ديمـوقريطس: لا بـأس.. سأضـحي بآبـائي.. وأكتفي في المناظرة معك بما يراه عقلي.. عقلي المحرر من كل سلطة.

قال الباقلاني: الآن يمكن أن نتحاور.. فاعرض علي ما تراه من آراء لأناقشك فيها واحدا واحدا.

قال ديموقريطس: آرائي لا يمكن أن تفهمها إلا وهي في ســلة واحدة.. فلذلك سأعرضـها عليـك جميعـا.. ثم ناقشـني بعـدها كمـا تشاء.. أم أنك تعترض على هذا أيضا؟

قال الباقلاني: لا.. لك ذلك.. فلن أقاطعك حتى تنتهي من جميع حديثك.

قال ديمـوقريطس: مـذهبي الـذي أراه والـذي رآه قبلي جـدي المبجل ديموقريطس وأستاذه (لوقيبوس) وعنهما أخـذ أخـذ جميـع أساتدتنا المادّيين بعـدهما، حـتى فريـق المـادّيين المعاصـرين.. في تفسير الوجود هو أن الوجود واحد.. وأنه ينقسم إلى عدد غير متناهٍ من الوحدات غير المتجانسة وغير المدركة بـالحسّ، والواحـد منهـا هو الجوهر الفرد، أو الجزء الذي لا يتجزأ.

وهـذه الوحـدات غـير المتجانسـة قديمـة أزليـة، نظـراً إلى أن الوجـود لا يمكن أن يخـرج من العـدم الكلي المحض، وهي دائمـة أبديـــة، إذْ لا ينتهي الوجـــود إلى العـــدم الكلي المحض (اللاوجـــود مطلقاً)

والنفس عند جدي مادّيـة أيضـاً، وهي مؤلفـة من أدقّ الجـواهر وأسرعها حركة..

وكلّ ظواهر الوجود الكوني تتحكم بوجودها آلية الحركة الذاتيـة للوحدات غير المتجانسة التي يتألف منها الوجود كله.

لقـد مضـى جـدي ديمـوقريطس بالمـذهب الـذري إلى حـده الأقصى، ووضعه في صيغته النهائية، فقال: (إن كـلّ شـيء امتـداد وحركة فقط)

ولم يستثن في ذلك أي شيء.. لا النفس الإنسـانية.. ولا الآلهـة التي كان يعتقد بها أجدادنا اليونـانيّون.. فالآلهـة مركبـة من جـواهر كالبشر، إلا أن تركيبهم أدقّ، فهم لذلك أحكم وأقدر، وأطول عمـراً بكثير، ولكنهم لا يخلدون.

ابتســم البـاقلاني، وقـال: أنت عرضـت علي مـا يـراه جـدك وأساتذتك من أطروحات تفسر الوجود.. ولم تـذكر لي دليلا واحـدا يدل عليها.

قال ديموقريطس: هي بمنطقيتها وبساطتها تفسر الوجـود بمـا لا تحتاج معه إلى أي برهان.. فهي نفسها برهان على نفسها.

قال الباقلاني: فأذن لي أن أناقشك فيما ذكرته.. لأبين لك أنهـا مجرد هرطقات لا تستند إلى أي منطق، ولا إلى أي عقل.

لقد ذكـرت لي أن جـدك ذهب إلى أن العـدم الكلي المحض لا يمكن أن يتحول إلى الوجود بنفسه، وأن ما هو أزلي لا بد أن يكون أبـدياً.. وهـذا حـق لا يمكنـني أن أجادلـك فيـه.. لأن العـدم الكلي المحض لا يمكن ــ عقلاً وبداهـةً ــ أن يتحـوّل بنفسـه إلى الوجـود، فالعدم لا شيء، ويستحيل عقلاً أن يتحول اللاشيء إلى شيء.

ومـا هـو أزلي – أي: واجب الوجـود – لا يمكن أن تأتيـه حالـة يكون فيها ممكناً حتى يقبل فيها العدم.

انفـرجت أسـارير ديمـوقريطس عن ابتسـامة عريضـة، فقـال الباقلاني: لقد صدق جدك في هذا.. ولكنه لم يأت فيه بجديد، فكل العقول توقن بهذا..

قال ديموقريطس: ولكن جدي استنتج من هذا أزلية المادة.

ابتسم البـاقلاني، وقـال: مـا ذكرتـه هـو قـانون.. وإثبـات أزليـة المادة يحتاج إلى أدلة خاصـة تثبتهـا.. ولا توجـد مثـل هـذه الأدلـة.. فالمادّة بطبيعتها المتغيّرة والمتحوّلة القابلـة للتحليـل والـتركيب، لا تصلح أن تكون أزلية، وما ليس أزلياً فهو حادث، وما هو حادث لا بدّ له من مُحْدث.

قال ديموقريطس: فما أدلة الحدوث(1)؟

ابتسم الباقلاني، وقال: كما اعتمدت على جدك في آرائه.. فأنـا أيضا كان لي جد.. وكان له نفس لقبي.. وقد ذكر مع جميع أساتذته أربعة دعـاوى، لكـل دعـوى برهانهـا، وهي تشـكل جميعـا البرهـان الدال على حدوث الكون(2).

1) ذكرنا هنا أدلة المتكلمين.. والعلماء المحدثون يستدلون على الحدوث بـأن الكـون لو كان قديما لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقـف كـل نشـاط في الوجـود، وهـذا مـا يؤكـده العلم التجريـبي في (القـانون الثـاني للحـرارة الديناميكيـة)، والـذي ينص على أن الطاقة في الكون تقل تدريجياً بصورة مطردة.

2) هذا الدليل هو متمسك المتكلمين على اثبات حدوث العالم ، وهو مذكور في أكـثر كتب الكلام كالتمهيد للبـاقلانى، وأصـول الـدين لعبـد القـاهر البغـدادى، وشـرح المقاصـد للتفتازانى وشرح العضـدية للجرجـانى.. وقـد عـبر البـاقلاني عنـه باختصـار في الإنصـاف مستدلا له بالنقل، فقال: (يجب أن يعلم: أن العالم محـدث؛ وهـو عبـارة عن كـل موجـود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغـيره من حـال إلى حـال، ومن صـفة إلى صـفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسـول اللـه: أخبرنـا عن بـدء هـذا

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الأولى**، وما برهانها؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن العالم مكون من أجسام وأعراض.. فالأجسام هي ما قامت بنفسها.. والأعراض ما قامت بغيرها وهي الأجسام ومثالها الحركة والسكون والافتراق والاجتماع.

ولا أظن أنك تجادلني في هذا.. فالإنسان ـ مثلا ـ يبدأ نطفة، ثم يتحول علقة، فمضغة، ثم يكتمل خلقه فى رحم أمه، ثم يولد فيصير طفلا، فشابا، فكهلا، فشيخا، حتى يدركه الموت.. فكلها تغيرات مرتبطة بالزمن.. ويقاس على ذلك كل ما فى الكون من جزئيات.. فكل ما فى الكون متغير.

قال ديموقريطس: لا أجادلك في هذا.. فما **الدعوى الثانية**؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن الأعراض محدثة..

قال ديموقريطس: فما دليك على ذلك؟

قال الباقلاني: الدليل على ذلك أنها تعدم.. والقديم لا يعدم..

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدمها؟

قال الباقلاني: الحس هو دليلي على ذلك.. فنحن نشاهد كل ما هو متحرك ينعدم، فيسكن، وهكذا في الباقي.

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدم انعدام القديم؟

قال الباقلاني: الدليل على أن القديم لا ينعدم هو أن القديم إما أن يكون لذاته أو لغيره.. وليس من الجائز أن يكون القديم لغيره.. لأنه لو كان كذلك فمن حق هذا الغير الذي هو علته تقدم هذا القديم فيكون حادثا.

الأمر ؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق. وكذلك الخليل ﷺ ، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هَـذَا رَبِّي)(الأنعام: من الآية76) ، إلى آخر الآيات، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض)

وليس من الجائز أن يكون قدمها لذاتها، فـإذا كـان كـذلك فـإن ذاتها باقية، فيستحيل عدمها لكنها عدمت، فيلزم أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الثالثة**؟

قال البـاقلاني: الـدعوى الثالثـة، هي أن الأجسـام لم تخـل من الأعراض المحدثة، ولم تتقدمها في الوجود.

والـدليل على ذلـك أنهـا لـو خلت من الأعـراض المحدثـة أو تقدمتها في الوجود لجـاز أن يكـون الجسـم لا متحركـا ولا سـاكنا.. وهذا لا يمكن فإنه إن كان غير متحرك فمعناه أن يكون ساكنا.. أما أن يكون الجسم ساكنا وغير ساكن في آن واحد فهذا مستحيل.

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الرابعة**؟

قال الباقلاني: الدعوى الرابعة هي أن مالم يخـل من الحـوادث ولم يتقدمها في الوجود فهو حادث مثله.

والدليل على ذلك هو أن الحادث هو ما له أول، وكـان معـدوما قبلها، فلو كانت الأجسـام قديمـة، وهي غـير منفكـة عن الأعـراض لكانت الأجسام موجودة قبل وجود الأعـراض، وبالتـالي انفكت عن وجود الاعراض، وهذا خلف فتعين أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما تـرد على من من يجـيز حـوادث لا أول لها؟

قـال البـاقلاني: إن إثبـات حـوادث لا أول لهـا يلـزم عنـه ثلاثـة محالات(1)..

أما **الأول**، فإنه لو ثبت ذلك لكان قـد انقضـى مـا لا نهايـة لـه، ووقع الفراغ منه وانتهى، ولا فرق بين قولنـا انقضـى ولا بين قولنـا انتهى، ولا بين قولنا تناهى، فيلزم أن يقال قد تناهى مـا لا يتنـاهى، ومن المحال البين أن يتناهى ما لا يتناهى وأن ينتهي وينقضي مـا لا يتناهى.

وأما **الثاني**، فهـو أن دورات الفلـك إن لم تكن متناهيـة، فهي

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

إما شفع وإما وتـر، وإمـا لا شـفع ولا وتـر، وإمـا شـفع ووتـر معـاً.. وهـذه الأقسـام الأربعـة كلها محـال؛ والمفضـي إليها لا شـك أنـه محال..

إذ يستحيل عدد لا هو شفع ولا هـو وتـر، أو لا هـو شـفع ووتـر.. فإن الشفع هو الذي ينقسم إلى متسـاويين كالعشـرة مثلاً، والـوتر هو أحد الذي لا ينقسم إلى متساويين كالتسعة، وكـل عـدد مـركب من آحاد إما أن ينقسم بمتساويين، أو لا ينقسـم بمتسـاويين، وأمـا أن يتصف بالانقسام وعدم الانقسـام، أو ينفـك عنهمـا جميعـاً فهـو محال.. وباطل أن يكون شفعاً لأن الشـفع إنمـا لا يكـون وتـراً لأنـه يعوزه واحد، فإذا انضاف إليه واحد صار وتراً، فكيف أعـوز الـذي لا يتناهى واحد؟.. ومحال أن يكون وتراً، لأن الوتر يصير شفعاً بواحد، فيبقى وتراً لأنه يعوزه ذلـك الواحـد، فكيـف أعـوز الـذي لا يتنـاهى واحد؟

وأما **الثالث**، فإنه لو ثبت ذلك للزم عليه أن يكون عددان، كل واحد منهمـا لا يتنـاهى، ثم أن أحـدهما أقـل من الآخـر، ومحـال أن يكون ما لا يتناهى أقل مما لا يتنـاهى، لأن الأقـل هـو الـذي يعـوزه شيء لو أضـيف إليـه لصـار متسـاوياً، ومـا لا يتنـاهى كيـف يعـوزه شيء؟

قال ديموقريطس: دعنا من هذا.. وأجبني على ما ذكـره جـدي من أنّ هذا الوجود نشأ صدفة.

قال الباقلاني: سأجيبك بمـا ذكـره أحفـاد جـدك ممن هم أوفـر علما، وأقدر على البحث في هذا باعتبار تخصصهم فيه(1).

انتفض ديمـوقريطس غاضـبا، وقـال: أحفـاد جـدي!؟.. من تقصـد؟.. لا.. يسـتحيل أن يقـول أحفـاد جـدي هـذا.. لقـد قـال (هكسلى) ضاربا المثـل على إمكانيـة الصـدفة: (لـو جلسـت سـتة قردة أمام آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخـيرة الـتي كتبوهـا قصـيدة من قصـائد شكسـبير! فكـذلك كـان الكـون الموجـود الآن نتيجـة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين)

1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان.

قال الباقلاني: وما أدرى (هكسلى) بمثـل هـذا.. إن كلامـه هـذا يناقض ما أثبته كل الرياضـيين والعلمـاء الـذين يحـترمون أنفسـهم وبحوثهم.

قال ديموقريطس: فأخبرني بما قالوا.

قال البـاقلاني: لقـد قـال البروفيسـور (ايـدوين كـونكلين): (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجـة (حـادث اتفـاقي) شـبيه في مغـزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة)

ويقـول أحـد العلمـاء الأمريكـيين: (إن نظريـة الصـدفة ليسـت افتراضا وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهى تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهى تتضـمن قـوانين صـارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في إمكـان وقـوع حـادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقـوع ذلـك الحادث عن طريق الصدفة)

وقال أحد العلماء..

قال ديموقريطس: دعنـا من آراء الرجـال.. وأقنعـني بالحقيقـة التي تدل عليها العقول.

قال الباقلاني: صدقت.. فآراء الرجال لن تزيدنا إلى تيها..

ولهذا سأحاول إقناعك **بعدم إمكانية الصدفة** علميا بتصــوير ما تحتاجه الصـدفة لتحقيـق أي عمـل.. لـو تنـاولت عشـرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من1 إلى 10، ثم رميتهـا في جيبـك وخلطتهـا جيـدا، ثم حـاولت أن تخرجهـا من الواحـد إلى العاشـر بـالترتيب العددي، بحيث تلقى كل درهم في جيبك بعـد تناولـه مـرة أخـرى.. فإمكان أن تتنـاول الـدرهم المكتـوب عليـه في المحاولـة الأولى ه واحد على عشرة ؛ وإمكـان أن تتنـاول الـدرهمين (2،1) بـالترتيب واحد في المائة وإمكان أن تخرج الدراهم (4،3،2،1) بالترتيب هـو واحد في العشرة آلاف.. حـتى إن الإمكـان في أن تنجح في تنـاول الـــدراهم 1إلى 10 بـــالترتيب واحـــد في عشـــرة بلايين من المحاولات!!

لقــد ضــرب هــذا المثــال العــالم الأمــريكي الشــهير (كريســى موريسن)، ثم استطرد قائلا: (إن الهدف من إثارة مســألة بســيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد (الوقائع) بنسبة كبيرة جدا في مقابل (الصدفة)

قال ديموقريطس: فكيف تطبق هذا المثــال على مــا نحن فيــه من محاولة تفسير وجود الكون؟

قال الباقلاني: لو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون.. وافترضنا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفســها ــ وليس هنــاك أي دليل على هذا ـ ففي هــذه الحــال أيضــا لن نظفــر بــأي تفســير الكون، فإن (صدفة) أخرى تحول دون طريقنا.. فالرياضــيات الــتي تعطينــا نكتــة (الصــدفة) الثمينــة هي نفســها الــتي تنفى أي إمكــان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون الصدفة.

لقد استطاع العلم الكشف عن عمــر الكــون وضــخامة حجمــه، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كــافيين في أي حال من الأحوال لتسويغ إيجاد هذا الكــون عن قــانون الصــدفة الرياضي.

سأضرب لك مثا يقرب لك ذلك..

أنت تعلم أن الأجسام الحية تتركب من (خلايا حية).. و(الخليــة) ـ كما تعلم ـ مركب صغير جدا، ومعقــد غايــة التعقيــد، وهى تــدرس تحت علم خــاص يســمى (علم الخلايــا) ومن الأجــزاء الــتي تحتــوى عليها هذه الخلايا: البروتين وهو مركب كيماوي من خمسة عناصــر هي الكربــون والهيــدروجين والنــتروجين والأوكســجين والكــبريت.. ويشــمل الجــزيء البروتيــني الواحــد أربعين ألفــا من ذرات هــذه العناصر.

وفي الكــون أكــثر من مائــة عنصــر كيمــاوي كلهــا منتشــرة في أرجائه، فأية نســبة في تــركيب هــذه العناصــر يمكن أن تكــون في صالح قانون (الصدفة)؟

أيمكن أن تتركب خمسة عناصــر من هــذا العــدد الكبــير لإيجــاد (الجزيء البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟

إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضي ذلك القدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام؛ كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية.

لقد حاول رياضي سويسري شهير هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواي) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضيات، فانتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي الذي من شأنه أن يؤدى إلى خلق كون، إذا ما توفرت المادة هو واحد على 60/10 (أي 10×10 مائة وستين مرة)، وبعبارة أخرى:نضيف مائة وستين صفرا إلى جانب عشرة.. وهو عدد هائل وصفه في اللغة.

إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون، حتى يمكن تحريكها وضخها، وأما المدة التي يمكن ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من 243/10 سنة.

إن جزيء البروتين يتكون من (سلاسل) طويلة من الأحماض الأمينية، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

لقد توصل البروفيسور ج. ب. ليتز إلى أنه لا يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من 48/10 صورة وطريقة.. وهو يقول: إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل بمحض الصدفة في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزيء البروتيني الذي يحتوى أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها.

ولابد أن يكون واضحا أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لابد من وقوع الحادث الذي ننتظره بعد تمام العمليات السابق ذكرها، في تلك المدة السحيقة ؛ وإنما معناه أن حدوثه في تلك المدة محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية

إلى الأبد.

وهذا الجزيء البروتيني ذو وجود (كيمـاوي) لا يتمتـع بالحيـاة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهـذا الواقـع يطـرح سؤالا مهما علينا هو: من أين تأتى الحرارة عنـدما ينـدمج الجـزيء بالخليـة؟.. ولا جـواب عن هـذا السـؤال في أي سـفر من أسـفار العلم.

إن من الواضــح الجلي أن التفســير الــذي يزعمــه هــؤلاء المعارضون، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي لا ينطبق على الخلية نفسها وإنما على جزء صغير منها هو الجزيء البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينمـا نعيش، وفي جسـد كـل فرد منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا.

لقد أعد العالم الفرنسي (الكونت دى نـواي) بحثـا وافيـا حـول هــذا الموضــوع وخلاصــة البحث:أن مقــادير (الــوقت، وكميــة المادة ،والفضاء اللانهائي) التي يتطلبها حـدوث مثـل هـذا الإمكـان هي أكـثر بكثـير من المـادة والفضـاء الموجـودين الآن، وأكـثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض، وهـو يـرى: أن حجم هذه المقادير الذي سنحتاج إليه في عمليتنا لا يمكن تخيلـه أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصـر، فلأجـل وقوع حادث- علي وجـه الصـدفة- من النـوع الـذي ندعيـه، سـوف نحتـاج كونـا يسـير الضـوء في دائرته82/10 سـنة ضـوئية (أي:82 صفرا إلى جانب عشرة سنين ضوئية) وهذا الحجم أكبر بكثير جــدا من حجم الضوء الموجود فعلا في كوننا الحـالي ؛ فـإن ضـوء أبعـد مجموعــة للنجـوم في الكـون يصــل إلينـا في بضـعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط.. وبنـاءا على هـذا، فـإن فكـرة أينشـتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى أبدا لهذه العملية المفترضة.

أما فيما يتعلـق بهـذه العمليـة المفترضـة نفسـها، فإننـا سـوف نحرك المادة المفترضة في الكـون المفـترض بسـرعة خمسـمائة (تريليون) حركة في الثانية الواحـدة، لمـدة243/10 بليـون سـنة (243 صفرا أمام عشرة بلايين)، حتى يتسنى لنا حدوث إمكـان في إيجاد جزيء بروتيني يمنح الحياة.

ويقول (دى نواي) في هذا الصدد: (لابد ألا ننسـى أن الأرض لم توجد إلا منـذ بليـونين من السـنين وأن الحيـاة- في أي صـورة من الصور- لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض)

هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه، وما ذكـــروه لا يكفي على أي حال من الأحوال خلـق إمكـان، يوجـد فيـه الجـزيء البروتيني، بناء على قانون الصدفة الرياضي.

وأما ما يتعلق بأرضـنا الـتي ظهـرت عليهـا الحيـاة، فقـد عرفنـا عمرها بصورة قاطعـة، فهـذه الأرض كمـا يعتقـد العلمـاء جـزء من الشمس انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسـيار عملاق آخر، ومنذ ذلك الزمان أخـذ هـذا الجـزء يـدور في الفضـاء، شـعلة من نـار رهيبـة، ولم يكن من الممكن ظهـور الحيـاة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة، وبعد مرور زمن طويـل أخـذت الأرض تبرد ثم تجمـدت وتماسـكت، حـتى ظهـر إمكـان بـدء الحيـاة على سطحها.

ونستطيع معرفة عمر الكون بشـتى الطـرق.. ومنهـا الطريقـة الـتي توصـلنا إليهـا بعـد كشـف (العناصـر المشـعة)، فـإن الـذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ؛ وهـذا (التحلل) يقل الـذرات الكهربيـة في هـذه العناصـر، لتصـبح تلقائيـا عناصر غـير مشـعة عـبر الزمـان، واليورانيـوم أحـد هـذه العناصـر المشعة، وهو يتحـول إلى معـدن (الرصـاص) بنسـبة معينـة نتيجـة لتحلل الذرات الكهربية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظـروف من أدنى أو أقصـى درجـات الحـرارة أو الضـغط، ولهـذا سنكون على صـواب لـو اعتبرنـا أن سـرعة تحـول اليورانيـوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير.

إن قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال منذ أن تجمـد في شـكله الأخـير، عنـد تجميـد الأرض.. وإلى جـانب هـذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص، ولا نسـتطيع أن نـدعى أن كـل هـذا الرصــاص نتج عن تحلــل اليورانيــوم، والسـبب في هـذا أن الرصاص الـذي يتكـون من تحلـل اليورانيـوم يكـون أقـل وزنـا من الرصاص العادي، وبناء على هذه القاعـدة الثابتـة يمكننـا أن نجـزم بما إذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو أنهـا قطعـة

رصاص عادى ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقـة، فهـو يوجـد في الجبـل من أول يـوم تجمد فيه ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه!

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليـون سـنة على تجمد تلك الجبال التي تعتبر- علميا- أقدم جبـال الأرض، وقـد يظن البعض منا أن عمـر الأرض يزيـد ضـعفا أو ضـعفين عن عمـر هـذه الجبال ولكن التجارب العلميـة تنفي بشـدة هـذه الظنـون الشـاذة، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن (المعـدل المعقـول) لعمـر الأرض هو ألفا مليون سنة[1].

انظر.. فبعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الـروح تحتـاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد إمكـان الحـدوث لجزيء بروتيني فيها بالصدفة، فكيف ـ إذن ـ جاءت في هذه المدة القصــيرة في شــكل مليــون من أنــواع الحيوانــات، وأكــثر من 200.000 نوع من النبـات؟ وكيـف انتشـرت هـذه الكميـة الهائلـة على سـطح الأرض في كـل مكـان؟ ثم كيـف جـاء من خلال هـذه الأنواع الحيانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟

لقد قال عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدر ملخصـا كـل هذا:(إن الإمكـان الرياضـي في تـوفر العلـل اللازمـة للخلـق- عن طريق الصدفة - في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من (لا شيء)

وقال الأستاذ (كريسـى موريسـن) ــ ردا على مقولـة (هيكـل): (إيتـونى بـالهواء وبالمـاء وبـالأجزاء الكيماويـة وبـالوقت وسـأخلق الإنسان) ـ: (إن هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات الوراثية ومسألة الحياة نفسها فإن أول شيء سيحتاج إليه عنـد خلـق الإنسـان، هـو الـذرات الـتي لا سـبيل إلى مشـاهدتها، ثم سـيخلق (الجينـات)، أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هـذه الـذرات، حـتى يعطيهـا ثوب الحياة.. ولكن إمكان الخلق في هذه المحولة بعـد كـل هـذا لا يعـدو واحـدا على عـدة بلايين، ولـو افترضـنا أن (هيكـل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها (صدفة)، بل هو حاكمه ومـديره ومـدبره، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)

1) المعلومات العلمية المحضة هنا ـ والتي اسـتفدناها من كتـاب (الإسـلام يتحـدى) ــ ربما تكون قد تغيرت بفعل التطور العلمي، ولكنها مع ذلك تبقى صالحة للاستدلال.

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جـورج إيـرل ديفيس): (لـو كـان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معـنى ذلـك أنـه يتمتـع بأوصـاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن الكون هو الإله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجـود (الإلـه) ؛ ولكن إلهنـا هـذا سـوف يكـون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد!! إنني أفضـل حاكمـه ومـديره ومدبره، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات)

ما إن قال البلاقلاني هذا حـتى رأيت (ديمـوقريطس) قـد تغـير وجهـه، ثم نظـر إلى سـاعته وقـال: ائـذنوا لي.. لـدي موعـد.. ولا أستطيع أن أبقى هنا أكثر من هذا.. ربما نلتقي مرة أخرى.

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا وعلى وجهه ترتسـم ظلال أنـوار لسـت أدري هـل أنـارت لـه، أم أنهـا وجـدت من الشـياطين من أطفأها.

المناظرة الثانية:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة الأولى.. فحدثنا عن المنـاظرة الثانية.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة العجيبة رأيت قوما من الناس يلتفون حول رجلين..

أما أحدهما فكان بـادي الصـلاح.. وكـان النـاس يطلقـون عليـه لقب (القاسم الرسي)[1]

---

1) أشـير بـه إلى (أبي محمـد الرسـي) وهـو القاسـم بن إبـراهيم بن إسـماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو منسـوب إلى ضـيعة كـانت لـه جهة المدينة يقال لها الرس، لم يسمح المنصور له بالإقامـة فيهـا في كفـاف من العيش، بـل طلبـه مـع الطـالبيين ففـر إلى السـند، وأعقب من ولـده ثمانيـة أنبههم الحسـين بن القاسم وكان زاهداً ومن نسله أئمة صعدة، (وأئمة صعدة من اليمن كـانوا زيديـة)، وذكـر ابن خلدون في التاريخ أنه توفي سنة 245 هـ

والمنـاظرة منقولـة من كتابـه (الـدليل الكبـير في الـرد على الزنادقـة والملحـدين)، والكتاب من جزئين: جزء يذكر فيه المؤلف أدلة وجود الله وينقد أدلة المعارضين ثم يبين صحة الإسلام ويتكلم في بعض مسائل العقيدة، والجزء الثـاني عبـارة عن منـاظرة دارت بينـه وبين ملحـد كـان يـدور في البلاد يثـير الشـبهات حـتى تلقفـه الرسـى ودارت بينهمـا مناظرة.

وقـد جـاء في مقدمـة الكتـاب: (هـو كتـاب رد فيـه على رجـل من أربـاب النظـر من الملحدة، وكان يغشى مجامع المسلمين ويـورد عليهم الأسـئلة الصـعبة، في قـدم العـالم

وأما الثاني، فكـان رجلا لا يختلـف كثـيرا في مظهـره وطريقـة تفكـيره عن (ديمـوقريطس).. وكـان النـاس يطلقـون عليـه لقب (أبيقور)(1)..ولست أدري هل كـان ذلـك هـو لقبـه الحقيقي أم أنـه استعاره من أبيقور التـاريخي.. ولكنـه ــ مهمـا كـان ــ يتبـنى نفس الأفكار التي يتبناها أبيقور التاريخي(2).

سأقص عليكم كيف بدأت المناظرة وإلى ما انتهت..

وغير ذلك، حتى وافاه المؤلف وأجابه على ما عنده من المشكلات فوضح له الحق وتـاب إلى الله)

ونحب أن ننبه هنا إلى أن ما نذكره من هذه المناظرة هو جزء بسيط فقط منهـا، وقـد أضفنا إليه ما يقتضيه المقام من الأدلة العقلية التي ذكرها المتكلمون.

1) أشير به إلى أبيقور (342 ق.م. - 270 ق.م.)، وهو فيلسوف إغريقي كان لأفكاره حول اللذة، والحرية، والصداقة، تأثير كبير على العالم الروماني ــ اليونـاني.. وكـان يـرى بأن هناك مصدرين يسببان القلق للعقـل البشـري همـا الخـوف من الآلهـة، والخـوف من الموت.. وقد اعتقد أن هـذه المخـاوف مبنيـة على معتقـدات خاطئـة، وأنـه يمكن التغلب عليها، وأعلن أن الآلهة موجودة ولكنها يجب ألاّ تشكل مصدر خوف، لأنها توجـد بعيـدًا عن البشر ولا تُعنى بأمورهم لأن هذا يتعارض مع سعادتها.

وذكر أبيقور أن الموت يجب ألاّ يُخشى، لأن الخير والشر يكمنان في الشعور، والموت بزعمه يُنهي الشعور، وإذا تحـرر الشـخص من هـذه المخـاوف، فبإمكانـه أن يعيش حيـاة سعيدة بالسعي لملذات معتدلة وتجنُّب الألم، وإن أفضل طريقة للحصول على اللـذة هي العيش بتعقل واعتدال وشجاعة وعدل وزرع بذور الصداقة.

وُلِدَ في جزيرة ساموس، وأدار مدرسة للفلسفة في أثينـا منـذ عـام 306 قبـل الميلاد وحتى وفاته.. وكان كاتبًا غزير الإنتاج، ترك ثلاث رسـائل تلخص تعاليمـه، ويمكن الوقـوف على أفكـاره وفلسـفته في مصـادر عديـدة منهـا قصـيدة طويلـة للشـاعر الرومـاني لوكريشيس عنوانها: في طبيعة الأشياء.. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2) أســس المــذهب الأبيقــوري ترجــع إلى المــذهب الــذري الــذي قــال بــه (ديمـوقريطس)من قبــل ، لكن (أبيقــور) أضــاف فكــرة الميــل في التحــرّك الآلي في الذرات ، ليحصل التصادم بينها ، فتتكوّن الظاهرات الكونية.

وللأبيقوريين أقوال يهاجمون فيها الدين الوثني المعدد للآلهة ، والذي كان منتشــراً بين اليونـانيين وغـيرهم ، في تلـك العصـور.. فمن أقـوال (لوكرتيـوس) أحـد الأبيقـوريين:(إن الدين شرٌّ ما بعده شـرّ ، وإن الـواجب على الإنسـان ومهمـة الفلسـفة الأولى أن تتخلص نهائياً من كل دين ، لأن الدين هو ينبوع كل شر)

وربما لم يكن في عهدهم ذلـك صـورة صـحيحة عن دين ربـاني صـحيح ، وإنمـا لـديهم أديان وثنية خرافية ، لذلك شجبُوا الدين الذي رأوا نماذجه في عصورهم.

ولذلك نجد في تعبيرات الأبيقوريين: إن الذي يؤمن بالدين الشعبي المألوف ومعتقداته يرتكب خطيئة دينية في الواقع ، بينما الذي لا يؤمن بها هو الذي يسلك سبيل الصواب.

لقــد كنت أســير في ذلــك الشــارع، فــرأيت رجلا يســرع إلى الرسي، ليخبره أن بعض الملحدين تسلل إلى (الله أباد)، وأنه أخـذ ينشـر الإلحـاد بين العامـة والـدهماء.. وأنـه كـان إذا قابلـه العلمـاء والفقهاء أورد عليهم من المسائل ما يعجزهم.

فأسرع القاسم، ومعه الرجل، وأسرعت خلفهمـا، ولم نسـر إلا قليلا حتى رأينا (أبيقور)، فقال لـه القاسـم بعـد أن هش لـه وبش، وعامله بما طلبه الإسلام من أهله من الأدب: بلغـنى أنـك تعرضـت لنـا وسـألت أهـل نحلتنـا عن مسـائلك، تريـد أن تصـيد أغمـارهم بحبائلك.

قال أبيقور: أما إذ عبت أولئك وعيرتهم بالجهـل، فـإنى سـائلك وممتحنك.. فإن أنت أجبت وإلا فأنت مثلهم.

قـال القاسـم: قـل مـا بـدا لـك، فسأحسـن الاسـتماع، وعليـك بالنصــفة، وإيــاك والظلم ومكــابرة العيــان، ودفــع الضــرورات والمعقولات.. أجبك عنه، وبالله استعين وعليه أتوكـل وهـو حسـبى وكفى ونعم الوكيل.

قال أبيقور: خبرنى ما الدلالة على أن الله هو الصانع؟

قال القاسم: الدلالة على ذلك قوله فى كتابه عز وجل:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَــاكُمْ مِنْ تُــرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِــرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ثُمَّ نُخْـرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُـوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَـا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لَا رَيْبَ فِيهَـا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)﴾ (الحج)

وهجومهم على هذا النوع من الأديان لا شأن لنا به ، وقد يكون لهم في ذلك عذر ، لما عليه هذه الأديان من خرافات وأضاليل وأكاذيب.

ونشـير هنـا إلى أن هـذه المنـاظرة الـتي ذكرناهـا ليسـت متوجهـة للأبيقـوريين على الخصوص.. لأن الرد عليهم ذكرناه في المناظرة السـابقة.. وإنمـا ذكرنـاهم هنـا ليتعـرف القارئ على المواقف المختلفة من (الله)، فهذا من أغراض هذه الرسالة.

ضحك أبيقور بصوت عال، وقال: أراك لا تعرف الدور.. ثم تجلس هذا المجلس.

قال القاسم: فكيف تريد أن تبرهن لي على وجود إله من خلال ما تدعي أنها كلماته.. برهن لي أولا على وجوده، ثم برهن لي على أنه متكلم، ثم برهن لي على أن ما قرأته هو كلماته.. ودون كل ذلك خرط القتاد.

قال القاسم: أنا لم أذكر تلك الآيات كبرهان إلا من خلال المعنى الذي تحمله.. فأنا أعلم أن من لم يؤمن بوجود الله يستحيل أن يؤمن بكلام الله.

قال أبيقور: أنت تعلم أني من نسل الفلاسفة.. والفلاسفة قد تواطأوا فيما بينهم على مصطلحات خاصة، وعلى أساليب منتظمة في البرهان.. فاركب مطيتها وخاطبني.. فلا يحسن أن تخاطب الأمراء بلغة السوقة والدهماء.

قال القاسم: لك ذلك.. وسأذكر لك خمسة براهين على الشرط الذي ذكرت[1].

قال أبيقور: لا بأس بهذا.. فاذكر لي **البرهان الأول**.

قال الرسي: البرهان الأول هو برهان النظم والتدبير.. فالإنسان نراه بأحسن كيفية، والحيوان نراه بالمواهب الفطرية، والنباتات والأشجار والأزهار والأعشاب نراها ذات المناظر البهيّة والخصائص النفعية، وكذلك غيرها من الموجودات الأخرى التي لا تعدّ ولا تحصى فيما بين السماء إلى أطباق الثرى.

نرى أجزاءها وجزئيّاتها مخلوقة بأحسن نظم، وأتقن تدبير، وأحسن صنع، وأبدع تصوير.

ومن المعلوم بالبداهية لكلّ كبير وصغير، ولكلّ ذي عقل وإحساس أنّ الإهمال لا يأتي بالصواب، والخطأ لا يأتي بدقيق الحساب، والإتّفاق لا يأتي بهذا العجب العُجاب.

---

1) استفدنا المادة العلمية الواردة في هذه المناظرة من كتاب (العقائد الحقة - دراسة علمية جامعة في أصول الدين الاسلامي على ضوء الكتاب والسنّة والعقل-) للسيد على الحسيني الصدر.

فيحكم العقل بالصراحة، ويذعن الوجدان بالبداهة أنّه لابـدّ لهـذا التدبير من مدبّر، ولهذا التنظيم من منظِّم، ولهذا السير الحكيم من محكِّم.

ويدرك جميع أولي الألباب أنّه لابدّ لهذا النظام الدقيق من خالق حكيم، ولابدّ لهذا التدبير العميق من مدبّر عليم خَلَقها وقدّرها وأدام بقاءها، وأحسن خلقها وتدبيرها، وهو الله تعالى شأنه وجلّت قدرته.

فوجود الخالق ممّا يدرك بالبداهة ويُحسّ بكلّ يقين.

قال أبيقور: فما **البرهان الثاني**؟

قال الرسي: البرهان الثاني هو برهان امتناع الصِّـدفة.. فإنّـا إذا لم نؤمن بوجود الخالق لهـذا الكـون العظيم بمـا فيـه من الخليقـة المنتظمة، فلابـدّ وأن نقـول بـأنّ الصِّـدفة هي الـتي أوجـدتها أو أنّ الطبيعة هي التي خلقتها..

بأن تكون هذه المجموعات الكبيرة الدقيقة الضـخمة، في هـذا العالم الكبير وجدت بنحو الصِّدفة وتحقّقت بنحو المصادفة.

قال أبيقور: فما المانع من هذا؟

قال الرسـي: من الواضـح أنّـه لا يقبـل حتّى عقـل الصـبيان أن تكون هذه المخلوقات اللامتناهية وُجِدَت بنفسها بالصـدفة العميـاء، أو بالطبيعة الصمّاء..

بل حتّى عقل المادّيين والطبيعيّين ـ كما تلاحظه في حياتهم ـ لا يقبـل الصـدفة.. لـذلك تـراهم يبحثـون عن سـبب جريمـة صـغيرة وقعت في بلادهم، وفوجئوا بها في دولتهم، ويتفحّصـون عن علّتهـا، ولا يقبلون الصدفة فيها.

وترى طبيبهم الملحد ــ مثلا ــ يصـرف مـدّة مديـدة، وسـاعات عديدة من عمره في سبيل معرفة سـبب وجـود غُـدّة صـغيرة في جسـم إنسـان مـريض تصـدّى لمعالجتـه، ولا يقبـل أن يـؤمن بأنّهـا وجدت بنحو الصدفة والإتّفاق، أو أوجدتها طبيعة الآفاق..

فكيف بهذه البدائع العظيمة في هذا العـالم العظيم، هـل يمكن

قبول أنّها وجدت بالإتّفاق والصدفة!؟

والصدفة إن أمكنتها خلق شيء فلابـدّ وأن تكـون موجـودة هي بنفسها.. فنسأل من هو مُوجِدها؟ وإن لم تكن موجودة فيقـال: إنّ المعدوم لا يمكنه إيجاد شيء.. على أنّ الصدفة العمياء شاردة غير منتظـرة، لا تخضـع لأي حسـاب وقـانون، بـل تخـالف الحسـابات العلمية، فكيف يمكنهـا أن توجِـد هـذه الخلائـق الكونيّـة الـتي تُبهـر العقول وتُدهش العقلاء؟

وكيف يمكنها أن توجِد المادّة الأولى لهذا العـالم كمـا يزعمـون حتّى يكون العالم ماديّاً؟

وكيف يمكنها أن توجِد تكاملها وعلّية موجوداتها فيما بينها ـ كمـا يـدّعون ـ حتّى يكـون العـالم صـدفياً؟ والحـال أنّ الصـدفة عميـاء صمّاء، وليس لها حظٌّ من العطاء.

ولنبرهن على هذا الأمر بـدليل عقلي علمي وجـداني، ونفـرض أنّ كتاباً صغيراً مرتّباً على مئة صـفحة قـد فُـرّقت أوراقـه وخُلطت أعداده، ثمّ أُعطيت بيد شـخص أعمى حتّى يُرتّبهـا وينظّم صـفحاتها بواسطة سحب تلك الأوراق مسلسلة إحداها بعد الأُخرى..

ترى ما هي نسبة إحتمال الموفّقيـة بـأن يكـون السـحب الأوّل مصيباً للورق الأوّل؟ الجواب: 1%.

ثمّ ما هي نسبة إحتمال أن يكون السـحب الثـاني مصـيباً أيضـاً للورق الثاني؟

الجـواب: 100001 وذلـك بعمليّـة (100001 =ـ 1001 × 1001).

ثمّ ما هي نسبة أن يكون السـحب الثـالث أيضـاً مصـيباً للـورق الثالث؟

الجواب: 10000001 وذلك بعمليّـة (10000001 =ـ 1001 × 1001 × 1001).

وهكذا.. وهلمّ جرّاً إلى موفّقيـة تنظيم إصـابة السـحب المئـوي

للـورق المئـة بنتيجـة عـدد تفـوق المليـارات ويسـتغرق حسـابها الساعات.

هـذه نسـبة الصـدفة في كتـاب صـغير فكيـف بنسـبة موفّقيـة الصدفة بالنسبة إلى هذا العالم الكبير؟

وهـل يقبـل العقـل أو يصـدّق الوجـدان صـدفيّة هـذا النظـام السماوي والأرضي المنتسق بهذا التنسيق البهيج؟

وهل يمكن قبول كون أساس العالم ومادّته المتكاملة موجـودة بالصدفة كما يدّعون؟ كلاّ ثمّ ألف كلاّ!!

والحساب المنطقي الواضح هو أنّه إذا لم تصدق الصدفة صَدَقَ ضدّه وهو الخَلق والتقدير لأنّهما ضدّان لا ثالث لهما، لا يجتمعان ولا يرتفعـان.. ومن المسـلّم أنّ كـذب أحـدهما يسـتلزم صـدق الآخـر، فعدم إمكان الصدفة يستلزم صدق التقدير.

فتكون الخليقة موجـودة بخلـق وتقـدير، وهـو يـدلّ على وجـود المقدّر الخبير، وهو الله (جلّ جلاله)

قال أبيقور: فما **البرهان الثالث**؟

قال الرسي: البرهان الثالث هو برهان الاستقصاء.. فإنّ كُلاًّ منّا إذا راجع نفسه وتأمّل شخصه يشعر بوضوح، ويدرك ببداهة أنّـه لم يكن موجوداً أزليّاً بل كـان وجـوده مسـبوقاً بالعـدم، وقـد وُجـد في زمان خاصّ في عام معيّن وشهر معيّن ويوم معيّن.

فلنتساءل ونتفحّص ونبحث هل أنّا خَلَقْنـا أنفسـنا؟ وهـل خَلَقنـا أحـدٌ مثلنـا من الممكنـات كآبائنـا أو أمّهاتنـا؟ أو هـل خَلَقَنـا القـادر الفاطر الواجب وهو الله (جلّ جلاله)؟

أمّا جواب الأوّل: فلا شكّ أنّنا لم نخلق أنفسنا حيث إنّـه لم نكن موجودين في الزمان المتقدّم علينا، فكيف أعطينا الوجود لأنفسنا، وفاقد الشيء لا يعطيه..

ولو تمكّنا من إعطاء الوجـود لأنفسـنا، لأبقينـا لهـا الوجـود ضـدّ الموت، ولا شكّ في عدم قدرتنا على ذلك، بل عدم قدرة الأقويـاء

منّا ومن كان قبلنا على ذلك.

وأمّا جواب الثاني: فلا شكّ أيضاً أنّ آباءنا لم يخلقونا، بدليل أنّهم لم يعرفوا أعضاءنا وأجزاءنا ومطويات أبداننا ومضمرات أجسامنا، فكيف بخلقة حقيقتنا، ومعلوم أنّ الخالق يلزم أن يعرف ما خلقه، والصانع يعرف ما صنعه.

مع أنّ آباءنا بأنفسهم يموتون ولا يمكنهم إعطاء أو إبقاء الوجود لأنفسهم فكيف يعطونه لأبنائهم؟

لا يبقى بعد التفحّص والإستقصاء إلاّ الشقّ الثالث، وهو أنّ الله هو الذي خَلَقَنا، وهو الذي خلق كلّ شيء، وهو القادر على كلّ شيء الوجود والإفناء، والموت والبقاء، وهو الخبير بمخلوقه بكلّ محتواه، والعالم بأولاه وعُقباه.

وبهذا الإستقصاء التامّ تحكم الأفهام، بوجود الخالق العلاّم.

قال أبيقور: فما **البرهان الرابع**؟

قال الرسي: البرهان الرابع هو برهان الحركة.. فإنّا نرى العالم الكبير بجميع ما فيه متحرّكاً، ويراه الجميع من الإلهيّين والمادّيين في تغيّر، والكلّ يعرفه بحركة وعدم سكون، ومعلوم أنّ الحركة تحتاج إلى محرّك، وبديهي أنّ الأثر لابدّ له من مؤثّر، لأنّ الحركة قوّة والقوّة لا توجد بغير علّة.

إذن فلابدّ لهذه الحياة المتحرّكة في جميع نواحيها من أعلاها إلى أسفلها، بكواكبها وأراضيها وشمسها وقمرها، وأفلاكها ومجرّاتها.. لابدّ لها ممّن يحرّكها ويديم حركتها، وحتّى أجزاء العناصر الساذجة ثبت في علم الفيزياء أنّها تدور وتتحرّك حول مركزها بدوام.

ومن المعلوم أنّ القوّة والحركة لا توجد إلاّ بدافع ومحرِّك، وهذا أمر بديهي يدركه كلّ ذي لبّ وشعور، ويعرف أنّه لابدّ لهذه الحركات العظيمة والتحوّلات الدائمة من محرّك حكيم قدير.

فمن ترى يمكن أن يكون مصدر هذه القوّة وفاعل هذه الحركة؟

هل المخلوقات التي نراها يعرضها الضعف وتحتاج بنفسـها إلى المساندة!؟

وهل يناسب أن يكون المحرّك غير الله القوي الخبير؟

ولقد سُئِلَتْ امرأة بدويّة كانت تغزل الصوف بمغزل صـغير عن دليلها على وجود الله تعـالى، فأمسـكت عن تحريـك المغـزل حتّى توقّف فقالت: دليلي هو هذا التوقف..

قالوا: وكيف ذلك؟

فأجابت: إذا كان مغزل صغير لا يتحرّك إلاّ بوجود محـرِّك، فهـل يمكن أن يتحرّك هذا الفلك الدوّار الكبير بلا محرّك له؟

وقد جاءت الحكمة في هذا المجال: إنّ البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على المسـير، فهـذه السـماء ذات أبـراج والأرض ذات حركة وارتجاج.. ألا تدلاّن على وجود الخبير البصير!؟

قال أبيقور: فما **البرهان الخامس**؟

قـال الرسـي: البرهـان الخـامس هـو برهـان القاهريّـة.. فـإنّ الطبيعة تنمو عادةً نحو البقاء لولا إرادة من يفرض عليها الفناء.

فالإنسان الذي يعيش، والأشجار التي تنمو، والأحجـار الـتي هي مسـتقرّة في الأرض، لا داعي إلى أن يعـرض عليهـا المـوت أو الزوال أو الإنهدام إلاّ بعلّة فاعلة قاهرة.

فكما أنّ تبدّل اللاشيء إلى الشيء يحتاج إلى علّة، كذلك تبـدّل الشيء إلى اللاشيء لا يمكن إلاّ بعلّة.

فإنّا نرى هذا العـالم قـد اُحكمت جميـع جوانبـه بحيث ينبغي أن تسير سيراً دائماً بلا زوال، لكن مع ذلك نراها في زوال دائم ونقص راغم، وزوالها دليل على وجود مزيل لها.

فترى من هو علّة الإماتـة والـزوال؟ ومن اللائـق أن يكـون هـو القاهر في جميع الأحوال؟

هل الإنسان بنفسه ـ وهو الذي يرغب أن يعيش دائماً ولا يموت

أبداً ـ علّة لموت نفسه؟

أم هناك شيء من الممكنات ـ التي هي مقهورة زائلة بنفسها ـ تتمكّن من القاهرية المطلقة؟

أم أنّ القاهر لجميع المخلوقات هـو القـادر على خلقهـا فيقـدر على فنائها؟

أليس هذا دليلا على أنّ هناك من يُميت ويقدر على الإماتة، كما هو قادر على الإحياء؟

فنفس المـوت دالّ على وجـود المميت، كمـا كـان الإحيـاء دالاًّ على وجود المحيى.

فمن هذا الذي يميته غير الذي يحييه؟ ومن هو قادر على الإبقاء والإفناء؟ ليس هو إلاّ الله الذي بيده الموت والحيـاة.. والقـادر على الإبقـاء والإفنـاء، الخـالق لجميـع المخلوقـات جـلّ شـأنه وعظمت قدرته.

ما إن انتهى الرسي من قوله هـذا حـتى طأطـأ أبيقـور رأسـه، وقـال: بـورك فيـك.. لقـد أجبت ببراهينـك هـذه على كـل شـبهة، وفندت ما كان يعشش في رأسي من وساوس الشياطين، واسمح لي أن أصحبك لأتعرف على هذا الإلـه العظيم الـذي كنت محجوبـا عنه.

كبر جميع الحاضرين.. وكبرت معهم من غير شعور.. ثم سـرت إلى شارع آخر.. لأسمع مناظرة أخرى.

المناظرة الثالثة:

قال الجمع: فحدثنا عنها.. حدثنا عن المناظرة الثالثة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة رأيت قوما من النـاس يلتفون حول رجلين.. أما الأول، فكان اسمه (الخوارزمي)[1]..

1) أشير به إلى أبي جعفر محمد بن موسى الخَـوارزْمي (776 ـ 847م)، رياضـي فلكي مؤرخ من أهل خوارزم، عاصر الخليفة المأمون العباسي الـذي أدرك فضـله وأولاه رعاية عظيمة، وهو مؤسس علم الجبر وقد لقّب بأبي الجبر.. وقـد اخترنـاه هنـا باعتبـاره من المتكلمين للدلالة على أن العقل الإسلامي لم يتأثر بالنظريات الإلحاديـة الـتي راجت

وأما الثاني، فكان اسمه (توماس هوبز)(2)

قال هوبز، وهو ينظر للخوارزمي: نعم أنا مقتنع تماما بكل ما ذكرت.. لكني أسأل (من خلق الله؟.. وأين الله؟)

ابتسم الخوارزمي، وقال: أنت تتكلم عن الله، وكأنك تتكلم عن جسم مثلك.. أو كأنك تتكلم عن جهاز أو كائن أو جبل أو كوكب.. لو كنت تتكلم عن هؤلاء كان لك الحق في أن تسأل هذا السؤال.

إن هذا السؤال ينبع من افتراض عقلاني صحيح بالنسبة لبيئتنا المحيطة بنا، وهو أنه لا يمكن أن يوجد شيء نراه في محيطنا أو في هذه الدنيا بدون أن يكون له موجد أو صانع.

ولكن السؤال نفسه ليس صحيحاً بالنسبة لله، لأنه ليس شيئاً من الأشياء، بل هو موجد الأشياء، ولا يمكنك استخدام مسطرة عقلك لقياس أو تخيل الوجود الإلهي، فهو لا يشبهك في شيء، ولا يشبه شيئاً رأيته، ولا يمكن لعقلك القاصر تصوره.

جرب أن تدرس الرياضيات المتقدمة التي وضعها البشر لتعلم كم هي مدهشة تلك الإمكانيات الموجودة في العقل البشري، ولتعلم أيضاً أن افتراضات هذا العقل تصل أحياناً إلى التناقض وإلى المستحيل واللانهاية، وأن لهذا العقل حدوداً لا يمكنه تجاوزها.

سأضرب لك مثلا بتخصصي.. مثلا بالرياضيات.. هناك شيء في الرياضيات اسمه العامل العقدي، وهو (جذر-1).. وهو شيء افتراضي مستحيل الحدوث منطقياً ورياضياً حسب ما يقوله عقل البشر.

لأنك إذا قمت بعملية حسابية: -1*-1=1

بين النخبة المثقفة في الملل الأخرى.. ولبيان أن نصرة الدين كانت من الكل علماء دين كانوا أم علماء دنيا، إن صح هذا التفريق.

2) أشير به إلى (توماس هوبز) (1588 ـ 1679م)، وهو فيلسوف إنجليزي، وأشهر كتاب له بعنوان (لفياثان) أو (شكل المادة)، و(سلطة الكومنولث الكنسيّة والمدنية) (1651م)، تأثر هوبز بتطورين حدثا في زمانه، أولهما النظام الجديد لعلم الطبيعة الذي كان جَالِيليُو وآخرون يحاولون التوصل إليه. وقد استنتج من أفكارهم أن المادة وحدها هي الموجودة، وأن أي شيء يحدث يمكن التنبؤ به وفقًا لقوانين علمية دقيقة، واعتقد الكثيرون في زمانه أن نظرته أنكرت وجود الله، والروح الإنسانية الحرة الخالدة، ولكنه نفى ذلك.

ولكن هل يوجد شيء في واقع الدنيا اسمه جذر -1؟

قال هوبز: لا.. لا يمكن أن يكون مثل هذا الجذر.

قال الخوارزمي: ولكنه مع ذلك موجود.. فعلم التحريك وعلـوم الفيزيـاء والهندسـة تعتمـد عليـه، ولا يمكن لعلمـاء الصـواريخ والمركبـات وعلمـاء الفيزيـاء الذريـة أن يحلـوا كثـيرا من معـادلات التحريك بدون افتراض وجـود هـذا العامـل، وافـتراض أننـا لا نفهم كيف هو لا يخرجه عن كونه موجودا.

وكذلك الله.. فنحن نعلم أنه موجود، ونعلم بعض صـفاته فقـط عن طريق ما وصـلنا من رسـله وأنبيـاءه.. ولكنـا لا نعلم أي شـيء عنـه عن طريـق مسـطرة ومـيزان العقـل البشـري والاكتشـافات البشرية.. لا يمكننا ذلك أبدا.

تخيـل لـو أن الكمـبيوتر الـذي تعمـل عليـه أو أي جهـاز صـنعه الإنسان كان له عقل ليفكر ويقارن الإنسان مع ذاته..

ماذا سيقارن؟.. وكيف سيقارن؟

هـل يمكنـه أن يعلم عن الإنسـان شـيئاً غـير المعلومـات الـتي أدخلها إليه المبرمج؟

وإذا كانت له إرادة مستقلة كتلك التي لدى الإنسان، هل يمكنه إلا أن يتصور أنك مصنوع من معـدن وبلاسـتيك وزجـاج، وأن سـعة ذاكرتك كذا وكذا؟

ربما تبدو هذه المقارنة سـخيفة، ولكن هـذا بالضـبط مـا تفعلـه أنت عندما تقول:(من خلق الله وأين الله؟)

قال هوبز: فلماذا لا نراه؟

ابتسم الخـوارزمي، وقـال: لسـبب بسـيط، وهـو أنـك لا تملـك الأدوات المناسبة لذلك، سواء في جسمك وتكوينـك، أو عقلـك، أو ما يبتكره الإنسان من أدوات القياس الحديثة.

هل تريد أن ترى الله تعالى ببصـرك القاصـر المحـدود الـذي لا يستطيع أن يرى سوى جزء بسيط من مجال الموجات الكهربائيـة،

وهي فقط ألوان الطيف المرئي من الضوء؟

أنت لا تستطيع رؤية الكثير الكثير من الأشعة الموجودة في هذه الدنيا فضلاً عن الأشعة الموجودة في الفضاء الخارجي، ولم يكتشف الإنسان وجود هذه المجالات الإشعاعية إلا في العصر الحديث، بأجهزة تطورت مع تقدمه العلمي، وصارت قادرة على القياس لكثير من هذه المجلات، وأثبتت محدودية قدرات جسم الإنسان.

بل إن كثيراً من الحشرات مثل النحل والفراشات تملك خاصية إبصار أفضل منك وأسرع بآلاف المرات، وتستطيع أن ترى الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية، وأن تحدد الزهور المفيدة المحتوية على الرحيق بناء على هذه القدرات، وهذا ما اكتشفته أجهزة الإنسان وأبحاثه الحديثة.

لقد اكتشفنا ــ من خلال ما أتاحه الله لنا من أجهزة ــ أن معلوماتنا السابقة وقدراتنا قليلة جداً بالمقارنة مع ما في هذا الكون من الموجودات حتى أن بعض البشر الأكثر علماً وذكاء ـ وهو مكتشف النظرية النسبية (آينشتاين) ــ توصل بعقله وعلمه وفلسفته وتجاربه الفيزيائية أنه لا يمكن أن يوجد شيء أو شعاع أو طاقة بمقدورها أن تتجاوز سرعة الضوء - وقد توصل إلى ذلك ليس فقط فيزيائياً وتجريبياً، بل رياضياً وعقلياً - بناء على أقصى ما يستطيع هذا العقل البشري المحدود تصوره – وقال: إن سرعة الضوء تساوي رقماً معيناً وهو حوالي 300000 كيلومتر في الثانية - وهذا يعني أن هناك حدوداً لما يستطيع الإنسان أن يتخيل أو يفترض ويقيس بأجهزته ومعداته.

سكت الخوارزمي قليلا، ثم قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الدليل بصيغة محكمة قوية مليئة بالمعاني.. لقد عبر عن ذلك بقوله:﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:103)

انظروا دقة التعبير القرآني.. لقد وضحت العلوم الحديثة الآية أكثر مما وضحته العلوم القديمة.. فالأبصار تستطيع أن تجري خلف شيء معين وتلحقه وتدركه عن طريق ما يسمى المطابقة

البصرية، وذلك إذا كان يقع ضمن المجال المرئي أو المجال الذي يمكن قياسه، وأما الله تعالى فلا يمكن للأبصار ولا حتى أحدث أجهزة القياس البشرية أن تدركه.

وفي قوله:﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ إشارة إلى أن ذلك من مقتضيات لطف الله بعباده، فلذلك لا يصدمهم بأكثر من حدود طاقاتهم البصرية والعقلية وقدرتها على الاحتمال أو الاستيعاب.

وهو أيضاً الخبير بهذه الطاقات وحدود قدرتها فهو الذي صممها وصنعها وركبها في مخلوقاته.

المناظرة الرابعة:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة الثالثة.. فحدثنا عن الرابعة.

قال: سرت إلى شارع آخر فوجدت شابا وقورا كان الجمع يطلق عليه اسم (الغزالي)(1).. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الذي سماه به أبوه(2)، أم أنه أطلق عليه ذلك لمشابهته أبي حامد الغزالي في استجرار الذين يحاورهم إلى الحق بأنواع الحجج والبراهين بهدوء واتزان وذكاء.

وأما الثاني، فكان شيخا يبدو عليه التأثر بقومنا، فهو يلبس لباسنا، ويرطن بعربية مختلطة بالعجمة.. وقد كان الناس يطلقون عليه اسم (مظْهر) (3).. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه

1) أشير به إلى شيخنا الجليل العلامة الشيخ (محمد الغزالي) ، وهو: محمد الغزالي أحمد السقا (1917ـ 1996م)، وهو أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، عرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي وكونه من المناهضين للتشدد والغلو في الدين.

وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي هذا الحوار الذي اقتبسناه بتصرف هنا في كتابه قذائف الحق، قال في أوله: (دار بينى وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسى وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات).. وقد ذكرنا هنا نص الحوار بأنواع التصرفات التي جرينا عليها في هذه السلسلة.

2) سمي الشيخ محمد الغزالي بهذا الاسم رغبة من والده بالتيمن بالإمام الغزالي، فقد رأى في منامه الشيخ الغزالي وأخبره أنه سوف ينجب ولدا، وأمره أن يسميه على اسمه الغزالي.

3) أشير به إلى (إسماعيل مظْهر بنُ مُحمّد بن ِ عبدالمجيدِ) (1308-1381 هـ) كان أحدَ دعاةِ الداروينيّةِ في العصرِ الحاضرِ ، ومن دعاةِ الشعوبيّةِ ، أنشأ مجلّةِ العصورِ في

الحقيقي، أم أنه لقب كالألقاب الـتي تعـود قومنـا أن يتنـابزوا بهـا.. فإن كان لقبا، فقد صدق من لقبه به، فقد كان كل شيء فيـه يـدل على اهتمامه الشديد بمظهره، ومراعاته الشديدة له.

لن أطيـل عليكم.. سـأقص عليكم الحـوار كمـا سـمعته حرفـا حرفا..

بدأ مظهر الحديث، فقال متوجها للغزالي: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قال الغزالي: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شىء من خالق!!

قال مظهر: لا تلقنى فى متاهات، أجب عن سؤالى.

قال الغـزالي: لا لـف ولا دوران، إنـك تـرى أن العـالم ليس لـه خالق، أى أن وجوده من ذاته دون حاجـة إلى موجـد، فلمـاذا تقبـل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلمـاذا تصـدق نفسـك حين تقررهـا وتكـذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهـاً ليس لـه خـالق خرافـة، فعـالم ليس لـه خـالق خرافـة كـذلك، وفـق المنطـق الـذى تسـير عليه!!

قـال مظهـر: إننـا نعيش فى هـذا العـالم ونحس بوجـوده، فلا نستطيع أن ننكره!

قال الغزالي: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو بـاخرة أو طـائرة تنطلـق بنـا فى طريـق رهيب، فتسـاؤلنا ليس فى وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسـيرها قائـد

مصـرَ وذلـكَ في سـنةِ 1927 م ، وجعـلَ من مجلّتـهِ بابـاً للطعنِ في الـدينِ ، ونشـرِ الشعوبيّةِ ، وفتحِ بابِ الرّدةِ و الإلحادِ ، كانَ معظّمـاً لليهـودِ ، وداعيـاً للسـيرِ على نهجهم وطـريقتهم ، وكـانَ يُسـمّي نفسـهُ: صـديقَ دارون ، وألّـفَ في الانتصـارِ لنظريّـةِ داروين مجموعةً من المؤلفاتِ ، ثمّ اعتنقَ الفكرَ الشيوعيَّ ، وأنشأ حزبـاً أسـماهُ حـزبَ الفلاحِ ، جعلهُ منبراً لنشرِ الشيوعيّةِ والاشتراكيّةِ ، ثمّ في آخرِ عمرهِ أعرضَ عن كلِّ ذلكَ ، ورجعَ عن الكثيرِ من آراءهِ ، وألّفَ كتاباً أسماهُ (الإسلامُ لا الشيوعيّة) ، وقد اشـرنا إلى تراجعـه في هذه المناظرة..

بصير!!

ومن ثم فإننى أعود إلى سـؤالك الأول لأقـول لـك: إنـه مـردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تـزعم أنـه لا أول لـه بالنسـبة إلى المـادة، وأرى أنـه لا أول لهـا بالنسـبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجـود لا أول لـه، فاسـخر من نفسـك قبل أن تسخر من المتدينين..

قـال مظهـر: تعـنى أن الافـتراض العقلى واحـد بالنسـبة إلى الفريقين؟

قال الغـزالي: إنـنى أسترسـل معـك لأكشـف الفـراغ والادعـاء الذين يعتمد عليهما الإلحـاد وحسـب، أمـا الافـتراض العقلى فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إننى ـ أنا وأنت ـ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعـد نظـرة خبـيرة أن مهندساً أقامه، وترى أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاءة قد انتظمت فى مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها..

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أننى وجدت قمـراً صـناعياً يـدور فى الفضاء، فقلت أنت: (انطلق وحـده دونمـا إشـراف أو توجيـه)، وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر..

إن الافتراض العقلى ليس سواء، إنه بالنسبة إلىّ الحق الذى لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذى لا شك فيه، وإن كل كفـار عصـرنا مهـرة فى شـتمنا نحن المؤمـنين ورمينـا بكـل نقيصـة فى الوقت الذى يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية..

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهـذا العقـل ننظـر ونسـتنتج ونناقش ونعتقد.

إننا نلحظ إبـداع الخـالق فى الـزروع والزهـور والثمـار، وكيـف ينفلق الحمـأ المسـنون عن ألـوان زاهيـة أو شـاحبة تـوزعت على أوراق وأكمام حافلة بـالروح والريحـان، ثم كيـف يحصـد ذلـك كلـه

ليكـون أكسـية وأغذيـة للنـاس والحيـوان، ثم كيـف يعـود الحطـام والقمام مرة أخرى زرعاً جديد الجمـال والمـذاق تهـتز بـه الحقـول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال مظهر، وكأنه سكران يهذى: الأرض صنعت ذلك!!

قـال الغـزالي: الأرض أمـرت السـماء أن تهمى، والشـمس أن تشــع، وورق الشــجر أن يخــتزن الكربــون ويطــرد الأوكســجين والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟

قال مظهر: أقصد الطبيعة كلها فى الأرض والسماء!

قـال الغـزالي: إن طبـق الأرز فى غـذائك أو عشـائك تعـاونت الأرض والسماء وما بينهما على صـنع كـل حبـة فيـه، فمـا دور كـل عنصـر فى هـذا الخلـق؟ ومن المسـئول عن جعـل التفـاح حلـواً والفلفل حريفاً أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال مظهر: لا أعرف.. ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قال الغزالي: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مـدبر ومشـيئة تصنف؟ فأين ترى العقل الذى أنشأ والإرادة التى نوعت فى أكوام السباخ أو فى حزم الأشعة؟

قال مظهر: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقــاء، ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل!

قال الغزالي: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان فى قديم الزمـان وسـالف العصـر والأوان مجموعـة من العناصـر العميـاء، تضـطرب فى أجـواز الفضـاء، ثم مـع طـول المـدة وكـثرة التلاقى سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية فى شكلها البدائى، ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت مـا نـرى.. هـذا هو الجهل الذى أسميتموه علماً، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به.

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائياً، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة فى فرصة سنحت ولن تعــود.. وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير المتعال.

قال مظهر، وهو ساخط: أفلو كان هناك إلـه كمـا تقـول كـانت الدنيا تحفل بهذه المآسـى والآلام، ونـرى ثـراء يمـرح فيـه الأغبيـاء وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون ويموتون، ومشـوهين يحيون منغصين..

قال الغـزالي: لقـد صـدق فيكم ظـنى، إن إلحـادكم يرجـع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصـيبهم من عسر ويسر:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج:11)

قال مظهر: لسنا أنانيين كما تصف، نغضـب لأنفسـنا أو نرضـى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشـر كافـة ثم نصـدر حكمنـا الـذى ترفضه..

قال الغزالي: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعـة هـذه الحيـاة الـدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكى يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحـدى خاتمتيـه لا بـد أن يبتلى بمـا يصـقل معدنـه ويهـذب طباعـه، وهـذا الابتلاء فنـون شـتى، وعنـدما ينجح المؤمنـون فى التغلب على العقبـات الـتى ملأت طـريقهم وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فـإنهم يعـودون إلى الله بعـد تلـك الرحلـة الشـاقة ليقـول لهم:﴿ يَـا عِبَـادِ لا خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف:68)

قال مظهر: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قـال الغـزالي: إن المـرء يسـهر الليـالى فى تحصـيل العلم، ويتصبب جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القـانون السـائد فى الحيـاة القصـيرة الـتى نحياهـا على ظهـر الأرض فـأى غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال مظهر ـ مستهزئاً ـ: أهـذه فلسـفتكم فى تسـويغ المآسـى التى تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها؟

قال الغزالي: سأعلمك ـ بتفصيل أوضح ـ حقيقة مـا تشـكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله فى هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا فى حره.

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويـوائم نفسـه وبيئتـه، ومـا أبعـد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان بما لا يكترث به آخر ولله فى خلقه شئون، والمهم أن أحـداث الحيـاة الخاصـة والعامـة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التى لا ريب فيها.

تلـك هى النظـرة الصـحيحة إلى المتـاعب غـير الإراديـة الـتى يتعرض لها الخلق.

أمـا القسـم الثـانى من الشـرور الـتى تشـكو منهـا يـا صـاحبى فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مظهر مستنكراً: أنا وأشباهى لا علاقة لنا بما يسود العــالم من فوضى؟ فكيف تتهمنا؟

قال الغزالي: بل أنتم مسئولون، فإن الله وضـع للعـالم نظامـاً جيداً يكفل له سعادته، ويجعل قويه عوناً لضعيفه وغنيه براً بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود.

ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة:﴿ مَنْ عَمِلَ صَـالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ مَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل:97)

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العـدوان بـدل أن يتعـاونوا على التقـوى فكيـف يشـكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحـدق بالعـالم من شـرور يرجـع إلى شـروده عن الصراط المستقيم، وفى هذا يقول الله جـل شـأنه:﴿ وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:30)

قال مظهر: ماذا تعنى؟

قال الغـزالي: أعـنى أن شـرائع اللـه كافيـة لإراحـة الجمـاهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلهـا تجـرأتم على اللـه واتهمتم دينـه وفعله!

ومن خسـة بعض النـاس أن يلعن السـماء إذا فسـدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه فى تغيـير الفوضـى وإقامـة الحـق يـثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين..!!

إنكم معشر الماديين مرضـى تحتـاج ضـمائركم وأفكـاركم إلى علاج بعد علاج..

قال الغزالي ذلك، ثم انصـرف والغضـب بـاد على وجهـه، وقـد افترق الجمع بانصرافه.. وقـد تعجبت إذ رأيت دموعـا كثـيرة بـدأت تتجمـع في عين (مظهـر).. وقـد اسـتوحيت من خلال تجربـتي أن كثيرا من أشعة النـور قـد تسـربت إليـه من خلال حـديث الغـزالي معه[1].

المناظرة الخامسة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الخامسة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجـدت شـيخا صـاحب لحية بيضاء، لكنه خضبها بما زاده وقارا.. كان الناس يطلقون عليـه لقب (الزّنـدَاني).. وكـان يحـاور بهـدوء رجلا من بلادنـا كـان اسـمه (البروفسور روبرت)، وقد كان على حسب ما يبدو صاحب منصـب علمي مرموق[2].

سألقي على مسامعكم بعض ما سمعت من حديث..

قال الزنداني: هل لديك استعداد يا بروفسور لأن نتحـاور حـول الإيمان بالله.

---

1) ذكرنا أن إسماعيل مظْهر قد تراجع عن الكثـير من آرائـه.. ونحب أن ننبـه هنـا من جديد إلى أن الحوار الذي ذكره الغزالي كان مع ملحد لم يسمه.

2) كان البروفسور (روبرت) مدير لمعهد للأرصاد تشترك فيه سبع وخمسـون جامعـة أمريكية.. وقد جرى هذا النقاش ـ على حسب ما يذكر الزنداني ـ عقب المـؤتمر الـدولي للإعجاز العلمي في إسلام آباد.

قال روبرت: نعم

قال الزنداني: هل كنت قبل مائة سنة موجوداً؟

قال روبرت: لا.

فقال الزنداني: وهذه النباتات بأغصانها وجذورها وأزهارها هل كانت موجودة قبل آلاف أو مئات السنين؟

قال روبرت: لا.

قال الزنداني: وكذلك الحيوانات، ما كانت موجودة منذ الأزل.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: إن علم الحفريات في الأرض قد أثبت أنه قد مرت فترة زمنية على الأرض لم يكن فيها نباتات ولا حيوانات بل ولا جبال ولا وديان ولا تربه ولا أنهار ولا بحار.

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: بل قد مر وقت لم يكن للكوكب الأرضي وجود، بل كان جزءاً من مادة السماء، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء:30)

لاحظت وجه روبرت يتغير عندما قرأ الزنداني الآية.. فقال الزنداني: إن الشمس والقمر ونجوم السماء لم يكن لها وجود، وكانت دخاناً كما يقرر ذلك علماء الفلك اليوم، وكما يقرره القرآن من قبل في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:11).

قال روبرت: ما ذكرته الآية من وجود أصل دخاني للكون صحيح.

قال الزنداني: كما يقرر علماء الكون اليوم أن مادة الكون الدخانية (السديم) لم تكن موجودة، ووجدت بالانفجار العظيم، وكان الكون قبل ذلك عدماً.

قال روبرت: ما تقوله صحيح.

قال الزنداني: إذن لابد من وجود الخالق سبحانه الذي أوجد هذه المخلوقات من عدم، وعدد الأدلة على وجود الله الخالق كعدد هذه المخلوقات التي وجدت من العدم.

قال روبرت: نعم، لابد لهذا الكون من خالق.

قال الزنداني: فمن هو؟

قال روبرت: الطبيعة!

قال الزنداني: عندي قاعدة أخرى ستبين لنا من الخالق، وستعرفنا بصفاته.

قال روبرت: وما هي؟

قال الزنداني: أنظر إلى هذا المصباح (وكان في ذلك الشارع مصباح كهربائي (نيون)).

قال روبرت: ماذا أنظر؟

قال الزنداني: هل الذي صنع هذا المصباح لديه زجاج؟

قال روبرت: نعم، وإلا فمن أين جاء هذا الزجاج؟

قال الزنداني: وهذا الصانع لديه قدرة على تشكيل الزجاج في شكل أسطواني منتظم.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: وصانع المصباح لديه معدن (الألمنيوم الذي في طرفي المصباح).

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: وهو قادر على تشكيل الألمنيوم في شكل غطاء.

قال روبرت: نعم.

قــال الزنــداني: ألا تــرى إلى الإحكــام بين فتحــة الاســطوانة الزجاجية والغطاء المعدني، ألا يدلك ذلك الإحكـام على أن الصـانع حكيم؟

قال روبرت: بلى.

قال الزنداني: وهذا المصباح يضئ بمرور التيـار الكهربـائي بين قطبيه ألا يدل ذلك على أن صانعه عالم بهذه الخاصية؟

قال روبرت: يمكنك أن تعرف ذلك بالضـغط على زر المصـباح الكهربائي فتحاً وإغلاقاً.

قال الزنداني: إذن تشهد الآن بأن صانع هذا المصباح يتصف بما يلي: لديه زجاج.. قادر على تشكيل الزجاج في شـكل أسـطواني.. لديه إحكام، لأنه أحكم فتحة الغطاء المعدني على فتحة الاسطوانة الزجاجية.. لديه علم بالكهرباء وخاصيتها عند مرورها في المصباح.

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: أتشهد بذلك؟

قال روبرت: أشهد.

قال الزنداني: كيف تشهد بصفات صانع لم تره!؟

أشار روبرت إلى المصباح، وقال: هذا صنعه أمامي يدلني على ذلك.

قال الزنداني: إذن، المصباح أو المصنوع هو كالمرآة يــدل على بعض صفات الذي صنعه، فلا يكون شئ في المصـباح أو المصـنوع إلا وعند الصانع صنعة أو قدرة أو جد بها ذلك الشي الذي نراه.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: هذه القاعدة الثانية، ففي المخلوقـات آثـار تـدل على بعض صفات خالقها سبحانه، وكما عرفت بعض صفات صـانع

المصـباح من التفكـر في المصـباح، فسـوف تعـرف بعض صـفات الخالق جل وعلا بالتفكر في مخلوقاته.

قال روبرت: كيف؟

قال الزنداني: فلننظر في خلقـك أنت، ولنتفكـر فيـك بـدلاً من المصباح، وعندئذ ستعرف بعض صفات خالقك.

فقال روبرت: كيف؟

قال الزنداني: هل درجة حرارة جسم الإنسان ثابتـة أم متغـيرة بحسب الطقس الخارجي؟

قال روبرت: بل ثابتة عند 37ْ درجة مئوية.

قال الزنداني: إن في الجسم عوامل مثل: إفراز العرق، تقــوم بتخفيض درجة حرارة الجســم إلى 37ْ درجـة عنـدما ترتفـع درجـة حـرارة الجـو الـتي قـد تصـل إلى أكـثر من خمسـين درجـة، وفي الجسم أيضاً عوامـل أخـرى، كـإحراق الطعـام في الجسـم، تعمـل على رفع درجة حرارة الجسم إلى 37ْ درجة عنـد انخفـاض درجـة حرارة الجو في الشتاء والتي قد تصـل إلى درجـاتٍ تحت الصـفر.. فهل الذي أقام هـذا المـيزان المحكم الـدائم في عملـه في سـائر أجسام البشر التي خلقت وسوف تخلق بحيث تبقى درجة الحرارة ثابتة عنـد 37ْ لا تزيـد ولا تنقص رغم تقلبـات درجـات الحـرارة في الجو المحيط بنا، هل هو حكيم أم لا؟

أحس روبـرت أنـه إن سـلم باتصـاف الخـالق بصـفة الحكمـة فستسقط الطبيعة التي لا حكمة لها، فلذلك قال: لا ليس بحكيم!

قال الزنداني: لقد أعد لك الجهاز الـذي يضـبط درجـة الحـرارة في الجسم وأنت جنين في بطن أمك، في رحمٍ مكيفة عنـد درجـة سـبعة وثلاثين في وقت لم تكن بحاجـة إليـه وأنت جـنين في بطن أمك، وإنما تحتاج إليه بعد خروجك إلى هذه الأرض التي تتغير فيهـا درجات الحرارة فتكـون عندئـذ في أمس الحاجـة إلى هـذا الجهـاز المنظم للحرارة والمثبت لها عند درجة 37ْ وهي الدرجة المناســبة لكيمياء الحياة في جسم الإنســان. ألا تـرى أن من زودك في بطن

أمك بما ستحتاج إليه بعد خروجك عليم بالبيئة التي ستخرج إليها وما يلزم لها من تكوينات في خلقك!؟

أحس روبرت أنه إن سلم بأن الخالق يتصف بالعلم فستسقط الطبيعة التي لا علم لها ولا حكمة فعاد مرة ثانية إلى الإنكار والجحود. فقال روبرت: لا، ليس بعليم.

قال الزنداني: سأضرب لك مثالاً آخر.. هل ينمو جسمك باتزان أم بغير اتزان؟

قال روبرت: بل باتزان.. فلو كان بغير اتزان لرأيت عيناً أكبر من عين، ويداً أكبر من يد، ورِجلاً أكبر من رِجل.

قال الزنداني: الذي وضع الميزان في كل خلية في جسمك حكيم أم ليس بحكيم؟

قال روبرت: ليس بحكيم.

قال ذلك فراراً مرة أخرى من أن يعترف بالحكمة، فيُلزم بالاعتراف بالخالق، فقال الزنداني: يا بروفسور! أرأيت ميزان الحركة في جسمك الذي يعمل على تثبيت الجسم وموازنته بحيث لو انزلقتَ إلى الجهة اليسرى يعيدك فوراً إلى الجهة اليمنى بعمل تلقائي محكم، وهكذا لو انزلقت إلى أي جهة أخرى فيعيدك إلى الجهة المقابلة لها، هل الذي خلق لك جهاز التوازن في الحركة وأنت جنين في بطن أمك وجعله يعمل بسرعة البرق حكيم أم ليس بحكيم؟

قال روبرت: ليس بحكيم!

قال الزنداني: سبحان الله!! ألا ترى أنك تكابر بكلامك هذا..

قال روبرت: لا.. لا أكابر.. أنا أقول لك ما أعتقده.

عدد له الزنداني له بعد هذا بعض الموازين المبثوثة في الكون مثل ثبات نسبة الأكسجين في الهواء، وتوازن سير القمر مع الأرض بحيث يسرع عند الاقتراب منها، ويبطئ عند الابتعاد عنها، والتوازن بين سرعة سير النجوم والكواكب والجاذبية بينها وبين

غيرها من النجوم والكواكب، ثم قال له: ألا يدل ذلك كله أنه من صنع الحكيم؟

فقال روبرت: لا.

سكت الزنداني قليلا، ثم قال: يا برفسور.. سأقص عليك شيئا رأيته بعيني امتلأت منه دهشة.. أرجو أن تفسره لي(1).

قال روبرت: لا بأس.. سأفسره لك في حدود تخصصي.

قال الزنداني: لقد رأيت مرة زلزالا أصاب بلدنا.. وقد رأيت ظاهرة عجيبة مصاحبة للزلزال.. لقد رأيت قضيبا معدنيا يطير في السماء، ثم يسقط على مسمار فيخرقه في منتصفه، فيتزن القضيب، ثم رأيت مادة من اللحام تطير، فتقع على أحد طرفي القضيب، ثم رأيت طبقا معدنيا يطير فيقع على اللحام، ويشكل كفة ميزان، وبنفس الطريقة تكونت الكفة الثانية، وهكذا وجد لدينا ميزان!

تغيرت ملامح وجه روبرت، ثم قال: ما هذا؟ زلزال يصنع ميزاناً!؟

قال الزنداني: انتظر، هناك أعجب من هذا.. إنه يعمل بشكل آلي بحيث لو وضعت وزنا محدداً في كفة، فإنه يقوم بوضع نفس الوزن في الكفة الثانية، وإذا أنقصتها قام هو فأنقص ما يقابلها من الكفة الأخرى؛ لأنه لا يرضى الا أن يكون متزناً!

أخذ روبرت ينظر باستغراب ودهشة إلى الزنداني، وكأنه يتهمه بالجنون، فقال الزنداني متهكماً: يابرفسور جاء صدفة! ويعمل بالصدفة!

هنا فطن روبرت، فانفجر ضاحكا، فقال له الزنداني: أنت لم تقبل لي ميزاناً واحداً بالصدفة.. فكيف تزعم أن موازين السماوات والأرض كلها قد خلقت صدفة!

لم يجد روبرت ما يقول.. لكني رأيت بصيصا من النور قد بدأ يتسرب إليه لينسخ ظلمات الإلحاد التي كان غارقا فيها.

1) هذا من التصرف في النص.

المناظرة السادسة:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة الخامسة.. فحدثنا عن السادسة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة، رأيت الناس يلتفون حول رجلين..

أما أحدهما، فكان الناس يطلقون عليه لقب (وحيد الدين خان)(1)، وتبدو عليه سمات الهنود التي تجمع بين البساطة والجمال.

وأما الثاني، فرجل إنجليزي يقال له (برتراند رسل)(2).. وهو رجل قد بلته الأيام، وحنت ظهره السنون، ولكنها مع ذلك لم تمنعه من القدوم لتلك البلاد للبحث عن الله، والمناظرة في ذلك، والتواضع أمام من يناظره.

بدأ خان الحديث، فقال متوجها لراسل: وأخيرا التقينا يا راسل.. لطالما اشتقت إلى لقائك بعد أن قرأت كتبك، وعرفت نوع توجهك الفكري.

قال راسل: وما قرأت منها؟

قال خان: كلها تقريبا..

---

1) أشير به إلى (وحيد الدين خان)، وهو مفكر مسلم هندي معاصر يجمع بين الفكر الإسلامي ، والفكر العلمي الفلسفي.. وبتلك المقومات استطاع أن يناظر الملحدين واللادينيين بحججه الدامغة في العديد من كتبه، وتتميز مؤلفاته أنها تجمع بين البساطة والعمق، ولذلك فهي تناسب مختلف أنواع القراء، من مؤلفاته المترجمة إلى العربية (الإسلام يتحدى)، وهو أشهرها، وقد استفدنا منه في هذا المحل، و(الدين في مواجهة العلم)، و(حكمة الدين)، و(تجديد علوم الدين)، و(المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل)، و(خواطر وعبر)

2) نشير به إلى برتراند راسل (1872 ـ 1970)، وهو فيلسوف ورياضي وكاتب إنجليزي، وقد كان من أشهر الفلاسفة الذين عرفهم الفكر الفلسفي أثناء الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.. وقد ظل صاحب الخطوة الأولى لدى الذين يطلقون على أنفسهم تقدميين من المثقفين المعاصرين الملاحدة في أوروبا وغيرهم.. وهو ذو تطرف سياسي، ومتطرف جداً في إلحاده، وقد بسط أفكاره السياسية والإلحادية المتطرفة في كتابات أدبية مؤثرة.. أثرت كتاباته السهلة على العامة ، وأثرت كتاباته العميقة على الفكر الأوروبي المعاصر كله.

ونحن ننبه هنا إلى أنا لا نقصد هنا الرد على كل ما يرتبط بأفكار راسل، وإنما نقصد فقط التنبيه إليه.. ورد ما يرتبط بموضوعنا هذا من أفكاره.

قال راسل: فأنت تعرفني الآن جيدا؟

قال خان: ربما أعرفك.. ولكن مع ذلك ليس الخبر كالعيان.

قال راسل: لقد سئلت ذات يوم: هل يحيا الإنسان بعد الموت؟.. فهل تدري بما أجبت؟

قال خان: أجل.. لقد نفيت حياة الإنسان بعد الموت.. واستدللت لنفيك بقولك: (عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم، وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكز أو أساسٍ علمي، ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي يحدثه فينا الخوف من الموت. لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب، يعطينا أكبر العزاء عند موتهم، ولكني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفه وآمالنا، ولا أحسب أن من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية)[1]

قال راسل: فما موقفي من الدين؟

قال خان: لقد عبرت عنه بقولك: (إن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب، وبالتالي فإن الدين يشكل ضرباً من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم.. وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم يبلغوا بعدُ درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي هم وحدهم الذين ما زالوا يتمسكون بالمعايير الدينية التي تناهض بطبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة التي يجب أن تسود عالمنا الحديث)

قال راسل: فما موقفي من الأخلاق؟

قال خان: أنت ترى أن للإنسان إرادة حرة تدفعه إلى أن يقيم

---

1) انظر الرد على هذا القول وما يشبهه في رواية (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

لنفسه في الحياة مثلاً عليا، يطمح بها إلى تحقيق حياة خيرة، تسير على هدى المعرفة والمحبـة الإنسـانية، ومن شـأن حريـة الاختيـار هـذه أن تغـني الإنسـان عن البحث عن نظريـات أخلاقيـة لا طائـل وراءها.

وذكرت أنه لا جدوى للنظريات الأخلاقيـة التجريديـة لضـرورات الحياة العملية، وبرهنت على ذلك بالأم الـتي تواجـه مـرض طفلهـا الصـغير، وقلت في ذلــك: إن تلــك الأم لا تحتـاج في سـعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما تحتاج إلى طـبيب مـاهر قادر على وصف العلاج المناسب.

قال راسل: لقد كتبت قصة أدبية ذكرت فيها أن السـديم الحـار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى دوراناً ذاتيا، ثمّ نشـأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة، بطريق المصادفة، وأن اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون، يعود به كل شيء إلى سديم، كما كان أولاً.. أتعرف هذه القصة؟

قال خان: أجل..

قال راسل: أتدري ما الذي أقصده منها؟

قال خان: أنت تريد أن تبين من خلالها نشوء الكـون وتطـوره.. ونشوء الحياة وتطورها.. وأصل الإنسان ونشأته وتطـوره.. ونشـوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورهـا.. وأخـيراً أنت تشـدد على أن النهاية الحتميـة لجميـع الأشـياء، وأنهـا الفنـاء والعـدم، ولا أمـل لكائن بعدها بشيء.. فالحياة من السديم، وإلى السديم تعود.

قال راسل: أراك ملما بأفكاري.. ولكـني كمـا تعلم كنت متقلبـا كل حين.. فهل تعلم النهايـات الفكريـة الـتي جئت إليـك بهـا لعلـك تستطيع أن تقنعني بما يجعلني أعدل عنها؟

قال خان: أجل.. وإلا لما قبلت أن أناقشك وأنـاظرك، فلا يمكن لمناظر أن يجهل من يناظره.

قال راسل: فأخبرني عنها(1).

(1) ذكر وحيد الدين خان ، أنه قرأ كل أعمال (برتراند رسل) واستطاع بعد قراءتها أن يلتقط من أقواله ما يكشف عن النهايات الفكرية الـتي انتهى إليهـا.. ومـا نـذكره هنـا هـو

قال خان: من ذلك أنك ذكرت أنك بعد أن درست الفيزياء، وعلم الحياة، وعلم النفس، والمنطق الرياضي، انتهيت إلى أن (مذهب التشكيك في الوجود مستحيل نفسياً)، ومع ذلك فإن الإنسان عاجز عن أن يحيط إلا بأقل قدر من المعرفة.

وتقول بالنسبة إلى الفلسفة: (تدعي الفلسفة منذ القدم ادعاءات كبيرة، ولكن حصيلتها أقل بكثير بالنسبة إلى العلوم الأخرى)

وتقول عن تصورنا العلمي للكون أنه (لا تدعمه حواسُّنا التجريبية، بل هو عالم مستنبط كلياً)

وبلغ بك الأمر في هذا إلى أن قلت: (إن أفكار الناس لا توجد إلا في مخيلاتهم فحسب)، أي: إن التجربة لا تستطيع أن تثبت مطابقة هذه الأفكار للواقع.

وانتهيت إلى أن التجربة قد أعطيت لها الأهمية الكبرى، ولذلك يجب أن تخضع (التجريبية) باعتبارها فلسفةً لتحديات مهمة.. وقد ذكرت سريان هذا حتى على النظريات والقوانين العلمية.

وقلت..

قاطعه راسل، وقال: أحسب أنك تعرف كل ما قلت، بل تحفظه عن ظهر قلب.. فهل تعرف ما قيل في؟

قال: من أحسن ما قيل فيك ما قاله البروفسور (ألان وود)، فقد قال: (إن برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة)

قال راسل: دعنا منه، فقد أعماه الحسد أن يرى محاسني.. دعنا منه.. وهيا لما اجتمعنا من أجله.. لقد سمعت مني ما قلت.. فبم ترد علي؟

قال خان: سأبدأ بموقفك من الطبيعة.. أو ركونك إلى الطبيعة.. فأنت ترى ــ انطلاقا من معارفك في البيولوجيا ــ أن الحوادث تحدث طبقا (لقانون الطبيعة).. ولهذا لا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلها مجهولا.

هذه الأقوال التي جمعها وحيد الدين خان.

قال راسل: صحيح أنا أقول هذا.. ولست وحدي في ذلك.. فكل الفلاسفة الماديين يرددون هذا.

قال خان: لقد قال بعضهم يعبر عن علاقة الطبيعة بالكون: (إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له)).. وصدق في ذلك.. فما كشف عنه العلم من الكون هو الهيكل الظاهر منه فقط.. وكل مضمون العلم حوله هو إجابة عن السؤال: (ما هذا؟).. ولكن الدين هو الذي بين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور (وراء الكون)، وهو يجيب عن السؤال المهم:(ولكن لماذا؟)

ولتفهم هذا سأستعير لك مثالا بسيطا مقربا.. ألا ترى الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ويخرج منها بعدما تنكسر وكأنه مضغة لحم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه.. ولكننا اليوم بالمنظار نعلم أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير البيضة لينطلق خارجا منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

ابتهج راسل، وقال: ها هو العلم يقضي على التفسير الخرافي الذي جاء به الدين.. فالقرن هو الذي أخرج الكتكوت، لا الإله.

ابتسم خان، وقال: إن التأمل فيما كشفه العلم ــ بعيدا عن الغرور والكبرياء والزهو ـ لا يدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولا يفسر الحادث..

قال راسل: كيف ذلك؟

قال خان: إن العلم لم يكتشف بعد السبب الحقيقي.. لقد غير صيغة السؤال فقط.. فبدل أن يكون السؤال عن تكسر البيضة أصبح عن (القرن)؟

إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه

(مشاهدة للواقع على نطاق أوسع) ولكنه ليس تفسيرا له.

لقد ضـرب البروفيسـور (سيسـيل بـايس هامـان) وهـو أسـتاذ أمريكي في البيولوجيا، مثالا قريبا من هذا، فقـال: (كـانت العمليـة المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسـب من قبـل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا.. ولكن هل أبطل هذا وجود الإله؟.. فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟.. إن الغذاء بعد دخولـه فى الجسـم الإنسـاني يمر بمراحل كثـيرة خلال نظـام ذاتي، ومن المسـتحيل أن يتحقـق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتما علينا بعــد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن اللـه يعمـل بقوانينـه العظمى الـتي خلق بها الحياة!)

وعلى هذا المنوال نقول بأن الإنسان كان في القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عمليـة تبخـر المـاء في البحــر، حــتى نــزول قطــرات المــاء على الأرض وكــل هــذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيرا لها.

فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هـذه الوقـائع قـوانين؟ وكيـف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصـورة المفيـدة المدهشـة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟ والحقيقة أن ادعـاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعـة أنـه قـد كشـف تفسـير الكـون ليس سوى خدعة لنفسـه، فإنـه قـد وضـع بهـذا الادعـاء حلقـة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

لقـد قـال العـالم الأمـريكي سيسـيل في هـذا: (إن الطبيعـة لا تفسر شيئا (من الكون) وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير)

سأوضح لك هذا بمثال بسيط..

لو أنك سألت طبيبا: ما السـبب وراء احمـرار الـدم؟.. لأجـاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منهـا جـزء من البوصـة.. فتقـول لـه: حسـنا.. ولكن لمـاذا تكـون هـذه الخلايـا حمـراء؟.. فيجيبك: في هذه الخلايا مادة تسـمى (الهميوجلـوبين)، وهى مـادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب.. فتقـول لـه: هــذا جميــل.. ولكن من أين تــأتى هــذه الخلايــا الــتي تحمــل

الهيموجلوبين؟.. فيجيبك: إنها تصنع في كبدك.. فتقول لـه: عجيب! ولكن كيف ترتبط هـذه الأشـياء الكثـيرة من الـدم والخلايـا والكبـد وغيرها بعضها ببعض ارتباطا كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟.. فيجيبك: هذا ما نسميه بـ (قانون الطبيعـة).. فتقول لـه: ولكن مـا المـراد بــ (قـانون الطبيعـة) هـذا، يـا سـيدي الطبيب؟.. فيجيبك: المـراد بهـذا القـانون هـو الحركـات الداخليـة للقوى الطبيعية والكيماويـة.. فتقـول لـه: ولكن لمـاذا تهـدف هـذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة؟ وكيـف تنظم نشـاطها حـتى تطـير الطيور في الهواء، ويعيش السـمك في المـاء، ويوجـد إنسـان في الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانـات والكفـاءات العجيبـة المثـيرة؟.. فيجيبــك: لا تســألني عن هــذا، فــإن علمي لا يتكلم إلا عن: (مــا يحدث)، وليس له أن يجيب: (لماذا يحدث؟)

من هذه الأسئلة يتضح لك مدى صـلاحية العلم الحـديث لشـرح العلل والأسباب وراء هذا الكون.. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثــير من الأشـياء الــتي لم نكن على معرفــة بهــا، ولكن الــدين جــواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلميـة، فلـو أن هـذه الكشوف زادت مليون ضعف عنهـا اليـوم فسـوف تبقى الإنسـانية بحاجــة إلى الــدين، إن جميــع هــذه الكشــوف (حلقــات ثمينــة من السلسلة)، ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكــون شــرحا كليا وكاملا، فما الكون على حاله هذه إلا كمثـل ماكينـة تـدور تحت غطائها لا نعلم عنها إلا أنها (تدور)، ولكنا لو فتحنا غطاءهـا فسـوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة يـدور بعضـها بعضا، ونشاهد حركاتها كلها.. هل معـنى هـذا أننـا قـد علمنـا خـالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلهـا؟ هـل يفهم منطقيـا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقـاء ذاتهـا، وتقـوم بدورها ذاتيا؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقيا فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائيا ويتحرك ذاتيا؟

لقد استغل البروفيسور هريـز هـذا الاسـتدلال حين نقـد فكـرة داروين عن النشوء والارتقاء فقال:(إن الاستدلال بقانون الانتخـاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصـلح)، ولكنـه لا يسـتطيع أن يفسـر حدوث هذا الأصلح)

قال راسل: دعنا من هـذا، وأجبـني على مـا يقولـه علم النفس الحديث المؤيد بالكثير من الوسائل العلمية.. لقد أعطى هـذا العلم العظيم تفسيره للدين والإله.. **فذكر أن الإلـه والآخـرة ليسـا سوى قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مسـتوى الكون.**. ما تقول في هذا؟

ابتسم خان، وقال: سأجيبك عن هذا بصروف من الإجابات..

وأبدأ **أولهـا بالتسـليم الجـدلي لك**.. فـأعتبر أن مـا تقولـه صحيحا.. ولكني أضم إلى ذلـك دعـوى أخـرى، وهي أن الشخصـية الإنسـانية وأمانيهـا ليسـت محصـورة في الإنسـان فقـط.. بـل هي موجودة أيضا على مستوى الكون.. ولا يهمني ما عسـى أن يبطـل ادعائي هـذا من منطـق المعارضـين.. لأنـه ليس لـديهم ــ بالنسـبة للإنسان في هذا ـ أي دليل.

نحن نعرف أن المادة (الجنين) التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنـبئ في ذاتها عن إنسان طولـه 72 بوصـة، وأن (الـذرة) الـتي لا تقبـل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظـام الشمسـي، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مسـتوى النظـام الشمسـي في الـذرة موجـودا أيضا.. بل موجـود بصـورة أكمـل.. على مسـتوى الكـون.. فضـمير الإنسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا، فلو كـان هـذا الأمـل صدى لعالم حقيقي، فلست أرى في ذلـك أي ضـرب من ضـروب الاستحالة.

هذا أولا..

ثانيا.. أنـا لا أكـذب مـا يـورده علمـاء النفس وغـيرهم من أن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيمـا بعـد في صـورة غـير عادية.. ولكن سوف يكون قياسا مـع الفـارق أن نعتمـد على هـذه الفكرة كي نبطل الـدين.. لأن ذلـك قيـاس في غـير محلـه، وهـو ـ بذلك ـ يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى..

وذلك يشبه من يشاهد رجلا يصنع صنما، فيصيح: هذا الذي قام بعملية خلق الإنسان.

ثالثا.. أرأيت لو أن رجلا كان يسير في شارع، ثم أخذ يهذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنه في ذهنه.. فجاء فيلسوف مثل حضرتكم، وراح يستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء، وهو الكلام الذي يكشف سر هذا الكون..

ألا ترى أن هذا النوع من الاستدلال غير علمي وغير منطقي.. بل إنه يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين؟

ثم تخيل معي لو أن رهطا من سكان بعض الكواكب هبط الأرض، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام.. ولنتصور أنهم ذهبوا يبحثون عن الأسباب التي تجعل الإنسان يتكلم.. وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح واحتك غصنان أحدهما مع الآخر، فنتج صوت، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلن كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الإنسان، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت.

لا شك أن هذا الكلام صحيح.. ولكن واقع الكلام الإنساني أعظم من أن يفسر بمثل هذا.. فلهذا لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب كهذيان رجل الشارع، في حال الجنون أو الهستيريا.

رابعا.. لاشك أن اللا شعور - من الوجهة العلمية - ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن اللاشعور حقائق لم يعلمها من قبل..

ولكن الذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها؟

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع

العلـوم المعاصـرة(1) من الطبيعـة، والفلـك، وعلم الحيـاة، وعلم الإنسـان، وعلم النفس والتـاريخ والحضـارة والسياسـة والاجتمـاع وغيرها من العلوم..

وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشـعور)، فضـلا عن اللاشعور، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة.

أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هـذه العيـوب رغم اتصاله بجميـع العلـوم.. فقـد مـرت قـرون إثـر قـرون أبطـل فيهـا الآخرون ما ادعاه الأولـون، ومـا زال صـدق كلام النبـوة باقيـا على الزمان، ولم يسـتطع أحـد أن يـدل على باطـل جـاء بـه، وكـل من حاول ذلك أخفق.

خامسا.. لقد رأيت من خلال اطلاعي على مؤلفاتك ومؤلفـات إخوانك من الذين يسـتدلون بالتـاريخ أو الاجتمـاع أنكم لا تدرسـون الدين من وجه صحيح.. ولهـذا يبـدو في نظـركم شـيئا غريبـا.. أنتم تتناولون الدين على أنه (مشـكلة موضـوعية)، فلهـذا تجمعـون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) من رطب ويابس، في أي مرحلة من التاريخ، ثم تتأملون في ضوء هذا المحصـول حقيقـة الدين.

إن هـذا موقـف ينحـرف بكم عن الصـواب من أولى مراحلـه، ولهذا يبدو لكم الدين - جراء هذا الموقف الفاسد-عملا اجتماعيا، لا كشفا لحقيقة.. ومن المعلوم أن لكـل مـا يكشـف عن حقيقـة من الحقائق مثلا أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقـائق أن نـدرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى.. أما الأمور التي تأتى بهـا أعمـال اجتماعيـة فليس لهـا مثـل أعلى.. وبقاؤهـا رهن بحاجـة المجتمع إليها.

ومنهج البحث عن الدين يختلف عن هـذا كـل الاختلاف.. فليس من الصحيح البحث عن حقائقه، كما يبحث المؤرخون عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكـة والسـيارات، لأن الـدين علم على حقيقـة يقبلهـا المجتمـع أو يرفضـها، أو يقبلهـا في شـكل نـاقص..

(1) لا ينطبق هذا انطباقا صحيحا شاملا إلا على الإسلام ومصادره المقدسة، وقد برهنا على هذا بتفصيل في رواية (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين.

قال راسل: أراك انتقدت منهج بحثنا عن الإله.. فما المنهج الذي تراه سليما للبحث عنه؟

قال خان: هذا أهم سؤال طرحته.. وينبغي لأي باحث أن يطرحه.. فقضية العصر الحاضر وكل العصور ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال.

لقد كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب اعتقادا منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزنا، وحين قال بعضهم: إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب، أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا، وجاء نحاس فألقى بنعل من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية -بدل أن تطفو على سطح الماء- استقرت في القاع، وكان هذا العمل تجربة، ولكننا جميعا نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية.

وفي بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا، فلما شاهدنا السماء بهذا النظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما، ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض.

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة.

لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة

الواسعة، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا مـا تكـون أمورا سطحية وغير مهمة نسبيا، أما النظريات الـتي يتوصـل إليهـا بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها.

والعلم الحـديث لا يـدعى ولا يسـتطيع أن يـدعى أن الحقيقـة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشـرة، فالحقيقـة أن (المـاء سائل). ونستطيع مشـاهدة هـذه الحقيقـة بأعيننـا المجـردة، ولكن الواقـــع أن كـــل (جـــزيء) من المـــاء يشـــتمل على ذرتين من الهيــدروجين وذرة من الأكسـجين، وليس من الممكن أن نلاحــظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي.

يقـول في ذلـك البروفيسـور ا. ى. مانـدير: (إن الحقـائق الـتي نتعرفها مباشرة تسـمى (الحقـائق المحسوسـة)، بيـد أن الحقـائق التي توصـلنا إلى معرفتهـا لا تنحصـر في (الحقـائق المحسوسـة)؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشـرة، ولكننـا عثرنـا عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة)، والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفـرق هـو في التسـمية، من حيث تعرفنـا على الأولى مباشـرة وعلى الثانيـة بالواسـطة، والحقيقـــة دائمـــا هي الحقيقـــة ســـواء عرفناهـــا بالملاحظـــة أو بالاستنباط)

ويضيف ماندير قائلا: (إن حقائق الكون لا تـدرك الحـواس منهـا غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخـر؟.. هنـاك وسيلة، وهى الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكرى، نبتدئ به بوساطة حقـائق معلومـة حـتى ننتهي بنظريـة: أن الشـيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا)

قاطعه راسل، وقال: كيف يكون هـذا الرجـل بروفيسـورا وهـو يقول هذا؟.. كيـف يصـح الاسـتنباط المنطقي لأشـياء لم نشـاهدها قـط؟.. وكيـف يمكن أن نسـمى هـذا الاسـتنباط بنـاء على طلب العقل (حقيقة علمية)؟

ابتسم خان، وقال: لقد أجاب ماندير عن تساؤلك هـذا.. فقـال:

(إن المنهج التعليلي صـحيح، لأن (الكـون) نفسـه عقلي.. فـالكون كله مرتبط بعضه بالآخر؛ حقائقه المتطابقة، ونظامه عجيب، ولهـذا فإن أية دراسـة للكـون لا تسـفر عن ترابـط حقائقـه وتوازنهـا هي دراسة باطلة)

ويقول: (إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقـائق الكـون، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكـون جزئيـة، وغـير مرتبطة بالأخرى، فلـو طالعناهـا فـذة مجـردة عن أخواتهـا فقـدت معناها مطلقا، فأمـا إذا درسـناها في ضـوء الحقـائق الكثـيرة ممـا علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها)

ثم يأتى بمثال يفسر ذلك، فيقول: (إننـا نـرى أن الطـير عنـدما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصـعب ويتطلب جهدا، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه.. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يـوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظـاهرا، ثم نتعـرف على حقيقـة اسـتنباطية هي (قانون الجاذبية)، وهنا ترتبـط جميـع هـذه الحقـائق، فنعـرف ـ للمرة الأولى ـ أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام.. وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسـة مجـردة، فلن نجد بينها أي ترتيب، فهي متفرقة وغير مترابطـة ولكن حين نربـط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صـورة منظمـة للحقائق)

إن قانون (الجاذبية) لا يمكن ملاحظته قطعا، وكـل مـا شـاهده العلماء لا يمثل في ذاته قـانون الجاذبيـة، وإنمـا هي أشـياء أخـرى، اضطروا لأجلها- منطقيا- أن يؤمنوا بوجود هذا القانون.

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما، وهو الـذي كشـف عنـه نيـوتن لأول مـرة، ولكن مـا حقيقـة هـذا القـانون من الناحيـة التجريبية؟

لقد تحدث نيوتن في خطـاب أرسـله إلى (بنتلى)، فقـال: (إنـه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيهـا ولا إحسـاس وهى تـؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما)

فنظرية معقدة غير مفهومـة ولا طريـق إلى مشـاهدتها، تعتـبر

اليوم بلا جدال حقيقة علمية.. لماذا؟

لأنها تفسر بعض ملاحظاتنا فليس بلازم إذن أن تكـون الحقيقـة هي ما علمناه مباشـرة بالتجربـة، ومن ثم نمضـى إلى القـول بـأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض مـا نلاحظـه، وتفسـر لنـا مضـمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة.

قـال ذلـك، ثم التفت إلى راسـل، وقـال: كمـا رفض العلمـاء نظرية الضوء التي قدمها نيـوتن لأنهـا لم تنجح في تفسـير مظـاهر حديثة للضوء ؛ فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين لأنهـا فشـلت في تفسير مظاهر الطبيعة.

لم يجد راسل إلا أن ينصرف.. ولم يجد الجمع الملتف بهمـا إلا أن انضموا إلى وحيد الدين خان يسألونه.. وقد كان من شقائي أن تـركت الجمـع، ورحت أسـرع إلى (برترانـد رسـل) أسـأله عمـا لا يسمن من جوع، ولا يروي من ظمـأ.. ولعلي لـو اجتمعت معـه في ذلك الحين كما اجتمع أولئك الجمع لكفينا ما نبحث عنه، فقـد كـان للرجل من العلم والمنطق ما يجعلـك مسـتيقننا من أنـه يطـل من النافذة التي لا ترى منها إلا الحقائق.

المناظرة السابعة:

قــال الجمــع: حــدثتنا عن المنــاظرة السادســة، فحــدثنا عن السابعة.

قال: في شارع من شوارع تلـك المدينـة وجـدت رجلين يلتـف حولهما جمع كبير[1]..

أما أحدهما، فرجل تشع من عينيه أنـوار الحكمـة، وعلى سـمته يبـدو الوقـار، كـان الجمـع يطلـق عليـه اسـم (البـوطي)[2].. وقـد أخبرني بعضهم أنه رجل جاء من سـورية، وقـد قـدم أبـوه ــ الـذي

1) حاولنـا في هـذه المنـاظرة أن نلخص ــ باختصـار ــ مـا تنص عليـه أخطـر نظريـة إلحادية، وهي (المادية الجدلية)، أما تفاصيل الـردود عليهـا، فهي موجـودة في أثنـاء هـذه الرسالة، باعتبار أن هذه النظرية في جوهرها ليست سوى مزيج من نظريات مختلفة.

2) أشير به إلى أسـتاذنا الكبـير العلامـة (محمـد سـعيد رمضـان البـوطي)، وهـو من علماء الكلام المعاصرين الكبار.. وهو ضالع في العقائـد والفلسـفات الماديـة وخاصـة في نقد المادية الجدلية.

يسمى ملا رمضان ـ قبلها من جزيرة بوطان في تركيا إلى دمشـق واستقر فيها.. ولذلك صار يطلق عليه هذا الاسم.

وأمـا الثـاني، فرجـل عـريض المنكـبين، واسـع الجبهـة، كـثيف الشعر، داكن إلى حد الزرقة.. كـان يبـدو حيويـا نشـيطا لا يهـدأ لـه بال.. وكان الناس يطلقون عليه لقب (مـاركس)(1).. ولسـت أدري علاقتـه بمـاركس منظـر الشـيوعية.. ولكن الـذي أدريـه هـو أنـه لا يختلف عن ماركس المعـروف في أي شـيء.. لا في صـورته.. ولا في فكره.

سأقص عليكم بعض ما سمعت من حديث:

قال ماركس بعنف لمحدثه البـوطي: كم من مـرة طلبت منـك أن لا تذكر لي هيجل(2).. ماركس سميي هو صاحب هذا الفكـر.. لا هيجل..

قال البوطي بهدوء: لا بأس.. أنا لم أذكـر هيجـل إلا لأني رأيتـك تنهج نفس نهجه.

قال ماركس: بل هناك فرق كبير بيننـا.. إن الفـرق بيـني وبينـه كالفرق بينك وبيني..

قال البوطي: ولكنك تعتمد نفس الجدل الذي يعتمده.

قال ماركس: لكن جدلـه مثـالي.. وجـدلي مـادي.. واقعي.. ولا يمكن أن يجتمع هذان في محل واحد.

قـال البـوطي: لا بـأس.. سـأدع لـك الفرصـة لأن تحـدثني عن

---

1) أشير به إلى كارل مـاركس (1818-1883م)، وهـو فيلسـوفٌ ألمـاني واجتمـاعي وثوري محترف، كان المؤسس الرئيسي لحركـتين جمـاهيريَّتين قويـتين همـا: الاشـتراكية الديمقراطية، والشيوعية الثورية.. والوصف الذي ذكرناه له في الروايـة هـو وصـف أحـد أصدقائه له.

2) هو جورج ويلهلم فريدريك هيغـل فيلسـوف ألمـاني.. يعتـبر أهم مؤسسـي حركـة الفلسفة المثاليـة الألمانيـة في أوائـل القـرن التاسـع عشـر الميلادي.. من أهم ممـيزات هيجل ميله الحاد إلى التناقض والتعقيد، وقد انعكس تناقضه على المعجبين به والناقــدين له, فهو موجود في الماركسـية، وذا بصـمة واضـحة في الاجتهـادات البروتسـتانتية.. وهـو شاهد لدى الوجودين، ومرجع للبراغماتين.. وسنرى بعض ما يرتبط بفلسفته والتي اعتمد عليها ماركس في هذا المطلب.

مذهبك.. ولنتناقش فيه بعد ذلك.

قال ماركس: لا بأس.. فلسـفتي.. أو بـالأحرى فلسـفة سـميي العظيم كارل ماركس.. تتلخص في (المادية الجدلية).. تلك المادية الـتي تلخص حقـائق الوجـود في قـانون (لا إلـه والكـون مـادة).. وقانون (وحدة العالم تنحصر فى ماديته).. وقانون (المـادة سـابقة فى الوجــود على الفكــر).. وقــانون (لم يكن هنــاك وقت لم تكن المادة موجـودة فيـه، وليس هنـاك وقت لا تكـون المـادة موجـودة فيه).. وقانون (الإنسان نتاج المادة).. وقانون (الفكـر نتـاج الـدماغ والدماغ مادة).. وغيرها من القـوانين الـتي تفسـر الوجـود والحيـاة والإنسان.

بالإضافة إلى (المـادة الجدليـة).. ففلسـفتي تنص على قـوانين (المادية التاريخية).. وعلى قوانين (المـذهب الاقتصـادى الشـيوعى مع الأوضاع السياسية والاجتماعية المصاحبة له)

لكني لن أحدثك الآن إلا عن مذهبي الذي فسرت بــه الوجــود.. كل الوجود..

وإن شـئت الصــراحة.. فسـميي مـاركس اعتمـد في نظريتـه العظيمـة على ثلاثـة أركـان كـبرى تقـوم عليهـا الفلسـفة الغربيـة المتحضرة..

أما **أولها**.. وهو الفكر الذي يفسر الوجود بالمادة البحتة.. فلنـا فيه أساتذة كثر.. ابتدأوا منذ بـدأت هـذه الحضـارة.. لكن أشـهرهم اثنان (أوجست كونت)، و(فرباخ)(1).. وقـد قـامت فلسـفتهما على سيادة الطبيعة، بل عبادتها.. فالطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان.. وهى الـتى تـوحى بهـا وترسـم معالمهـا.. هى الـتى تكون عقـل الإنسـان.. والإنسـان – لهـذا – لا يملى عليـه من ذاتـه الخاصة.. إذ ما يأتى من (ما وراء الطبيعـة) خـداع للحقيقـة، وليس حقيقة..ومثله ما يتصوره العقل من نفسه هو ليس إلا وهما وتخيلا للحقيقة، وليس حقيقة أيضا.

---

1) سبق أن أشرنا إلى مضمون هذه الفلسفة.. ونحب أن ننبه ـ هنا، بناء على ما ذكـر الباحثون ـ أن الاتجاه المادى قديم فى الحيـاة الأوروبيـة ، فهـو يتجلى فى بعض اتجاهـات الفلسفة الإغريقية القديمة، واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية..

وبناء على هذه النظرة يكون الدين الذي يعبر عما بعد الطبيعـة مجرد خدعة.

وأما الركن الثاني، وهو الجدليـة فقـد كـان من أسـاتذة سـميي فيها (فيشته) و(هيجل).. وقد كان الأصل فى هذا النوع من التفكير الجدلى الـدياكتيكى هـو البحث عن تصـور فلسـفى يسـمح بوجـود المتناقضات فى الكون والحياة ويفسرها.

ذلك أن المنطق اليونانى القديم، وهـو المنطـق الصـورى كـان ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكـر الأوروبى منـذ عصـر النهضـة كـانت لـه التفاتـات مختلفة عنه فى مجالات متعددة.. حتى إذا كان النصـف الثـانى من القرن الثامن عشر الميلادى عصر سيادة العقل.. أو عصر التنوير.. قـام فلاسـفة يشـيرون إلى وجـود التنـاقض فى الكـون والحيـاة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

أما فيشته، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سـيادة العقـل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة..

وأما هيجل فاستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهـة، ثم لدعم فكـرة الألوهيـة من جديـد، وتأكيـد الـوحى كمصـدر أخـير للمعرفة، فهو يعتبر الخالق عقلا.

لقد تصور هيجل ـ الذي أردت نسبة فلسـفتي إليـه ــ أن هنـاك فكـرة مطلقـة.. أطلـق عليهـا اسـم (العقـل المطلـق) – وهي مـا تسـمونه (اللـه) – انبثقت عنـه الطبيعـة، وهى تغـايره تمامـا، لأنهـا مقيدة ومتفرقة وهى عنده العقـل المقيـد.. ثم انتقلت الفكـرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشئ ونقيضـه، وهـو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها.

وهـذا العقـل المجـرد يتمثـل فى القـانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. فالعقل المجرد الذى يتحقــق فى أى وحدة من هذه القيم العاملـة المـذكورة جـامع للمتقـابلين:

جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق، ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

هذا هو الركن الثاني، وأما الركن الثالث.. فهو العظيم دارون صاحب نظرية التطور..

لقد جاء دارون يؤله الطبيعة، ويقول عنها: إنها تخلق كل شئ، ولا حد لقدرتها على الخلق.. وجاء ليؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطور ذاته – الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان – هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

هذه هي الأركان الثلاثة التي تم بامتزاجها جميعا فكر العظيم سميي ماركس..

ابتسم البوطي، وقال: فما الجديد الذي أتى به ماركس ما دمت قد ذكرت أنه اعتمد على كل هؤلاء؟

قال ماركس: أتى بالجديد الذي يأتي به الطباخ الماهر حين يمزج بين الخضر والتوابل وغيرها ليكون منها طبخة تسترق البطون.

ليس ذلك فقط.. بل أضاف إليها أشياء كثيرة جعلت من فلسفته عملا متميزا قل نظيره في جميع الفكر البشري.

لقد أنشأ ماركس فلسفة مترابطة متكاملة تشمل كل القضايا المحيطة بالإنسان.. وتشملها جملة وتفصيلا على نحو غير مسبوق فى الفكر الغربى..

قال البوطي: فحدثنا عن هذه الفلسفة المتميزة.. واقتصر منها على الجانب المرتبطة بتفسير الوجود.

قال ماركس: لقد ذكرت لك أن ماركس فسر الوجود بالماديــة الجدلية.. وهي الفكرة التي تعزل ما تسمونه (اللـه) عـزلا تامـا عن تفسير الوجود.. فالمادة هى الشئ الوحيد الأصيل فى هذا الكــون، وكل مـا فى الكـون ومن فيـه منبثـق منهـا ومحكـوم بقوانينهـا، ولا وجود له خارج نطاقها.

كما تقوم على أساس وجود التنـاقض فى طبيعـة المـادة، ومن ثم فى كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانـات بمـا فى ذلـك الكيـان الإنسـانى، فهـو كيـان مـادى من جهـة، ومحكـوم بصـراع المتناقضــات من جهــة أخــرى، وتلــك هى حقيقــة كــل أفكــاره ومشاعره، وكل نظمه ومؤسساته، وكل قيمة ومبادئه، وكل حركته خلال التاريخ.

لقد ذكرت لـك أننـا أخـذنا من هيجـل جدليتـه.. ولكنـا مـع ذلـك نخالفه مخالفة أساسـية، فهيجـل اعتـبر الفكـرة هى الأصـل، وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها، بينما نحن نقــول: إن المادة هى الأصل، وهى سابقة على الفكرة ومسيطرة عليها..

ولهذا سـميث جدليـة هيجـل (الجدليـة المثاليـة)، بينمـا سـميت جــدليتنا (الجدليــة الماديــة) أو (الماديــة الجدليــة)، أو (الماديــة الديالكتيكية)

أما (الله)، فهو عنـدنا لا يعـدو أن يكـون خرافـة ابتـداعها خيـال الإنسان.. لأن الحقيقة الوحيـدة هى المـادة، والوحـدة الـتى تجمـع الكون هى ماديته.

قـال ذلـك، ثم التفت إلى البـوطي، وقـال: هـذه هي فلسـفتي العظيمة.. فهل ترضى بأن تكـون حواريـا لمـاركس، رفيقـا لي في التبشير بها.

ابتسم البوطي، وقال: اصبر عليك لأعرض عليك ما انتـابني من الشـبهات أثنـاء عرضـك لفلسـفتكم العظيمـة، فـإن أجبتـني عنهـا، فسأسير معك إلى أي حزب شيوعي لأنضم إلى رفاقك فيه.

قال مـاركس: تفضـل.. يسـتحيل أن توجـد شـبهة لا يوجـد لهـا جواب.. ما دام الدياليكتيك موجودا، فلكل سؤال جواب.

قـال البـوطي: أولا.. اسـمح لي أن أبين لـك أن الـدوافع الـتي دفعت إلى مثل هذه الفكرة دوافع غير معقولة ولا موضوعية.

ذلك أنها انطلقت من واقع منحرف للدين.. وهي بالتالي كـانت نوعا من الهروب الكنيسة وإله الكنيسة..

وإلا فـإن الطبيعـة والمـادة لا يمكنهـا أن تفسـر الوجـود بتلـك الصورة التي فسرت بها.. ذلك أن أي ذهن سيتساءل لا محاله: مـا الطبيعـــة على وجـــه التحديـــد؟.. وأين تكمن قـــدرتها على الخلق؟..وفى أى مكان منها؟

أم أنـه ليس لهـذه القـدرة مكـان ولا حـيز؟.. فـإذا لم تكن محسوسـة، ولم يكن يحـدها المكـان ولا الحـيز، وكـانت (غيبـا) لا تدركه الأبصار، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره، فما الذى يـبرر فى منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقى، اسم (الله)، ونلجـأ إلى هذه المسميات؟

وإن كان (الله) فى هذا المنطق لا حقيقة له، فما الـذى يـبرر – فى منطق العقل أو فى منطق العلم – أن يقـول قائـل: إنـه ليس حقيقة حين يكـون اسـمه (اللـه)، ثم يكـون هـو ذاتـه حقيقيـة حين يكون اسمه (الطبيعة)؟

إن كان سبب هذا التحريف هو الخوف من الكنيسـة وطغيانهـا، أو هو البغض لها والحقد عليها.. فليكن ذلك..

وفي هذه الحالة، فلنهجر الكنيسة، ونفـر منهـا إلى اللـه الحـق، وهو إله لا كنيسة له فى الحقيقة، ولا رجال دين.

ثم ما المادة الأزلية الأبدية الخالقة، وما قصتها؟

وكيف نناقشها مناقشة علمية؟

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ــ أن القـول بـأن (المـادة لا تفـنى ولا تستحدث) لم يعد صحيحا من الوجهـة العلميـة، وهـو القـول الـذى تصيده أساتذتك تصديا فى نهاية القرن الماضى ليبنوا عليه تفسـيرا علميا للكون والحياة والإنسان، ولقضية الألوهية؟

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ــ أن طلاب الجامعات يدرسون هذه الأيام أن الكون المادى حدث ذات يوم، ولم يكن موجودا من قبل، وأن عمر هذا الكون المادى يكاد يحدد الآن تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك.

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ـ أن ماركس وإنجلز ولينين وغيرهم من أساتذتك العظام لم يكونوا مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه، ولكنهم ـ مع ذلك ــ مسئولون ولا شك مسئولية كاملة عن دعواهم بأن المادة هى التى تخلق، وأن من بين خلقها الإنسان؟

ما الدليل العلمى على هذه الفرية؟

متى شوهدت المادة وهى تخلق؟ وكيف تخلق؟!

بعد هذه التساؤلات المنطقية، والتي أرجو أن تكشف لي غموضها.. فسأناقشك فيما ذكره أساتذتك العظام من مبادئ الطبيعة وقوانينها(1).

أما ما ذكروه من أن الطبيعة كلٌّ واحد متماسك ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً، فذلك صحيح.. وهو ـ عند المؤمنين ــ ظاهرة تدل على أن الخالق البارئ المصور واحد مهيمن على كونه.. وهو يدبّره كله بنظام واحد مترابط الأسباب متشابك العناصر.

أما ما ذكروه من أن الطبيعة (أي الموجود المادي الذي هو كل الوجود) سرمدية أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية، فهو ادّعاء منقوض ببراهين العقل ودلائل العلم، التي تثبت حدوث الكون، وتثبت مصيره إلى الفناء.. وما عليك إلا أن تسير في هذه البلدة قليلا لترى من العلماء من يبين لك ـ حسا ـ أن المادة ليست أزلية كما تزعمون(2).

---

1) هذه المناقشات ملخصة بتصرف واختصار من كتاب (كواشف زيوف) لحبنكة.. وقد اقتصرنا منها على الجانب المتعلق بالمادية الجدلية، دون سائر المبادئ الشيوعية المرتبطة بالتاريخ والاقتصاد لعدم تناسبها مع الموضوع.

2) ذكرنا الأدلة العلمية الكثيرة على ذلك في هذا الفصل.

أما ما ذكروه من أن الطبيعة ليست ساكنة، بل هي ملازمة للحركة، وهي في تطور وتغير دائمين.. فهو مبدأ لا حرج فيه.. بل إنه من مقررات المؤمنين بالله، سواءٌ أكانوا أتباع دين رباني صحيح أو فلاسفة مثاليين.. وهو من الأدلة التي هدتهم إلى حدوث الكون، وحاجته إلى محدثٍ خالق بارئ مصور، إذ يقولون: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فالعالم لا بد له من محدث(1).

أما ما ذكروه من أن الوعي لمادة عالية التنظيم وهي الدماغ، وأن الحياة وظيفة من وظائف المادة متى وصل تركيبها إلى وضع خاص، فهو مخالف لما كشفته العلوم الكثيرة.. فآخر ما توصلت إليه العلوم الإنسانية، والتي أنفقت في سبيلها ألوف الملايين، وعشرات السنين، قد انتهت إلى قرار علمي جازم هو أنه لا تتولد الحياة إلا من الحياة، وأن وسائل العلوم الإنسانية لا تملك تحويل المادة التي لا حياة فيها، إلى أدنى وأبسط خلية حية(2).

---

1) ذكرنا هذه النوع من الاستدلال في المناظرة الأولى.

2) هذا من الحقائق العلمية التي لم تزدها الأيام إلا تأكيدا، وقد تواترت شهادات العلماء على ذلك، يقول (رسل تشارلز إرنست) أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا:(لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس أو تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوى التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات.. ولكن الواقع الذى ينغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود الذى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها)

ويضيف: (إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحياة الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا (من مقال (الخلايا الحية تؤدى رسالتها) من كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) ، ص 77)

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة أيووا وإخصائى وراثة التبانات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان): (إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها ، والتى لا يحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا – بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها – كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكون الحياة) (الله يتجلى فى عصر العلم، ص

وبما أن الوعي مرتبط بالحياة فهو مظهر من مظاهرهـا وصـفة من صفاتها، فلا سبيل للمادة الميتة أن يكون الوعي أحد وظائفهـا، مهما كانت عالية التنظيم(3).

على أن مبدأهم هذا هـو في الأسـاس ادعـاء غـير مقـترن بـأي دليل عقلي أو علمي، وهو من لوازم مبـدئهم الأول الباطـل الـذين يرون فيه أن المادة هي أساس الوجود وجوهره.

أما مـا ذكـروه من أن كـل الأشـياء وحوادثهـا تحـوي تناقضـات داخلية، مجتمعة متزاحمة في وحدة، يعبرون عنهـا بوحـدة الأضـداد أو وحدة المتناقضات. وهي تتصارع فيما بينهـا وفـق نظـام (جدليـة هيجل) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد لأنـه السـبيل الوحيـد لحل التناقض أو التضادّ القائم بينها.. فهي قضـية تحـوي مغالطـات كثيرة.

منها أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسـلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مسـتحيل عقلاً.. ولا يرتفعان معاً من شيء واحـد في وقت واحـد، وارتفاعهمـا معـاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معـاً، ولا موجبـاً وسـالباً معـاً من الجهـة الـتي يكـون فيهـا موجباً.. ولا يكون الشـيء الواحـد في الـوقت الواحـد غـير موجـود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً.

ومنهـا أن الضـدين كـالأبيض والأسـود، وكـالواجب والحـرام، وكـالجبر على الهدايـة والجـبر على الضـلال، لا يجتمعـان معـاً في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً. فلا يكـون الشيء الواحد بالذات أبيض وأسود معاً من الجهة نفسها في وقت واحد، ولا يكون حكم العمل الواحد واجباً وحراماً معاً فيوقت واحـد لشخص واحد من جهة واحدة، ولا يكون المخلـوق الواحـد مجبـوراً على الهداية ومجبوراً على الضلالة معاً، في وقت واحد، ومن جهـة واحدة.

(52

3) الوعي المراد هنا هو الوعي الكامل.. أمـا أصـل الـوعي فقـد ذكرنـا في مناسـبات كثيرة أنه لا تخلو منه ذرة من ذرات الكون.. انظر رسالة (أكوان الله)

لكن الضدين ـ خلافا للمتناقضين ــ قــد يرتفعـان معــاً في وقت واحد، فيكون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحــد، إذ قــد يكون أحمر أو أصفر أو غير ذلك من ألوان..

لكن المادية الجدلية نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نسـفاً كلياً، فأقامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضـات اسـتهانة بالغـة بالعقـل البشري، وإقامـة مـذهب كامـل على أمـر باطـل واضـح البطلان.. فاللحظة التي يكون فيها الشـيء متحركـاً، لا يمكن أن يكـون فيهـا سـاكنا، واللحظـة الـتي يكـون فيهـا سـاكناً لا يمكن أن يكـون فيهـا متحركاً.. لكن الشيء الواحد قـد تتـداول عليـه الحركـة والسـكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقـد ينخـدع بذلك بعض أهل الفلسـفة، فيظن أن السـكون كـامن في الحركـة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضـين بتمـاس السـالب والمــوجب في الكهربــاء، الــذي ينجم عنــه الظــواهر الضــوئية والحركية.. لكن التمثيل بهذا تمثيل باطل، فالسالب والمـوجب في الكهرباء ليسا ضدين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلـك بـأي شيء غير كهربـاء في الوجـود، فالخشـب والحجـر والـتراب والثلج والملح والحلاوة والملاســة والخشــونة وغــير ذلــك كلهــا ليســت بكهرباء.

أما السلك السالب في الكهرباء، فليس هـو السـالب المنطقي للكهرباء، إنما هو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتان متنافرتان متقابلتان، إذا تماسا تفـاعلا، فأنتجـا بحسـب قـوانين إنتاجهمـا ظـواهر ضـوئية أو حركية، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما.

إن القــوى المتنـافرة والمتآلفـة والمتفاوتـة كلهـا إذا تلاقت أو تماسـت أو اجتمعت كـانت ذات آثـارٍ مـا، وآثارهـا تخضـع لقـوانين

خاصة بكل منها.

أما ما ذكروه من أن حركة التطور هي تغير ينتقـل من تغـيرات كمية تتراكم، إلى تغيرات كيفية، بشكل سـريع ومفـاجئ وارتقـائي من حالـة أدنى إلى حالـة أعلى وبشـكل ذاتي.. فـإن هـذا المبـدأ لا يمكن أن يعتـبر قانونـاً عامـاً ينطبـق على كـل حركـة تطـور في الطبيعة، فالعلوم المادية الإنسانية لا تقر به، وهـو إن صـدق ببعض الأمثلة، فإنه لا يصدق بآلاف الأمثلة الأخرى.

إن التراكم في الكم لا يقتضي دائماً تطـورا في الكيـف، مـا لم يكن نظام ذلـك الشـيء يقتضـي ذلـك.. فالملاحظـة تثبت أن لكـل حالة تطور في الكون شـروطاً معينـة في أنظمتـه وسـننه الثابتـة، فمتى استوفيت هذه الشروط تحقق التطور.

فبيضة الدجاجة الملقحة إذا وجـدت ضـمن حـرارة ذات مقـدار معين، ورطوبة ذات مقدار معين، بدأ جنينهـا يتكـون تـدريجياً حـتى يتكامل داخل القشرة، وفي نهاية ثلاثـة أسـابيع يكـون قـد تكامـل، وبدأ ينقر القشـرة من الـداخل حـتى يكسـرها، وعندئـذٍ يخـرج من غلافه إلى الهواء، ليبدأ رحلة حياته على الأرض.

لقــد حصــل التطــور، ولكن على خلاف مــا ادعــاه أســاتذتك المدعين، فلا تراكم الحـرارة هـو الـذي أحـدث ظـاهرة التغـير، ولا تراكم الرطوبة، بل ثبات درجة الحرارة، وثبات درجة الرطوبة، قــد سـاعدا على تكـون جـنين البيضـة تكونـاً تـدريجياً، ضـمن الـوقت المخصص في نظام الكون لتكامل تكوينه.

ولو أن الحرارة تـراكمت أكـثر من المقـدار المحـدد في نظـام التكوين لسلقت البيضة، ولهلكت نواة جنينها، ولو زاد هـذا الـتراكم لاحترقت البيضة.

فنظام الكون هو نظام تحديد مقادير لكل شيء، ضمن خطــط ثابتة، وليست تغيراته ثمرة تراكمات.. هذه هي الحقيقة الـتي تـدل عليها الملاحظات والتجارب العلمية، وهي التي أعلنها قول الله عز وجل:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)(الرعد: من الآية8)

إن هذا المثال وحده كافٍ لنقض فكرة الـتراكم الـتي تعتبرونهـا

قانوناً شاملاً لكل تطور في الوجود.. وهو كافٍ لنقض فكرة التطور السريع المفاجئ، إذ الأمور تتطور في الغالب تطوراً تدريجياً..

بالإضافة إلى هذا، فإن الكائنات الحية تبدأ حركة بنائها منذ لحظة التقاء خلية لقاح الذكر بخلية ببيضة الأنثى، ثم يسير بناء الكائن في نمو متدرج، حتى إذا استوفى الشروط اللازمة لظهور الحياة دبت الحياة فيه.. ثم يسير ضمن نظام نمو متدرج، حتى إذا استكمل نموه الجنيني، تمخضت عنه أمه فولدته.. ثم يسير في نمو تدريجي حتى يبلغ، ويتدرج في النماء حتى يكون شاباً فكهلاً.. ثم يعود إلى طور الانحدار، فيصير شيخاً، فهرماً، ثم يقضي أجله المقدر له، فيموت، فيتفسخ جسمه، ويعود تراباً كما بدأ من التراب.

وقد يموت في أي مرحلة من المراحل السابقة، فينحدر ويعود إلى مثل مرحلة البدء، دون أن يمر في المراحل المعتادة للأحياء.

وتخضع كل المراحل لنظام المقادير المحددة في كل شيء، في العناصر، وفي الصفات، وفي الزمان، وفي درجة الحرارة، وفي سائر ما يلزم لتكوين الحي، وإعداده لأداء وظائفه.

ولهذا، فإن فكرة التراكم المقررة عندكم فكرة منقوضة، ذلك لأن الأحياء تخضع لنظام المقادير المحددة سواء في جواهرها وأعراضها، ولا تخضع لفكرة التراكم الكمي.. ومثلها فكرة التطور السريع المفاجئ، ذلك أن الأحياء تسير وفق نظام البناء المتدرج، لا وفق التطور السريع المفاجئ.

وفكرة الارتقاء المقررة عندكم على أنها قانون شامل عام، فكرة لا تصلح لأن تكون مبدأ عاماً، فعمومها منقوض، وذلك لأن تطور الأحياء ليس حركة ارتقائية دائماً، بل قد تكون حركة إلى الأدنى أو إلى المساوي.. فالتعميم المدعى في المبدأ تعميم باطل.

ما وصل البوطي من حديثه إلى هذا الموضوع حتى رأيت وجه ماركس قد تغير تغيرا شديدا، ثم راح يسير مطأطئا الرأس.. لا أدري لم، ولا أدري أين.

المناظرة الثامنة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الثامنة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت جماهير من الناس تلتف حول رجلين: أما أحدهما، فكان اسمه (عبد الرحمن حبنكة)(1). وأما الثاني، فكان الناس يطلقون عليه لقب (العظم) (2).. ولست أدري سر هذا اللقب العجيب.

كان أول ما بدأ به العظم حديثه أن قال ـ كما قال الكثير ممن سبقه ـ: لن أناظرك حتى تخبرني ـ أولا ـ عمن خلق الله؟

قال العظم: لقد حدثنا الرسول ﷺ عن هذه الوسوسة الشيطانية، فقال:(يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللهِ ولينته)(3).. وفي حديث آخر قال ﷺ:(لا يزال الناس يتساءلون

1) أشير به إلى عالم الشام الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة، وقد استفدنا هذه المناظرة الافتراضية من كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)

2) أشير به إلى صادق جلال العظم، وهو أحد أساطين الفكر الشيوعي المادي ، وملحد من كبار الملاحدة ، ممن أخذ يجاهر بالإلحاد ، ويدعو إليه ، قضى عمره في السخرية من المسلمين ومن دينهم ، وكفر بكل شيء إلا المادة.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم) (ص 12-13) ـ والذي استفدنا منه هذه المناظرة الافتراضية ـ بأن العظم ألف كتابه السابق (خدمة للماركسية والداروينية والفرويدية، وسائر النظريات، بل الفرضيات اليهودية الإلحادية، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي والمناهج العلمية الحديثة، ولا يقدم من البينات إلا قوله مثلاً: إن العلم يرفض هذا، أو لا يُسلم بهذا، أو يثبت هذا، دون أن يطرح مناقشات علمية نقدية تتحرى الحقيقة).

وقد قام بالرد على العظم كثير من العلماء والكتاب؛ من أبرزهم:

الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)، وهو الذي استفدنا منه هنا في هذا المحل، واقتصرنا على ما يرتبط بالإيمان بالله.

الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه (هوامش على كتاب نقد الفكر الديني)

الأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه (الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني).

الأستاذ محمد عزت نصر الله في كتابه (تهافت الفكر الاشتراكي)

الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (القرآن والملحدون)

الدكتور عبداللطيف الفرفور في كتابه (تهافت الفكر الجدلي)

3) رواه البخاري ومسلم.

حتى يقال: هذا خلق الله الخلـق، فمن خلـق اللـه؟ فمن وجـد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله ورسله) (1)

ضحك العظم بهستيرية، ثم قال: ما بالك يـا رجـل تحـدثني عن نبيك.. لو كنت أؤمن به ما جلست معك هذا المجلس.. أنا أريــد أن تخاطبني بالعقل.. فأنا لا أؤمن إلا بالعقل..

أنـا في حيـاتي لا أؤمن إلا بشـيئين: أولهمـا العقـل.. وثانيهمـا الدينونة بالاحترام والتقدير لإبليس المظلوم(2).

اسـمع منهجي في التفكـير.. اسـمع المنهج العلمي الحقيقي.. اسمع ما قلته في بعض كتبي منطلقا من هذا التسـاؤل لأصـل إلى أن الإيمان بالله لا يعـدو أن يكـون خرافـة كسـائر الخرافـات الـتي امتلأت بها العقول المتخلفة.

فتح كتابا كان يحمله، وراح يقرأ بصوت جهوري ممتلئ غـرورا.. (حتى لو سلمنا كلياً بالنظرة العلمية للأشياء ستبقى أمامنا مشـكلة المصـدر الأول لهـذا الكـون. لنفـترض مـع (رسـل) أن الكـون بـدأ بسديم، ولكن العلم لا يقول لنـا: من أين جـاء هـذا السـديم، إنـه لا يبين لنـا من أين جـاءت هـذه المـادة الأولى الـتي تطـور منهـا كـل شيء؟ فلا بد للعلم إذن من أن يتصل بالدين في نهايــة المطـاف.. ولكن طرح السؤال بهذه الصورة يبين لنا مدى تحكم تربيتنا الدينية وتراثنا الغيبي في كل تكفيرنا.. لنفـترض أننـا سـلمنا بـأن اللـه هـو

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رغم إلحاد العظم وعدم إيمانه بالله.. ولا بجميع عوالم الغيب إلا أنه عقد فصلاً في كتابـه (نقـد الفكـر الـديني) يـدافع فيـه عن (إبليس) سـماه (مأسـاة إبليس) (ص55 ومـا بعدها) ردد فيه شبهات إبليس التي نقلتها بعض الكتب السابقة في اعتراضه على القــدر؛ ككتاب (الملل والنحل) للشهرستاني (7-10)

ثم ختم كلامه بقوله عن إبليس (ص85): (يجب أن نرد له اعتباره بصـفته ملاكـاً يقـوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص، ويجب أن نكف عن كيل السباب والشـتائم لـه، وأن نعفـو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيراً)

وقد ذكر سبب بحثه في هذا مع عدم إيمانه به، بقوله في (ص57): (يدور (بحـثي) في إطار معين لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق؛ ألا وهـو إطـار التفكـير الميثولـوجي الـديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملكاته الخرافية) فهو يريـد دراسـة شخصـية إبليس (باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسـان الخرافيـة، وطورهـا وضـخمها خيالـه الخصب)

مصدر وجود المادة الأولى، هل يحل ذلك المشكلة؟ هل يجيب هذا الافتراض على سؤالنا عن مصدر السديم الأول؟ والجواب هو طبعاً بالنفي.. أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول وتجيب بأنها اللــه، وأنا أسألك بدوري وما علة وجـود اللـه؟ وسـتجيبني بـأن اللـه غـير معلول الوجود، وهنا أجيبك: ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غــير معلولــة الوجــود، وبــذلك يُحســم النقــاش دون اللجــوء إلى عــالم الغيبيات، وإلى كائنات روحية بحتة لا دليل لنـا على وجودهـا، علمـاً بأن ميل الفلاسفة القدماء بما فيهم المسلمين كان دائماً نحـو هـذا الرأي إذ قالوا بقدم العـالم، ولكنهم اضـطروا للمـداورة والمـداراة بسبب التعصب الديني ضـد هـذه النظـرة الفلسـفية للموضـوع[1]، في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حـول كـل مـا يتعلـق بمشكلة المصدر الأول للكون)[2]

ابتسم حبنكة، وقال: هل انتهيت؟

قـــال العظم: ألا يكفي هـــذا الكلام العلمي لأن يجعـــل هـــذا المجلس ينفض؟.. لقد أتيت بفصـل الخطـاب.. ولا يمكن لأحـد في الدنيا أن يعقب على حرف واحد مما ذكرت.

قال حبنكة: اسمح لي أن أعقب على مـا ذكـرت.. فقـد اتفقنـا جميعـا، ومعنـا هـذا الجمـع على أن لا نعظم إلا الحقيقـة.. الحقيقـة وحدها، بغض النظر عمن يمثلها، هل أنا أم أنت؟

طأطـأ العظم رأسـه، فقـال حبنكـة: سـأبدأ حـديثي معـك عن تساؤلك عن علة وجود المصـدر الأول للأشـياء، وزعمـك أن إحالـة المؤمنين ذلك على الله تعالى يساوي نظرياً وقوف الملحــدين عن السديم، الذي اعتبروه المادة الأولى لهـذا الكـون.. فكلا الفـريقين عندك متساويان مع فارق مهم، وهو أن الملحد اعـترف بهـذا قبـل المؤمن بخطوة واحدة.. فهل هذا ما تقصده؟

قال العظم: أجل.. أم أنك تحتقر ما ذكرت؟

1) لا شـك أن هـذا من المفتريـات، فـأكثر فلاسـفة الإسـلام كـانوا من الملـتزمين بالإسلام، بل حاولوا نصرته بما أتيح لهم من أدوات لم تتح لغيرهم.

2) نقد الفكر الديني:ص28.

قال حبنكة: لا.. أنا لا أحتقر ما ذكرت.. ولكـني أقـرره لأناقشـه عن بينة.

قال العظم: إن كان لـديك قـدرة على نقض ذلـك الكلام، فهلم به.

قال حبنكة: اسمح لي أن أذكر لك بـأن مـا ذكرتـه ليس سـوى مغالطــة من المغالطــات الفكريــة.. وهي مغالطــة قائمــة على التسوية بين أمرين متباينين تبايناً كلياً، ولا يصح التسـوية بينهمـا في الحكم.

غضب العظم، وقال: لا ينبغي لك أن تقول هـذا.. إن مـا تقولـه خطير..

قاطعه حبنكة بهدوء، وقال: اصبر علي كما صـبرت عليـك.. فلا يمكن أن ننفعل أثناء حوارنا.

هدأ العظم، فقال حبنكة: إن الترجمة الصحيحة لكلامك هي (ما دام الموجـود الأزلي غـير معلـول الوجـود، فلم لا يكـون الموجـود الحادث غير معلول الوجود أيضاً؟)

وكل ذي فكر صـحيح سـليم من الخلـل يعلم علم اليقين أنـه لا يصـح أن يُقـاس الحـادث على القـديم الأزلي الـذي لا أول لـه، فلا يصح أن يشتركا بناء على ذلك في حكم واحد.

وعلى هذه الطريقـة من القيـاس الفاسـد من أساسـه صـيغت تلك المغالطة الجدلية..

نعم.. أنتم تتفننــون في ســتر عــورة هــذه المغالطــة، وذلــك بعبـارات التقـدم العلمي، والمنـاهج العلميـة، والتقـدم الصـناعي، والمنـاهج العقليـة في تقصـي المعرفـة، والاتجاهـات الثوريـة في المجتمع والاقتصاد.. وتخلطون هـذه العبـارات خلطـاً.. وتحشـرونها في كـل مكـان ومـع كـل مناقشـة، تمويهـاً وتضـليلاً، وكـأن التقـدم العلمي والصـناعي للإلحـاد وحـده، وليس للإيمـان، مـع أن الـدنيا جميعها وما فيها من ماديات قـد كـانت ومـا زالت ولن تـزال حـتى تقوم الساعة للمؤمـنين والكـافرين وغـيرهم على السـواء، ضـمن

سنن الله الثابتة التي لا تتغير، وهي مجـال مفتـوح لكـل النـاس، إذ يمتحن الله بها إرادتهم وسلوكهم في الحياة، ليبلـوهم أيهم أحسـن عملاً.

قال العظم: دعنا من كل هذه الخطابات، وأنبئـني: لِمَ لا تكـون المـادة الأولى لهـذا الكـون (كالسـديم مثلاً) قديمـة أزليـة غـير حادثة ،تنطلق منها التحولات، ثم ترجع إليها التحولات؟

قال حبنكة: إن الجواب على هذا يؤخذ من الكـون نفسـه، ومـا فيه من صفات وخصائص، فالكون يحمل دائماً وباسـتمرار صـفات حدوثـه، تشـهد بهـذه الحقيقـة النظـرات العقليـة المسـتندة إلى المشاهدات الحسية.. وتشهد بها البحوث العلمية المختلفة في كل مجالات المعرفة.. حتى القوانين العلمية التي توصَّـل إليهـا العلمـاء الماديون تشهد بهذا.

وإذا ثبت أن هذا الكون حادث له بداية وله نهايـة كـان لا بـد لـه من علة تسبب له هذا الحدوث، لاستحالة تحـول العـدم نفسـه إلى وجود، أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه فوجوده هو الأصل، ولذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجد يوجـده.. وكـل تسـاؤل عن سبب وجوده تساؤل باطل منطقيـاً، لأنـه أزلي واجب الوجـود، وليس حادثاً حتى يُسأل عن سبب وجوده.

ولو كانت صفات الكون تقتضـي أزليتـه لقلنـا فيـه كـذلك، لكن صفات الكون المشاهدة والمدروسة تثبت حدوثه.

وهنا تكمن المغالطة التي تسـتند إليهـا، إذ أنـك تريـد أن تجعـل الكون أزلياً، مـع أن الـبراهين تثبت أنـه حـادث، وذلـك لتتخلص من الضـرورة العقليـة الـتي تلـزم بالإيمـان بوجـود خـالق لهـذا الكـون الحادث، لأن الحدوث من العدم المطلق دون سبب موجود سـابق عليه مستحيل عقلاً.

قال العظم: من السهل علي أن أدعي بـأن هـذا الكـون أزلي.. وبذلك تنتهي المشكلة.

قال حبنكة: إن هذه الدعوى باطلة بكل الاعتبارات.. سواء كـان منها العقلية الفلسفية القديمة، أو القوانين العلمية الحديثة:

فالأدلة العقليـة الفلسـفية تثبت لنـا حـدوث العـالم من ظـاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغـير نـوع من الحـدوث للصـورة والهيئـة والصـفات.. وهـذا الحـدوث لا بـد لـه من علـة.. وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى، سنصل حتماً إلى نقطـة بـدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية، في صـفاته وأعراضـه، وفي ذاتـه ومادته الأولى.. وحينما نصـل إلى هـذه الحقيقـة لا بـد أن نقـرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخــالق هو الذي خلق هذا الكون وأمده بالصفات التي هو عليها.

قال العظم: أنا لا أسلم لهذا النوع من الأدلـة.. فهي تفتقـر إلى العلمية.

قال حبنكة: لقد اكتشف العلم الحديث القانون الثـاني للحـرارة الديناميكية، وهو القانون الذي يسمونه (قانون الطاقـة المتاحـة) أو يسمونه (ضابط التغير)

وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجـود الكـون أزليـاً، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بد من وقت تتسـاوى فيـه حـرارة جميـع الموجـودات، وحينئـذ لا تبقى أي طاقـة مفيـدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة.

لقد ذكر هذا التحقيق العلمي عالم أمـريكي في علم الحيـوان، هو (إدوارد لـوثر كيسـل) ثم قـال: (وهكـذا أثبتت البحـوث العلميـة دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإلــه، لأن كــل شــيء ذي بدايــة لا يمكن أن يبتــدئ بذاتــه، ولا بــد أن يحتــاج إلى المحرك الأولى الخالق الإله)

وذكره (السير جيمس) حين قـال في كلام لـه: (تـؤمن العلـوم الحديثـة بـأن (عمليـة تغـير الحـرارة) سـوف تسـتمر حـتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العمليـة حـتى الآن إلى آخـر درجاتهـا، لأنه لو حـدث شـيء مثـل هـذا لمـا كنـا الآن موجـودين على ظهـر الأرض حتى نفكر فيها، إن هذه العملية تتقدم بسـرعة مـع الـزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حـدثت عمليـة في الكـون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقت مـا) حيث لا يمكن أن يكـون هـذا

الكون أزلياً)

وبذلك، فإن حدوث هـذا الكـون أمـر معـترف بـه عنـد العلمـاء الماديين..

بالإضافة إلى هذا، فإن الادعاء بأن المـؤمن باللـه لا يـدري علـة وجود الله مغالطة أخرى في الحقيقة.. ذلك أن من أصـله الوجـود، ووجوده أزلي، فإنه لا يحتاج إلى علة لوجوده.. إذ السؤال عن هـذه العلة أمر مخالف للمنطق السـليم، أو عبث من العبث، أو مغالطـة قائمة على الإيهام بأنه حادث غير أزلي.

ولهذا نرى الملحدين يسـارعون إلى عـوام المسـلمين يقولـون لهم: ألستم تقولون: إن كل موجـود لا بـد لـه من موجـد، وإن هـذا الكون موجود فلا بد له من موجد، وذلك هو الله تعالى؟

فيقول له العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات: بلى..

عندئـذ يسـتدرجه الملحـد فيقـول لـه: اللـه موجـود، وهـو على حسب الدليل لا بد له من موجد، فيجد العامي نفسه قـد انقطـع إذ لم يستطع جواباً.

لكن الخبير لا يقبل أصلاً صيغة الـدليل على هـذا الوجـه القـائم على المغالطة، ذلك لأن المقدمة (كل موجود لا بد لـه من موجـد) مقدمة كاذبة غـير صـحيحة، فـالخبير لا يسـلم بهـا لفسـادها، وإنمـا يقـول بـدلها: (كـل موجـود حـادث لم يكن ثم كـان لا بـد لـه من محدث)، ثم يقول: (وهـذا الكـون موجـود حـادث لم يكن، ثم كـان بشهادة العقل وبشهادة البحوث العلميـة)، عندئـذٍ تتحصـل النتيجـة على الوجـه التـالي: (إذن فلا بـد لهـذا الكـون من محـدث)، وهـذا المحدث للكون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غـير حـادث، ولا بـد أن يكون منزهاً عن كل الصفات التي يلزم منها حدوثه، حـتى لا يحتـاج إلى موجد يوجده، بمقتضى الدليل الذي أثبتنا فيه وجود الله.

فمغالطــة الملحــد في المقدمــة الــتي أوهم بهــا قائمــة على التعميم، إذ وضع (كل موجود) بدل (كل موجود حادث)، ومعلوم أن عبارة (موجود) تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث.

وهكــذا تجــري مغالطــات الملحــدين، ليتصــيدوا بهــا الجهلــة والغافلين بغية استدراجهم وإحـراجهم، ونقلهم من مرحلـة الإيمـان إلى مرحلة التشكك.

فـــالمؤمن إذن يعلم أن الخـــالق موجـــود أزلي ليس لـــه من الصفات ما يلزم منها حدوثـه، ووجـوده هـو الأصـل، فلا يسـأل عن علة وجوده عند العقلاء أصلاً، والسؤال عن علة وجوده أمر مخالف للحقيقة العلمية المنطقية التي انتهينا إليها.

وكما لا يُسأل عمّا أصله العدم: ما هي علة عدمه؟ لأن مثل هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجـود، وهـذا ينـاقش أن أصله العدم، كذلك ما أصـله الوجـود لا يُسـأل عن علـة وجـوده ولا يبحث عنها، لأن أي سؤال أو بحث عنهـا لا يكـون إلا على افـتراض أن أصله العدم، وبهذه العلة تحول من العدم إلى الوجود، لكن هـذا الافتراض مرفوض ابتداءً، باعتبار أن أصله الوجود.

وبهذا يتضح لنا تماماً أنه لا يُسـال ولا يبحث عن علـة وجـود مـا الأصل فيه الوجود.

وبهذا أيضاً تسقط المغالطة التي طرحها الملحد في مناقشــته، ويظهـر فسـاد تسـويته بين الكـون الحـادث وبين الخـالق الأزلي.. وحينما نطالبـه بعلـة وجـود الحـادث وهـو الكـون، فليس من حقـه المنطقي أن يطالبنا بعلة وجود الله الأزلي.

وليس من حق الملحد أن ينكر الوجود الأزلي كله ما دام الواقع يكذبـه، والـبراهين العلميـة تهـزأ بـه، لأنـه لـو لم يكن في الوجـود موجـــود أزلي لاســتحال أن يوجـــد شـــيء في هـــذا الكـــون، لأن الافـتراض على هـذا يقـوم على أسـاس العـدم المطلـق.. والعـدم المطلق يستحيل أن يتحول بنفسه إلى وجود.

ولهذا، فإن هذا الكون الـذي نحن جـزء منـه موجـود حـادث ذو بداية، وكل ذي بداية لا بد لـه من علـة كـانت السـبب في وجـوده، وإيجاده قد كان عملية من عمليات الخلق، وعملية الخلـق إنمـا تتم بخالق قادرٍ، وهـذا الخـالق القـادر لا بـد أن يكـون أزليـاً، ولا بـد أن يكون متحلياً بالكمال المطلق.. هذه هي عقيدة المؤمنين بالله.

قال العظم: لا شك أنك لم تقرأ ما ذكرته في كتابي.. وبالضبط في صفحة (25) منه حين قلت: (ولنلمس طبيعة هـذا الفـارق بين النظرة الدينيـة القديمـة وبين النظـرة العلميـة الـتي حلت محلهـا، سـنوجه انتباهنـا إلى مثـال محـدد يـبين بجلاء كيـف يقودنـا البحث العلمي إلى قناعــات وتعليلات تتنــافى مــع المعتقــدات والتعليلات الدينية السائدة، ممـا يضـطرنا إلى الاختيـار بينهمـا اختيـاراً حاسـماً ونهائياً)

اسمع جيدا هذا المثال الـذي ذكرتـه.. إنـه فصـل الخطـاب في المسألة.. لقد قلت في كتابي:(لا شك أن القـارئ يعـرف التعليـل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشـأته ومصـيره.. وهـو أن اللـه خلق هذا الكون في فترة معينة من الـزمن، بقولـه: كن فكـان، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة، تلـك الحادثـة الـتي بـدأ بهـا تـاريخ الإنسـان على هـذا الأرض، ومن صـلب المعتقـدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسـمع صـلواتنا وأحيانـاً يستجيب لدعائنا، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكـون المعجزات، أما الطبيعة فقد حافظت على سـماتها الأساسـية منـذ أن خلقها اللـه، أي أنهـا تحتـوي الآن على نفس الأجـرام السـماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها.. أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بـالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منـذ البدايـة كمـا هي عليـه الآن)

ابتسـم حبنكـة، وقـال: إن هـذا الكلام الـذي أوردتـه في كتابـك العظيم كذب على الدين، ومغالطة في الحقيقـة، وتمويهـات بـذكر بعض أمور هي من الدين، أوردتها لتغشي بها على نظر القارئ، فلا يبصر مواطن الافتراءات، ومزالق المغالطات.

لقـد أدخلت فكـرة لا يعـترف بهـا الـدين أصـلاً، ضـمن عرضـك لطائفة من المفـاهيم والعقائـد الدينيـة الصـحيحة، لتضـلل القـارئ بالإيهام الذي اصطنعته له، ولتجعله يعتقد أن هـذه الفكـرة الدخيلـة هي فعلاً من المفاهيم الدينية، ما دامت قد وردت ضـمن مجموعـة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين.

لقـد زعمت أن الإسـلام يـرى أن الطبيعـة قـد حـافظت على

سماتها منذ أن خلقها الله، أي: أنها تحتوي الآن على نفس الأجـرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيهـا منـذ اليوم الأول لخلقها.. مع أن هـذا افـتراء صـريح على الـدين، تكذبـه بالنصـوص القرآنيـة، ولسـت أدري من أين جئت بهـذه المفـاهيم فألصقتها بالدين؟

لما تحدث القرآن عن فئة الحيوانات الـتي خلقهـا اللـه لركـوب الإنسان، وليتخذها زينـة لـه، ألحقهـا بقولـه تعـالى:﴿ وَيَخْلُـقُ مَـا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحـل: من الآية8) بصـيغة الفعـل المضـارع الـتي تـدل على الحال والاستقبال، للدلالة على أن عمليات التجديد في الخلق الرباني للأشياء مسـتمرة غـير منقطعـة، قـال اللـه تعـالى:﴿ خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6﴾ (النحل)

أليس في هذا إعلانـاً صـريحاً مخالفـاً لمـا زعمت من أن الـدين يقرر أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله.

وبالنسبة إلى الأجرام السماوية لا نجد في النصـوص الإسـلامية ما يدل على هذا الذي افتريته، بل في النصوص ما يدل على خلاف ذلـك، قـال اللـه تعـالى:﴿ وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَـا بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ﴾ (الـذريات:47).. فكلمـة (موسـعون) في الآيـة تشـير إلى أعمـال التوسعة المتجددة في السـماء، وذلـك لأن هـذه الكلمـة من صـيغ اسم الفاعل، وصيغة اسم الفاعل بقوة المضارع من جهـة الدلالـة، هي للتعبير عن الحال أولاً ثم عن الاستقبال.

قـال العظم: دعنـا من هـذا.. وأخـبرني ألم تسـمع بنظريـة (لافوازيه)(1) التي تقـول: لا يخلـق شـيء من العـدم المطلـق، ولا يعـدم شـيء، وإنمـا هي تحـولات من مـادة لطاقـة، أو من طاقـة لمادة، أو من مادة لمادة؟

---

1) هو أنطوان لـوران لافوازيـه (1743 ـ 1794م) كيميـائي فرنسـي، وهـو مؤسـس الكيمياء الحديثة. قام بقياس أوزان المواد التي تدخل في التفاعلات الكيميائية.

ابتسـم حبنكـة، وقـال: أنت لم تفهم (لافوازيـه).. إن نظريتـه لا تتحدث عن الكون جميعا.. إنها تتحدث عن مجـال معين ذي أبعـاد.. وليس في مستطاعها أن تتحـدث عن كـل الوجـود في كـل أبعـاده من الأزل إلى الأبـد.. فهـذا أمـر لا تسـتطيع تقريـره أيـة نظريـة استقرائية مهما بلغ شأنها، إلا أن يكون كلامها رجماً بالغيب، وتكهنـاً لا سند له، وطرحاً تخيلياً محضاً.

إن لنظريـة (لافوازيـه) ثلاثـة أبعـاد هي: البعـد الزمـني، والبعـد المكاني، والبعد الإدراكي.

التفت حبنكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضـعو هـذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في كل الأزمـان، بمـا فيهـا الأزمان السحيقة في القدم، وعرفوا منها أنه لم يخلق في الأزمان القديمة جداً شيء من العدم؟

سكت العظم، فقال حبنكة: إنهم لم يفعلوا ذلك لأنـه لا يتسـنى لهم بحال من الأحوال، وهم أبناء النهضة العلميـة الحديثـة، على أن الأدلة العلمية التي سبق بيانها قد أثبتت أن لهذا الكون بداية، وهـذا يعني أنه لم يكن ثم كان، فهو إذن مخلوق من العدم، بقدرة خـالق موجود أزلي.

فهذه النظرية لا تتحدث عن الانطلاقة الأولى للكون، لأن أياً من الأجهزة العلمية لا تستطيع أن تسـترجع الأزمـان السـحيقة وترصـد الكون فيها، وكذلك لا تسـتطيع النظـرات التحليليـة الاسـتنتاجية أن تحكم على ماضي الكـون وانطلاقتـه الأولى، بالقيـاس على واقعـه النظامي الذي نشـاهده في الحاضـر، لاحتمـال الاختلاف الـبيِّن بين نقطة البدء وبين ما يأتي بعدها من حالات نظامية مستمرة.

فنظريـة (لافوازيـه) لا تتنـاول بحـال من الأحـوال الـزمن الأول لبداية الكـون، ومجالهـا يـأتي في الأزمـان الـتي يـترجح فيهـا قيـام النظـام الكـوني الـذي درسـته هـذه النظريـة، وبهـذا يتـبين لنـا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان الماضي غير صحيح.

التفت حبنكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضـعو هـذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في مستقبل مـا يـأتي من الأزمـان، وثبت لهم من رصـدهم أنـه لا يمكن أن يخلـق شـيء من

العدم، ولا يمكن أن يعدم شيء موجود؟

سكت العظم، فقال حبنكة: لا.. لا يمكن.. كيف يتسنى لهم رصد المستقبل وهم لا يملكون استقدامه؟

إن جل ما يملكونه قياس المستقبل على الحاضر والماضي، بشرط استمرار نظام الكون القائم، ولا يستطيعون أن يحكموا على الكون بأنه لا يمكن أن يتغير نظامه الكلي، فتأتيه حالة من الحالات يمسي فيها عدماً، أو تنعدم بعض أجزاء منه، أو تضاف إليه أجزاء لم تكن هيئتها ولا مادتها فيه، فهذا حكم لا سبيل إليه، إنه حكم مجهول، والحكم على المجهول باطل.

فنظرية (لافوازيه) تنطبق على هذا الكون بشرط استمرار نظامه القائم، وهي لا تحكم على المستقبل حكماً قاطعاً باستحالة تغير هذا النظام، ولكن ما دام هذا النظام الكوني قائماً، فإن ضابطه أن جميع ما يجري من مدركات فيه إنما هو من قبيل التحولات، وبهذا يتبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان المستقبل غير صحيح.

هذا ما يتعلق بتحديد البعد الزمني للنظرية، أما تحديد البعد المكاني لها فنقول فيه: هل رصد واضعو هذه النظرية ومقرروها هذا الكون في كل أبعاده المكانية؟.. ألا يحتمل وجود مكان سحيق فيه لم يرصدوه ولم يعرفوا ما فيه؟.. أفيحكمون عليه إذن حكماً غيابياً قياساً على ما رصدوه منه في الأمكنة التي استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزتهم وملاحظاتهم؟

إن هذا الحكم الغيابي مع جهالة الخصائص والصفات حكم باطل، وهذا طبعاً لا يعني ضرورة مخالفة الغائب للحاضر، ولكن لا يعني أيضاً لزوم موافقته.

فلا بد إذن من تحديد مكان النظرية بالأبعاد المكانية التي كانت مجال الملاحظة والقياس والأجهزة، مع التجاوز بصحة قياس ما شابهها عليها، مما لم يخضع للملاحظة المباشرة.

أما تحديد البعد الإدراكي للنظرية فيتلخص بأن النظرية قد اعتمدت على ملاحظة عالم الشهادة من الكون المنظور المدرك،

أما عالم الغيب الذي لا تصل إليه الإدراكات الإنسـانية المباشـرة أو عن طريق الأجهزة، فهو عالم خارج بطبيعتـه عن مجـال النظريـة، لذلك فإنها لا تسـتطيع أن تحكم عليـه، لأن حكمهمـا عليـه هـو من قبيل الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته.

جُـلُّ مـا تسـتطيعه النظريـات في هـذا المجـال هي أن تعلـق أحكامها تعليقاً كلياً، أو تصدر أحكاماً مشروطة احتمالية غير جازمة، وهذا ما تقتضيه الدراسة العلمية المنطقية الحيادية، وتوجبه الأمانـة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة.

وهكذا ظهر لنـا أن نظريـة (لافوازيـه) لم تتنـاول من الكـون إلا مقطعاً محدود الأبعاد الثلاثة: البعد الزماني، والبعد المكاني، والبعـد الإدراكي، وهذا المقطع هو مجال ملاحظتها.

يضاف إلى كل ذلك أن وجود الحياة في المـادة لم يقـترن بـأي دليل تجريـبي يثبت تحـول المـادة غـير الحيـة إلى مـادة حيـة، عن طريق التولد الـذاتي، رغم كـل التجـارب العلميـة الـتي قـامت في عالم البحث العلمي حتى الآن.

لذلك نلاحظ أن الآراء العلمية في هذا المجال ترجع إلى أصـول ثلاثة كبرى:

أما أولها، فهو ما قرره (أغاسيز) في كتابه (تصنيف العضويات) سنة (1858م) إذ قرر أن كل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقـة، و(باسـتور) مكتشـف جـراثيم الأمـراض على هذا الرأي، والقائلون بهذا الرأي قد اسـتقر مـذهبهم على (أن كـل حي لا بد أن يتولد من حي مثله)

أما الثاني، فهو ما ذهب إليه (هيرمان أبير هارد ريختر).. إذ رأى أن الفراغ الـذي نـراه مملـوءاً بجـراثيم الصـورة الحيـة، كـالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة الصماء، كلاهمـا في تجـدد مسـتمر، ولا يتطرق لهما العدم، وبنى قاعدته في أصل الحياة على (أن كــل حي أبدي، ولا يتولد إلا من خلية)، وهذا الرأي يتضـمن أن تطـورات المادة من المادة، وتطورات الحياة من الحياة.

أما الثالث، فهو ما ذهب إليه الماديون من أن الحياة نشأت من

المادة بالتولد الذاتي، وليس لهذا الرأي أي شاهد تجريبي، أو مستند عقلي، وقال بهذا الرأي الدكتور (باستيان) في إنكلترا، والأستاذ (هيكِل) في ألمانيا(1).

قال العظم: دعنا من هذا.. وأجبني ألا ترى أن ما جاء في النصوص الدينية من استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها بالنسبة إلى الأحداث والتغيرات التي توجد داخل مجال النظرية المذكورة، مناقضاً أو معارضاً لمضمون هذه النظرية؟

قال حبنكة: إن هذا يستدعي الرجوع إلى استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في اللغة العربية وفي نصوص الشريعة الإسلامية.. وقد رجعت إلى هذه النصوص، فوجدت أن هذه المادة اللغوية لا تعني دائماً الإيجاد من العدم المطلق، بل كثيراً ما تستعمل مراداً منها التحويل في الصفات والعناصر التركيبية من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن هيئة إلى هيئة، ومن خصائص إلى خصائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق، وفي حدود هذا الاستعمال نجد قول الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ (المؤمنون)

ففي كل ما ذكر من صور الخلق نشاهد عمليات التحويل من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن خصائص إلى خصائص، وقد أطلق على هذه التحويلات أنها خلق، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرفة في كل هذه التحويلات.

وجاء في القرآن إطلاق الخلق على تغيير هيئة الطين وجعله على صورة طير، نظراً إلى أن الخلق لا يستدعي دائماً أن يكون إيجاداً من العدم، وذلك في قول الله لعيسى ﴿:عليه السلام وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ (المائدة: من الآية110)

---

1) نقله حبنكة عن (إسماعيل مظهر) في مقدمته لكتاب (أصل الأنواع)، تأليف (تشارلز داروين)

وبما أن كل التغييرات الكونية إنما تجـري بـإرادة اللـه وقدرتـه، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها الله تعالى.

فعلى التسليم الكامل بنظرية (لافوازيه) ضمن حدودها، لا نجـد تعارضـاً بينهـا وبين المفـاهيم الدينيـة الـتي دلت عليهـا النصـوص الصحيحة الصريحة.

ابتسم، وقال: أنا أعلم أن مثل هذه الحقائق لا تسر الملحـدين، لأنهم حريصون جداً على أن يظفروا بتناقض مـا بين العلم والـدين، حتى يتخـذوا ذلـك ذريعـة لنقض الـدين من أساسـه.. ولن يظفـروا مهما أجهدوا نفوسهم، لأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلـك ولا أكبر.

قـال العظم: دعنـا من هـذا.. وأجبـني.. ألم تتسـاءل يومـا عن السر الذي جعل جميع العلماء المحترمين علماء ماديين ملحـدين.. بل لا يصير العالم عالمـا حـتى يصـير ملحـدا.. خـذ مثـالا على ذلـك بالفيلسـوف الأمـريكي (وليم جيمس) الـذي كتب كتابـه العظيم، والذي عنونه بـ (إرادة الاعتقاد)؟

إن هذا الرجل العظيم يرى أن البينات العلميـة والأدلـة العقليـة غير كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجـوده، لـذلك يحـق للإنسـان أن يتخـذ موقفـاً من هـذه المعضـلة يتناسـب مـع عواطفه ومشاعره.

واسـمع بعـد هـذا إلى هـذه المعزوفـة العظيمـة الـتي لحنهـا الفيلسوف الأديب (برترانـد رسـل) تحت عنـوان: (عبـادة الإنسـان الحر).. لقد صور فيها تفسيرات الملحدين لنشأة الكـون وتطـوره، ونشأة الحياة وتطورها، وأصل الإنسـان ونشـأته وتطـوره، ونشـوء الديانات والعبادات والطقـوس وتطورهـا، وأنكـر فيهـا الآخـرة ومـا فيها.. فالكون بدأ من السديم، وهو إلى السديم يعود.

واسـمع مـع هـؤلاء إلى تلـك المعزوفـات الجميلـة الـتي لحنهـا (ماركس) و(فرويد) و(داروين).. وغيرهم من العباقرة.

ابتسـم حبنكـة، وقـال: أنت تتهجم على المـدافعين عن الـدين بأنهم يقدمون أقوالاً تقريرية غـير مقترنـة بأدلـة.. ولكنـك في الـرد عليهم تفزع إلى قصة أدبية كتبهـا (برترانـد رسـل).. وكأنهـا السـند الأمثل للتحقيق العلمي في قصة الخليقة.

هـل تصـبح تلـك القطعـة الأدبيـة هي التحقيـق العلمي العظيم لقصة الوجود كله، التي بدأت بالسديم وستنتهي إلى السديم، وفق النظرات الـتي يرجحهـا أصـحابها دون مسـتندات علميـة صـحيحة، ودون براهين معتبر وفق المنهج العلمي السليم؟

أنَّى لواضـعي هـذه النظريـة أن يشـهدوا بدايـة الكـون؟ وكيـف يتسنى لهم مشاهدة نهايته؟

إن راسل صور في قصته أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنـات المنظمة البديعة بطريق المصادفة، وأن اصـطداماً كبـيراً سـيحدث في هذا الكون يعود به كل شيء إلى سديم كما كان أولاً.

أذكر أنك علقت على هذه القصة الخيالية بقولك:(هذا المقطـع الذي كتبه (رسل) يلخص لنا بكل بساطة النظرة العلميـة الطبيعيـة للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره، نشوء الحياة وتطورها، أصـل الإنسان ونشـأته وتطـوره، نشـوء الـديانات والعبـادات والطقـوس وتطورها، وأخيراً يشدد على أن النهاية الحتمية لجميـع الأشـياء هي الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعـدها بشـيء، إنـه من السـديم وإلى السديم يعود)

وهكذا وبكل بساطة تعتبر هذه الأمور حقائق مقررة مسلماً بها علميـاً، دون أن تقـترن بـأي إثبـات لهـا، أهـذا هـو مسـتوى الأمانـة الفكرية عندك؟ أهذا هو المنهج العلمي السليم؟

ما أبعد المناهج العلمية عن القصـص التقريريـة، الـتي تنسـجها أخيلـة الكتـاب والأدبـاء والشـعراء، أو أخيلـة واضـعي النظريـات لأغراض معينة.

في موضع آخر من كتابك العظيم استشـهدت بإعجـاب برسـل قائلا:(وفي مناسبة أخرى عندما سئل (رسـل): هـل يحيـا الإنسـان

بعد الموت؟ أجاب بالنفي، وشرح جوابه بقوله: عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكز أو أساس علمي)

أهكذا ترفض الحقيقة التي جاء بيانها بالأخبار الصادقة عن الله، بمجرد الاستبعاد؟

حينما يسمع المؤمن بالإسلام جواب هذا الفيلسوف الإنكليزي عن الحياة بعد الموت، لا بد أن تسترجع ذاكرته الجواب الجاهلي الذي كان يجيب به كفار العرب البدائيون، إذ قالوا كما حدثنا القرآن عنهم: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (المؤمنون: من الآية82)، وقال حاكيا عنهم: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (قّ:3)

إن هذا المنطق يدلنا بوضوح على أن الإنكار هو الذي لا يرتكز على أساس علمي، إنما يعتمد على مجرد التقرير للنفي، أو استبعاد فكرة البعث بإطلاق عبارات التعجب.

على أن الإيمان بالحياة بعد الموت للحساب والجزاء لا بد أن يعتمد على أساس الإيمان بالله، فإثارة هذه العقيدة دون أساس الإيمان بالله هي من قبيل الاشتغال بالفروع قبل الاتفاق على الأصول، وهذا لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة، فإذا تم التسليم بعقيدة الإيمان بالخالق جلَّ وعلا جاء من بعدها عرض أدلة البعث.

التفت إلى العظم، وقال: أما بخصوص انتقائيتك في اختيار العلماء والفلاسفة.. فأنا أستطيع أن أذكر لك الآن الكثير منهم.. وكلهم كان مؤمنا عارفا بربه خاشعا له.. كما أخبرنا ربنا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: من الآية28)

لقد قال البروفيسور (إيدوين كونكلين):(إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سبيل المصادفة)، أي لا يمكن للمصادفة أن توجد هذا الكون ذا النظام المتقن الرائع، إذن فلا بد له من خالق خلقه وأتقنه.

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جـورج إيـرل ديفيس):(لـو كـان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معـنى ذلـك أنـه يتمتـع بأوصـاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بـأن الكـون هـو الإلـه، وهكذا ننتهي إلى التسـليم بوجـود (الإلـه)، ولكن إلهنـا هـذا سـوف يكون عجيباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحـد! إنـني أفضـل أن أؤمن بذلك الإلـه الـذي خلـق العـالم المـادي، وهـو ليس بجـزء من هـذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن تبـنى مثـل هـذه الخزعبلات)

انظر كيف أن هذا العالم الأمريكي من علماء الطبيعـة يـرى أن نظـرات الملحـدين هي من قبيـل الخـزعبلات، أو الخرافـات الـتي ليس لهـا سـند علمي ولا سـند عقلي، وهـذا هـو شـأن كـل عـالم منصف محايد.

واسمع إلى رد (كريسي موريسن) الـذي كـان رئيس أكاديميـة العلوم الأمريكية بنيويورك على الملحد (هيكل) إذ قال هذا الملحـد متبجحاً: (إيتـوني بـالهواء وبالمـاء، وبـالأجزاء الكيماويـة، وبـالوقت، وسأخلق الإنسان).. لقـد قـال لـه:(إن هيكـل يتجاهـل في دعـواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسـها، فـإن أول شـيء سـيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشـاهدتها، ثم سيخلق (الجينات) أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعـد تـرتيب هـذه الذرات، حتى يعطيهـا ثـوب الحيـاة، ولكن إمكـان الخلـق في هـذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عـدة بلايين، ولـو افترضـنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها مصـادفة، بـل سـوف يقررها وبعدها نتيجة لعبقريته)

وهكـذا أظهـر هـذا العـالم سـخافة أقـوال (هيكـل) عن طريـق الاستدلال العلمي.

فالاسـتناد إلى فرضـية المصـادفة في تعليـل وجـود الكائنـات المتقنـة المنظمـة لـون من التخريـف الفكـري، القـائم على إرادة التضليل فحسب، وليس مذهباً فكرياً تحيـط بـه شـبهات تزينـه في عقول القائلين به، وهذا ما تدل عليه الشـهادات العلميـة المنصـفة المحايدة.

واسمع إلى عالم الأعضاء الأمريكي (مـارلين ب. كريـدر)، لقـد قال: (إن الإمكـان الرياضـي في تـوافر العلـل اللازمـة للخلـق عن طريق المصادفة في نِسَبِها الصحيحة هو مـا يقـرب من لا شـيء)، أي: إن احتمـال المصـادفة احتمـال مرفـوض رياضـياً في تعليـل عمليات الخلق المتقن المنظم.

وجـاء في كتـاب (اللـه يتجلى في عصـر العلم) ثلاثـون مقـالاً لثلاثين من كبـار العلمـاء الأمريكـيين، في الاختصاصـات العلميـة المختلفة من علوم الكون السائدة في هـذا العصـر الحـديث، وقـد أثبت هـؤلاء العلمـاء في مقـالاتهم هـذه وجـود اللـه جـلَّ وعلا، عن طريق ما وَعَوْه من الأدلة الكثيرة المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وفي هذا الكتاب يطلع القارئ على نوع من الأدلة العلمية، التي تفـرض سـلطانها على العلمـاء المـاديين، من خلال ملاحظـاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلميـة، فتجعلهم يؤمنـون باللـه، ويجـد فيـه أيضاً الرد الكافي على مروجي الإلحاد، الـذين يزعمـون أن العلـوم تبعـد عن الإيمـان باللـه، وأن جميـع أو معظم العلمـاء الكونـيين ملحدون.

عم صمت قليل المجلس قطعـه حبنكـة قـائلا، وهـو ينظـر إلى العظم: ولهذا، فإن ما ذكرته في الصفحة (28) من كتابـك العظيم ـ من قولـك:(إن النظـرة العلميـة الـتي وصـل إليهـا الإنسـان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية عن ذكر الله) ـ ادعاء باطل لا أساس له من الصحة مطلقاً.

ومع ذلك، فلنفترض جدلاً أن العلمـاء المـاديين جميعهم أنكـروا وجود الله.. فهل ترى ذلك كافيا في إنكار حقيقة وجود الله؟

هل ينتظر من العلوم المادية المتقدمـة وأجهزتهـا المتطـور أن ترينا الله تعالى رؤية حسية؟

إن أقصى ما تفعله هذه الأجهزة أن ترينا آيات الله في الكون.. أما ذات الله تعـالى، فلن تسـتطيع أن ترينـا إياهـا.. لقـد ذكـر اللـه تعالى ذلـك، فقـال:﴿ سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا

إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54) (فصلت)

لا نقول هذا فقط.. بل نحن نتحـدى العلـوم الماديـة المتقدمـة، وأجهزتها المتطورة، أن ترينا كثيراً من الطاقات الكونية التي غـدت حقائق علمية ثابتة لدى العلماء الماديين عن طريـق الاسـتنتاج من ظواهرها وآثارها، وهذه الحقائق التي أثبتوهـا ليسـت إلا تفسـيرات نظرية للظواهر.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن شـهادات العلمـاء المـاديين المؤمـنين الــذين نشـأوا في عصـر النهضـة العلميـة الماديـة الحديثـة تقـدم للمتشككين أدلة كافية على أن العلوم المادية ليست علوماً ملحدة في حقيقتهـا، لكن الإلحـاد ملصـق بهـا بطريقـة صـناعية مقصـودة موجهة، من قبل فئات خاصة لها في نشر الإلحاد مصـالح سياسـية واقتصادية ضد خير البشرية وسعادتها.

ومن هـذه الأقـوال يتـبين لنـا بوضـوح أنـه لا يوجـد تنـاقض ولا تعارض مطلقاً في نظر جمهور العلماء المـاديين بين الـدين والعلم حول الأساس الأول من أسس العقيدة الدينية، وهي عقيدة الإيمان بالله تعالى، وبهذا تنهار المستندات الإلحادية التي تزعم وجـود هـذا التناقض بالنسبة إلى هـذه النقطـة بالـذات، باعتبارهـا مجـال بحثنـا الآن، وباعتبارهـا أعظم نقطـة في الأيديولوجيـة الإلحاديـة، والـتي يحـاول الملحـدون جهـدهم أن يوجـدوا لهـا المـبررات النظريـة، أو المــبررات العمليــة، فلا يجــدون إلا افــتراء الأكــاذيب، وصــناعة المغالطات، والاحتماء المزور بالتقـدم العملي والصـناعي، وسـرقة أسلحة العلم التي لا تملك في الحقيقـة الـدفاع عن الإلحـاد، وإنمـا هي في الأصل أسلحة لقضية الإيمان، يحسن اسـتعمالها العـالمون بها، وتكون عند الجاهلين بها أسلحة معطلـة، ويسـرقها الملحـدون فيحملونها أمام الجاهلين، فيتخيـل الجـاهلون بهـا أنهـا فعلاً أسـلحة للملحدين، وهي تدعم قضية الإلحاد، مـع أن الحقيقـة بخلاف ذلـك، إنها أسلحة للمؤمنين العالمين بها، الذين يحسنون استعمالها.

لو كـانت النظـرة العلميـة الحديثـة تنـاقض أو تعـارض النظـرة الغائية للكون، لما وجـدنا هـذا الجمهـور الكبـير من علمـاء النهضـة العلميــة الحديثــة مؤمــنين باللــه ،وبتفســيرات النظــرة الغائيــة للكون ،وبالمفاهيم الأخلاقية الدينية..

لقد كان (أندرو كونواي إيفي) من هؤلاء.. لقـد كـان من علمـاء الطبيعة الكبـار.. وكـان ذا شـهرة عالميـة من سـنة (1925م) إلى سنة (1946م).. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول ـ في مقـال لـه تحت عنوان: (وجود الله حقيقة مطلقة) ـ:(ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من شك لديهم بقعـة عميـاء، أو بقعـة مخـدرة داخل عقولهم، تمنعهم من تصور أن كـل هـذه العـوالم، سـواء مـا كان ميتاً أو حياً، تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله)

ثم استشهد لذلك بتصـريح لأينشـتاين قـال فيـه:(إن الشـخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمـة المعـنى ليس تعيساً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة)

انظروا.. أليس هذا التفكير الذي يعلن عنه هذا العالم ومن قبله (أينشتاين) تفكيراً قائماً على النظـرة الغائيـة للكـون، وعلى اعتبـار القيم الأخلاقية؟

إن هــذه النظــرة الموافقــة للنظــرة الإســلامية لم تكن عنــد أصحابها مناقضة للأسس العلمية الحديثة، ولا للنظرة العلميـة كمـا تبلورت مع تطور العلم الحديث وتقدمه..

قاطعـه العظم، وقـال: ولكن هـذه النظـرة مناقضـة لنظريـات دُركهايم، وفرويد وماركس.. ومناقضة للداروينية.

قال حبنكة: لو كان لدي الوقت الكافي لـبينت لـك هنـا بالـدليل القاطع أن هؤلاء ليسوا سوى أجراء لمخططات ليس لها من هدف سوى هدم الأسس الدينية، لا على أساس قناعات علمية صحيحة.

لقـد أصـبح مخططهم مكشـوفاً للعـالم.. بـل كتب في كشـف مكايدهم محققون من العلماء المتتبعين.

ومع ذلـك.. وبغض النظـر عن مـدى صـدق هـذا.. فلنقـارن بين السمو الذي تحمله نظريات من ذكرت، وبين السـمو الـذي تحملـه النظرية الإسلامية، ومن يوافقها من علماء الطبيعة المؤمنين.

راح العظم يقرأ من كتابه بصوت جهـوري هـذا النص:(جلي أن هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائية، تعتمد في تفســيرها

لطبيعــة الكــون على العلــل الغائيــة، والأهــداف الســامية، وعلى مفاهيم أخلاقية مثل (الحق والعدل)

هل تنسجم هذه النظرة الغائية إلى الكون والحياة مـع النظـرة العلميــة الــتي تســود العــالم المعاصــر وثقافتــه؟ لــو رجعنــا إلى التفسيرات العلمية للكون من (نيوتن) إلى (أينشتاين) هل نجد في صـلبها مقـولات مثـل (الأهـداف السـامية) أو (الحـق والعـدل) أو (الروح والجمـال والخـالق)؟.. هـل نجـد لهـذه المفـاهيم الأخلاقيـة الدينية أي ذكر في النظرية النسبية، أو في ميكانيكـا الكمـوم مثلاً؟ سؤال جدير بالتمحيص والإيضاح والمناقشة على أقل تعديل)

قرأ ذلك، ثم التفت لحبنكة، وقال: ما تقول في هذا النص؟

ابتسم حبنكة، وقال: أعلى هذا المستوى الفكري تعرض قضـية الإلحاد، وتناقش قضية الإيمان بالله!؟

أهكذا يجازف بالمنطق والفلسفة ليصـنع حجـة مكشـوفة بهـذا الشكل؟

فما صلة النظرية النسبية وميكانيكا الكمـوم بالحـديث الصـريح عن الله تعالى، أو التعرض إلى المفاهيم الأخلاقية، حتى يعتبر عدم ذكر اسم الله والمفاهيم الأخلاقية فيها دليلاً على نفي وجود الله، أو على إلغاء المفاهيم الأخلاقية!؟

إن مثل هؤلاء الذين يرطنون بمثل هذا كمثل وارث كنز عظيم، ولكنه قد نشأ وهو يجهـل أين خبـأ لـه مورثـه كـنزه، وأقبـل خـبراء البحث عن الكنوز ينقبون ويبحثون، وتسلل من وراء هؤلاء الخــبراء لصوص، تظاهروا بأنهم باحثون خبراء، ولكنهم وقفـوا يرصـدون مـا يعثر عليه البـاحثون الحقيقيـون، ليسـرقوه كلـه أو مـا يسـتطيعون سرقته منه، وكان مورث الكنز قد كتب اسمه ورسم صــورته على أحد وجهي مصكوكاته الذهبية علامة على أنها له، وقد خبأها لوارثه، أما الخـبراء المنقبـون الأمنـاء: فـإنهم لمـا ظفـروا بمـا وجـوده من الكنز، أعلنوا ما شهدوا من كتابـة ورسـوم على مصـكوكاته، وثبتـوا استحقاق الوارث لها، وأخـذوا أجـرهم على أعمـالهم. وآخـرون لم تكن لديهم الأمانة الكافية أو كانوا جاهلين بقراءة المكتوبات الأثرية أخذوا ما عثروا عليـه، وانتفعـوا بـالكنز، ولم يعلنـوا مـا شـهدوا من

كتابة ورسوم على مصكوكاته، ولم يهتموا بـأن يعـترفوا باسـتحقاق الوارث لها.. وجاء من وراء الفريقين فئة اللصـوص، فسـطوا على بعض ما استخرجه الخبراء من الكـنز، وطمسـوا الوجـه المكتـوب، وأقبلوا يفاخرون بأن الكنز كله هو ملكهم، وهـو مـيراثهم، والـدليل على ذلك أن بعض قطع مصكوكاته الذهبية في أيـديهم، قـد عـثروا عليها وفيها كتابة تشهد لهم بأن مورِّثهم قد خبأها لهم.

وحينما يُقال لهم: أرونا هـذه الكتابـة الـتي تشـهد لكم يقولـون: فلان قال هذا، وفلان قال هذا، وفلان قال هـذا، وكـل هـؤلاء الـذين ذكــروهم هم من فئـة اللصــوص أنفســهم، أو من غــيرهم ولكن يكــذبون عليهم، ويظلّون حريصــين على أن يبقى الوجــه الثــاني للمصـكوكات الذهبيـة مطموسـاً، حـتى لا تنكشـف لعبتهم القائمـة على اللصوصية والتزوير.

أخذ العظم يقـرأ من كتابـه هـذه العبـارات:(عنـدما نقـول مـع (نيتشه): إن الله قد مات، أو هو في طريقــه إلى المـوت، فنحن لا نقصد أن العقائد الدينية قد تلاشت من ضمير الشعوب، وإنما تعني أن النظرة العلميـة الـتي وصـل إليهـا الإنسـان عن طبيعـة الكـون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله تماماً كما قال (لابلاس))

التفت إلى حبنكة، وقال: وما تقول في هذا الكلام؟

ابتســم حبنكــة، وقــال: لســت أدري لم تحشــر اســم العــالم (لابلاس) في هــذا المحــل.. لقــد شــرح (لابلاس) دليــل الحركــة الكونية، وأبان قـوة هـذا الـدليل في جسـم الشـبهات الـتي يثيرهـا الجاحدون فقال:(أما القدرة الفاطرة التي عينت جسـامة الأجـرام الموجــودة في المجموعـــة الشمســـية وكثافتهـــا، وثبتت أقطـــار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنهـا حكيمـة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بــأدق حساب، بحيث إن النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل.. هذا النظام المستند إلى حسـاب يقصـر عقـل البشـر عن إدراكـه، والـذي يضـمن اسـتمرار واسـتقرار المجموعـة إزاء مـا لا يعـد ولا يحصى من المخاطر المحتملة، لا يمكن أن يحمـل على المصـادفة إلا باحتمــال واحــد من أربعــة تريوليونــات، ومــا أدراك مــا أربعــة تريوليونـــات؟ إنـــه عـــدد من كلمـــتين، ولكن لا يمكن أن يحصـــيه

المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهـاراً ،على أن يعد في كل دقيقة (150) عدداً)

انظر هذا الكلام المضمخ بعطر الإيمان.. لم لم تسمع إليه؟

قال العظم: لقد سـمعت إلى قولـه الآخـر:(إن العـالم العظيم الذي سيتمكن من معرفة انتشـار الـذرات في السـحب السـديمية الأولية سيكون باستطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه)

قال حبنكة: ولكن قوله هذا لا يعني إنكاره للخـالق، وإنمـا يـدل على شعوره بأن الكون سائر وفق نظام مرسوم خاضـع لسلاسـل سببية متتابعة، يمكن التنبؤ باللاحق منها لدى معرفة السابق.

قال العظم: وما تقول في قوله لنابليون: (الله فرضية لا حاجـة لي بها في نظامي)(1)

قال حبنكة: فلنفرض أنه قـال هـذا وذاك.. فلم تنتقي هـذا دون ذاك.. ألا يمكن أن يقول أحد من الناس قـولا ثم يـتراجع عليـه بعـد ذلك؟

ثم ما قيمة (لابلاس).. مهما كان محترما.. أمام القضية الكبرى التي نتحدث عنها؟

لم يجد العظم إلا أن فتح كتابه، وقال: فما تقول في ردي على الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس)؟

قال حبنكة: ماذا قال (وليم جيمس) أولا؟

قال العظم: لقـد كتب كتابـا يغلب فيـه العاطفـة على العقـل.. سماه (إرادة الاعتقاد).. وقد تعرض في بحثه هذا إلى حق الإنسـان المفكر بالاعتقاد بوجود اللـه، ولـو لم تكن البينـات العلميـة والأدلـة العقلية كافية بحد ذاتها للبرهـان على وجـود اللـه أو عـدم وجـوده، نظراً إلى أن عواطف الإنسان ومشاعره ترجح جانب الإثبات، كمـا أن الإنسان يجد نفسه بين موقفين:

1) ذكرنا هذا القول في المبحث السابق، والذي نقلناه من كتـاب (العلم في منظـوره الجديد).. ولكن حبنكة يشكك في مدى صدقه.. قال بعد عرضـه لـه:(لسـت أدري مبلغـه من الصحة أمام قوله الذي قرأناه مما كتب بنفسه، وبكل أسف لم نجد لـدى الناقـد أثـراً للأمانة الفكرية التي يتظاهر بالغيرة عليها)

إما أن ينكر الله ويجحـده، ثم يكـون الواقـع بخلاف ذلـك.. وفي هذه الحالة، فإنه يعرِّض نفسه لخسائر كبرى.

وإمـا أن يـؤمن بـه، ثم يكـون الواقـع بخلاف ذلـك.. وفي هـذه الحالة، فإنه لا يخسر شيئاً.

واستنتج من ذلك أن موقف الإيمان على هذا موقف لا خسـارة فيه مطلقاً، مع وجود احتمال اغتنام أرباح كثيرة منه بخلاف موقـف الإلحاد الـذي لا ربح فيـه مطلقـاً، مـع وجـود احتمـال تكبـد خسـائر كبرى.

وبمقارنـة هـذين المـوقفين رجح موقـف الإيمـان على موقـف الإلحاد قطعاً.. وبذلك غلب جيمس العاطفة على العقل.

لقد قلت ردا عليه في الصفحتين (76) و(77):(في الواقـع أن (جيمس) يسيء فهم المشكلة: فالمسألة لا تتعلق بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيهـا من اعتقـادي باللـه، وبالخسـارة المماثلـة التي قد أتكبدها من عدم اعتقادي بـه إذا كـان موجـوداً.. المشـكلة أصـلاً لا تمت بصـلة إلى حسـاب الأربـاح والخسـائر، ولا علاقـة لهـا بعقلية الرهان والمجازفة.. المشكلة بكل بساطة هي: هل القضـية (الله موجـود) قضـية صـادقة أم كاذبـة، أم أن صـدقها جـائز جـواز كذبها، وليس لدينا أدلة أو بينات ترجح أياً من هذين الاحتمالين على الآخر؟ يجب أن ينسـجم موقفنـا الشخصـي من قضـية وجـود اللـه انسجاماً تاماً مع جوابنا على هذا السـؤال، لا مـع حسـاب الخسـائر والأرباح)

ابتسم حبنكة، وقال: ما ذكـره جيمس ليس دليلا[1].. فلا ينبغي للدليل إلا أن يعتمد على العقل المجرد.. بالإضافة إلى أنـه لا يعتـبر الإيمان إلا من العقل الجازم الموقن لا من العقل التاجر المجرب.

ولكن مـع ذلـك، فـإن هـذا ممـا اعتـاد العلمـاء في المنـاظرات طرحه.. وهم يطرحونه، لا باعتباره دليلا.. وإنما باعتبـاره مـؤثرا في الملحد حتى يعيد نظره ويدققه.. فالمسألة ليسـت مسـألة نظريـة

1) نحب أن ننبه هنا إلى الخطورة التي تحملها هذه الفكرة التي عرضها وليم جيمس، والتي صار البعض يتشبث بهـا للإيمـان بـأي شـيء، بحجـة أن الإرادة تغلب العقـل.. وهـو لذلك لا يبحث عن الدين الصحيح الذي ينبغي أن يسلم زمامه له.

مجردة.. إنها مسألة يرتبط بها مصير الإنسان جميعا.

لقد اعتاد المناظرون الدالون على الله أن يذكروا ما ذكره جيمس عند آخر مرحلة من مراحل النقاش الذي يرفض فيه الملحد أدلة الإيمان الكثيرة، ويعلن تشككه بها.. أو يطرحونه في أول مرحلة من مراحل النقاش، لتوجيه النفس إلى منطقة الإيمان منذ الانطلاقة الفكرية الأولى، ثم تطرح من بعده الأدلة والبينات الأخرى، فهو إما دافع إلى النقلة الأولى التي تتجاوز منطقة الشك المطلق، وإما ممسك بالنفس في منطقة الإيمان قبل أن تنزلق إلى منطقة الشك المطلق.

لقد علمنا القرآن هذا.. فقد ذكر أن مؤمن آل فرعون، قال لقومه الذين هموا بقتل موسى ﴿: أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: من الآية28)

فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون عرض عليهم ـ أولاً ــ دليل البينات التي جاء بها موسى، ثم تنازل معهم إلى مستوى آخر لا يستطيعون أن يرفضوه إذا هم رفضوا البينات، فقال لهم:﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)، أي: إنكم لا تخسرون شيئاً إذا تركتم موسى وشأنه فيما لو كان كاذباً، بخلاف ما لو كان صادقاً فإنكم تخسرون كثيراً بتكذيبه ومقاومة دعوته:﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)، أي: فيما لو كان صادقاً.

والمنطق الحق يرجح الأخذ باحتمال صدقه على احتمال كذبه، لأن الأخذ باحتمال الصدق يدفع عنكم احتمالات الخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تجنوا شيئاً من الربح.. وهذا منطق عقلي يصح الاستناد إليه والاعتماد عليه، في كل الأمور التي يجد الإنسان نفسه فيها بين موقفين متكافئين نظرياً، إلا أن الأخذ بأحدهما فيه السلامة بصفة قطعية مع احتمال الربح، أما الآخر ففيه احتمال عدم السلامة مع الخسارة، وهذا هو أضعف الأدلة المرجحة.

قال العظم ساخرا: أهان العقـل عنـدكم لهـذه الدرجـة.. حـتى صارت العاطفة تغلبه؟

ابتسم حبنكة، وقال: لقد ذكرني موقفك هذا بقصة طالب غـبي يحفظ بعض المسائل النحوية والصـرفية واللغويـة، سـأله الممتحن أول ما سأله ما اسمك؟ فقال لـه: الاسـم على أقسـام: منـه علَمَ، والعلم مرتجـل ومنقـول، وهـو علم شخصـي وعلم جنسـي، ومنـه معارف أخرى غير علم، ومنه نكرة، والنكرة قد تكون اسـم جنس، وقد تكون اسـم جنس جمعي، وفي بـاب النـداء قـد تكـون النكـرة نكرة مقصودة، وقد تكون نكرة غير مقصـودة، ومعـاجم اللغـة قـد جمعت المفردات اللغوية وبينت معانيها، سواء ما كان منها اسماً أو فعلاً، وفيهـا مئـات الألـوف من الكلمـات.. وهكـذا سـار على هـذا المنوال في السرد الغبي.

وهكذا أنت، فقد ظننت نفسك في مثـل صـحراء واسـعة تبحث فيها عن دينار، واحتمالات الخطأ فيها لا نهاية لها، ونسـيت أنـك في موضـوع يـتردد بين احتمـالين فقـط، لا ثـالث منهمـا، أحـد هـذين الاحتمالين هو أن الله موجود وحق، والاحتمال الثاني هـو الاحتمـال المناقض له، ولا شيء وراء هذين الاحتمالين، فالقضـية كمن جاءنـا فقال: في وسطي حزام ناسف، وهنا لا بد أن نكون أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن نرجح احتمال الصدق فنأخذ حذرنا، وإما أن نرجح الاحتمال الآخر فنورط أنفسنا في احتمال الخطر.

وهكذا، فإن (جيمس) رجح احتمال الإيمان على نقيضـه فقـط، وليس على احتمالات لا حصر لها.

ثم كيف لا تتعلق المشكلة بالفائدة الدنيوية أو الأزليـة الـتي قـد أجنيها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قـد أتكبـدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً؟

إنها مشكلة وجـودي وحيـاتي وسـعادتي ومسـتقبلي، أفلا أبحث عنها؟

أفلا أضعها في الحساب؟

أفأعرض وجودي كله وسعادتي كلها للخطر، دون أن يكـون لي

في الموقف الذي أتخذه أي ربح، أو أية فائدة؟

هل أتعامل مع أرقام في مسألة رياضية لا علاقة لي بها؟

إنها قضية حياة، قضية سعادة، وقضية مصير، واللعب فيها لعب بالنار.

رأيت العظم بعد أن سمع هذا تغير وجهه، ثم قال بصوت فيه بعض رعدة: أستأذن.. ربما نلتقي مرة أخرى لنكمل مناقشتنا.

سقط الكتاب من يده، وهو يسير، فأخذه بعض الناس، وأعطاه له.. فنظر إليه، وقال: خذه.. لدي نسخ أخرى منه.

المناظرة التاسعة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة التاسعة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت رجلين يلتف حولهما جمع كبير[1]..

أما أحدهما، فكان شيخا يبدو على ملامحه الصلاح.. وكان الناس يطلقون عليه (الراوندي)[2] وقد عرفت أن سببه هو كونه من بلاد يقال لها راوند.

وأما الثاني، فشاب تبدو عليه بعض خفة العقل.. ممزوجة بغرور كثير زاد فيه اطلاعه الواسع وعلمه الكثير.. فهو كما يقال (علم بلا عقل)..، وكان يطلق عليه (ابن الراوندي)[3].. وقد عرفت

1) ننبه إلى أن المناظرة ليست حقيقية كما هو ظاهر.

2) أشير به إلى الإمام المتكلم ظهير الدين، محمّد بن الإمام قطب الدين سعيد بن هبة الله، الراونديّ، من أعلام الشيعة في القرن السابع الهجري، وهو صاحب كتاب (عجالة المعرفة في أصول الدين)

3) أشير به إلى (ابن الراوندي)، وهو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان وكاشان في فارس، ولد عام 210 هـ ، وتوفي في الأربعين من عمره مخلِّفاً وراءَه أكثرَ من مئةِ كتابٍ طافحةٍ بالافتراءاتِ التي تُبَيِّنُ خُروجَه عن الإسلام، وقد كانَ يهودياً، ثمَّ دخلَ الإسلامَ وتنقَّلَ بينَ عدَّةِ مذاهبَ حتى ماتَ كافراً ملحداً.

سردَ ابنُ الجوزي سيرته في عدَّةِ صفحات؛ وقال الذهبيُّ في ختامِ ترجَمته: (لعنَ اللهُ الذكاءَ بلا إيمانٍ ورضيَ عن البلادةِ معَ التقوى)؛ ونُقلَ عن أبي عليٍّ الجبائي المعتزلي

أن كلا الرجلين من بلـد واحـد.. لكنهمـا مـع ذلـك مختلفـان اختلافـا شديدا يستحيل معه أي اجتماع.

بدأ ابن الراوندي الحديث متوجها به للراوندي قـائلا: إلى الآن لا أسمع إلا جعجة.. لم أر طحينا بعد.. أنت تعلم أني جائع.. والجـائع لا تشبعه الجعجعة.

قال الراوندي: إنك لم تمنح لي الفرصة الكافيـة لأتسلسـل بـك في الدلالة على وجود الله.. إني كلما حدثتك حـديثا انتقلت بي إلى غيره.. ولا يمكن أن تفهم بهذا شيئا.

قـــال ابن الراونـــدي: هـــا قـــد صـــمت.. فتكلم.. ولا تتكلم إلا بالطحين.. فإني لا أحب الجعجعة.

قال الراوندي: سأعود.. وأبدأ من الأول.. وسأفترض معـك بـأن وجود الله مجرد دعوى تبحث عن أدلة علمية عقلية تدل عليها.

أولا أنت تعلم أن هذا من النوع من الدعاوى لا يتعلـق من العلم بجانبه الذي يخضع للتجربة والمشاهدة.. ولذلك فـإن الـدليل الـذي يمكن أن نستعين به لإثبات هذا هو البراهين العقلية.

إن هناك بـديهيات اتفقت العقـول على قبولهـا والتسـليم لهـا.. وهي التي يعتمد عليها الدليل الذي سأورده لك.. وهي أربعة:

أما أولها، فهو (بطلان الرجحان دون مرجح)..

قاطعـه ابن الراونـدي، وقـال: الرجحـان دون مـرجح!؟.. مـا هـذا!؟.. أنت تريـد أن تتحـدث عن اللــه، أم تريـد أن تتحـدث عن الموازين.. أو الأرجوحات.. ما هذا يا رجل.. ما هذه الجعجعة.. أريـد الطحين.. لقد أنهكني الجوع.

تنفس الراوندي الصعداء، وقال: ما عساي أن أقـول لـك.. لقـد عدت إلى طبيعتك.. ألم نتفق على أن تترك لي فرصة الكلام؟

قال ابن الراوندي: لا بأس.. لا بـأس.. لكن وضـح لي مـا الـذي

قولَه: (قرأتُ كتابَ هذا الملحـدِ الجاهـلِ السـفيهِ ابن الراونـدي فلم أجـدْ فيـه إلاَّ السـفهَ، والكذبَ، والافتراء)

تريده من الرجحان دون مرجح.

قال الراوندي: المراد منه بديهية من بديهيات العقول، وهي أنه يستحيل أن يكون الشيء جاريا على نسق معين، ثم يتغير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقا.. إن هذا من الأمور الواضحة البطلان، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه، ولا بد ـ لتحويله عن حاله السابقة ـ من محول ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة.

قال ابن الراوندي: أسلم لك بهذا.. ولكن كيف تستدل به على ما نحن فيه؟

قال الراوندي: بالتأمل في الأشياء تجد أنها جميعا لا تخلو من ثلاثة أوصاف: الوجوب والاستحالة، والإمكان[1].

فما اتصف بالوجوب استحال في العقل عدمه.. وما اتصف بالاستحالة استحال في العقل وجوده.. وما اتصف بالإمكان أجاز العقل وجوده وعدمه..

قال ابن الراوندي: سلمت لك بكل هذا.. فكيف تستدل به على ما نحن فيه؟

قال الراوندي: بالتأمل في هذا الكون الذي نراه نرى أنه في جملته من نوع الممكن.. أي أن العقل يجزم بأنه لا يترتب أي محال على فرض انعدامه.. ويرى أنه من الممكن أن توجد أسباب تعدمه من أصله دون أن يستلزم ذلك محال لا يقبله العقل.

وهذا يعني أنه لا بد لهذا الكون الذي كان في أصله قابلا لكل من الوجود والعدم بحد سواء من قوة خارجة عنه مؤثرة فيه

1() الواجب: هو ما لا يتصور العقل نفيه، أي ما لا يمكن للعقل أن ينفك عن إثباته.. والاستحالة ضد الوجوب فهي عدم قبول الثبوت في العقل، فالمستحيل ما لا يتصور العقل ثبوته، أي أن العقل لا ينفك عن نفيه وسلبه والحكم بعدمه كلما عرض مفهومه على العقل.. أما الجواز أو الإمكان العقلي فهو تمام القسمة العقلية بين الوجوب والاستحالة، فهو قبول الثبوت والانتفاء في العقل؛ فالجائز العقلي هو ما يتصور العقل ثبوته ونفيه، أي أنه عند عرضه على العقل فإن العقل ينفك عن إثباته كما ينفك عن نفيه.

ودليل الحصر أن المعلوم إما أن لا ينفك العقل عن إثباته وهو الواجب، أوْ ينفك عن إثباته كما ينفك عن نفيه وهو الجائز، أو لا ينفك عن نفيه وهو الممتنع لذاته، ولا ثالث بين الإثبات والنفي.. فثبت بذلك انحصار الأحكام المذكورة في الثلاثة.

خصصته لجانب الوجود..

قال ابن الراوندي: يمكن أن أتفق معك إلى هنا.. فما هذه القوة؟

قال الراوندي: هذه القوة هي قوة الله.

قال ابن الراوندي: لا.. لا أتفق معك على هذا..

قال الراوندي: لم.. أو ما القوة التي تراها بديلة عن الله؟

قال ابن الراوندي: ما دام الأمر يحتاج إلى الله.. فأنا لا أحتاج إلى هذا.. أنا أفرض فرضا آخر لا نحتاج فيه إلى أي قوة خارجية.

قال الراوندي: فما هو هذا الفرض الذي يغني الكون عن خالقه؟

قال ابن الراوندي: أنا أفرض أن الكون وجد بذاته دون أي قوة مؤثرة خارجية.

قال الراوندي: فما دليلك على هذا؟

قال ابن الراوندي: لا أحتاج إلى أي دليل.. بل أنت الذي تحتاج إلى أن تنفي صحة هذا الفرض.

قال الراوندي: لا بأس.. إن هذا الفرض الذي فرضته سيلزم عنه القول برجحان الشيء بدون مرجح له، وهو باطل كما علمت، فبطلت الفرضية التي استلزمتها أيضا.

لقد قال الفارابي الذي أراك تقدره وتحترمه يقرر هذا: (إن الموجودات على ضربين: أحدهما ممكن الوجود، والثاني واجب الوجود.. وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال، وليس بغني بوجوده عن علته وإذا وجد صار واجب الوجود لغيره لا بذاته.. أما واجب الوجود فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال، ولا علة لوجوده ولا يجوز كون وجوده بغيره، والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولة.. ولا يجوز كونها على سبيل الدور، بل لا بد من انتهائها إلى شيء واجب هو الموجود الأول الذي هو السبب الأول لوجود الأشياء وهو الله تعالى)

و على تعبـير ديكـارت القـريب التنـاول: (إنـني موجـود فمن أوجـدني ومن خلقـني؟.. إنـني لم أخلـق نفسـي.. فلا بـد لي من خالق.. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود وهو الله بارئ كل شيء)

و على تعبير باسكال:(إنه كان يمكن أن لا أكون لـو كـانت أمي قد ماتت قبل أن أولد حيا، فلست إذا كائنـا واجب الوجـود.. فلا بـد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي وهو الله)

وقد عبر القـرآن الكـريم على ذلـك بـأوجز عبـارة، فقـال:﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور:35)

قال ابن الراوندي: فلنفرض أن العالم قديم في وجـوده.. أي لا أول له، ولا سبق للعدم عليه.

قال الراوندي: كيف ذلك؟

قـال ابن الراونـدي: عن طريـق التوالـد الـذاتي.. فكـل سـبب طبيعي له سبب طبيعي إلى ما لا نهاية.

قال الراوندي: إن هذا النوع من التوالد تنفيه الحقيقة الفطرية الثانية.. وهي (**بطلان التسلسل**)

قال ابن الراوندي: بطلان التسلسل!؟.. ما بطلان التسلسل؟

قال الراوندي: هـو افـتراض أن المخلوقـات كلهـا متوالـدة عن بعضها إلى مالا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلـولا لمـا قبلـه، وعلة لما بعده.. دون أن تنبع هذه السلسـلة أخـيرا من علـة واجبـة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات.

إذ أن سلسلة المخلوقات الممكنـة مهمـا طـالت وطـالت فـإن اسـتمرار طولهـا لا يخرجهـا على كـل حـال عن كونهـا ممكنـة، والممكنات لا بد لرجحـان أحـد طـرفي الإمكـان فيهـا من مـرجح.. ولنعتبر أن التسلسل حلقات.. فحلقات السلسلة كلها لا تـأثير ذاتي في واحدة منها مهما طال الزمن.. إذا فلكي نصدق أنها موجودة لا بد أن ننتظر ظهور المؤثر الخـارجي الـذي أمـد السلسـلة بالحيـاة، فراحت بدورها تنتقل من حلقة إلى حلقة، وإلا كان لا بد من الجزم

بأحد أمرين: إما أن كل هـذه السلسـلة مفقـودة إذ لم يثبت وجـود ذلك الذي قذف فيها الحياة.. وإما أنها موجودة، ولكنهـا تنبـع أخـيرا من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها، ولا تتأثر بشيء.

أمـــا الأمـــر الأول، فظـــاهر البطلان، لأن الحس والمشـــاهدة يكذبانه.. وأما الثاني، وهـو تيقن أن لابـد لـه من مصـدر ذاتي وهبـه الحيـاة والقـدرة على الحركـة والتطـور والتوالـد، فيبطـل بـذلك التسلسل المذكور.

وكما تعلم، فالعـالم مـركب بمجموعـه وأجزائـه.. وكـل مـركب حادث بداهة.. والعالم بما فيه متغير تغيرا مسـتمرا من صـورة إلى صورة.. وكـل متغـير من صـورة إلى صـورة لا يمكن أن تكـون لـه صورة أصلية أزلية قديمه، لأنها لـو كـانت كـذلك لم يجـز أن يطـرأ عليها التغير.

والقـول بتسلسـل الصـور إلى غـير نهايـة غـير صـحيح.. لأن التسلسل مستحيل عقلا.. فلا بد أن نقف عند حد، ونقـول: إن هـذا المتغير لم تكن له في أول أمره صوره.. وإذا لم تكن لـه صـوره لا يكون له وجود، لأن الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون والطعم والرائحة، ومتى فقد الشيء هذه الصور كلها فقد وجوده.. فالعالم نتيجة لهذا حادث.. والعقل بقوة قانون العلية البديهي يحكم بداهـة بـأن كـل حـادث لا بـد لـه من سـبب يحدثـه، وهـذا السـبب المحدث لا يجوز أن يكون حادثا، لأنه يفتقر إلى سبب محـدث لـه.. ولا يجوز القول بتسلسـل الأسـباب إلى غـير نهايـة، لأن التسلسـل ممتنع عقلا.. فلا بد أن يكون المحـدث الصـانع للعـالم قـديما، وهـو الله تعالى الذي خلق العالم وأحدثه بعد العدم المطلق.

قال ابن الراوندي: أنا لا أستطيع أن أضع في خيـالي مـا تـذكره من أحـــاديث.. فمن الصـــعب علي الخيـــال أن يتصـــور النهايـــة.. واللانهاية..

ابتسم الراونـدي، وقـال: أنـا أخـاطب عقلـك لا خيالـك.. فاللـه يمكن أن نتعقله، ولكنا مهما أوتينـا من سـعة الخيـال، فلا يمكن أن نتخيله..

إن ما ذكرته لك بديهيات عقليه يأخذ بعضها برقاب بعض، ولكن

هذه البديهيات يزاحمها في الذهن عند آخر مراحل التفكـير ارتبـاك وكلال عند تصور النهاية التي ليس وراءها أي شيء، واللانهاية التي لا تقف عند حد، والأزلية التي ليس لهـا بدايـة، والـزمن الـذي ليس قبله زمن، والمكان الذي ليس وراءه أي شيء..والعدم المطلق.

ولكن إذا علمنــا أن العــالم الواقــع المشــاهد هــو من قســم الممكن، لأننا نستطيع تصور عدم وجوده، وبما أنـه ليس هـو الـذي أوجد نفسه، فلا بد إذا من علة كافية لوقوعـه ووجـوده.. وقبـل أن تحدثه العلـة الكافيـة لم يكن موجـودا، فلا بـد إذا من تصـور العـدم سابقا لحدوث العالم.. فهل تصور إيجاده بعد العدم يـوجب تناقضـا عقليا؟

كلا..بل إن التناقض العقلي إنمـا يكـون إذا تصـورنا عـدم سـبق العدم لوجود العالم.

نعم يعجز الخيال البشري عن تصور ذلك.. ولكن مـا قيمـة هـذا العجز أمام البرهان القاطع؟

ألا تؤمن بالحقائق الرياضية، وتجد اليقين في نتائجها الصحيحة؟

ألسـت تعـرف كثـيرا من الحقـائق الرياضـية الـتي تسـتند إلى أوليات بديهية عقلية تكون في أول الأمر خافية عليك ولا تظهر لـك إلا بالتأمل والاستنتاج والبرهنة.

إن عقولنا في مجـال الأعـداد الكبـيرة تكـل عن تصـور حقـائق واضحة لا تحتاج إلا لتأمـل قليـل وحسـاب بسـيط من نـوع الجمـع، ويكون كلالها غريبا جـدا حـتى تمـارى في النتيجـة ولـو أخبرهـا بهـا أصدق الناس وأعلمهم.

سأضرب لك مثـالا على ذلـك.. أنـا أعلم حبـك لأحجيـة الورقـة المقطعة.. ولذلك سأستثمر هذا المثل لأقنعك بهذا.

لو أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة سمكها جزء من مائـة جـزء من الميليمتر، وطلب منك أن تقطعها نصـفين، ثم تقطـع النصـفين ثانية ليصبحا أربعة، ثم تقطع الأربعة لتصـبح ثمانيـة، وهكـذا إلى أن تكرر القطع والتضعيف (ثمـان وأربعين) مـرة، ثم سـئلت: قبـل أن

تبدأ بالقطع وقبل أن تحسب.. كم تتوقع أن تصبح سماكة هذه الأوراق الرقيقة بعد قطعها (ثمان وأربعين) مرة؟

قال ابن الراوندي: أنا أعلم جواب هذه الأحجية.. إذا كررت القطع إلى المرة الـ(ثمان وأربعين)، ثم جعلت الأوراق المقطعة ركاما مرصوصا صاعدا في السماء، فإنه يلمس أو يكاد يلمس القمر الذي يبعد عن الأرض (384) ألف كيلومتر.

قال الراوندي: إن العقل هو الذي استنتج هذا.. ولكن اذهب إلى أي عامي وأخبره بهذا، فإنه سيمتلئ منك ضحكا وسخرية.

قال ابن الراوندي: لقد حصل ذلك لي مرة.

قال الراوندي: ولهذا.. فإن فرض التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة.. ذلك أننا جميعا نعلم أن هناك مخلوقات نوعية انقرضت وانتهت، فلو صح بأن الموجودات تتسلسل إلى ما نهاية بأن يكون كل حلقة فيها معلولا بما قبلها وعلة لما بعدها.. فلماذا انقرضت هذه الموجودات؟.. إذ كيف تنقرض وهي علة لما بعدها؟.. وهذا إخلال بنظام التسلسل المزعوم.

قال ابن الراوندي: فأنا أرجع إلى أن العالم حادث.. وله علة أثرت في إيجاده.. ولكن هذه العلة لا تتمثل في أكثر من التفاعل الذاتي المتدرج، كتفاعل العناصر الأولية للحياة كالكربون والهيدروجين والأوكسجين التي تلاقت ونتج عنها مركبات عضوية لا حصر لها؟

قال الراوندي: إن هذا يستلزم القول **بالدور**.. وهو من البديهيات التي تنكرها العقول..

قال ابن الراوندي: الدور!؟.. ما الدور!؟

قال الراوندي: الدور هو أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق أو تكييف معين له على شيء آخر إلا أن هذا الشيء متوقف في ذلك الوجود أو التكييف، وفي نفس الوقت على ذلك الشيء الأول.

مثال ذلك ما لو قلنا: إن وجود البيض متوقف على وجود

الدجاج، ثم نقول: إن الدجاج وجد قبل البيض، وفرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلا عن هذا الطريق، فإن من البديهي أن كلا الأمرين يظلان معدومين حتى يأتي مؤثر خارجي يفك هذا الطوق.

قال ابن الراوندي: عرفت إلى الآن ثلاث حقائق بديهيـة.. فمـا الرابعة.. أم أنك نسيتها؟

قـال الراونـدي: لا.. كيـف أنسـاها.. وهي في عقلي وعقلـك وعقول كل الناس..

قال ابن الراونـدي: من حقـك أن تفـرض وجودهـا في عقلـك.. ولكن ليس من حقـك أن تفـرض وجودهـا في عقلي.. عقلي هـو بيتي ولا يعرف ما في البيت إلا أهله.

قال الراوندي: من السـهل علي أن أدرك وجـود هـذه الحقيقـة فيه؟

قال ابن الراوندي: هل تريد أن تشرح عقلي لترى ما فيه؟

قال الراونـدي: سـأتحرى كمـا يتحـرى القضـاة.. وسـأدرك من خلال التحري أن عقلك لا يخلو من هذه البديهة.

قـال ابن الراونـدي: أنـا مسـتعتد لسـماعك حضـرة القاضـي.. فاسأل كما تشاء.

قال الراوندي: نفرض أنك نظـرت إلى وعـاء أمامـك، فوجـدت فيه قطعا من الآلات المختلفة الدقيقة، ولما تأملتها جيـدا اكتشـفت أن لكل واحدة منها مكانا تركيبيا دقيقا من الأخرى، فأخـذت تجمـع هذه الأجزاء.. وعندما فرغت من وضع آخـر آلـة منهـا في موضـعها فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات، وتأملت فإذا هي ساعة زمنيـة.. مـا لـذي تدركـه عقب هـذا كله؟

قال ابن الراوندي: لا شـك أني كسـائر النـاس أدرك دون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقـة غايـة جزئيـة معينـه قـد هـيئت لتحقيقها، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي ضبط الزمن.

قال ابن الراوندي: فأبشر إذن.. فإن عقلك لا يزال سليما.. إنه يحوي هـذه البديهيـة الـتي يسـميها أصـحابك من الفلاسـفة قـانون العلية (العلة الغائيـة).. ويسـميها أصـحابنا من علمـاء الكلام (دليـل الحكمة والتناسق).. فظهور العلة الغائيـة دليـل قطعي على وجـود مدبر صممه على هذا النحو إذ لا تملك الأجهـزة الجامـدة أن تفكـر لتسير وحدها نحو غايات معينة.

قـال ابن الراونـدي: فكيـف تسـتدل بهـذا القـانون على وجـود الله؟

قال الراوندي: لقد عـبر عن هـذا الـدليل أعـرابي كـان لا يـزال يحتفظ بفطرتـه حين قـال جوابـا لمن سـأله عن دليلـه على اللـه: (البعرة تدل على البعير، وأثـر السـير يـدل على المسـير، فسـماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلـك كلـه على الله اللطيف الخبير)

وعبر عنه أفلاطون بقوله: (إن العالم آية في الجمال والنظــام، ولا يمكن أبدا أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقيه، بل هـو صـنع عاقـل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد وحكمة)

وعبر عنه (اناكساغورس) الذي جاء بعد (ديموقريطس) فقـال: (من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال وهـذا النظـام الذين يتجليان في هذا العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم)

المناظرة العاشرة:

بعد أن مللت من التجول في الشوارع يممت صوب معهــد من معاهد العلوم.. وهناك رأيت رجلا اجتمع عليه نفر كثير.. منهم بعض الملحدين الـذين كنت رأيتهم في الشـوارع السـابقة الـتي تجـولت فيها.. ومنهم من كان مثله من المؤمنين الذين تلـوح أنـوار الإيمـان على وجوههم..

قال له أحدهم: عجبا لك.. أبعد لقائك الصادق(1) تغيرت كل هذا التغير؟

قال: أجل.. فلم يكن الصادق بشرا عاديا.. وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، ويتروح إذا شاء باطناً، فهو هذا.. لقد جلست إليه، فلما لم يبق عنده أحد غيري، ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر كما تقولون وليس هو كما تقولون، فقد استويتم وهم.

فقلت: يرحمك الله، وأي شيء نقول، وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلا واحد.

فقال: وكيف يكون قولك وقولهم واحد، وهم يقولون إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأن للسماء إلهاً وإنها عمران، وأنتم تزعمون ان السماء خراب ليس فيها أحد.

فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه يدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف فيه اثنان. ولم يحتجب عنهم، ويرسل إليهم الرسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟

فقال: ويلك كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك، نشوّك بعد أن لم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد إنابتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجاءك، وخاطرك لما لم يكن في وهمك وغروب ما أنت معتقده عن ذهنك.

وما زال يعد عليّ قدرته التي هي فيَّ التي لا أدفعها، حتى ظننت انه سيظهر فيما بيني وبينه.

---

1) أشير في هذه المناظرة إلى مناظرة للإمام جعفر الصادق وهو من أئمة أهل البيت عليهم السلام مع بعض الملحدين.

وبينما نحن كـذلك إذ دخـل عليـه بعض أصـحابنا من الملاحـدة، فقال: أليس تزعم أن الله تعالى خالق كل شيء؟

فقال الصادق: بلى.

فقال الملحد: أنا أخلق.

فقال له الصادق: كيف تخلق؟

فقـال الملحـد: أحـدث في الموضـوع، ثم ألبث عنـه، فيصـير دواب، فكنت أنا الذي خلقتها.

فقال الصادق: أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه؟

قال: بلى

قـال: أفتعـرف الـذكر من الأنـثى وتعـرف عمرهـا؟ فسـكت الملحد.

ثم إنـه عـاد في اليـوم الثـاني إلى الصـادق فجلس، فسـأله الصادق: أمصنوع أنت أم غير مصنوع؟

فقال له الملحد: أنا غير مصنوع.

فقال له الصادق (عليه السـلام): فصـف لي لـو كنت مصـنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي الملحد مليا لا يحير جوابا وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول: طويل عريض، عميق قصير، متحـرك سـاكن، كـل ذلـك من صفة خلقه.

فقال له الصادق فـإن كنت لم تعلم صـفة الصـنعة من غيرهـا، فاجعل نفسك مصنوعا لما تجـد في نفسـك ممـا يحـدث من هـذه الأمور.

فقـال لـه الملحـد: سـألتني عن مسـألة لم يسـألني أحـد عنهـا قبلك، ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها.

فقال له الصادق: هبك علمت أنك لم تسأل في ما مضى، فمـا

علمك أنك لم تسأل في ما بعد؟ على أنك نقضت قولك، لأنك تزعم أن الأشياء من الأول سواء، فكيف قدمت وأخّرت؟

ثم قال: أنزيدك وضوحاً؟ أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل: هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينارفي الكيس، فقال لك قائل: صف لي الدينار، وكنت غير عالم بصفته، هل لك أن تنفي كون الدينار في الكيس وأنت لا تعلم؟

قال: لا.

فقال الصادق: فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس، فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم، صفة الصنعة من غير الصنعة.

فانقطع الملحد.. ثم إنه عاد في اليوم الثالث فقال: أقلب السؤال.

فقال الصادق: سل عما شئت.

فقال: ما الدليل على حدوث الأجسام؟

فقال الصادق: أني ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأولى دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد.

فقال الملحد: هبك علمت بجري الحالين والزمانين على ما ذكرت، واستدلت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها، من أين لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال الصادق: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالم آخر، كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره، ولكن أجبت من حيث قدرت إنك تلزمنا وتقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم لأنه متى ما ضم شيء منه إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروج من القدم، كما بان في تغيير دخوله في الحدث أن ليس وراءه.

***

التفت إلينا صاحبنا (آرثر شوبنهاور)، وقال: هذا حديثي مع العلم والعقل ودلالتهما على الله.. لقد عشت في رحابهما أياماً جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فانشغلت بها عن التعرف على ربي أو البحث عنه أو السير إليه.. وقد نسيت لذلك تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

نعم صار (الله) عندي حقيقة من الحقائق، ولكنها حقيقة أقرب إلى الباطل منها إلى الحق..

نعم كنت أقول بوجود الله، ولكني لا أشعر بأن شيئا تغير بذلك.. لقد كان وجود الله في نفسي - بسبب غفلتي - أقرب إلى العدم منه إلى الوجود..

ولولا أن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلى ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك المعاني لكنت الآن في عداد الغافلين.

ثانيا ـ الواحد

في اليـوم التـالي.. وبعـد أن من اللــه علينـا بفضـله وكرمـه، فاستمعنا إلى البراهين الكثيرة الدالة على وجـود اللـه تعـالى، قـام رجل منا، وقال: نعم.. لقد أثبت لنا صاحبنا (آرثر) بما لا يـدع مجـالا للشك بـأن رب هـذا الكـون موجـود.. ونحن لا نشـك في ذلـك، ولا ننازعه فيه.. ولكن ما أدرانا أن يكون إلها واحدا أو آلهة متعددة.. إن الأديان تختلف في ذلك اختلافا بينا.. فبينما تجنح المسـيحية للتثليث نـرى الإسـلام يـدعو إلى الإلـه الواحـد.. الإلـه الواحـد بكـل معـاني الوحدة.. فأيهما نصدق، وبأيهما نهتدي؟

قال آخر: صدقت.. وقد سمعت من احتجاجات النـاس في بـدء حياتي على هذه المعـاني مـا لم يسـتطع عقلي فهمـه، فانصـرفت عن البحث عن اللــه انصــرافا تامــا.. فهـذه الحقيقـة الغيبيـة الـتي تنازعت فيها الأديان يستحيل على العقول أن تثبتها.

قال آخر: صدقتما.. لا يمكن أن نعرف هذه الحقيقة إلا إذا تكلم معنا إله هذا الكون أو آلهته.

بقي نفر ممن معنا يردد مثل هذا الكلام إلى أن قاطعهم أحــدنا بقوله: اسكتوا.. اسكتوا جميعـا.. لقـد تـذكرت في هـذه اللحظـات جانبا مهما من حياتي كنت قد انصـرفت عنـه انصـرافا كليـا إلى أن عاد هذه اللحظة حيا ممتلئا حياة.

استبشرنا جميعا بقوله هذا، واقتربنا منـه، ورحنـا نقـول بلسـان واحد: هلم.. حدثنا.. فما أشـوقنا إلى التعـرف على الحقيقـة.. فلن ينجينا من هذه المهامه إلا الحقيقة.

اعتدل صاحبنا في جلسته، ثم قـال: أعـرفكم بنفسـي أولا.. أنـا (آريــوس) (1).. هكــذا ســماني أبي.. ولســت أدري لم اختــار أن

---

1)أشير به إلى (آريوس) (256 ـ 336م)، وهو قس إغريقي من سكان الإسـكندرية، بمصر، أنشأ في حوالي عام 318م مذهبًا لاهوتيًا نصرانيًا يعرف بالآريوسـية، أكـد فيـه أن المسيح مخلوق وليس إلهًا.. وكان يؤمن بالوحدانية ويقر بنبوة المسيح ﷺ لا بألوهيته.

وفي حوالي عام 318م، استنكر الإسكندر، مطران الإسكندرية تعـاليم آريـوس، الـذي استمر في القول بتعاليمـه وجـذب الكثـير من الأتبـاع، فطـرده وأتباعـه من الإسـكندرية، فذهب إلى فلسـطين وسـوريا، وتبعـه أسـاقفة كثـيرون منهم أسـقف قيصـرية وأسـاقفة

يسميني به مع كونه كان كاثوليكيا متعصبا.. في نفس الوقت الـذي كـان فيـه آريـوس رجلا من كبـار الموحـدين، وداعيـة من دعـاة التوحيد..

لقد كان لهذا الاسم بركـات كثـيرة علي.. فبسـببه اهتـديت إلى التوحيد.. وعرفت أن الله خالق هـذا الكـون يسـتحيل أن يكـون إلا واحدا.. واحدا من كل الوجوه..

وقـد دعـاني إلى هـذا اليقين في وحدانيـة اللـه حصـلت لي.. عرفت من خلالها استحالة أن يكون إله هذا الكون متعددا.

قلنا: فحدثنا عنها..

قال آريوس: لا أذكر المكان الذي التقيت فيه ذلك المبلغ الـذي أقنعني بهذا بالضبط.. ولا الزمـان.. فقـد انشـغلت بحديثـه عن كـل شيء..

لست أعرف شيئا من المكـان والزمـان، ولكن اسـمه لا يـزال يرن على خاطري كل حين، فيملؤني بمشـاعر غريبـة.. لا أسـتطيع مهما حاولت أن أصورها.

لقد اجتمع فيه ما كان متناقضا بالنسـبة إلي.. لقـد اجتمـع فيـه الإيمان والعقل.. وكلاهما جبل من الجبل قلمـا يجتمعـان لـدى أحـد من الناس.

كان شابا عليه سيما الإيمـان.. وكـان اسـمه – كمـا علمت بعـد لقائي به- (فخر الـدين)(1).. وكـان يقـال لـه (الـرازي) نسـبة للبلاد

بيروت وصور واللاذقية وغيرهـا.. ولمـا خشـي قسـطنطين اسـتفحال أمـره بعـد الانتشـار السريع لآرائـه، دعـا المجمـع المسـكوني للانعقـاد، فانعقـد في نيقيـة عـام 325م، وحكم بالأقانيم الثلاثة، وشجب أقوال آريوس، وأمر بحرق كتاباتـه وتحـريم اقتنائهـا، وحكم عليـه بالهرطقة. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

1) أشير به إلى أحد كبار المتكلمين في الإسلام فخر الدين الرَّازي، (544 ـ 606هـ، 1150 -ـ 1210م)، وهو أبـو عبـد اللـه محمـد بن عمـر بن الحسـن بن الحسـين الـتيمي الرازي الملقب بفخر الدين. ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علمـاء عصـره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان.. كان الرازي عالمًا في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها.. ترك مؤلفات كثيرة أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب.. ولا يخفى سر اختيارنـا لـه في هذا المقام.

التي ولد فيها.

وكان أول ما بـادرني بـه قولـه: أنت هـو القس آريـوس داعيـة التوحيد؟

قلت: إن كنت تريد بآريوس ذلـك الهـرطقي.. فلا يشـرفني أن أنتسب إليه.

قال: لم؟

قلت: لأن جميع رجال الكنيسة يخالفونه.

قال: وعقلك؟.. هل يخالفه؟.. إن لعقلك دورا مهما قد لا يحتـاج معه إلى موافقة الموافقين أو مخالفة المخالفين.

قلت: ومـا لعقلي، وهـذه الأمـور؟.. إن اللـه هـو الـذي يصـف نفسه، لأنه هو الله، ولو أنا حاولنا بعقولنا أن نصف الله، لكنا الـذين نحدد لله كيف يكون، ويكون العقل بالتالي هو صانع الإله..

قال: ألا ترى من العجب ألا تعرف العقول باريها الذي برأها؟

قلت: ولكن العقـول تختلـف في هـذا.. ومـا في عقلي يختلـف عما في عقلك.

قال: العقول تختلف عندما تلجأ إلى الخديعة.. ولكنهـا لـو بحثت عن الحقيقة بصدق.. فإنها لن تختلف أبدا فيها.

قلت: فكيف نثق في أحكام العقل إذن ما دام يخاتل ويخادع؟

قال: إذا حررناه من الخدع(1).

قلت: فكيف نحرره؟

قال: إذا تجردنا من الأهواء، فلم نمل على عقولنـا كيـف تفكـر، ولا فيما تفكر.

قلت: أترى لو أن البشر كلهم فعلوا ذلك يصلون إلى الحقائق؟

---

1) انظر في هذا رواية (سلام للعالمين) من هذه السلسلة، فصل (العقل).

قال: نعم.. يصلون إليها من أقرب الطرق.

قلت: فكيف يتفقون على الوصول إليها مع كونهم مختلفي الطباع والأجناس والألوان؟

قال: أتراهم يختلفون في تذوقهم للطعوم، أو تحسسهم للأشياء، أو رؤيتهم للألوان.

قلت: لا.. ولكن تلك محسوسات.. وهذه معقولات.

قال: أتراهم يختلفون في البراهين الرياضية.. أم يتفقون عليها؟

قلت: بل يتفقون.. فالرياضيات واحدة.. ونتائجها واحدة.

قال: فتعاملوا مع حقائق الوجود بالمنطق الرياضي.

قلت: المنطق الرياضي مرتبط بالأرقام.. ونحن في عالم أكبر من أن تحصره الأرقام.

قال: هناك قوانين كثيرة في الكون تشبه في دقتها دقة الأرقام فاعتمدوا عليها.

قلت: أيمكن أن نصل بها إلى الحقائق؟

قال: يمكن أن تصلوا بها إلى أبواب الحقائق.. وتدقوا بها هذه الأبواب.

قلت: وما بعد الأبواب؟

قال: لما بعد الأبواب عقوله الخاصة.. فلا تطلبوا ما بعد الأبواب قبل أن تصلوا إلى الأبواب.

قلت: ما دمت قد ذكرت هذا.. فهلم حدثني عن حكم العقل في الخلاف الذي حصل بين آريوس وبين رجال الكنيسة.

قال: أول ما يدلك على وحدانية الله(1) هو نظرك إلى هذا

(1) استفدنا بعض المعلومات الواردة هنا من كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى، ومن الكتب العلمية التي سبق ذكرها.

الكون نظرة العالم العاقل الخبير.. فهذا الكون يشهد بكل ذرة من ذراته.. وبكل حرف من حروفه على أن الله واحـد.. واحـد من كـل الوجوه.

يَا عَجَباً كيف يُعْصَى الإلهُ	أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ؟!
وللهِ في كل تحريكةٍ	وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كُلِّ شَيءٍ له آيةٌ	تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

قلت: أنا مثلك أرى الكون.. وغيرنا كثير يراه.. ولكننا لا نســتنتج ما تستنتج.

قال: لا بأس.. سأذكر لك عشرة براهين تجعلك ترى من الكون مرآة مجلوة لا تدل إلا على الواحد الأحد.

التكامل:

قلت: فهات أولها؟

قال: التكامل.

قلت: ما التكامل؟.. وما الذي يدل عليه؟

قال: لاشك أنك تعلم أن هذا الهواء الذي نستنشقه مــركب من عدة عناصر.. منها جزءان هامان: جـزء صـالح لتنفس الإنسـان هـو (الأوكسجين) وجزء ضار به هـو (الكربـون).. ومن دقـائق الارتبـاط بين وحـدات هـذا الوجـود أن هـذا الجـزء الضـار بالإنسـان يتنفسـه النبات، وهو نافع له.

ففي الوقت الـذي يكـون الإنسـان فيـه يستنشـق الأوكسـجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتتم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غـاز الكربـون في البحر، فإنه يمتص كل زيادة موجـودة في الجـو إذا بلغت هـذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فـانظر إلى الرابطـة التعاونيـة التكامليـة بين الإنسـان والنبـات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة، وهو التنفس.

هذا مثال واحد عن التكامل في الكون..

وإن شـئت مثـالا آخـر.. فـانظر إلى الطعـام الـذي تأكلـه.. إنـه يتركب – كما تعلم- من عدة عناصر نباتيـة أو حيوانيـة، تنقسـم إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية وغيرها.

ثم انظـر إلى الريـق حيث تـراه يهضـم بعض المـواد النشـوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الـذوبان، ليـذهب مـا بقي من طعام إلى المعدة حيث يهضم عصيرها المواد الزلاليـة كـاللحم وغيره، والصفراء المفرزة من الكبد تهضـم الـدهنيات وتجزئهـا إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك، فيفــرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منهـا تتميم الهضـم في عنصـر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعـة تحـول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشــري وعناصر النبات والحيوان، والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

هذا مثال ثان.. وإن شئت مثـالا ثالثـا فـانظر إلى الأزهـار الـتي تزين الحقول.. إنـك تـرى لهـا أوراقـا جميلـة جذابـة ملونـة بـألوان مبهجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجـابوك بـأن هـذا إغـواء للنحـل وأشـباهه من المخلوقـات الـتي تمتص رحيـق الأزهار، لتسقط على الزهرة، حـتى إذا وقفت على عيـدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهــرة الأنثى فيتم التلقيح.. فانظر كيـف جعلت هـذه الأوراق الجميلـة في الزهرة حلقة اتصال بين النبـات والحيـوان؛ حـتى يسـتخدم النبـات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

إن هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار، والسـماء والأرض، والشمس والقمر، والأعضاء المـذكرة والأعضـاء المؤنثـة، والإنسان والحيوان والنبات.

إن في هذا الكون جميعا وحدة مظهرهـا تكامـل أجزائـه.. وهي تدل على أن لها خالقا.. وأنه واحد..

قلت: فهمت ما ذكرت.. فهـو من المعلـوم من العلم بالضـرور والبداهة.. ولكني لم أفهم سر الاستدلال بهذا؟

قال: إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف.. ولهذا فلو استقل أحـد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين ولـو اشـتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطيل صفات الألوهية يتنـافى مـع جلالهـا وعظمتها، فلا بد أن يكون الإله واحدا لا رب غيره.

لقد ذكر القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس هذا الـدليل.. فقال:﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَـرَارًا وَجَعَـلَ خِلَالَهَـا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَـاجِزًا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُــونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَمَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (64)﴾ (النمـل).. وغيرهـا من الآيـات الكثيرة.

التناسق:

قلت: عرفت الأول.. فحدثني عن الثاني.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَـا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِـيرٌ (4)﴾ (الملك)

وقد ذكره العلم فأخبر أن من مظاهره أن الإلكترون يدور على عكس عقارب الساعة، والأرض تدور على عكس عقارب السـاعة، والشمس تدور على عكس عقـارب السـاعة، والكـواكب السـيارة تدور على عكس عقارب الساعة، والقمر وكـل الأقمـار تـدور على عكس عقـارب السـاعة، والنجـوم كلهـا تـدور عـل عكس عقـارب

الساعة، ومجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسـية تـدور على عكس عقارب الساعة.

وأخبر أن الإلكترون يـدور على مـدار بيضـوي إهليجي، والأرض تدور حول الشـمس على مـدار بيضـاوي إهليجي، وكـذلك الزهـرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة.

وأخـبر أن محـور الأرض مائـل. ومحـور القمـر مائـل ومحـور المريخ مائل، ومحور الشمس مائل..

وأخبر أن النسبة بين النواة وإلكتروناتها كالنسـبة بين الشـمس وكواكبها السيارة.

وأخبر أن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجيـة كهربـاء سـالبة وكهرباء موجبة فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية، فـإلى الحيوان كذلك فـإلى الإنسـان كـذلك.. وحـتى في الأحيـاء المخنثـة توجد أعضاء ذكرية وأخرى أنثويـة.. لقـد ذكـر القـرآن ذلـك، فقـال تعـالى:﴿ سُـبْحَانَ الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)﴾ (يس)

وأخبر أن في الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب.

وأخبر أن الكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونـات كعناصر أساسية هناك نيترونات كشـحنات كهربائيـة معتدلـة تكـون في نواة معظم العناصر.

وأخبر أن المادة كلها من نور إذ أن عناصـر المـادة كلهـا تـؤول إلى ذرات وكهارب وأن هذه الذرات والكهـارب تنشـق فتـؤول إلى شعاع.

وأخبر أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشـابها تامـا، فـإذا بهـذا التشـابه يخـرج منـه ذلـك الخلـق المختلف.

وأخبر أن في هذا الكون قـوة ومنـابع قـدرة وتحكمـه قـوانين.. وكلها تصيح بأدق معاني التناسق والوحدة بين القوى والقوانين:

فمن منـابع القـوة والقـدرة في هـذا الكـون: الضـوء والحـرارة والأشـعة السـينية والأشـعة اللاسـلكية والأشـعة البنفسـجية وتحت الحمراء.. وهذه القوى كلها ترجع إلى شـيء واحـد هـو تلـك القـوة الكهربائية المغناطيسية، ولها جميعا سرعة واحـدة، وإنمـا اختلافهـا اختلاف موجة.

ومن قوانين هذا الكون قانون الجاذبية الذي يحكم الوجـود كلـه من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، والذي نصه: (كل شيء لـه كتلـة يجذب كل شيء آخر لـه كتلـة، وقـوة التجـاذب الـتي بينهمـا تـزداد ازديادا طرديا بزيادة أي الكتلتين، فالقوة تتناسب تناسبا عكسيا مـع مربع البعد بينهما).. وقد عرفنا من هـذا أن هنـاك قـوتين أو نـوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية الكهربائيـة وقـوى الجاذبيـة.. وكلهـا ترجع إلى أصل واحد.. يقول أينيشتاين: (إن روح العالم النظــري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية، وشـكل للمغناطيسـية الكهربائيـة)سـكت قليلا، ثم قـال: سـأقص عليـك قصـتين تـدلانك على مـدى التناسـق الموجـود في الكون لترى من خلالهما الوحدة الكونية.. ولتستدل بها على وحـــدة المكون.

قلت: فحدثني عن الأولى.

قال: أنت تعلم أن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون، أثر عند اختلاف عدد إلكتروناتها وبروتوناتها، والوزن الذري أثر من آثــار هذا العدد، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد.

وقـد اسـتطاع العـالم الروسـي منـدليف أن يصـنف العناصـر بحسب وزنها الذري، ووضـع لهـا جـدولا على هـذا الأسـاس، وكـان ترتيب العناصـر متـدرجا صـاعدا، ولكنـه فـوجئ بفـراغ لم يجـد مـا يملؤه به.

إذ أنه وجد أن درجات السـلم الـدوري للعناصـر تطـرد بتتـابع لا فراغ فيه، إلا في ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هـذا القـانون الـدوري غير مطرد وغـير صـحيح، وإمـا أن يكـون صـحيحا ومطـردا، فلا بـد حينئذ من وجود هذه العناصـر المفقـودة، في نفس تلـك الـدرجات الفارغة.

وبما أن مندليف كان واثقا من صحة قانونه الـدوري، فإنـه أخـذ يؤكـد أن هـذه العناصـر الثلاثـة المفقـودة لا بـد من وجودهـا على الأرض، بل إنه استطاع على أساس وزنهـا الـذري الـذي يـأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كـل الخـواص الكيميائيـة الـتي لهـا كأنـه يراها.

وقد كتب الله لمندليف أن لا يأتي أجلـه قبـل تأكـده من صـحة نظريتـه العلميـة.. فقـد اكتشـف العلمـاء العناصـر المفقـودة بكـل خصائصها كما حددها مندليف.

قلت: سمعت الأولى.. فحدثني عن الثانية.

قـال: لاشـك أنـك تعلم أن أقـرب الكـواكب إلى الشـمس هـو عطارد، وهو يبعد عنهـا بـ 36 مليـون ميـل.. ثم الزهـرة ومتوسـط بعــدها 67 مليونــا.. ثم الأرض 93 مليونــا.. ثم المــريخ 142.. ثم المشتري 484 مليونا.. ثم زحل 887 مليونا.. ثم أورانـوس 1782 مليونا.. ثم نبتون 2792 مليونا من الأميال.

القصة لا ترتبط بهذه الأعداد، وإنما ترتبط بالنسبة بينها..

إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقــدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل: أولها الصـفر، ثم تليـه ثمانيـة أعـداد تبـدأ بالعـدد 3، ثم تتـدرج متضـاعفة هكـذا 2-6-12-24-48-96-192-384 فـإذا أضـيف إلى كـل واحـد منهـا العـدد 4 ثم ضـرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بإضافة 4 إلى كـل منزلـة تصـبح المنازل التسع هكذا: 4-7-10-16-28-52-100-196-388 فــإذا أخذنا أعداد المنازل هذه، وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين، يظهر لنـا بعـد السـيارة الـتي هي في منزلـة ذلـك البعـد عن الشـمس؛ فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، وبمــا أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه 4، فـإذا ضـربنا 4×9 يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل، وهكذا تسير النسبة في بعــد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة.

ولكن العلماء وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب، بل تأتي بعد العدد 16 الذي صـاحبه المـريخ، العـدد 52 الـذي صـاحبه

المشتري، وقد تساءل العلماء عن السر في هذا الفـراغ.. فإمـا أن تكون النسبة الـتي اكتشـفوها غـير مطـردة، وإمـا أن يكـون هنـاك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميــل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري.

وأخيرا وجدوا هـذا الشـيء الـذي لا بـد من وجـوده، ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلهـا في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلـة التي حسبوها من قبل فارغة، فكأنه كوكب تحطم.

التفت إلي، وقـال: إن هـاتين قصـتين متشـابهتين في قضـيتين مختلفتين، كل واحدة منها تتمم الأخرى لتكملا عنـدك الشـعور بـأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزيئاته وكلياته.

التمانع:

قلت: عرفت الثاني.. فحدثني عن الثالث(1).

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)﴾ (الأنبياء)

قلت: فكيف تقرر هذا البرهان؟

قال: القول المفضي إلى المحال لابد أن يكون محالا.. وهكــذا، فـإن القـول بوجـود إلهين يفضـي إلى المحـال.. فـوجب أن يكـون القول بوجود إلهين محالاً.

قلت: فكيف زعمت بأن القول بوجود إلهين يفضي إلى محال؟

قال: لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد أن يكون كل واحد منهمــا قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكـان كـل واحـد منهمـا قادراً على تحريك شيء ما وتسكينه..

فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه:

فإما أن يقع المرادان، وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين.

---

1) انظر في تقرير هذا البرهان التفسير الكبير للفخر الرازي.

وإما أن لا يقع واحد منهمـا، وهـو محـال، لأن المـانع من وجـود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مرادٍ هـذا إلا عنـد وجـود مراد ذلك، وبالعكس.. فلو امتنعا معاً لوجدا معاً، وذلك محال.

قلت: فلنفرض أنه يقع مراد أحدهما دون الثاني؟

قال: ذلك محال أيضاً لـوجهين: أولهمـا أنـه لـو كـان كـل واحـد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحـدهما أقـدر من الآخـر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة.. وإذا اسـتويا في القـدرة اسـتحال أن يصـير مـراد أحـدهما أولى بـالوقوع من مـراد الثـاني، وإلا لـزم ترجيح الممكن من غير مرجح.

أما الثاني، فإنه إذا وقع مـراد أحـدهما دون الآخـر، فالـذي وقـع مراده يكـون قـادراً، والـذي لم يقـع مـراده يكـون عـاجزاً، والعجـز نقص، وهو على الله محال.

قلت: تقريرك هذا يصح في حال القول باختلافهما في الإرادة.. وذلك ليس لازما..

قال: حتى لو فرضنا ذلك.. فإننا نعتبره من نـوع الممكن.. فـإذا كان الفساد مبنياً على الاختلاف في الإرادة، وهذا الإختلاف ممكن.. والمبني على الممكن ممكن.. فكان الفساد ممكناً.

قلت: فكيف جزم قرآنكم إذن بوقوع الفساد؟

قال: لو فرضنا إلهين لكان كـل واحـد منهمـا قـادراً على جميـع المقدورات، فيفضي إلى وقـوع مقـدور من قـادرين مسـتقلين من وجه واحد، وهو محال..

قلت: وما في ذلك؟

قال: لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحـد منهما مستقلاً بالإيجاد، فالفعل لكونه مع هذا يكـون واجب الوقـوع، فيسـتحيل إسـناده إلى هـذا لكونـه حاصـلاً منهمـا جميعـاً، فيلـزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً وذلك محال.

وإن شئت تقريرا آخر لهذا أقول: إن خلقة العالم الـتي تحققت

على طبق النظام الأتم لو كان المؤثر فيهـا إرادة أحـدهما اسـتلزم عجز الآخر، ولو كان إرادتهما معا استلزم عجز كليهما.

فإن علم كل واحد منهمـا بالنظـام الأتم للعـالم اقتضـى إرادتـه لإيجاده، فكانت إرادتهما متمانعتين، فإن كل واحد منهما علـة تامـة لإيجاده ،ويستحيل استناد المعلول إلى علتين تامتين.

فتكون العلة التامة هي مجموع إرادتهمـا، دون إرادة كـل واحـد منهما، وعجز كل منهما أن يكون علة تامة له.

وإن كـانت إرادة أحـدهما قـاهرة على إرادة الآخـر ثبت عجـز أحدهما، وهو ينـافي وجـوب الوجـود، وبـذلك تبطـل خلقـة عـالم لا محالة.

الوحدة:

قلت: عرفت الثالث.. فحدثني عن الرابع.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَـهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَـا خَلَـقَ وَلَعَلَا بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾ (المؤمنون)

ففي قولـه تعـالى:﴿.. إِذًا لَـذَهَبَ كُـلُّ إِلَـهٍ بِمَـا خَلَـقَ.. (91)﴾ (المؤمنون) حجة على نفي التعدد ببيان محذوره، إذ لا يتصور تعـدد الآلهــة إلا ببينونتهــا بوجــه من الوجــود، بحيث لا تتحــد في معــنى ألوهيتها وربوبيتها.

ومعـنى ربوبيـة الإلـه في شـطر من الكـون ونـوع من أنواعـه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمـره من غـير أن يحتـاج فيه إلى شي غيرنفسه حتى إلى من فوض إليه الأمـر.. ومن الـبين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

ولازم ذلك أن يسـتقل كـل من الآلهـة بمـا يرجـع اليـه من نـوع التدبير.. وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التـدابير الجاريـة في العـالم.. كالنظـام الجـاري في العـالم الإنسـاني عن الانظمـة الجارية في أنواع الحيوان والنبـات والـبر والبحـر والسـهل والجبـل والأرض والسماء وغيرها.. وكـل منهـا عن كـل منهـا.. وفيـه فسـاد

السـماوات والأرض ومـا فيهن.. ووحـدة النظـام الكـوني والتئـام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه.

وهذا هو المراد بقوله:﴿.. إِذًا لَذَهَبَ كُـلُّ إِلَـهٍ بِمَـا خَلَـقَ.. (91)﴾ (المؤمنون) أي انفصل بعض الآلهـة عن البعض الآخـر بمـا يترشـح منه من التدبير.

وفي قولـه:﴿.. وَلَعَلَا بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ..(91)﴾ (المؤمنـون) محذور آخر لازم لتعدد الآلهة، تتألف منه حجـة أخـرى على النفي.. وهي أن التـدابير الجاريـة في الكـون مختلفـة.. منهـا التـدابير العرضية ،كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر، والتدبيرين الجـاريين في الما والنار.. ومنها: التدابير الطولية، التي تنقسم الى تدبير عام كلي حاكم، وتدبير خـاص جـزئي محكـوم، كتـدبير العـالم الأرضـي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كـوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية.

فبعض التدبير ـ وهو التدبير العـام الكلي ــ يعلـو بعضـا، أي أنـه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه، لتقومه بمـا فوقـه، كمـا أنـه لـو لم يكن هنـاك عـالم أرضـي، أو التـدبير الـذي يجـري فيـه بـالعموم لم يكن عــالم إنســاني ولا التــدبير الــذي يجــري فيــه بالخصوص.

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عـال من التـدبير، عاليابالنسبة إلى الإلـه الـذي فـوض إليـه من التـدبير مـا هـو دونـه وأخص منه وأخس، واستعلاء الإله على الاله محال.

لقد عبر الإمام جعفر الصادق عن هـذا البرهـان، فقـال: (فلمـا رأينا الخلق منتظما والفلك جاريا والليل والنهار والشـمس والقمـر دل صحة التدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد)

وعير عنه صدر المتالهين، فقـال:(إن كونهـا (أي الموجـودات) مرتبطة منتظمة في رباط واحد، مؤتلفة إئتلافا طبيعيا يدل على أن مبـدعها ومـدبرها وممسـك رباطهـا عن أن ينفصـم واحـد حقيقي، يقيمها بقوته التي تمسـك السـماوات والأرض أن تـزولا، ولـو كـان فيهما صانعان لتميز صنع كـل واحـد منهمـا عن صـنع غـيره، فكـان

ينقطع الارتباط، فيختل النظام، كما في قوله تعالى:﴿.. إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾ (المؤمنون)(1)

إلى أن قال: (كون جبلة العالم مع تفنن حركاتها وتخالف أشكالها وتغير آثارها مؤسسة على الائتلاف الطبيعي والرصف الحكمي دالة بوحدتها الطبيعية الاجتماعية على الوحدة الحقة الحقيقية)

فسبحان من جعل الموجودات العالمية على كثرتها متشاكلة من وجه ومتمايزة من وجه متفرقة من وجه.. لتكون دالة على صنع قادر حكيم ومدبر عليم.

وقد عبرت الطبيعة عن هذا خير تعبير: فإنا نرى جميع موجودات العالم مرتبطة بقوانين حاكمة على جميعها:

فحركة الأجرام السماوية التي تسير في مدارات معينة، وفواصل منظمة، بحيث لا تصطدم الواحدة بالأخرى، تدل على وحدة النظام في العالم.

وهكذا نرى الجمادات والنباتات والحيوانات والإنسان، بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر كالمعدات(2).. فالحيوان يأكل النبات، والإنسان يأكل الجماد، ويتغذى على النباتات والحيوانات لتصبح جزءا منه.. ويموت الإنسان والحيوان ويصبحا ترابا.. وينمو النبات من التراب.. فكل منها يتحول الى الآخر بشروط خاصة.. وهذا يدل على أن خالق الجميع واحد متى ما أراد يحوله إلى الآخر.

وهكذا نرى الموازنة الموجودة بين الحيوانات والنباتات في صرف الاوكسجين والكاربون، فإن التركيب الأساسي لوجود جميع النباتات حاصل من الماء والكاربون، وتطرح الحيوانات الكاربون في الهواء، وتجذب الأوكسجين، فتحصل الموازنة بين صرف الكاربون والأوكسجين..

والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى.

1) المبدأ والمعاد، ص 45.

2) معد الشيء: الذي يكون مقدمة لوجود الآخر.

الهداية:

قلت: عرفت الرابع.. فحدثني عن الخامس.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)ـ ﴾ (آل عمران)

قلت: فكيف تقرر هذا الدليل؟

قال: إن واجب الوجود – سبحانه وتعالى- هو منبع كل فيض، فكما يفيض منه الفيض التكويني يفيض منه الفيض التشريعي.. وذلك لسوق العباد الى الكمال وهدايتهم الى معرفة ما يؤدي إلى رضاه.

وبما أن جميع الأنبياء قد أخبروا بوحدانية اللّه سبحانه وتعالى، وقدبعثوا بالرسالة من قبل الواحد الأحد، وقد أيدهم بشواهد الصدق، وقرنهم بالمعجزات، وشهدوا جميعا بوحدانيته، فلو كان هناك إله آخر لبعث من ناحيته أنبياء ورسلا أخبروا عنه، وأدوا رسالته إلى الناس.. فانتفاء نبي يخبر عنه، واتفاق جميع الأنبياء على وحدانية اللّه تعالى يدل على أنه ليس معه إله آخر، وأنه الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ألوهيته.

لقد ذكر الإمام علي بن أبي طالب في وصيته لابنه الحسن هذا البرهان، فقال: (واعلم، يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد، كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبدا، ولم يزل، أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية، عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر)(1)

وقال المجلسي في تقرير هذا البرهان: (إن هذا برهان قاطع على وحدانيته تعالى.. فإن واجب الوجود يجب أن يكون قادرا وفياضا على الاطلاق.. فإن كان اللّه قد أرسل أربعة وعشرين ومائة ألف نبي لهداية الناس إلى معرفته ودعوتهم إلى عبادته، لبعث الإله الآخر على فرض وجوده نبيا لا محالة لإرشاد الناس إلى

1) انظر: نهج البلاغة: كتاب 30 ص 980.

معرفته ودعـوتهم إلى عبادتـه، وإلا لكـان غـير قـادر أو غـير حكيم، وكان جاهلا أو بخيلا، وواجب الوجود يجب أن يكون منزها من هــذه الصفات المستلزمة للنقص، المستلزم للإمكان)

الحقيقة:

قلت: عرفت الخامس.. فحدثني عن السادس.

قال: هو برهان الحقيقة..

قلت: فوضحه لي..

قال: إن صدق إطلاق (واجب الوجود) على شــيء لا يتصــور إلا على وجهين..

أما أولهما، فأن تكون حقيقته هي أنه واجب الوجود.

وأما الثاني، فأن يكون من قبيل صدق المفهوم على فـرد كـان حقيقته غير ذلك، كصدق الضارب والأبيض على فرد الإنسان.. وقد يخلو منها.

وفي هذه الحالة، فإن صـدق إطلاق (واجب الوجـود) من قبيـل العرض لا من قبيل الحقيقة.. وهذا يؤدي إلا أن يفتقر عروضه عليه إلى علة هي واجب الوجود بحقيقته وذاته دونه.

ولو فرض اثنان، كل واحد منهما واجب بحقيقته وذاته، لكان مـا به التميز والتعدد غير واجب الوجـود بحقيقتـه، فـإان المفـروض أن حقيقة واجب الوجود مشترك بينهما، فما به التمـيز والتعـدد ممكن الوجود بحسب ذاته، فيكـون خارجـا عن ذات واجب الوجـود، فثبت أن التعـدد منشـؤه إمكـان الوجـود.. ولا سـبيل للتعـدد إلى واجب الوجود.

التعين:

قلت: عرفت السادس.. فحدثني عن السابع.

قال: لقد ذكره الشيخ الرئيس في (الإشارات) و(الشفاء)

فقال في (الإشارات): (واجب الوجـود المتعين إن كـان تعينـه ذلك لأنه واجب الوجـود فلا واجب وجـود غـيره، وإن لم يكن تعينـه لذلك، بل لأمر آخر، فهو معلول)

وقال في (الشفاء) في شرح هذا البرهان: (مثلا لو كان الشيء الواجب الوجود هو هذا الإنسان، فلا يخلو إما أن يكون هو هـذا هـذا الإنسان، للإنسانية ولأنه إنسان، أو لا يكون.

فإن كان لأنه إنسان هو هذا، فالإنسـانية تقتضـي أن يكـون هـو هذا فقط.

وإن وجدت لغيره فما اقتضت الإنسانية أن يكون هـو هـذا، بـل إنما صار هذا لأمر غير الإنسانية.

فكذلك الحال في حقيقته واجب الوجود، فإنهـا إن كـانت لأجـل نفسـها هي هـذا المعين لاسـتحال أن تكـون تلـك الحقيقـة لغـيره، فيكون تلك الحقيقة ليست إلا هذا.

وإن كان تحقق هـذا المعـنى فهـذا المعين لا عن ذاتـه، بـل عن غيره، وإنما هـو هـو لأنـه هـذا المعين، فيكـون وجـوده الخـاص لـه مستفادا عن غيره فلا يكون واجب الوجود، وهذا خلف.

قلت: هلا وضحت لي هذا البرهان.

قال: لو فرض كون واجب الوجود اثنين: أحدهما غير الآخـر في الخارج كان لكل واحد منهما عينية غير عينية الآخر.

فإما أن تكون عينيته وكونه هـذا الـواجب دون الآخـر بمقتضـى كونه واجب الوجود، فيكـون وجـوب الوجـود مقتضـيا لكـون واجب الوجود هو هذا الواجب دون الاخر، فيستحيل وجـود واجب الوجـود غيره، لكونه مستلزما للتناقض.

وامـا ان تكـون عينيتـه وكونـه هـذا الـواجب دون غـيره ليس بمقتضـى وجـوب وجـوده، تكـون عينيتـه معلولـة للغـير، فلا يكـون واجب الوجود، فيستلزم التناقض أيضا.

التركيب:

قلت: عرفت السابع.. فحدثني عن الثامن.

قال: لقد ذكره الحكيم السبزواري في (المنظومة)، فقال:

تركب أيضا عراه إن يعد مما به امتياز وما به اتحد.

وتقريره: أنه لو كان واجب الوجود متعددا للزم أن يكون مركبا.. وهو باطل، لمنافاة التركيب مع الوجوب.

وبيان الملازمة أن اختلاف ذاك الواجب على فرض التعدد عن ذاك إما بالاختلاف النوعي بأن يكون كل واحد نوعا مغايرا مع نوع الآخر، وإمابالاختلاف الشخصي.

فعلى الأول: يلزم أن يكون كل واحد منهما مركبا من الجنس والفصل.

وعلى الثانى: يلزم أن يكون كل منهما مركبا مما يكون به مشتركا مع الآخر في تمام الذات، ومن عارض شخصي يمتاز به عن الآخر.

وعلى التقديرين: يلزم تركيب الواجب إما في أصل حقيقته - كما في الأول - أو في تشخصه، كما في الأخير.

قلت: هلا وضحت لي هذا بطريقة أخرى.

قال: لا بأس.. اسمع جيدا.. إذا كان واجب الوجود متعددا لزم تركب كل منهما، أو خروجه عن كونه واجبا، لأنه مع فرض التعدد لو كان واجبان مثلا واشتركا في وجوب الوجود لاحتاج كل منهما إلى ما به يمتاز عن الآخر، لكي تتم الاثنينية، وحينئذ لا يخلو:

إما تكون ذات كل منهما متميزة عن الآخر بتمام الذات، ويكون الاشتراك في وجوب الوجود الذي يصدق عليهما صدقا عرضيا.

أو يكون امتيازهما بأمر خارج عن الذات، ويكون وجوب الوجود ذاتيا لهما، بمعنى كونه تمام ذاتهما.

أو يكون وجوب الوجود جزءا من ذاتهما، ولا محالة يكون لكل

منهما جزءا آخر قضاء لحكم الجزئية.

والكل محال:

أما الأول: فللزوم كون كل منهما في مرتبة ذاتهما غـير واجب، فيكون كل منهما ممكن الوجود ومعروضا للوجوب.

وأما الثاني: فللزوم تركب كل منهما في كونـه فـردا من واجب الوجود، واحتياج كل واحد في تفرده إلى العوارض المشخصة.

وأما الثالث: فلصيرورة كل منهما مركبـا من الجنس والفصـل، وهذا ظاهر.

الفرجة:

قلت: عرفت الثامن.. فحدثني عن التاسع.

قال: لقد ذكره الإمام الصـادق، فقـال في حـواره مـع الملحـد: (يلزمك إن ادعيت اثنين فرجة ما بينهما حتى يكونـا اثـنين فصـارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهمـا فيلزمـك ثلاثـة.. فـان ادعيت ثلاثـة لزمك ما قلت في الاثنين حتى تكون بينهم فرجة فيكونوا خمسـة.. ثم يتناهى في العدد الى ما لا نهاية له في الكثرة)

قلت: فما تقرير هذا البرهان؟

قال: لو فرض اثنان كل منهما واجب الوجود، لم يكن الوجـوب خارجا عن حقيقة كل منهما، فلابـد من الامتيـاز بشـي وجـودي في كل منهما أو في أحدهما ولم يكن في الآخر.

ثم إن ما به امتيازه أيضا واجب الوجود لا محالة، فيشـترك مـع الاثنين في وجوب الوجود، فلابد من امتياز عنهما من آمر آخر يمتاز به عنهما، فهو أيضا واجب الوجود، فيشترك مع الثلاثـة في وجـوب الوجود، فلابد أيضـا من أمـر آخـر يمتـاز بـه عن الثلاثـة، فهـو أيضـا واجب الوجود لا محالة، فيشترك مـع الأربعـة في وجـوب الوجـود، ولابـد في امتيـازه عن الأربعـة من أمـر خـامس، وهكـذا إلى مـا لا نهاية.

قلت: الامتياز بين الشيئين قد يكـون بتمـام الـذات، والاشـتراك بأمر عام ذهني خارج عنهما لازم لهما.

قال: هذه شبهة مشهورة عجز الناس عن حلها، لكن من عرف حقيقة وجوب الوجـود علم أن الـذي بـه تصـير الأشـياء والماهيـات ذوات حقيقة هـو أولى وأحـق بـأن يكـون ذا حقيقـة، بـل هـو نفس الحقيقة، وهي المتحققة بذاتها المتحقق بها سائر الأشياء من ذوات الماهيات.

فلو فرض إلهان لم يكن وجوب الوجود خارجـا عن حقيقـة كـل منهما، فلا بد حينئذ من الامتياز بشيء وجودي خارج عن حقيقة كل منهما، إذ ليس انضمام ما فرض هاهنا مميزا، حاله كحـال انضـمام فصل بجنس، والجنس ماهية كلية مبهمة تتحصل بالفصـل، فيكـون انضمام الفصل إليه انضمام أمر محصل إلى أمر مبهم ليصيرا معـا موجـودا واحـدا، وإمـا هاهنـا فانضـمام الممـيز إلى حقيقـة واجب الوجود انضمام محصل موجود إلى محصل موجود آخر، ولهذا يلزم أن يكون المفروض اثنين ثلاثـة، والمفـروض ثلاثـة خمسـة، وهكـذا إلى لا نهاية..

الكلية:

قلت: عرفت التاسع.. فحدثني عن العاشر.

قال: لقـد ذكـره صـاحب كليـات رسـائل النـور.. بـديع الزمـان النورسي.. فقال:(إن عوالم الكائنات المختلفة وأنواعهـا المتنوعـة وعناصرها المتباينة قد انـدمجت انـدماجاً كليـاً وتـداخل بعضُـها مـع البعض الآخر، بحيث:

أن مَن لم يكن مالكاً لجميع الكـون لا يمكنـه أن يتصـرف بنـوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيـد لاسـم اللـه (الفرد) قد أضاء أرجاء الكون كله، فضمّ أجزاءهـا كافـة في وحـدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

مثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنـات يشـير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كون الهواء هـواءً واحـداً يسـعى لخدمـة الأحيـاء كلهـا.. وكـون النـار نـاراً واحـدة توقـد بهـا

الحاجـات كلهـا.. وكـون السـحاب واحـداً يسـقي الأرض.. وكـون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وانتشار أغلب الاحيـاء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقـاً في أرجـاء الأرض كافـة مـع وحـدة نوعيتهـا، ووحـدة مسـكنها.. كـل ذلـك إشـارات قاطعـة وشـهادات صادقة أن: تلـك الموجـودات ومسـاكنها ومواضـعها إنمـا هي ملـكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نـرى: أن تـداخل الأنـواع المختلفـة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابـة (كـل) واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد.. فالذي لا يسـتطيع أن يُنفِّذ حكمَه على جميع الكون لا يمكنه - من حيث الخلق والربوبية - أن يُخضِع لربوبيته أي شئ فيه، حـتى لـو كـان ذلـك الشـئ ذرة أو أصغر منها.

***

التفت إلينا صاحبنا (آريوس)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجـل الصالح.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلـة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيـام.. ونسـيت معهـا تلـك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعـاد إلى ذاكـرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

ثالثا ـ القدوس

في اليوم التالي.. وفي وقت متأخر من الليـل.. قـام رجـل منـا فرحا مسرورا، وأسرع يوقظ الجمع، وهو يقـول لهم: أيهـا الجمـع.. هلموا.. لقد تذكرت الآن أشياء حصـلت لي في حيـاتي.. لاشـك أن لهـا دورا كبـيرا فيمـا نبحث عنــه.. لا شــك أن لهـا دورا كبـيرا في التعريف بالإله الذي انشغلنا جميعا بالبحث عنه.

استبشر الجمع، وراحوا يلتفون به، وهم يقولون: هيـا.. أخبرنـا.. ما أشد شـوقنا للتعـرف على إلهنـا.. فلن يخلصـنا من هـذه الحـال غيره.

قال: سأعرفكم أولا بنفسي.. أنا (فريـدريك مـاكس مـولر)(1).. وقد كنت باحثا في كثير من مراكز البحـوث.. وأجـريت في حيـاتي بحوثا كثيرة إلى درجة أني أنسى عناوينها.. بل أنسـى النتـائج الـتي توصلت إليها من خلالها.. وأحيانا أطالع بعضها، فأتوهم أن غيري هو الذي قام بها مع أني لم أقم بها إلا أنا..

لعل ذلك كان بسبب الآلية التي كنت أجري فيها بحـوثي.. فقـد كنت أقدم على البحوث كما تقدم آلة الحـرث على الحـرث.. وآلـة الزرع على الزرع.. وآلة الحصاد على الحصاد..

لقــد كنت أزرع فرضــيات بحــثي بعــد أن أهــيئ لهــا الأرضــية المناسبة.. ثم أتركها لأحصـدها بعـد ذلـك بكـل آليـة بعيـدا عن كـل المشاعر..

أذكر أني أجريت مرة بحثا عن اليتامى.. وأذكر أني زرت خلالها كثيرا من الأسر التي تضم يتامى.. وأذكر مع ذلك كلـه أن عيـني لم

1) أشير به إلى (فريدريك ماكس مولر) (1823 ـ 1900م)، وهو عالم ألمـاني اهتم بصـفة خاصـة باللغـة السنسـكريتية الهنديـة القديمـة.. أسـهم في الدراسـة المقارنـة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير على الرغم من أن علماء العصر الحـديث قـد نبـذوا الكثير من نظرياته.

كان أهم أعماله أول إصدار باللغة الإنجليزية من ريك ـ فيدا، وهو أقدم كتاب هندوسـي مقدس.. نشر في ستة مجلـدات بين عـامي 1849م و 1873م، كمـا حـرر كتب الشـرق المقدسة، الذي يضـم في 51 مجلـداً ترجمـات دارسـين مختلفين لنصـوص كـل الـديانات الآسـيوية الرئيسـية فيمـا عـدا النصـرانية واليهوديـة.. ونشـر أول هـذه الكتب في عـام 1875م. (الموسوعة العربية العالمية)

تتكرم علي بدمعة واحدة مع كثرة المآسي التي رأيتها..

لكن بحثا مهما كنت قد بذلت فيه كامل وسعي في بعض تلك الأيام.. أذكر انه كان قد أثر في بعض التأثير.. كانت له علاقة بما نحن فيه..

لقد أنستنيه الأيام.. لكني اليوم تذكرته.. تذكرته بكل تفاصيله.. وسأقص عليكم قصته.

ساد الجمع الحاضر صمت عميق سرعان ما قطعه (فريدريك) بقوله: في تلك الأيام كلفت أن أجري بحثا حول (قداسة الإله في الأديان والمذاهب).. وقد طلب مني أن تكون دراسة مقارنة مستوعبة.. فلا يهم المركز التحليلات بقدر ما تهمه المعلومات.

لقد وفر لي مركز البحث لتيسير إجراء البحث كل الوسائل، وأمدني بما أحتاجه من المال للتنقل إلى أي بقعة أشاء من بقاع العالم.. وقد أتاح لي ذلك فرصة للتعرف على التصورات المختلفة التي تحملها البشرية عن الله[1].

لقد زرت لأجل إجراء ذلك البحث اليونان والهند والصين.. وبلاد كثيرة..

قال رجل منا: فبم بدأت رحلتك؟

قال: **باليونان**[2].. فقد كانت أقرب البلاد إلينا.. وكانت أكثر البلاد امتلاء بالتصورات المختلفة عن الله.

لقد حفلت اليونان في عهودها القديمة بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب (الأوليمب) الذين خلدوا في أشعار هومير وهزيود.. لقد عبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة..

---

1) من المصادر المهمة التي رجعت إليها لذكر التفاصيل المرتبطة بالتصورات المختلفة للأديان والمذاهب عن (الله) كتاب (الله) للعقاد، فهو من أحسن ما ألف من الكتب في هذا الباب.

2) نذكر هنا ما ذكره العقاد من التصورات الدينية والتي كانت منتشرة بين العامة، ولها كانت تقام المعابد.. أما التصورات الفلسفية، فلها محلها الخاص.. وهي على العموم أفضل بكثير من الاعتقادات العامة.

واستمدوا من جزيـرة (كـريت) عبـادة النيـازك وحجـارة الرواسـب الـتي شـاعت بيت أهـل الجزيـرة من أقـدم عصـورها البركانيـة.. فرمزوا بها إلي أرباب البراكين والعوالم السلفية.. واتخذها بعضـهم (طوطم) ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلي الآباء.

ولمـا شـاعت بين الإغريـق عبـادة (أربـاب الأوليمب) كـان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سـبقتهم إلي الحضـارة وتنظيم العبادات.. فالإله (زيـوس) أكـبر أربـاب الأوليمب هـو الإلـه (ديـوس) المعـروف في الديانـة الهنديـة الآريـة القديمـة.. واسـمه متداول في العبادات الأوربيـة جميعـا مـع قليـل من التصـحيف بين اللغـات واللهجـات.. ومن تصـحيفاته أسـماء اللـه والإلهيـة عنـد الفرنسيين والطليان والإنجليز المعصرين.

والربـة (أرتيميس) – ومثلهـا الربـة أفـروديت أو فينـوس- هي الربة عشتار اليمانية البابلية.. ومنها كلمـة (سـتار) الـتي تـدل علي النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة.

والربة (ديمتر) هي أزيس المصـرية كمـا قـال هـيرودوت، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريـق وعبادتهـا بين قدماء المصريين.

وأضـيف إلي هـذه الأربـاب (أدونيس) عن (أدونـاي) العبريـة بمعـني السـيد أو الإلـه، وأضـافوا إليهـا في مصـر بعـد الإسـكندر المقدوني عبادة إله سموه سرابيس وهو اسم مـركب من اسـمي أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين، وكان لهما معبد تـدفن فيـه العجـول الـتي تعبـد اسـم أبيس بعـد موتهـا وذهابهـا إلي مغـرب أوزيريس.

كما أضيفت إليها عبادة (ديونسيس) في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيرا بعبادة (مترا) في الديانة الأورفية السرية.

وقـد تـرقي اليونـان في تصـور صـفات الأربـاب خلال العصـور التاريخية.. فعبدوا قبل المسيح ببضـع مئـات من السـنين آلهـة هي علي أسوأ مثـال من العيـوب الإنسـانية.. وعبـدوها بعـد ذلـك وهي تترقي إلي الكمال وتقترب إلي فكرة (التنزيه) الـتي سـبقهم إليهـا

المصريون والهنود والفرس والعبرانيون.

فكـان أربـاب الأوليمب في مبـدأ أمـرهم يقـترفون أقبح الآثـام ويستلمون لأغلـظ الشـهوات.. وقـد قتـل زيـوس أبـاه (كرونـوس) وضاجع ابنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان، فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليه بسـر (النـار) فعـاقب المـارد برومـثيوس لأنـه قبس له النار من السماء.

ولم يتصوروه خالقا للـدنيا أو خالقـا للأربـاب الـتي تسـاكنه في جبل الأوليمب وتـركب معـه متن السـحاب، فهـو علي الأكـثر والـد لبعضها، ومنافس لأنـداده منهـا، وتعـوزه أحيانـا رحمـة الآبـاء ونبـل العداوة بين الأنداد.

ولم يـزل (زيـوس)إلي عصـر (هومـير) خاضـعا للقـدر مقيـدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.

لقد صوره لنـا الشـاعر المتـدين علي مثـال أقـرب إلي خلائـق الرحمة والإنصاف، ومثال الكمال، ولكنه نسـب الخلـق إلي أربـاب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية.. وهي (جيـا) ربـة الأرض و(كاوس) رب الفضاء و(أيـروس) رب التناسـل والمحبـة الزوجيـة، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منـه الكائنـات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب، وعلي رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب.

وكان (أكسينوفون) المولـود بآسـيا الصـغري قبـل الميلاد بنحـو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الاشتباه، فكان ينعي علي قومه أنهم يعبدون أربابا علي مثال أبنــاء الفنــاء، ويقــول: إن الحصــان لــو عبــد إلهــا لتمثلــه في صــورة الحصان..وأن الأثيوبي لو تمثل إلهـا لقـال إنـه أسـود الإهـاب.. وأن الإله الحق أرفع من هذه التشـبيهات والتجسـيمات، ولا يكـون علي شيء من هذه الصفات البشرية.. بل هو الواحد الأحـد المـنزه عن الصور والأشكال، وأنه فكر محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء.

وكان أثر الديانات الأسيوية والمصرية أظهـر من كـل مـا تقـدم

في الديانة الأورفية السرية، لأنها كانت ملتقي عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة.

فعرفوا الـروح وعرفـوا تناسـخ الأرواح، وعرفـوا أدوار التطهـير والتكفير، ومزجوا بهـا عبـادة (ديـونيس) الـذي كـان في عصـورهم الغـابرة إلـه الخمـر والقصـف والـترف.. فجعلـوا خمـره رمـزا إلي النشوة الإلهية: نشة الحيـاة والشـباب الخالـد المتجـدد علي مـدي الأيام.

قال رجل منا: حدثتنا عن اليونان.. فحدثنا عن **الهند**.. فهي من أقدم البلاد.. ولاشك أن نصيبا من الحقيقة عندها..

قــال (فريــدريك): لقــد زرت الهنــد، وبحثت في معابــدها ومخطوطاتهـا، والتقيت برجـال دينهـا.. وقـد وجـدت أن الـديانات الهندية القديمة تعود إلى أزمنة أقـدم من العصـر الـذي دونت فيـه أسفارها المعروفـة بـالكتب الفيديـة.. وقـد اختلـف المؤرخـون في العصــر الــذي تم فيــه هــذا التــدوين.. فبعضــهم يــرده إلي ألــف وخمسمائة سنة قبل الميلاد.. وبعضـهم يـرده إلي سـتة آلاف سـنة قبل الميلاد.. ولكنهم جميعا مع ذلـك لا يختلفـون في سـبق الديانـة الهندية لهذا العصر بزمن طويل.

وقد وجدت أن المؤرخين ـ ولست أدري مدى صـحة مـا ذهبـوا إليه ـ يتفقـون على أن الديانـة الهنديـة القديمـة مـزيج من شـعائر الهنود الأصلاء، وشعائر القبائل الآرية التي أغـارت علي الهنـد قبـل الميلاد بعـدة قـرون.. وقـد كـانت تلـك القبائـل تقيم علي البقـاع الوسطي بين الهند ووادي النهرين.. فاتجهت طائفة منهـا غربـا إلي أوربة، واتجهت طائفة منها شرقا إلي الأقـاليم الهنديـة من شـمالها إلي جنوبها علي السواحل الغربية، قبل أن تتوغـل منهـا إلى جميـع أنحاء البلاد.

ويرى بعض المؤرخين أن من مصادر الديانات الهنديـة القديمـة ما نقل إليها من الديانات البابلية والمصرية، ويعللون ذلـك جغرافيـا بتوسط الموقع الذي قام فيـه الآريـون الأولـون، وأنهم لم تكن لهم في موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور.

لا يهمنا في هذا المقام كل هذا.. إنما الذي يهمنا هو تصور هـذه

الديانات لله..

لقد رأيت من خلال البحث المستوعب المستقصي أن (الله) في الديانات الهندية القديمة لم يكن واحدا.. بل كان أنواعا شتي من الآلهة.. منها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها.. فيذكرون المطر، ويشتقون منه اسم (الممطر).. ويعتبرونه الإله الذي يتوجهون إليه في طلب الغيث.. ومن هنا كان (أندر) هو إله السحاب، لأنه مشتق من كلمة (أندر) بمعني المطر، أو بمعني السحاب.

ويذكرون إلى جانب (أندر) إله النار.. وإله النور.. وإله الريح.. وإله البحار.. ويجمعونها جميعا في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتي من الديانات..

وأقدم الأسماء عندهم كان اسم (ديفا) Deva.. وهو يعني (المعطي).. لقد بقيت آثار من هذا الاسم في اللغات اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة.. فكلمة (ديو) الفرنسية Dieu وكلمة ديتي Deity الإنجليزية، وكلمة (زيوس) اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندي المتقدم.

بالإضافة إلى هذا، فقد رأيت البرهمية القديمة تشتمل علي عبادة الأسلاف.. كما تشتمل علي عبادة المظاهر الطبيعية.. ولذلك فإن تقديس الملك عندهم تقليد موروث من تقديس جد القبيلة.. وقد تحول إلي تقديس الرئيس الأكبر في الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلي الأمة.

وقد ذكر العلامة (اليوت سميث) كما قال في كتابه (المبادئ) The Beginning أن مواسم تقديس الملك التي لا تزال مرعية في جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون.. فلم يكن حق الملك مستمدا من الجلوس علي العرش أو من البناء بالملكة التي تنقل إليه حقوقه الملكية، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه في حفل يمثل قصة الخليقة(1)، وكأنهم يعنون بهذا أن

---

1) يذكر العقاد أن قصة الخليقة في الهند تشبه قصة الخليقة المصرية في أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة: فالحياة خرجت من بيضة (ذهبية) كانت تطفو علي الماء في العماء ، والإله الأكبر كان ذكرا وأنثي فهو الأب والأم للأحياء كما جاء عن (رع) في بعض الأساطير المصرية، وبناء العالم من صنع بناء ماهر في أساطير مصر والهند علي

الملك يستمد من ذلك التقـديس قدرتـه علي الخلـق ومنح الحيـاة، وهي قدرة لا غني عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية.

وقد وجدت أن عبادة (الطوطم) تعززت في الهند بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيـدة الحلـول.. فلـذلك عبــدوا الحيــوان علي اعتبــاره جــدا حقيقيــا أو رمزيــا للأســرة ثم للقبيلة.. ثم تطوروا أكثر(1)، فآمنوا بأن الله يتجلى في كل موجـود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيـه.. وآمنـوا مـع ذلـك كلـه بتناسـخ الأرواح.

لقـد رأيت الطوطميـة عاشـت عنـدهم في أرقي العصـور كمـا عاشـت في عصـور الهمجيـة لهـذا الامـتزاج بين الاعتقـاد الحـديث والاعتقــاد القــديم.. لكنهم خلصــوا في الأخــير إلى الإيمــان بالإلــه الواحد، وإن اختلفوا في المنهج الـذي سـلكوه في التعـرف عليـه.. فلم يكن إيمانهم به علي الأساس الذي قام عليـه إيمـان الشـعوب الأخرى بالتوحيد.

لقد بدأوا ـ أولا ـ بإبطال جميـع المظـاهر، فنسـبوا إليهـا التعـدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا تزول، وتلك هي حقيقة القضاء والقدر التي تقدر للآلهة وتقضي عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضي عليها في أجلها المحدود.

وهنا ذهب حكماؤها إلي مذهبين غير متفقين..

أما **الفريق الأول** منهمـا.. فتمثـل تلـك الحقيقـة إلهـا واحـدا قريبا من الإله الواحد في أكثر ديانات التوحيد، قـال مـاكس مـوللر الثقة الحجة في اللغات الآرية: (أيا كان العصـر الـذي تم فيـه جمـع الأناشيد المسطورة في الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون باللــه الأحــد الـذي لا هـو بـذكر ولا بـأنثي ولا تحـده أحـوال

السواء ، وتتفق مصـر وبابـل والهنـد علي الإلـه الأكـبر قـد خلـق الأرض بكلمـة سـاحرة.. فأمرها بأن توجد فبرزت علي الفور إلي حيز الوجود. (الله، للعقاد)

1) هذا ما عبر به العقاد.. ويعبر به علماء مقارنة الأديـان عـادة عنـد بحثهم في تـاريخ الأديان.. ونحن نرى أن الأمر ليس خاضعا للتطور المتوهم.. وإنما هو خاضـع لتـأثير رسـل الله والدعاة إليه، كما قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر:24)

التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية، وارتفع شعراء الفيدا في الواقع إلي أوج في إدراكهم لكنه الربوبية لم يـترق إليـه مـرة أخـري غـير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق هـذا لا يـزال أرفع وأعلي مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين)

وتبدو مداناة هؤلاء البراهمة لمذاهب الموحـد المـؤمن (بالـذات الإلهية) من إيمانهم بالخلاص علي يد اللـه، وبقـاء فريـق منهم بعـد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص علي نهجهم الذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيـوان ذلـك التعظيم.. فمنهم من يسـمي سـبيل الخلاص بالسـبيل القرديـة.. ومنهم من يسـميها بالسبيل القطية.. ويقصدون بهذه التسمية أن اللـه يخلص الإنسـان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلي رؤس الأشجار، أو أن الله علي اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء، كمـا يستسـلم ولـد القطـة لأمـه وهي تحمله مغمضا من مكان إلي مكان.

فالله الـذي يخلص عبـاده هـذا الخلاص أو ذاك هـو (ذات) علي كلتا الحالتين يتشبث بها العبد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها.

ويتسمي هذا الإله بثلاثة أسماء علي حسـب فعلـه في الوجـود، فهو (برهما) حين يكون الموجود الخالق، وهـو (فشـنو) حين يكـون الواقي المحافظ، وهو (سيفا) حين يكون المهلك الهادم.

وأما **الفريق الثاني** فالحقيقـة الأبديـة عنـده معـني ليس لـه قوام من (الـذات) الواعيـة، وإنمـا هـو قـانون يقضـي بتلازم الآثـار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمـنين بالأديـان الكتابية.

إلا أنه قضاء يسري علي الآلهة كما يسري علي البشر، ويتغلغل في في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات، وحكمـه الـذي لا مـرد لـه هـو حكم التغـير الـدائم والفنـاء، وحكم الإعـادة والإبداء.

ولم أر من خلال بحـثي أن أحـدا من الأقـدمين بلـغ في تعظيم الأكوان المادية مبلـغ البراهمـة، سـواء في تقـدير السـعة أو تقـدير

القدم أو تقدير البقـاء.. فقـد جعـل البراهمـة للكـون أربعـة أعمـار تسـاوي اثنـتي عشـر ألـف سـنة إلهيـة وأربعـة ملايين وثلاثمائـة وعشـرين ألـف سـنة شمسـية.. وبعض المتـأخرين يضـاعفها ألـف ضعف ويقولون أنهـا جميعـا دورة واحـدة من دورات الوجـود.. وأن هذه الدورة هي يوم يقظة يقابله ليل هجوع، ينقضي بين كـل دورة فنيت وكل دورة آخذة في الابتداء.

والقانون الأبدي karma يقلب الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها، ثم يختم هذا النهار بليل من الليالي الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخري أخري دواليك إلي غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان.

ويتضاءل الإنسان الفاني كلما تعاظم هذا الفنـاء الخالـد أو هـذا الخلود الذي يتجدد بالفناء، فليس للإنسـان حسـاب كبـير في هـذه الحسبة الأبدية.. لأنه (رقم) ضئيل يغرق في طوفان الأرقام التي لا يحيط بها العد والإحصاء.

وعلي هذه القاعدة قامت البوذية التي بشـر بهـا البـوذا جوتامـا قبل الميلاد المسيحي بحوال خمسة قرون.. فقيل (جوتاما) بمئـات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشـيد المرهـوب الـذي تحدث عما كان قبل أن كان أو يكون:

(حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد، ولم يكن ما تثبته وما لا تنفيه.

لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء.

وماذا عساها تنطوي عليه؟ أين كانت وأين قرارها؟ أهي هاويـة الماء التي ليس لها من قرار؟

لم يكن موت: فلم يكن خلود.

لم يكن ما يموت فلم يكن ما ليس يموت.

ولم يكن ثمة نهار ولا ليـل. ولم يكن إلا (الأحـد) يتنفس حيث لا أنفاس. ولا شيء سواه.

وكان البدء في ظلام: عليكم بلا ضياء.

ومن البذرة في تلك القشرة (الأحد) بحرار الحياة.

وانتصـر الحب حين نبتت البـذرة من لبـاب العقـل السـرمدي، وناجي الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هـو.. فقـد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك، فمـاذا نظـروا فـوق الأحـد ومـاذا نظـروا دونـه؟ كـل مـا هنالـك حملـه لبـذور.. قـوي: قـوة من أدني ومشيئة من أعلي. ولا أحد يدري. ولا من يعلم من أين جاء ما جاء. فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك.. فمن إذن يعلم ما جري؟ أهـو الـذي حـدثت منـه الخليقـة؟ لعـل الـذي يعرفـه (أحـد) واحـد في أعلي عليين.ولعله لا يدري كذلك..)

وقبـل (جوتامـا) آمن الـبراهميون بالـدورة في وجـود الكـون والـدورة في وجـود الإنسـان.. فـالكون يتجـدد حلقـة بعـد حلقـة.. والإنسان يتنقل في جسد بعد جسـد.. وسلسـلة الأكـوان ليس لهـا انتهاء.. وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهي إلي السكينة أو الفناء.

لقد قامت البوذيـة علي أسـاس البرهميـة في كـل عقيـدة من عقائد الأصول.. وإنما تمـيزت عنهـا بتبسـيط العقائـد لطبقـات من الشعب غير طبقـات الكهـان، فأخرجتهـا من حجابهـا المكنـون في المحاريب إلي المدرسة والبيت وصفوة المريدين.

ولا تعتـبر البوذيـة إضـافة في صـميم العقائـد الدينيـة، بـل هي إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة.. وهي إضافة في عــرض الآراء علي غير المستأثرين بها قديما من سدنه الهيكل والمحراب.

وبهـذه الآداب ينجـو الإنسـان من ربـاط ذلـك الـدولاب الـدائر بالولادة والموت والتجدد في حياة بعد حيـاة وجثمـان وراء جثمـان، فيدخل في (النرفانا) ولا يولد بعد ذلك ولا يموت.

وحكمــه في هــذا المصــير حكم الأربــاب والملائكــة وحكم السماوات والأرضين.. فكلها خاضع لقانون القضاء والقـدر الـذي لا فكـاك منـه لموجـود، وكلهـا عرضـة للتفكـير والتطهـير والتحـول والتغيير، ثم للذهاب في غمرة الفناء الأخير.

وقد وجدت أن موضع التناقض في هذه الفلسفة[1] أنها تنكر (الشخصية الإنسانية) ولا تعترف بالذات أو بالروح وهي مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شيء في الإنسان يبقي علي التنقل بين الأجساد والدورات.. وهي تؤمن بالكل أو (المطلق) الصمدي الوجود، ثم تنفي عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان.. مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعني من معاني الكلمة.

قال رجل من القوم: لم نكد نفهم من هذه الديانات شيئا.. فحدثنا عن غيرها.

قال: بعد الهند قصدت **الصين**.. وقد كنت آمل من خلال ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها أن أجد فيها جميع أنواع التصورات عن الإله..

لكني لم أجدهم ـ عبر تاريخهم الطويل ـ يحبون الخوض في مباحث ما وراء الطبيعة.. ولهذا فإن التدين بينهم يكاد يكون ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.

أما العبادات.. فأشيعها بينهم عبادة الأسلاف والأبطال.. وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية علي جملة الأرواح التي يعبدونها، ويمثلون بها عنصر الطبيعة أو مطالب المعيشة.. ولهذا، فإنه لا يقدر الصيني قربانا هو أغلي قيمة، وأحب إلي نفسه من قربانه إلي روح سلفه المعبود.. وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب، ومنهم

---

1) انتقد العقاد الدراسات الأوروبية التي استلهم منها، قال: (علينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلي الآرية علي اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعمواأنها (جرأة العقل الكبري) في مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام)

وقد رد على هذا بقوله: (لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هي إلا جرأة حسية في أقصي ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململا من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القسوي إلا ضيقا بالحس وهربا منه إلي الفناء أو (اللاوعي) علي أحسن تقدير.. والمحسوس عندها شامل للمعقول ، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحق الوعي وحق الذات.. والآلهة عندما تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان وما ارتفعت الأكوان عندها إلي هذة المرتبة إلا بأنها هي المحسوس ، وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد)

من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلي كل شيء كانت تحتاج إليه، وهي في عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم.. فما أرضي السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر.. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.

وتتمشي عبادة العناصر الطبيعية جنبا إلي جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال.. فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء (شانج تي).. ويليه إله الشمس.. فبقية الأجرام السماوية.. فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربون إلي (شانج تي) بالذبائح، ويبلغون صلواتهم بإشعال النار علي قمم الجبال، فيعلم الإله – مما أودعه الكاهن دواخينها- فحوي الرسالة التي يرفعها إليه عباده، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء عندهم هو (الإله) الذي يصرف الأكوان، ويدبر الأمور، ويرسم لكل إنسان مجري حياته الذي لا محيد عنه.. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما (ين) عنصر السكون و(يانج) عنصر الحركة.. وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب.. فهما بهذه المثابة يقابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور والظلام في الأديان الثنائية.

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية في القرن العاشر حين تسمي عاهل الصين باسم (ابن السماء).. ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن ياباني أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد في بلاده.. فنقلها العاهل إلي بلاد الصين.

وقد أراد الفيلسوف (شوهستي) في القرن الثاني عشر أن ينشيئ بوذية صينية توفق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمور، فدعا إلي دين لا إله فيه ولا خلود للروح، ووضع (لي) موضع

(كارما) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر.

وسـمي دولاب الـزمن (تايشـي) لأنـه هـو المحـرك لجميـع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو (ووشي) قوام العـالم ظاهرة وخافية.. وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان من قدح القانون للمـادة كمـا ينقـدح الحجـر من الزنـاد، فيخـرج الشـرر ثم ينطفئ فيموت.. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد مـتي (نضـجت) كما تنضج الثمرة في أجلهـا المعلـوم.. وقـد يبطئ النضـج فيطـول بقاء الروح فهي إذن طيـف أو شـبح، كأنهـا الـثرة في حالـة العفن والإهمال.

ولما مات كنفشيوس (478 ق. م) أقاموا لـه الهياكـل وعبـدوه علي سـنتهم في عبـادة أرواح الأسـلاف الصـالحين، وأوشـكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية علي عهد أسرة هان في القرن الثـاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكـانت هياكلـه في الواقـع بمثابـة مـدارس يؤمهـا الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة.. ولم تـزل عبادتـه قائمة إلي العصور المتأخرة بل إلي القرن العشرين.. فخصـوه في سنة 1906 بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكـبر (شـانج تي) إلـه السماء لأنه في عرفهم (ند السماء) ومن لم يؤمن اليـوم بربوبيتـه من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده – وهو السـابع والعشـرون من شـهر أغسـطس- عيـدا قوميـا يحجـون فيـه إلي مسـقط رأسـه، وينـوب عن الدولـة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسـية، ولكنهـا واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التي تعودت الشعوب قـديما أن تروضها بالسحر والكهانة، فجار نصيب الإيمان بالسحر علي نصـيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين – من ثم- أنهم أقدر أمـة علي تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد.

وموقـف اليابـان من الرسـالة الدينيـة كموقـف الصـين علي الإجمـال.. فقـد تشـابهت عقائـدهم في أصـولها وعبـدوا الأرواح والأسـلاف والعناصـر الطبيعيـة.. وإذا كـان لأهـل اليابـان سـمة

خصوصية في العبادات فهي أنهم اختاروا ربة أنـثي لعبـادة السـلف الأعلي حين وحدوا الأسلاف في أكبرهـا وأعلاهـا.. وتلـك الربـة هي (اميتراسوا-أموكامي) التي لا تزال معبودة إلي اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغـاروا فيما قبل التاريخ علي جزيـرة كيوشـو، وأخضـعوا أهلهـا وطـردوهم منهزمين إلي الجبال، وكأن أهل كيوشو الأولون يعبدون إلـه الـريح والمطر (سوسا- نـو- وو) فهبـط هـذا الإلـه بهـزيمتهم إلي المرتبـة التالية لمرتبة الربة السلفية.. ثم انعقدت الوئام بين الفـريقين بعـد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والممغـزوة، فأصـبح الإلهان أخوين وأصبحت (أميتراسو) هي كبري الأخوين.

ولا يعتقـد اليابـانيون أن هـذه الربـة خلقت الكـون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قـد سـبقته عهـود مديـدة تنـازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهـذه أربـاب عنـدهم هي بمثابـة الأرواح والملائكـة والجنـة والشـياطين من عناصـر الخـير والشر عند الأمم الكتابيـة.. ويسـمون الواحـد منهـا (كـامي).. وهي كلمة تطلق علي كل رائع خارق للعادة بالغ في القـوة أو الجمـال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمـر إلي الربـة الكبري برضوان من خالق السماوات والأرضين.

أمـا الخلـق فهـو منسـوب عنـدهم إلي إلـه السـماء (أزانـاجي-نوميكوتو) وزوجته وأخته إلهـة الأرض (أزانـامي-نوميكوتـو).. فولـدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة، وجاء أبنـاء اليابـان الآدميـون من سلالة الآلهـة.. فكلهم في النسـب الأعلي – وليس الميكـاد وحـده- إلهيون.

وفي إحدي الروايات الأسطورية أن ربـة الأرض احـترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعثت من وميض سيفه ومن ضـرباته رهـط من أربـاب الزوابـع والـبروق والرعود.. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلـق في روايـة أخـري إلي (أزانـاجي) وحـده وهـو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسـري خلقت الشـمس ومن

عينه اليمني خلق القمر، ومن عطسته خلق (سوسا- نو- وو) رب الرياح والأمطار.. ولكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقيها فخلع عليها عقدا يتلألأ بالجواهر وبوأها أرفع عرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية شمسية سلفية جمعت معني التوحيد أولا في إله السماء حيث تصوره أبا للخليقة بمفرده أو مشاركة زوجه، ثم جمعتها في الربة الواحدة علي اعتبارها ربة مختارة بين أرباب.

قال رجل منا: الصين لا تختلف عن الهند في هذا.. فحدثنا عن غيرها.. إلى أين قصدت بعد الصين واليابان؟

قال: لقد قصدت بلاد **فارس**.. أو على الأصح المخطوطات والآثار التي تحدثت عن الديانة الفارسية القديمة.. وقد وجدت أن وشائج القربى بينها وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية كانت متصلة.

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل، قريب من أقاليم الطورانيين، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب، وقد تلقت حضارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة، وانقضي زمن طويل علي الدنيا المتحضرة وهي تقرن بين المجوسية وبين الحكمة أو اللم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية.. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة وبالدولة البابلية تارة أخري.. فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين.

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة (مترا) إله النور، وتسمية الإله بالـ (أسورا)، أو الـ (أهورا) وإن اختلفوا في إطلاقه علي عناصر الخير والشر.. فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح، وجعله الهند من أرباب الشر والفساد.

والبابليون عرفوا عبادة (مترا) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ورفعوه إلي المنزلة العلية بين الآلهة التي تحارب قوي الظلام.

واستعار الفرس من البابلين كما أعـاروهم، فأخـذوا منهم سـنة التسـبيع في عـدد الآلهـة، وجعلـوا (أورمـزد) علي رأس سـبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات.

ولم تخـــل الديانـــة المجوســـية من عقائـــد الطورانـــيين، لأن (زرادشـــت) عـــاش بينهم زمنـــا، وبشـــرهم بدينـــه، فاضـــطر إلى مجاراتهم في عبادتهم ليجـاروه في عبادتـه، وأدخـل أربابـا لهم في عداد الملائكة المقربين(1).

1) هذا ما ذكره العقاد في كتابه (اللـه) بنـاء على دراسـات الغربـيين.. ونحن نـرى أن في هذا تجديفا خطيرا.. فالأدلة الكثيرة تشير إلى أن زراشـت كـان موحـدا.. وقـد رجحنـا كونه كذلك بناء على ما ورد من النصوص عن السلف الصالح..

وقـد قـال ابن حـزم بهـذا، فقـد جـاء في الفصـل: (أمـا زرادشـت فقـد قـال كثـير من المسلمين بنبوته) (الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

ثم عقب على ذلك بقوله: (ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجـزة، قـال تعـالى:﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَـا نَـذِيرٌ﴾(فـاطر:24)، وقـال:﴿ وَرُسُـلًا قَـدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(النساء:164)

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واسـتدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الـديانات المختلفـة،، ثم بين قاعـدة جليلـة في ذلـك فقـال: (وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضـمون فيهمـا، وكتـاب المجـوس وشـريعتهم إنمـا كـان طول مدة دولتهم عند المؤبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكـل هربـذ سـفر قـد أفـرد بـه وحده لا يشاركه فيـه غـيره من الهرابـذة ولا من غـيرهم، ولا يبـاح بشـيء من ذلـك لأحـد سواهم، ثم دخل فيـه الخـرم بـإحراق الإسـكندر لكتـابهم أيـام غلبتـه لـدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنـه ذهب منـه مقـدار الثلث ذكـر ذلـك بشـير الناسـك وغـيره من علمائهم)

ونفس مـا دفـع بـه ابن حـزم عن زرادشـت مـا نسـبه إليـه المجـوس ذكـره غـيره من العلماء، قال الباقلاني: (وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقـول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صـادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبـراهيم، وإنمـا كـذبت المجـوس عليـه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكـرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح عليه السلام من دعائـه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغـير ذلك) (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:203)

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعـة للمتـأخرين، بـل أن من السـلف من قـال بذلك، قال:(وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفة همـا، وسـعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهـل الظـاهر، وقـد بينـا الـبراهين الموجبـة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهاد منه وفي كتاب الذبائح منه وفي كتاب النكاح منه) (الفصل في الملل والأهواء والنحـل:1/90)، ثم قـال:(ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عـز وجـل في نص القـرآن في

وخلاصة ما جاء به (زرادشـت) من جديـد في الديانـة أنـه أنكـر الوثنية، وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشــر إلي ما دون منزلة المساواه بينه وبين الإله الأعلي، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحـاول جهـده أن يقصر الربانية علي إلـه واحـد موصـوف بـأرفع مـا يفهمـه أبنـاء زمانه من صفات التنزيه.

وليســت المجوســية كلهــا من تعليم زرادشــت أو تعليم كــاهن واحد من كهان الأمة الفارسية.. فقد سـبقه الفـرس إلي عقائـدهم في أصل الوجود وتنازع النـور والظلام، ولكنـه تـولى هـذه العقائـد بالتطهير وحملها علي محمل جديد من التفسير والتعبير.

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمي زروان ويكني به عن الزمان.. وأنه اعتلج في جوفه وليدان، فنذر السيادة علي الأرض والسماء لأسبقهما إلي الظهـور، فاحتـال أهرمن بخبثه وكيده حتي شق له مخرجا إلي الوجود قبـل (هرمـز) الطيب الكريم، فحقت لأهرمن سيادة الأرض والسـماء، وعـز علي أبيها أن ينقض نذره، فأصلحه بموعد ضربه لهذه السيادة ينتهي بعد تسعة آلاف سنة.. ويعود الحكم بعده لإله الخـير خلـدا بغـير انتهـاء، ويؤذن له يومئذ في القضاء علي إله الشر وتبديد غياهب الظلام.

وزعمـوا أن مملكـة النـور ومملكـة الظلام كانتـا قبـل الخليقـة منفصــلتين، وأن هرمــز طفــق في مملكتــه يخلــق عناصــر الخــير والرحمة و(اهرمان) غافل عنه في قراره السحيق، فلما نظــر ذات يوم ليسـتطلع خـبر أخيـه راعـه اللمعـان من جـانب مملكـة أخيـه، فأشفق علي نفسه من العاقبـة، وعلم أن النـور يوشـك أن ينتشـر ويستفيض، فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضـمن فيـه البقـاء.. فثـار وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفسـاد، فـأحبطت سعي هرمز، وملأت الكون بالخبائث والأرزاء.. وران هذا البلاء علي الكون حتي كانت معركة (زرادشت)، فكـان البشـير بانتهـاء زمـان وابتداء زمـان، ولكنـه لم يختم صـراع العـدوين اللـدودين، بـل آذن بتحــول النصــر من صــف إلي صــف، وتراجــع الشــر والظلام عن مملكة الخير والنور، وسيدوم هذا الصـراع اثـني عشـر ألـف سـنة،

آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي)

وينجم علي رأس كل ألـف منهـا بشـير من بيت زرادشـت، فيعـزز جحافل هرمز، ويوقع الفشل في جحافل أهـرمن، وتنقضـي المـدة فينكص أهرمز علي عقبيه مخلدا في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الآبدين من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان.

لقـد رأيت من خلال تسـمية الإلهين دلالـة واضـحة علي انتقـال الفكـرة الإلهيـة طبقـة فطبقـة من صـورة التجسـيم إلى صـورة التنزيه.. فإن هرمز مـأخوذ من (أهـورا) بمعـني السـيد، و(مـازداو) بمعــني الحكيم، وأهــرمن مــأخوذة من (انجــرو) بمعــني الســيئ ومainوش بمعني الفكر والروح، والمعنيان من عالم الفكـر المجـرد أو القريب من التجريد.. ثم أصـبحت كلمـة أورمـزد مرادفـة لـروح القدس، وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد، وقيل في مجمل الأساطير المجوسية أن أهريمـان إنمـا هـو فكـرة سيئة خطرت علي بال زروان فكان منها إله الظلام.

وفي (الزندفستا) يذكر زرادشـت أنـه سـأل هرمـز: (يـا هرمـز الرحيم! صانع العالم المشهود.. يا أيها القدس الأقـدس: أي شـيء هو أقوى القوي جميعا في الملوك والملكوت).. فقال هرمـز: (إنـه هـو اسـمي الـذي يتجلي في أرواح علـيين.. فهـو أقـوى في عـالم الملكوت).. فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له: إنه هــو (السر المسئول) وأمـا الأسـماء الأخـرى فالاسـم الأول هـو (واهب الأنعام)، والاسـم الثـاني هـو المكين، والاسـم الثـالث هـو الكامـل، والاسم الرابع هو القدس، والاسم الخامس هـو الشـريف، والاسـم السادس هو الحكمة، والاسم السابع هو الحكيم، والاسم الثامن هو الخـبرة، والاسـم التاسـع هـو الخبـير، والاسـم العاشـر هـو الغـني، والاسم الحادي عشر هو المغني، والاسم الثاني عشـر هـو السـيد، والاسم الثالث عشر هو المنعم، والاسم الرابـع عشـر هـو الطيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق، والاسم السابع عشر هو البصـر، والاسـم الثـامن عشـر هـو الشافي، والاسم التاسع عشـر هـو الخلاق، والاسـم العشـرون هـو (مزدا) أو العليم بكل شيء.

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النــاس علي أنها هي أصفي وأطهر العناصـر المخلوقـة، لا علي أنهـا هي الخلاق

المعبـود.. وذكـر أن الخلائـق العلويـة كلهـا كـانت أرواحـا صـافية لا تشاب بالتجسيد، فخيرها الله بين أن يقصيها من منـال (هـرمن) أو يلبسها الجسد لتقدر علي حربه والصـمود في ميدانـه، لأن عناصـر الفساد لا تحارب بغير أجساد.. فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه، واختارت التجسد لتؤدي فريضة الجهاد في ذلك الصراع.

ويذكر زرادشت أن (هرمز) أو أورمزد أو (أهـورا مـازدا) مسـتو علي عــرش النــور محفوفــا بســتة من الملائكــة الأبــرار، وتــدل أسماؤهم علي أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملـك والنظـام والصلاح والسلامة، ثم استعيرت لها سـمات (الـذوات) بعـد تـداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحي الله.

وتفيض أقوال (زرادشت) كلهـا بـاليقين من رسـالته واصـطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء علي عبادة الأوثان.. ومن أمثلة هذا اليقين قوله: (أنا وحـدي صـفيك الأمين، وكـل من عـداي فهو عدو لي مبين).. وأن الله أودع الطبـائع عوامـل الخـير جميعـا، فـإن هي حـادت عن سـواء السـبيل كـان إرسـال الرسـل للتـذكير والتحذير آخر حجة لله علي الناس.. وأن زرادشت هو هـذه الحجـة التي أبرزها الله إلي حيز الوجود لتهدي من ضـل وتـذكر من غفـل وتسنصلح من فيه بقية للصلاح، وكلما انقضـي ألـف عـام بـرز إلي حيز الوجود خليفة له من سلالته، ولكن الأرواح التي تحف بالعرش هي التي تحمل بذرته إلي رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر في تلك الساعة بالماء المقدس في عين صافية مدخرة في ناحيـة من الأرض ليومها الموعود.

ويناجي زرادشت هرمز ويسمع جوابـه ويسـأله سـؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه، فيناديه: رب! هب لي عونك كما يعين الصديق أخلص صديق.. ويسأله رب! ألا تنبـني عن جـزاء الأخيـار؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقـر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والزرع؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهي أسرع الأشياء؟

ورواية الخليقة في مذهب زرادشت أن هرمـز خلـق الـدنيا في

ستة أدوار.. فبدأ بخلق السماء، ثم خلق الماء، ثم خلــق الأرض، ثم خلق النبات، ثم خلق الحيوان، ثم خلق الإنسان.

وأصل الإنسان رجـل يسـمي (كيـومرت) قتـل في فتنـة الخـير والشر، فنبت من دمه ذكر يسـمي ميشـة وأنـثي تسـمي ميشـانة، فتزوجا وتناسلا، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين.

ويفرق المجوس بين الخلائق جريـا علي مـذهبهم في اشـتراك الخلق بين خالق الطيبات وخـالق الخبـائث، أو بين إلـه النـور وإلـه الظلام.. فالأحياء النافعة من خلـق أهـرمن كـالثور والكلب والطـير البريء،.. والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية ومـا شـابهها من الحشرات والهوام.

والناس محاسبون علي ما يعملون.. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب في سجل محفوظ.. وتوزن أعمـالهم بعـد مـوتهم فمن رجحت عنـده أعمـال الخـير صـعد إلي السـماء ومن رجعت عنده أعمال الشـر هبـط إلي الهاويـة ومن تعـادلت عنـده الكفتـان ذهب إلي مكــان لا عــذاب فيــه ولا نعيم، إلي أن تقــوم القيامــة ويتطهر العالم كله بالنـار المقدسـة فـيرتفعون جميعـا إلي حضـرة هرمز في نعيم مقيم.

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمي قنطرة (شنفاد) تتوافي إليها أرواح الأبـرار والأشـرار علي السـواء بعـد خروجهـا من أجسـادها.. فيلقاها هناك (رشنوه) ملك العدل و(ميترا) رب النور وينصـبان لهـا الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات، ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

قال رجل منا: دعنا من كـل هـذه الـديانات القديمـة.. فـالبحث فيها ألصق بالتاريخ مما نحن فيه.. نحن نبحث عن ربنا.. فحدثنا عما عرفته من خلال بحثك عنه.

قال آخـر: حـدثنا عن اليهـود.. فلا زال لليهـود وجـود.. ولا زالت لهم معابدهم وطقوسهم.

تنفس (فريـدريك) الصـعداء، وقـال: من الصـعب التحـدث عن الإله عند اليهود بصفة علمية..

قلنا: لم؟

قال: لقد كان لكل عصر إلهه.. ولكل جماعة يهودية إلهها.. ومن الصعب أن يحصر هذا حاصر..

لكني مع ذلك سأذكر لكم بعض ما قال رجل خبير في اليهودية استفدت منه كثيرا.. إنه رجل من المسلمين التقيت به كان اسمه (عبد الوهاب المسيري)(1)

وقد حدثني هذا الرجل الخبير(2) أن الأصل في (الإله) الذي يؤمن به اليهود هو أنه إله واحد لا جسد له ولا شبيه.. لا تدركه الأبصار.. وتعتمد عليه المخلوقات كافة.. ولا يعتمد هو على أيٍّ منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها.

وأن كل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته.. فهو روح الكون غير المنظورة، السارية فيه، والتي تُمده بالحياة؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد.

وأخبرني أن التوحيد في اليهودية وصل إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً، وأقل عزلة وقومية وتعالياً.

وأخبرني أن هذا التيار التوحيدي استمر في مختلف فترات تاريخ اليهودية.. وتدل على بعض آثاره من الصلوات اليهودية دعاء الشماع، أي شهادة التوحيد اليهودية وقصائد مثل (آني مأمِّين) (إني مؤمن) و(يجدال) (تنزَّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد.

وأخبرني أن التصور اليهودي للإله قد تراكم عليه في فترات التاريخ الطويلة ما انحرف به انحرافات كثيرة خطيرة.. حتى غدا التوحيد مجرد طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة.. فالعهد القديم،

1) عبد الوهاب المسيري (1938-2008) مؤلف موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية، وهي أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.. استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، و تجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية.

2) انظر مادة (إله) من موسوعة اليهودية، للمسيري.

كما هـو من خلال مصـادره المتعـددة، يطـرح رؤى متناقضـة للإلـه تتضـمن درجـات مختلفـة من الحلـول بعضـها أبعـد مـا يكـون عن التوحيد.

وتتبدَّى الحلولية في الإشارات العديـدة إلى الإلـه، الـتي تصـفه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكـل ويشـرب ويتعب ويسـتريح ويضـحك ويبكي، غضـوب متعطش للـدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبـه عن قصـد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخـذ الأبنـاء والأحفـاد بـذنوب الآبـاء، بـل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج 32/10 ـ 14)، وينسـى ويتـذكر (خروج 2/23 ـ 24)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولـذا فهـو يطلب من أعضاء جماعة يسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبـواب بيـوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريـق الخطـأ (خروج 12/13 ـ 14)..

وهو إله متجرِّد، ولكنـه في الـوقت نفسـه يأخـذ أشـكالاً حسـية محددة، فهو يطلب إلى اليهـود (جماعـة يسـرائيل) أن يصـنعوا لـه مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج 25/8)، كما يسـير أمـام جماعة يسـرائيل على شـكل عمـود دخـان في النهـار كي يهـديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نـار كي يضـيء لهم (خروج 13/21/22).

وهـو إلـه الحـروب (خـروج 15/3 ـ 4) يعلِّم يـدي داود القتـال (صمويل ثاني 22/30 ـ 35)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد 31/1 ـ 12)، وهو إله قـوي الـذراع يـأمر شـعبه بـألا يرحم أحداً (تثنية 7/16 ـ 18)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولـذا، فهـو يـأمر شـعبه المختـار بقتـل جميـع الـذكور في المــدن البعيــدة عن أرض الميعــاد، (أمــا ســكان الأرض نفســها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية 20/10 ـ 18) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقــاييس الأخلاقيــة لهــذا الإلــه تختلــف بــاختلاف الزمــان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهـود (جماعـة يسـرائيل) بالسـرقة، ويطلب من كـل امـرأة يهوديـة في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلـة بيتهـا (أمتعـة فضـة وأمتعـة

ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين) (خروج 3/22)

وهكذا، فإننا نجد منذ البداية، أن فكرة الإله الواحد المتسامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها، مثل تشبيه الإله بالبشر، ومثل فكرة الشعب المختار، فهي أفكار تتناقض مع فكرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الذهبي (ويتزعمها هارون أخو موسى)(1)، وأن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الترافيم والإيفود (الأصنام)، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشركة لا تختلف كثيراً عما جاء في العهد القديم.. ولهذا ليس من الغريب أن نجد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية.

ورغم أن الإله، حسب بعض نصوص العهد القديم، يفصح عن نفسه في الطبيعة والتاريخ ويتجاوزهما، فهو مصدر النظام في الطبيعة، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناسقها، إلا أننا نجده يتحول من كونه حقيقة مطلقة تعلو على المادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) يصبح امتداداً لما هو نسبي، وامتداداً للشعب اليهودي على وجه الخصوص.. فيصبح الخالق امتداداً لوعي الأمة بنفسها، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصوراً على الشعب اليهودي وحده، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها (خروج 6/7) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

ولذا، نجد أن الشعب ككل، وليس الإنسان ذو الضمير الفردي، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشماع، ويظهر الاتجاه نفسه في أفكار دينية مثل الاختيار والوعد الإلهي وأرض الميعاد التي تصبح مقدَّسة ومختارة تماماً مثل الشعب (وتلاحُم الإله بالأرض والشعب هو الثالوث الحلولي).

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل)

---

1) حسبما ينص الكتاب المقدس.. أما القرآن الكريم فهو يبرئ هارون ﷺ ، وينسب العبادة للسامري.

وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشـعب دون سـواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه.. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول حيـاة ومصـير اليهـود.. ويتضـح هـذا في مفهـوم التـاريخ اليهـودي المقدَّس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه، كما يتبدَّى في رؤية آخـر الأيـام حيث ترتبـط صـورة الآخـرة والنشـور في كتب الـرؤى (أبوكاليبس)، وفي بعض أجزاء العهد القـديم، بسـيادة اليهـود على العالمين، ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مـع ظهـور اليهوديـة التلموديـة الحاخامية.. ويزداد الحلـول الإلهي، فنجـد أن القداسـة تتعمـق في الحاخامـات من خلال مفهـوم الشـريعة الشـفوية، حيث يتسـاوى الـوحي الإلهي بالاجتهـاد البشـري، ويصـبح الحاخامـات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجـة، وتُجمَـع آراؤهم في التلمـود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإلــه وتحوي سر الكون).

وقد بلغ الحلول الإلهي درجـة أن المشـناه (الـتي تضـم تفسـير الحاخامـات) شُـبِّهت بـاللوجوس في اللاهـوت المسـيحي، أي أنهـا كلمــة الإلــه المقدَّســة، كــانت موجــودة في عقلــه منــذ الأزل.. وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشـعب اليهـودي، أي أنـه هو أيضاً اللوجوس.

ويخلع التلمود على الإله صـفات بشـرية بشـكل عـام، ويهوديـة بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة.

وقد جاء في التلمود أنه بعـد وصـول الماشـيَّح، سـيجلس الإلـه على عرشــه يقهقــه فرحــاً لعلــو شــأن شــعبه، وهزيمــة الشــعوب الأخرى التي تحـاول دون جـدوى أن يكـون لهـا نصـيب في عمليـة الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يـزدادان قداسـة ومركزية في الدراما الكونية.. ويقضـي الإلـه وقتـه وهـو يلعب مـع حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلتـه، وهـو يلبس العمائم، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مـرات يوميـاً.. وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه، وإلى درجة وحدة الوجـود في تـراث

القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجــاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجـوهر الإلهي والجـوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجــوهر بقيــة البشــر، ويصــبح الفــرق بين اليهــود والأغيــار فرقــاً ميتافيزيقياً، فاليهود قـد خُلقـوا من مـادة مقدَّسـة (حـل فيهـا الإلـه بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منهـا بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشـعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معـه (أو معهـا) في علاقـة عاطفيـة قويــة ذات إيحــاءات جنســية، وهي فكــرة أصــبحت أساســية في التراث القبَّالي.

وتتضـح النزعـة نفسـها في قصـة الخلـق في الـتراث القبَّالي، فالإلـه لا يخلـق العـالم من العـدم، وإنمـا صـدرت عنـه التجليـات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القــديم (آدم قــدمون) أي أن صـورة الإلـه هي صـورة الإنسـان، وتسـتقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحـدث مـع الشـخيناه (التجلي العاشــر).. كمــا أن التجلي المــذكر للإلــه يطــارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولـة الــتي يبــذلها اليهــود ليتوحــد التجلي الــذكوري بــالتجلي الأنثــوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخــل الــتراث القبَّالي، يصـبح التجلي العاشــر (شـخيناه) الــذات الإلهيــة والتعبــير الأنثــوي عن الإلــه، وهــو نفســه جماعــة يسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العـالمين، ثم تصـل الحلوليــة إلى ذروتهــا والشــرك إلى قمتــه، حين يصــبح الإنســان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتمــاداً على الإنسان.

وبعد عمليـة السـقوط، وتَهشُّـم الأوعيـة في القبَّالاه اللوريانيـة، تتفتت الذات الإلهية نفسـها، وتتـوزع الشـرارات الإلهيـة، ولا يتـأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقـق ذاتـه إلا من خلال شـعبه اليهـودي.. فاليهود، بآثـامهم، يـؤخرون عمليـة الخلاص الـتي تـؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها.. ولذا،

فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ويظهر هذا النزوع الحلولي المتطرف في أحد التعليقات القبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سفر أشعياء (43/12)، حيث جاء فيها:(أنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله)، وهي فقرة تؤكد وحدانية الإله وتساميه. وهي وإن كانت تتحدث عن علاقة خاصة، فإنها مع هذا أبعد ما تكون عن الحلولية أو الشرك. ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفرض الطبقة الحلولية على الطبقة التوحيدية فرضاً فيفسرها بقوله: (حينما تكونون شهودي أكون أنا الإله، وحينما لا تكونون شهودي فكأنني لست الإله)، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس.

بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب، إذ قال أحد الحاخامات: (حينما ينفذ اليهود إرادة الإله، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعالي. وحينما يعصي اليهود إرادة الإله، فهم كما لو أنهم يضعفون قوة الإله العظمى في الأعالي)

ورغم أن كاتب المدراش يستخدم دائماً عبارة (كما لو أن) لتأكيد بعدها المجازي، فإن تكرارها وارتباطها بالمفاهيم الأخرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة التي لا تحتاج أي تفسير.

وعلى أية حال، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلة أساسياً في النسق الديني اليهودي، بل كان يكتسب أحياناً قوة كما حدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع كلٍّ من سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون.. وكثيراً ما حاول الحاخامات الوقوف ضد الاتجاه الحلولي الشعبي (الفلكلوري)، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمها العامة. بل يُلاحَظ أن عبارة (كما لو أن) كانت تضاف حتى في التفسيرات القبَّالية الحلولية الأولى لتأكيد الطابع المجازي للخطاب، ولكن هذا التحفظ تآكل بالتدريج وتغلغلت القبَّالاه ذات الأصول الشعبية في صفوف العامة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسها وسيطر فكر حلولي حرفي متطرف. ومع تغلغل القبَّالاه ذات الأصول الشعبية

والغنوصية والـتي اكتسـبت أبعـاداً مسـيحية، حـدثت عمليـة تنصـير لليهودية، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية.

ومع بدايات العصر الحديث، كـانت الحسـيدية أوسـع المـذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل مـا تحمـل من شـرك وثنويـة. ويتضـح هـذا في الـدور الـذي يلعبـه التسـاديك فإرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخـالق، وهـو محل القداسة، وهـو الإنسـان التقي صـاحب القـدرة الـذي يمكنـه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مـارتن بـوبر رؤيـة حلوليـة للإلـه، فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبـار أنهمـا طرفـان متساويان، وهذا تَصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قـومي. كمـا نجـد فرقاً يهودية حديثـة مثـل اليهوديـة المحافظـة واليهوديـة التجديديـة تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشـعب المقـدَّس، مـع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله)، أو وضعها في مرتبـة ثانوية (حلولية شحوب الإله).

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثـل إيـوجين بوروفيـتز يتحـدث عن حـرب عـام 1967 باعتبـار أنهـا لم تكن تهـدد دولـة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإلـه والشـعب والأرض يُكوِّنان جوهراً واحـداً، فمن أصـاب جـزءاً من هـذا الجـوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصـاب الـذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكـرين الـدينيين اليهـود يتحـدثون عن (لاهـوت موت الإله)، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خـال تمامـاً من أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله. وقـد تفـرَّع من هـذا (لاهوت الإبادة) أو (لاهوت ما بعد أوشـفيتس) الـذي يـذهب دعاتـه إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي.. كما يـذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هـو الشـعب اليهـودي (دون الإلـه) وأن القيمة الأخلاقية المطلقـة هي البقـاء، وأن الآليـة الأساسـية لإنجـاز ذلك هي الدولـة الصـهيونية، فكـأن الدولـة الصـهيونية هي الإلـه أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

قال رجل منا: فحدثنا عن **تنزيه الإله في نظر المسيحيين**.

قال: لست أدري ما أقول لكم.. ولا بما أجيبكم.. لقد احترت فيما أكتبه عن تنزيه المسيحيين لله..

لقد وجدت الكتاب المقدس بعهديه متضاربا في ذلك غاية التضارب..

فبينما أقرأ النصوص التي يسمى فيها الرب باسم القدوس، كما في (اللاوين 11: 44-45): (أَنَا الرَّبّ إِلَهُكُمْ، فَكَرِّسُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَقَدَّسُوا، لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ، وَلاَ تُنَجِّسُوا أَنْفُسَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الدَّبِيبِ الْمُتَحَرِّكِ عَلَى الأَرْضِ. لأَنِّي أَنَا الرَّبّ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ لأَكُونَ لَكُمْ إِلَهاً. فَكُونُوا قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ)

بينما أقرأ هذا النص وغيره.. والتي تمتلئ بتنزيه الله وتقديسه، بل تسميه قدوسا.. في نفس الوقت أقرأ الكثير من النصوص التي تصف الله بما لا يمكن أن يوصف به إله.. ولذلك لم يصعب عليهم أن يرسموه في الكنائس والمعابد بصورة رجل عجوز ذي لحية طويلة بيضاء يظهر عليه الشيب والعجز والتعب..

لقد كان لهذه الصورة سندها من الكتاب المقدس..

ففي الكتاب المقدس النصوص التي تصف الله **بالعجز**.. ففي (تكوين32 /24-28) نبأ مصارعة يعقوب لله: (فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر.. وقال: اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا اطلقك إن لم تباركني)

وفي سفر القضاة لم يستطع الرب أن يطرد سكان الوادي، لأن مركباتهم حديدية.. ففي (القضاة 1 /19): (وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسكر**.. ففي (المزمور 78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيط من الخمر)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينام**.. ففي (مزمور35

/22): (قد رأيت يا رب لا تسكت يا سيد لا تبتعد عني استيقظ وانتبه الى حكمي يا الهي وسيدي الى دعواي)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يمشي على عكاز**، ففي (مزمور23 /4): (أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شرا لانك انت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **جاهل**.. ففي (رسالة بولس إلى أهل كرونثوس الأولى 1 /25): (لأن جهالة الله احكم من الناس. وضعف الله أقوى من الناس)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عنده خزانة، وفيها آلات الرجز**.. ففي (إرميا50 /25(: (فتح الرب خزانته واخرج آلات رجزه لان للسيد رب الجنود عملا في ارض الكلدانيين)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسيئ**.. ففي (1ملوك 17 /20): (وصرخ الى الرب وقال ايها الرب الهي أيضا الى الارملة التي انا نازل عندها قد اسأت بإماتتك ابنها)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينقض العهد**.. ففي (زكريا11 /10): (فاخذت عصاي نعمة وقصفتها لانقض عهدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصيح كالوالدة وينخر ويخرب..** ففي (إشعياء 42 /13-16): (الرب كالجبار يخرج.كرجل حروب ينهض غيرته.يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت.كالوالدة اصيح.انفخ وانخر معا اخرب الجبال والآكام واجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الآجام واسير العمي في طريق لم يعرفوها.في مسالك لم يدروها امشيهم.اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينسى**.. ففي (مزمور 13 /1): (الى متى يا رب تنساني كل النسيان.الى متى تحجب وجهك عني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عمود سحاب نهارا وعمود نار ليلا**.. ففي (خروج:13 /21): (وكان الرب يسير امامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم.لكي يمشوا نهارا وليلا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصفر للذباب ويعمل حلاقاً ويصفق**.. ففي (إشعياء 7 /18-20): (ويكون في ذلك اليوم ان الرب يصفر للذباب الذي في اقصى ترع مصر وللنحل الذي في ارض اشور فتأتي وتحل جميعها في الاودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي. في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في عبر النهر بملك اشور الراس وشعر الرجلين وتنزع اللحية ايضا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يأمر الناس بسب الأنبياء**.. ففي (صموئيل الثاني 16 /10-11): (فقال الملك ما لي ولكم يا بني صروية. دعوه يسب لأن الرب قال له سبّ داود ومن يقول لماذا تفعل هكذا. وقال داود لابيشاي ولجميع عبيده هوذا ابني الذي خرج من احشائي يطلب نفسي فكم بالحري الآن بنياميني.دعوه يسب لان الرب قال له)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يحتاج علامة ليتذكر بها**.. ففي (تكوين 9 /15-16): (اني اذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حيّة في كل جسد. فلا تكون ايضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد فمتى كانت القوس في السحاب ابصرها لأذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حيّة في كل جسد على الارض)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يولول ويبكي ويصرخ ويصوت**.. ففي (ميخا1 /8): (من اجل ذلك انوح وأولول. امشي حافيا وعريانا. اصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا كرعال النعام)

***

قلت: حدثتنا عن أكثر الأديان شهرة.. ولم تحدثنا عن الإسلام.. فهل بحثت في قداسة إله المسلمين؟

قال: أجل.. لقد استغرق مني ذلك كل وقتي.. بل لأجلـه رحلت إلى بلاد إسلامية متعددة..

قلت: فما وجدت؟

قال: إن شئتم الصراحة.. لم أجد دينا من الأديان يحمل تعظيما لله وتقديسا له مثل دين المسلمين.

قلت: فحدثنا عما وجدت.

قال: لقد رأيت المسلمين يقدسون الله تقديسا عظيما.. بل إن الأمر يصل بهم إلى تقديس كـل مـا يضـاف إلى اللـه.. فيتحـرزون أشد الاحتراز من كل كلمة يطلقونها على الله.

قال بعض من كان معنا: فحدثنا عن أقوال المسلمين في هـذا، فإنا نرى لهم حكمة كبيرة، ومعارف عظيمة.

قال: قبل أن أحدثكم عن ذلك أحـدثكم حـديث ذلـك، فلا يؤخـذ العلم إلا من مصادره.

قلنا: فحدثنا.

قال: لقد كان من أوائل المدن الـتي زرتهـا من بلاد المسـلمين بلـدة يقـال لهـا (قم)، وبمـا أنهـا كـانت حافلـة بـالعلم والعلمـاء، والمقدسـين والمطهـرين، فقـد كـان الكـل يطلـق عليهـا (قم المقدسة)

وقد تشرفت بالجلوس إلى كثير من حلقـات العلم فيهـا.. وهي حلقات تقام في كل مكـان.. في المـدارس والمسـاجد.. بـل وفي الأسواق وأمام البيوت.. وسأذكر لكم الآن بعض مـا بقي عالقـا من تلك المجالس المباركة التي شرفني الله بالجلوس فيها.

وقبل أن أذكر لكم ذلك أذكر لكم النتيجـة العامـة الـتي وصـلت إليها.. فالكلام لا يحسن ولا يستجاد فهمه إلا إذا انطلق من الإجمال إلى التفصيل..

قلنا: ذلك أدعى لسرورنا.. فما هي النتيجة التي وصلت إليها؟

قال: لقد رأيت كل مجالس العلم في تلك المدينة الطيبة تركـز أحاديثها في هذا الباب على نـاحيتين من نـواحي التقـديس.. وهمـا سهلا التصور بحسب القسمة العقلية.

قلنا: ما هما؟

قـال: الـذات والأفعـال.. فلا يقـدس اللـه إلا إذا قدسـت ذاتـه.. وقدست مثل ذلك أفعاله.

1 ـ قداسة الذات الإلهية

قلنا: فحدثنا عن تقديس ذات الله.

قـال: على تلـة مرتفعـة في تلـك المدينـة الجامعـة بين العلم والإيمان والأدب رأيت منصة عاليـة جلس عليهـا رجـل يلبس عمـة الأزهر، وقد التفت الناس حوله.. وقد تعجبت عندما علمت أن ذلك الرجل مصري، وأنه شيخ من شيوخ الأزهـر.. وأن اسـمه (محمـود شلتوت)(1)، وقد قلت لمن أخبرني عن هذا الرجل: أعقمت أرحـام نسائكم أن تلد العلماء حـتى أتيتم بهـذا المصـري.. ورفعتمـوه إلى هذا المنصب الرفيع.

ابتسـم الرجـل، وقـال: لكأنـك لا تعرفنـا.. أو لكأنـك لا تعـرف الإسلام.

قلت: وعلاقة هذا بكم؟.. وما علاقته بالإسلام؟

قال: أما علاقته بنا.. فنحن قـوم لم نشـرف إلا بالإسـلام.. وقـد كان لنا في عهد نبينا ﷺ ممثل له عنا.. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: (سلمان منا آل البيت)(2)

وأما علاقة ذلك بالإسلام.. فالإسلام لا ينظر إلى مـا ينظـر إليـه

---

1) أشير به إلى (محمود شلتوت) (1893 ـ 1963)، وهـو شـيخ الجـامع الأزهـر من (1958 - 1963م)،

وقد سعى جاهداً مخلصا للتقريب بين المذاهب الإسلامية.. ولأجل ذلك اخترناه في هذا المحل.

2) رواه البيهقي في الدلائل وغيره.

الناس من تصنيفات وضعتها لهم أهواؤهم وشياطينهم.. إن ربنا يقول لنا:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات)

وإن نبينا ﷺ يقول لنا::(ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح)(1)، ويقول: (أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:13)(2)

قال لي ذلك، ثم انصرف مسرعا ليسمع من ذلك الجالس على تلك المنصة العالية.

أحسست بشيء يدعوني إلى أن أحث خطاي إليه..

وعندما وصلت، كان أول ما سمعته منه قوله: أيها الباحثون عن الله.. لا يمكنكم أن تعرفوا الله إلا إذا نزهتم بصائركم من أدناس التشبيه.. فما عرف الله من شبهه.. وما عرف الله من قاسه على خلقه.. أو قاس خلقه عليه.. وما عرف الله من وضع الله في قوالب صورها له عقله أو صورها له هواه.. فالله أعظم من أن يحاط به.

قال بعض الحاضرين: فكيف نصل إلى هذه المرتبة؟

قال شلتوت: اقرأوا القرآن.. وستجدونه مملوءا بتنزيه الله وتعظيمه.. فلا يتحقق التعظيم إلا إذا تحقق التنزيه.

قال الرجل: نجد الله في القرآن الكريم يسمي نفسه (قدوسا)

---

1) رواه أحمد والبيهقي.

2) رواه البيهقي.

(1).. قال تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ المَلِكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللـهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ ﴾ (الحشر:23)، وقال: ﴿ يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾(الجمعة:1)

وفي الحديث أنه ﷺ كان يَقُـولُ فِي رُكُوعِـهِ وَسُـجُودِهِ: (سُـبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ)(2)

فما المراد بهذا الاسم؟

قال شلتوت: إن هذا الاسم يشير إلى طائفة كثيرة من المعاني كلها تبشر بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به:

فهي تنزهه عن الشريك.. فالقدوس واحد، قال تعالى:﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ.. ﴾ (البقـرة: 255)، وقـال:﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص)

وهي تنزهه عن الشبيه.. فالقدوس لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:4)، وقال تعـالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: من الآية11)

وهي تنزهه أن يكون له زوجـة أو ولـد، قـال تعـالى إخبـارا عن مقالة الجن:﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَـاحِبَةً وَلاَ وَلَـدًا ﴾ (الجن: 3)، وقال:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَـلْ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116)﴾ (البقرة)

---

1) (القـدوس) مشـتق في اللغـة من (التقـديس)، ويعـني في اللغـة التطهـير، ومنـه سميت الجنة حظيرة القدس كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن رب العـزة: (من ترك الخمر وهو يقدر عليه لأسقينه منه في حظيرة القدس، ومن ترك الحريـر وهـو يقدر عليه لأكسونه إيـاه في حظـيرة القـدس)(رواه الـبزار)، ومن ذاك تسـمية جبريـل - عليه السلام - روح القدس قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(النحـل: 102)

والقداسة تعني الطهر والبركة، وقـدس الرجـل ربـه أي عظمـه وكـبره، وطهـر نفسـه بتوحيـده وعبادتـه، ومحبتـه وطاعتـه , ومن ذلـك قـول الملائكـة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾(البقرة:30)، فالقدوس يعني المطهر المـنزه عن كـل نقص المتصـف بكـل أنواع الكمال (انظر: لسان العرب 6/168، وشرح أسماء اللـه الحسـنى للـرازي ص94، والمقصد الأسنى ص65، وغيرها)

2) رواه مسلم.

وهي تنزهه عن الموت والنوم، قـال تعـالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.. (58)﴾ (الفرقان)

وهي تنزهه عن الظلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)﴾ (النساء)

وهي تنزهـه عن الكـذب.. فقولـه الصـدق وخـبره الحـق، قـال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: 87)

وهي تنزهه عن الضلال والنسيان، قـال تعـالى مخـبرا عن نبيـه موسى عليه السلام أنه قال: ﴿ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ (طه: 52)

وهي تنزهه عن الفناء.. فالقدوس باق، قال تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ لَـهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:88)

وهي تنزهــه عن كــل العــوراض الــتي لا تتناســب مــع جلال الألوهية.. كما قال تعـالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة:255)

وهي تنزهه عن الفقر والبخل، قال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)﴾ (فاطر)

وهي تنزهه عن التعب والنصب.. قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا مَسَّـنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: 38)

وهي تنزهــه عن الحاجــة إلى الآلات والأدوات وتقــدم المــادة والمدة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَـا لِشَـىْء إِذَا أَرَدْنَـاهُ أَن نَّقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: 40)

وهي تنزهه عن انتهاء القدرة وحصول الفقر، قال تعالى: ﴿ لَّقَـدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قَالُواْ إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ (آل عمران: 181)

وهي تنزهـه عن الحاجـة قـال تعـالى:﴿ وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ (الأنعام: 24) { وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (المؤمنون: 88)

وهي تنزهـه عن أن يخلـق الباطـل، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا خَلَقْنَـا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ (ص: 27)، وقال تعالى حكاية عن المؤمنين:﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ (آل عمران: 191)

وهي تنزهه أن يخلق للعب، قال تعالى:﴿ وَمَـا خَلَقْنَـا السـموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ، وَمَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ (الــدخان: 38 39)

وهي تنزهــه أن يخلــق للعبث؛ قــال تعــالى:﴿ أَفَحَسِــبْتُمْ أَنَّمَــا خلقنــاكم عَبَثــاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَــا لاَ تُرْجَعُــونَ فتعــالى الملــك الحــق ﴾ (المؤمنون: 115، 116)

وهي تنزهه أن يرضى بالكفر، قـال تعـالى:﴿ وَلاَ يرضـى لِعِبَـادِهِ الكفر ﴾ (الزمر: 7)

وهي تنزهه عن إرادة الظلم، قال تعالى:﴿ وَمَا الله يُرِيـدُ ظُلْمـاً لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر: 31)

وهي تنزهه عن حب الفساد، قال تعالى:﴿ والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ (البقرة: 205)

وهي تنزهه عن أن يعاقب من غير سابقة جـرم، قـال تعـالى:﴿ مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ (النساء: 147)

وهي تنزهه عن أن ينتفع بطاعات المطيعين أو يتضرر بمعاصي المذنبين، قال تعـالى:﴿ إِنْ أَحْسَـنتُمْ أَحْسَـنتُمْ لأنفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء: 7)

وهي تنزهه أن يعترض أحد على أفعاله وأحكامه، قال تعــالى:﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـئَلُونَ ﴾ (الأنبيـاء: 23)، وقـال تعـالى:﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (االبروج: 16)

وهي تنزهه عن أن يخلف وعده ووعيده، قال تعالى:﴿ مَا يُبَــدَّلُ

القول لَدَيَّ وَمَا أَنَاْ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق: 29)

قال آخر: سمعنا ما وردنا من كلام ربنا.. فأسمعنا بعض ما يـدل على هذا من كلام أئمـة الهـدى الـذين جعلهم اللـه مصـابيح لخلقـه يهتدون بها.

قال شلتوت: كل أئمة الهـدى تحـدثوا عن هـذا.. ودعـوا النـاس إليه بجميع صروف الدعوة.

روي أن رجلاً قـال لعلي: هـل تصـف ربنـا نـزداد لـه حبـاً وبـه معرفة؟ فغضب وخطب الناس، فقال فيما قال: (عليك يـا عبداللـه بما دلك عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسول من معرفته، فائتم به، واستضيَ بنور هدايته، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه ممـا ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنة الرسول وأئمة الهـدى أثـره، فكل علمه إلى الله، ولا تقدر عظمة الله عليه قدر عقلـك، فتكـون من الهالكين.. واعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم، هم الذين أغنـاهم اللـه عن الاِقتحـام على السـدد المضـروبة دون الغيـوب، إقراراً بجهلٍ مـا جهلـوا تفسـيره من الغيب المحجـوب، فقـالوا:﴿.. آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا.. (7)﴾ (آل عمـران)، وقـد مـدح اللـه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علمـاً، وسـمى تـركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً)

وقال في خطبة أخرى:(الحمـد للـه المعـروف من غـير رؤيـة، والخالق من غير رَوِيَّة، الـذي لم يـزل قائمـاً دائمـاً إذ لا سـماء ذات أبراج، ولا حجب ذات أرتاج، ولا ليل داج، ولا بحر ساج، ولا جبـل ذو فجاج.. وأشهد أن من شبهك بتبـاين أعضـاء خلقـك، وتلاحم حقـاق مفاصـلهم المحتجبـة لتـدبير حكمتـك، لم يعقـد غيب ضـميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تـبرأ التابعين من المتبوعين إذ يقولـون:﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98)﴾ (الشـعراء).. كـذب العـادلون بـك إذ شـبهوك بأصـنامهم، ونحلـوك حليـة المخلـوقين بأوهـامهم، وجـزؤوك تجزئـة المجسـمات بخـواطرهم، وقـدروك على الخلقـة المختلفة القوى بقرائح عقولهم)[1]

1)انظر: نهج البلاغة ج 1 ص 164.

وعن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: ضمني وأبا الحسن الطريق في منصـرفي من مكـة إلى خراسـان وهـو سـائر إلى العـراق، فسـمعته يقـول: (من اتقى اللـه يتقى، ومن أطـاع اللـه يطـاع)، فتلطفت الوصول إليه، فوصلت، فسلمت عليه، فـرد عليَّ السـلام ثم قال: (يا فتح من أرضى الخالق لم يبال بسخط المخلـوق، ومن أسخط الخالق فقمن أن يسلط اللـه عليـه سـخط المخلـوق، وإن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وأنى يوصـف الـذي تعجـز الحـواس أن تدركـه، والأَوهـام أن تنالـه، والخطـرات أن تحـده، والاَبصار عن الاِحاطة به، جل عما وصفه الواصـفون، وتعـالى عمـا ينعته الناعتون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهو في نأيه قـريب، وفي قربه بعيد، كيَّف الكيف فلا يقال: كيـف؟ وأيَّن الاَين فلا يقـال: أين؟ إذ هو منقطع الكيفوفية والاَينونية)

وقال الحسين: (إن الله عز وجل يقـول:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)﴾ (النجم)، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا)

وقال: (يا محمد، إن الناس لا يزال بهم المنطـق حـتى يتكلمـوا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إلَه إلا الله الواحـد الـذي ليس كمثله شيء)

وقال: (من نظر في الله كيف هو هلك)

وقال: (يا ابن آدم لو أكل قلبـك طـائر لم يشـبعه، وبصـرك لـو وضـع عليـه خـرق إبـرة لغطـاه، تريـد أن تعـرف بهمـا ملكـوت السماوات والاَرض، إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلـق من خلـق اللـه، فـإن قـدرت تملأ عينيـك منهـا فهـو كمـا تقـول.. فمن هـداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفـك عنـد الحاجـة مواضـع طلبـك وإرادتك. هيهات، إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والاَدوات فهـو عن صفات خالقه أعجز. وَمِن تناولِه بحدود المخلوقين أبعد)

ومن خطبة له في التوحيد قال: (ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مَثَّله، ولا إياه عني من شَبَّهه، ولا صـمده من أشـار إليـه وتوهمـه.. كـل معـروف بنفسـه مصـنوع، وكـل قـائم في سـواه معلـول.. فاعـلٌ لا باضـطراب آلـة، مقـدر لا بجـول فكـرة، غـني لا باسـتفادة، لا تصـحبه الاَوقـات، ولا ترفـده الاَدوات، سـبق الاَوقـات

كونه، والعدم وجوده، والاِبتداء أزله.. بتشعيره المشاعر عُرِفَ أن لا مُشْعِرَ له، وبمضادته بين الاَمور عرف أن لا ضد لـه، وبمقارنتـه بين الاَشياء عُرِفَ أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والوضوح بالبهمـة والجمود بالبلل)

وقال الباقر: (تكلموا في خلق الله، ولا تتكلمـوا في اللـه، فـإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً)

وقال: (إياكم والتفكر في اللـه، ولكن إذا أردتم أن تنظـروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه)

وقال الصادق: (إن الله تبارك اسمه، وتعالى ذكره، وجل ثناؤه، سـبحانه وتقـدس، وتفـرد وتوحـد، ولم يـزل ولا يـزال، وهـو الأول والآخـر والظـاهر والبـاطن فلا أول لأوليتـه، رفيـعٌ في أعلى علـوه، شامخ الاَركان، رفيع البنيـان عظيم السـلطان، مـنيف الآلاء، سـني العلياء، الذي عجـز الواصـفون عن كنـه صـفته، ولا يطيقـون حمـل معرفة إلَهيته، ولا يحدون حدوده، لاَنه بالكيفية لايتناهى إليه)

وروي أن رجلا قام إلى الإمام الرضا، وقال له: يابن رسول الله صف لنا ربّك، فانّ من قبلنا قد اختلفـوا علينـا.. فقـال الرضـا: (إنّـه من يصـف ربّـه بالقيـاس لا يـزال الـدهر في الالتبـاس، مـائلا عن المنهاج، ظاعناً في الإعوجاج، ضالاًّ عن السبيل، قائلا غـير الجميـل، أعرّفه بما عرّف بـه نفسـه من غـير رويّـة، وأصـفه بمـا وصـف بـه نفســه من غـير صـورة، لا يـدرك بـالحواسّ، ولا يقـاس بالنـاس، معروف بغير تشبيه، ومتدان في بعـده لا بنظـير، لا يمثّـل بخليقتـه، ولا يجور في قضيّته.. فهو قـريب غـير ملـتزق، وبعيـد غـير متقصّ، يحقّق ولا يمثّل، ويوحّد ولا يبعّض، يعرف بالآيـات ويثبت بالعلامـات، فلا إله غيره الكبير المتعال)

***

لسـت أدري كيـف قطعت عن لسـاني لجـام الصـمت، ورحت أقول: إني أرى بهذه المدينة حلقا كثيرة.. فأي حلقـة تراهـا أعـرف من غيرها بربها لتنصحنا بها؟

قال شلتوت: اجلس إليها جميعا.. واستفد منها جميعا.. وأحسن

الظن بها جميعا..

قلت: لا أقصد هذا.

قال: أنت تقصد أحقها بالحق، وأولاها به.

قلت: أجل.. فذلك ما أريده.. فلا أريد أن أقع في الوهم.

قال: الناس ينظرون إلى الحق من مناظر مختلفة لا متناقضة.. ففيهم العامة وفيهم الخاصة.. وفيهم أهل الكثافة وفيهم أهل اللطافة.. وفيهم المحققون وفيهم الحرفيون.. ولكل واحد من هؤلاء الحق الذي يتناسب معه.

قلت: فكيف أميز ما يتناسب معي مع ما يتناسب مع غيري؟

قال: فكيف تميز ما يصلح لمعدتك من الطعام مع ما لا يصلح؟

قلت: أي طعام أكلته أضر بي علمت أنه لا يصلح لمعدتي.

قال: وكذلك كل معرفة أوقعتك في دنس التشبيه والتمثيل فاجتنبها إلى غيرها.. فالله لا يحاط به.

***

كانت أول حلقة انضممت إليها – بعد جلوسي للشيخ محمود شلتوت- حلقة يتوسطها شيخ قد أوتي علما كثيرا، وقدرة على الجدل لا تضاهى، كان اسمه (ابن طاووس)(1).. وقد كان تلاميذه يلتفون حوله، فيسألونه غرائب المسائل، فيبجيبهم بجنان ثابت، وعلم وافر، وحجة تأبى إلا أن تنقاد العقول لها.

سأنقل لكم بعض ما دار في تلك الحلقة:

كان أول ما بدأ به ابن طاووس درسه قوله: نتناول اليوم في

1) أشير به إلى ابن طاووس (ت 673 هـ)، وهو جمال الدين أبو الفضائل أحمد بن موسى الحسني، الحلّي، كان من أكابر فقهاء الإمامية ومجتهديهم، عالماً بالحديث ورجاله، متكلّماً، أديباً، شاعراً مجيداً، مصنّفاً. وهو أوّل من قسّم ــ من علماء الإمامية ـ الحديث إلى الاَقسام الاَربعة المشهورة: صحيح وموثّق وحسن وضعيف.

هذا الدرس الحديث عن ركن مهم من أركان المعرفة بالله، لا تتم المعرفة إلا به..

إنه تنزيه الله، وإجلاله، وتسبيحه وتقديسه.. فلا يمكن أن تتم المعرفة بالله، أو تصدق إلا إذا خالطها هذا الإكسير.. إكسير التقديس والتنزيه والإجلال.

قال رجل من الحاضرين: نحن نعرف الجملة.. ولكنا نفتقر إلى التفصيل.

قال: سأذكر لكم سبعة أشياء يقدس الله عنها.. وقيسوا عليها غيرها.

قالوا: وما هي؟

قال: الشبيه.. والحاجة.. والجهل.. والعجز.. والجسمية.. والزمان.. والمكان.

الشبيه:

قالو: فحدثناعن الأول مما يجب تنزيه الله عنه.. حدثنا عن تنزه الله عن الشبيه(1).

قال: التشبيه أو التمثيل هو إثبات شيء من خصائص المخلوق للخالق، أو إثبات شيء من خصائص الخالق للمخلوق(2).. وقد

1) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة في هذا الفصل من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التّنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السّعدي، كليّة التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلاميّة.

2) للأسف نجد الكثير من المصنفات ترمي الكثير من العلماء والصالحين بالتشبيه مع انعدام البينة.. بينما تدافع على من شاءت الدفاع عنه، وترمي نفس المراجع التي استفادت منها تلك المعلومات بأنها مراجع غير موثوقة..

وكمثال على ذلك الدفاع عن مقاتل بن سليمان مع أنه رمي بالتشبيه في تلك المراجع التي رمي فيها غيره.. فقد قال ابن تيمية مدافعا عنه:(أمّا مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله ، والأشعريّ ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة ، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان ؛ فلعلّهم زادوا في النّقل عنه ، أو نقلوا عنه ، أو نقلوا عن غير ثقة ، وإلاّ فما أظنّه يصل إلى هذا الحدّ!)

ونحن نقول تعليقا على هذا: لم لا ينتهج هذا المنهج مع سائر العلماء والفرق؟.. ولم لا تكون البينة الصحيحة هي الدليل لا مجرد النقل؟.. ولم لا يترك المجال للآخرين ليدافعوا

نطق القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عنه، فقال:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشّورى:11)، وقال:﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: 4)، وقال:﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ (النّحل: 74)، وقال:﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: 65)؛ أي مثلاً وشبيهًا(1).

ومثل ذلك نطقت أسماء الله الحسنى بتنزيه الله عنه.. فقد سمّى الله نفسه المقدّسة بأسماء كثيرة تدلّ على تفرّده المطلق:

فمن أسمائه الدالة على ذلك: **الواحد**، **والأحد**(2) ؛ أي المتفرّد بمعاني الكمال ؛ فليس له مثل في ذاته، ولا شريك في أفعاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **العزيز** ؛ أي الَّذي لا مثل له ولا نظير ؛ فالعزيز – في بعض معانيه- هو النّادر الَّذي يصعب أو يتعذّر وجود مثله ؛ يقال: عزّ الشّيء فهو عزيز إذا قلّ فلا يكاد يوجد، كما قال تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصّلت: 41) ؛ أي كتاب محالٌ مناله، ووجود مثاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **القهّار** ؛ أي الواحد الَّذي لا نظير له ولا ندّ ؛ لأنّ القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهّاران متساويين في قهرهما أبدًا ؛ فالقهر المطلق لا يكون إلا مع الوحدة.. فلا يكون القهّار إلاّ واحدًا ؛ إذ لو كان معه كفؤ له ؛ فإن لم يقهره لم يكن قهّارًا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤًا،

عن أئمتهم وعلمائهم ما دام الأمر بهذه الصفة؟.. ولم لا يقال بأن للتأثير السياسي والمذهبي دوره في بيان مقولات الفرق والمذاهب، وخاصة منها من لم يترك أثرا من كتاب أو أتباع؟

1) روي ذلك عن ابن عبّاس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج ، وغيرهم.

2) اسم الواحد مقارب لاسم الأحد ، وقد فرّق ابن الأثير بينهما من وجهين:

الأول: أنّ الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد ؛ فهو يقع على المذكّر والمؤنّث ؛ يقال: ما جاءني أحد ؛ أي ذكر ولا أنثى، وأمّا الواحد فإنّه وضع لمفتتح العدد ، تقول: جاءني واحد من النّاس ، ولا تقول فيه: جاءني أحد من النّاس.

الثاني: أنّ الواحد يفيد الانفراد بالذات؛ لأنّه بني على انقطاع النّظير والمثل ، والأحد يفيد الانفراد بالمعاني ؛ لأنّه بني على الانفراد والوحدة عن الأصحاب..

وكان القهّار واحدًا.

ولهذا، فإن الَّذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الَّذي لا نظير له، وهو الَّذي يستحقّ أن يعبد وحده كما كان قاهرًا وحده، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: 65) ؛ فأبطل الشّرك، وقرّر ألوهيَّته بوحدته، وقهره لكلّ شيء.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **المتكبّر** ؛ أي العظيم، المتعالي عن صفات الخلق، والتاء في اسم المتكبّر تاء المتفرّد، والمتخصّص، لا تاء المتعاطي والمتكلّف[1]..

ومن أسمائه الدالة على ذلك **اللّطيف** ؛ فقد فسّر بالَّذي لطف عن أن يدرك بالكيفيّة، وهذا التّفسير يتضمّن التّنزيه عن وجود المثل ؛ لأنّ إدراك الكيفيّة إنّما يكون بمعرفة الذات، أو بمعرفة النّظير المماثل ؛ فإذا تعذّر إدراك الكيفيّة على الخلق جميعًا كان ذلك دليلاً على انتفاء معرفتهم بحقيقة الذات، وعلى عدم النّظير المماثل الَّذي تعتبر ذات الخالق بذاته.

بالإضافة إلى هذا فإن جميع أسماء التنزيه المطلق تدل على هذا؛ كالقدّوس، والسّلام، والسبوّح ؛ فإنها تدلّ على سلامة الربّ، وطهارته، ومباعدته عن كلّ عيب، أو نقص، وعن أن يكون له كفء في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله.

ومثل ذلك جميع أسماء التّمجيد، الَّتي تدلّ على جميع صفات الكمال ؛ كالصّمد، والمجيد، والعظيم، والواسع، والأعلى ؛ فإنّ هذه الأسماء تنافي جميع النّقائص ؛ لأنّ ثبوت الكمال يستلزم نفي ضدّه، وما يستلزم ضدّه؛ وتنافي أيضًا وجود المثل والكفء ؛ لأنّ اتّصاف الربّ بأعلى صفات الكمال يستحيل معه وجود المثل ؛ لأنهما إن تماثلا ارتفع الكمال عنهما معًا، وإن لم يتماثلا فالكمال الأعلى لأحدهما وحده.

قال بعض الحاضرين: عرفنا الدليل، ولكنا لم نعرف المدلول..

---

1) ويحتمل أن يفسّر بما يعمّ النّقائص والعيوب؛ أي المتعالي عن مماثلة الخلق في ذواتهم وصفاتهم ، وعن جميع النّقائص والعيوب؛ فيكون من أسماء التّمجيد المستوعبة لجميع معاني التّقديس ، ويدخل بالتالي ضمن أسماء التّنزيه المطلق ؛ كالصّمد ، والمجيد ، والعليّ.

فما المراد بتنزيه الله عن الشبه؟

قال ابن طاووس: المراد به أمران:

أما الأول.. فهو تمثيل المخلوق بالخالق.. وهو إما أن يكون كليا بوصف المخلوق بجميع صفات الخالق.. واعتباره بذلك ربا كما فعل المشركون.. وقد يكون جزئيًّا؛ وذلك بوصف المخلوق ببعض خصائص الخالق؛ كوصفه بالقدرة التامّة، والعلم المحيط، والإرادة النّافذة، والغنى المطلق..

وأما الثاني.. فالزعم أنّ الله على صورة الإنسان – مثلا - أو الزعم بأن في الله بعض صفات الإنسان.

قام بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا.. والقرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه في صفات كثيرة، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً..

فقد قال تعالى عن نفسه:﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾، وقال في حق الإنسان:﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (الإنسان: 2).. وقال في حقه:﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ (هود: 37)، وقال في حق المخلوقين:﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ (المائدة: 83)

وقد سمى نفسه عزيزاً فقال:﴿ العزيز الجبار ﴾(الحشر: 23)، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله:﴿ ياأَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (يوسف: 78)، وقال:﴿ ياأيها العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ (يوسف: 88)

وسمى نفسه بالملك، وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال:﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ (يوسف: 50)

وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال:﴿ رَبُّ العرش العظيم ﴾ (التوبة: 129)

وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال:﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: 35)

ابتسم ابن طاووس، وقال: ألست ابن خزيمة(1)؟

قال ابن خزيمة: بلى.. كيف عرفتني؟

قال ابن طاووس: لا تنشغل بذلك.. وأخبرني.. ألست أنت الذي تقول في الكتاب الذي سميته (التوحيد): (نحن نثبت لله وجهاً ونقول: إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء، ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، ووجه ربنا منفي عنه الهلاك والفناء، ونقول إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك والفناء، ونفى عنها الجلال والإكرام، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء، ولو كان مجرد إثبات الوجه لله يقتضي التشبيه لكان من قال إن لبني آدم وجوهاً وللخنازير والقردة والكلاب وجوهاً، لكان قد شبّه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب.. ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له: وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء، فعلمنا أنه لا يلزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه)

قال ابن خزيمة: بلى.. قد ذكرت هذا الكلام.. وما أوردته من النصوص دليل عليه.. فهل لك اعتراض على ما أقول؟

قال ابن طاووس: اسمح لي أن أذكر لك بأن السر في مذهبك هذا هو أنك لم تعرف جيدا حقيقة المثلين.. ولو أنك عرفتها لما وقعت فيما وقعت فيه.

قال ابن خزيمة: يشرفني أن تعلمني علمها..

قال ابن طاووس: المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته.. ولتفهم هذا تحتاج أن تعرف بأن المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية.

وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات

1) أشير به إلى أبي بكر بن خزيمة (223 - 311هـ) السُلمي، النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف، أحد أبرز علماء الحديث.من مؤلفاته: التوحيد وإثبات صفة الرب؛ ولا يخفى سر اختيارنا له هنا.

القائمة به.. وذلك معلـوم بالبديهـة، فإنـا نـرى الحبـة من الحصـرم كانت في غاية الخضـرة والحموضـة، ثم صـارت في غايـة السـواد والحلاوة.. فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقيـة مغـايرة للصفات المختلفة.. وهكذا نرى الشعر قد كان في غاية السواد، ثم صار في غاية البياض.. فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غـير المتبدل، فظهر بهذا أن الذوات مغايرة للصفات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بكل ما ذكرته من هذا.

قال ابن طاووس: ما دمت قد سلمت بهـذا، فـاعلم أن اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات أبدا، لأنا نرى الجسم الواحد كـان ساكناً ثم يصير متحركـاً، ثم يسـكن بعـد ذلـك، فالـذوات باقيـة في الأحـوال كلهـا على نهج واحـد ونسـق واحـد، والصـفات متعاقبـة متزايلـة.. فثبت بهـذا أن اختلاف الصـفات والأعـراض لا يـوجب اختلاف الذوات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بهذا أيضا.

قال ابن طـاووس: إذا سـلمت بهـذا فـاعلم أن الأجسـام الـتي تألف منها وجه الكلب والقـرد مسـاوية للأجسـام الـتي تـألف منهـا وجه الإنسـان والفـرس.. وإنمـا حصـل الاختلاف بسـبب الأعـراض القائمـة، وهي الألـوان والأشـكال والخشـونة والملاسـة وحصـول الشعور فيه وعدم حصوله.

فالاختلاف إنما وقـع بسـبب الاختلاف في الصـفات والأعـراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة.. إلا أن العوام لا يعرفـون الفـرق بين الـذوات وبين الصـفات، فلا جـرم يقولـون إن وجـه الإنسـان مخالف لوجـه الحمـار، وقـد صـدقوا، فإنـه حصـلت تلـك المخالفـة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنهـا أجسام فهي متماثلة متساوية.

قال ابن خزيمة: أنت ترد بهذا على ما ذكرت من الوجوه.

قال ابن طاووس: أجل.. فالكلام الذي أوردته إنمـا تخـاطب بـه العوام.. وهم لا يعرفون أن المعتـبر في التماثـل والاختلاف حقـائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بهذا.. إن هذا يوقعك في القول بأن الأجسام كلها متماثلة.. فإن كنت تقول بذلك، فما دليلك عليه؟

قال ابن طاووس: ها هنا مقامان..

أما المقام الأول، فأن نعتبر هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أو لا تكون مسلمة.. فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود.. وإن كانت ممنوعة، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي.. ويكون ذلك الجسم مخالفاً لماهية سائر الأجسام، فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة.. ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه؟

قال ابن خزيمة: فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة؟

قال ابن طاووس: يقال لهم حينذاك: إن هذا من باب الحماقة المفرطة، لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فما المقام الثاني؟

قال ابن طاووس: المقام الثاني هو أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة[1].. وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل.

أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق.

وأما النقل فقوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء ﴾

قال بعض الحاضرين: لدي إشكال في الآية أود أن تجيب عنه.

---

1) والعلم الحديث أثبت ذلك الآن.. فمع تعدد أفراد العالم المادي في هذه النشأة إلا أنه مركب جميعا من مركبات واحدة محصورة.

قال ابن طاووس: أنت ترى أن مقصود الآية هو نفي المثل عن الله تعالى بينما ظاهرها لا يوحي بذلك.. إذ أنه يوجب إثبات المثل لله تعالى؟

قال الرجل: أجل.. لقد نطقت بما كنت أريد أن أنطق به.. ألا ترى ذلك صحيحا؟

قال ابن طاووس: لقد أجاب العلماء على ذلك، فذكروا بأن العرب الذين نزل بلسانهم القرآن الكريم يقولون مثل هذا في حديثهم.. فهم يقولون مثلا: مثلك لا يبخل، أي أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه.. ويقول الرجل منهم: هذا الكلام لا يقال لمثلي.. وهو يريد بذلك (لا يقال لي).. وقد قال الشاعر في هذا: (ومثلي كمثل جذوع النخيل)

وهم في ذلك ينحون منحى المبالغة.. فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى.

قام بعض الحاضرين، وقال: فهل تروي لنا شيئا مما ذكره أئمة الهدى من سلف هذه الأمة وصالحيها في تنزه الله عن الشبيه لتؤيد به ما تقول؟

قال ابن طاووس: أجل.. أروي في ذلك الكثير..

فقد سأل بعضهم الصادق فقال له: أخبرني أي الأعمال أفضل؟ قال: توحيدك لربّك.. قال: فما أعظم الذنوب؟ قال: تشبيهك لخالقك.

وحدث يونس بن ظبيان قال: دخلت على الصادق فقلت: يا ابن رسول الله! إنّي دخلت على بعضهم فسمعتهم يقولون: إنّ لله وجهاً كالوجوه، وبعضهم يقول: له يدان! واحتجّوا لذلك بقول الله تبارك وتعالى:﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)﴾ (ص)، وبعضهم يقول: هو كالشاب من أبناء ثلاثين سنة.. فما عندك في هذا يابن رسول الله؟ قال: ــ وكان متّكئاً فاستوى جالساً ــ وقال: اللهمّ عفوك عفوك.. ثمّ قال: يايونس من زعم أنّ لله وجهاً كالوجوه فقد

أشرك، ومن زعم أنّ لله جوارح كجوارح المخلوقين فهو كافر بالله فلا تقبلوا شهادته ولا تأكلوا ذبيحته، تعالى الله عمّا يصفه المشبهون بصفة المخلوقين.. فقوله:﴿.. خَلَقْتُ بِيَدَيَّ..(75)﴾ (ص) فاليد القدرة، كقوله ﴿.. وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ.. (26)ـ ﴾ (الأنفال)، فمن زعم أنّ الله في شيء، أو على شيء، أو تحوّل من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء، أو يشغل به شيء، فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كلّ شيء، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربّنا لا إله غيره، فمن أراد الله بهذه الصفة فهو من الموحّدين، ومن أحبّه بغير هذه الصفة فالله منه بريء، ونحن منه براء)

وروي أنه قال لهشام: (إنّ الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه)

وعنه أنه قال: (إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا إنتقال ولا سكون ; بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والإنتقال، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً)

وقال الباقر لجابر: ياجابر.. ما أعظم فرية أهل الشام على الله عزّوجلّ، يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صخرة بيت المقدّس، ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على حجر فأمر الله تبارك وتعالى أن نتّخذه مصلّى.

ثم قال له: (ياجابر! إنّ الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهّمين، واحتجب عن أعين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم)

الحاجة:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثاني.

قال: الثاني مما ينزه الله عنه هو الحاجة.. فالله تعالى منزّه عن كل الحاجات التي تفتقر إليها الحوادث..

فهو منزه عن الأكل والشّرب، والسِّنة والنّوم، والصّاحبة والولد، والشّريك، والظّهير، ونظائرها من لـوازم الحـدوث والاحتيـاج، قـال تعالى:﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يَطْعَمُ ﴾ (الأنعام: 14)، وقال:﴿ اللَّهُ الصَّـمَدُ ﴾ (الإخلاص: 2) ، وقـال:﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: 255)، وقال:﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَـذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴾ (الجنّ: 3)، وقال:﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنَ الـذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: 111)، وقال:﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُـونَ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَـا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: 22)

وقد نطقت جميع أسماء الله الحسنى بالدلالة على هـذا.. فمن أسماء الله تعالى: الأوّل، والآخر، والحيّ، والقيوّم، والواجد، والغني، والملك، والقهّار.. وغيرها.. وكل هـذه الأسـماء تبطـل الاحتيـاج من أصله ؛ لأنّها تدلّ على وحدانيّة الربّ، وأزليّته، وأبديّته، وكمال حياته، وقيامه بنفسه ؛ فلا يفتقـر لغـيره، لا في وجـوده، ولا في بقائـه، ولا في صفاته، وأفعاله، وتدلّ على إقامته لغيره، وعلى عمـوم قهـره، وكمال غناه وملكه، فلا يحتاج ما يحتاجه المخلوق الفقـير المحـدث من الأكل والشّرب، والسِّنة، والنّوم، والصّاحبة، والولـد، والشّـركاء والأعوان.

الجهل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.

قال: الثالث مما ينزه الله عنه هو الجهل.. فالله تعالى وسِع كلّ شيء علمًا، وأحصى كلّ شيء عددًا، فما من شيء قـلّ أو جـلّ إلاّ أحاط به علمه، وجرى به قلمه، فلا يعزب عن ربّك من مثقـال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، قال تعالى: ﴿ وَمَـــا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَـــيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـــمَاءِ ﴾ (إبراهيم: 38)، وقال:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود: 123) ؛ والغافل الّذي لا يفطن للأمـور ؛ إهمـالاً منـه، مـأخوذ من الأرض الغفل، وهي الّتي لا عَلَم بها، ولا أثر عمارة، وقال:﴿لا يَضِـلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ (طه: 52) ؛ أي لا يغيب عنه شيء، ولا يغيب عن شــيء، أو لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيء.

وقد نطقت أسماء حسنى كثيرة بالدلالة على كمال علم الله، وكمال إحاطته بكلّ شيء ؛ أزلاً وأبدًا، غيبًا وشهادة، وعلى تقديسه عن الجهل بجميع صوره ومظاهره ؛ لأنّ إثبات الشّيء نفي لضدّه ولما يستلزم ضدّه عقلاً وسمعًا.

فمن ذلك الأسماء الدالة على شمول العلم، وانتفاء جميع صور الجهل ؛ كالعليم، والخبير، والمحيط، والواسع ؛ أي الّذي وسع علمه كلّ شيء، وأحاط بما في العالم العلويّ والسّفليّ، فلا يغيب عن علمه شيء.

ومن أسمائه ما يدلّ على كمال أسباب العلم ؛ كالسّميع والبصير، والقريب، والرّقيب، والشّهيد، والمهيمن ؛ وهو بمعنى الشّهيد ؛ أي الحاضر مع عباده، يسمع أقوالهم، ويبصر أفعالهم، فلا يغيب عنه من أمرهم شيء يقولونه، أو يفعلونه، قال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: 61)

العجز:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابع.

قال: الرابع مما ينزه الله عنه هو العجز.. فالله تعالى على كلّ شيء قدير، كما أنّه بكلّ شيء عليم ؛ فلا يسبقه شيء، ولا يعجزه ما يريد، قال تعالى:﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ (الواقعة: 60) ؛ أي وما نحن بعاجزين.

وقال:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر: 44)؛ فنزّه تعالى نفسه عن العجز، وذيّل الآية بما يتضمّن علّة التّنزيه عنه من أسمائه، وهما العليم والقدير ؛ لأنّ العجز سببه إمّا الجهل بأسباب الإيجاد، أو قصور الإرادة عن فعل المراد.

وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (ق: 38)

وقال:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف: 33)

وقد نطقت بالدلالة على تنزيه الله عن العجز وأسبابه أسماء كثيرة..

منها ما يدلّ على انتفائه ؛ لشمول علمه، وكمال أسبابه، وآثاره ؛ كالخبير، والسّميع، والحسيب.

ومنها ما يدلّ على انتفائه ؛ لكمال قوّته، وشمول قدرته ؛ كالقويّ، والعليّ، والوكيل.

ومن هذا الصنف ما يدلّ على انتفاء العجز وكمال القدرة بدلالة المطابقة ؛ كالقادر، والقدير، والمقتدر، والمقيت - أي المقتدر بحسب بعض معانيه- وكالقويّ، والمتين، أي تامّ القدرة ؛ فلا يشقّ عليه فعل، ولا يلحقه عجز، أو فتور، أو وهن.

الجسمية:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.

قال: الخامس مما ينزه الله عنه هو الجسمية..

نهض بعض تلاميذه، وقال: كيف تقول ذلك يا شيخنا، وقد رأيت في بعض بلاد المسلمين من يعتبر الجسمية من لوازم الذات.. فلا يتصور ذاتا من غير جسم.. حتى أن بعضهم يذكر جواز لمس اللّه، ومصافحته ومعانقته.. بل إن بعضهم قال: (معبودي جسم، وله جوارح وأعضاء، من يد ورجل، ورأس، ولسان، وعينين، وأذنين، ومع ذلك فهو جسم لا كالاجسام.. وليس كمثله شيء)

ابتسم ابن طاووس، وقال: أولئك قوم يدعون بالمجسمة.. وهم قوم دعاهم إلى ذلك أمران:

أما أحدهما، فهو أنسهم المفرط بعالم المادة والمحسوسات.. وهو أنس مصحوب بالسذاجة والجهل الذي لا يسمح لهم بتقبل شي غير المادة.. وهو أنس يؤدي الى مقايسة اللّه عز وجل

بالإنسان وصفاته.

وأمـا ثانيهمـا، فمـا ورد في النصـوص المقدسـة من التعـابير الكنائيـة والمجازيـة حيث لم يسـتطيعوا أن يرتقـوا ليفهموهـا على ضوء لغة العرب وأساليبها في البيان.

قال التلميذ: دعنا منهم.. وحدثنا عن الأدلـة الـتي تلزمنـا بتنزيـه الله عن الجسمية.

قال ابن طاووس: **سأذكر لك أربعـة بـراهين على هـذا**.. قد تكون كافية لإقناعك.

قال الرجل: فهات **أولها**.

قال ابن طاووس: الأول هو أن الجسم يقتضـي الـتركيب ذلـك أنه مكون من أبعاد ثلاثة، من العرض والطـول والعمـق، والمـركب مفتقر في وجوده الى وجود أبعاضه، وما كـان مفتقـرا في وجـوده فليس واجب الوجود.

قال الرجل: إن ما قام عليه هذا البرهان يحتاج إلى المزيـد من التوضيح والاستدلال.. فكيف يتنافى التركيب مع وجوب الوجود؟

قال ابن طاووس: للـتركيب ثلاثـة أنـواع كلهـا منتفيـة عن اللـه تعالى.. أولها: التركب من الأجزاء الخارجية.. والثـاني: الـتركب من الأجزاء العقلية.. والثالث: التركب من الوجود والماهية.

قـال الرجـل: فمـا برهـان اسـتحالة تـركب واجب الوجـود من الأجزاء الخارجية؟

قال ابن طاووس: لذلك براهين كثيرة:

منها أن لوجود الجزء تقدما بالطبع على وجود الكـل بالبداهـة، فيكون مفتقرا إليه، وهو ينافي كونه واجب الوجود.

ومنها أن الكل المركب من جزئين خارجيين ذو جانبين، وجانبـه هذا غير جانبه ذاك، فهو بجانبه هذا غائب ومنعدم عن جانبه الآخـر، وبجانبه الآخر منعدم وغائب عن هذا الجانب.. وواجب الوجود شديد الوجود في الغاية لا طريق للنقص والقصور إليه.

ومنها أن وجـود الكـل في الخـارج هـو بعينـه وجـود الأجـزاء، فلوفرض للواجب أجزاء خارجية:

فإمـا أن يكـون وجـود كـل واحـد من الأجـزاء بنفسـه بالفعـل، فيكون وجود الكل ووحدته اعتباريا، فليس الكل واجب الوجود.

وإما أن يكون وجود الكل بالفعل، فيكون وجود كل واحـد منهـا بنفسه بالقوة، وهو ينافي وجوب الوجـود، فليسـت الأجـزاء واجبـة الوجود، فيلزم تركب الواجب من الأجزاء غير واجبة الوجود.

قـال الرجـل: وعيت هـذا، فمـا برهـان اسـتحالة تـركب واجب الوجود من الوجود والماهية؟

قال ابن طاووس: واجب الوجود جلت عظمتـه ليس لـه ماهيـة غير وجوده..

قال الرجل: إن ما تقوله خطير..

قـال ابن طـاووس: اصـبر علي حـتى أوضـح لـك مـرادي.. إن مرادي من قولي ذلك هو أن كل موجود ممكن الوجود يـتركب من الماهيــة والوجــود، وبعبــارة أخــرى: كــل ممكن زوج تركيــبي من الوجود والماهية.. وأما واجب الوجود فماهيته عين وجوده، وبعبـارة أخرى: ماهيته إنيته، وليس له ماهية سوى وجوده.

قال الرجل: فما برهان هذا؟

قال ابن طاووس: لهذا براهين كثيرة..

منها أن الماهيـة لا تقتضـي الوجـود بـذاتها.. بـل وجودهـا في الخارج يفتقر إلى علة توجدها.. ومن البديهي أن وجـود العلـة غـير وجـود المعلـول، ويتقـدم عليـه.. ومن هـذا يعلم أن واجب الوجـود وجود محض، وليس له ماهية غيره، وإن كان له ماهية كان اتصافها بالوجود مفتقرا إلى علة، وكان وجود العلـة غـير وجـوده لا محالـة، فكان ممكن الوجود، وهذا خلف.

ومنها أنه لـو كـان لـواجب الوجـود ماهيـة غـير وجـوده لحكم العقل عند تصـورها بكونهـا في نفسـها ممكـنى الوجـود.. لأن تلـك

الماهية لا تخلو من أنها: إما ممتنعـة الوجـود، أو واجبـة الوجـود، أو ممكنة الوجود.. فإن كانت ممتنعة الوجود لكان منافيا لكونها واجب الوجود لا محالة.

وان كانت واجبة الوجود يلزمها:

أولا: أن تكون ماهيته مقتضية لوجودها، فيكون وجـوده معلـولا، فلا يكون وجوده بنفسه واجبا، بل ممكنا.

وثانيا: أن الماهية لأجل كليتهـا في اللحـاظ لا تـأبى عن حـدوث مصـاديق أخـرى لهـا وان كـانت بالفعـل ذات مصـاديق عديـدة، والحدوث ينافي وجوب الوجود.

وان كانت ماهيته ممكن الوجود في نفسـها، فلا يكـون بحسـب ماهيته واجب الوجود، وهذا خلف.

فيثبت بعـد هـذه المقـدمات: أن واجب الوجـود لا ماهيـة لـه، وبعبارة أخرى: ماهيتـه عين وجـوده، ولا يقبـل التحليـل إلى ماهيـة ووجود أصلا.

وينتج ذلك أن واجب الوجود - الذي منه وجود جميع الموجودات - هـو منبـع الوجـود والوجـود البحت، وصـرف الوجـود والوجـود المطلق.

ونعني بالوجود المطلق: هو الوجود بشـرط لا، أي لا حـد لـه، لا المطلق لا بشرط، بمعنى عدم تقيده بحد، فإنه لا ينافي اي حد من الحدود.

والوجـود المطلـق لا بشـرط هـو الوجـود الصـادر منـه جلت عظمته، فبأي ماهية تعلق يكون محدودا بحدها، وليسـت الماهيـات إلا حدود الوجود.

ومنها أنه لو كان لواجب الوجود ماهيـة لا يخلـو أن تكـون إمـا عرضا أو جوهرا، فإن الجوهر هو ماهيـة إذا وجـد وجـد في نفسـه، والعرض ماهية إذا وجد وجد في غيره.

والجوهر جنس عـال يفتقـر تحققـه في الخـارج إلى تعينـه في

ضمن نوع من أنواعه، ويفتقر إلى فصل هو المعين لذلك النوع.

فلو كـان لـواجب الوجـود ماهيـة لافتقـرت إلى جـزئين: مـا بـه الاشتراك، وما به الامتياز، والافتقار ينافي وجوب الوجود.

مضافا إلى أن الجوهر ممكن الوجود، ولـذلك يوجـد في ضـمن الوجودات الممكنة.

التفت ابن طاووس للرجل، وقال: لقد ذكر سـلفنا الصـالح من العلماء والأولياء هذا المعنى، فقد قال علي وهـو يـذكر اللـه:(ومن حده فقد عده).. وقال السجاد: (إن اللّه لا يوصف بمحدودية، عظم ربنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية؟)

قال الرجل: عرفت البرهان الأول.. فهات **البرهان الثاني**.

قال ابن طـاووس: البرهـان الثـاني هـو تنـاهي الجسـم وكونـه محفوفا بالإعدام من الجوانب الستة.. والواجب يمتنع تطرق العدم إليه بوجه من الوجوه.

قال الرجل: فما البرهان على ذلك؟

قال ابن طاووس: إن البراهين على هذا كثيرة:

منها: أنه لو كان الجسم غير متناهي الأبعاد، نفرض فيه نقطـة خـرج منهـا خطـان حصـل منهمـا زاويـة، وامتـد الخطـان بامتـداد الجسم، فلو كان الجسم غير متناه امتد الخطـان إلى غـير النهايـة، ولما كان مقدار الانفـراج بين خطي الزاويـة بنسـبة مقـدار امتـداد الخطين، استلزم كون الخطين غيرمتناهيين، فيكون الانفراج بينهما أيضا غير متناه، وذلك يناقض كونه محصورا بين الخطين.

ومنها: أنه إذا فرض خط ممتد إلى غير النهاية، ونفرض هنـاك كرة في جانب الخط غير المتناهي تدور حول محور الخط المتصل بين قطبيها اللذين أحدهما فوق الخط غـير المتنـاهي والآخـر تحتـه وقبل شروعها في الدوران نفرض خطـا خارجـا من الكـرة عمـودا على خط المحور موازايا للخط غير المتناهي، يمتـد معـه إلى غـير نهاية، فإذا دارت الكرة إلى جهة الخط غير المتناهي يتقاطع الخـط الخارج من الكرة مع الخط غير المتناهي نقطة فنقطة.

فـأول نقطـة تقـاطع الخطين هي نقطـة من الخطين لا نقطـة للخطين في امتدادهما بعد تلك النقطة، وإلا لكان التقاطع فيها قبل التقاطع في تلك النقطة.

فثبت أن أول نقطة التقاطع آخر نقطة من الخطين، فالخطـان متناهيان لا محالة، وقد فرض كونهما غير متناهيين، وهذا خلف.

ومنها: برهـان التطـبيق، وهـو أنـه لـو فرضـنا سـتة خطـوط خرجت من نقطـة من داخـل الجسـم إلى الجهـات السـت ممتـدة بامتـداد الجسـم، ثم قطعنـامن كـل خـط قطعـة من جـانب تلـك النقطة.

فلو فرضنا تطبيق محل القطع من الخط على النقطة المبتـدئ منها أصل الخط قبل القطع، فإما أن يمتد إلى غير النهايـة، فيكـون الزائد مثل الناقص، وهو ممتنع، أو يقصر عنه بمقدار تلك القطعـة، فيكون متناهيا، وكذا أصل الخط لزيادته عليه بمقـدار تلـك القطعـة فقط لا اكثر، فثبت تناهي أبعاد كل جسم.

ويمكن تقرير البرهان بدون فرض التطبيق بأنه: إن كـان بـاقي الخط بعد قطع قطعة مساويا لأصل الخط قبل القطع لزم مساواة الجزء للكل، وهـو محـال، وإن كـان أقـل منـه لـزم كونـه متناهيـا، وكذلك أصل الخط، لكونه أزيد منه بمقدار تلك القطعة فقط.

قال الرجل: عرفت البرهان الثاني.. فهات **البرهان الثالث**.

قال ابن طاووس: البرهان الثـالث هـو أن كـل جسـم حـادث.. ولذلك يستحيل أن يكون واجب الوجود جسما.

قال الرجل: فما الدليل على ذلك؟

قال ابن طاووس: لذلك أدلة كثيرة..

منها أن الجسم لا ينفك عن الحركة أو السـكون بالبداهـة، فـإن الجسم إما ساكن في مكان، أو متحرك من مكان إلى مكان آخر لا محالة.

ومعنى الحركة: هو الكون في الآن الاول في مكـان، وفي الآن

الثاني في مكان آخر.. ومعنى السكون هو الكون في الآن الآول في مكان والكون في الآن الثاني في ذلك المكان بعينه.

فكل جسم قد تشكل من كونين: الكون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر.

وهذا يؤدي إلى أن الكون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر، وجودان متمايزان، يمكن أن يوجد أحدهما ولا يوجد الآخر.

وذلك لأن لكل جسم له وجود خاص، وتشخص يتمايز به عن الأجسام الأخرى ويغايرها، وذلك التشخص هو الكون في زمان خاص في مكان خاص[1].

ولما كان منبع التشخص هو الوجود وكان تشخصه بذاته، كانت اللوازم والمشخصات كلها منبعثة من نفس وجود الجسم، فيكون تبدل الكون في زمان خاص في مكان خاص مستلزما لتبدل وجود ذلك الجسم.

وبما أن الكون هو الوجود، فتبدله هو تبدل الوجود، فالجسم لايزال يتبدل وجوده، وله في كل آن وجود غير وجوده في الآن السابق عليه، وغير وجوده في الآن اللاحق عليه.

فالحركة والتبدل إنما هو في وجوده لا في أمر خارج عن وجوده يكون له وجود آخر، فالحركة في ذاته وجوهره، فثبت أن كل جسم له حركة جوهرية.

وهذا كله يؤدي إلى أن حقيقة الحركة هي الوجود والعدم.. آنا فنا.

فكل جسم يوجد وينعدم آنا فآنا، وكل وجود له في آن مسبوق بعدمه وملحوق بعدمه.

نعم، لو لوحظ ماهية الجسم، فليست الحركة والسكون داخلة في ماهيته، بل هما خارجتان عن ماهية الجسم عارضتان عليها،

---

1) وهذا بعينه ما تنص عليه النظرية النسبية من اعتبار الزمان بعدا رابعا متمما لسائر الأبعاد.

وأما وجودالجسم وكونه ليس مغايرا لوجوده وكونه في الآن الأول، بداهة أنه ليس له وجودان في آن واحـد، أحـدهما وجـوده، والثـاني وجوده في ذلك الآن، بل ليس له إلا وجـود واحـد، فتبدلـه في الآن الثـاني هـو انعـدام وجـوده في الآن الأول ووجـود وجـود آخـر لـه.. وهكـذا في الآنـات المتواليـة إلى آخرهـا، وإن كـان لوجوداتـه في الآنات المتوالية صورة متصلة ويقال له جسـم واحـدباعتبارها، كمـا أن الصورة الاتصالية للحركة تقتضي إطلاق حركة واحدة عليها من أولها الى آخرها.

وهذا كله يؤدي إلى أن الجسم لا يزال حادثا يتجـدد حدوثـه في كل آن، والحادث في كل آن غير الحادث في الآن المتقدم عليه.

وبهذا كله يثبت استحالة كـون الجسـم واجب الوجـود، فـواجب الوجود تعالى ليس بجسم بالضرورة، لأنه يمتنع عليه العـدم، ومنـه وجود جميع الموجودات، وهو مكون جميع الكائنات.

قال الرجل: عرفت البرهان الثالث.. فهات **البرهان الرابع**.

قال ابن طـاووس: البرهـان **الرابع** هـو مـا ورد في النصـوص المقدسـة الكثـيرة من نفي كـل مسـتلزمات الجسـمية عن اللـه.. والـتي سـنعرف بعضـها عنـد الحـديث عن تنزيـه اللـه عن المحـل الزماني والمكاني.

قال الرجل: فما تقول فيمن وقع في التجسـيم.. هـل تكفـره.. أم تراك تكتفي بتبديعه؟

قال ابن طاووس: لا هذا، ولا ذاك.

قـال الرجـل: كيـف ذلـك، وأحسـنهم حـالا من يقـول بتبـديعك، وتبديع من يقول بقولك؟

قال ابن طاووس: أنا لا أجرؤ على تكفير مسلم أو تبديعه لـرأي رآه، أو اعتقاد اعتقده أداه إليه اجتهاده.. هكذا علمنـا نبينـا.. وهكـذا علمنا ورثته من بعده.

الزمان:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السادس.. حدثنا عن تنزه الله عن الزمان..

قال: يكفيكم في تنزيه الله عن الزمان معرفتكم باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الأَوَّلُ) و(الآخِرُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال: كل حادث مخلوق مرتبط بالزمن.. والله وحده هو الذي لا يجري عليه الزمان.. فهو أقدس من أن يؤثر فيه الزمان، أو يتأثر بالزمان، لأنه هو خالق الزمان(1):

فهو الموجود قبل كل موجود، لأنه هو الخالق لكل موجود، قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)﴾ (الأنعام)، وقال:﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)﴾ (الزّمر)

وهو الباقي بعد كل موجود.. فالذّوات كلّها فانية وزائلة إلاّ ذاته المقدّسة، فإنها منزّهة عن هلاك المحدثات وزوالها، قال تعالى:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾ (القصص: 88)، وقال:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (27)﴾ (الرّحمن)، وقال:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: 58)

وهذا ما تنطق به أسماء الله الحسنى.. كالحيّ، والقيّوم، والآخر، والباقي، والوارث وغيرها..

---

1) ذكر الفخر الرازي البرهان على هذا في تفسير معنى (الأول)، فقال: (وأما التقدم الزماني فباطل ، لأن الزمان أيضاً ممكن ومحدث ، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد ، وأما ثانياً فلأن أمارة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة ، وكل ما وجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث ، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكناً ومحدثاً والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث ، فإذن الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث ، فتقدم موجده عليه لا يكون بالزمان ، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان ، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلاً في مجموع الأزمنة لأنه زمان ، وأن يكون خارجاً عنها لأنه ظرفها ، والظرف مغاير للمظروف لا محال ، لكن كون الشيء الواحد داخلاً في شيء وخارجاً عنه محال ، وأما ثالثاً فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد ، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير ، فالجمع بينهما محال ، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة)

والعلم الحديث يؤكد هذا، فهو يذهب إلى أن الزمان كالمكان كلاهما حادث.

المكان:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تـنزه اللـه عن المكان..

قـال: يكفيكم في تنزيـه اللـه عن المكـان معـرفتكم باسـمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الظَّاهِرُ) و(البَاطِنُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال[1]: أعظم المخلوقات جلالة ومهابة المكان والزمـان.. أمـا المكان فهو الفضاء الذي لا نهاية له، والخلاء الذي لا غاية لـه، وأمـا الزمان فهو الامتداد المتوهم الخارج من قعـر ظلمـات عـالم الأزل إلى ظلمات عالم الأبد، كأنه نهر خـرج من قعـر جبـل الأزل وامتـد حـتى دخـل في قعـر جبـل الأبـد فلا يعـرف لانفجـاره مبـدأ، ولا لاستقراره منزل.

فالأول والآخر صفة الزمان.. والظاهر والباطن صـفة المكـان.. والحق سبحانه وسـع المكـان ظـاهراً وباطنـاً.. ووسـع الزمـان أولاً وآخراً.. وإذا كان مدبر المكان والزمان هو الحق تعالى كـان منزهـاً عن المكان والزمان.

قالوا: زدنا إيضاحا.

قال: اقرأوا هـذه الآيـات بعين البصـيرة لتعلمـوا أن اللـه خـالق المكان أعظم من أن ينسب إلى مكان.

قال ذلك، ثم راح يرتل بخشوع هـذه الآيـات..:﴿ هُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْـرُجُ فِيهَـا وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد:4).. ﴿ مَا يَكُـونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة:7).. ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:40).. ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه:46).. ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

---
1) هذا الكلام المهم للفخر الرازي في التفسير الكبير.

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل:128).. ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال:46).. ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:249).. ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)﴾ (البقرة)

قال بعض الحاضرين: فما البرهان العقلي على تنزيه الله عن المكان؟

قال ابن طاووس[1]: لقد ثبت في العلوم العقلية بأدلة كثيرة – لس هذا موضع ذكرها - أن المكان إما السطح الباطن من الجسم الحاوي، وإما البعد المجرد والفضاء الممتد، وليس يعقل في المكان قسم ثالث.

بناء على هذا، فقد ثبت أن أجسام العالم متناهية، فخارج العالم الجسماني لا خلاء ولا ملاء، ولا مكان ولا جهة، فيمتنع أن يحصل الإله في مكان خارج العالم.

وإن كان المكان هو الثاني، فإن طبيعة البعد طبيعة واحدة متشابهة في تمام الماهية، فلو حصل الإله في حيز لكان ممكن الحصول في سائر الأحياز.. وحينئذ يصح عليه الحركة والسكون.. وكل ما كان كذلك كان محدثاً بالدلائل المشهورة المذكورة في علم الأصول.. وهي مقبولة عند جمهور المتكلمين.. فيلزم كون الإله محدثاً، وهو محال.

فثبت بهذا أن القول بأنه تعالى حاصل في الحيز والجهة قول باطل على كل الاعتبارات.

قال بعض الحاضرين: فما تقول في قوله تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)﴾ (طه)؟

قال ابن طاووس: أقول فيها ما قالت العرب، فالقرآن نزل:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾ (الشعراء)

قال الرجل: فما قالت العرب؟

---

1) هذه البراهين ذكرها الرازي في تفسيره.

قال ابن طاووس: لقد قال شاعرهم:

اذا ما بنو مروان ثلت عروشهم وأودت كما أودت إياد وحمير.

يريد: إذ ما بنو مروان هلك ملكهم وبادوا.

وقال آخر:

أظننت عرشك لا يزول ولا يغير

يعني: أظننت ملكك لا يزول ولا يغير.

فعرش اللّه تعالى هو ملكه.. واستواؤه على العرش هو استيلائه على الملك.. والعرب تصف الاستيلاء بالاستواء، كما قال شاعرهم:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

يريد به: قد استولى على العراق.

لقد قال شيخنا الطبرسي في تفسيره لذلك:(يعني استقر ملكه واستقام، وإنما أخرج هذا على المتعارف من كلام العرب، كقولهم: استوى الملك على عرشه: اذا انتظمت أمور مملكته، وإذا اختل أمر ملكه قالوا: ثل عرشه، ولعل ذلك الملك لا يكون له سرير، ولا يجلس على سرير أبدا)(1)

قال الرجل: فلم لا تقول بظاهر النص كما يقول به بعض أهل هذه الحلقات التي تحيط بنا؟

قال ابن طاووس: لأن ذلك يؤدي إلى محالات كثيرة.. أشار إليها العقل والنقل..

قال الرجل: أنا لا أريد إلا النقل.. فالعقل معقول دون معرفة

1) مجمع البيان.

حقيقة ربه.

قال ابن طاووس: لقد قال تعالى:﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ (الحاقة: 17) فلو كان إله العالم في العرش، لكان حامل العرش حاملاً للإله، فوجب أن يكون الإله محمولاً حاملاً، ومحفوظاً حافظاً، وذلك لا يقوله عاقل.

وقال تعالى:﴿ والله الغنى ﴾ (محمد: 38) فحكم بكونه غنياً على الإطلاق، وذلك يوجب كونه تعالى غنياً عن المكان والجهة.

وعندما طلب فرعون حقيقة الإله من موسى ﷺ لم يزد موسى ﷺ على ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرات، فإنه لما قال:﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ (الشعراء: 23) ففي المرة الأولى قال:﴿ رَبِّ السموات والأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ (الدخان: 7)، وفي الثانية قال ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَاۤئِكُمُ الأولين ﴾ (الشعراء: 26)، وفي المرة الثالثة:﴿ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء: 28) وكل ذلك إشارة إلى الخلاقية.. وأما فرعون فإنه قال:﴿ ياهامان ابن لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب أسباب السموات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ (غافر: 36، 37)، فطلب الإله في السماء، فعلمنا أن وصف الإله بالخلاقية، وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى، وسائر جميع الأنبياء، وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون وإخوانه من الكفرة.

قال آخر: فما تقول في النصوص التي توهم المكان؟

قال ابن طاووس: أفهمها على ضوء النصوص التي لا توهم المكان.. فالمحكم يحمل على المتشابه.

قال الرجل: ألست تفر بذلك إلى التأويل؟

قال ابن طاووس: ما دامت العرب وجميع الأجناس تقصد في كلامها الظاهر والمؤول.. فلا حرج في أن ينزل القرآن بجميع ذلك.. ففيه الظاهر المحكم، وفيه المؤول المتشابه الذي اختص الراسخون في العلم بعلمه.

قال الرجل: ولكنهم يذكرون أن التأويل تعطيل.

ابتسم ابن طاووس، وقال: فقد رموا أنفسهم بالتعطيل إذن؟

قال الرجل: كيف تقول ذلك؟

قال ابن طاووس: فما يقولون في قوله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾ (المجادلة)

قال الرجل: يقولون: هو معهم بعلمه.

قال ابن طاووس: أرأيت إن قلت لك: كنت مع فلان البارحة.. فما تفهم منها؟

قال الرجل: أفهم منها أنك كنت عنده.

قال ابن طاووس: بذاتي أم بعلمي؟

قال الرجل: بذاتك.. هذا هو ظاهر اللفظ.

قال ابن طاووس: فهم قد تركوا ظاهر اللفظ إذن..

قال الرجل: ذلك صحيح.

قال ابن طاووس: وهذا هو التأويل.. ويستحيل عليهم أن لا يقعوا فيه..

قال الرجل: ولكنهم غلبوا بذلك نصوصا أخرى.

قال ابن طاووس: هم بين أمرين.. بين أن يغلبوا التنزيه الذي دلت عليه النصوص، ودل عليه معها العقل.. وبين أن يغلبوا نصوصا موهمة يوجهونها كما يشاءون، ويؤولون غيرها كما يشاءون.

قال الرجل: ولكنهم يروون عن بعض السلف أقوالا تؤيد أقوالهم.

قال ابن طاووس: أعظم السلف وأشرفهم آل بيت رسول الله ﷺ.. وكلهم يقول بما أقول..

قال الرجل: فهل تروي لنا من ذلك شيئا؟

قال ابن طاووس: لقد حدث إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا: يابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (إنّ الله تبارك وتعالى ينزل كلّ ليلة إلى السماء الدنيا)، فقال: لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله ﷺ كذلك، إنّما قال ﷺ: (إنّ الله تبارك وتعالى يُنزل ملكاً إلى السماء الدنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أوّل الليل فيأمره فينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ ياطالب الخير أقبل، ياطالب الشرّ أقصر ; فلا يزال ينادي بهذا إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محلّه من ملكوت السماء) حدّثني بذلك أبي، عن جدّي، عن آبائه، عن رسول الله ﷺ)[1]

وحدث ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك.. قلت: فلِمَ أسرى نبيّه محمّد ﷺ إلى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه.. قلت: فقول الله عزّوجلّ:﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)﴾ (النجم)، قال: ذاك رسول الله ﷺ دنا من حجب النور، فرأى ملكوت السماوات، ثمّ تدلّى ﷺ فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتّى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

وحدث يونس بن عبدالرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر: لأي علّة عرج الله بنبيّه ﷺ إلى السماء، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: (إنّ الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، لكنّه عزّوجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحان الله وتعالى عمّا يصفون)

***

1) انظر: بحار الأنوار: (ج3 ص314 ب14 ح7)

كان إلى جنب حلقة (ابن طاووس) حلقـة لفتت انتبـاهي، فقـد كان الأصوات ترتفع فيها بقـوة، وكأنهـا تريـد أن تـزاحم بهـا صـوت (ابن طاووس) وتلاميذه.

لسـت أدري كيـف تخلصـت من ذلـك اللجـام الـذي كـان يلجم لساني الحديث، فقلت لابن طاووس: من هـؤلاء؟.. ومن هـو زعيم حلقتهم؟.. ولم يرفعون أصواتهم هكذا؟

ابتسـم ابن طـاووس، وقـال: هـؤلاء إخـوان لنـا فيهم العلمـاء.. وفيهم طلبة العلم.. وقد اعتزلوا حلقتنا لخلافهم معنـا في بعض مـا ذهبنا إليه من العلم..

قلت: فمـا هي الآراء الـتي خـالفوكم فيهـا؟.. ومـا أدلتهم على ذلك؟

قال: لا يحسن أن يحـدث عن المـرء إلا لسـانه.. فـاذهب إليهم واسألهم.

قلت: ألا تعتبرني معتزليا[1] بذلك؟

قـال: لا.. كلنـا مسـلمون.. نحن وهم.. نحن اختلفنـا في بعض المسائل.. ولنا من الأدلة ما نـرى أنـه قطعي.. ونحن نسـتند إليـه.. ولهم كذلك من الأدلـة مـا يـرون قطعيـة.. ومن الحـرج العظيم أن نلزمهم بما نراه من آراء.

قلت: ألست تبدعهم؟

قال: أنا مبلغ عن الله.. وداعية إلى اللـه.. لا قـاض.. ولا ديـان.. الله تعالى هو القاضي، وهو الديان الذي يحكم بيننـا كمـا يحكم بين الخلائق جميعا فيما اختلفوا فيه.

قال ذلك، ثم أشار إلي أن أجلس إلى حلقتهم..

وقد فعلت.. ولكني لا أريـد أن أبث إليكم الآن مـا سـمعته فيهـا

---

1) لا نريد بالمعتزلي هنا الفرقة المعروفة.. إنما ذكرنا هذا هنـا من بـاب السـخرية من القضايا التي فرقت الأمة مع كونها لا تستحق كل ذلك العناء.

لأني لا أرى أنها تنسجم مع عقولكم(2)..

2 ـ قداسة الأفعال الإلهية

قلنا: لقد عرفنا المدى الذي وصل إليه المسلمون في تقديسهم لذات ربهم.. فحدثنا عن موقفهم من تقديس أفعاله.

قال: في سوق من أسواق قم.. رأيت رجلا يلتف الناس حوله، وقد سمعتهم يطلقون عليه لقب (مؤمن الطاق)(2)، فهرعت معهم إليه، لأسمع ما يقول.

وقد كان من حسن حظي أن سائلا سأل مؤمن الطاق عن الموضوع الذي كنت أبحث عنه، فقد قال له: يا مولانا.. نرى بعض

2) أشير هنا إلى مدرسة أهل الحديث والتي قعد قواعدها ابن تيمية وغيره، قد كنت ذكرت تفاصيل آرائها في الطبعة السابقة، لكني عدلت عن ذكرها هنا، لأنا شرطنا في هذه السلسلة الجديدة ألا نذكر إلا ما يتوافق فيه المنقول مع المعقول، وآراء أهل الحديث في هذه المسألة تصطدم مع كليهما.

2) أشير به إلى أبي جعفر الأَحول، الصيرفي، الكوفي، وهو حمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي بالولاء (ت 160 هـ)، المتكلّم المناظر الفقيه الملقب بمؤَمن الطاق، أو (صاحب الطاق) ، وإنّما سمّي بالطاق لأنّه كان صيرفياً في (طاق المحامل) من أسواق الكوفة.

وكان رأساً في العلم والعمل، ثقة، كبير الشأن.. صحب الإِمام جعفر الصادق، وأخذ عنه العلوم والمعارف، وروى عنه، كما عدّ من أصحاب الإِمام موسى الكاظم.

وكان من أحذق أصحاب الصادق، ومن أحبّ الناس إليه، وقد صحّ عنه أنّه كان يقول: (أربعة أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً: بُريد بن معاوية البجلي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وأبو جعفر الأَحول)

كان أبو جعفر كثير العلم، متفوّقاً في معارفه، قوياً في حجته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ، فهو عالم بالفقه والكلام والحديث، ذكره ابن النديم، فقال: (كان حسن الاعتقاد والهدي، حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الخاطر والجواب)

وكان يتمتع بشخصية فذة، ذا فهم ثاقب وفطنة وذكاء، وكان معروفاً بعلم الكلام وقوة الحجّة، وكثرة المناظرة وخاصة في مسألة الإِمامة، حيث كان محبّاً لأهل البيت منقطعاً إليهم، مجاهراً ـ برغم قسوة الظروف وجور الحكام ـ في القول بفضلهم، وكان يتفوّق دائماً في مناظراته لما عُرف به من سرعة الجواب، وقوة العارضة، وقد ذكر له ابن النديم والخطيب البغدادي وغيرهما عدة مناظرات، فمن أرادها فليرجع إلى كتبهم.

وننبه إلى أن بعض خصومه نسبوا إليه جملة من الأَقوال والآراء التي لا تليق بعقيدته وشأنه كزعمهم بأنّه كان من المشبهة، وانّه كان يقول: إنّ اللّه تعالى إنّما يعلم الأَشياء إذا قدرها، والتقدير عند الارادة، وللإِرادة فعل، إلى غير ذلك من المزاعم التي هو منها بريء، والتي لم تثبت.. وإنما ذكرناه هنا لأجل بيان فضله وتنزيهه مما نسب إليه.

الناس يصفون ربنا بأوصاف لا يرضونها لأنفسهم.. فما تقول في ذلك؟

قال: وما يقولون؟

قال الرجل: إنهم يصفونه بالماكر، والمستهزئ، والكائد.. ويعتبرون ذلك من أسماء الله الحسنى.. ويستدلون لذلك من القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(آل عمران: 54)، وقوله:﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: 14 - 15)، وقوله:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ (الطارق: 15، 16)

ابتسم مؤمن الطاق، وقال: من حدثكم عن سبع[1] ينسبها لربه، فقد كذب.. فربنا أجل وأكرم من أن يتصف بها.

قالوا: فما هي؟

قال: المكر، والظلم، والبخل، والخلف، والإهمال، والعبث، والضرر.

المكر:

قال الرجل: كيف تنفي المكر عن الله، والآية صريحة في ذكره.. فالله تعالى يقول:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54)﴾ (آل عمران)، ويقول:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)﴾ (الأنفال)

قال: المكر في اللغة وفي عرف الناس يراد به أمران:

أما أحدهما، وهو المشهور المتعارف عليه بينهم، وهو ما ينفيه كل عاقل عن الله، فهو (التّبييت بشيءٍ خفِيً يضرّ الخَصْم).. فالذي يمكر ويبيت شيئاً خفيّاً بالنسبة لعدوه ضعيف لا يملك القدرة على المواجهة، فلذلك يلجأ إلى أن يبيت من ورائه.. ولو كانت عنده

---

1) السبع هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وهو ما جرينا عليه في (رسائل السلام) من دلالة السبع على المثال لا على الحصر، بخلاف الأربع التي اعتبرناها دالة على الحصر.

قــدرة على المواجهــة فلن يمكــر؛ لــذلك لا يمــارس المكــر إلا الضعيف..

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك يندفع إلى قتل خصـمه. أمَّا القـوي فهـو يثـق في نفسه وقدراته، ولـذلك يعطي خصـمه فرصـة ثانيـة وثالثـة، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه.

هذا هو المعـنى الأول، وهـو مسـتحيل على اللـه تعـالى بـدلائل النصوص المقدسة الكثيرة التي تنزهه عن الضعف والعجز.

وأما المعنى الثاني، وهو صرف الغير عمّـا يقصـد خـيراً كـان أم شرّاً.. فلا حرج في نسبة ذلك لله.. وهذا ما أرادته الآيات الكريمة..

فالله تعالى في قوله:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـاكِرِينَ (54)ـ ﴾ (آل عمران) يخبرنـا أن أعـداء المسـيح ﵇ الـذين وضـعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه الدعوة التي جاء بهـا قـد صـرفوا عن غايتهم، وأن الله - لكي يحفظ حياة نبيّه ويصون الدعوة - مكَـرَ أيضاً فأحبط كلّ ما مكَروه.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُـرُ بِـكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾ (الأنفال)، فهذه الآية تصور تلك الجهود التي بذلها المشركون للصد عن دين الله، وهم غـافلون على مـا يـدبر لهم ممـا لا يعلمونـه، ولا يستطيعون أن يعلموه.

لقد قـال سـيد قطب يصـور سـر هـذا التعبـير ومـا يفـرزه من مشاعر، فقال: (الصورة الـتي يرسـمها قولـه تعـالى:﴿ وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَـاكِرِينَ (30) ﴾ (الأنفـال) صـورة عميقـة التـأثير.. ذلـك حين تـتراءى للخيـال نـدوة قـريش، وهم يتـآمرون ويتذاكرون ويـدبرون ويمكـرون.. واللـه من ورائهم، محيـط، يمكـر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون!

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فـأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيـل، من تلـك القـدرة القـادرة.. قـدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكـل شـيء

محيط؟

والتعبير القرآني يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة في التصوير؛ فيهز بها القلوب، ويحرك بها أعماق الشعور)[1]

سكت مؤمن الطاق قليلا، ثم قال: لقد ورد الدلالة على هذا المعنى في القرآن باسم آخر هو (الاستدراج)

قالوا: ما الاستدراج؟

قال: لاشك أنكم تعلمون أن من أراد شيئاً فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهاً عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة، بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد، وقد يكون استدراجاً له، كما قال تعالى:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: 182)

فمعنى الاستدراج أن يعطي الله عبده كل ما يريده في الدنيا بناء على رغبة العبد في ذلك، ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد بذلك كل يوم بعداً من الله.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الاستدراج بالمكر، قال تعالى: ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ (الأعراف: 99)

وعبر عنه بالخداع، فقال:﴿ يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (النساء: 142)، وقال:﴿ يخادعون الله والذين ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: 9)

وعبر عنه بالإملاء، فقال:﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرًا لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ (آل عمران: 178)

فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات[2].

قام بعض الحاضرين، وقال: إنك أردت أن تزيل شبهة، فأوقعتنا في أخرى.

---

1) في ظلال القرآن.

2) انظر: التفسير الكبير للرازي.

قال مؤمن الطاق: وما هي؟

قال: كيف يملي الله لهؤلاء، ويمكن لهم؟.. ألا ترى أنه تعالى يعينهم بذلك على الشر والضلالة؟

قال مؤمن الطاق: إن ذلك يستدعي فهم سر الابتلاء والتكليف.. فالله تعالى شاء بحكمته أن يمتحن عباده ليميز الطيب منهم عن الخبيب، وأن يقيم الحجة عليهم بذلك.. وذلك يقتضي لا محالة إمهالهم وأعطاء الفرص المختلفة لهم.. فلا يمكن أن يتحقق الامتحان من غير هذا.

قال الرجل: ولكن كيف يكون هذا، ونحن نرى من الكفار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائر ذنوبه ولا تهلكه كثرة معاصيه.. فهل لهذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟.. وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بل صار فتنة تصد القلوب عن دين الله[1]؟

قال مؤمن الطاق: إن الجواب عن هذا الاعتراض هو أن عدالة الله المطلقة، ورحمته التامة الشاملة، والتي سبقت غضبه تتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغه من الحجج ما يكفي لعودته، فإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرته ورحمته، فقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (الكهف:58)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي لإقامة الحجة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد:32)، وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:48)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة طويلة من الإمهال وإقامة الحجة، قال تعالى مسلياً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه:﴿ وَإِنْ

---

1) انظر الجواب المفصل على هذا الإشكال في رسالة (أسرار الأقدار)

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج:44)

وقد ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: من الآية24) وبين إهلاكه أربعون سنة)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح ﷸ كل تلك الآماد الطويلة، وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى الله، وقد ينتكسون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ:(إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:102))[2]

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:33) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه،، قال تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:55 ـ 56)، وقال تعالى:﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:178)

---

2) رواه البخاري ومسلم.

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هـذا الابتلاء هـو الـذي يمـيز الخـبيث من الطيب، ويمـيز بين الـراغب في اللـه، والـراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى مَـا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُـوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ففي الآية الكريمة إشـارة إلى أن تعجيـل الجـزاء قـد يـؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى:﴿.. وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ.. (179)﴾ (آل عمران)

ولهذا يرد في القرآن الكـريم الإخبـار بـأن الجـزاء الحقيقي هـو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخـبرا عن جـزاء المؤمـنين:﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخـرف: من الآية35) وقـد ورد هـذا المعـنى عقب ذكـر زخـارف الحيـاة الـدنيا الـتي يتهـافت عليهـا الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بمـا أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى:﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْـوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَـا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:55)

فما أمهل بـه هـؤلاء الغـافلون ليس دليلا على أي تفضـيل لهم، يقول ﷺ:(لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منهـا كافراً شربة ماء أبدا)(1)

فهذا الإمهال ـ إذن ـ كما ينطوي على معـاني الرحمـة والعـدل، وينطـوي على معـاني الانتقـام ممن لم يعـرف للنعمـة حقهـا ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الـذي يقتضـي سـتر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

الظلم:

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثـاني.. حـدثنا عن تـنزه اللـه عن الظلم.

1) رواه الترمذي وغيره.

قال: لقد ورد في النصـوص الكثـيرة الإخبـار عن تقـديس اللـه تعالى عن الظلم، قـال تعـالى:﴿ ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:182)، وقال تعالى:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيـدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ (غافر: من الآية31)، وقال تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَـالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:46)

وقد ورد في النصوص ما يبين تنزه الله عن جميـع صـور الظّلم ومظــاهره المختلفــة ؛ كإضــاعة ثــواب المحســن، أو نقصــه، أو مساواته بالمسيء، أو مواخذة العبد قبل قيام الحجّة عليـه، أو بمـا لم يعمله، أو بجرم غيره، أو بزيادة على ذنبه، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِـيعَ إِيمَـانَكُمْ ﴾ (البقــرة: 143)، وقــال:﴿ وَمَنْ يَعْمَــلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًـا وَلا هَضْـمًا ﴾ (طـه: 112) ؛ والهضم الانتقاص من الحسنات.

ومن مظاهر تنزيـه اللـه عن الظلم تنزيهـه عن التّكليـف بمـا لا يطاق، وعن المعاجلـة بعقوبـة العصـاة، قـال تعـالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ﴾ (البقـرة: 286)، وقـال:﴿ وَلَـوْ يُؤَاخِـذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَـرَكَ عَلَيْهَـا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُـؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ﴾ (النّحل: 61)، وهذا من كمال عدله، ومن كمال رفقه ولطفه أيضًا ؛ فـإنّ اللـه لطيـف، رفيـق يحبّ الرّفـق ؛ فلا يكلّـف عبـاده مـا لا يطيقون، أو يأخـذهم بالتكـاليف الشـاقّة دفعـةً واحـدة، أو يعـاجلهم بالعقوبــة قبــل وجــود شــرطها، وانتفــاء مانعهــا ؛ ولهــذا يمهلهم، ويستأني بهم، ولا يهلك على الله إلاّ هالك.

وممّا يتضـمّن التّنزيـه عن المعاجلـة بالعقوبـة مـع مـا ذكـر من الأسـماء اسـم الحليم، والصّـبور، والعفـوّ، والغفـور ؛ فـإنّ الـذّنوب تقتضي تـرتّب آثارهـا من العقوبـات العاجلـة، ولكن حلم اللـه على عباده، وصبره عليهم، ومحبّته للعفو عنهم، تقتضي إمهـال العصـاة، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ؛ ليتمكّنـوا من الإتيـان بأسـباب المغفـرة، فيتجاوز عن خطيئاتهم ؛ ولهـذا يعـافيهم، ويـرزقهم، رغم جرائـرهم وجرائمهم.

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الظلم؟

قــال مــؤمن الطــاق: لأن الظــالم لم يظلم إلا لكونــه محفوفــا

بأنواع من النقص كثيرة.. فهو محفوف بالفقر.. والبخل.. والجهل.. والجور.. والضعف.

أما الله تعالى فقد تنزه عن كل ذلك(1):

فلله تعالى كمال الغنى.. فمن أسماء الله الحسنى (الغنيّ، والواسع، والواجد).. ولذلك هو لا يحتاج لأحد من خلقه حتَّى يضيع حقّه، أو ينقصه شيئًا منه، قال تعالى:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾(آل عمران: 108)، ثم قال بعدها:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (آل عمران: 109) وهو يشير بذلك إلى أنه منزه الظّلم ؛ لكمال غناه عن خلقه؛ إذ كلّ ما في السموات والأرض ملكه وفي قبضته.

وقال تعالى في آية أخرى مشيرا إلى هذا المعنى:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ (النِّساء: 147)؛ أي لا منفعة له في عذابكم إن شكرتكم وآمنتم ؛ فإنّ ذلك لا يزيد في ملكه، كما إن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه.

ولله تعالى كمال الكرم ؛ فهو الكريم، الجواد، الوهاب، المجيد، الشّكور، فلا يضيع عنده سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه بكرمه وجوده أضعافًا مضاعفة، قال تعالى:﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النِّساء: 147) ؛ أي يشكر عباده على طاعته ؛ فيتقبّل العمل القليل، ويعطي عليه الثّواب الجزيل، ويعطي بالعمل في أيّام معدودة نعمًا غير محدودة.

ولله تعالى كمال العلم؛ فاسم العليم، والخبير، والسّميع، والبصير، والحفيظ، والحسيب، ونظائرها تدلّ على كمال إحاطته تعالى بأعمال العباد علمًا وكتابةً ؛ لمجازاتهم بالعدل ؛ فكلّ عامل مرتهن بعمله ؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، قال تعالى:﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: 49)، وقال:﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 215) ؛ أي مهما صار منكم من فعل

1) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة هنا من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التّنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السّعدي، كليّة التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلاميّة.

معروف فإنّ الله يعلمه، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنّه لا يظلم أحدًا مثقال ذرّة.

ولله تعالى كمال العدل ؛ فالله هو العدل، المقسط، المؤمن[1] لكمال عدله.. وهو الفتّاح ؛ أي القاضي بالحقّ ؛ فلا يجور أبدًا، ولا يضيع مثقال ذرّة من خير أو شرّ، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (غافر: 20)

انظروا إلى الإشارة التي تحملها فاصلة النص.. فاسم السّميع والبصير يدل بالنّص والفحوى على مناط تفرّد الربّ بالحكم بين عباده ؛ وهو كماله ونقص ما يدعى من دونه ؛ فالله هو الكامل في سمعه وبصره؛ ولهذا كان هو الحكم وحده قدرًا وشرعًا، وجزاءً.

ولله تعالى جميع الكمالات التي يفتقر إليها الظالم.. فهو العليّ، والكبير، والجميل، والحميد، ولهذا يضع الأشياء في مواضعها ؛ ولا يتصوّر أن يقع منه ظلم ألبتَّة، قال تعالى: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (غافر: 12)

وهو الواسع الذي يوسع على عباده في أحكامه الدينية ؛ فلا يكلّفهم ما لا يطيقون، ويوسّع عليهم في أحكامه القدريّة ؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويوسّع عليهم في أحكامه الجزائيّ؛ فلا يؤاخذهم بكلّ معصية، بل يتجاوز، ويعفو، ويغفر ؛ لأنّه العفوّ، والغفور، والغفّار، ولا بُدّ أن تتحقّق متعلّقات هذه الأسماء، وتظهر آثارها.. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ:(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[2]

البخل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.. حدثنا عن تنزه الله عن البخل.

قال: البخل ينافي كمال غنى الربّ وكرمه؛ ولهذا حين قال

---

1) وهو في أحد التّفسيرين بمعنى الَّذي أمن عذابه من لا يستحقّه.

2)رواه مسلم.

شاس بن قيس اليهودي: (إنَّ ربّك بخيل لا ينفق) أنزل اللـه تعـالى قوله:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَـالُوا بَـلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: 64) ؛ فطـردهم اللـه من رحمته بمقالتهم المنكرة، وعـاقبهم قبـل ذلـك بـأن جعـل هـذا الوصف لازمًا لهم في الـدّنيا ؛ فغلّت أيـديهم، وكـانوا أبخـل النّـاس وأجبنهم.

ولهذا أنكر الله مقالة اليهـود، وعظّم فـريتهم، وأوعـدهم عليهـا بأعظم العقوبات ؛ فحين قال فنحاص بن عـازوراء: (إنَّ اللـه فقـير ونحن أغنياء يقترض منّا)، أنزل اللـه تعـالى قولـه:﴿ لَقَـدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ سَـنَكْتُبُ مَـا قَـالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُـوا عَـذَابَ الْحَرِيـقِ ﴾ (البقـرة: 181) ؛ فأوعــدهم على هــذه المقالــة المنكــرة، وعلى رضــاهم بأفعــال أسلافهم الشّنيعة ؛ وهي قتل الأنبيـاء تمـرّدًا وعنـادًا لا جهلاً وضـلالاً، أوعدهم على ذلك بأعظم العقوبات ؛ وهي النـيران المحرقـة، الَّتي تطّلع على الأفئدة ؛ جزاءً وفاقًا، وما ربّك بظلاّم للعبيد.

وأسماء الله الحسنى تبطل ظنون السوء الَّتي ظنّتها يهود بربّ العالمين ؛ فـإنّ من أسـمائه الغـنيّ، والجـواد، والوهّـاب، والكـريم، والواجد، والمجيد، والواسع، وهي كلّها تدل على كمال غـنى الـربّ وجوده، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيـدًا ﴾ (النّسـاء: 131) ؛ أي أنّ لـه الغـنى التـامّ من كـلّ الوجـوه ؛ لكمالـه، ومن سـعة غنـاه أنّ خـزائن السـموات والأرض بيديه، وأنّ جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات.

وجود الله تعالى على خلقه نوعان:

أمـا أولهمـا، فهـو الجـود المطلـق عن أي قيـد؛ ولا يخلـو عنـه مخلوق من المخلوقات ؛ فإن الله وسع غناه كلّ فقـر، وعمّ جـوده جميــع الكائنــات، قــال تعــالى:﴿ وَمَــا بِكُمْ مِنْ نِعْمَــةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النّحل: 53)

وأما الثّاني، فهو الجود المقيّد بسؤال السّائلين ؛ فمن سأل الله بصدق، وطهارة ممّا يمنع القبـول أعطـاه سـؤاله، وأنالـه مطلوبـه، دون أن ينقص ذلك ممّا عنده شيئًا ؛ لكمال غناه، وسعة خزائنه.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ:(قال اللَّهِ تَعَالَى: يَا عِبَادِي لَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِـرَكُمْ، وَإِنْسَـكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قَـامُوا فِي صَـعِيدٍ وَاحِـدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَـا نَقَصَ ذَلِـكَ مِمَّا عِنْـدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)(1)

الخلف:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابـع.. حـدثنا عن تـنزه اللـه عن الخلف.

قـال: إخلاف الوعـد والوعيـد يتنـافى مـع كمـال اللـه وعظمتـه وجلاله، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال:﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (يـونس: 55)، وقـال:﴿ فَلا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ مُخْلِـفَ وَعْـدِهِ رُسُـلَهُ ﴾ (إبراهيم: 47)

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الخلف؟

قال مؤمن الطاق: لقد تنزه الله عن ذلـك لمـا في الخلـف من العبث المنـافي لحكمـة الإلـه الحـقّ؛ فـإنّ أصـل الحـقّ المطابقـة والموافقة.. وبما أن أفعال الربّ مطابقة للحكمة، وأقواله مطابقـة لما عليه الشّيء في نفسه ؛ لهذا كله كانت أفعالـه تعـالى وأقوالـه كلّها حقًّا، ووعـده ووعيـده كلّـه حقًّا وصـدقًا، قـال تعـالى:﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ سَـنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (النِّسـاء: 122)

فصدق الله يقتضي تحقّق وعده ووعيده، وعدم الخلف فيهمـا ؛ لأنّـه الإلـه الحـقّ ؛ فلا يكـون كلامـه إلاّ حقًّا ؛ أي مطابقًـا لمـا عليـه الشّيء في نفسه ؛ ولهذا سمّى نفسه بالمؤمن ؛ فإنّه في يدل في بعض معانيه على المصدّق ؛ أي المصـدّق لرسـله بمـا يظهـره لهم من آياتـه، ومصـدّق المؤمـنين مـا وعـدهم من الثّـواب، ومصـدّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب.

ويـدل على اسـتحالة إخلافـه تعـالى لوعـده ووعيـده، أو تبديلـه لكلماته كثير من أسماء الله الحسنى:

1) رواه مسلم.

منها (**العليم، والخبير، والشّهيد، والمهيمن، والرّقيب، والسّميع، والبصير**)؛ فإنّ هذه الأسماء تدلّ على علم الله تعالى التـامّ المحيـط بمـا دقّ أو جـلّ من أعمـال العبـاد ﴿ لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النّجم: 31)

ومنها (**القدير، والعزيز، والقهّار، والمقيت، والمـتين**)؛ فإنها تدلّ على تفـرّد الـربّ بالقـدرة التامّـة ؛ فلا شـيء يمنعـه من إنفاذ وعده ووعيده في المحلّ الّذي تقتضيه حكمته.

ومنها (**الرّحيم، والرؤوف، والغـنيّ، والـبرّ، والشّـكور**)؛ فإنّ هذه الأسماء ونظائرها تقتضي إيصـال الثّـواب الموعـود لأهلـه وعدم إخلافه.

ومنها (**الحكيم، والحكم، والعدل، والمقسط، والفتّاح**)؛ فإنّ عدل الله وحكمته يتضـمّنان وضـع الأشـياء في مواضـعها ؛ فلا يعاقب من لا يستحقّ العقاب، ولا يخلف من يستحقّ الثّواب.

الإهمال:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.. حدثنا عن تنزه الله عن الإهمال.

قال: إهمال الله لعباده يتنافى مع كمال اللـه وعظمتـه وجلالـه، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال:﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدًى ﴾ (القيامـة: 36)، وقـال:﴿ أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَـا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِـكُ الْحَـقُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْكَـرِيمِ (116)﴾ (المؤمنـون)؛ أي تـنزّه وتقدّس عن هذا الظنّ السيء؛ لأنّه عبث وسفه ينافي حكمته.

ومثله في الدلالة قوله تعـالى في تينـك الآيـتين الكريمـتين:﴿.. رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)﴾ (المؤمنون)، فإنّ كونه ربًّا للعرش فما دونه يدلّ على تنزيهه عن إهمال العباد، وتركهم سـدى، بلا أمـر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب ؛ فإنّ اسم (الربّ) إمّا أن يدلّ على صفة معنى، ويفسّر بمعـنى: المالـك، والسـيّد، وإمّـا أن يـدلّ على صـفة فعل، ويفسّر بمعنى: المربّي.

فإن فسّر بالمعنى الأوّل، فمن آثـار الملـك والسـؤدد أنّ الـربّ يـأمر وينهى، ويـثيب ويعـاقب، ويتصـرّف في مماليكـه بـأنواع التصرّفات.

وإن فسّـر بـالمعنى الثّـاني فـالمربّي هـو المصـلح، والمـدبّر، والجابر، والقائم ؛ وهذا يتضمّن التربية العامّة والخاصّة.

قالوا: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطاق: تربية الله لخلقه نوعان: عامّة، وخاصّة..

أما العامّة، فهي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهـدايتهم لمـا فيـه مصالحهم، الّتي فيها بقاؤهم في الدّنيا..

وأما الخاصّة، فتربيته لأوليائه ؛ فيربّيهم بالإيمـان، ويـوفّقهم لـه، ويكمّلهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

فحقيقة الرّبوبيّة تتضمّن التّنزيـه عن إهمـال العبـاد مطلقًـا ؛ أي في جميع شؤون معاشهم ومعادهم.

قال بعض الحاضـرين: لقـد اعتـدنا منـك أن تـذكر لنـا الأسـماء الحسنى الدالة على نوع التنزيه.. فما الأسماء الحسـنى الـتي تـرى أن لها علاقة بتنزيه الله عن الإهمال.

قال مؤمن الطاق: كل أسـماء اللـه الحسـنى تـدل على ذلـك.. وبوسعك أن تقرأها جميعا على هذا الأساس لـترى مـدى ارتباطهـا به.

قال الرجل: فهلا وضحت لنا بضرب بعض الأمثلة التقريبية.

قال مؤمن الطاق: سأضرب لك أمثلـة تقريبيـة ببعض الأسـماء التي لها صلة مباشرة بهذا المعنى:

فمن ذلك اسمه تعالى (**الحسيب**) ؛ فإنّـه يفسّـر بالكـافي ؛ وهو بالمعنى العام الّذي يكفي العباد جميع ما يهمّهم من أمر دينهم ودنياهم، فيوصـل إليهم المنـافع، ويـدفع عنهم المضـار.. وبـالمعنى الأخصّ هو الّذي يكفي من توكّل عليه كفاية خاصّة يصـلح بهـا دينـه ودنياه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**اللّطيف**)، فقد فسّر بـ (من اجتمع له الرّفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدّرها له من خلقه)، يقول الزجّاج في ذلك: (اللّطيف يفيد أنّه المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون)

ويختصّ أولياء الله بلطف خاص يتضمّن أعلى درجات الإحسان والإصلاح ؛ وهو أن ييسّرهم لليسرى، ويجنّبهم العسرى، وقد يكون ذلك بشيء من الابتلاءات والمحن.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الجبّار**) ؛ فقد فسّر بمعنى المصلح ؛ بناءً على أنّه مشتقّ من جبر لا من أجبر؛ يقال: جبر العظم إذا صلح كسره، وجبر الله مصيبته ؛ إذا أصلح حاله، وعوّضه عمّا فاته، يقول الرّازيّ في ذلك: (الجبر أن تغني الرّجل من فقر، أو تصلح عظمه من كسر)

وعلى هذا فالجبّار الَّذي يصلح أحوال عباده ؛ فيجبر الكسير والمصاب، ويغني الفقير، ويعزّ الذّليل، وييسّر على المعسر، ويجبر قلوب الخاضعين لجلاله جبرًا خاصًّا بما يفيض عليها من معارف الإيمان وأحواله.

وهذا المعنى مستقرّ في قلوب عامّة المؤمنين ؛ ولهذا يسأل كلّ واحد منهم ربّه الجبر كلّ صلاة، وهو إنّما يريد هذا الجبر الّذي حقيقته إصلاح العبد، ودفع المكاره عنه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الحفيظ**)؛ فإنّه يفسّر بمعنى الحافظ لعباده ممّا يكرهون. وحفظه لخلقه نوعان ؛ عامّ وخاصّ؛ فالعامّ حفظه لجميع المخلوقات بهدايتها لمصالحها، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: 50)

والحفظ الخاصّ حفظ أوليائه في مصالح دنياهم وفي دينهم ؛ فيحفظهم حال حياتهم من الشّبهات والشّهوات، ويحفظ عليهم دينهم عند الوفاة، فيتوفّاهم على الإيمان. وهذا الحفظ متفاوت بين المؤمنين بحسب ما عند كلّ واحد منهم من محافظة على أمر الله ونهيه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الرّزّاق**)؛ أي كثير الرّزق ؛ فهـو الَّذي يوصل لجميع خلقه كلّ ما يحتاجونه في معاشهم وقيامهم، ويوصل لأوليائه رزقًا خاصًّا يتضمّن رزق القلوب بالإيمـان، والأبـدان بالمـال الحلال.

فهذه الأسماء الحسنى جميعا وغيرهـا تـدل على عنايـة الملـك الحقّ بعباده، وتربيتهم تربيةً عامّة وخاصّة، يستحيل معها إهمالهم لا في أمور معادهم، ولا في أمور معاشهم.

وهذه المعارف تثمر في القلوب الحيّـة محبّـة اللـه، والتّألـه لـه خوفًا وطمعًا ؛ وهي أعظم مقامات الإيمـان، وأصـوله الكـبرى الَّتي يقوم عليها بناؤه.

العبث:

قالوا: وعينا هذا.. فحـدثنا عن السـادس.. حـدثنا عن تـنزه اللـه عن العبث.

قال: العبث يتنافى مع كمال الله وعظمتـه وجلالـه، ولهـذا نـزه الله تعالى نفسه عنـه، فقـال:﴿ ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللَّهَ هُـوَ الْحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)﴾ (الحج)، وقال:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)﴾ (الحج)

انظروا كيف سمى الله تعالى نفسه حقا.. ولهذا، فإنه تعـالى لا ينسب إليه إلاّ الحقّ؛ فقوله حقّ، وفعلـه حـقّ، ودينـه حـقّ، ولقـاؤه حقّ، ووعده ووعيده حقّ ؛ فكل شيء منه تعـالى مطـابق للحكمـة البالغة المنافية للسّفه، والعبث، والخلف.

يقول بعض العلماء في ذلك، وهـو الـرّاغب الأصـفهاني: (أصـل الحقّ المطابقة والموافقة، كمطابقة رِجْل الباب في حَقِّه ؛ لدورانه على استقامة، والحقّ يقال على أوجه:

الأوّل: يقال لموجِد الشّيء بسـبب مـا تقتضـيه الحكمـة؛ ولهـذا قيل في الله تعالى هو الحقّ، قال تعالى:﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 62).

الثّاني: يقال للمُوجَد بحسب مقتضى الحكمة ؛ ولهذا يقال: خلق الله كله حقّ، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 73)

الثّالث: في الاعتقاد للشّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه ؛ كقولنا: اعتقاد فلان في الجنّة والنّار حقّ، قال تعالى:﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (البقرة: 213)

الرّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الّذي يجب ؛ كقولنا: فعلك حقّ، وقولك حقّ، قال تعالى:﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: 33) ؛ أي تحقّق قدره السّابق فيهم ؛ بمعنى وقع ووجب ؛ ولهذا يستعمل في الواجب، والثّابت، واللازم)(1)

وبناء على هذا، فإن الحقّ ــ تبارك وتعالى ــ منزّه عن العبث تنزيهًا مطلقًا ؛ لمنافاته حكمته البالغة، وحمده، وكماله..

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر هذا المعنى لتستقيم النفوس على معرفة ربها، ولا تظن به السوء.. قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)﴾(ص)؛ وذلك لأنّ هذا الظنّ ينافي أسماء الربّ تعالى؛ فالحكيم الحقّ منزّه عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سفهًا؛ لأنّ أفعاله حقّ ؛ أي مطابقة للحكمة، ومفعولاته حقّ ؛ أي متحقّقة وكائنة بعلم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت مشتملةً على الحكمة، وآيلة لها.

وقال تعالى في آية أخرى:﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 73)؛ فالحق سابق لخلقها، ومقارن له، وغاية له ؛ ولهذا أتى بالباء الدالّة على هذا المعنى دون اللام المفيدة للغاية ليس غير ؛ والحقّ السّابق للخلق صدورها عن علم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت كلّها حقًّا، أي متقنة، مطابقة للحكمة، لا نقص فيها ولا خلل.

---

1) مفردات القرآن.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النّمل: 88)، وقوله:﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السّجدة: 7)، وقوله:﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك: 3)، فهذا الإحكام والإتقان هو الحقّ المقارن للمخلوقات ؛ ولهذا كانت أدلّة وبراهين على أصول الإيمان ؛ لتقود النّاس للحقّ الغائي؛ وهو معرفة الربّ وعبادته، وإنجاز وعد الله لمن أطاعه، وإنفاذ وعيده فيمن عصاه.

قال بعض الحاضرين: فما الأسماء المشيرة إلى هذه المعاني التي ذكرتها؟

قال مؤمن الطاق: كل أسماء الله تشير إلى ذلك.. كاسم **الحميد، والرّشيد، والجميل**.. فهذه الأسماء الثلاثة تدلّ على كمال ذات الربّ وصفاته ؛ وأنّ له من الأفعال أجملها، وأرشدها، وأحمدها، وهذا يحيل أن يكون في شيء من أفعال الله ــ تعالى ـ عبث أو سفه.

وكاسم **الحقّ والحكيم** ففيهما دلالة واضحة على نفي العبث في الخلق، واستحالته.

الضرر:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تنزه الله عن الضرر.

قال: الإضرار بالخلق يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله..

قاطعه رجل من الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا، ونحن نجد من أسماء الله الحسنى اسم (الضار)؟

قال مؤمن الطاق: الضار النافع.. لا الضار وحده.

قال الرجل: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطاق: ما الفرق بين الجراح الجارح.. والجارح وحده؟

قال الرجل: الفرق عظيم.. فـالجراح لا يجـرح إلا لينفـع.. بينمـا الجارح وحده قد يجرح للضرر المجرد.

قال مؤمن الطاق: فهكذا هذا الاسم.. فهو اسم مقترن مقـترن بالنافع لا يجوز فصله عنه.. فقد ذكر العلماء أن الأسماء المقترنة أو المزدوجة لا يجوز أن تطلق على الربّ مفردةً ؛ لأنّها تجري مجـرى الاسم الواحد الّذي يمتنـع فصـل بعض حروفـه عن بعض ؛ فالمـانع يجب أن يقرن بـالمعطي، وهكـذا الضـارّ بالنّـافع، والمـذلّ بـالمعزّ، والمحيي بالمميت ؛ وذلـك لأنّ هـذه الأسـماء لا تـدلّ على الحسـن والعلوّ المطلق إلاّ إذا قرن كـلّ اسـم بمقابلـه ؛ وحينئـذٍ تفيـد الثّنـاء على الربّ بمعاني الرّبوبيّـة، وكمـال التصـرّف في الخلـق ؛ عطـاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وإحياءً وإماتةً.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحا؟

قال مـؤمن الطـاق(1): من أسـماء اللـه تعـالى مـا يسـمى بـه مطلقـاً من غـير قيـد، وهي الأسـماء المشـتقة الدالـة على معـاني الجلال والكمال والجمال والكمال مثل: الرزاق، الخـالق، البـاريء، المصـور، العزيـز، الحكيم، الـرحمن، الـرحيم، السـميع، البصـير، القوي.. فهذه كلها أسماء تطلـق على اللـه تعـالى من غـير قيـد أو شرط.

أما النوع الثاني من الأسماء، فمايطلق على الله تعـالى مقيـدا، ومن القيود ما يسميه العلماء قيد المقابلة والجزاء، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفـال: 30)، فمكر الله تعالى بهم لما مكـروا.. فلا يجـوز أن يؤخـذ منها أسـماء مطلقة، فنقول: إن من أسماء اللـه تعـالى المـاكر أو المكّار.. هـذا ليس من أسماء الله تعالى ولا يجوز أن نسمي اللـه تعـالى بشـيء من ذلك.

و كذلك الأسماء التي قد يتوهم فيها أو منها العجـز أو النقص أو العيب فالله تعالى منزه عنها.. انظـر في قـول اللـه تعـالى:﴿ وَإِن يُّرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَـأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾(الأنفـال:71)، فلم يقل الله تعالى:(وإن يريدوا خيانتـك فقـد خـانوا اللـه من قبـل

1) انظر: شرح مقدمة القيروانى للشيخ أحمد النقيب.

فخانهم الله)، لم يقل هذا، لأن الخيانـة خدعـة في مقـام الائتمـان، والخيانة من صفات المنافقين والله تعـالى يتـنزه أن يصـف نفسـه بصفة من صفات المنافقين، ولا يسمي نفسه أبداً باسم من أسماء المنافقين.

قال رجل من الحاضـرين: لا بـأس.. ولكن مـا تقـول في اسـم (المنتقم).. فنحن نجده في تعداد أسماء الله الحسنى؟

قال مؤمن الطاق: لا.. لم يصح اعتبار هذا اسما.. فلا تسم اللـه بما لم يسم به نفسه.

قال الرجل: وما تقول في الرواية الواردة به؟

قال مؤمن الطاق: لا شـك أنكم تعلمـون أنّ الروايـة الـتي ورد فيها ذكر أسماء الله الحسنى من إدراج بعض الـرواة، وليسـت من كلام النَّبيّ ﷺ.. لقـد قـال الصـنعاني في ذلـك: (اتّفـق الحفّـاظ من أئمة الحديث أن سـردها إدراج من بعض الـرواة)، وقـال ابن تَيْمِيَّة: (اسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النَّبيّ ﷺ)

قال الرجل: ولكن الله تعالى قال:﴿ فَانْتَقَمْنَـا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُـوا ﴾ (الـرّوم: 47)، وقـال:﴿ فَلَمَّا ءَاسَـفُونَا انْتَقَمْنَـا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الزّخرف: 55)

قال مؤمن الطاق: الانتقام هنا بمعنى العقاب.. وقد قيـده اللـه بهؤلاء المجرمين.. فلا يصح اعتباره اسما لأجل هذا.

قال رجل من الحاضرين: فما تقول في خلق الله للشر؟

قال مؤمن الطاق: المؤمن يتـأدب مـع اللـه تعـالى، فلا ينسـب إليه الشر بحال من الأحوال.. فليس من الله إلا الخير، وقد قال ﷺ :(لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِى يديك، والشر ليس إليك)(1)

فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعـالى.. فلا يضـاف إلى ذاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته تعالى منزهة عن كل شر، وأسماؤه كلها حسـنى ليس فيهـا اسـم ذم ولا عيب، وأفعالـه كلهـا حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك أبدا، وهـو

1) رواه أحمد ومسلم.

المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه (1).

ولهذا ينزه الله تعالى في الأسلوب القرآني من نسبة الشر إليه، فالطريقة المعهودة في القرآن الكريم هي نسبة أفعال الإحسان والرحمة والجود إلى الله تعالى فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم:

ومنها قوله تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:7)، فإنه تعالى ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل، وبنى الفعل للمفعول، فقال:﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، وقال في الإحسان:﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

ومنها قول إبراهيم الخليل ﷺ:﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:78 ــ80)، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض نسبه إلى نفسه، ولم يقل: (أمرضني) وقال:﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

ومنه قول الخضر ﷺ في السفينة:﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف:79)، فأضاف العيب إلى نفسه، وقال في الغلامين:﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الكهف: من الآية82) فأضاف الإرادة إلى الله.

ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أي اسم يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله تعالى:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحجر:49)، وقال بعدها:﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:50)، ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة:98)

1) انظر: طريق الهجرتين:166.

ولذلك نفى المحققون من العلماء – كما ذكرنا - صحة تسمية الله تعالى باسم (المنتقم)، فهو ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبى ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيدا، كقوله تعالى:﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (السجدة: من الآية22)، وقوله:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (آل عمران: من الآية4)

أما الحديث الذي في عدد الأسماء اللحسنى الذى يذكر فيه المنتقم – إن صح- فقد ذكر في سياقه البر التواب المنتقم العفو الرؤوف، زيادة على أن الصحيح أنه ليس من كلام النبى ﷺ.

قال الرجل: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن مع ذلك بما أن الضرر والشر موجودان.. فلا بد لهما من موجد.. وبما أن الله موجد كل شيء.. فالله هو موجدهما(1).

قال مؤمن الطاق: إن الشر المحض يستحيل وجوده في هذا الكون.. لأن كل ما نتوهمه أو نراه شرا قد يكون خيرا متلبسا بصورة شر، أو شرا انحرف عن مساره مع بقاء أصل الخيرية فيه.

ولهذا خلق الله تعالى ما نراه من الدواب الشريرة، أوالأفعال التي هي شر لما يترتب على خلقها من الخير المحبوب، فلم يخلق لمجرد الشر الذي لا يستلزم خيرا بوجه ما.

فالخير هو المقصود من الخلق، والشر إنما قصد قصد الوسائل والمبادئ لا قصد الغايات والنهايات، فإذا حصلت الغاية المقصودة بخلقه بطل وزال، كما تبطل الوسائل عند الانتهاء إلى غاياتها كما هو معلوم بالحس والعقل.

قال الرجل: فما تقول في تعذيب الله للمجرمين والظالمين.. أليس في ذلك ضرر بهم؟

قال مؤمن الطاق: لا.. يستحيل على الله أن يريد الضرر بعباده..

قال الرجل: ولكن النصوص كلها تخبر بذلك.

---

1) ذكرنا الردود على هذا النوع من الإشكالات بتفصيل في (أسرار الأقدار)

قال مؤمن الطاق: صدق ربنا ونبينا..

قال الرجل: فكيف توفق بين ما ذكـرت ومـا ذكـرت النصـوص المقدسة؟

قال مؤمن الطاق: لقـد ذكـرت النصـوص المقدسـة السـر من وراء ذلك العذاب الذي يصيب المجـرمين.. لقـد ورد فيهـا مـا يـدل على تأثير البلاء في تطهـير الفطـرة وتقويمهـا، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَـذَابِ الْأَكْبَـرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ﴾ (السجدة:21)، فأخبر تعالى أنه يعذبهم رحمة بهم ليردهم العــذاب إليه كما يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه لـيرجع إلى بره وكرامته.

وبين الله تعالى سـنته في ذلـك بقولـه تعـالى:﴿ مَـا يَفْعَـلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء:147)

وهذه الآية ـ التي جمعت قانون الله في الثواب والعقاب ـ دليل على أن الحكمـة تقتضـي كـون العـذاب مصـلحة مؤقتـة تقتضـيها الرحمة المقترنة بالحكمة.

لقد قال سيد قطب معلقـا على هـذا مبينـا جمـال هـذه السـنة مقارنة بما تحفل به الديانات الأخرى من وثنية:(وأخيرا تجيء تلــك اللمسة العجيبة، الموحية المؤثرة العميقة.. أخيرا بعد ذكـر العقـاب المفزع، والأجر العظيم.. لتشعر قلوب البشر أن الله في غـنى عن عذاب العباد.. فما به - سبحانه - من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب. وما بـه - سـبحانه - من حاجـة لإظهـار سـلطانه وقوته عن هـذا الطريـق. ومـا بـه - سـبحانه - من رغبـة ذاتيـة في عذاب الناس كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات.. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله.. مع تحبيبهم في الإيمـان والشكر لله.. وهو الذي يشكر صالح العمـل ويعلم خبايـا النفـوس) (1)

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى كذلك قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَـأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

1) في ظلال القرآن: 2/786.

إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: من الآية120)، فقـد أخـبر تعالى أن يكتب لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قـدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَـقَ الْكَـافِرِينَ ﴾ (آل عمـران:141)، فـأخبر تعـالى أن ألم القتـل والجـراح في سبيله تمحيص وتطهير وتصفية للمؤمنين.

وينص على هذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِـيرٍ (30)﴾ (الشـورى)، وفي هـذا تبشـير وتحـذير، تبشـير بـالتطهير من الـذنوب بالمصـائب، وتحـذير بالمصائب من المعاصي، فالعدل يقتضي الجزاء، والرحمة تقتضـي التطهير.

قال الرجل: فلماذا لا يغفـر اللـه للعاصـين مباشـرة، ويـدخلون الجنة من غير مقاساة للعذاب، فتغلب الرحمة الغضب؟

قال مؤمن الطاق: إن العدل الإلهي يقتضي المجـازاة، كمـا أن الرحمة الإلهية تقتضي الإحسـان، فكـان الجمـع بينهمـا، هـو إصـلاح هذه النفوس لتصلح بعدها للرحمة الإلهية.

***

التفت إلينا صاحبنا (فريدريك ماكس مولر)، وقال: هـذا حـديثي في تلـك البلـدة المعطـرة بعطـر الإيمـان.. ومـع أولئـك العلمـاء والصالحين.. لقد عشـت في صـحبتهم أيامـا جميلـة.. لكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيـام.. ونسـيت معهـا تلـك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعـاد إلى ذاكـرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

رابعا ـ الحميد

في اليوم التـالي اسـتيقظنا على أصـوات صـياح شـديد ممتلئ بالسرور والنشوة، وهو يقول: هلمـوا يـا من انقطعت بكم السـبل، وتهتم في البحث عن الحقيقــة.. فأرســطو يريــد أن يحــدثكم عن الحقيقــة.. أرســطو يريــد أن يحــدثكم عن ربكم، فقومــوا إليــه، فعساكم تخرجون بحديثه من الهـوة السـحيقة الـتي أوقعتكم فيهـا أهواؤكم.

أسرعت كما أسـرع الجمـع إلى مصـدر الصـوت، فوجـدنا رجلا منا، كنت أراه كثـير الهيـام بالجـدل العقلي، فقـد كـان لا يفـتر عن الحديث مع كـل من رآه.. وكـان مغرمـا بالتقسـيمات والتصـنيفات حــتى كــان كمــا يقــال: يقســم الشــعرة بجدلــه، ويقطــع الحديــد بتحليلاته..

وقد كنت أحسبه لذلك أبعد النـاس عن ربـه، وعن البحث عنـه، فقد كان كثير الاشتغال بالتصنيف.. بتصنيف كل ما يــراه وتحديــده، والبحث عن ماهيته حتى أنه في تلك الفـترة القصـيرة الـتي مكثنـا فيها في ذلـك المحـل رأيتـه قـد جمـع أصـنافا كثـيرة من الحجـارة والتربة والقواقع.. بل وأوراق الأشجار.. ثم رأيته يصـنفها تصـنيفات بديعة مشتغلا بها عن كل شيء.

هذا ما عرفته عنه.. ولهـذا كـان عجـبي شـديدا عنـدما سـمعته يصيح بصياحه ذلك..

قـال لـه رجـل منـا، بعـد أن اجتمـع كـل الجمـع إليـه: أين هـو أرسطو؟.. ومتى قدم إلينا؟.. وكيف قدم؟

ابتسم صاحبنا، وقال: هو أمامكم.. أنا هو أرسطو(1)..

---

1) أشير به إلى (أَرِسْطو) (384 ـ 322ق.م) كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفة ويقدر ما اصدر من كتابات بـ 400 مؤلـف مـا بين كتـاب وفصـول صـغيرة.. وتنقسم مؤلفاته إلى ثلاث مجموعات: 1- المؤلفات الشعبية، وقد كـانت لعامــة الجمهـور خارج مدرسته.. 2- المـذكرات، وهي تصـنيفات من مـواد البحـوث والسـجلات التاريخيـة أعدَّها بمساعدة تلاميذه؛ لتكون مصدرًا للمعلومات التي يحتاجها العلماء الدارســون.. 3- المقالات.. وهي تمثل تقريبًا كلَّ مؤلفات أرسـطو الـتي سَـلمت من الضـياع وبقيت حـتى الآن.. وقد كانت المقالات مؤلفةً للطلاب داخل المدرسة فقط.

قال الرجل: لقد احتلت علينا.. لقد تصورنا أن أرسطو بذكائه وعقله وحكمته قد قدم إلينا من زمنه الغابر ليعرفنا بالحقيقة التي تهنا في البحث عنها.. فلا يصلح في هذا المحل أحد مثل أرسطو.

ابتسم أرسطو، وقال: فأنا أرسطو.. إن لم أكنه بلحمه وشحمه وعظمه.. فأنا هو بعلمه وعقله وحكمته.. لقد سماني والدي أفلاطون يوم ولدت أرسطو.. كما سماه جده سقراط أفلاطون..

نحن عائلة لا تهمها إلا الفلسفة.. لقد كنا نرى أن العقل هو الأداة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الأشياء، فلذلك نذرنا نفوسنا له.. فكانت مجالسنا كلها مجالس بحث ونظر وتحقيق وتدقيق.. ولم نكن نتمتع بشيء كما نتمتع برؤية الحقائق أو البحث عنها.

وقد كان من الحقائق التي شغلتنا فترة من حياتنا الحقائق المرتبطة بالألوهية..

وقد بدأت فيها كما بدأ أرسطو.. لقد توصلت بعقلي إلى نفس ما وصل إليه سميي أرسطو.. فقد كنت أعتقد أن الله واجب الوجود كائن أزلي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا إرادة.. منذ كان العمل طلبا لشيء، والله غني عن كل طلب، وبما أن الإرادة اختيار بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول.

وكنت أعتقد أنه ليس مما يناسب الإله أن يبتدئ العمل في زمان؛ لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

ولهذا كنت أعتقد أن الإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى، وهي الهيولي ولكن لهذه الهيولي قابلية للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى

الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حــدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابليـة ولا يقـال عنهـا: إنهـا من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار.

ولهذا، فقد كنت أعتقد أن الله يعقـل ذاتـه ولا يعقـل مـا دونهـا، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمــال لا يطلب شيئا غير ذاته، ويجل عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يحسـبها من علم العقـول البشـرية، ولا يعـني بـالخلق رحمـة ولا قسـوة.. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه.

قلنا: فهذه هي العقيدة التي تريد أن تلقننا إياها؟

قال: لا.. لا.. لقد ذكرت لكم أن هذه هي بدايـة حيـاتي.. أو هي بداية مراحل تفكيري.

قلنا: ولكن هذه هي نهاية أفكار أرسطو.. ألم تكتـف بمـا انتهى إليه؟

قال: لقد كنت مكتفيـا.. بـل كنت مغـرورا في اكتفـائي إلى أن التقيت برجل حطم ما بنيته أو ما بناه لي أرسـطو.. لقـد كـان رجلا عظيما.. ولكن صحبتي له للأسف كـانت كـالبرق الـذي يضـيء، ثم سرعان ما يختفي.

ومـا نـدمت عليـه هـو أنـني بغـروري وأحلامي انصـرفت عنـه، واتبعت تلك التقسيمات والتصنيفات التي لم تغن عني شيئا.

قلنا: إن ما تقوله خطير.. لكأنك تتهم أرسطو نفسه بالعجز.

قال: أجل.. أنـا أتهمـه كمـا أتهم عقلي.. فـالرب العظيم أعظم من أن نتصـرف في كمالاتـه بعقولنـا.. لقـد رحت كمـا راح سـميي أرسطو نفرض على الإله قيودا كثيرة.. لقد رحنا نحد من صـلاحياته في هذا الوجود.

قلنا: ولكنك ذكرت أنك كنت تعتقد في إلهك الكمال المطلق.

ضحك بصوت عال، وقال: أجل.. ولكنه كـان أقـرب إلى العـدم المطلق منه إلى الكمال المطلق.

قلنا: فمن علمك الكمال المطلق لإلهك؟

قال: هذا ما أريد أن أحدثكم عنه.. وهذا ما تأسفت على عدم صحبته.. لقد كان رجلا من المسلمين.. كان اسمه (محمد الباقر) (1)

لقد اجتمعت به مع جمع من أصدقائي الفلاسفة.. ورحنا نناقشه في إلهه بما معنا من الفلسفة.. وقد غلبنا جميعا لأنه كان يملك مع العقل الذي يملكه الفلاسفة عقلا آخر لم نكن نملكه..

---

1) أشير به إلى (محمّد الباقر) (57 ـ 114هـ)، وهو ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب خامس أئمة أهل البيت بجسب مذهب الإمامية.

قال النووي: سمّي بالباقر، لأنّه بقر العلم، أي شقّه، فعرف أصله وخفاياه.

وقد عاش الباقر في مطلع صباه، المحنة الكبرى التي مرّت على أهل البيت في كربلاء، وشاهد بعدها المصائب التي حلّت بأهل البيت، ومحبيهم من الحكام الطغاة فاتجه في ذلك الجو المشحون بالظلم إلى الدفاع عن مبادئ الإسلام، ونشر تعاليمه، فالتفّ حول الإمام الآلاف من العلماء، وطلاب العلم لدراسة الفقه، والحديث، والتفسير، والفلسفة، والكلام، وغير ذلك من العلوم حتى أطلق على تلك الحلقات التي كانت تجتمع في مسجد المدينة اسم الجامعة.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: وما زار أحد المدينة إلاّ عرّج على بيت محمد الباقر يأخذ عنه، وكان ممّن يزوره من يتشيّعون لآل البيت في السر، ومن نبتت في نفوسهم نابتة الانحراف، إذا فرخت في خلايا الكتمان الذي ادرعوا به، آراء خارجة عن الدين، فكان يصدّهم، ويردّهم منبوذين، مذمومين. وكان يقصده أئمة الفقه كسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة وأبي حنيفة شيخ فقهاء العراق. وكان يرشد من يجيء إليه وقد أحصى الشيخ الطوسي في رجاله ستاً وستين وأربعمائة ممّن روى عن الباقر.

حدّث عنه: أبان بن تغلب الكوفي، وأبو حمزة الثمالي، والحكم بن عُتيبة، وربيعة الرأي، والأعمش، وزرارة بن أعين، وعبد اللّه بن عطاء، وعبد الرحمن الأعرج، والأوزاعي، ومؤمن الطاق، وخلق كثير.

قال فيه حقه عبد اللّه بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر الباقر، لقد رأيت الحكم عنده كأنّه متعلّم. ويعني الحكم بن عتيبة.

وعن سلمة بن كهيل: في قوله تعالى: لآياتٍ للمُتَوَسِّمِين (الحجر:75)، قال: كان أبو جعفر منهم.

وقال ابن سعد: (كان عالماً عابداً ثقة، وروى عنه الأئمة أبو حنيفة وغيره)

وقال ابن كثير: (كان ذاكراً خاشعاً صابراً، وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب، عالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عند الجدال والخصومات)

وقال الذهبي: (وكان أحد من جمع العلم والفقه والشرف والديانة والثقة والسوَدد، وكان يصلح للخلافة)

كان يملك وحي ربه.. وربه أعرف بذاته وبكمالاته من عقولنا.

ولذلك بزنا جميعا..

ولولا غرورنا لتركنا ذلك العقال الذي عقلتنا به عقولنا وسرنا خلفه إلى ربنا.

قلنا: فكيف التقيت به؟

قال: في يوم من الأيام اجتمعت مع أصدقائي من (جمعية محبي الحكمة)(1) في حديقة خارج أسوار أثينا بالقرب من أيكة مخصصة لعبادة الإله (أبولو ليكيوس).. وقد كنا نتحدث حينها عما كنت أحدثكم عنه عن الإله صاحب الكمال المطلق.. والذي هو أقرب إلى العدم المطلق..

وكان معنا حينها بعض رجال الدين المسيحيين ممن جمعتهم بأصحابنا من الفلاسفة عقد مودة وصداقة، وكانوا جميعهم ينتمون إلى مدرسة دومينيكانيه بنابولي.. وكان أهمهم بالنسبة لنا (القديس توما الأكويني).. ذلك الذي تنسب إليه (الفلسفة المدرسة) أو (فلسفة المدرسيين).. تلك الفلسفة التي حاولت المزج بين فكر

وقال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: (هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، متفوق درّه وراضعه، ومنمق دُرّه وواضعه، صفا قلبه، وزكا عمله، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة اللّه أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، فالمناقب تسبق إليه، والصفات تشرف به)

وممّا أثر عنه من الحكم والمواعظ قوله: (عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد)

وقال: (إنّ اللّه خبأ ثلاثة أشياء في ثلاثة أشياء: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرنّ من الطاعة شيئاً، فلعل رضاه فيه، وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصية شيئاً، فلعل سخطه فيه، وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً فلعلّه ذلك الولي)

وقال: (إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه)

قال ابن كثير: هذه كلمات جوامع موانع، لا ينبغي لعاقل أن يغفلها. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

1) أقصد بها الفلسفة.. فكلمة (فلسفة) مشتقة من اللغة اليونانية القديمة، وقَدْ تُترجمُ بـ (حبّ الحكمة).. والفلاسفة في العادة يكونون متشوّقين لمعرفة العالم، والإنسان، والوجود، والقيم..

أرسطو، والفكر اللاهوتي..

بعد أن أنهينا حـديثنا، فوجئنـا برجـل غـريب يـدخل علينـا.. كـان كالشمس أو قريبا من الشمس، فلذلك انبهرنا بالنظر إليه عما كنـا فيه.. قال لنا: مرحبا بفلاسفة زمانهم.. أنا (محمد الباقر) رجــل من (آل محمد) نبي المسلمين، وقد جئتكم لأبشركم بالإله الــذي بشــر به جدي محمد.

قـال أحـدنا، وكـان عنيفـا شـديدا: لم نسـمع بفيلسـوف اسـمه (محمد).. في أي بلدة من بلاد اليونان كان يقيم؟

ابتسـم محمـد البـاقر، وقـال: وهـل الفلسـفة حكـر على بلاد اليونان؟

قال صـاحبنا: لا.. هي ليسـت حكـرا.. ولكن لعلـك لا تعـرف أن الشعوب تختلف في اهتماماتها.. نحن اليونـانيين اهتممنـا بالعقـل.. وغيرنا من الشعوب اهتمت بالزراعة أو بـرعي الأغنـام أو بالصـيد.. أو بغيرها من شؤون الحياة.

وقد كان لاهتمامنا بالعقل أثـره في رقي عقولنـا.. ولـذلك نحن نربــأ أن نســمع أحــاديث الرعــاة والفلاحين البســطاء الــذين هم كالقدمين بالنسبة للرأس.

قال الباقر: الحكمة أشرف من أن تقيـد بشـعب.. وفضـل اللـه أوسع من أن يضيق بخلقه.

قلنـا: إن كنت تريـد أن تحـدثنا بالعقـل.. فعنـدنا من العقـل مـا وصل إلى غايته.

قال الباقر: هناك العقل المجرد.. وهناك العقل المسدد.

قلنا: فأنت ترى أن عقولنا مجردة؟

قال الباقر: تلك نعمـة من اللـه عليكم تحتـاجون إلى شـكرها.. وإلى تسديدها.

قلنا: فبم نسددها؟

قال الباقر: الله الجواد الكريم الهادي البديع يستحيل أن يترك عباده هملا.. لقد أرسل إليهم الرسل.. وأنزل عليهم الكتب.. وتجلى لهم فيها.. فمن لم يمزج عقله المجرد بتسديد الله سقط في أوحال عقله.

قلنا: ولكنا لا يمكننا أن نرفض عقولنا المجردة لأي عقل آخر.

قال الباقر: يستحيل أن يتعارض العقل المسدد مع العقل المجرد..

قلنا: لا بأس.. سنقبل بك أن تجلس معنا في هذا المجلس بشرط أن تحدثنا بما يقوله العقل المسدد، وما يقوله العقل المجرد.. لنرى مدى التوافق بينهما.

قال الباقر: وأنا أقبل ما تعرضونه علي.. فاختاروا ما تريدون أن تتحدثوا فيه.

قلنا: لقد حددت أنت موضوع الحديث عندما أردت أن تبشرنا بإله محمد.

أراد الباقر أن يتحدث، فقاطعه توما، وقال: أنا أعرف محمدا ودين محمد.. وقد سمعتهم يتحدثون في بلاد الإسلام بأن لله أسماء حسنى.. فما تقول في ذلك؟

قلت: وما يقول العقل أيضا.. فنحن لا يهمنا إلا ما يقوله العقل؟

قال الباقر، وهو يتوجه بالحديث إلينا، وإلى توما: سأحدثكم بما يقوله قرآننا، وما يقوله نبينا، وما يقوله الكتاب المقدس، وما يقوله العقل المجرد.

قلنا: نحن لا نقبل أن تلقننا.. فسنناقشك في كل كلمة تقولها نرى أن عقولنا لا تستسيغها.

قال الباقر: لكم ذلك.. ولكن لا تخرجوا بنا إلى الجدل.. فلن يتعلم صاحب جدل.

قلنا: لك ذلك.. سنسلم لك بكل ما تقنعنا به.. ولن نجادلك في شيء.

قال الباقر: لقد ذكر صاحبكم أنه سـمع في بلاد المسـلمين من يتحدث عن أسماء الله الحسنى.

قلنا: فما أسماء الله الحسنى؟

قال: هي الأسماء التي تعرف الله بها إلى عباده.. فاللـه تعـالى ذكر لنا في كتبه المقدسة ما يدلنا عليه، ويعرفنا به.

قلنا: فالكتب المقدسة إذن هي مظان أسماء الله الحسنى؟

قال: بعض أسماء الله الحسنى.. فالله لا يحاط به.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: بما أن أسماء الله تدل على كمالات الله، وبما أن كمالات الله لا نهاية لها، فأسماؤها الحسنى كذلك لا نهاية لها.. وما ورد في كلمات الله المقدسة الـتي أوحاهـا إلى أنبيائـه هي بعض مـا يمكن للإنســان أن يتعــرف عليــه من هــذه الأســماء بحســب طاقتــه المحدودة.

لقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا، فقـد كـان يقـول في دعائـه: (أسألك بكل اسم هو لك، سـمَّيت بـه نفسـك، أو علَّمتـه أحـدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عنـدك ؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي..)(1)

قلنا: فتستحيل معرفة كمالات إلهك إذن؟

قال: أجل.. فالله لا يحاط بمعرفته..

قال رجل منا: ومن لم يحط بمعرفته تستحيل معرفته..

قال آخر: فأنت تدلنا على مستحيل إذن.

قـال: لا.. للمعرفـة مـراتب مختلفة(2).. فلـو أن قـائلا قـال: (لا أعرف الله) كان صادقا، ولو قال: (أعرف الله) كان صادقا أيضا.

---

1) رواه أحمد وابن حبان.

2) انظر: المقصد الأسنى للغزالي.

قال الرجل: أليس النفي والإثبات لا يصدقان معا، بل يتقاسمان الصدق والكذب، فإن صدق النفي كذب الإثبات، وبالعكس؟

قـال البـاقر: ذلـك إذا اتحـد وجـه الكلام.. أمـا إذا اختلـف فإنـه يتصور الصدق في القسمين.. وذلك كما لو قال قائلكم لأخيـه: (هـل تعـرف سـقراط؟)، فـإن قـال: (وهـل سـقراط ممن يجهـل شأنه.. أو هل في العالم من لا يعرفه..) كان صادقا بقوله هذا.. ولو قال: (ومن أنـا حـتى أعـرف سـقراط.. هيهـات لا يعـرف سـقراط سـوى سـقراط أو من هـو مثلـه أو فوقـه، ومن أين لي أن أدعي معرفته أو أطمع فيها) كان صادقا أيضا.

وهكذا، فلو عرضنا خطا منظوما على عاقل، وقلنا: هـل تعـرف كاتبه، فإن قال: (لا)، صدق ولو قال: (نعم كاتبه هـو الإنسـان الحي القـادر السـميع البصـير سـليم اليـد العـالم بصـناعة الكتابـة.. فـإذا عرفت كل هـذا منـه فكيـف لا أعرفـه)، فهـذا أيضـا صـدق.. ولكن الأحق والأصدق قوله:(لا أعرفه)، فإنـه بالحقيقـة مـا عرفـه، وإنمـا عرف احتياج الخط المنظوم إلى كاتب حي عالم قادر سميع بصـير سليم اليد عالم بصناعة الكتابة ولم يعرف الكـاتب نفسـه، فكـذلك الخلق كلهم لم يعرفوا إلا احتياج هذا العـالم المنظـوم المحكم إلى صانع مدبر حي عالم قادر.

قـال الرجـل: دعنـا من هـذا.. وحـدثنا عن السـبل الـتي يمكن لعقولنا أن تتعرف بها على الله.. وما علاقة ذلك الأسماء الحسنى؟

قال: لمعرفة اللـه سـبيلان.. أمـا أحـدهما فقاصـر، وأمـا الآخـر فمسدود.

قال الرجل: فما السبيل القاصر؟

قال: السبيل القاصـر هـو ذكـر الأسـماء والصـفات، وذلـك عن طريق التشـبيه بمـا عرفنـاه من أنفسـنا.. فإنـا لمـا عرفنـا أنفسـنا قادرين عالمين أحياء متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله عز وجل أو عرفناه بالدليل فهمناه فهما قاصرا.. فحياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعد من حيـاة اللـه عـز وجـل وقدرتـه وعلمـه، بـل لا مناسـبة بين البعيدين..

وفائـدة تعريـف اللـه عـز وجـل بهـذه الأوصـاف إيهـام وتشـبيه ومشاركة في الاسم، لكن يقطع التشبيه بأن يقـال:﴿.. لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ..(11)﴾ (الشورى)، فهو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين.

وكأنـا إذا عرفنـا أن اللـه تعـالى حي قـادر عـالم فلم نعـرف إلا أنفسـنا ولم نعرفـه إلا بأنفسـنا إذ الأصـم لا يتصـور أن يفهم معـنى قولنا:(إن الله سـميع)، ولا الأكمـه يفهم معـنى قولنـا:(إنـه بصـير)، ولذلك إذا قال القائل: (كيف يكون الله عز وجل عالمـا بالأشـياء؟) فنقول:(كما تعلم أنت الأشياء)، فإذا قـال:(فكيـف يكـون قـادرا؟)، فنقول: (كما تقدر أنت)، فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه مـا يناسبه، فيعلم - أولا - ما هـو متصـف بـه ثم يعلم غـيره بالمقايسـة إليه.

فإن كان للـه عـز وجـل وصـف وخاصـية ليس فينـا مـا يناسـبه ويشاركه في الاسم لم يتصور فهمه أبدا، فما عرف أحد إلا نفســه، ثم قايس بين صفات الله تعـالى وصـفات نفسـه، وتتعـالى صـفاته عن أن تشبه صفاتنا، فتكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإيهام والتشـبيه، فينبغي أن تقـترن بهـا المعرفـة بنفي المشـابهة، وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسم.

قلنا: عرفنا السبيل الأول.. فما السبيل الثاني.. ذلك الذي نعتــه بالسبيل المسدود؟

قال: هو أن ينتظر العبد أن تحصـل لـه الصـفات الربوبيـة كلهـا حتى يصير ربا.. وهذا السبيل مسدود ممتنع إذ يسـتحيل أن تحصـل تلك الحقيقة لغير الله تعالى.. وهذا هو سبيل المعرفـة المحققـة لا غير.. وهو مسدود قطعا إلا على الله تعالى.

ولهذا، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعـالى بالحقيقـة غـير اللـه.. بل على هذا المنوال يمكن أن يقال بأنه يسـتحيل أن يعـرف النـبي غير النبي.. وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصية موجودة لإنسـان بهـا يفـارق من ليس نبيـا، ولكن لا يعـرف ماهية تلك الخاصية إلا بالتشبيه بصفات نفسه.. بـل يمكن أن يقـال على هذا المنوال: لا يعرف أحد حقيقة الموت، وحقيقة الجنة والنار إلا بعد الموت، ودخول الجنة أو النار، لأن الجنة عبـارة عن أسـباب

ملذة، ولـو فرضـنا شخصـا لم يـدرك قـط لـذة لم يمكننـا أصـلا أن نفهمـه الجنـة تفهيمـا يرغبـه في طلبهـا، والنـار عبـارة عن أسـباب مؤلمة، ولو فرضنا شخصـا لم يقـاس قـط ألمـا لم يمكننـا قـط أن نفهمه النار فإذا قاساه فهمناه إياه بالتشبيه بأشد مـا قاسـاه، وهـو ألم النار، وكذلك إذا أدرك شيئا من اللذات فغايتنا أن نفهمـه الجنـة بالتشـبيه بـأعظم مـا نالـه من اللـذات.. فـإن كـان في الجنـة لـذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمـه أصـلا إلا بالتشـبيه بهـذه اللـذات، بـل العبـارة الصـحيحة عنهـا أنهـا مـا لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال رجل منا: فمـا النهايـة الـتي تنتهي إليهـا معرفـة العـارفين بالله؟

قــال: نهايــة معرفــة العــارفين باللــه عجــزهم عن المعرفــة، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم البتـة معرفتـه، وأنـه يسـتحيل أن يعـرف اللـه المعرفـة الحقيقيـة المحيطـة بكنـه صفات الربوبية إلا الله.. فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا فقد عرفوه.. أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفتـه، وهو الذي أشار إليه قـائلهم: (العجـز عن درك الإدراك إدراك)، بـل هو الذي عناه سيد البشر ﷺ حيث قال:(لا أحصـي ثنـاء عليـك أنت كما أثنيت على نفسك)، ولم يرد به أنـه عـرف منـه مـا لا يطاوعـه لسانه في العبارة عنه، بل معناه:(إني لا أحيط بمحامدك وصــفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك)

ولهذا، فإنه لا يحظى مخلوق بملاحظة حقيقـة ذاتـه إلا بـالحيرة والدهشة.. وأما اتسـاع المعرفـة فإنهـا تكـون في معرفـة أسـمائه وصفاته.

قال رجل منا: فكيف تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأوليـاء في معرفة الله إذن ما دام الأمر كما ذكرت؟

قال: لقد ذكرت لكم أن السبيل لذلك هـو معرفـة أسـماء اللـه الحسـنى.. فهي البـاب الوحيـد المفتـوح لمعرفـة اللـه.. وفي هـذه الأسماء تتفاوت مـراتب الخلـق.. فليس من يعلم أنـه تعـالى عـالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياتـه في ملكـوت السـموات

والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة ممعنا في التفصيل، ومستقصيا دقائق الحكمة، ومستوفيا لطائف التدبير، ومتصفا بجميع الصفات الملكية المقربة من الله عز وجل.

قلنا: وعينا هذا.. فهلا انتقلت من الجملة إلى التفصيل..

قال: سلوني ما بدا لكم.. وستجدون من أسماء الله ما يدلكم على كمالات الله، وأنه أهل لكل حمد وثناء ومجد.

1 ـ الحق

قام أولنا، وكان اسمه (بروتاجوراس)(1)، وكان من السفسطائيين، وقد جرته سفسطته إلى الإلحاد.. فكان لا يؤمن بالله، وكان يعتبر أن كل ما يقال عنه مجرد أوهام شخصية لا علاقة لها بالواقع.. بل كان يرى فوق ذلك أن الحقيقة المطلقة غير موجودة، لأن الحقائق تتعدد بتعدد الأشخاص واختلاف أحوالهم.

قام، وقال: إن مبدأ كل كمال هو الحقانية.. والتي تعني وجوب الوجود وثبوته وعدم علاقته بأي تبعية؟

نظر إليه الباقر، وكأنه قرأ أفكاره التي كان يدافع عنها كل حين، وقال: أنت بقولك هذا تذكر اسما من أسماء الله الحسنى ورد ذكره في كتبه المقدسة.. دلت عليه كل الدلائل.

قال: فما هو؟

____

1)هو من أشهر الفلاسفة السوفسطائيين، وتعد آراؤه مصدراً لمذهب هؤلاء الفلاسفة، ولد في مدينة أبديرا حوالي عام 480 ق.م.. وقد طاف في أنحاء اليونان، ثمّ استقر به المقام في أثينا، و ضع ً كتابا بعنوان (الحقيقة) شكك فيه في وجود الآلهة، اعتبر الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، ولكون أفراد الناس كثيرين فإنّ إحساسات الناس متعددة ومتناقضة أحياناً، والحواس هي وسيلة الإدراك الوحيدة ومالا يدرك بها فليس موجوداً.جاء في أول كتابه: (لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة، فإنّ أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم، أخصها غموض المسألة وقصر الحياة)، وقد اتُهم بسبب ذلك بالإلحاد، وحكم عليه بالإعدام، وأحرقت كتبه علناً، ففر هارباً، ومات ً غرقا أثناء فراره سنة 410 ق.م(انظر الفلسفة اليونانية د.بيصار ص 72)

قال الباقر: هو اسم **الحق**(2).. فالله هو الحق المبين..

لقد ذكر ربنا هذا الاسم فقال:﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَـوْلاهُمُ الحَـقِّ أَلا لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْـرَعُ الحَاسِـبِينَ) (الأنعـام:62)، وقـال:﴿ فَتَعَـالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلا تَعْجَل بِـالقُرْآنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْضَـى إِلَيْـكَ وَحْيُـهُ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلماً ﴾ (طه:114)، وقال:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُـوَ الحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج:6)

قال بروتاجوراس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: بما أنا اتفقنا على أن نقرب معاني أسماء اللـه بمـا نعيشه في حياتنا (2)، فأجبني.. إذا كان معك جهـاز كهربـائي، وكنت بحاجة إلى طاقة كهربائية، ثم توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضـعت فيه الشريط، ولم تر الآلة تتحرك، فماذا تستنتج من هذا؟

قال: أستنتج أن المأخذ ليس فيه كهرباء.

قال الباقر: ولو توجهت إلى مأخذ آخـر ووضـعت فيـه الشـريط فاشتغلت الآلة، فماذا تستنتج؟

قال: أستنتج أن المأخذ فيه كهرباء.

قال الباقر: فأول المأخذين باطل.. وأما الثاني فحق؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.

قال الباقر: فهذا أول ما يدل عليه اسم الحق.. فالله هـو الحـق الوحيد، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً، بل لن تجد إلا سـراباً في سـراب.. لن تجـد إلا وعـودا كاذبـة، وأقـوالا فارغـة، وكلمـات طنانة، لكنها هراء في هراء.. أما إذا توجهت إلى الله، فسـتجد كـل

2) الحق في اللغة اسم للموصوف بالحقية وإظهار الحقيقة، وهو يأتي على عدة معان ، منها المطابقة والموافقة ، ومنها الثبات دون الزوال ، ومنها المتوحد عمن سـواه خلاف الشرك والظلم.. والله سبحانه وتعالى في حق ذاته باق لا يـزول.. وسـنته ثابتـة جاريـة لا تحول.. ودينه ثابت في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وكل صفاته حـق فهي كاملة جامعة للصدق، فيها الكمال والجمال والجلال.

2) اسـتفدنا التقريبـات والتوضـيحات المـذكورة هنـا من شـرح العلامـة محمـد راتب النابلسي لشرح أسـماء اللـه الحسـنى من خلال دروسـه الصـوتية المنتشـرة بكـثرة على النت.

شيء..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ والذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40)﴾ (النور)

قال ذلك، ثم التفت إلى الجمع المحيط به، وقال: إن أخطر ما في الحياة أن نتجه إلى جهة لا تملك شيئاً، وأخطر ما فيها أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي.. وأخطر كلام نقوله أن ننطق بشيء لا يرتبط بالواقع.

ولهذا، فإننا إذا كنا مع الحق، فإننا سنشعر بسعادة كبيرة لا نهاية لها.. قد تسألون لماذا؟

والجواب هو أننا في ذلك الحين نكون مع الثابت ومع الموجود، ولا يخيب من كان مع الثابت، ولا يضل من كان مع الموجود..

هذا إذا كنا مع موجود ممكن، فكيف إذا كنا مع موجود واجب..

قال: ما تعني؟

قال الباقر: أنتم تعلمون أن الحق مقابل للباطل[1].. وبما أن الأشياء تستبان بأضدادها، وكل ما يخبر عنه فإما باطل مطلقا، وإما حق مطلقا، وإما حق من وجه باطل من وجه.. فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقا.. والواجب بذاته هو الحق مطلقا.. والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من وجه، فهو من حيث ذاته لا وجود له فهو باطل، وهو من جهة غيره مستفيد للوجود فهو من هذا الوجه الذي يلي مفيد الوجود موجود فهو من ذلك الوجه حق ومن جهة نفسه باطل.

وانطلاقا من هذا، فإن أحق الموجودات بأن يكون حقا هو الله.. وأحق المعارف بأن تكون حقا هي معرفة الله.. وأحق الكلمات

1) انظر: المقصد الأسنى.

بأن تكون حقا هي الكلمات المعبرة عن معرفة الله.. ذلك لأن الحق يطلق على الوجود في الأعيان، وعلى الوجود في الأذهان وهو المعرفة، وعلى الوجود الذي في اللسان وهو النطق.

فأحق الأشياء بأن يكون حقا هو الذي يكون وجوده ثابتا لذاته أزلا وأبدا، ومعرفته حقا أزلا وأبدا، والشهادة له حقا أزلا وأبدا.. وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي.

والله تعالى هو الحقيق بكل ذلك:

فالله تعالى واجب الوجود لذاته من غير حاجة لأي علة أو سبب، وكل ما عداه دائم الافتقار إليه في وجوده، ولهذا فهو هالك من حيث ذاته، كما قال تعالى:﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.. (88) ﴾ (القصص)، وهو كذلك أزلا وأبدا، ليس ذلك في حال دون حال، لأن كل شيء سواه أزلا وأبدا من حيث ذاته لا يستحق الوجود، ومن جهته يستحق، فهو باطل بذاته حق بغيره.

والمعرفة بالله حق في نفسها، لأنها مطابقة للمعلوم أزلا وأبدا، ومطابقتها لذاتها لا لغيرها، بخلاف العلم بوجود غيره، فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجودا، فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلا، وذلك الاعتقاد أيضا لا يكون حقا لذات المعتقد لأنه ليس موجودا لذاته، بل هو موجود لغيره.

والشهادة لله بالوحدانية وغيرها هي أحق الأقوال لأن الناطق بها صادق أبدا وأزلا، لذاته لا لغيره..

2 ـ الحي

قام الثاني، وكان اسمه (طاليس)، وقد كان شديد الولع بجده الفيلسوف الكبير (طاليس) (1).. وكان في كل أحاديثه معنا يردد ما كان يردد جده من أن أنّ الماء هو أصل الأشياء ومبدؤها، منه بدأت وإليه تنحل، وأنه هو الجوهر الأساس الذي تولدت عنه كل

1) (طاليس) (550 -624ق.م) وهو من أَوّل وأشهر فلاسفة اليونان، وهو أحد الحكماء السبعة، درس العلوم دراسة عميقة، عمل مهندساً بحرياً، واستطاع أن يضع تقويماً بحرياً للملاحين يحتوي على إرشادات وقواعد فلكية كانت لها آثارها القيمة في تاريخ الملاحة البحري. (انظر الفلسفة اليونانية:بيصار ص 55 ، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون:د.عزت قرني ص.24)

الموجودات، وأنّه قابل لكل صورة، ومنه أبدعت الجـواهر كلهـا من السماء والأرض وما بينهما، وأنه هـو علّـة كـل مبـدع(1)، وأنـه حين جمد الماء تكونت الأرض، وحين انحـل تكـون الهـواء، ومن صـفوة الهواء تكونت النّـار، ومن الـدخان والأبخـرة تكـونت السـماء، ومن الاشتغال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب.

قـام في ذلـك المجلس، وقـال: لاشـك أن من أسـماء إلهـك الماء.. فالماء هو أصل الموجودات.. وهو حياة الحياة..

ابتسـم البـاقر، وقـال: المـاء صـنعة اللـه.. والحيـاة هبـة اللـه.. ويستحيل أن يفتقر واهب الحياة للحيـاة.. فلا يهب الحيـاة إلا الحي الذي لا يموت..

قال طاليس: فمن أسماء إلهك إذن (الحي)

قـال البـاقر: أجـل.. لقـد ذكـر اللـه هـذا الاسـم في كلماتـه المقدسة، فقال:﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحى القيوم ﴾ (البقرة: 255) وقال:﴿ وَعَنَتِ الوجـوه لِلْحَىّ القيـوم ﴾ (طـه: 111) وقـال:﴿ هُـوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ (غافر: 65)

وذكره في كلماته السابقة إلى أنبيائه، ففي (يوشع 3: 9-10): (وَقَالَ يَشُـوعُ لأَبْنَـاءِ إِسْـرَائِيلَ: تَعَـالَوْا إِلَى هُنَـا وَاسْـمَعُوا كَلاَمَ الـرَّبِّ إِلَهِكُمْ. بِهَذَا تَعْرِفُونَ عَنْ يَقِينٍ أَنَّ اللهَ الْحَيَّ مَوْجُودٌ بَيْنَكُمْ، وَأَنَّهُ يَطْـرُدُ مِنْ أَمَامِكُمُ الْكَنْعَـانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْحِـوِّيِّينَ وَالْفِـرِزِّيِّينَ وَالْجِرْجَاشِـيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ)

قال طاليس: نحن نعرف الحي منا.. ولكنا لا نعرف كيف يكـون ربك حيا؟

قال الباقر: فمن الحي منا؟

قال طاليس: لقـد ذكـر أصـحابنا أنـه المـدرك الفعـال.. فمن لا

1) هو يريد بهذا أن الماء هو مبدأ التركيبات الجسمانية، لا المبدأ الأول في الموجودات العلوية.. لكنه لما أعتقد أنّ العنصر الأول هـو قابـل كـل صـورة ، أي منبـع الصـور كلهـا ، فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلهـا، ولم يجـد عنصـراً على هذا النهج، مثل الماء فجعله المبدع الأول في المركبـات، وأنشـأ منـه الأجسـام والأجـرام السماوية والأرضية.(الملل والنحل 3/121)

فعل له أصلا ولا إدراك فهو ميت..

قال الباقر: فما أقل درجات الحياة؟

قال طاليس: أن يشعر المدرك بنفسه.. فما لا يشعر بنفسه فهو الجماد والميت.

قال الباقر: وما أكمل درجات الحياة؟

قال طاليس: أكمل درجات الحياة تكون لمن دخلت جميع المدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول.

قال الباقر: أذلك هو الحي الكامل المطلق؟

قال طاليس: أجل..

قال الباقر: فذلك هو الله عز وجل.. فهو الحي المطلق، وكل حي سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله، وكل ذلك محصور في قلة.

سكت طاليس قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك يمكنك أن تقول بأننا أيضا نتمتع بحياة مطلقة كحياة إلهك.. فنحن نعيش حياة ملء السمع والبصر، فيمكن لعقولنا أن تتجول في الأكوان مهما دقت أو ترفعت، ويمكن لأقدامنا أن تسير حيث تشاء.. ولعلك قد سمعت برحلتنا إلى القمر..

ابتسم الباقر، وقال: ولكن حياتنا مع ذلك متوقفة على زمن محدود، وعلى أجهزة محدودة، فعمر الإنسان بعمر شرايينه، وعمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه، ومتعلق بجهازه العصبي، ومتعلق بعمل الدماغ، ومتعلق بالكليتين، فلو أن البول احتبس في الكليتين ست ساعات تتوقف الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان فلا يعيش الإنسان ثلاث ساعات من دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت.. وهكذا، فقد جعل الله للموت أسبابا لا يمكن عدها[1].. أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، لأنه حي بذاته، فلا يستمد حياته من أي جهة من الجهات.

---

1) انظر درس النابلسي في شرح اسم الحي في موقعه على الانترنت.

3 ـ القيوم

قام الثالث، وكان اسمه (أنكسماندريس)، وكـان فخـورا بجـده (أنكسماندريس)(1)، وكان شـديد الاختلاف مـع صـديقنا (طـاليس) بالرغم من أنهما أبناء بلدة واحدة، ومن مدرسة فلسفية واحده..

فقـد كـان (أنكسـماندريس) – خلافـا لطـاليس- يـرى أنّ المـاء ليس هو أصل الكون، وذلك لاستحالة اليابس بالحرارة إلى المـائع، فالجامـد سـابق على المـاء، والمـاء بـذلك ليس أصـلا للكـون.. بالإضافة إلى أن الماء معين ومحـدود، ويسـتحيل أن يكـون المبـدأ الأول معينـاً محـدوداً، وإلاّ لمـا تولّـدت منـه الأشـياء المتمـيزة المحدودة.

وكان يرى أنّ الأشياء كانت في البـدء شـيئاً واحـداً وجـدت فيـه جميع المعاني متعادلـة متكافئـة، وبفعـل التطـور والحركـة حـدثت انفصـالات واجتماعـات بين بعضـها والبعض الآخـر بنسـب معينـة وبمقادير متفاوتة فتكونت عنها الأشياء الطبيعية..

ولذلك، فقد كان يـرى أن المـادة اللامتناهيـة ثابتـة غـير حادثـة، وأنها أبدية، وأن الحركة الدائمة هي التي تعمل على تغيـير الأشـياء التي من صفاتها التحول والتغير.. والتغيير يحصل بشكل آلي مجرد وبمحض الصدفة، فليس هناك علّـة فاعلـة، وليس هنـاك غايـة من وراء الفعل(2).

قام في ذلك المجلس، وقـال: لا يكفي أن يكـون الكامـل حقـا وحيا.. بل لابد أن تكون له القوامة الكاملـة على الأشـياء، وإلا كـان كماله قاصرا؟

قـال البـاقر: أنت بكلامـك هـذا تـذكر اسـما من أسـماء اللـه الحسـنى، هـو اسـم (القيـوم)، وقـد ورد ذكـره في كلمـات اللـه المقدسة التي أوحاها لأنبيائه..

ففي القرآن الكـريم..﴿ وَعَنَتِ الوُجُـوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ وَقَـدْ خَـابَ

---

1) هـو (أنكسـماندريس)، (547 -611 ق.م) فيلسـوف مـالطي، وهـو ثـاني فلاسـفة المدرسة (اليونية).

2) انظر: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص.26.

مَنْ حَمَلَ ظُلمـاً (111) وَمَنْ يَعْمَـل مِنَ الصَّـالِحَاتِ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلماً وَلا هَضْماً (112)﴾ (طه)

قال أنكسماندريس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: قال الباقر: إن هذا الاسـم يـدل على أن اللـه قـائم بذاته، ومقوم لكل ما عداه.

قال أنكسماندريس: إن كونه قائما بذاته يسـتدعي أن لا يكـون عَرَضاً في موضوع، ولا صورة في مادة، ولا حـالاّ في محـل أصـلاً.. لأن الحال مفتقر إلى المحـل والمفتقـر إلى الغـير لا يكـون قيومـاً بذاته؟

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت لا يفتقر لمحل.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاتـه يسـتدعي أن تكـون ماهيتـه غير مركبة من الأجزاء.. وذلك لأن كـل مـركب مفتقـر في تحققـه إلى تحقق كل واحد من أجزائه، وجـزؤه غـيره، وكـل مـركب فهـو متقوّم بغـيره، والمتقـوم بغـيره لا يكـون متقومـاً بذاتـه، فلا يكـون قيوماً.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاته يمتنع كونـه متحـيزاً، لأن كـل متحـيز فهـو منقسـم، وإذا ثبت أنـه ليس بمتحـيزاً امتنـع كونـه في الجهـة، لأنـه لا معـنى للمتحـيز إلا مـا يمكن أن يشـار إليـه إشـارة حسيّة، وإذا ثبت أنه ليس بمتحيز وليس في الجهة، امتنع أن يكـون له أعضاء وحركة وسكون.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقيوم لكل ما سواه يسـتدعي أن يكـون كل ما سواه مُحْدَثاً، لأن تأثيره في تقويم ذلك الغير يمتنع أن يكـون حال بقاء ذلك الغير، لأن تحصيل الحاصل محال فهو إما حال عدمه وإما حال حدوثه وعلى التقديرين وجب أن يكون الكل محدثاً.

قال الباقر: صدقت.. والحقيقة كما وصفت.

4 ـ العليم

قام رابعنا، وكان اسمه (فيثاغورث)، وكـان دائم الـذكر لسـميه الفليسوف الرياضي (فيثاغورث بن منسـارخس)[1]، وكـان يـرى - كما يرى سميه - أن أصل الكون هو العدد، لأنّه أشبه بعالم الأعـداد منه بعالم الماء أو النّار أو الهواء، فالعـدد أوّل مبـدع أبدعـه البـاري تعــالى، وأوّل العــدد الواحــد، وأن مبــادئ الأعــداد هي عناصــر الموجودات، لأنّ الموجودات أعداد، والعـالم على هـذا مـر كّب من عدد ونغم، والموجودات ليست إلا محاكية لنماذجهـا الأولى اللازمـة لها وهي الأعداد، وما يتصور من مفارقة بينها فإنما هي في الــذهن فقط لا في الحقيقـة والواقـع، ولا يمكن للأشـياء أن يتمـايز بعضـها عن بعض إلا بالعـدد..فمثلاً الأطـول يتمـيز عن الأقصـر والأكـبر عن الأصغر بزيادة وحدات وعدد فقط، لا بزيادة شيء خارج عن العدد، وكذا النّغم الذي تتكون منه الفواصل الموسيقية، لا يتميز عن غيره إلا بتناسب بين وحداته المختلفة تجعل من مجموعهـا صـوتاً ونغمـا يألفه السمع[2].

قام في ذلك المجلس، وقال: إن كون إلهك حيا قيوما يستدعي كونه عليما.. فلا يمكن أن تتحقق الحياة والقيومية بصورتها الكاملة لغير العالم.

قال: صدقت.. ولذلك، فـإن من أسـماء اللـه الحسـنى (العليم)

---

1) هو (فيثـاغورث بن منسـارخس)، ولـد سـنة572 ق.م في جزيـرة سـاموس من بلاد اليونان، سافر فيما بعد إلى مصر ثم استقر في جنـوب إيطاليـا وهنـاك أسـس مدرسـته. (الفلسفة اليونانية:د.بيصار، ص60)

2) الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص.32.

(1).. قال تعالى في القرآن الكريم يذكر هذا الاسم: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان:34)، وقال: ﴿ قُل لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(النمل:65)

قال فيثاغورث: دعنا من النصوص المقدسة.. وحدثنا بما تقوله عقولنا المقدسة.. فما برهان علم الله من العقل؟

قال الباقر: ألا ترى إلى هذا الكون الرحب الممتلئ بمظاهر التناسق والحكمة والإبداع في كل صغيرة منه وكبيرة.. ألا يدل ذلك على أن اللّه هو الصانع لهذا الكون؟

قال فيثاغورث: أنا أسلم بوجود الله.. ولكني لا أسلم بعلمه.

قال الباقر: سأذكر لك ثلاثة أدلة على هذا.

قال فيثاغورث: فهات أولها.

قال الباقر(2): أولها هو برهان الخلق والنظم.. فالنظام المذهل الموجود في هذا الكون، والقوانين الدقيقة التي تسير جميع ذرات الوجود، ابتداء من الذرة وانتهاء بالمنظومات والكواكب السيارة، وابتداء من الموجودات المجهرية وانتهاء بالانسان الذي هو أرقى

---

1) وقد نص على هذا الاسم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (البقرة:137)

وقد ورد ا مقرونا في الكتاب والسنة بأسماء أخرى كثيرة تحمل في اقترانها معان كبيرة، فاقترن بالسميع والحكيم والعزيز والحليم والخلاق والقدير والفتاح والخبير..

وفي الحديث أن من دعاء رسول الله ﷺ قوله: (أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) (رواه أبو داود)

وهو في اللغة من أَبنية المبالغة، عَلِيمٌ على وزن فعِيل، فعله عَلِم يعلم علما، ورجل عالم وعَلِيمٌ، والعِلمُ نقيضُ الجهل.

ويجوز أن يقال للإنسان الذي عَلمه الله عِلما من العُلوم عَلِيم، كما قال يوسف - عليه السلام - للملك: ﴿ اجْعَلنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظ عَلِيمٌ ﴾(يوسف:55)، وهو - عليه السلام - عليم على اعتبار محدودية علمه ومناسبته لقدره فهو ذو علم وموصوف بالعلم كما قال - عز وجل -: ﴿ وَإِنَّهُ لَذو عِلمٍ لِمَا عَلَمْنَاهُ ﴾(يوسف:68)

2) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

نموذج في الخلق، ومن الأعشاب الأحادية الخلية التي تعيش في أعماق المحيطات، وحتى الأشجار العظيمة التي يبلغ طولها خمسين مترا.. وهكذا النظم المعقدة العجيبة التي تسيطر على روح الانسان وقلبه، والتنوع المذهل الملحوظ في الكائنات الحية من النباتات والحيوانات، والتي تبلغ أنواعها مئات الآلاف، فهذه جميعا تدل على علم اللّه اللامحدود.. فهل يمكن أن يصنع أحد شيئا ويجهل أسراره؟

فخالق العين، ونظام الدماغ المعقد، والمدارات الإلكترونية العجيبة التي تدور حول نواة الذرة هو عالم بها حتما.. وعليه فكما يدلنا برهان النظم على وجود اللّه، فإنه يثبت عدم محدودية علمه أيضا.

وبما أن الخلق مستمر ودائم فإن الموجودات في جميع أحوالها تفتقر إلى علم اللـه في كل لحظة من لحظاتها كما تفتقر إلى وجوده.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا، فهات الثاني.

قال الباقر: الثاني هو برهان الإمكان والوجوب.. فقد ثبت بكل أدلة العقول أن واجب الوجود هو اللّه وحده، وما سواه ممكن الوجود.. وثبت أيضا بأن الممكنات محتاجة وتابعة له في الوجود والبقاء معا، أو بتعبير آخر الجميع حاضر بين يديه، وهذا الحضورالدائم دليل على علمه بجميع الأمور، لأن العلم بحقيقة المعلوم ليست إلاحضور ذات المعلوم عند العالم.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا.. فهات الثالث.

قال الباقر: الثالث هو برهان اللاتناهي.. فبغض النظر عن مسألة العلة والمعلول، فإن للّه سبحانه وتعالى وجود غير متناهي من جميع الجوانب، لذا لا يخلو منه مكان أو زمان (مع أنه لايحده مكان أو زمان)، لأننا لو افترضنا خلو مكان أو زمان من وجوده تعالى فقد حددناه.. لذا فعدم تناهيه يدل على حضوره وإحاطته بجميع الوجود، أو بتعبير آخر كل شي ماثل بين يديه.. فهل يمكن أن يكون العلم غير هذا الحضور؟

ذلـك أن موانـع العلم إمـا أن تكـون حجبـا ماديـة، وإمـا بعـد المسافة، ونحن نعلم انتفـاء هـذه الأمـور عن ذات البـاري سـبحانه وتعالى.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. ولكن ألا ترى أن لنـا من العلم مـا يمكن أن نعتبر به أنفسنا علماء.. أفلسنا مثل الله في ذلك؟

قـال البـاقر: نعم أنتم علمـاء.. ولكن شـتان مـا بين علم اللـه وعلمكم.. بـــل وعلم الخلائـــق جميعـــا.. إن علمي وعلمكم وعلم الخلائق جميعا مقيد محدود.. أما علم اللـه، فليس لـه قيـود تحـده، فعلمه فوق كل ذي علم كما قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـات مَنْ نَشَـاء وَفَـوْقَ كُـل ذِي عِلم عَلِيمٌ ﴾(يوسـف:76)، وروي في الحـديث عن رسول الله ﷺ في قصة موسى والخضر - عليهمـا السـلام - قـال: (قَالَ موسى: هَـل أَتَّبِعُـكَ عَلَى أَنْ تعلمـني مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَـدًا، قـال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ معي صَبْرًا، يَـا مُوسَـى إني عَلَى عِلم مِنْ عِلمِ اللـهِ عَلمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلمِ عَلمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ قَال: سـتجدني إِنْ شَـاءَ اللـه صَـابِرًا، وَلاَ أَعْصِـي لَـكَ أَمْـرًا، فَانْطَلَقَـا يَمْشِـيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ لَيْسَ لَهُمَـا سَـفِينَةٌ، فَمَـرَّتْ بِهِمَـا سَـفِينَةٌ، فَكَلمُـوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعُرِفَ الخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَـاءَ عُصْـفُورٌ فَوَقَـعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ في البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ علمي وَعِلمُكَ مِنْ عِلمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْـفُورِ في البَحْرِ)(1)

فهذه النصوص المقدسة تدل على أن الله عليمُ بمـا كـان ومـا هو كائن وما سيكونُ، لم يَزَل عالِما، ولا يَـزال عالمـا بمـا كـان ومـا يكـون، ولا يخفى عليـه خافيـة في الأرض ولا في السـماء، أحـاط عِلمُه بجميع الأشياء ظاهرهـا وباطِنِهـا، دقِيقهـا وجليلهـا.. فهـو يعلم الأشـياء قبـل كونهـا.. بـل كـل أمـور الغيب قـدرها اللـه في الأزل، ومفتاحها عنده وحده ولم يزل.

أما علمنا.. فهو محدود جـدا.. وحـق لـه أن لا يكـون إلا كـذلك.. فنحن لا نملـك من القـدرات والأدوات إلا مـا يجعـل علمنـا بهـذه الصفة:

---
1) رواه البخاري.

فقـدرتنا الحسـية محـدودة جـدا.. فنحن نسـتطيع إدراك قسـم صـغير من موجـودات عالمنـا الحسـي فقـط، كمـا أن قـدرتنا على التحليل العقلي أيضا ليست قادرة إلا على إدراك قسـم صـغير من المسائل العقلية.

وعمرنا بالنسـبة إلى عمـر عـالم الوجـود كسـاعة واحـدة.. بـل كدقائق معدودة لا أكثر.

والكـرة الأرضـية الـتي نعيش عليهـا صـغيرة ومحـدودة جـدا بالمقارنة مع كـواكب المجـرات الـتي لا تعـد ولاتحصـى.. فالعلمـاء يقدرون عدد النجوم الموجودة في مجرتنا فقط بمئة ألـف مليـون، وقد بلغ عدد المجرات التي اكتشفها البشر بهذه الأجهـزة الحقـيرة لحد الآن ألف مليون مجرة.. ولهذا قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَـا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) ﴾ (لقمان)

قـال فيثـاغورث: لقـد ذكـرت أن اللـه يعلم كـل شـيء، وذلـك يسـتدعي أن يعلم ذاتـه.. ويعلم غـيره.. ويعلم الكليـات.. ويعلم الجزئيات(1).

قال البـاقر: أجـل.. وقـد دلت على ذلـك النصـوص المقدسـة.. فاللـه تعـالى يقـول عن ذاته:﴿ فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ.. (19)ـ ﴾ (محمد)، ويخبرنا عن أسمائه الحسنى، فيقول:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ (22) هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُـدُّوسُ السَّـلَامُ الْمُـؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيـزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (23) هُـوَ اللَّهُ الْخَـالِقُ الْبَـارِئُ

1) وقع الخلاف بين الفلاسفة خصوصـا، ومن تبعهم من أصـحاب الأديـان والمـذاهب حول علم اللّه سبحانه، من ثلاث جهات.

الأولى: في أنه هل يعلم ذاته، كما يعلم غيره.. أو أن علمه يختص بالتعلق بغيره؟

الثانية: في انه سبحانه هل يعلم بعلم شامل للكليّـات والجزئيـات معـاً، أو انـه يختص بالكليات فقط؟

الثالثة: في انه سـبحانه، يعلم بالشـيء قبـل وجـوده أو لا؟ (انظـر: تهـافت الفلاسـفة للغزالي، المسألة 11 - 12 وشرح التجريد للعلامة الحلي 221 وما بعدها)

وسنناقش باختصار هذه المسائل هنا، ونـرد على الشـبه المرتبطـة بهـا، باعتبارهـا من المسائل التي لا تزال تجد من يدافع عنها.

الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾ (الحشر)

ويخبرنا عن علمه بغيره بكلياته وجزئياته، فيقول:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)﴾ (يونس)، ويقول:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) ﴾ (الأنعام)

قال فيثاغورث: فأخبرني بما يدل عليه العقل.. فقد ذهب أصحاب العقول من أصحابنا من الفلاسفة إلى خلاف ما تقول.

قال الباقر: فما قالوا؟

قال فيثاغورث: لقد استدلوا على نفي علم الله بذاته بأن العلم، لما كان إضافة قائمة بين طرفين، عالم ومعلوم، كان ذلك يستدعي ضرورة المغايرة بين هذين الطرفين، فإنه حينئذ، إذا قيل بأن الله يعلم ذاته، فمعنى ذلك أن علمه مغاير لذاته، مع أن الواجب واحد من جميع الجهات.

أو بعبارة أخرى: كيف يمكن أن يحيط اللّه علما بذاته المقدسة، في حين أن العالم والمعلوم يجب أن يكونا شيئين؟ فهل يوجد تفاوت بين علم اللّه وذاته المقدسة؟

أو بعبارة أخرى: هل يمكن ان يكون اللّه عالما ومعلوما في نفس الوقت؟

ابتسم الباقر، وقال: كيف يكون هؤلاء أصحاب عقول، وهم يستشكلون هذا؟

قال فيثاغورث: فما تجيبهم؟

قال الباقر: إن الإشكال الذي طرحوه باستلزام القول، بأنه سبحانه يعلم ذاته، مغايرة علمه لذاته، إنما يتم فيما إذا أريد من المغايرة بين العالم والمعلوم، المغايرة الحقيقية، دون ما إذا أريد

منها المغايرة الاعتبارية.. وفي هذه الحالـة يكفي في المغـايرة بين العـالم والمعلـوم، المغـايرة الاعتباريـة، وهي حاصـلة في الـذات العالمة.. إذ أن فيها لحـاظين، لحـاظ كونهـا عالمـة، ولحـاظ كونهـا معلومة، وهي بأحد اللحاظين، مغايرة لها باللحاظ الآخر.

أو بتعبير آخـر: إن هـذا السـؤال لا ينحصـر في علم اللّـه بذاتـه المقدسة، فهو يجـري حـتى على علمنـا بوجودنـا، فنحن نعلم يقينـا بوجودنــا ونــدرك بأننــا موجــودون، فهــل يجب أن يكــون العــالم والمعلوم هنا شيئين أيضا؟ في حين أننا لسنا بأكثر من شيء واحد، خصوصا وأن علمنا بأنفسنا من النوع الحضوري أيضا.

قال فيثاغورث:سـلمت لـك بهـذا.. فمـا تجيبهم في اعتراضـهم على شمول علم الله؟

قال الباقر: ذلك بسيط تدل عليه العقـول.. وسـأجيبك عنـه من وجهين:

أما **أولهما**، فهو أن ما عدا اللّه ممكن، فهو مفتقر في وجــوده إليه سبحانه، وإذا كـان الأمـر كـذلك، وكـان اللّـه علـة لكـل ممكن موجود، كـان لا بـد وأن يعلمـه، لعـدم الانفكـاك بين معلوليتهـا لـه، ومعلوميتها كذلك.. ولا فرق في هذه الممكنات، بين أن تكون كليـة أو جزئية، خارجية أو ذهنية، قبل وجودها وبعده.

وأما **الثاني**، فهو أن اللّه سبحانه حي، لأنـه لـو لم يكن كـذلك، مع اتصاف كثير من الموجودات الممكنة بالحياة، لكان معنى ذلـك، أنه أقل كمالاً من الممكنات، وهذا خلف فرض كونه واجبـاً، وأكمـل من كل موجود، كما أن كل حي محتاج في حياته حدوثاً وبقاءً إليــه، فكيف يهب الحياة لو كان فاقـداً لهـا.. وإذا ثبت أنـه حي، فـإن من خصائص الحي، أن يعلم ذاته، كما يعلم غيره.

قال فيثاغورث: فما تقول في استدلال الفلاسـفة على أن اللـه لا يعلم الجزئيات بأن الجزئيات لا تستقر على حالة واحدة، بـل هي دائمة التغير والتبدل.. فإذا جعلناها متعلقة لعلم اللّه سبحانه، لكــان لازم ذلـك تغـير علمـه وتبدلـه، بتغيرهـا وتبـدلها، إذ تغـير المعلـوم، يستدعي تغير العلم، ويـترتب على هـذا، أن الـذات الإلهيـة عُرضـة للتغير المستمر بتغير صفة العلم فيها، وهـو خلـف فـرض وجوبهـا،

لأن الواجب ثابت لا يتغير.

قال الباقر: الجـواب على ذلـك بسـيط، فمـا فرضـه هـؤلاء من تغير الذات بتغير المعلوم غير صحيح في حد ذاته، بل الصـحيح هـو أن العلم يبقى على حاله لا يتغير أبداً، وذلك لأن العلم لما كـان من الصفات الحقيقية ذات الإضافة، كان المتغير هـو تلـك الإضـافة بين العلم والمعلوم بعد تغيره.

فلو قلنا مثلاً: زيد يعلم مرض عمرو، ومرض عمرو جزئي، وهـو متعلق لعلم زيد، فلو فرضنا أن مرض عمـرو قـد ارتفـع، فغايـة مـا هناك أن إضافة علم زيد إلى مرض عمرو الجزئي قد انتفت، وذلك لانتفاء ما كان يضاف إليه، لا لانتفاء العلم أو تبدل فيه، بل علم زيـد باق على حاله كما هو واضح.

ومـا قلنـاه في العلم، يجـري عينـاً في غـير العلم من الصـفات الحقيقيـة ذات الإضـافة، كالقـدرة.. فلـو قلنـا مثلاً: زيـد يقـدر على عمرو.. ففي حالة انتفاء عمرو، لا تتبدل القدرة عند زيـد ولا تتغـير، بل هي باقية على حالهـا.. وإنمـا الـذي انتفى وارتفـع هـو الإضـافة الحاصلة بين قدرة زيد وبين متعلقها وهو عمرو لانتفائـه.. وإذا كـان المتغير هو الإضافة فقط بين الصفة الحقيقية وبين متعلقها، يرتفــع الإشكال إذ أن تغير الإضافات جائز، لأنها أمور اعتبارية لا تحقق لهـا في الخارج(1).

أو بتعبير آخر أبسط(2): إن هذا الإشكال يصح فيما إذا كان علم اللّه بالاشـياء الخارجيـة كعلمنـا حاصـل عن طريـق انعكـاس صـور الأشياء.. لأن تغير هذه الموجودات يـؤدي إلى تغـير هـذه المفـاهيم والصور، لكن بما أن علم اللّه علم حضوري وجميـع الأشـياء ماثلـة بين يديه، فـإن هـذا الإشـكال لا معـنى لـه، لأن التغـير يحصـل في موجودات هذا الكون فقـط، لا في ذاتـه المقدسـة، فوجـوده ثـابت ومحيط بهـا جميعـا، والمتغـير هـو الموجـودات المحاطـه، كمـا هـو الحال فيما لو تحرك شخص معين أمامنا فـإن صـورته سـوف تقـع على شـبكية العين، وسـتتغير هـذه الصـورة بتغـير حالـه، فتتغـير

---

1) راجع في هذا الدليل وجوابه شرح التجريد للعلامة الحلي 222، فما بعدها.

2) انظر: نفحات القرآن، للشيرازي.

المفاهيم الذهنية الموجودة عنه في أذهاننا تبعا للتغييرات، وكل هذا لسبب كون علمنا هنا انعكاسا للأشياء الخارجية فينا، فلو كان علمنا بالأشياء الخارجية علما ناجما من الإحاطة بجميعها لما حصل أي نوع من التغير، بل لكان التغير فيها فقط.

قال فيثاغورث: فكيف يحصل العلم للّه بالجزئيات مع أن الجزئيات متعددة ومتكثرة، وذاته المقدسة واحدة لا تعرف التعدد؟

قال الباقر: إن هذا الخطأ ناتج عن مقايسة علم اللّه بعلمنا الذي نحصل عليه عن طريق انتقال المفاهيم والصور الذهنية في حين أن علمه تعالى بالموجودات ليس علما حصوليا، بل هو حضوري، أي أن جميع الموجودات ماثلة بذاتها بين يديه عز وجل، وهو يحيط بها علما دون الحاجة إلى مفاهيم أو صور ذهنية معينة.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. وأحسنت في الإجابة عنه.. فكيف تجيب من نفى علم الله بالأشياء قبل وجودها؟

قال الباقر: فما استدلوا به على هذه الدعوى؟

قال فيثاغورث: لقد ذكروا أن الله لو علم بالأشياء قبل وجودها، أي أنه لو تعلق علمه بها كذلك، لوجب وجودها.. لأن علمه علة وجود الأشياء.. ولما كان كل شيء عداه ممكناً، فيلزم على هذا انقلاب الممكن إلى واجب.. وإلا لزم من عدم وجودها انقلاب علمه إلى جهل.. وهو نقص ينزّه عنه الكامل المطلق.

قال الباقر: ما اعتبروه لازما غير لازم.. ذلك أننا وإن التزمنا بأن الأشياء تصبح واجبة لتعلق علمه بها قبل وجودها، إلا أنها بهذا لا تخرج عن الإمكان الذاتي.. لأن معنى وجوبها حينئذ، هو وجوبها بالغير، أي وجوبها بوجود علتها، وهو علمه سبحانه - وكل ممكن بعد وجود علته، يصبح واجباً بتلك العلة.. لا أنها تصبح - كما توهم هؤلاء - واجبة بالذات.

قال فيثاغورث: فكيف يمكن تصور علم اللّه بالحوادث المستقبلية التي ليس لها وجود خارجي في الوقت الحاضر حتى تقع في دائرة علم اللّه؟ فهل توجد لدى اللّه مفاهيم وصور ذهنية عنها؟ مع تقدسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمه

حصوليا؟

قال الباقر: على الـرغم من أن هـذا الإشـكال قـد طـرح حـول العلم بـالحوادث المسـتقبلية إلا انــه يــرد بنفســه حــول الحــوادث الماضية المعدومة أيضا، لأن الحـوادث الماضـية لا وجـود لهـا الآن، فصــورة (فرعــون) مثلا لا وجــود لهــا حاليــا، وقــد تلاشــت، كمــا أن تاريخها قد فات أيضا، فنحن نستطيع الوقوف على الماضي بمجرد أن نستحضر في أذهاننا صـوره فحسـب، لأن علمنـا علم حصـولي يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبمـا أن علم اللّـه علم حضوري فهو لايعرف أي لون من الوساطة والمفاهيم ،فكيف يمكن تصور علمه بالحوادث الماضية؟

قال فيثاغورث: أجل.. وقد أضفت إلى إشـكالي الـذي طرحتـه إشكالا، فكيف تجيب عنه.

قال الباقر: سأجيبك عن هذا من وجهين.

قال فيثاغورث: فهات الوجه الأول.

قال الباقر: الوجه الأول هـو أن اللّـه محيـط علمـا دائمـا بذاتـه المقدسة التي هي علة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالي بجميـع حوادث وموجودات الوجود أزلي وأبدي (اي قبل الإيجاد وبعده)

وبتعبير آخر لو علمنـا علـل الأشـياء لاسـتطعنا ان نعلم نتائجهـا ومعلولاتها أيضا، لأن كل علة تستبطن جميع كمالات معلولها وأكثر.

أو بتعبير آخـر أبسـط من هـذا: إن الحـوادث الماضـية لم تنمح تمامـا، فـإن آثارهـا موجـودة في طيـات الحـوادث الآنيـة، وكـذلك بالنسبة إلى الحوادث المستقبلية فهي غـير منفصـلة عن الحـوادث الآنيــة، ولهــا علاقــة معهــا، وعليــه فــ (الماضــي) و(الحاضــر) و(المستقبل) يشكلون معا سلسلة شبيهة بالعلـة والمعلـول، بحيث لو اطلعنا على كل واحدة منها بدقة لشاهدنا فيـه الحلقـات القبليـة والبعدية لهذه السلسلة.

فمثلا لو أحطت علما وبدقة بمناخ جميع الكرة الأرضـية، وبكـل مميزاته وجزئياته وعلله ومعلولاته وحركة الكـرة الأرضـية ومسـألة

الفعل ورد الفعل لاستطعت أن تحيط علما بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة لأن شواهد الماضي والمستقبل موجودة فعلا، لا الشواهد الإجمالية، بل تفصيلات الشواهد المنعكسة في جزئيات الحاضر.

فالحاضر يعكس الماضي، والمستقبل يعكس الحاضر، والإحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضي والمستقبل.. لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر ماثلة بين يدي اللّه تعالى بجميع خصوصياتها، فإنها بمعنى مثول الماضي والمستقبل أيضا بين يديه عز وجل.. فالحاضر مرآة للماضي والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية في مرآة الحاضر[1].

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا الوجه.. فهات الوجه الثاني.

قال الباقر: تصور أن شخصا محبوسا في غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى ثقب صغير يطل على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذا الثقب فإن هذا السجين سوف يشاهد رأس البعير أولا، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الإبل الأخرى، فصغر الثقب هو السبب في إيجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماما بالنسبة للواقف على سطح الغرفة، وهو ينظر الى الصحراء نظرة شاملة، فهو يشاهد جميع إبل القافلة في وقت واحد.

ومن هنا يتضح أن إيجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماض بالنسبة لنا كان مستقبلا لأقوام قد سبقونا، وماهو مستقبل بالنسبة لنا هو الآن ماض بالنسبة لأقوام ستاتي فيما بعد.

اما الذات التي لا يحدها مكان وقد أحاطت بالأزل والأبد، فإن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبه لها لا معنى له، فجميع حوادث الدهرماثلة بين يديها، ولكن كل واحدة في موقعها الخاص،

---

1) طبعا هذا من باب التقريب وتيسير الفهم، أما الحقيقة فأعظم من أن نعرفها، أو نستطيع التعبير عنها.

وهي محيطـة علمـا بجميـع الحـوادث وموجـودات العـالم، سـواء بالماضي، أو بالحاضر، أو بالمستقبل بصورة متساوية.

نعم إن تصـور هـذا بالنسـبة لنـا نحن المحبوسـين في سـجن والزمان والمكان أمر صعب ومعقد، ولكنه في نفس الوقت قابـل للتدقيق والمطالعة والتأمل.

5 ـ السميع

قام خامسـنا، وكـان اسـمه (وِلْيَم أوف أكـام)، وكـان - كسـميه الفيلسوف الإنجليزي(1) - شديد الاهتمـام بـالحواس عظيم التعلـق بها.. بل كان يرى أنها الأساس الذي تقوم عليه المعرفة..

قام، وقال: فما الاسم الخامس للإله الذي بشر به نبيكم؟

قال الباقر: (السَّمِيعُ)(2).. فاللـه لا يعـزب عن إدراكـه مسـموع وإن خفي.. فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويـدرك دبيب النملـة السـوداء على الصـخرة الصـماء في الليلـة الظلمـاء.. يسـمع حمـد الحامـدين فيجـازيهم، ودعـاء الـداعين

---

1) هو (وِلْيَم أوف أكام) (1284 ـ 1347م)، وهو فيلسوف وعـالمُ لاهـوت إنجلـيزي.. كان أكثر المفكرين المدرسيين تأثيرًا في القرن الرابع عشر الميلادي. وأدَّت مواقفه تجاه المعرفـة والمنطـق والاستقصـاء العلمي دورًا رئيسـيًا في الانتقـال من فكـر القـرون الوسطى إلى الفكر الحديث.

2) وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ ﴾(الشـورى:11)، وقوله - عز وجل -: ﴿ إِنَّ اللهَ كَـانَ سَـمِيعاً بَصِـيراً ﴾(النسـاء:58)، وقـد ورد الاسـم مقترنا باسم الله العليم في أكثر من ثلاثين موضعا، ومقترنا باسم اللـه البصـير في أكـثر من عشرة مواضع، ومقترنا باسم الله القريب في قولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ إِنْ ضَـلَلْتُ فَإِنَّمَـا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(سبأ:50)

وهو في اللغة على وزن فَعِيل من أبْنِيةِ المُبالغة، ويعني في حقنا ما وَقر في الأُذن من شيء تسمعه، وهو بالنسبة لله تعالى يعبر به عن القوة التي بها يدرك الأصـوات كمـا في قوله: ﴿ خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾(البقرة:7)

ويطلق كذلك على الفهم كما قال تعـالى: ﴿ قَـالُوا سَـمِعْنَا وَعَصَـيْنَا ﴾(البقـرة:93)، أي فهمنا قولك ولم نأتمر بأمرك.

ويطلق كذلك على السمع الذي يتعلق بمشـيئته سـبحانه، والـذي فيـه إجابـة الـدعاء أو إسماع من يشاء، وفي الحديث قال ﷺ: (وَإِذَا قَالَ سَمِعَ اللهِ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُـوا رَبَّنَـا لَـكَ الْحَمْدُ) (رواه مسلم)، وقال ﷺ: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَدُعَـاءٍ لاَ يُسْـمَعُ، وَمِنْ نَفسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلمٍ لاَ يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاَءِ الأَرْبَعِ) (رواه الترمذي)

فيستجيب لهم.. قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهِ قَـوْلَ التِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة:1)، وقال: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ سَـنَكْتُبُ مَـا قَـالُوا ﴾(آل عمـران:181)، وقـال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْـوَاهُمْ بَلَى وَرُسُـلُنَا لَـدَيْهِمْ يَكْتُبُـونَ ﴾ (الزخرف:80)،

قال وِلْيَم: ولكن السمع يحتاج إلى آلة، وقد ذكرت لنـا أن ربـك منزه عن التركيب والجسمية؟

قال الباقر: ذلك سمعنا.. أما الله، فهو الغني الحميد يسمع بغير أصمخة وآذان كما يفعل بغير جارحة، ويتكلم بغير لسـان.. وسـمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان.

قال وليم: كيف ذلك؟

قال الباقر: قبل أن أجيبك أخبرني: كيف هو عقلك الـذي تفكـر به؟.. وكيف هي روحك التي تحيا بها؟

قال وليم: أنا لم أر روحي ولا عقلي.. فكيـف أحكم على مـا لم أر؟

قال الباقر: وكـذلك اللـه.. فهـو أقـدس من أن يحتـاج إلى آلـة، وأعظم من أن يفتقر إلى جهاز.

6 ـ البصير

قام سادسنا، وكان اسمه (زينون الرُّواقي)[1]..

---

1) أشير بـه إلى زينـون الـرُّواقي (335 ؟ـ ـ 265 ؟ ق.م)، وهـو مؤسِّـس الفلسـفة الرواقية في أثينا. ولد زينـون في مدينـة سيشـيوم بجزيـرة قـبرص. ويُـذكر أنـه كـان في الأصل تاجراً، لكن تجارته تدهورت كما أنـه فقـد كـل ممتلكاتـه ورحـل إلى أثينـا في عـام 314 ق.م. ومكث زينون هناك حيث درس الفلسفة وكان يلتقي بتلامذتـه في رواق، وهـو الاسم الذي اشتُق منه اسم المذهب الرواقي.

وقد أدرك زينون أن من الحماقة أن يحـاول المـرء أن يشـكِّل ظروفـه طبقـاً لرغباتـه، فالكون لايسير سيرة آلة عمياء. ولكنـه إبـداع إلهي يهـدي الأشـياء ويوجِّهها ويتحكم فيهـا لتصـل في النهايـة إلى كـل مـا هـو طيب وحسـن. ولابـد للعقلاء من النـاس أن يوائمـوا رغباتهم مع طبيعة الأحداث. وسوف يجد هؤلاء سعادتهم في التحـرر من الرغبـة والتحـرر من الخوف من الشرور والآثام وفي إدراك أنهم يعيشون في تناغم وانسجام مـع الغـرض

قـام، وقـال: من الإدراك الـذي تفتقـر إليـه الحيـاة الكاملـة مـا يرتبط بالبصر.. فهل يبصر الإله الذي بشر به نبيكم؟

قال: أجل.. فمن أسماء ربنـا (البَصَـيرُ)(1).. فاللـه تعـالى يبصـر جميع الموجودات في عـالم الغيب والشـهادة، ويـرى الأشـياء كلهـا مهما خفيت أو ظهرت، ومهمـا دقت أو عظمت.. وهـو مطلـع على خلقه يعلم خائنة الأعين ومـا تخفى الصـدور، لا يخفى عليـه شـيء من أعمال العباد، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكـر، فالسـر عنده علانية والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملـة السـوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى نيـاط عروقهـا ومجـاري القوت في أعضائها.

قال تعالى حاكيا عن موسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُـلْ عُقْـدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُـوا قَـوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي وَأَشْـرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَـا بَصِـيراً قَـالَ قَـدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾(طه:25- 35)

وقال حاكيا عن مؤمن آل فرعـون: ﴿ وَيَـا قَـوْمِ مَـا لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُـرَ بِاللـهِ وَأُشْـرِكَ بِـهِ مَـا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَـا تَـدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِـرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَـا إِلَى اللـهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللَهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(غافر:41- 44)

الإلهي الذي يواجه الأشياء. وقـد انتشـرت الفلسـفة الرواقيـة في رومـا وازدهـرت هنـاك طوال عدد من القرون بعد الميلاد. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(1) وقد ورد النص عليه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الـذِي أَسْـرَى بِعَبْـدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الـذِي بَارَكْنَـا حَوْلَـهُ لِنُرِيَـهُ مِنْ آيَاتِنَـا إِنَّهُ هُـوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾(الإسراء:1)، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَـةِ رُسُـلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(الحج:75)، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً أَتَصْـبِرُونَ وَكَـانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾(الفرقان:20)

ومعناه واضح، فالله تعالى يسمع كل شيء، ولا يعزب عن سمعه شـيء في الأرض ولا في السماء.

وقد يطلق البصر والرؤية ويراد بها القبول، كمـا قـال تعـالى: ﴿ أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِـرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللـه وَلا يَنْظُـرُ إِلَيْهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(آل عمران:77)

وقال حاكيا عن داود ﵇: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَل سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11)﴾ (سبأ: 10-11)

وقال آمرا رسوله ﷺ: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُل إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّل عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)﴾ (الشعراء)

قال زينون: عرفنا الدليل النقلي.. ولكنا لا نسلم به.. نحن لا نسلم إلا لما تدل عليه عقولنا.

قال الباقر: لاشك أنك تسلم لي كما يسلم رفاقك جميعا بأن الخالق أكمل من المخلوق.

قال زينون: أسلم لك بذلك.. وقد سبق أن حدثتنا عن ذلك.

قال الباقر: ومعلوم بالبديهة أن البصير أكمل ممن لا يبصر، والسميع أكمل ممن لا يسمع.. ولهذا يستحيل أن يثبت وصف الكمال للمخلوق ولا نثبته للخالق.

قال زينون: فما تقول لمن ينازعك في أن السمع والبصر كمال؟

قال الباقر: هذا مدرك ببديهة العقل، فإن العلم كمال والسمع والبصر كمال ثان للعلم، فمن علم شيئاً ولم يره ثم رآه استفاد مزيد كشف وكمال، فكيف يقال إن ذلك حاصل للمخلوق وليس بحاصل للخالق، أو يقال إن ذلك ليس بكمال، فإن لم يكن كمالاً فهو نقص أو لا هو نقص ولا هو كمال، وجميع هذه الأقسام محال، فظهر أن الحق ما ذكرته لكم.

قال زينون: ما ذكرته في السمع والبصر يلزمكم في الإدراك الحاصل بالشم والذوق واللمس لأن فقدها نقصان ووجودها كمال في الإدراك، فليس كمال علم من علم الرائحة ككمال علم من أدرك بالشم، وكذلك بالذوق فأين العلم بالطعوم من إدراكها

بالذوق؟

قال الباقر: لقد صرح المحققون[1] من هذه الأمة بإثبات جميـع أنواع الإدراكات لله دون الأسباب التي هي مقترنـة بهـا في العـادة من المماسة والملاقاة، فإن ذلك محال على الله تعالى.. ولكن بما أنه لم يرد الشرع إلا بلفظ العلم والسمع والبصـر فإننـا – أدبـا مـع الله- لا نطلق ذلك عليه.

قال زينـون: لكن هـذا يلـزمكم ويلـزم محققيكم بإثبـات التلـذذ والتـألم، فالخـدر الـذي لا يتـألم بالضـرب نـاقص، وفسـاد الشـهوة نقصان، فينبغي أن نثبت – على منوال ما ذكرتمـوه- في حـق اللـه الشهوة التي نثبتها لأنفسنا.

قال البـاقر: شـتان بين هـذا وذاك.. فـالإدراك الـتي دلت عليهـا النصوص، وأثبتها العقل إدراكـات كمـال، أمـا مـا ذكرتـه فإدراكـات نقص، والله منزه عن النقص..

قال زينون: أنت تحتاج للبرهنة على أنها نقص؟

قال الباقر: من السهل إثبات ذلك.. فمـا ذكرتـه من الإدراكـات محوج إلى أمور توجب الحدوث، فالألم نقصان، ثم هـو محـوج إلى سبب هو الضرب، والضرب مماسة تجري بين الأجسام..

واللذة ترجع إلى زوال الألم - إذا حققت - أو ترجع إلى درك ما هو محتاج إليه ومشتاق إليه، والشوق والحاجة نقصان، فـالموقوف على النقصان ناقص.

ثم إن معـنى الشـهوة طلب الشـيء الملائم، ولا طلب إلا عنـد فقد المطلوب، ولا لذة إلا عند نيل مـا ليس بموجـود، وكـل مـا هـو ممكن وجوده لله فهو موجود فليس يفوته شيء حتى يكون بطلبه مشتهياً وبنيله ملتذاً.

ولهذا، فإن جميع هذه الأمور لا تتصور في حقه تعالى..

قال زينون: فكيف نعتبر ذلك كمالا في أنفسنا؟

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

قال الباقر: هو كمـال اعتبـاري لا كمـال حقيقي.. ففقـد التـألم والإحساس بالضرب نقصان في حق الخدر، ولذلك كان إدراكه عند السليم كمال.. وسقوط الشهوة من معدته نقصان، وثبوتهـا كمـال أريد به أنه كمال بالإضافة إلى ضده الذي هو مهلك في حقه، فصار كمـالاً بالإضـافة إلى الهلاك لأن النقصـان خـير من الهلاك فهـو إذاً ليس كمالاً في ذاته بخلاف العلم وهذه الادراكات.

قال زينون: ولكن البصر نقصان بهذا الاعتبار أيضـا، فهـو يحتـاج إلى آلة؟

قال الباقر: ذلك بصرنا.. أما الله فإبصـاره مـنزه عن أن يكـون بحدقة وأجفان.. ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألـوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان.. فإن ذلك من التغير والتـأثر المقتضي للحدثان.

قـام تومـا، وقـال: لقـد كنت أقـول مـا تقـول لـولا أن بعضـهم اعترض عليهم بقوله: إن كان سمع الله وبصـره حـادثين كانـا محلاً للحـوادث، وهـو محـال.. وإن كانـا قـديمين فكيـف يسـمع صـوتاً معدوماً، وكيف يرى العالم في الأزل والعـالم معـدوم والمعـدوم لا يرى؟

قال الباقر: من السهل الإجابة عن هذا.. فهو إما أن يصدر ممن يسلم بأن الله يعلم الحادثات، وإما أن صدر من منكر لكونه عالمـاً بالحادثات المعينة الداخلة في الماضي والحال والمستقبل.

قال توما: فكيف تجيب الأول منهما؟

قال الباقر: أقول له: إن الله يعلم أن العالم كان موجـوداً قبـل هـذا، فكيـف علم في الأزل أنـه يكـون موجـوداً وهـو بعـد لم يكن موجوداً؟ فإن جاز إثبات صفة تكـون عنـد وجـود العـالم علمـا بأنـه كائن، وفعله بأنه سيكون وبعده بأنه كان، وقبله بأنه سـيكون، وهـو لا يتغير عـبر عنـه بـالعلم بالعـالم والعلميـة، جـاز ذلـك في السـمع والسمعية والبصر والبصرية.

قال توما: فكيف تجيب الثاني؟

قال الباقر: ننتقل به إلى الكلام في العلم لنثبت له جـواز تعلـق علم القـديم بالحادثـات.. فـإذا ثبت لـه ذلـك في العلم قسـنا عليـه السمع والبصر.

7 ـ المريد

قام سابعنا، وكان اسـمه (أفلـوطين).. وكـان من المتحمسـين لآراء سميه أفلوطين(1)، وكان يرى - كما يرى سـميه - أن الوجـود يتكون من أربعة جواهر أولية مرتبة ً ترتيبا تنازلياً تبدأ من الواحــد.. ثم العقل.. ثم النفس.. ثم المادة.

قام في ذلك المجلس، وقال: فكيف فسر نبيكم وجـود الكـثرة في الكون مع أن الله واحد.. ولا يصدر من الواحد إلا واحد؟

قال الباقر: ذلك يسير.. فلله الإرادة المطلقة.. وهو يخصص بها الممكنـات ببعض مـا يجـوز عليهـا.. ومـا نـراه في الكـون هـو تخصيصات إلهية..

لقد ذكر الله ذلـك، فقـال: ﴿ لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ قُـلْ فَمَنْ يَمْلِـكُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِـكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (17)﴾ (المائدة)

وقال:﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَـا بِقَــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)﴾ (الرعد)

---

1)هو أفلوطين (205 ـ 270م) كان مؤسس المدرسة اليونانية الفلسفية التي تُعرف باسم الأفلاطونية المحدثة.. عـرف بغـزارة العلم، كـان يجتمـع إليـه في مجلسـه العلمـاء والكبراء وتتلمذ له كبار الساسة.. وقد أطلق العـرب على مذهبـه مـذهب الإسـكندرانيين، وأطلق عليه الشهرستاني (الشيخ اليوناني)

بدأ أفلوطين كتابـة مؤلفاتـه وهـو في سـن الخمسـين تقريبـاً، وكـان يعهـد إلى تلميـذه (فورفوريوس) مراجعة ما يكتب. وقـد تـرك مجموعـة من الرسـائل الفلسـفية، لكنهـا لم تقـدم عرضـاً منظمـاً ومرتبـا لفلسـفته، بـل كـانت مجـرد شـروح لنصـوص أفلاطونيـة أو أرسطية أو رواقية، أو أجوبة لأسـئلة وردت على واحـد منهـا. جمـع فورفوريـوس رسـائل أستاذه أفلوطين بعد وفاته في ستة أقسام، وفي كل قسم منها تسـع رسـائل وقـدم لهـا بترجمة له، ولهذا عرفت بالتاسوعيات.(انظر: الفلسفة اليونانية:بيصار ص.154 -153)

قال أفلوطين: لكن صاحبي أفلوطين يقول خلاف هذا.

قال الباقر: فما يقول؟

قال أفلوطين: لقـد ذكـر أن الوجـود يتكـون من أربعـة جـواهر أولية مرتبة ً ترتيبا تنازلياً تبدأ من الواحـد.. ثم العقـل.. ثم النفس.. ثم المادة.

أما المرتبة الأولى، فتتشكل من الواحد أو الوجـود الأول.. وهـو لا يشبه شيئاً من الموجودات، يتعذر وصفه بصـفات إيجابيـة، ولكن يمكن وصفه بصفات سلبية، كأن يقال:إنـه ليس حركـة، وليس في مكـان أو زمـان وليس صـفة، وليس ذاتـاً، وغـير ذلـك من صـفات السلوب.. وهو واحد من جميع الوجوه، واحد في التصـور الـذهني، وواحد في الواقع، لا توجد فيه كثرة بأي اعتبار، والتركيب لا يتطرق إليه بأي وجه من الوجوه، لذا فهو بسيط كل البسـاطة وهـو واحـد في الـذات وحـدة مطلقـة.ولكونـه واحـد فلا يقـال عنـه: عقـل ولا معقول، لأننا إذ وصـفناه عقلاً يجب أن نتصـور في دائرتـه ومرتبتـه معقولاً معه.كمـا لا يوصـف بأنـه جـوهر ولا بأنـه عـرض لأنهمـا من الأمور النسبية.

وقد دعاه نفي الكثرة عن الأول إلى أن يتلزم القول بأن صدور العالم عنه يكون بالطبع، لا بالإرادة، لأن إضافة الإرادة له في نشأة العالم تستلزم مراداً، وهـذا يقتضـي تكـثراً في التصـور على الأقـل والفرض أنه واحد من كل وجه.

ولهذا، فإن اللـه – كمـا يقـول صـاحبي- ليس خالقـاً ولا صـانعاً، لكن الموجودات تفيض عنـه دون أن يعلمهـا أو يعـنى بهـا، والعـالم المادي صادر عن النفس الكلية وهي علة نظامه وحركاته.

أما المرتبة الثانية، وهي العقل، فهو يرى فيه أنه صدر مباشــرة عن الأول، وهو في المرتبة الثانية بعده، ووحدة الأول من كل وجـه تتكثّـر في العقـل الآن بالاعتبـار، لأنّ مقتضـى كونـه عقلاً يسـتلزم معقولا أي يستلزم موضوعاً للتعقل، فهنا اثنينية في التصور حـدثت بعد وحدة مطلقة كانت للأول.. وقـد صـدر العقـل عن الأول لا في وقت وزمن، وصدوره عنه مباشرة لا يقلّـل من جـوهره ولا يسـبّب

له ضعفاً ولا نقصاً، وصدوره عن الأول بالطبع لا بالإرادة والاختيار.. ولما يوجد بينه وبين الواحد من شبه فإنّ قوتـه تفيض شـيئاً غـيره، وهو النفس الكلية.

أمـا المرتبـة الثالثـة، وهي النفس الكليـة، فهـو يـرى أنهـا آخـر الموجودات في عالم المجردات، وبها تتحقق الصـلة والرابطـة بين العالم المحسوس والعالم غير المحسـوس أو العـالم الإلهي، وهي مشغولة بتأمل الأول، وبتدبير الثاني كامتداد لتأملهـا الأول.. وتفيض هذه النفس فتصدر عنها نفوس الكواكب ونفـوس البشـر ونفـوس الأجسام.

وهي في جملتها لها قوة التدبير والإيجـاد فيمـا تحتهـا نيابـة عن العقل فوقها، فالعقل موكل عن الأول بدوره في الإيجـاد لمـا تحتـه والتأثير فيه، ولأنهـا نائبـة فقـط في إيجـاد هـذا العـالم المحسـوس وتدبيره فرض أفلوطين على هذا العالم الشكر للعقـل دونهـا على نعمة الوجود.

أما المرتبة الرابعة، وهي المادة، فهو يرى أنها أصل هذا العـالم المشاهد، وهو ما تحت النفس الكلية، ووجوده كشعاع لها فقط، إذ المادة التي هي أصله تحد من الحقيقة فيه، لأنها نقص، بينما العالم المجرد أو العالم المعنوي كله حقائق محضة فهذا العالم ليست لـه حقيقة ذاتية، وبالتالي ليس له كمـال ذاتي، ومـا فيـه من حقيقـة أو كمال صورة لعالم المجردات أو شعاع لضوئه.

وهو يرى أنّ وحدة الوجود بين أجزاء العـالم ومراتبـه المختلفـة تتم بالتعقل الذي يرد الكثرة إلى الوحدة، والمتعدد إلى الواحد، وما دامت وحـدة العـالم تتم بالتأمـل والفكـر فـإن الوجـود الحقيقي للأشياء لا يكون شيئاً سوى هذا التأمل.

وعلى هذا فإنه يقرر بأن الموجود الأدنى (الطبيعة) إنما يحصـل على صورة الأعلى (النفس) بتأمله له فيتحد بـه، وهكـذا يكـون مـا بين النفس والعقل ثم ما بين العقل والواحد المطلق الذي لا توجد فيه كثرة ما[1].

---

1)انظر الفلسفة اليونانية:د.محمد بيصار، وغيره.

ابتسم الباقر، وقال: فما الذي حمل صاحبك على القول بهذا؟

قال أفلوطين: ما دل عليه العقل من أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد.

قال الباقر: فما دليله عليها؟

قال أفلوطين: الأدلة على ذلك كثيرة.. منها أنه لو كـان الواحـد الحقيقي مصـدرا لأمـرين كــ: (الـف) و(ب) مثلا، كـان مصـدرا لـ: (الف) ومـا ليس (الـف)، لأن (ب) ليس (الـف)، فيلـزم اجتمـاع النقيضين.

ومنها: أن البسيط إذا كانت ذاته بحسب الحقيقة البسيطة علـة لشيء، كانت ذاته محض علة ذلـك الشـيء، بحيث لا يمكن للعقـل تحليلها إلى ذات وعلة، لتكون عليتهـا لا بنفسـها من حيث هي، بـل بصفة زائدة، أو شـرط، أو غايـة، أو وقت، أو غـير ذلـك، فلا يكـون مبدأ بسيطا بل مركبا، فاذا كان كذلك، وصدر عنه أكـثر من واحـد ـ ولا شك أن معنى مصدر ذا غير معنى مصدر ذا ــ فتقـوم ذاتـه من معنيين مختلفين، وهو خلاف المفروض.

ومنها: أنه لو صدر عن الواحد الحقيقي البسـيط اثنـان فإمـا أن يصـدرا بجهـة واحـدة أو بجهـتين، ولا سـبيل إلى الأول لاسـتلزامه صيرورة الاثنين واحدا، وهما اثنان، هذا خلف، ولاسبيل إلى الثـاني، لاستلزامه كون العلة مركبة غير بسيطة، وهذا خلف.

ومنها أنه إذا كانت الخصوصية البسـيطة مقتضـية لوجـود (ب) ومقتضية لوجود(ج)، فاذا صـدر عنـه (ج) لم لم يصـر (ب)؟ واذا صـدر عنـه (ب) لم لم يصـر (ج)؟ فالخصوصـية البسـيطة لا تفي لوجود أي منهما، فلابد من جهة زائدة عنه صدور (ب) صار بسببها (ب)، ومن جهة زائدة أخرى عنـه صـدور (ج) صـار بسـببها (ج)، وهذا خلف.

قال الباقر: إن كل ما ذكرته من أدلـة على أن الواحـد لا يصـدر منه إلا الواحد صحيح.. ولكن الشأن ليس فيما يقوله العقـل، وإنمـا الشأن في تطبيق ما يقول العقل على ما نحن فيه.

قال أفلوطين: أترى أن صاحبي أخطأ في تطبيق ما يقول العقل على هذا؟

قال الباقر: أجل..

قال أفلوطين: كيف ذلك؟

قال الباقر: إن النتيجة التي تنص عليها قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلا الواحد) هي عدم صدور أزيد من الواحد من جهة واحدة، لا عدم صدوره من فاعل واحد، ولو مع تعدد الجهة.

أو بعباره أخرى.. إن نتيجة ما ذكرت من البراهين هي أن العلة الواحدة لا يكون لها إلا معلول واحد، والفاعل المختار إنما يصير علة تامة لفعل إذا تعلقت به مشيته، وحصلت جميع شرائط وجود ذلك الفعل ومعداته.

ولهذا فلا استحالة في صدور أفعال كثيرة من فاعل واحد بسيط لأجل جهة خاصة لكل واحد منها، كما نراه ونشاهده من أنفسنا، فإن النفس الناطقة لنا بوحدتها مصدر أعمالنا كلها في جميع شؤون الحياة، وكل ما يصدر من جوارحنا يصدر من نفس واحدة، فإنها العلة المحركة لحركات الأعضاء جميعها.

ومن المعلوم أنه ليس مصدر تلك الأفعال إلا وجود النفس، فإن الذي يصدر عنه الوجود هو الوجود دون الماهية، وهو واحد بسيط وإن كانت ماهيتها مركبة من الجنس والفصل، إلا أن وجودهما واحد وإلا لم يحصل التصادق بينهما.

بالإضافة إلى هذا، فإن قاعدة: (الواحد لا يصدر منه الا الواحد) كما تستلزم عدم صدور أزيد من واحد من الواحد، كذلك تستلزم عدم صدور أزيد من اثنين من الاثنين، وعدم صدور أزيد من ثلاث من الثلاث، وهكذا.

فلو قلنا بأن صدور الأفعال المتعددة من فرد الإنسان لأجل تركب ماهيته من أجناس وفصول عديدة بعيدة وقريبة، كان لازمه كون الأفعال الصادرة منه بعدد أجزاء ماهيته من الاجناس والفصول، لا أزيد من ذلك.

ومن المعلوم كون عدد أجزاء ماهية الإنسان لا تزيد على عدد الأصابع، فكيف يصدر منه أفعال كثيرة لا تحصى كثرة؟

قال أفلوطين: فما منشأ تعدد أفعال النفس مع وحدتها؟

قال الباقر: ليس منشأ التعدد إلا تعدد الإرادة المتعلقة بها.. ومنشأ تعدد الإرادات تعدد الدواعي والفوائد الملحوظة لكل واحد من الأفعال.. فالإنسان الواحد بوحدته عالم بجميع الفوائد الملحوظة فيها، وعلمه بكل واحد من فوائد تلك الأفعال هو الجهة الفارقة له في كونه فاعلا له، ولكن الموجد لجميع تلك الأفعال هو هذا الفرد من الإنسان لا تلك الفوائد الملحوظة.

8 ـ القادر

قام ثامننا، وكان اسمه (أنكسيمانس)، وكان كسميه (أنكسيمانس)(1) من الموحدين(2)، وكان شديد التعظيم للهواء، وكان يرى أنه أصل الكون، وأنه المبدأ الأول للوجود، ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الأجرام العلوية والسفلية.

وكان يرى أن جميع الأشياء تتولد عن طريق التخلل والتكاثف، فإذا تخلخل الهواء صار ناراً، ومن النّار تولدت كل الأشياء النّارية كالكواكب والنجوم مثلاً، وإذا تكاثف الهواء نشأت عنه الرياح والعواصف والسحب ثم الأمطار، ثم تتكاثف الأمطار فينتج عنها الأتربة والرمال والصخور.

وكان يقول: ما كوّن من صفو الهواء المحض لطيف روحاني، لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد، ولا يقبل الدنس والخبث، وما كوّن من كدر الهواء كثيف جسماني يدثر، ويدخله الفساد، ويقبل الدنس والخبث، فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه، وما دون الهواء من العوالم فهو من كدره(3).

---

1)هو أنكسيمانس أو أنكزمينس 588-528) ق.م.

2)حيث أنه كان يقول بأن الباري تعالى أزلي لا أول له ولا آخر، هو مبدأ الأشياء، ولا بدء له، هو المدرك من خلقه، أ نّه هو فقط، وأنه لا هوية تشبهه، وكل هوية فمبدعة منه، هو الواحد ليس كواحد الأعداد، لأنّ واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر، وكل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع، فقد كانت صورته في علمه الأول.

3)الملل والنحل3/125-126.

قام في ذلك المجلس، وقال: من الكمالات التي لا مناص منها للكامل أن يكون قادرا لا يعجزه شيء.

قال الباقر: صدقت.. ولذلك فإن الله هو القادر.. وهو القَدِيرُ.. وهو المقتدر[1].. قال تعالى يعرفنا بنفسه: ﴿ قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(آل عمران:26)، وقال:﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ ﴾(يس:81)، وقال: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾(المعارج:40/41)، وقال: ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾(المؤمنون:95)

قال أنكسيمانس: نحن لا تهمنا الدعاوى التي تطلقها النصوص التي تزعم لها القداسة.. بل نريد الأدلة العقلية.. فأنت تعلم أننا أصحاب عقول.. ولا يمكن أن نترك عقولنا لنستسلم لأي مقدس.

قال الباقر: إن كل ذرة من ذرات الوجود تدل على هذا..

قال أنكسيمانس: خاطبنا بما ألفناه من أساليب المناطقة.. فلا نريد الأدلة الخطابية.

قال الباقر[2]: ألا ترى بحسك أن العالم فعل محكم مرتب متقن منظوم مشتمل على أنواع من العجائب والآيات.

قال أنكسيمانس: بلى.. فما علاقة ذلك بقدرة الله؟

---

1) الأسماء الدالة على قدرة الله كثيرة منها:

القادر: كما قال تعالى: قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (الأنعام: 65)، وقال في أول سورة القيامة: أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بلى قادرين على أَن نُّسَوّىَ بَنَانَهُ (القيامة: 3 ، 4)، وقال في آخر السورة: أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِىَ الموتى (القيامة: 40)

القدير: قال تعالى: تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ (الملك: 1) وهذا اللفظ يفيد المبالغة في وصفه بكونه قادراً.

المقتدر: قال تعالى: وَكَانَ الله على كُلّ شَىْء مُّقْتَدِرًا (الكهف: 45) وقال: فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِ (القمر: 55)

2) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

قال الباقر: ألم يدلك المنطق العقلي على أن كـل فعـل محكم إنما يصدر من فاعل قادر؟

قال أنكسيمانس: بلى..

قال الباقر: والعالم فعل محكم.. وهو يدل بذلك على أنه صـادر من فاعل قادر.

قال أنكسيمانس: فمـا تقـول إن نازعتـك في المقدمـة الأولى، فطالبتك بالدليل المثبت بأن العالم فعل محكم.

قال الباقر: الدليل على كونـه محكمـاً ترتبـه ونظامـه وتناسـبه، فمن نظر في أعضاء نفسه الظاهرة والباطنة ظهر له من عجـائب الإتقـان مـا يطـول حصـره، فهـذا أصـل تـدرك معرفتـه بـالحس والمشاهدة فلا يسع جحده[1].

قال أنكسيمانس: فمـا تقـول إن نازعتـك في المقدمـة الثانيـة، فطالبتـك بالـدليل المثبت على أن كـل فعـل مـرتب محكم يطلب فاعلا قادرا؟

قال الباقر: هذا مدركه ضرورة العقل؛ فالعقل يصـدق بـه بغـير دليل.. ولا يقدر العاقل على جحده..

قال أنكسيمانس: فإن عاندتك في هذا.. وطالبتك بالدليل عليه.

قال الباقر: إن الفعل الصادر من الـذات لا يخلـو إمـا أن يصـدر عنه لذاته أو لزائد عليه، وباطل أن يقال صدر عنه لذاته، إذ لو كـان كذلك لكان قديماً مع الذات فدل على أنـه صـدر لزائـد على ذاتـه، والصفة الزائدة التي بها تهيأ للفعـل الموجـود نسـميها قـدرةً[2]، إذ القدرة في وضع اللسان عبارة عن الصفة التي يتهيأ الفعل للفاعل وبها يقع الفعل.

قـال البـاقر[3]: لاشـك أنـك تعلم أن الوجـود لا يتعـدى إحـدى حالتين: إمامستقل بالذات، ويدعى (واجب الوجود)، أو محتــاج إلى

1) انظر الأدلة المفصلة على هذا في فصل (البديع) من هذه الرسالة.

2) طبعا هذا على مذهب جمهور المتكلمين، والخلاف في المسألة مشهور، وهو خلاف لفظي، ولذلك يرى القارئ أنا في هذه الرسالة وغيرها نذكر كلا القولين.

غيره، ويدعى (ممكن الوجود)

ولاشك أنك تعلم كذلك أن (واجب الوجـود) يسـتحيل أن يكـون أكثر من واحد.. وأن ما عداه لابد أن يكون (ممكن الوجود).. وبهـذا فـإن جميـع الممكنـات محتاجـة إليـه تعـالى، لا فى بدايـة إيجادهـا فحسب، بل في بقائها واستمرارها..

والقول بهذا كله يستدعي الإيمان بقـدرة اللّـه تعـالى على كـل شيء.

قال أنكسيمانس: لا بأس.. فما متعلقات هذه القدرة؟

قال الباقر: قدرة الله متعلقة بجميع المقدورات.

قال أنكسيمانس: أنا كذلك قدرتي متعلقـة بجميـع المقـدورات التي أطيقها.

قـال البـاقر: مقـدورات اللـه هي الممكنـات كلهـا.. وبمـا أن الممكنات لا نهاية لها فكذلك لا نهاية للمقدورات.

قال أنكسيمانس: فما تعني بقولك (لا نهاية للممكنات)

قال الباقر: إن خلـق الحـوادث بعـد الحـوادث لا ينتهي إلى حـدٍ يستحيل في العقـل حـدوث حـادث بعـده، فالإمكـان مسـتمر أبـداً والقدرة واسعة لجميع ذلك.

قال أنكسيمانس: فما البرهان على ذلك؟

قال الباقر: البرهان على عموم تعلق القدرة هـو أنـه قـد ظهـر أن صانع كل العالم واحد، فإما أن يكون له بإزاء كل مقدور قــدرة، والمقدورات لا نهاية لها فتثبت قدرة متعددة لا نهاية لها وهو محـال لأن ذلك يؤدي إلى دورات لا نهاية لها، وإما أن تكون القدرة واحدة فيكون تعلقها مع اتحادها بما يتعلق به من الجـواهر والأعـراض مـع اختلافها لأمر تشترك فيه ولا يشترك في أمر سوى الامكان، فيلزم منه أن كل ممكن فهو مقدور لا محالة وواقع بالقدرة.

3) انظر هذه الأدلة في نفحات القرآن للشيرازي.

وبالجملة، إذا صدرت منه الجواهر والأعراض استحال أن لا يصدر منه أمثالها، فإن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ لم يمتنع التعدد في المقدور لنسبته إلى الحركات كلها والألوان كلها على وتيرة واحدة فتصلح لخلو حركة بعد حركة على الدوام، وكذا لون بعد لون وجوهر بعد جوهر وهكذا.. وهو الذي عنيناه بقولنا إن قدرته تعالى متعلقة بكل ممكن فإن الإمكان لا ينحصر في عدد. ومناسبة ذات القدرة لا تختص بعدد دون عدد ولا يمكن أن يشار إلى حركة فيقال إنها خارجة عن إمكان تعلق القدرة بها، مع أنها تعلقت بمثلها إذ بالضرورة تعلم أن ما وجب للشيء وجب لمثله.

سكت أنكسيمانس قليلا، ثم قال، وهو يبتسم: فما تقول لمن توجه إليك بهذا السؤال المعجز.. فقال: (هل يستطيع ربك خلق صخرة يعجز عن حملها؟)[1]

ابتسم الباقر، وقال: هذا ليس سؤالا معجزا، بل هو سؤال سفسطائي عبثي.

قال أنكسيمانس: ألعجزك عن الإجابة عنه اعتبرته سؤالا سفسطائيا؟

قال الباقر: أفيكم رياضي.. فإني أريد أن أسأل سؤالا له علاقة بالرياضيات.

قال أنكسيمانس: كلنا رياضيون.. فيستحيل أن نكون فلاسفة، ثم لا تكون لدينا عقول رياضيين.

قال الباقر: فأجبني إذن.. ما الاحتمالات في ترتيب الأرقام 1، 2، 3؟

قال أنكسيمانس: إنها ستة احتمالات.

قال الباقر: فلو سألنا شخصا هذا السؤال، فأعطانا أربعة احتمالات، ولم يستطع أن يعطينا الاحتمالين الخامس والسادس، فهل يقال في حقه أنه عاجز عن الجواب؟

---

1) هذه شبهة كثيرا ما يطرحها الملاحدة، والإجابات عن ذلك كثيرة وخلاصتها ترجع لما ذكرناه هنا، وهي منقولة بتصرف من محال مختلفة.

قال أنكسيمانس: نعم، يقال ذلك، لأنه بقي احتمالين، ولم يعرفهما.

قال الباقر: فلو ذكرنا هذا السؤال لعبقري زمانه، وقلنا له: اذكر لنا احتمالات الأرقام السابقة، فأعطانا الاحتمالات الستة كلها، فقلنا له: لن يثبت لنا كونك عالما بحق حتى تعطينا احتمالا سابعا لترتيب هذه الأرقام الثلاثة؟ فماذا تتوقع أن يقول لك هذا العبقري؟

قال أنكسيمانس: سوف يقول بكل بساطة: يا جاهل، يستحيل وجود احتمال سابع، لأن القسمة العقلية لا توجب إلا هذه الاحتمالات الستة، ويستحيل عقلا وجود احتمال سابع.

قال الباقر: فهل نستطيع أن نصف هذا العبقري بأنه عاجز أو أن معرفته بالرياضيات ناقصة لأنه لم يستطيع أن يعطينا الاحتمال السابع؟

قال أنكسيمانس: لا..

قال الباقر: لم؟

قال أنكسيمانس: لأنه ببساطة لا يوجد احتمال سابع.. بل هو مستحيل.

قال الباقر: فالقدرة لا تتعلق إذن بمستحيل؟

قال أنكسيمانس: أجل..

قال الباقر: والعاجز عن فعل المستحيل هل يسمى عاجزا؟

قال أنكسيمانس: لا.. لا يسمى عاجزا.

قال الباقر: فقد أجبت نفسك إذن..

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: إن القدرة لا تتعلق إلا بالممكنات.. وبما أن عجز الله مستحيل، فيستحيل أن تتعلق قدرة الله بما يعجزه.

قال أنكسيمانس: إن ذلك في حق البشر فقط، أما في حق

الله، فلا بد أن تتعلق القدرة بالواجبات.. بل بالمستحيلات.

قال الباقر: من أين لك هذا؟

قال أنكسيمانس: هذا من مقتضى كماله.

قال الباقر: بل من مقتضى كمال الله أن لا تتعلق قدرته بالواجبات.. لأن وجود الله تعالى واجب، فلو تعلقت القدرة بإفناء نفسه لكان هذا دليلا على أن وجوده ممكن وليس بواجب، ولكان هذا دليلا على أنه ليس الإله الخالق، لأن الخالق للموجودات من العدم يستحيل عقلا أن يكون له بداية، لأنه لو كان له بداية لكان مخلوقا، والمخلوق يستحيل عقلا أن يخلق شيئا من العدم، فإذا كان الله تعالى هو خالق الموجودات من العدم، دل ذلك على أنه ليس له بداية، وهذا معنى واجب الوجود.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: سأضرب لك مثالا يقرب لك هذا.. أرأيت لو أن شخصا استخرج بيد نفسه قلبه من صدره، وقطعه عن وريده بالسكين، واستمر ذلك يومين، ولم يمت، وشخصا آخر استخرج قلبه بيد نفسه من صدره فمات.. أيهما الكامل، وأيهما الناقص؟

قال أنكسيمانس: الأول هو الكامل بلا شك، لأنه بالرغم من تقطيع قلبه بقي حيا، بينما الآخر عندما قطع قلبه مات.

قال الباقر: ولو أن شخصا من الناس ذكر لك أن الكامل هو الثاني، لأنه استطاع أن يميت نفسه.

قال أنكسيمانس: لا شك أن قائل هذا مجنون.. فالبشر كلهم ناقصون لأنهم يموتون، فيستطيع الواحد أن يقتل نفسه، ويستطيع الآخرون أن يقتلوه.

قال الباقر: فهكذا الأمر مع سؤالك.. فالكامل هو الذي لا تتعلق قدرته بإفناء نفسه، لأنه لو تعلقت قدرته بإفناء نفسه دل ذلك على أنه ممكن الوجود، وعلى أنه ناقص الوجود، بينما لو لم تتعلق قدرته ولا قدرة غيره بإفنائه، دل ذلك على كماله في ذاته.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: لا بأس.. سأذكر لك جوابا آخر، فأقول ببساطة: (إن الله قادر على خلق صخرة بالغا ما بلغت وقادر على حملها، وذلك لأن خلق الصخرة بالغا ما بلغت من الممكنات، والقدرة على حملها، أيضا من الممكنات)

قال أنكسيمانس: لا.. ليس هذا هو سؤالي.. إن سؤالي هو: هل أن في قدرة ربك أن يخلق صخرة عظيمة جدا يعجز عن حملها.

ابتسم الباقر، وقال: مهما تصورت صخرة عظيمة فإن الله تعالى قادرا على خلقها بالغا ما بلغت، وهو قادر كذلك على حملها.

قال أنكسيمانس: لا أريد هذا.. بل أريد أن يخلق الله تعالى صخرة أعظم من ذلك مما لا يستطيع حملها.

قال الباقر: إن الصيغة الحقيقية لسؤالك هي: هل الله قادر على أن يصيب نفسه بالعجز عن الممكنات؟

قال أنكسيمانس: فلنفرض أن هذا هو سؤالي، فبم تجيب عنه؟

قال الباقر: إن صفة القدرة صفة واجبة لله تعالى.. وقدرة الله تعالى لا تتعلق بإضعاف أو إفناء صفة من صفاته، وليس ذلك نقصا فيه، بل هو كمال فيه، فكما أن الذي تعلقت قدرته بإفناء نفسه هو العاجز، والذي لم تتعلق قدرته بإفناء نفسه هو الكامل، فكذلك الذي تتعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته هو العاجز، والذي لا تتعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته فهو الكامل.

9 ـ المتكلم

قام تاسعنا، وكان اسمه (نعوم تشومسكي)(1).. وكان رجلا

______

1) أشير به إلى نعوم تشومسكي (- 1928) Naom Chomsky عالم لغويات أمريكي يهودي من أصل يديشي، ويُعَدُّ من أهم المفكرين اللغويين والسياسيين النشيطين في العالم في النصف الأخير من القرن العشرين، ويضعه البعض في مصاف كبار المفكرين مثل جان بياجيه وكلود ليفي شتراوس (وربما ماركس وفرويد) بالنظر إلى

مهتما باللغات.. ومهتما بعلاقتها بالتواصل مـع الآخـرين.. وكـان إلى جانب ذلـك ذا إنسـانية عميقـة، فهـو يتـألم للمستضـعفين، ويمتلئ غيظـا على المسـتبدين.. وقـد ألقى الخطب الطـوال على المنـابر المختلفة التي يبرز فيها ألمـه وغيظـه.. وقـد أثمـرت خطبـه ثمـارا كثيرة يانعة.

قام في ذلك المجلس، وقال: لا يكفي الكامل أن يكون قـادرا.. بل لابد أن يكون بالإضافة إلى ذلك متكلما، فالكلام هو الذي يعرفنا بحقيقته المتسترة وراء أفعاله.. وكلامه هو الذي يعبر لنا عن رضـاه وسخطه، وعن حبه وبغضه، وعن تقريبه وإبعاده.. وكلامه هو الـذي يعبر لنا بعد ذلك كله عن مراده من مخلوقاته، وعن الوظائف الـتي يطلبها منهم.

قال الباقر: صدقت.. فالإله الذي اجتمعت لديه جميع الكمـالات يستحيل عليه أن لا يكون متكلما.. لقد ذكر اللـه ذلـك.. ففي قصـة محاجة إبراهيم ﵇ لقومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنَـا إِبْـرَاهِيمَ رُشْـدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِـهِ مَـا هَـذِهِ التَّمَاثِيـلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِـدِينَ (53) قَـالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (54) قَـالُوا أَجِئْتَنَـا بِـالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَـالَ بَـلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيـدَنَّ أَصْـنَامَكُمْ بَعْـدَ أَنْ تُوَلُّوا مُـدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُـذَاذًا إِلَّا كَبِـيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُـونَ (58) قَـالُوا مَنْ فَعَـلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَـا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَـأْتُوا بِـهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْـهَدُونَ (61) قَـالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَـا يَـا

ما أحدثـه من ثـورة في علم اللغويـات والعلـوم الإنسـانية ككـل، فهـو جـزء ممـا يُسـمَّى (الانقلاب البنيوي التوليدي)، وما يُسمَّى أيضاً (الثورة الإدراكية أو المعرفية) الـذي تصـدى للاتجاه التجريبي الوضعي. وتشير بعض الدراسات إلى (الثورة التشومسـكية) في ميـدان علم اللغة والإنسانيات. (انظر: الموسوعة اليهودية)

بالإضـافة إلى عملـه في اللغويـات، فشومسـكي معـروف على نطـاق واسـع كناشـط سياسـي، ولنقـده للسياسـة الخارجيـة للولايـات المتحـدة والحكومـات الأخـرى. ويصـف شومسكي نفسه بأنه اشتراكي تحرري، وكمتعاطف مع التضامنية اللاسلطوية (وهو عضو في نقابة عمال العالم الصناعيين) وكثـيراً مـا يُعتـبر منظـراً رئيسـياً للجنـاح اليسـاري في السياسة الأمريكية.

وحسب فهرس مراجع الفنون والإنسانيات، بين 1980 و 1992 ذكر اسـم شومسـكي كمرجع أكثر من أي شخص آخر حي، وكثامن شخص على الإطلاق.

إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَـانُوا يَنْطِقُــونَ (63) فَرَجَعُــوا إِلَى أَنْفُسِــهِمْ فَقَــالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُــوا عَلَى رُءُوسِــهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ مَـا هَــؤُلَاءِ يَنْطِقُــونَ (65) قَــالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَــيْئًا وَلَا يَضُــرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ (الأنبياء)

انظروا كيف أقام إبراهيم ﵇ الحجــة على قومــه بعجــز آلهتهم عن الكلام، وهو يدل على أن الكلام من مستلزمات الألوهية.

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بالحـديث عن تكليم اللــه لعبــاده سواء كانوا بشرا أو غيرهم(1).. قال تعالى يذكر حديثــه للكــون في بداية خلقه:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)﴾ (فصلت)

وقال يذكر حديثه مع ملائكته ومع إبليس:﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي

---

1)ذكر الفخر الرازي الوجوه التي جاء بها تكليم الله لعباده في القرآن الكريم، فذكر:

اللفظ الأول: الكلام ، وفيه وجوه: الأول: لفـظ الكلام ، قـال تعـالى:﴿ وَإِنْ أَحَـدٌ مّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ (التوبـة: 6) الثـاني: صـيغة الماضـي من هذا اللفظ ، قال تعالى:﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾(النساء: 164) وقال:﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعـراف: 143) الثـالث: صـيغة المسـتقبل ، قـال تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ (الشورى: 51).

اللفظ الثاني: القول ، وفيه وجوه: الأول: صـيغة الماضـي ، قـال تعـالى:﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ (البقرة: 30) ونظائره كثيرة في القرآن ، الثاني: صيغة المستقبل ، قال تعالى:﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ (البقرة: 68) الثالث: القيـل والقـول ، قـال تعـالى:﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً ﴾ (النساء: 122) وقال تعالى:﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ (ق: 29)

اللفظ الثالث: الأمر ، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ (الروم: 4) وقال: ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ (الأعراف: 54) وقال حكاية عن موسى عليه السـلام:﴿ إِنَّ اللــه يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ (البقرة: 67).

اللفظ الرابع: الوعد ، قال تعالى:﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقـرءان ﴾ (التوبة: 111) وقال تعالى:﴿ وَعْدَ الله حَقّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (يونس: 4).

اللفظ الخامس: الوحي ، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا كَـانَ لِبَشَـرٍ أَن يُكَلّمَـهُ اللـه إِلاَّ وَحْيـاً ﴾ (الشورى: 51) وقال:﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ (النجم: 10).

اللفظ السادس: كونـه تعـالى شـاكراً لعبـاده ، قـال تعـالى:﴿ فأولئـك كَـانَ سَـعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (لإسرء: 19)، وقـال:﴿ وَكَـانَ اللـه شـاكرا عَلِيمـاً ﴾ (النسـاء: 147) (انظـر: التفسير الكبير)

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)﴾ (ص)

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بذكر كلمات الله لعباده.. بل هو نفسه من كلمات الله المقدسة التي أوحاها لعباده، كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾ (التوبة)، وقال:﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)﴾ (الفتح)

بل إن جميع وحي الله لأنبيائه من كلمات الله المقدسة لعباده، قال تعالى عن الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾ (البقرة)

قال نعوم: أنت تكلفني بإيرادك لهذه النصوص شططا.. فأنت تبرهن لي على أن الله متكلم من خلال كلامه لرسله.. وأنا لو كنت أؤمن برسله لم أورد عليك هذه المسألة.. فمعنى الرسول هو المبلغ لرسالة المرسل، فإن لم يكن للكلام متصور في حق من ادعى أنه مرسل كيف يتصور الرسول؟

ولهذا.. دعنا مما يقوله ما تدعي له القداسة، وحدثنا عما يقوله العقل.. فما براهين كلام الله لعباده من العقل؟

قال الباقر: أجبني.. هل الكلام للحي كمال أو هو نقص، أو هو لا هو نقص ولا هو كمال؟

قال نعوم: لاشك أنه باطل أن يقال هو نقص، أو هو لا نقص ولا

كمال..

قال الباقر: فثبت بالضرورة أنه كمال، فكل كمال وجد للمخلوق هو واجب الوجود للخالق بطريق الأولى.

قال نعوم: إن إثباتك لكلام الله يورد عليك شبها كثيرة لا تجد منها فكاكا..

قال الباقر: يسعدني أن تورد لي منها ما تشاء.. وستجد إن شاء الله جوابك عندي(1).

قال نعوم: إن الكلام الذي أثبته لإلهك إما أن يراد به الأصوات والحروف.. أو يراد به القدرة على ايجاد الأصوات والحروف في نفس القادر.. أو يراد به معنى ثالث سواهما.

فإن أريد به الأصوات والحروف، فهي حوادث ومن الحوادث ما هي كمالات في حقنا، ولكن لا يتصور قيامها في ذات الله، وإن قام بغيره لم يكن هو متكلماً به بل كان المتكلم به المحل الذي قام به.

وإن أريد به القدرة على خلق الأصوات فهو كمال، ولكن المتكلم ليس متكلماً باعتبار قدرته على خلق الأصوات فقط، بل باعتبار خلقه للكلام في نفسه، والله قادر على خلق الأصوات فله كمال القدرة، ولكن لا يكون متكلماً به إلا إذا خلق الصوت في نفسه، وهو محال إذ يصير به محلاً للحوادث فاستحال أن يكون متكلماً.

وإن أريد بالكلام أمر ثالث فليس بمفهوم وإثبات ما لا يفهم محال.

قال الباقر: ما ذكرته من التقسيم صحيح، والسؤال في جميع أقسامه معترف به إلا في إنكار القسم الثالث.

قال نعوم: فهل تستطيع أن تثبته؟

قال الباقر: إننا معترفون باستحالة قيام الأصوات بذاته،

____

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

وباستحالة كونه متكلماً بهذا الاعتبار، ولكنا نذكر أن الإنسان يسمى متكلماً باعتبارين:

أما أولهما، فهو كلامه بالصوت والحرف.. وأما الثاني، فبكلام يمكن أن نعبر عنه بالكلام النفسي، وهو ليس بصوت ولا حرف، وقد أشار إلى هذا النوع من الكلام الشاعر، فقال:

لا يعجبنك من أثير خطه   حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا النوع من الكلام كمال.. وهو في حق الله تعالى غير محال.. ولا هو دال على الحدوث.

قال نعوم: إن كلام النفس بالتأويل الذي ذكرت معترف به، ولكنه ليس خارجاً عن العلوم الإدراكات.. بل ليس جنساً برأسه البتة، فكلام النفس وحديث النفس هو العلم بنظم الألفاظ والعبارات وتأليف المعاني المعلومة على وجه مخصوص.

قال الباقر: سأوضح لك ذلك بما يزيل عنه الالتباس.. واسمح لي أن أستفيد مما أورده العلم الحديث في هذا المجال، وأستعمل قياس الغائب على الشاهد[1]، فهو أيسر في التوضيح.

لاشك أنكم تعلمون أن الحواس الخمس مجرد نوافذ يتعلق بكل واحد منها إدراك معين لصفة أو عدد من الصفات التي تكون عليها الأجسام.. ولاشك أنكم تعلمون كذلك أن مركز الإدراك ليس في هذه النوافذ والآلات التي يجري الحس من طريقها، وإنما في فصوص معينة من قشرة المخ المركوز في جوف رأس الإنسان.. فهذا المخ تنفذ إليه معطيات الحواس عن طريق شبكة الأعصاب المنتشرة فروعها في جسم الإنسان؛ فيحصل فيه الإدراك، وهذه الشبكة نفسها تحمل أوامر المخ إلى سائر أعضاء الجسم، كما نعرف من معطيات علم الطب الحديث التي صارت جزءا من الثقافة العامة لعصرنا..

1) استفدنا في هذا المطلب من كتاب (مسألة الكلام الالهي بين الشيعة الاثنا عشرية وأهل السنة دراسة نقدية في ضوء معطيات العلم الحديث)، للدكتور مصعب الإدريسي.

فـالأذن نافـذة إدراك الأصـوات، والعين نافـذة إدراك الألـوان، والأنف نافذة إدراك الروائح، واللسان نافذة إدراك الطعوم، والجلد نافذة إدراك الخشونة والملاسة، وكذلك الحرارة والبرودة، وحملـوا عليه أيضا إدراك الرطوبـة واليبوسـة مـع أن هـذا لا يتم مـع مجـرد المباشرة؛ بل مع المدافعة أو الاعتماد، وبمثـل هـذا نـدرك الضـرب المؤلم؛ لكننا ندرك أن جسما أثقل من جسم آخـر مـتى حملناهمـا بمقدار الجهد العضلي في الحمل.. وندرك مرض أعضـاء أجسـامنا الجوانية حينما نحس الألم فيها.. وهذه معارف حسية ضرورية أيضا تتولى شبكة الأعصاب نقلهـا إلى مركـز إدراكهـا بـالمخ بلا واسـطة النوافذ الخمس.

وللكلام أو للتكليم – أي طريقة إخراج المعلومة المـرادة وفـق النظام اللغوي المتواضع عليه - مركزان في قشـرة المخ: أحـدهما معني بنظام اللغـة، والثـاني يقـود عمليـة النطـق وإنتـاج الأصـوات المسموعة..

فالمسألة في حقيقتها ليست أكثر من معـارف تجمـع بقـدر مـا يتاح للإنسـان من معطيـات حواسـه ونتـاج اسـتدلاله، وتحفـظ في مستودعها من المخ، ثم تُخرج أو تُظهر أو تُعلَن بقدر مـا تتعلـق بـه الإرادة من ذلك المستودع في خطاب الإنسان، أو كتابته الـتي هي رمـوز تحكي مفـردات الخطـاب وتنقلـه للغـائب، أو في إشـاراته الحسية المتفق عليها، وربما عن طريق التخاطر لمن كان من أهل هذه الهبة.

وقد تكون المعارف الخارجة خـبرا عن معلـوم أو طلبـا لحاجـة معلومة، وقد تكون صحيحة في أصلها أو باطلة، وقد تكون صحيحة ويريد الإنسان تزييفهـا والإخبـار عنهـا بغـير مـا هي عليـه في نفس الأمر، وهذه الإرادة تابعة للعلم بما فيه مصلحة أو مضرة.

واللغـة في حقيقتهـا ليسـت شـيئا أكـثر من نظـام لنقـل هـذه المعارف أو الرغبات التابعة لها عن طريق رموز صوتية، يتم تعـيين إشارة كل رمز منها إلى مرموزه بالتواضع بين أهل اللغـة الواحـدة على مستوى بناء الكلمة، وعلى مستوى بنـاء الـتركيب الـذي يتـاح للمتكلم في نظمه أكبر مساحة من الحرية في الاختيار، ويكون فيه أكبر التفاوت بين أبناء اللغة الواحـدة في بلاغـة الخطـاب، على مـا

نجده في لغتنا العربية.

وليس في إمكـان الإنسـان أن يـدرك معـنى لفـظ يشـير إلى موجـود دون أن يكـون عالمـا بـه، ودون أن تكـون لـذلك المرمـوز صورة مُخَزَّنةٌ في مُخِّهِ، أو مَعرِفةٌ لما ينفصل به وجود ذلك الشـيء عن وجود ما سواه إذا لم يسبق له إدراكـه حسـيا، أو لم يكن ممـا يدرك بالحواس أصلا.. هذا وإلا فالكلمة مجرد صوت أجوف لا يـدل على معنى، ولا يشير إلى مـا يزيـد عن كونـه صـوتا مبهمـا كسـائر الأصوات التي تعج بها الأجواء حولنا مما ليس بلغة خطاب.

وباعتبار تلك المعارف وذلك التواضع في الخطـاب اختلفت في اللغة العربية دلالات الألفـاظ، واختلفت دلالـة الكلمـة الواحـدة بين تـركيب وآخـر، وبين الاسـتعمال الحقيقي والاسـتعمال المجـازي.. وكل ذلك في السمع الحاصل من طريق الأذن مجرد وجود أصوات متصلة على هيئات مختلفة، لا تختلـف في تنغيمهـا كثـيرا عن تنغيم أصوات العصافير.

فمُخُّ الإنسان هُنا متميِّزٌ بتحصيل العلـوم الاسـتدلالية المؤسسـة على علوم الضرورة، ومتميز أيضا بإخراج ما يريد نقلـه أو إظهـاره من المعـارف في صـورة رمزيـة، أو نسـق لغـوي. ولـذلك فـإن الإنسان حينما يرى شيئا أو آلة جديدة لأول مرة، قد يصـف شـكلها كما يظهر لحاسته؛ لكنه لا يسميها ابتداء ولا يضـع لهـا اسـما؛ حـتى يُعلَمَ به أو يتواضع مع غـيره على اسـم لمـا عرفـاه، وكـذلك قـالت الملائكةُ حينما أُمِرت بذكر أسماء الخلائق: ﴿.. سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)﴾ (البقـرة).. وذلـك لأن علم الملائكة المُحدَث محصور له غاية ينتهي إليها؛ فأنَّى لهم أن يعرفـوا أسماءً لموجودات لم يعرفوها من قبل؟

ومن ثمَّ قـال المناطقـة في حَـدِّ الإنسـان: حيـوان نـاطق.. والناطقيـة - هنـا - هي العقـل وعمـل المخ من الإنسـان، وكـان شيوخنا في الفلسفة يحكون لنا عن سقراط أنه كان يقول للرجـل العملاق: يا هذا، كلمني حتى أراك.. أي حـتى أراك إنسـانا حقيقيـا؛ فربما لا يكون له من الإنسانية إلا الصورة، وكونه عملاقا زيـادة في الصورة لا في حقيقة الإنسانية.. وقد كـان حكمـاء العـرب يقولـون فيمن لم يكمـل عقلـه من العمـاليق: أجسـام البغـال وأحلام

العصافير.

وبهـذا، فـإن المسـألة في حقيقتهـا ليسـت أكـثر من تحصـيل المعارف وإخراجها.. ولا أعني بذلك أنه لا تمييز بين حقيقـة السـمع والبصـر والـذوق والشـم واللمس من جهـة، وبين العلم الحاصـل للإنسـان من جهـة أخـرى، ولا بين ذلـك كلـه وبين الكلام من جهـة ثالثة.. فإنه من المكابرة أن يقول قائل: إن معنى (سمع) هو معنى (علم) بلا فاصل.. أو إن معنى (أبصر) هو معـنى (علم) بلا فاصـل.. أو أن معنى (الكلام) هو معنى (العلم) بلا فاصل.

وإن المتاح لنا من خلال ما ذكرته بصورة مختصرة، هـو القـول بـأن السـمع في الإنسـان هـو العلم الحاصـل من طريـق الأُذُن بالأصوات وصفاتها المختلفة من الشدة والرخاوة والجهر والهمس؛ لأن الإنسان بطبيعته المجردة لا يدرك الصوت إلا من طريـق هـذه الحاسـة.. وكـذلك القـول في البصـر بأنـه هـو العلم الحاصـل من طريق العين بالموجودات الملونة وإدراك طولهـا وعرضـها وكونهـا ساكنة في مكان أو متحركة عنه؛ لأن الإنسان بطبيعتـه المجـردة لا يدرك الملون إلا من طريق هذه الحاسة.. وكذلك القول في سـائر الحواس..

وقد قيدت هذا بأن يكون الإدراك بمجـرد مـا خلقـه اللـه تعـالى للإنسان في جسمه من الحواس؛ لأن نتاج حضارتنا الحديثة قَدَّم لنا ما يغير في معطيات الحواس مـا يشـبه مـا كنـا ندرسـه في الأدب تحت عنوان (تراسل معطيـات الحـواس)؛ فصـار بإمكـان الإنسـان المعاصـر أن يـرى الصـوت، وأن يمـيز بعينـه بين بصـمة صـوتية وأخرى، وأن يميز بين الصور الطيفية للأصوات المختلفة في إطـار (اللغة المرئيـة)، وصـار بإمكانـه أن يمـيز بين الأجسـام في الظلام تمييز الوطاويط التي لا تدرك الألوان، وأن يدرك حرارتها وملاسـتها دون أن يمسـها، وأن يـدرك الطعـوم وأن يعـرف درجـة حموضـتها وغير ذلك دون أن يضـعها على لسـانه، وكـل ذلـك بطريـق الحس والعلم الضروري..

مـا بقي لنـا في معـنى السـمع سـوى أن نقـول: إنـه إدراك الصوت.. وفي معنى البصـر: هـو التميـيز بين الأجسـام في أمـاكن وجودها بغير مباشرة.. وفي الذوق: هو إدراك الطعوم... وهكذا.

والعلم عام يصدق على ما هو ضروري وما هو استدلالي، والكلام من ذلك كله هو المعارف التي يريد الإنسان نقلها وإخراجها أو إعلانها وإظهارها من خزانتها المسماة بالذاكرة في مخه؛ وفق النظام المتواضع عليه في لغته التي قد تكون العربية، أو الفارسية، أو غير ذلك من لغات بني آدم.. واللغة هنا مجرد نظام، والأصوات رموز تشير إلى المعارف المراد نقلها، والكتابة رسوم مرئية ترمز إلى الأصوات حروفا في بعض اللغات، وكلمات في بعضها، وجملا في بعضها، وكل ذلك في إطار النظام اللغوي المتواضع عليه.

ويمكننا أن نقول: إن رسوم الكتابة ترمز إلى الأصوات رمز الأصوات إلى المعاني، وكما أن الذي لا يعرف مرموزات رسوم الكتابة من الحروف أو الكلمات والجمل لا يستطيع أن يقرأ وإن رأى الرسوم، فكذلك حال من لا يعرف المعاني لا يتكلم وإن ظهرت منه أصوات، ولا يعقل لغات الناس وإن سمع أصواتهم؛ حتى يُحَصِّلَ العلم بما حوله، ويعرِفَ نظامَ اللغة في نقل المعاني أو الصور العقلية لما علم، وإن لم يكن له علم بذلك؛ فهو فيما يصدر عنه من الأصوات وطير الببغاء الذي يقلد بعض أصوات الإنسان سواء.

والنقل هنا لا يعني تحريك المعارف من مخ المتكلم إلى مخ السامع؛ بل هو أشبه بنقل صورة جملة مُخَزَّنة في ذاكرة حاسوب إلى آخر، كما أن تخزين الصور العقلية أو الذهنية للمعلومات شبيه بتخزين المعلومات في ذاكرة الحاسوب في صورة رقمية..

والكلام في حقيقته ليس شيئا سوى هذه المعارف التي يراد نقلها في صورة رمزية قد تكون صوتية لغوية، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بغير ذلك.

لقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى، فقال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

بل أشار إليه قبله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ

يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)﴾(المجادلة)، وقوله:﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)﴾ (يوسف)

قام توما، وقال: اسمح لي أن أورد عليك بعض الشبهات في هذا.. وهي تنطلق مما ورد في كتبنا المقدسة، كتبنا وكتبكم.

قال الباقر: سل ما بدا لك، فالله الذي حرك قلبي للسير إليكم لن يعجز لساني عن إجابتكم.

قال توما: لقد ذكر قرآنكم كما ذكر كتابنا المقدس أن الله كلم موسى.. فهل سمع موسى صوتاً وحرفاً؟ فإن قلتم ذلك فإذا لم يسمع كلام الله، فإن كلام الله ليس بحرف ولا صوت.. وإن لم يسمع حرفاً ولا صوتاً، فكيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت؟

قال الباقر: إن السؤال عن (كيف سمعت؟) هو كالسؤال عن (كيف أدركت بحاسة الذوق حلاوة السكر؟)

ولا سبيل إلى الجواب عن هذا السؤال إلا بوجهين:

أولهما، وأعلمهما أن نسلم سكراً إلى هذا السائل حتى يذوقه ويدرك طعمه وحلاوته، فنقول له حينئذ: أدركت أنا كما أدركته أنت الآن حلاوة السكر.. وهذا هو الجواب الشافي، والتعريف التام.. وهو لا يمكن إلا لمن كلمه الله كما كلم موسى عليه السلام.

وأما الثاني، وهو أن يتعذر ذلك إما لفقد السكر، أو لعدم الذوق في السائل للسكر، فنقول له: أدركت طعمه كما أدركت أنت حلاوة العسل، فيكون هذا جواباً صواباً من وجه وخطأ من وجه.

أما وجه كونه صواباً فإنه تعريف بشيء يشبه المسؤول عنه من وجه، وإن كان لا يشبهه من كل الوجوه وهو أصل الحلاوة، فإن طعم العسل يخالف طعم السكر وإن قاربه من بعض الوجوه وهو أصل الحلاوة، وهذا غاية الممكن.. فإن لم يكن السائل قد ذاق حلاوة شيء أصلاً تعذر جوابه وتفهيم ما سأل عنه.

وهكذا جواب من قال (كيف سمع كلام الله تعالى؟)، فلا يمكن شفاؤه في السؤال إلا بأن نسمعه كلام الله تعالى القديم وهو

متعــذر، فــإن ذلــك من خصــائص الكليم ﵇، فنحن لا نقــدر على إســـماعه أو تشـــبيه ذلـــك بشـــيء من مســـموعاته وليس في مسموعاته ما يشبه كلام الله تعالى، فإن كل مسموعاته التي ألفها أصوات والأصوات لا تشبه مـا ليس بأصـوات فيتعـذر تفهيمـه، بـل الأصم لو سأل وقال:(كيف تسمعون أنتم الأصوات)، وهو ما ســمع قــط صــوتاً لم نقــدر على جوابــه، فإنــا إن قلنــا كمــا تــدرك أنت المبصرات فهو إدراك في الاذن كإدراك البصر في العين كـان هـذا خطأ، فـإن إدراك الأصـوات لا يشـبه إبصـار الألـوان، فـدل أن هـذا السؤال محال.

بل لو قال القائل كيف يـرى رب الأربـاب في الآخـرة[1]، كـان جوابه محالاً لا محالة لأنه يسأل عن كيفية ما لا كيفية لـه، إذ معـنى قول القائل كيف هو أي مثل أي شيء هو مما عرفناه، فإن كان ما يسأل عنه غير مماثل لشيء مما عرفـه، كـان الجـواب محـالاً ولم يدل ذلك على عدم ذات الله تعالى، فكذلك تعذر هـذا لا يـدل على عدم كلام الله تعالى، بـل ينبغي أن يعتقـد أن كلامـه سـبحانه ليس كمثله شيء، كما أن ذاته ليس كمثلها شيء، وكما ترى ذاتــه رؤيــة تخالف رؤية الأجسام والأعراض ولا تشبهها فيســمع كلامــه ســماعاً يخالف الحروف والأصوات ولا يشبهها.

قال توما: فما تقول في الكلام الذي في المصـاحف.. هـل هـو كلام الله أم لا، فإن كـان هـو كلام اللـه كـان حـالاً في المصـاحف، فكيف حمل القديم في الحادث؟.. وإن قلت لا، فكيف كان احـترام المصحف مجمعا عليه.

قال الباقر: إن كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف محفــوظ في القلوب مقروء بالألسنة، أما الورق والحـبر والكتابـة والحـروف والأصوات فكلها حادثـة، لأنهـا أجسـام وأعـراض في أجسـام فكـل ذلك حادث.. وإن قلنا إنه مكتوب في المصحف، لم يلزم أن تكــون ذات كلام اللــه في المصـحف، كمـا أنـا إذا قلنـا النـار مكتوبـة في الكتاب لم يلزم منه أن تكون ذات النار حالة فيـه، إذ لـو حلت فيـه لاحترق المصـحف، ومن تكلم بالنـار فلـو كـانت ذات النـار بلسـانه لاحترق لسانه، فالنار جسم حار وعليه دلالة هي الأصوات المقطعة

---

1) اختلفت المدارس الإسلامية في هذا، ونرى أنه خلاف لفظي لا يمكن بسطه هنا.

تقطيعاً يحصل منه النون والألف والراء، فالحار المحرق ذات المدلول عليه لا نفس الدلالة، فكذلك كلام الله القائم بذات الله هو المدلول لا ذات الدليل، والحروف أدلة، وللأدلة حرمة إذ جعل الشرع لها حرمة، فلذلك وجب احترام المصحف.

قال توما: فما تقول في القرآن.. هل هو كلام الله أم لا؟ فإن قلتم لا فقد خرقتم كل ما ذكرتموه، وإن قلتم نعم فما هو سوى الحروف والأصوات، ومعلوم أن قراءة القارئ هي الحروف والأصوات.

قال الباقر: نحن نستعمل للدلالة على هذا ثلاثة ألفاظ: قراءة، ومقروء، وقرآن.

أما المقروء فهو كلام الله تعالى.

وأما القراءة: فهي في اللسان عبارة عن فعل القارئ الذي كان ابتدأه بعد أن كان تاركاً له، ولا معنى للحادث إلا أنه ابتدأ بعد أن لم يكن.

وأما القرآن، فقد يطلق ويراد به المقروء، فإن أريد به ذلك فهو غير مخلوق.. وهو الذي أراده الله تعالى عندما وصف القرآن بأنه كلام الله تعالى.. وإن أريد به القراءة التي هي فعل القارئ ففعل القارئ لا يسبق وجود القارئ، وما لا يسبق وجود الحادث فهو حادث.. والقرآن بهذا الوصف مخلوق(1).

---

1) نرى أن هذا من أحسن الأجوبة في مسألة (خلق القرآن)، وهي من مسائل الفضول التي فرقت الأمة، ولا علاقة لأي جواب فيها بالسنة والبدعة، بل أحسن جواب فيها هو السكوت عن الكلام فيها..

أما ما يذكره بعضهم عن أحمد من قوله: (من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم)

وما رووا عنه من قوله: (الجهمية افترقت ثلاث فرق فقالت طائفة منهم: القرآن كلام الله مخلوق وقالت طائفة: القرآن كلام الله وسكتت وهي الواقفة الملعونة!! وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فكل هؤلاء جهمية كفار! يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا)!! و (.. أن من هذه مقالته إن لم يتب لم يناكح ولا يجوز قضاؤه ولا تؤكل ذبيحته)!!

أو ما رواه المروذي عنه من قوله: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل- إن الكرابيسي -أحد علماء الشافعية- يقول: من لم يقل لفظه بالقرآن مخلوق فهو كافر،

10 ـ النور

قام عاشرنا، وكان اسمه (شـنْكَراجاريا)(1).. وكـان رجلا جوالـة من بلاد الهند، وكان يجمع إلى اهتمامه بالفلسفة الزهد والانصراف عن كل متع الحياة الدنيا.. قام وقال: الكامل الذي نـال كـل كمـال لابد أن يكون له من الأنوار ما لا تزاحمه أي ظلمة..

قال البـاقر: إن أردت بـالنور مـا نـراه من أنـواع الأشـعة، فهي أجسـام كسـائر الأجسـام، ويعتريهـا من النقص مـا يعـتري سـائر الأجسام، والله منزه عن الجسمية والحد.. وإن أردت بالنور خلاصة النور المنزه عن الجسمية وتوابع الجسمية، فالله هو النور الوحيـد، وكل ما عداه ظلمة، لولا ما يفيض الله عليهم من أنواره..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقـال:﴿ اللـهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَـا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَـةٍ لا شَـرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَـادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللـهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللـهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ وَاللـهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (35)﴾ (النور)

قــال شــنْكَراجاريا: أنت بين فلاســفة، ولســت بين عــوام..

فقال أحمد: بل هو الكافر)

أو ما روي من استحلال دم من يقول بخلق القرآن، وأنه لا يُسمع مِمَّن لم يكفـرهم ولا يسلم عليه ولو كان من الأقارب ولا تشهد لهم جنائز ولا يعادون في مرضهم!!

وغير ذلك، فنرى أنه من غلو الأتبـاع، فالإمـام أحمـد كـان أعظم شـأنا في أن يقـع في مثل هذا..

وإن صح عنه النقل بذلك، فهو من الأخطـاء الشـنيعة.. فالإسـلام أوسـع من أن يحصـر في مثل هذه المسائل الفضولية.

وننبه إلى أن مـا أوردنـا هنـا من جـواب الغـزالي هـو الضـرورة الـتي دعت إليهـا هـذه الرسائل.

1) أشـير بـه إلى (شـنْكَراجاريا) (700ـ 750م)، وهـو فيلسـوف هندوسـي، من أبـرز أعماله تعليقاتـه على الفيـدا في الكتابـات المقدسـة الهندوسـية.. ولـد في كـيرالا جنـوب الهند.. مارس إنكار الذات وتعلم مبكرًا في حياتـه التوقـف عن المتـع الدنيويـة ومباهجهـا وقد كرس نفسه للدراسة والمناقشات الفلسفية والتعليم الديني.. وقد ذاعت شهرة هـذا المعلم الجـوال في كـل أنحـاء الهنـد.. أسـس خلال تجوالـه أربعـة أديـرة في بادرينـاث بالهملايا، وشرنجيري في مايسور ودواركا في غربي الهند، وبيوري في شرق الهند.

والفلاسفة لا تقنعهم الدعاوى العارية من البراهين.

قال الباقر(2): إن إثبات أن الله هو النور الحق، وأن اسم النـور لغيره مجاز محض لا حقيقة له يستدعي - أولا- معرفة معنى النـور بالوضع الأول عند العـوام.. ثم بالوضـع الثـاني عنـد الخـواص.. ثم بالوضع الثـالث عنـد خـواص الخـواص.. ثم نعـرف درجـات الأنـوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لنا عند ظهـور درجاتهـا أن اللـه تعـالى هـو النـور الأعلى الأقصـى، وعنـد انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه.

قال شنْكَراجاريا: فلنبـدأ **بالوضـع الأول، وهـو النـور عنـد العامي البسيط**.

قـال البـاقر: النـور – في مرتبتـه الأولى- يشـير إلى الظهـور.. والظهور أمر إضافي: إذ يظهر الشيء لا محالة لإنسان ويبطن عن غيره، فيكون ظاهرا بالإضـافة وباطنـا بالإضـافة.. وإضـافة ظهـوره إلى الإدراكـات لا محالـة.. وأقـوى الإدراكـات وأجلاهـا عنـد العـوام الحواس، ومنها حاسة البصر.

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسـام: منهـا مـا لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة.. ومنها ما يبصر بنفسـه ولا يبصـر بـه غـيره كالأجسـام المضـيئة كـالكواكب وجمـرة النـار إذا لم تكن مشتعلة.. ومنها ما يبصر بنفسه ويبصـر بـه أيضـا غـيره كالشـمس والقمر والسـراج والنـيران المشـتعلة.. والنـور اسـم لهـذا القسـم الثالث.

وعلى هذا، فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره.

ولما كان سر النور وروحه هـو الظهـور للإدراك، وكـان الإدراك موقوفا على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضـا: إذ النـور هـو الظـاهر المظهـر؛ وليس شـيء من الأنـوار ظـاهراً في حـق العميان ولا مظهرا.. فقد تساوى الروح الباصرة والنور الظـاهر في كونه ركنا لا بد منه للإدراك، ثم ترجح عليـه في أن الـروح الباصـرة هي المدركة وبها الإدراك.. وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك،

2) البرهان على هذا ملخص بتصرف كبير من رسالة (مشـكاة الأنـوار) للغـزالي، وقـد حاولنا أن نبعد عن البرهان ما رأينا أنه من آثار الفلسفة الإشراقية.

بل عنده الإدراك.. ولهذا كان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر.

قال شنْكَراجاريا: صحيح ما ذكرته.. ولكن ما العيوب التي في هذا النوع من النور، والتي تحجبه عن الكمال؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصر ما هو وراء حجاب.. ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها. ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبصاره: فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا.. فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة[1].

قال شنْكَراجاريا: عرفت المرتبة الأولى للنور.. فما المرتبة الثانية والتي ذكرت أنها **مرتبة الخواص**؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن في الإنسان عينا يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني، وهي المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون.. والتي نسميها عادة (عقلا)

قال شنْكَراجاريا: أجل.. ونحن الفلاسفة أعرف الناس بها، وأكثر الناس استعمالا لها.

قال الباقر: ولهذا، فأنتم أدرى الناس بأن العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. فالعقل منزه عن النقائص التي تقع فيها الحواس.. فالعين لا تبصر نفسها، بينما العقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه، إذ يدرك نفسه عالما وقادرا، ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية.

والعين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا بينما

---

1) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في فصل (العقل) من رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

العقل يستوي عنده القريب والبعيـد.. فهـو يعـرج في تطريفـه إلى أعلى السموات رقيا، وينزل في لحظة إلى تخـوم الأرضـين هربـا.. بل إذا حقت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسـه معاني القرب والبعد الذي يفرض بين الأجسام.

والعين لا تدرك ما وراء الحجب، بينما يتصرف العقل فيمـا وراء حجب السـموات، وفي الملأ الأعلى كتصـرفه في عالمــه الخــاص ومملكته القريبة التي هي بدنه الخاص.. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل.

والعين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها؛ بل قوالبها وصورها دون حقائقها بينمـا العقـل يتغلغـل إلى بـواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتهـا وغايتها وحكمتها، وأنها من خلق، وكيـف خلـق، ولم خلـق، ومن كم معنى جمع وركب، وعلى أي مرتبـة في الوجـود نـزل، ومـا نسـبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته.. وهكذا.

والعين تبصر بعض الموجودات، وتقصـر عن جميـع المعقـولات وعن كثـــير من المحسوســـات، إذ لا تـــدرك الأصـــوات والـــروائح والطعوم والحرارة والـبرودة وغيرهـا، ولا تـدرك الصـفات الباطنـة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحـزن والألم واللـذة والعشـق والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجـودات لا تحصـى ولا تعـد.. بينمـا يطـوف العقـل في جميـع الموجـودات؛ إذ يـدرك هـذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدها، وهو الأكـثر: فيتصـرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينـا صـادقا.. فالأسـرار الباطنـة عنـده ظـاهرة، والمعـاني الخفيـة عنـده جليـة.. فمن أين للعين الظـاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنهـا نـور بالإضـافة إلى غيرهـا لكنهـا ظلمـة بالإضـافة إليـه.. بـل هي جاسـوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لـترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيـه الثـاقب وحكمـه النافذ.

والعين لا تبصـر مـا لا نهايـة لـه، فإنهـا تبصـر صـفات الأجسـام والأجسـام لاتتصـور إلا متناهيـة.. بينمـا العقـل يـدرك المعلومـات، والمعلومات لايتصور أن تكون متناهيه.. فإنـه - مثلا- يـدرك الأعـداد

ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليها: بل يدرك علمه بالشيء وعلمه بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه. فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية.

وفي الأخير، فإن العين تخطئ كثيرا.. فتبصر الكبير صغيرا، فترى الشمس في مقدار مجن والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق.. بينما العقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة؛ والعين ترى الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديها ساكنا، وترى الصبي ساكنا في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثيرة.

قال الباقر: فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. فما المرتبة الثالثة.. والتي ذكرت أنها **مرتبة خواص الخواص**؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم – وأنت الفيلسوف الخبير- أن العقول وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة.

قال شنْكَراجاريا: صدقت في هذا.. فبعض المعارف أوضح من بعض..

فبعضها يكون عندها كأنه حاضر كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا ولا يكون موجودا معدوما، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودا كان الأعم واجب الوجود، وأما عكسه فلا يلزم في العقل.

ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستوري زناده، وينبه عليه بالتنبيه.

قال الباقر: فما الذي ينبه العقل إلى هذه الخفيات؟

قال شـنْكَراجاريا: الحكمـة.. فعنـد إشـراق نـور الحكمـة يصـير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة.

قال الباقر: فهل الحكم في مرتبة واحدة؟

قال شنْكَراجاريا: لا.. الحكم تختلف إلى درجـات كبـيرة لا نهايـة لها.

قال الباقر: فما الذي يميز درجاتها؟

قال شنْكَراجاريا: الحكماء.. فالحكماء متميزون.

قال الباقر: فمن أحكم الحكماء؟

قال شنْكَراجاريا: الله.

قال الباقر: فأعظم الحكم إذن هي كلام الله تعالى.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. ذلك صحيح.

قال الباقر: ولذلك، فإن خواص الخـواص ينظـرون إلى كلمـات الله المقدسة إلى عباده على أنها عند عين العقـل كنـور الشـمس عند العين الظـاهرة إذ بهـا يتم الإبصـار.. ولهـذا سـمى اللـه تعـالى القرآن نورا، فقال:﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) ﴾ (التغـابن)، وقـال:﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)﴾ (النساء)

قال شنْكَراجاريا: لقد صدق قرآنكم في هذا.

قال الباقر: فقد عرفت إذن أن العين عينان: ظـاهرة وباطنـة.. فالعين الظاهرة من عالم الحس والشهادة، والباطنة من عالم آخر وهو عـالم الملكـوت، ولكـل عين من العيـنين شـمس ونـور عنـده تصير كاملة الإبصار، إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة؛ والظاهرة من عـالم الشـهادة وهي الشـمس المحسوسـة، والباطنـة من عـالم الملكوت وهو كلمات الله المقدسة المنزلة على أنبيائه.

قـال شـنْكَراجاريا: أجـل.. لقـد شـرحت لي كـل هـذا.. ولكن مطلوبي هو البرهان على أن الله هو النور الحقيقي.

قال الباقر: لقد عرفت إذن أن الأنوار لها درجات مختلفة بعضها فوق بعض.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. وقد عرفنا بعضها من خلال حوارنا هذا..

قال الباقر: فهل ترى أن هذه الأنوار تتسلسل إلى غير نهاية؟

قال شنْكَراجاريا: التسلسل ممتنع عقلا.. بل لابد أن تنتهي الأنوار إلى مصدرها الأول..

قال الباقر: فما يرى العقل من صفة هذا المصدر؟

قال شنْكَراجاريا: لابد أن يكون هذا المصدر الذي تستفيد منه جميع الأنوار أن يكون نورا لذاته وبذاته، ليس يأتيه نور من غيره، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها..

قال الباقر: فهل اسم (النور) أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنير في ذاته المنير لكل ما سواه؟

قال شنْكَراجاريا: بل النير في ذاته المنير لكل ما سواه هو أحق باسم النور من غيره.

قال الباقر: فذلك هو الله.. وهو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)﴾ (النور)

بل إن العقل في تحقيقه يرى أن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض.. إذ كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له، بل نورانيته مستعارة من غيره، ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها، بل بغيرها.. ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض..

فالنور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولا

والإدامة ثانيا، فلا شركة لأحـد معـه في حقيقـة هـذا الاسـم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه بـه ويتفضـل عليـه بتسـميته تفضـل المالك على عبـده إذا أعطـاه مـالا ثم سـماه مالكـا، وإذا انكشـف للعبد الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفـرد لا شـريك لـه فيـه أصلا.

***

ما وصل الباقر من حديثه إلى هذا الموضع حـتى جـاءني رجـل مشؤوم يناديني من دون أصحابي.. فأسرعت إليه، فـراح يبشـرني ببعض المناصـب الـتي أثقلتـني إلى الأرض، ولـولا أن اللـه أعـاد لذاكرتي تلـك الأحـاديث الجميلـة في هـذا الموضـع مـا كنت أراني أذكرها أبدا.

قلنا: فما فعل أصحابك الفلاسفة؟

قـال أرسـطو: لقـد ذهبت مـرة إلى الموضـع الـذي تعودنـا أن نلتقي فيـه، لكـني لم أجـدهم، وقـد سـألت عنهم، فقـال لي من سألته: لقد مر عليهم رجـل محمـدي يقـال لـه البـاقر، وقـد سـلب عقولهم بحديثه، فتركوا تلـك المناصـب الرفيعـة الـتي بـوأهم إياهـا قومنا، وراحوا يتتلمذون عليه.

خامسا ـ البديع

في اليـوم التـالي.. دعانـا رجـل منـا، كنت أراه كثـير الاهتمـام بالطبيعة ومظاهرها وجمالها.. وقد جعله ذلـك ينفـرد عنـا في أكـثر الأحيان يتأمل الأشجار والصخور والجبال.. بل كنت أراه أحيانا يرفع الصخرة الضـخمة ليتأمـل مـا تحتهـا من أنـواع الأحيـاء.. وقـد كـان يصرف في ذلك أكثر جهده وأكثر أوقاته.

أما في الليل، فكنت أراه يدمن السـهر مـع النجـوم والكـواكب يتأمل حركاتها وأنوارها بروحانية عجيبة إلى أن يـزروه النـوم، وهـو على تلك الحال.

لقد أعانه هذا الشده بالطبيعة، وهـذا التفـاني في جمالهـا على تلك الآلام التي كانت ترسلها لنا الأيام كل حين.. ولـذلك لم يتجـرع منهـا مـا تجرعنـا منـه.. بـل ظـل محافظـا على هدوئـه إلى آخـر اللحظات.

في ذلك اليوم دعانا.. فأسرعنا إليـه، ونحن متعجبـون من هـذه الدعوة العجيبة من ذلك الرجل الذي كان أبعدنا عن الاهتمام بنـا أو بما نحن فيه.

بمجرد اجتماعنا، خاطبنا بقوله: قبل أن أذكر لكم مـا قـد يعيننـا على البحث عن ربنا أقدم لكم نفسي أولا.. أنا (بينيديتو كروتشـي) (1).. لا شك أنكم لا تعرفونني.. ولذلك سأعرفكم بنفسي.. أنا ذلـك

---

1) أشـير بـه إلى بينيـديتو كروتشي، Croce, Benedetto (1866-1952م)، وهـو فيلسوف إيطالي يُعدّ من أكثر فلاسفة إيطاليا تميزًا في القـرن العشـرين.. وكـان يـؤمن بوجود نوعين من المعرفة: المعرفة التي تأتي عن طريق الفهم، والمعرفة التي تأتي عن طريق الخيال.. والخيال عنده يوجِّه الفن.. وكان يؤمن بأن الفن لا يحاول تصنيف الأشياء، كما يفعل العلم، لكنه يُحسّ بها ويمثلها فقط.

من أهم كتبـه: علم الجمـال (1902م)؛ الفلسـفة العمليـة (1908م)؛ المنطـق (1909م)؛ التاريخ بوصفه قصة الحرية (1938م)

ولد في بيسكا سيرولي بالقرب من بيسكارا، وعين في منصب سيناتور عـام 1910م، وساعد في إصلاح المدارس الإيطالية في العشرينيات، وكان من المناوئين لحكومة بـنيتو موسوليني الفاشية، وزعيمًا للدوائر الليبراليـة الفكريـة في إيطاليـا. (الموسـوعة العربيـة العالمية)

الرجـل الـذي كتب في (علم الجمـال)(1)، وكـان أسـتاذا كبـيرا من أساتذته.. ولم يكن يهمه في الحياة إلا النظر إلى الجمال وتذوقـه.. ولكني – للأسف – انشـغلت بالجمـال عن الجميـل، وبالصـنعة عن الصانع، وبمظاهر الإبداع عن المبدع العظيم الذي أبدعها.

لا تتوقـف حكـايتي عنـد هـذا الحـد.. وإلا لمـا دعـوتكم.. ولمـا اعتبرت ما سأحدثكم بـه ركنـا من أركـان المعرفـة باللـه.. لا يمكن للباحث عن الله أن لا يمر عليه.

لقد كتب الله لي أن أمر على من علمـني علـوم هـذا الـركن.. فتعرفت من خلاله على المبدع الحقيقي.. ولكني للأسف انشـغلت عنه بـأهواء كثـيرة، ودنس كثـير إلى أن وقعت معكم الآن في هـذا الموقـف لأتـذكر مـا كنت عنـه غـافلا.. ويعـود لـذاكرتي مـا كـانت محجوبة عنه.

في بداية حياتي.. وفي فترة زهـوي العلمي لم أكن أعـير كبـير اهتمام للجمال ومظاهر الجمال التي امتلأت بها أكوان الله.

نعم كنت أصادم الفطرة بذلك.. ولكني مع ذلك كنت مقتنعا أن تلك المصادمة هي الحقيقة الـتي يـدل عليهـا ذلـك الـنزر من العلم الذي ملأني به أساتذتي..

لقد كـانت المـادة – بفعـل تعليمـاتهم - في نظـري، وفي نظـر العلمــاء(2) في ذلــك الحين ليس لهــا أي حــظ ذاتي من الجمــال، فليس للمادة إلا خواص كمية كـالوزن والحجم والشـكل والعـدد.. وحيث إن الجمال ليس من جملة هذه الخواص، فقد كنا جميعـا أنـا وأساتذتي نميل إلى اعتباره خاصـة من خـواص المـراقب، لا صـفة من صفات الأشياء الطبيعية.

أذكر أنه في عام 1630 كتب ديكارت يقـول: (لا يـدل الجميـل

1) علم لجمال: هـو فـرع من فـروع الفلسـفة الحديثـة، وهـو يـدرس طبيعـة الشـعور بالجمال والعناصر المكونة له والكامنة في العمل الفني.. ويدرس الفنون بوجه عام، كمـا يقارن بين فنون الثقافات المختلفة، وثقافات الحقَب المختلفة في التاريخ، وذلـك لتنظيم معرفتنا المنهجية لها. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2) بعض مـا نـذكره هنـا مقتبس من كتـاب (العلم في منظـوره الجديـد) الـذي سـبق الإشارة إليه.

ولا البهيج على أكثر من موقفنا في الحكم على الشيء المتكلم عنه)

وقد وافقه سبينوزا على ذلك، فقال: (الجمال ليس صفة في الشيء المدروس بقدر ما هو الأثر الذي ينشأ في الإنسان نفسه الذي يدرس ذاك الشيء)

وقد أحدث هذان المفكران وآخرون غيرهما تيارا قوياً دام زماناً طويلاً.. فبعد ذلك بقرنين من الزمان أبان تشارلز داروين عن موقفه من الجمال، فكتب يقول: (من الجلي أن الإحساس بالجمال يتوقف على طبيعة العقل بصرف النظر عن أي صفة حقيقية في الشيء محل الإعجاب)

وهكذا فرويد.. فقد كان يشعر أنه مضطر إلى حصر الجمال في دائرة الغريزة.. ولهذا قال: (من دواعي الأسف أن التحليل النفسي ليس عنده ما يقوله عن الجمال، وكل ما يبدو مؤكداً أنه مستمد من مجال الشعور الجنسي)

لقد جعلتنا هذه النظرة نخرج الجمال عن العلم.. فالجمال، رغم احتمال كونه متعة شخصية، لا يمكن أن يكون موضع جدل علمي إذ أنه لا يعيننا بتاتا في اكتشاف حقائق الطبيعة.

ولذلك كنا نعتقد أن الفنون الجميلة، بقدر ما تنشد الجمال، لا يمكن أن يكون بينها وبين العلوم أي شيء مشترك.. بل إنا كنا نصور العلوم على أنها باردة المشاعر، ولكنها واقعية، ونصور الفنون على أنها دافئة المشاعر، ولكنها هوائية المضمون، بحيث يتوقع من علم الحشرات أن يسكت عن جمال الفراشة سكوت الشعر عن خمائرها الهضمية.

***

بعد ذلك.. وبعد تبخر ذلك الزهو الذي أفرزه الانبهار بالعلم، قدر الله لي أن ألتقي رجلا كان شديد الشوق للبحث عن الحقيقة.. كان اسمه (جيمس واتسن).. وقد تعرفت عليه في البدء من خلال قراءة كتابه المشهور (اللولب المزدوج)، فقد ذكر فيه كيف أن الجمال هو الذي هداه إلى اكتشاف التركيب الجزيئي لـ DNA.. وقد

تعجبت من ذلك عجبا شديدا.

وعندما التقيت بـه سـألته عن ذلـك، فقـال لي: لقـد كـان ذلـك بالنسبة لي بديهية.. فالجمال في الكون هو الأصل.. وقد استثمرت هذا الأصل في اكتشاف أهم النظريات العلمية..

قال لي ذلك، ثم صمت صمتا عميقا ممتلئا حزنـا، فسـألته عن سر كآبته، فقال: نعم لقد اكتشفت التركيب الجزيئي لـ DNA لكــني لم أكتشـف بعـد من ركب ذلـك الـتركيب العجيب.. لقـد انبهـرت بالجمال وانشغلت عن الجميـل.. لقـد غفلت في ثنايـا أبحـاثي عن ربي البديع الذي صمم كل ذلك الجمال..

قال ذلك، ثم راح يخاطب نفسه بقوله: لقد حصل مـني ذلـك.. ولكني لست الوحيد فيه.. لقد انشغل الكـل.. - كـل من أعـرفهم - ببحوثهم ومعاملهم وثناء النـاس عليهم عن ذلـك العظيم الـذي هـو وراء كل جمال ونظام وبناء..

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لقـد رأيت الكثـير من البـاحثين من أصـحابي وغـيرهم يمتطـون مطيـة الجمـال ليتوسـلوا بهـا إلى اكتشاف الحقائق العلمية.. ولم أر واحدا منهم ركب مطية الجمـال ليتعرف على الجميل الذي أبدع هذا الكون..

لقد لاحظ (فيرنر هايزنبيرغ) فيما يتعلـق بميكانيكـا الكم ــ وهـو المجـال الـذي قـام فيـه ببحـوث رائـدة ــ أنـه ثبت في الحـال أن (النظرية مقنعة بفضل كمالها وجمالها التجريدي)

وعلماء الفيزيـاء عمومـا يـرون أن نظريـة النسـبية العامـة هي أجمـل النظريـات الفيزيائيـة الموجـودة على الإطلاق.. وقـد أشـاد إيـرون شـرودنغر بهـا بقولـه: (إن نظريـة إينشـتاين المذهلـة في الجاذبية لا يتأتى اكتشافها إلا لعبقري رزق إحساساً عميقاً ببسـاطة الأفكار وجمالها)

كما أشار أينشتاين نفسه إلى جمـال هـذه النظريـة في خاتمـة مقالتـه الأولى عن الجاذبيـة حيث قـال: (لا يكـاد أحـد يفهم هـذه النظرية تمام الفهم يفلت من سحرها)

وقد رأيت أن الجمـال ــ فـوق هـذا ــ كـان معيـارا أساسـيا في الفيزياء لدرجة أنه يقدم حتى على التجربة نفسها..

لقد أعلن الفيزيائي بول ديراك أن (وجود الجمال في معـادلات العالم أهم من جعل هذه المعادلات تنطبق على التجربة)

ونستطيع أن نفهم ذلك إذا تصورنا العالم النظـري أمـام كميـة ضـخمة من البيانـات التجريبيـة المذهلـة، فـأي النتـائج هي الأهم؟ وكيف ينبغي أن تفسر جميعها؟ ما هو النمـط الملاحـظ؟ والجمـال في هذا المقام دليل جدير بالثقة.. يقول الفيزيائي جورج تومسون: (إن المــرء يســتطيع دائمــاً أن يقــدم نظريــة، أو عــدداً كبــيراً من النظريات، لتفسير حقائق معروفة، بل للتنبؤ بحقائق جديدة أحياناً.. والجمال هو الفيصل.. فالنظريـات بعضـها صـعب المأخـذ ومحـدود النطاق وتعسفي، وقلما تدوم هذه طويلاً)

وفـوق هـذا.. فـإن أبـرز علمـاء الفيزيـاء في القـرن العشـرين يتفقون على أن الجمال هو المقياس الأساسـي للحقيقـة العلميـة، فالفيزيــائي رتشــارد فينمــان يــرى (أن المــرء يمكن أن يســتبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها)

ويعلن هايزنبيرغ أن (الجمال في العلـوم الدقيقـة وفي الفنـون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الإستنارة والوضوح)

لقـد رأيت ــ بعـد بحث طويـل ــ أن الجمـال في الفيزيـاء هـو السـمة الغالبـة.. فالتجربـة تخطئ في الغـالب، والجمـال قلمـا يخطئ.. فإذا اتفـق أن وجـدت نظريـة أنيقـة للغايـة لا تنسـجم مـع مجموعة من الحقائق فهي لا محالة واجـدة لهـا تطبيقـاً في مجـال آخــر، فخلال العشــرينات من هــذا القــرن، مثلاً، أصـبح الرياضـي والفيزيـائي هرمـان فيـل (Herman Weyl) مقتنعـاً بـأن نظريتـه في القياس لا تنطبق على الجاذبية، ولكنه ـ نظـراً لكمالهـا الفـني ــ لم يرد التخلي عنها كلياً، وقد تبين بعـد ذلـك بـوقت طويـل أن نظريـة فيل تلقي ضوءاً على ديناميكا الكم الكهربائية، فجاء ذلـك مصـداقاً لحسه الجمالي.

قــال لي صــاحبي (جيمس واتســن) ذلــك، ثم انتفض بشــدة، وقال: لكن مع ذلك لا مكان لليأس.. إن الجمال الـذي اكتشـفنا بـه

كل هذه النظريات العلمية هو نفسه الذي سيجعلنا نصل إلى ربنـا.. فلا يمكن أبدا أن يـترك مبـدع هـذا الكـون عبـاده هملا من دون أن يرســل لهم من يعــرفهم بــه.. إن هــذا يتنــاقض مــع أولى أولويــات الجمال.

لاشك أن المبـدع الحكيم الـذي أبـدع هـذا الكـون أحكم من أن يترك عباده هملا وهو قادر على أن ينقذهم ويعلمهم..

ثم التفت إلي، وقال: إن مجـرد تحريكـه لمشـاعرنا بـأن تبحث عنه دليل على عنايته بنا.. بل دليل على أنـه جعـل في هـذه الأرض من يعرفنا به..

قال ذلـك، ثم قـام، وقـال: أنـا راحـل الآن إن شـئت أن ترحـل معي.. فهلم نحـزم أمتعتنـا.. وإن شـئت أن تبقى حبيسـا لمعاملـك وعلومك.. فأتركك على خير..

قـال ذلـك، ثم سـار من دون أن ينتظـر ردي.. فأسـرعت إليـه ممهلا له، فقال: هيـا أجبـني.. إن كنت تريـد أن ترحـل معي فهلم.. وإلا فدعني.. فالعمر أضيق من أن نضيعه.

قلت: أمهلني يوما واحدا لأحزم أمتعتي..

قال: لك ذلك على أن لا تتجاوز يوما واحدا.. فإني أخشــى على نفسي أن يختطفني الموت قبل أن أتشرف بالتعرف على المبــدع العظيم الذي أبدع جميع هذا الكون.

***

في اليوم التالي، سرت مع صديقي جيمس.. وظللنا نسير مدة طويلة..

لم نـترك كنيسـة ولا معبـدا ولا رجـل دين ولا رجـل فلسـفة إلا لجأنا إليه نسـأله عن ربنـا.. وقـد عرفنـا من اختلاف الفـرق.. ومن أنواع الخرافة ما كاد يملؤنا باليأس..

لقد كنا نسمع أحاديث كثـيرة عن إلـه هـذا الكـون أو آلهـة هـذا الكون.. ولكنها جميعا كانت تتناقض مـع كثـير ممـا عرفنـا بـه العلم

عن ربنا.. وقد كان صاحبي – كما ذكـرت لكم – حازمـا جـادا.. فلم يكن يرضى أن تمس العلوم التي تعلمهـا.. لقـد قـال لي في ذلـك: إن العلوم التي دلتني على أن لي ربا يستحيل أن تتناقض مع الرب الذي أبدعها..

ثم أضاف: إن الجمال الذي علمتني إياه العلـوم دلـني على أن الأصـل في الكـون السـلام لا الصـراع.. فيسـتحيل على رب هـذا الوجود أن يصارع مخلوقاته.

بعد أن كدنا نيأس التقينا به..

لقد كان في غاية النورانية والسلام والصفاء واللطف..

كان وكأنه زهرة من أزهار الحقول الجميلة التي لا تذبل..

بل كان عطرا صـافيا لم يـدنس بكثافـة الأزهـار، ولم يعـره مـا يعروها من الضعف.

قلنا: من؟

قال: ولي من أولياء الله.. كان اسمه (محمد الجـواد)(1).. كـان شـابا لمـا يتجـاوز الخامسـة والعشـرين.. ولكنـه كـان في حكمـة الشيوخ.. وفي روحانية القديسين.. وفي ذكاء العباقرة.

---

1) أشـير بـه إلى الإمـام الجليـل (محمـد بن علي الرضـا) (195ــ220هــ) المعـروف بالجواد، وهو تاسع أئمّة أهل البيت – على مذهب الاثنا عشرية- ويقال له ابن الرضا.

قال عنه الذهبي: كان من سَروات آل بيت النبي ﷺ ، وكان أحد الموصـوفين بالسـخاء، ولذلك لقب بالجواد..

قال المفيد: كان المأمون قد شغف بأبي جعفـر لمـا رأى من فضـله على صـغر سـنّه، وبلوغه في الحكمة والعلم والاَدب وكمال العقل مالم يسـاوه فيـه أحـد من مشـائخ أهـل الزمان.

و للاِمام - بالاِضافة إلى ما روي عنـه من فقـه وحـديث - مواعـظ وحكم وآداب وبعض الاَدعية ذكرها الاَعلام في كتبهم، منها: قوله:(المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصـال: توفيـق من اللّه وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)، وقال: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه، وإن كـان النـاطق ينطـق عن لسـان إبليس فقـد عبـد إبليس)، وقال: (من اسـتفاد أخـاً في اللّـه فقداسـتفاد بيتـاً في الجنـة) (انظـر: موسـوعة أصحاب الفقهاء)

عندما التقينا به كـان منشـغلا بالعمـل في حقـل من الحقـول.. قرب جامعـة من كـبرى الجامعـات الأمريكيـة.. وكـان العطش قـد استبد بنا.. فطلبنا منه كأس ماء ليسقينا..

فأقبل إلينا بكل وجهه.. وسـقانا من ابتسـامته ولطفـه قبـل أن يسقينا من مائه.. ثم قال لنـا بعـد أن ارتوينـا: انظـروا إلى الجمـال العظيم الذي تختزنه هذه القطيرات العذبة من الماء..

نظر إليه صاحبي، وهو يتعجب أن يتحدث مثله بمثل هذا.

أضـاف الجـواد: انظـروا.. إن المـاء ليس مجـرد سـائل كسـائر السوائل.. إنه سر الحياة.. إنه الركيزة الكـبرى في حيـاة الكائنـات الحية، وعليه تتوقف جميع العمليات الحيوية فيها(1).

إن ذلك يعود إلى الخواص الفريـدة للمـاء، والـتي تجعلـه بحـق سائل الحياة..

أراد صـــاحبي جيمس أن يختـــبره، فقـــال: ومـــا هي هـــذه الخصائص؟

قال الجـواد: لـه خصـائص كثـيرة.. منهـا أنـه يـذيب العديـد من المواد أكثر من أي سائل آخر، ويرجع هذا إلى مقدرة الماء العاليـة في فصل الجزيئات المتأينة وغير المتأينة بعيداً عن بعضها البعض.

وله حرارة نوعية عالية مقارنة بالكثير من السوائل، فله حرارة تبخر، وحرارة كامنـة عاليتـان بصـورة غـير عاديـة، وتسـاعد هاتـان الخاصـيتان على بقـاء المـاء بصـورته السـائلة في درجـات حـرارة مختلفة، بل تجعله صالحاً لحياة الكائنات الحية في درجـات حـرارة عالية أومنخفضة نسبياً.

ومـع أن معظم المـواد تكـون عنـد أعلى كثافـة لهـا في درجـة التجمد، ولكن الماء يشذ عنها، حيث لـه أعلى كثافـة عنـد درجـة 4 س، وهـذه الخاصـية مهمـة للأحيـاء المائيـة البحريـة، حيث يطفـو الجليد على سطح الماء، وبذلك يعمل عازلاً لما تحته، ويمنـع المـاء

1) ذكرنا الكثير مما ورد في القرآن الكـريم والسـنة المطهـرة من الحـديث عن المـاء في رسـالة (معجـزات علميـة) من هـذه السلسـلة، وإنمـا ذكرنـا هـذا هنـا ليكـون تمهيـدا للحديث عن اسم (البديع)

السـفلي من التجمـد، وهـذا يحمي الكائنـات البحريـة من الهلاك والتجمد.

وهو شفاف قابـل لنفاذيـة الموجـات الضـوئية المرئيـة، وبـذلك يصـل الضـوء إلى أعمـاق كبـيرة في البحـار، وإلى داخـل أوراق النباتات الأرضية، فتتم عملية البناء الضوئي فيها.

وله شد سطحي أعلى من كل السوائل المعروفة، عدا الزئبـق وهذه الخاصية تجعله يرتفع في أجزاء النبـات إلى مسـافات عاليـة تصل إلى أكثر من 60 مترا.

وله قدرة تلاصق كبيرة مـع كـل من جزيئـات النشـا والسـليلوز والبروتين، بحيث إذا تلا مس الماء مـع أي منهم تلاصـقا بشـدة مـع بعضهما البعض، مما يـؤدي إلى بلـل تلـك المـواد، وهـذه الخاصـية مهمة للكائنات الحية، ولإتمام العملية الحيوية بها، وصعود الماء في النبات.

وبالإضافة إلى هذا كله، فقـد أثبتت جميـع التجـارب العلميـة أن للماء دوراً حيوياً كبيراً في حيـاة الكائنـات الحيـة، ففقـدان الجسـم بـالجوع 50 بالمائـة من الـدهون والبروتينـات غـير مهلـك، ولكن فقدان الجسم نسبة 20 بالمائة فقط من مائة قاتل.

ازداد عجب صاحبي جيمس من معرفتـه بكـل هـذا.. ولكنـه لم يكتف به، بل راح يسأله.. ولست أدري هل سـأله مختـبرا.. أم أنـه شعر أن لديه ما كان يبحث عنه.. قال لـه: فمـا سـر هـذا النشـاط الحيوي للماء؟

قال الجواد: إن هذا يرجع إلى أمور كثيرة:

منها أن الماء ينظم بدقة العمليات الحيوية في الكائنات الحية، فجميـع الأنشـطة الحياتيـة وتفاعلاتهـا المتعـددة من التغذيـة إلي الإخـراج ومن النمـو إلي التكـاثر لا تتم في غيبـة المـاء بـدءا من التمثيل الغذائي، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينهـا وبين المسافات الفاصلة بينها، وذلـك بواسـطة الخاصـية الشـعرية للمحاليل المائية الـتي تعمـل من خلال جـدر الخلايـا، وانتهـاء ببنـاء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين علي النمو والتكاثر، وقبـل ذلـك

وبعـده التخلص من سـموم الجسـم وفضـلاته عن طريـق مختلـف صور الإفرازات والإخراجات.

هـذا بالإضـافة إلي مـا يقـوم بـه المـاء من أدوار أساسـية في عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقلـه، وتوزيعـه، ونقـل كـل من الفيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعـة، ونقـل الأوكسـجين إلي جميع أجـزاء الجسـم، وإخـراج السـموم والنفايـات إلي خـارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقـدم لـذلك أو يـترتب عليه من العمليات الحيوية.

ومنها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حراريـة كبيرة، ومنظم لضغط الدم، ولـدرجات الحموضـة، فـإن في نقصـه تعطش الخلايـا ويضـطرب عملهـا، وتـتيبس الأنسـجة، وتتلاصـق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشـك الكـائن الحي علي الهلاك ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغايـة، فـإذا فقـد الإنسـان علي سـبيل المثـال1بالمائـة من مـاء جسـده أحس بالظمـأ، وإذا ارتفعت نسـبة فقـد المـاء إلي5بالمائـة جـف حلقـه ولسانه، وصعب نطقـه، وتغضـن جلـده، وأصـيب بانهيـار تـام، فـإذا زادت النسبة المفقودة علي10بالمائة أشرف الإنسان علي الهلاك بالموت.

وفي المقابل فإن الزيادة في نسبة المـاء بجسـم الكـائن الحي علي القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة في نسـبة المـاء بجسـم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضـعف العـام وتنتهي بالغيبوبـة الـتي تفضي إلي الموت.

ومنهـا أن عمـل العضـيات الحيويـة المهمـة بالخليـة مثـل الميتوكونـدريا (مواضـع تكـوين الـبروتين بالخليـة) والبلاسـتيدات الخضراء (عضـيات تكـوين الغـذاء في النبـات من الضـوء) يتوقـف عملها جميعاً على امتلائها وانتفاخها بالضغط المائي.

ومنها أن الماء ينقل المركبات العضوية وغيرها بالجسم، نظـراً لانخفاض لزوجته ومقدرته على الحركة وإذابة كثـير من المركبـات العضوية وغير العضوية.

ومنها أن الماء يـؤدي وظيفـة إخـراج نـواتج الهـدم في الأجـزاء

المتخصصة لذلك في الكائنات الحية.

ومنهـا أن المـاء ضـروري لعمليـات التحلـل المـائي والأكسـدة والاختزال في الأجسام الحية.

ومنها أن الماء ينظم درجة حرارة الكائنات الحية، وذلك لارتفاع حرارته النوعية ولتوصيله الجيد للحرارة.

ولهذا كله وغيره، فإن الماء يشكل العنصـر الأساسـي في بنـاء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسـبة المـاء في جسم الإنسان تتراوح بين حوالي71بالمائة في الإنسان البالغ، و93 بالمائة في الجنين ذي الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكـثر من 80بالمائة من تركيب دم الإنسان، وأكثر من90بالمائـة من أجسـاد العديد من النباتات والحيوانات.

ونتيجة لذلك، فلا يمكن للحيـاة أن تقـوم بغـير المـاء أبـدا، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أوكسجين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية..

تعجب صاحبي كما تعجبت من المعـارف العلميـة الـتي يعرفهـا هذا الرجل، مع كونه في الظاهر ليس سوى فلاح بسيط..

قال له جيمس: كيف كان لك هذا الاهتمام بهـذه المعـارف مـع كونك لست سوى فلاح بسيط ليس يملـك من همـة سـوى البحث عن الأغذية التي تمن بها الأرض علينا؟

ابتسم الجواد، وقال: الأرض أضـعف من أن تمن على أحـد من الناس.

قال جيمس: ألست تضع البذور في الأرض لتجود لك بعدها بما تشتهي من أصناف الطعام؟

قـال الجـواد: لقـد ذكـرت لـك أن الأرض أفقـر من أن تجـود بشيء.

قال جيمس: فمن يجود إذن؟

قال الجواد: الخالق البارئ المصور البديع هو الـذي يجـود.. أمـا

الأرض.. فليست سوى فقير من الفقراء يمد يده لرب هـذا الكـون ليمده بعطائه.

اهتز صاحبنا لكلام الجواد، وأخذ يرقص، وهو يـردد: لاشـك أنـك من كنت أبحث عنه.. لاشك أنك أنت الدليل على الله.. لاشك أنـك الذي امتلأت به أحلامي في اليقظة والمنام.

تعجبت كثـيرا من موقـف صـاحبي.. وممـا زاد في عجـبي أن الجواد لم يتعجب.. بل قال له بكل بساطة: نعم أنـا ذلـك الرجـل.. فاصحبني لتتعرف على ربك.. فلا يتعرف على ربه من لم يصحبنا.

قلت: من أنت بالله عليك..

قال: لقـد جعـل اللـه بفضـله وكرمـه لكـل شـيء واسـطة من وسائط جوده.. وقد جعلني بفضله كما جعل الكثير وسائط لتعريف العباد به..

قلت: ولكني لست أراك سوى فلاح.

قـال: أنـا أشـتغل بـالأرض من بـاب العبوديـة لا من بـاب طلب الرزق.. فالله ربي هو الرزاق ذو القوة المتين..

قلت: كيف تشتغل بالأرض من باب العبودية لا من باب الرزق؟

قال: لقد قال لنا ربنا:﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُـونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)﴾ (الواقعة)

وهكذا قال لنا بالنسبة للماء، والنار.. وكل شيء، قال تعـالى:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَـوْلَا تَشْـكُرُونَ (70) أَفَـرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة)

ولهذا، فإنا بتقليب الأرض وحرثها وحصادها نشـعر أننـا نمـارس عبودية التقليب والحرث والحصاد.. أما الرزق، فإنـا من كـل قلوبنـا

نوقن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

قلت: فـأي عبوديـة تمارسـها في تقليبـك لأرضـك وحرثـك وحصادك لها؟

قال: ألا تعرف جدول مندلييف؟

قلت: الجدول الدوري للعناصر؟

قال: أجل..

قلت: أعرفه.. ما به؟

قال: ما ذكر فيه؟

قلت: لقد ذكر فيه العناصر التي يتكون منها الكون على حسب ما وصل إليه الإنسان.

قال: هناك جدول آخر.. شغلت كل حياتي في البحث عنه.

قلت: ما هو؟

قال: الجدول الأسمائي..

قلت: ما تريد بذلك؟

قال: أرأيت لو أنك رأيت قصـرا قـد زين بجميـع أنـواع الزينـة.. ووفرت فيه جميع أنواع الخـدمات.. ثم رزقـك اللـه مـالا، فحـدثتك نفسك بأن تتخذ مثله، فبمن يبدأ بحثك؟

قلت: لاشك أني أهتم كثيرا بالمصممين والحرفيين الـذي تولـوا بناء ذلك القصر.. فلا يمكن أن يبنى القصر من غير بنائين.

قال: بنائين فقط؟

قلت: لا.. أنا أحتاج إلى بنائين ومهندسين وكهربائيين.. وغـيرهم كثير.

قـال: أرأيت إن اجتمعـوا في واحـد.. وكـان لـه فـوق ذلـك من

الخبرة ما لا يضارعه فيه أحد؟

قلت: حينذاك سأطمئن على قصري اطمئنانا كليا.. بل أضمن أن يبنى بغاية التناسق والتكامل والجمال.

قال: لم؟

قلت: لأن الواحد الذي تجتمع لديه كل الخبرات تكون له كل القدرة على التنسيق بينها.

قال: فقد عرفت مرادي إذن من الجدول الأسمائي؟

قلت: لا.. فهمت المثال.. لكني لم أدرك تطبيقه على ما نحن فيه.

قال: فلنعتبر هذا الكون قصرا عظيما..

قلت: هو كذلك.. فعلماء الفلك يصفون الكون بالبناء.. وما الأفلاك إلا لبنات فيه[1].

قال: فهو يحتاج إذن إلى جميع أنواع الخبرات؟

قلت: أجل.. بل لا يمكن حصر الخبرات التي يحتاجها.

قال: فأنا يهمني البحث في هذا..

قلت: لم؟.. أتريد أن تبني كونا جديدا؟

قال: لا.. أنا أريد أن أعبر من الكون إلى المكون.. أنا لا أريد أن أكون كحمار الرحا.

قلت: وما به حمار الرحا؟

قال: هو يرحل من كون إلى كون.. فيعيش في الأوحال ويموت بين الأوحال.

قلت: وما تريد أنت؟

---

1) ذكرنا التفاصيل العلمية الكثيرة الدالة على هذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قال: أنـا أفهم من كـون اللـه أنـه رمـوز ورسـائل تحتهـا معـان عميقة أرسلها الله إلينا لنتعرف عليه من خلالها.

***

كان الجواد يحادثنا بمثل هـذه المعـاني، وكـان صـاحبي جيمس مشدوها، وكأنه كان يحلق في فضاء لم تسـتطع مـداركي حينـذاك أن تستوعبه.

عندما وصل بنا الحديث إلى هذا الموضـع، صـاح جيمس: نعم.. كل ما ذكرته صحيح.. هذا ما كنت دائما أقوله لنفسي.. أنـا وجميـع الباحثين نفني أعمارنا ونحن نرى كل هـذه الروعـة والجمـال، ثم لا نحدث أنفسـنا بـالبحث عن صـاحبها، أو البحث عن التعـرف عليـه، والاتصال به.

قال الجواد: إلا العلماء العارفون.. فإنهم يعبرون من الكون إلى المكون..

لقـد سـمعت رجلا منهم يقـال لـه (عبـد السـلام بن مشـيش) يخاطب تلميذا له اسمه (أبو الحسن الشاذلي) يوصبه:(حـدد بصـر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعنـد كـل شـئ، وقبـل كـل شئ، وبعد كل شئ، وفوق كل شئ، وتحت كـل شـيء، قريبـاً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ، بقرب هو وصـفه، وبحيطـة هي نعتـه، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأمـاكن والجهـات، وعن الصـحبة والقـرب في المسـافات، وعن الـدور بالمخلوقـات، وامحـق الكـل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو.. كان الله ولا شـئ معه، وهو الآن على ما عليه كان)

وكان منهم رجل آوته الجبال والغابات أياما طويلة من عمــره.. كان اسمه الإمام بديع الزمان النورسي.. وكان لـه رسـائل اسـمها (رسائل النور).. وقد جعلها مفاتيح لقراءة حروف الكون.

لقد سمعته مـرة ذكـر أنـه يمكن مشـاهدة آثـار تجلي عشـرين اسماً من الأسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب.

ولتقريب هذه الحقيقة الدقيقـة والعظيمـة الواسـعة، استشـهد

بمثال ذكر فيه أنه لـو أراد فنـان بـارع في التصـوير والنحت، رسـم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بـديع، فإنـه يبـدأ أول مـا يبـدأ بتعـيين بعض خطـوط الشـكل العـام لهمـا، وهـذا التعـيين يتم بتنظيم، ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة، فيعيّن الحـدود وفقه بعلمٍ وبحكمة، لذا تحكُم معـاني العلم والحكمـة وراءَ التنظيم والتحديد.

ثم إن تلـك الاعضـاء الـتي عُيّنت وفـق العلم والحكمـة أخـذت صيغة الصـنعة المتقنـة والعنايـة الدقيقـة، لـذا تحكمُ معـاني الصـنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يـدل على أن الـذي يحـرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد الـتزيين، فهمـا إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعندما يبدأ الفنان بإضـفاء حالـة التبسـم لتمثالـه، وشـرع بمنح أوضاع حياتية لصورة الزهرة، يكون قد بدأ بفعلَي التزيين والتنـوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحـرك معـاني الكـرم واللطـف، ومـا وراءهمـا معـاني التـودد والتعـرف، أي تعريـف نفسـه بمهارتـه وفنـه، وتحبيبهـا الى الآخرين.

وهذا التعريـف والتحـبيب آتيـان من الميـل إلى الرحمـة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما الى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاتـه من جمـال معنـوي وكمـال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلك الجمـال، وهـو المحبـة، وألذ ما فيه وهو الرحمة، كل منها يريد إراءة نفسه بمـرآة الصـنعة، ويريد رؤية نفسه بعيون المشتاقين.

فالجمـال والكمـال محبـوب لذاتـه، (يحب نفسـه أكـثر من أي شـئ آخـر، حيث أنـه حُسـن وعشـق في الـوقت نفسـه، فاتحـاد الحسن والعشـق آتٍ من هـذه النقطـة.. ولمـا كـان الجمـال يحب نفسه، فلابد أنه يريد رؤيـة نفسـه في المرايـا، فـالنعم الموضـوعة

على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة من ذلك الجمال المعنوي - كل حسب قابليتـه - فتُظهـر تلـك اللمعات الساطعة نفسها الى صاحب الجمال، والى الآخـرين معـاً) (1)

التفت الجـواد إلي، ثم التفت إلى جيمس، وقـال: على منـوال هذا المثـال الـذي أورده بـديع الزمـان تتم قـراءة العـارف للكـون، وللأسماء الحسنى التي تتجلى في مرآتـه، قـال النورسـي:(وعلى غرار هذا المثال الذي ينظم الصانع الحكيم ــ ولله المثـل الاعلى ـ الجنــة والــدنيا والســموات والارض والنباتــات والحيوانــات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سـبحانه جميـع الأشياء كليّها وجزئيهـا.. ينظمهـا جميعـاً بتجليـات أسـمائه الحسـنى ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرىء اسم:المقـدر، المنظم، المصور) (2)

ففي النظر إلى زهرة واحـدة جميلـة صـحائف كثـيرة جـداً من صحائف التعرف على الله:

فصحيفة هيئـة الشـئ الـتي تـبين شـكله العـام ومقـداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

وصحيفة صور الاعضاء المتباينـة المنكشـفة ضـمن تلـك الهيئـة البسيطة للزهرة، أسماء كثيرة أمثال: العليم، الحكيم.

وصحيفة إضفاء الحسن والزينة على الأعضاء المتباينـة بأنمـاط متنوعة من الحسن والزينة تكتب في تلك الصـحيفة أسـماء كثـيرة من امثال: الصانع، البارئ.

وصحيفة الزينة والحسن البـديع الموهوبـان لتلـك الزهـرة تقـرأ اسماء كثيرة امثال: يا لطيف. يا كريم.

وصحيفة تعليـق ثمـرات لذيـذة على تلـك الزهـرة يجعلان تلـك الصحيفة، تستقرئ اسماء كثيرةً أمثال: يا ودود يا رحيم يا منعم.

---

1) الكلمة الثانية والثلاثون.

2) الكلمة الثانية والثلاثون.

وصحيفة الإنعام والإحسان تقرأ أسماء أمثال: يا رحمن يا حنان.

وصحيفة ظهور لمعات الحسن والجمال الواضحة في تلك النعم تكتب وتقرأ اسماء: يا جميل ذا الكمال يا كامل ذا الجمال.

فهذه زهرة واحدة تلهج بجميع هذه المعارف التي تحتوي من الأعماق ما لا حدود له، فإلى أي حد من السمو والكلية تستقرىء جميع الازهار، وجميع ذوي الحياة والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

***

ازداد استغراق صاحبي جيمس في المعاني الجميلة التي طرحها الجواد.. لكنه فجأة عاد إليه عزمه الذي كنت أعرفه به، ثم التفت إلي، وقال: لقد وجدت طلبتي.. فإن شئت أن تبقى معي، فمرحبا.. وإن شئت أن تسير إلى ما كنت فيه.. فسر.

قلت: ماذا تريد أن تفعل بنفسك؟.. هل تريد أن تجلس تلميذا عند هذا الفلاح، وأنت الذي تتنافس الجامعات ودور العلم على سماع صوتك.

قال: لقد وجدت عند هذا الفلاح ما لم أجده في الدنيا جميعا.. ولذلك، فقد اتخذت قراري، فإن شئت أن تصحبني، فابق معي.. وإن شئت أن تسير، فسر.

قلت: لا بأس.. سأصحبك لأنظر ماذا تفعل.. وماذا يريد صاحبنا هذا أن يفعل بك.

ابتسم الجواد، وقال: تسرني صحبتكما.. فهلما معي لنبحث عن ربنا.. ونبحث عن جدول الأسماء المعرفة لربنا.

***

عندما وصل صاحبنا (بينيديتو كروتشي) من حديثه إلى هذا الموضع سألناه: ماذا فعلت مع صاحبك والجواد؟.. وكيف وجدتماه بعد صحبتكما له؟

قال: لقد وجدناه رجلا ممتلئا بالإيمان من مفرق رأسه إلى

أخمص قدميه.. لكأنه حشي بالإيمان حشوا..

وقد رأيناه - بالإضافة إلى ذلك - عالما فحلا قد امتلك كل ما يمتلكه العلماء من أدوات ووسائل ومعارف.. بل فوق ذلك كان يخوض في كل العلوم، يمخر عبابها، ويركب صعبها ووعرها بهمة لا تلين، وبقلب لا يضعف.

وقد عرفنا – من خلال صحبتنا له- أن داعيه إلى العلم هو إيمانه العميق.. فالإيمان هو لباب العلم وخلاصته..

وقد قضينا - من خلال معرفتنا به – على تلك الخرافة التي تزعم التناقض بين العلم والإيمان..

قلنا: هذا ما عرفتم عنه.. فما استفدتم منه؟

قال: أما أنا فقد استفدت سبعة من أسماء الله الحسنى زادتني معرفة بالله، وزادتني تعظيما له..

قلنا: وصاحبك؟

قال: لقد فني صاحبي في الجواد.. وقد نال بفنائه ما لا يمكن لشخصي الضعيف أن يدركه.

قلنا: فلم قعدت دونه عن الوصول إلى ذلك؟

قال: لقد جذبتني الدنيا بكلاليبها الحريرية، وتثاقلت إلى الأرض، ونسيت كثيرا.. ولولا أن قيض الله لنا هذا المقام لأتذكر تلك الأيام الجميلة لنسيتها ونسيت بها أعظم معنى عرفته في حياتي.

قلنا: فما الأسماء التي فقهتها من خلال صحبتك له؟

قال: هي الخالق، والخلاق، والبارئ، والمصور، والفاطر، والحافظ، والمغني.

قلنا: فهل كنتم وحدكم في تعلم هذه الأسماء من الجواد؟

قال: لقد نسيت أن أذكر لكم أن ذلك الفلاح البسيط كان قد اجتمع له - بفضل الله - خيرة العلماء ممن كان يدرس بتلك

الجامعة أو ممن كان يمر بها.. كلهم انجذبوا لما انجذبنا لـه.. وكلهم تتلمـذ على يديـه.. ومـا سـأذكره لكم من حديثـه كـان خطابـا لنـا جميعـا.. لي، ولصـديقي جيمس، ولأولئـك العلمـاء ذوي المشـارب المتعددة الذين كانوا بين الفينـة والأخـرى يزرونـه في بسـتانه.. ولا ينقلبون إلا بإيمان عميق بعيد عن كل خرافة أو جدل.

1 ـ الخالق

قلنا: فحدثنا عن الاسم الأول.. حدثنا عن اسم (الخالق)

قال: لقد كـان أول الأسـماء الـتي حـرص الجـواد على تعليمنـا إياها.. وقد وضعها في أول جدوله الأسمائي هو اسم (الخالق)..

وقـد سـألناه عن سـر وضـع هـذا الاسـم في مقدمـة الأسـماء، فقال: لذلك سببان، أما أحدهما، فينبع من أسرار كتابنـا المقـدس.. وأما الثاني، فينبع من أسرار نفوسنا المدنسة المملوءة بالدخن.

أما السر الأول، فيشير إليه قوله تعالى في أول آيات نزلت من القرآن الكريم.. هي قوله تعالى:﴿ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)﴾ (العلق)، ففي هذه الآية الكريمـة ذكـر للخلق.. وتعريف بأن الله هو الخالق.. وهو أول مـا عـرف بـه اللـه بذلك في القرآن.

وأما الثاني، وهو النـابع من أسـرار نفوسـنا، فهـو أن البصـائر - قبل أن تكتحل بنور الإيمـان - تتصـور أن هـذا الكـون بمـا فيـه من مادة وحياة كـون نشـأ هكـذا من غـير منشـئ.. وهي عنـدما تهـرع لتنهل من حياض الإيمان قـد تكتفي بإيمـان تقليـدي غـير مؤسـس على أسس علميـة واقعيـة.. وإيمـان بهـذا الشـكل هش ضـعيف لا يستطيع أن يؤدي دوره الفاعل في الحياة..

قلنـا: فمـا المنهج الـذي نخـرج بـه من هـذا الإيمـان التقليـدي لنتعرف على ربنا الخالق؟

قـال: لاشـك أنكم تعلمـون أن التصـورات الجاهليـة الـتي قـد يتسرب أثرها إلى النفوس، فيفسد علاقتها بربها ومعرفتهـا بـه هـو تصورها أن هذا الكون بما فيه من مادة وحياة كون نشأة صـدفة أو

لسبب من الأسباب غير سبب الخالق العظيم الذي خلقه.

المادة:

قلنا: ما تقوله صحيح.. فحدثنا كيف نزيل وهم الصدفة أو غيرها من الأسباب عن المادة.. لننسبها إلى ربها الذي أبدعها؟

قرأ الجواد من القرآن هذه الآية:﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)﴾ (فصلت)، ثم قال: لقد شاء الله بفضله وكرمه أن يعطينا في هذا الزمان من الأدلة ما يقف أمامه الملاحدة حائرين.. فقوانين الحرارة.. وقوانين الإلكترون.. والطاقة الشمسية يقف كل واحد منها دليلاً واضحا على خالقية الله للأشياء.. عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر.

قال رجل منا: فكيف تدل قوانين الحرارة على خالقية الله للأشياء؟

قال الجواد[1]: لقد عبر (إدوار لوزكيل) عن هذا القانون، وكيف أنه يثبت أن لهذا الكون بداية، فقال: (قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي - أي أزلية الكون - فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا.. فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة.. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب منها معين الطاقة.. ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.. لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود.. وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية.. وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن

---

1) انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى.. وقد سبق ذكر بعض هذه الأدلة في الفصل الأول.

يكون قد بدأ بنفسه، ولا بد له من مبديء أو من محرك أول، أو من خالق هو الإله)

وقد استدل (فرانك الان) عالم الطبيعـة البيولوجيـة على عـدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون، فقـال: (كثـيراً مـا يقـال إن هـذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هـذا الكـون موجود فكيف وجوده ونشأته؟

هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكـون هذا الكون مجرد وهم وخيـال وهـو مـا يتعـارض مـع القضـية الـتي سلمنا بها حول وجوده.. وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.. وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بدايـة.. وإمـا أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشـعور، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحـدث فيـه لا يعـدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة.. فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس لـه وجـود فعلي وأنـه مجـرد صـورة في أذهاننا وأننا نعيش في عـالم من الأوهـام لا يحتـاج إلى مناقشـة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقـة قـد نشـأ هكـذا وحـده من العـدم فهـو لا يقـل عن سـابقه سـخفا وحماقة ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والـرأي الثـالث الـذي يـذهب إلى أن هـذا الكـون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينـادي بوجـود خـالق لهـذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية، وإذا فنحن إمـا أن ننسـب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإمـا أن ننسـبها إلى إلـه حي يخلـق.. وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكـثر ممـا في الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونـات هـذا الكون تفقد حرارتها تدريجا، وأنها سائرة حتما إلى يـوم تصـير فيـه الأجسـام تحت درجـة من الحـرارة بالغـة الانخفـاض هي الصـفر المطلق، ويومئذ تنعـدم الطاقـة وتسـتحيل الحيـاة ولا منـاص عنـد حدوث هذه الحالة من انعـدام الطاقـة عنـدما تصـل درجـة حـرارة

الأجسـام إلى الصـفر المطلـق بمضـي الـوقت.. أمـا الشـمس المستعرة والنجوم المتوهجـة والأرض الغنيـة بـأنواع الحيـاة فكلهـا دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبـط بزمـان بـدأ من لحظة معينة فهو إذن حـدث من الأحـداث، ومعـنى ذلـك أنـه لا بـد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شـيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديـه، فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكـون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن تنبعث تلقائيا في الكـون بعـد برودتـه ولو كان أزليا لكان بارداَ)

قلنا: وعينا هذا.. فكيـف تـدل قـوانين الحركـة الإلكترونيـة على خالقية الله للأشياء؟

قـال: إن كـل ذرة من ذرات الوجـود تـدل على هـذا.. فـذرات الكون كلها مؤلفة من نواة، وإلكترونات تشـكل الكـواكب السـيارة لهـا.. وهي تـدور حولهـا بسـرعة هائلـة بحركـة دائريـة إهليلجيـة.. وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكـترون يبقى الإلكـترون متحركا هذه الحركة.. إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النـواة كتلـة الإلكترون، وفي هذه الحالة يصبح جـرم كـالكرة الأرضـية في حجم بيضة الدجاجة.. فالفراغ كبير جدا في عالم الذرة.. فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع، وذلـك أن البعـد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً.

قـال ذلـك، ثم التفت إلينـا، وقـال: إن الشـيء الـدائر لا بـد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بـدأ منهـا دورتـه.. ولمـا كـانت الإلكترونـات والأجـرام كلهـا في حركـة دائريـة، ولمـا كـانت هـذه الحركة غير مستأنفة - كما يبدو - فإذن لا بد أن تكـون هنـاك بدايـة زمانية ومكانية لحركة الإلكـترون.. وهـذه البدايـة في الحقيقـة هي بداية وجود الذرات نفسها، وبهـذا نصـل إلى أن لهـذا الكـون بدايـة ونشأة وخالقا من العدم.. إذ العدم لا ينتج عنه وجود[1].

قلنا: وعينا هـذا.. فحـدثنا عن دلالـة الطاقـة الشمسـية[2] على خالقية الله للأشياء.

1) انظر تفاصيل أكثر عن هذا الدليل في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قال: إن أي عاقل يرى الشمس وما ترسله من ضياء ودفء لابد أن يتساءل: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ على حرارتها؟

إن هذين السؤالين مهمان جدا باعتبار صلتهما بمصير الأرض، ومصير الإنسان.. وقد أجيب عنهما أكثر من جواب.. ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير، وهو أن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جدا.. وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها..

وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءا من كتلتها، حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة.. وإذن، فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان جزء بسيط من كتلتها.

إن الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو غرام، ومثلها بقية النجوم.. فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية، فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي.. أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها؟

قال رجل منا: ولكن الشمس قد تعوض ما فقدته من مصادر أخرى؟

قال: إن كلامنا ليس عن جزء من الكون يفقد ويعوض.. فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا.. ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول إلى مادة.. وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة، إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله.

قال آخر: فما تقول فيمن يرى أن الكون كله كان في الأصل طاقة تحولت إلى مادة.. وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة.. ومن ثم سيكون مادة وهكذا؟

---

2) ذكرناها هنا باعتبارها نموذجا نراه، ويمكن تطبيقه على سائر مصادر الطاقة في الكون.

ابتسم الجواد، وقال: إن المغالطات واضـحة في هـذا الـزعم.. ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجـدت مـادة مـا تقـوم بهـا.. فالطاقة تحتاج إلى ذات، وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم، أو بتعبير العلماء القدامى: (الطاقـة عـرض تحتـاج إلى جـوهر لتظهـر فيـه)، فإشـعاع الشـمس عنـدما يصـادف الأرض مثلا تأخـذ ذرات الأرض حرارتـه، وبهـذا تصـبح ذرات الأرض مشـحونة بالطاقـة الحراريـة، ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مـادة، فهـل سـيتحول نفسـه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن.. وبهذا يتضـح بمـا لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديما، وأن له بداية، وأنـه لا يتصـور وجوده لولا أن له خالقا هذا الخالق هو ابتدأ خلقـه ووجـوده بعـد إذ لم يكن.

الحياة:

قلنا: حدثتنا عن المادة.. فحدثنا عن الحياة.

قـــال: لا شـــك أنكم تعلمـــون أن البروتينـــات الـــتي هي من المركبـات الأساسـية في جميـع الخلايـا الحيـة تتكـون من خمسـة عناصر.

قال رجل منا، وقد كان لا يـزال متـأثرا بنظريـة التطـور، وكـان اسمه (هَكْسِلِي)(1): أجل.. وهي الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت.

قـال الجـواد: وكم يبلـغ عـدد الـذرات في الجـزيء البروتيـني الواحد؟

قال هَكْسِلِي: 40000 ذرة..

قال الجواد: وكم عدد العناصر الكيماوية الـتي بلـغ إليهـا علمنـا في الطبيعة؟

قال هَكْسِلِي: 92 عنصرا.

قال الجواد: وهل هي موزعة توزيعا منتظمـا بحيث ييســر على

---

1) سبق التعريف به في الفصل الأول من هذه الرسالة.

الجزيء البروتيني التشكل؟

قال هَكْسِلِي: لا.. هي موزعة توزيعا عشوائيا..

قال الجواد: فما هي الاحتمالات العلمية لاجتماع عناصر البروتين الخمسة؟

قال هَكْسِلِي: الإجابة عن هذا السؤال سهلة.. حيث يمكن معرفتها عن طريق معرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء.. ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10 أي بنسبة واحد إلى الرقم 10 مضروبا في نفسه 160 مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

لقد ليكونت دي نوي يوضح هذا: (يجب أن تتصور حجما أكبر من الكون الأنشتايني بسكستيليون سكستيليون مرة.. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين 10 أس 243.

وقد حسب العالم الإنكليزي ج. ب ليتز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين 10 أس 48، وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينا واحدا)

قال الجواد: ألا ترى أن المادة والزمن اللذين يتطلبهما تشكيل جزيء البروتين لا يكفيهما عمر الكون ولا ما فيه من مادة؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: إن النظرية التي تريد أن تسلب

الخالق خالقيته للحياة(1) لم تتجاوز حد كونها سَفْسَطَة لا تمت إلى العلم بأية صلة.

قال هَكْسِلِي: كيف تقول ذلك.. وقد قال بها فحول من علماء الحياة؟

قال الجواد: هم علماء حياة.. ولكنهم في هذه المسألة لم يخضعوا لما تمليه عليهم الحياة.. ولما يمليه عليهم العلم.. ولما تمليه عليهم قبل ذلك العقول.

قال هَكْسِلِي: إن هذا الكلام يستدعي أدلة كثيرة تنتصر له.

قال الجواد: ألا يكفي ما سبق أن ذكرته لنا من التصميم الخارق الموجود في الكائنات الحية؟.. ألا ترى أنه أكثر تعقيداً منه في الكائنات غير الحية؟

إن الذّرات في الكائنات المختلفة موجودة وفق موازين حساسة للغاية، ونستطيع أن نميز هذه الموازين بإجراء الأبحاث المختلفة عليها، إلاّ أنّ هذه الذّرات نفسها موجودة في العالم الحي وفق ترتيب آخر أكثر تعقيداً، فهي تعد مواد أساسية لتركيب البروتينات والأنزيمات والخلايا، وتعمل في وسط له آليات ومعايير حساسة إلى درجة مدهشة.

التفت الجواد إلى هَكْسِلِي، وقال: إنّ هذا التصميم الخارق للكائنات الحية هو المعول الأكبر الذي تهدم به النظرية.. ذلك أنها لا تستند الى أي دليل علمي.. بل لم تتجاوز كونها جدلاً منطقياً.

ثم التفت إلينا، وقال: سأكتفي الآن بذكر ثلاثة عوامل رئيسة أدت إلى انتهاء هذه النظرية التي تريد أن تزاحم الخالق خالقيته للأشياء..

قلنا: فما **أولها**؟

قال: أولها أنّ هذه النظرية فشلت تماماً في إيجاد تفسير

---

1) وهي نظرية التّطور أو الداروينية.. وقد ذكرنا الرد المفصل عليها في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.. وسنذكر بعض الردود عليها مختصرة هنا، وهي مقتبسة بتصرف من كتابات هارون يحي.

علمي عن كيفية ظهـور الحيـاة لأول مـرة.. فهي تـدّعي أنّ الحيـاة والكائنات الحية بأكملها نشـأت من خليـة وحيـدة قبـل أكـثر من 3 ملايير سنة..

التفت إلى صاحبنا الداروبني، وقال: أليس كذلك؟

قال هَكْسِلِي: بلى.. وعلى وجه الدقة: أكثر من 3،8 مليار سنة.

قال الجواد: بـورك فيـك.. فكيـف يمكن لخليـة حيـة واحـدة أن تتحول إلى الملايين من أنـواع الكائنـات الحيـة المختلفـة من حيث الشكل والتركيب؟.. وإذا كان هذا التحول قد حدث فعلاً، فلمـاذا لم توجد أية متحجرات تثبت ذلك؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: كيف ظهرت تلك الخلية الأم إلى الوجود؟

قال هَكْسِلِي: يذكر أصحابنا أن هذه الخلية ظهـرت إلى الوجـود نتيجة المصادفة وحدها، وتحت ظل ظروف الطبيعة دون أن يكـون هنالك أي تأثير خارجي أو غير طبيعي.

قـال الجـواد: أي أن أصـحابك يرفضـون فكـرة الخلـق رفضـاً قاطعاً..

قال هَكْسِلِي: هم يذكرون أنّ مواداً غـير حيـة حـدثت لهـا بعض المصادفات أدت بالنتيجة إلى ظهور خلية حية.

قال الجـواد: إن هـذا الادعـاء يتنـافى تمامـاً مـع كافـة القواعـد العلمية المعروفة.. وسأذكر لك قصة الادعاءات لتعرف من خلالهـا أنها تتنافى مع كافة القواعد العلمية.

أصـخنا أسـماعنا لـه، فـراح يقـول: إن (تشـارلز داروين) الـذي اختار أو اختير له أن يكون زعيما لهذه النظرية لم يتحدث أبـداً عن أصل الحياة في كتابه..

وسبب ذلـك يتمثّـل في طبيعـة المفـاهيم العلميـة الـتي كـانت سائدة في عصره، والتي لم تتجاوز فرضية تكون الأحيـاء من مـواد بسيطة جـداً.. فقـد كـان العلم آنـذاك مـا يـزال تحت تـأثير نظريـة

(التولــد التلقــائي) الــتي كــانت تفــرض ســيطرتها منــذ القــرون الوســطى، ومفادهــا أنّ مــوادَّ غــير حيــة قــد تجمعت بالمصــادفة، وأنتجت مواد حية.

نعم هم معـذورون في ذلـك.. فقـد كـانوا يستسـلمون للأوهـام التي يستسلم لها عامة الناس.. إذ أنهم يرون تكاثر الحشــرات في فضلات الطّعام، وتكاثر الفئران في صوامع الحبوب.. فتوهموا أنهـا تولدت ذاتيا.

وكانت هناك ظـاهرة أخـرى وهي تكـاثر الـدود في اللحم، فقـد ساقت النّاس إلى هذا الاعتقاد الغريب، واتخذت دليلاً لــه، ولكن تم إثبات شيء آخر فيما بعد؛ وهو أن الدود يتم جلبه بواسـطة الـذباب الحامل ليرقاته، والذي يحط على اللحم.

وفي الفترة التي ألف خلالها داروين كتابه (أصل الأنواع) كــانت الفكرة السائدة عن البكتيريا أنهـا تنشـأ من مـواد غـير حيـة، ولكن أثبتت التطــورات العلميــة بعــد خمس ســنوات فقــط من تــأليف الكتاب عدم صحة مـا جـاء فيـه، وذلـك عن طريـق الأبحـاث الـتي أجراها عالم الأحياء الفرنسي لويس باستور، الذي قال: (لقد أصبح الادعاء القائل بأن المواد غير الحية تسـتطيع أن تنشـئ الحيـاة في مهب الريح)

بعد هـذا ظـل المـدافعون عن نظريـة التطـور يكـافحون لمـدة طويلة ضد الأدلـة العلميـة الـتي توصـل إليهـا باسـتور، ولكن العلم بتطوره عبر الزمن أثبت التعقيـد الـذي يتصـف بـه تـركيب الخليـة، وبالتالي استحالة ظهور مثل هذا التركيب المعقد من تلقاء نفسه.

لكنهم مع ذلك لم ييأسـوا، فقـد حـاول عـالم الأحيـاء الروســي (ألكسندر أوبارين) - وهو أول من تناول موضـوع أصـل الحيـاة في القرن العشرين، وأجرى أبحاثاً عديدة في ثلاثينيّات القرن العشرين - إثبات أن المواد غير الحية تسـتطيع إيجـاد مـواد حيـة عن طريـق المصــادفة، ولكن أبحاثــه بــاءت بالفشــل الــذريع واضــطر الى أن يعترف بمرارة قائلاً: (إنّ أصل الخلية يُعَدُّ نقطة سوداء تبتلع نظريـة التطور برمتها)

ولم ييــأس بــاقي العلمــاء من دعــاة التطــور، واســتمروا في

الطريق نفسه الذي سـلكه أوبـارين وأجـروا أبحـاثهم للتوصـل إلى أصـل الحيـاة.. وأشـهر بحث أجـري من قبـل الكيميـائي الأمـريكي ستانلي ميللر سـنة 1953 حيث افـترض وجـود مـواد ذات غـازات معينة في الغلاف الجوي في الماضي البعيد، ووضـع هـذه الغـازات مجتمعة في مكـان واحـد وجهزهـا بالطاقـة، واسـتطاع أن يحصـل على بعض الاحماض الأمينية التي تدخل في تركيب البروتينات.

وعُدَّت هذه التجربة في تلك السّنوات خطوة مهمة إلى الأمـام، ولكن سرعان ما ثبت فشلها؛ لأن المواد المسـتخدمة في التجربـة لم تكن تمثـل حقيقـة المـواد الـتي كـانت موجـودة في الماضـي السحيق، وهذا الفشل ثبت بالتأكيد في السنوات اللاحقة.

وبعد فترة صمت طويلـة اضـطر ميللـر نفسـه أن يعـترف بـأن المـواد الـتي اسـتخدمها في إجـراء التجربـة لم تكن تمثـل حقيقـة المواد التي كانت توجد في الغلاف الجوي في سالف الزمان.

وهكذا بـاءت بالفشـل كـل التجـارب الـتي أجراهـا الـداروينيون طوال القرن العشرين..

لقد كتب (جيفري بادا) - الاختصاصي في الكيميـاء الجيولوجيـة في المعهد العالي في سان ديغو سيكربس – يذكر هذا الفشل في مقال نشره سنة 1998 على صفحات مجلة (الأرض) ذات التوجـه الدارويني، قال فيه: (نحن نودع القرن العشرين ومازلنـا كمـا كنـا في بدايته نواجه معضلة لم نجد لها إجابة؛ وهي: كيف بدأتالحياة؟)

قال رجل منا: فما السبب الذي تـراه في انهيـار هـذه النظريـة بهذه السرعة والبساطة؟

قال الجواد: السبب الرئيسي لذلك هـو أن أصـل الحيـاة معقـد للغاية، حتى للكائنـات الحيـة البسـيطة.. بشـكل لا يصـدقه عقـل.. فخلية الكائن الحي أعقد بكثير من جميع منتجات التكنولوجيـا الـتي صـنعها الإنسـان في وقتنـا الحاضـر، ولا يمكن إنتـاج خليـة واحـدة بتجميع مواد غير حية في أكبر المعامل المتطورة في العالم.

إن الشروط اللازمة لتكوين خلية حية كثيرة جداً، لدرجـة أنـه لا يمكن شرحها بالاستناد على المصادفات إطلاقاً.

بالإضافة إلى أن الـ DNA الذي يحفـظ المعلومـات الجينيـة في نواة الخلية يعد بنكاً هائلا للمعلومات لا يمكن تصور مـا فيـه، فهـذه المعلومات تمثل في تصورنا مكتبة تشتمل على تسـع مئـة مجلـد، وكل مجلد عدد صفحاته خمس مئة صفحة.

وهناك أيضاً ازدواجيـة أخـرى غريبـة في هـذه النقطـة وهي أن الشـــريط الثـــاني لDNA لا يمكن تكونـــه إلا ببعض البروتينيـــات (الأنزيمــات) الخاصــة، ولكن إنتــاج هــذه الأنزيمــات يتم حســب المعلومات الموجودة في DNA فقط لارتباطهمـا الوثيـق ببعضـهما، فلا بد من وجودهما معاً في الوقت نفسه لكي تتم الازدواجية، فهـو يؤدي إلى الوقـوع في مـأزق الفكـرة الـتي تقـول: (إن الحيـاة قـد وجدت من ذاتها)

بالإضافة إلى هذا كله، فإن البروتينات والحموض النووية DNA و RNA التي تمتلك مكونات غاية في التعقيد يتم تكوينهما في الوقت نفسه والمكان نفسه، واحتمال تكوينهما مصادفة مرفوضـة تمامـاً، فلا يمكن إنتاج أحدهما دون أن يكون الآخر موجوداً، وكـذلك يكـون الإنسـان مضـطراً إلى الوصـول الى نتيجـة وهي اسـتحالة ظهـور الحياة بطرق كيميائية.

التفت الجـواد إلى صـاحبنا الـدارويني، وقـال: إذا كـان ظهـور الحياة بطريق المصادفة مستحيلاً، فيجب أن نعـترف بخلـق الحيـاة بشكل خارق للطبيعة.

ثم ابتســم، وقــال: ولكن هــذه الحقيقــة – للأسف[1] - تبطــل نظرية التطور التي بنت كل مقوماتها التنظيرية على أساس إنكــار الخلق.

ظهر البشر على أصحابي جميعا، لكن صاحبنا الدارويني قال: لا بأس.. فحدثنا عن **العامل الثاني**.

قال الجواد: العامل الثاني الذي نسف هـذه النظريـة هـو عـدم وجود أي دليـل علمي يـدعم فكـرة وجـود (آليـات خاصـة للتطـور) كوسيلة للتكيف بين الأحياء.

1) طبعا هذا من باب السخرية، ويجوز مثله في المناظرات.

قلنا: كيف ذلك؟

قال الجواد: بعد بحث طويل في الأسفار التي ألفها زعماء هذه النظرية وذيولها لم أر واحدا منهم اسـتطاع أن يثبت في أي مكـان في دنيا العلم دعاواهم الكثيرة..

قلنا: كلامـك هـذا يحتـاج إلى توضـيح.. فكيـف تكـون كـل تلـك الأسفار مبنية على الوهم؟

التفت الجواد إلى صاحبنا الدارويني، وقال: ألم يــدع داروين أنّ التطور حدث نتيجة (الانتخاب الطبيعي)؟

قال هَكْسِلِي: بلى.. وقد أعطى أهمية استثنائية لهذا، حـتى إنّـه سمى كتابه الذي خصصه لهـذا الغـرض (أصـل الأنـواع عن طريـق الانتخاب الطبيعي)

قال الجواد: إنّ مفهوم الانتخاب الطبيعي يستند إلى مبـدأ بقـاء الكائنات الحية التي تظهر قوة وملاءمـة تجـاه الظـروف الطبيعيـة، فلو هُدِّد قطيع من الغزلان – مثلا - من قبـل الحيوانـات المفترسـة فإن الغزلان الأسـرع في العـدو تسـتطيع البقـاء على قيـد الحيـاة، وهكذا يبقى القطيع متألفاً من غـزلان أقويـاء سـريعين في العـدو.. ولكن هذه الآلية لا تكفي أن تطور الغزلان من شكل إلى آخر، كأن تحولها إلى خيول مثلاً..

لهذا السّبب لا يمكن تبني (الانتخاب الطبيعي) كوسيلة للتطور، وحتى داروين نفسه كان يعلم ذلك، وقد قـال في (أصـل الأنـواع): (طالما لم تظهر تغيـيرات إيجابيـة فـإن الانتخـاب الطـبيعي لا يفي بالغرض المطلوب)

التفت الجواد إلى صـاحبنا الـدارويني، وقـال: أتـدري من أوقـع داروين في هذا الفخ؟

قـال هَكْسِـلِي: أجـل.. لقـد كـان داروين متـأثرا بمن سـبقوه، وخصوصا (لامارك) عالم الأحياء الفرنسي الذي عـاش ومـات قبـل داروين بسنوات.. وقد كان يدعي أن الأحياء تكتسب تغييرات معينة تورثها إلى الأجيال اللاحقة، وكلما تراكمت هذه التغيـيرات جيلاً بعـد

جيـل أدّت إلى ظهـور أنـواع جديـدة.. وهكـذا، فقـد كـان يـرى أنّ الزّرافات نشأت من الغـزلان نتيجـة محاولاتهـا للتغـذي على أوراق الأشجار العالية عبر أحقاب طويلة.

قال الجواد: لقـد أعطى داروين أمثلـة مشـابهة لهـذا في كتابـه (أصل الأنواع) فقد ادّعى أن الحيتان أصـلها قـادم من الدببـة الـتي كانت تتغذى على الكائنات المائية وكانت مضطرة إلى الـنزول إلى الماء بين الحين والآخر.

قال هَكْسِلِي: ذلك صحيح.

قال الجواد: لكن قوانين الوراثة التي اكتشفها مندل بعـد ذلـك، والتطور الذي طرأ على علم الجينات في القرن العشرين أدّى إلى نهاية الأسطورة القائلـة بانتقـال الصـفات المكتسـبة من جيـل إلى آخر..

قال ذلك، ثم التفت إلى هَكْسِلِي، وقال: أليس كذلك؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: لكن الدّاروينين لم يستسلموا لما أثبتته الاكتشـافات العلميـة.. ولـذلك قـاموا بتجميـع جهـودهم أمـام المعضـلات الفكريـة الـتي واجهوهـا خصوصـاً في ثلاثينيـات القـرن العشرين.. وقد ساقوا لذلك نظرية جديدة أسموها (نظرية التكـوّن الحديث) أو (الداروينية الحديثة)

وحسب هذه النظرية هنـاك عامـل آخـر لـه تـأثير تطـوري إلى جانب الانتخاب الطبيعي، وهذا العامل يتلخص في حصول طفـرات وراثيــة أو جينيــة تكفي ســبباً لحــدوث تلــك التغيــيرات الإيجابيــة المطلوبة، وهذه الطفرات تحدث إمّا بسبب التعرض للإشعاعات أو نتيجة خطأ في الاستنساخ الوراثي للجينات.

قــال هَكْسِــلِي: إن هــذه النظريــة لا تــزال تــدافع عن نظريــة التطور.. وهي ترى أن الأعضاء والتراكيب الجسمية الموجودة لدى الأحياء والمعقدة التركيب كالعين والأذن أو الكبـد والجنـاح وغيرهـا لم تظهـر أو تتشـكل إلا بتـأثير حـدوث طفـرات وراثيـة أو حـدوث تغييرات في تركيب الجينات.

قال الجواد: ولكن هذا الادعاء يواجه مطبّاً علمياً حقيقياً؛ وهو أن الطفرات الوراثية دائماً تشكل عامل ضرر على الأحياء، ولم تكن ذات فائدة في يوم من الأيام.

وسبب ذلك بسيط وواضح جداً..

كلكم تعلمون أن جزيئة الـ DNA معقدة التركيب للغاية، وأي تغيير جزيئي عشوائي مهما كان طفيفاً لابد أن يكون له أثر سلبي..

لقد عبر عن هذه الحقيقة العلمية (ب.ج. رانكاناثان) الأمريكي المحتص في علم الجينات، فقال: (إنّ الطفرات الوراثية تتسم بالصغر والعشوائية والضرر، ولا تحدث إلا نادراً، وتكون غير ذات تأثير في أحسن الأحوال.. إنّ هذه الخصائص العامة الثلاث توضح أنّ الطفرات لا يمكن أن تلعب دوراً في إحداث التطور، خصوصاً أنّ أيّ تغيير عشوائي في الجسم المعقد لابدّ له أن يكون إمّا ضاراً أو غير مؤثر، فمثلاً أيّ تغيير عشوائي في ساعة اليد لا يؤدي إلى تطويرها، فالاحتمال الأكبر أن يؤدي إلى إلحاق الضرر بها أو أن يصبح غير مؤثّر بالمرة)

وهذا ما حصل فعلاً؛ لأنّه لم يثبت إلى اليوم وجود طفرة وراثية تؤدّي إلى تحسين البنية الجينية للكائن الحي.. بل إن الشواهد العلمية أثبتت ضرر جميع الطفرات الحاصلة.

التفت إلينا، وقال: وهكذا يتضح أنّ هذه الطفرات التي جعلت سبباً لتطور الأحياء من قبل الداروينية الحديثة تمثل وسيلة تخريبية التأثير على الأحياء، بل تتركهم معاقين في أغلب الأحيان.. وأفضل مثال للطفرة الوراثية الحاصلة لجسم الإنسان هو الإصابة بمرض السرطان.. فلا يمكن والحال هذه أن تصبح الطفرات الوراثية ذات التأثير الضار آلية معتمدة علميا لتفسير عملية التّطور.

ظهر البشر على أصحابي جميعا، لكن صاحبنا الدارويني قال: لا بأس.. فحدثنا عن **العامل الثالث**.

قال الجواد: العامل الثالث الذي نسف هذه النظرية هو أنّ سّجلات حفريات المتحجرات تبين لنا وجود مختلف الأحياء دفعة واحدة عكس ما تدعيه نظرية التطور.

قلنا: وضح لنا هذا.

قال الجواد: إن هذه النظرية تدّعي أنّ الكائنات الحيّة مختلفة الأنواع نشأت بعضها من بعضها الآخر، فنوع معين من الكائن الحي من الممكن أن يتحول إلى نوع آخر بمرور الزمن، وبهذه الوسيلة ظهرت الأنواع المختلفة من الأحياء.

وحسب النظرية، فإنّ هذا التحول النوعي استغرق مئات الملايين من السنين.

واستناداً الى هذا الادعاء يجب وجود حلقات وسطى (انتقالية) طوال فترة حصول التحول النوعي في الأحياء.

قلنا: وعينا هذا.. فهل أثبتت الحفريات هذه الحلقات؟

قال الجواد: لا.. لقد أجريت حفريات وتنقيبات كثيرة جداً منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن، ولكن لم يعثر على أي أثر لهذه (الأشكال الانتقالية)

بل قد أثبتت المتحجرات التي تم الحصول عليها نتيجة الحفريات عكس ما كان يتوقعه الداروينيون.

قلنا: ماذا أثبتت؟

قال الجواد: لقد أثبتت أن جميع الأحياء بمختلف أنواعها قد ظهرت إلى الوجود فجأة، وعلى أكمل صورة.

التفت إلى صاحبنا الداوريني، وقال: لقد اعترف بهذه الحقيقة أحد غلاة الداروينيّة وهو (ديريك وايكر) الاختصاصي البريطاني في علم المتحجرات قائلاً: (إنّ مشكلتنا الحقيقية هي حصولنا على كائنات حية كاملة، سواء أكانت على مستوى الأنواع أم الأصناف عند تفحصنا للمتحجرات المكتشفة، وهذه الحالة واجهتنا دوماً دون العثور على أيّ أثر لتلك المخلوقات المتطورة تدريجياً)، أي أن المتحجرات تثبت لنا ظهور الأحياء كافة فجأة دون أي وجود للأشكال الانتقالية نظرياً، وهذا طبعاً عكس ما ذهب إليه داروين، وهذا تعبير عن كون هذه الكائنات الحية مخلوقة؛ لأن التفسير الوحيد لظهور كائن حي فجأة دون أن يكون له جد معين هو أن

يكون مخلوقاً.

وهـذه الحقيقـة قبلهـا عـالم أحيـاء مشـهور مثـل (دوغلاس فوتويمـا)، قـال معـبرا عنهـا:(إنّ الخلـق والتطـور مفهومـان أو تفسيران سائدان في دنيا العلم لتفسير وجود الأحياء، فالأحيـاء إمّـا وجـدت فجـأة على وجـه البسـيطة على أكمـل صـورة أو لم تكن كذلك، أي أنها ظهرت نتيجة تطورها عن أنواع أو أجداد سبقتها في الوجـود، وإن كـانت قـد ظهـرت فجـأة وبصـورة كاملـة الشـكل والتكوين فلابد من قوة لاحـد لهـا وعقـل محيـط بكـل شـيء توليـا إيجاد مثل هذه الكائنات الحية)

التفت إلينا الجـواد، وقـال: هـا هي المتحجـرات تنطـق بلسـان حالها لتخبرنا عن ربها الذي خلقها.. فهلا تؤمنون.

فاضت الدموع من عيني صاحبنا الدارويني، ثم جثا على قدميـه أمام الجواد، وقال: بورك فيك.. لقد أنقـذني اللـه بسـببك من تلـك الأوهـام الـتي كـانت تملأ عقلي بالوسـاوس والخرافـات والـدجل.. فأذن لي أن أصحبك كما صاحبك هؤلاء العلماء.

***

قلنا: ما دام صاحبكم هذا داروينيا، فكيف ظهر له أن يجلس مع الجواد؟

قال بينيديتو كروتشي: لقد كان له صديق منـا.. وقـد حدثـه عن الجواد.. فجاء وليس في نيته إلا أن يخرب ما يريد أن يبنيه الجـواد، لكن الله شاء له برحمته وكرمه أن يكون الجواد سـببا في بنـاء مـا تخرب منه.

2 ـ الخلاق

قلنا: عرفنا الاسم الأول.. فحدثنا عن الاسم الثاني.

قال: الاسم الثاني هو الخلاق..

قلنا: ما الفرق بينه وبين اسم الخالق؟

قال: الخـالق يـدل على أصـل الخلـق، أمـا الخلاق، فيـدل على المبالغة في الخلق، وهي تتحقق بالتنوع والدوام.

التنوع:

قلنا: فحدثنا عن التنوع.

قال: لقد سار بنا الجواد في الحقول، وأرانـا من أنـواع الفواكـه والخضر ما جعلنـا نشـعر بـأن كـل نـوع منهـا حـرف من الحـروف يتشكل منه اسم الخلاق العظيم..

أنتم تعلمون أن الخضر والفواكـه تتمـيز بـالتنوع المـذهل، على الرغم من كونها تزرع في التربة نفسها، وتسقى من ماء واحد..

أرانـا الجـواد الكثـير من أنـواع الخضـر والفواكـه، ثم قـال: ألا تتعجبـون من هـذا التمـايز بين هـذه المخلوقـات مـع كونهـا تـؤدي وظيفة واحدة؟

إنّ هـذه الفواكـه والخَضْـراوات تمتص المـاء والمـواد المعدنيـة نفســها، وتــزرع في التربــة نفســها، ومــع ذلــك فهي تحافــظ على صفاتها التي وجدت بها أوّل مرة على وجه البسيطة..

إن هذه النباتات لم تكتسب هذه الصفات بمحض إرادتها، وإنّمـا منحت هـذه الصـفات من قبـل اللـه تعـالى الـذي خلقهـا بقدرتـه وعلمه..

لقد أشار الله تعالى إلى هذا التنوع فيهـا مـع كونهـا تسـقى من ماء واحد، وتتغذى تغذية واحدة، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيـلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْـرُ صِـنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُـلِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)﴾ (الرعد)

ثم قال لنا: لنفكر قليلاً فيما نتناولـه من مـأكولات أو في البيئـة الـتي نعيش فيهـا، ولنأخـذ شـجرة العنب مثـالاً على ذلـك.. فهـذه

الشجرة عبارة عن ساق تبدو يابسة وخشنة، ولها جذر يبـدو وكأنـه يابس أيضاً، ولكنّ هذه الشجرة تدر على الإنسان كميات كبيرة من ثمـــر العنب الغضّ الطـــازج المليء بالعصـــارة اللذيـــذة والنكهـــة المميزة.

ومثل ذلك البطيخ الذي يزرع في تربة يابسة، ولكنّـه يـدرّ ثمـراً مليئاً بالماء في موسم الصّيف بالذات كي يلبي احتياجـات الإنسـان من السـوائل، وشـبيهه الشـمام الـذي ينشـر رائحـة جذابـة تحـرك حواس التذوق لدى الإنسان، وتظل هذه الرائحة لمدّة طويلـــة دون تغير.

ثم قـال لنـا: إنّ الإنسـان يعمـل جاهـداً لكي يصـنع روائح في المعامل تستخدم في شتى المجالات، ولكنّ هذه الروائح الصناعية تحتاج إلى بحوث وإجـراءات تقنيـة عديـدة حـتى تتمكن من البقـاء زمناً أطول.. أما الروائح الطبيعية الموجودة في الفواكه، فلا تحتـاج إلى جهود وأبحاث، وإنما تنتج بصورة طبيعية، ويبقى تأثيرهـا لفـترة طويلة.. بالإضافة إلى أن مكوّناتهـا تتلاءم مـع الموسـم الـذي تكـثر فيه.

قال لنا ذلك، ثم قرأ من القرآن الكـريم هـذه الآيـة المعجـزة:﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾ (النحل)

ثم قال: لا يقتصر التنوع على عالم النبات فقط.. بل إن العاقل يرى التنوع في كل أجناس الكائنات:

فعـالم الحيـوان مثلا - كمـا يـذكر البـاحثون(1) - أشـبه بالمـدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعـراف والأعـراق واللغـات والعـادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلـــة والضخمة وأنسب وصف لهـذه الكائنـات ذوات الأعـداد الهائلـة هـو مصطلح (الأمم) كما وصفها القرآن الكريم.

فعدد الطيور الجاثمة وحدها أكثر من 5000 نوع، وكل نوع من هذه الطيـور هـو أيضـا أنـواع عـدة، فمثلا طيـور الفـران الأمريكيـة

(1) انظـر: من آيـات اللـه في الحيوانـات، الأسـتاذ محمـد محمـد معـافى علي، موقـع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

الإستوائية حوالي 221 نوعا صغيرة الحجم نوعا ما، وذوات عادات متنوعة جدا.

وهنـاك 223 نوعـا من الطيـور النمليـة والـدج النملي والبيتـا النمليـة مرتبطـة ارتبـاط وثيقـا بطيـور الفـران الأمريكيـة الجنوبيـة والوسطى.

أما طيور كوتنجا المزركشة فتضـم تقريبـا 90 نوعـا تقريبـا من الطيور المزركشة والمبهرجة جدا.

أما طيور الجنة ـ وسميت بذلك لأن لديها ريشا فاتنـا جـدا حـتى اعتقدوا أنه آت من الجنة ـ فتبلغ أنواعه 42تقريبا.

أما طيور النمانم ـ وهي طيور صغيرة عاملة ـ فتضـم أكـثر من 60 نوعا، وهي طيور مدهشة جدا لما تصدره من أصوات البقبقـة المرتفعة إلى درجة لاتصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا.

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من 1200 نوع.

وتضم آكلات الحشرات أكثر من 370 نوعا.

وهنـاك أكـثر من 300 نـوع من الطيـور المخوضـة والنـوارس وطيور الأوك.

وتضم طيور زمّار الرمل أكثر من 60 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من 90 نوعا.

أما أنواع الحمام واليمام فهنالك حوالي 290 نوعا منها موزعـة في أرجاء العالم، ويبلغ أنواع الببغاوات أكثر من 500 نوعا.

وتبلغ أنواع البوم أكثر من 123 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد نحو 90 نوعا.

وتبلغ طيور الرفراف حوالي 87 نوعا تتواجد في أنحاء العالم.

كما يبلـغ طـير نقّـار الخشـب أكـثر من 200 نوعـا في جميـع أنحاء العالم.

وفي عالم القرود تبلغ قرود العالم القديم أكثر من 60 نوعا.

وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادا هائلة جدا وأنواعـا لا حصـر لها، فالحيـات العميـاء تبلـغ أنواعهـا 150 نوعـا، وهي تعيش وتحيـا تحت الأرض.

كما تشتمل مجموعة السلحفيات على السلاحف والحمسـات ـ وهي سلحفة المياه العذبة ـ وتضـم حـوالي 100نـوع، وتبلـغ أنـواع السحالي العملاقة أكثر من 700 نوع في مناطق العالم الجديد.

وتبلغ أنواع الحرباء حوالي 85 نوعا كما تبلغ السـحالي السـامة حوالي 3000 نوعا من السحالي ونوعان فقط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية.

والأفاعي أيضا أنواع شتى، منها السام، ومنها غير السـام، وهي متعددة الأشكال والألوان، فنـوع منهـا فقـط، وهي أفـاعي الكـوبرا والممبا تبلغ أكثر من 200 نوع تقريبا.

كما تشتمل الحيات الخبيثة على حوالي 100 نوع، وتقول بعض المصادر العلمية أن عـدد أنـواع الثعـابين الحاليـة أكـثر من 2700 نوع ثلثها فقط سام.

أما الخنافس فتضم أكثر من 300 ألف نوع.

وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من 4200 نوع.

وتبلغ الخفافيش حوالي 900 نوع أو أكثر.

وتضـم فصـيلة الكنغـر والولبـات حـوالي 55 نوعـا متفاوتـا في الحجم.

كما تضم مجموعة السـنوريات حـوالي 36 نوعـا تعيش تقريبـا في كافة أنحاء العالم عـدا أسـتراليا والقطب الجنـوبي، ويبلـغ نـوع سنور الزباد والرّباح والنمس حوالي 80 نوعا.

وهكذا يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نــوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ومع ذلك، فقد تكون هناك أنواع أخرى أكثر بكثير بانتظار اكتشافها.

الدوام:

قلنا: حدثتنا عن التنوع.. فحدثنا عن الدوام.

قال: إن الخالق العظيم دائم الخلق(1).. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ابراهيم:19)، وقال:﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (فاطر:16)، وقال:﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ﴾ (النساء:133)

وعندما تعجب زكريا ﵇ من أن يكون له ولد بعد أن كبرت سنه، وكانت امرأته عاقرا رده الله إلى مشيئته، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران:40)

وعندما تعجبت مريم ـ عليها السلام ـ ردها الله إلى المشيئة، قال تعالى:﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:47)

أتدرون سر ذلك؟

قلنا: ما سره؟

قال: سره بسيط، فالمبدع العظيم لا يحتاج لما نحتاج إليه نحن

---

1)من الأخطاء التي وقعت فيها بعض الطوائف زعمهم بأن من مقتضيات كون الله خالقا أن يخلق في الأزل، وهو قول مناف لمشيئة الله المطلقة، فمشيئة الله لا يقال لها: افعلي أو لا تفعلي.

وقد غاب عن هؤلاء أن (السيف يسمى قاطعا وهو في الغمد، ويسمى قاطعا حالة حز الرقبة، فهو في الغمد قاطع بالقوة وعند الحز قاطع بالفعل، والماء في الكوز مرو، ولكن بالقوة وفي المعدة مرو بالفعل، ومعنى كون الماء في الكوز مرويا أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عند مصادفة المعدة، وهي صفة المائية، والسيف في الغمد قاطع أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي الحدة إذ لا يحتاج إلى أن يستجد وصفا آخر في نفسه) (المقصد الأسنى: 36)

وكذلك، ولله المثل الأعلى، صفة الخالق لله تعالى، فهو خالق في الأزل بالمعنى الذي به يقال الماء الذي في الكوز مرو، وفي السيف أنه قاطع.

ومن الخطأ الكبير أن يقال له ـ تعالى وتقدس ـ:(ما دمت خالقا، فلا بد أن تخلق)

من الجهد والعناء، فهو سبحانه بمجرد توجه مشيئته لخلق شيء يكون.. ولهذا فإن كل ما نراه من أشياء ناتج عن خضوعها لأمر الله الواحد ﴿ كُنْ ﴾، قال تعالى:﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (البقرة:117)، وقال:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:40)، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يّس:82)، وقال:﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر:68)

3 ـ البارئ

قلنا: عرفنا الاسم الثاني.. فحدثنا عن الاسم الثالث.

قال: الاسم الثالث هو البارئ..

قلنا: فما معنى هذا الاسم؟.. ومادلالته التي تفرقه عن سائر الأسماء؟

قال: هذا الاسم يدل على معان متعددة فسرها لنا الجواد:

منها دلالته على أن الله تعالى خال من أي نقص وعيب وتهمة ومذمة، وقد سبق لأخينا (فريدريك ماكس مولر) أن فسر لنا ذلك عند تعريفنا باسم الله (القدوس)

ومنها دلالته على أن أفعال الله خالية من كل عيب، بل كلها في منتهى الكمال.. لقد ذكر لنا الجواد عند بيانه لهذا المعنى مقولة مهمة للغزالي لا أزال أذكرها جيدا.. قال فيها: (لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة

ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة،.. وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً)(1)

ولا أزال أذكر معها كذلك مقصورة رددها أمامنا شاب من طلبة العلم من طرابلس الشام جاء زائرا للجواد كان اسمه (رشيد رضا)، ومما قال فيها(2):

---

1) إحياء علوم الدين، بتصرف.. وقد أنكر بعض المتكلمين على الغزالي هذا المقولة، وذلك لعدم فهمهم لمراده منها، وقد ذكر ابن تيمية سر ذلك الإنكار، وبين المعنى الصحيح لها، فقال: (وما يحكي عن الغزالي أنه قال ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، لأنه لو كان كذلك ولم يخلقه لكان بخلا يناقض الجود أو عجزا يناقض القدرة ، وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام ، وتفصيله أن الممكن يراد به المقدور، ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ، ويقدر على غير ما فعله ، كما بين ذلك في غير موضع من القرآن ، وقد يراد به أنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه فهذا ليس قدحا في القدرة ، بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله ، لكن قال ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله ، وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان ، وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا)

وقد ألفت في الجواب على هذه المقولة أو الرد عليها رسائل كثيرة من البقاعي والسيوطي وغيرهما.. وسنعرض للمسألة بتفاصيلها في رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

تبارك البارئ مبدع الورى ... بالحق والحكمة عن ظهر

أحكم ربي ما براه فانبرى ... مستحصف المرير مشدود

أنشأ في الدخان كل صورة ... فسمك السماء والأرض دحا

(وكان عرشه على الماء) ... أنشأ منه كل حي وبرا

وخلق الأشياء أزواجا ومن ... ذرية الزوجين يذرو ما يشا

ثمت (أعطى كل شيء ... بقدر استعداده (ثم هدى)

فكل شيء عنده بقدر ... لا أنف مبتدأ ولا سدى

فابعث رسول الطرف منك ... يجوب أجواز البحار والفلا

وأسر به للأفق في مراصد ... معراجها يدني إليك ما نأى

وسرح الفكر ربيئا ثانيا ... لمسرح الأرواح يسعى

حتى إذا جاسا خلال الدار ... حس إلى نفس وروح وحجا

سائلهما هل ثم من تفاوت ... أو خلل في البدء كان أو عرا

إني وتلك مظهر للحق في ... صفاته وما تسمى من سما

(فليس في الإمكان) أن ... أبدع مما كان) قبل وجرى

(ثم ارجع) الطرف إليها ... إليك) خاسئا حسيرا قد عشا

يتل عليك الآي (صنع الله) ... أتقن كل) ما رأيت وترى

ثمت يتل (قد خلت من ... من سنن الحكيم في هذا

وأنهن سنن ثابتة ... مثل نظام الشمس فاتل

قام بهن أمر كل عالم ... في أرضنا وفي السماوات

ما ثم تبديل ولا تحويل عن ... شيء ولا قوم فهم فيها

---

2) ذكر هذا النظم رشيد رضا في تفسير المنار، وذكر أنه ألفه في عهد طلب العلم بطرابلس الشام.

ناهيك بالإنسان في اجتماعه طردا وعكسا وأماما وورا
يجري على حكم تنازع البقا في أرجح الأمرين نشأ وارتقا
كراسب الإبليز والإبريز إذ يذهب طافي زبد الماء جفا
وسنة النتاج بالزواج بل كل تولد تراه في الورى

ومن المعاني التي ذكرها لنا الجواد لهذا الاسم (الإيجاد بعد التقدير على الهيئة المخصوصة)، وقد قرأ لنا كثيرا من النصوص المقدسة الدالة على هذا المعنى..

ومن ذلك ما ورد في القرآن عند ذكر نعم الحواس، ففيه:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام:46)

ومن ذلك ما ورد عند ذكر نعمة الليل والنهار:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ(71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ(72) ﴾ (القصص)

أو لو شاء فجعل الماء غورا:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك:30)

أو لو شاء جعل الرياح ساكنة:﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى: 33)

وقد صادف عند ذكره لهذا حضور بعض العلماء، وكان مما قاله تعليقا على ما قرأ الجواد من الآيات: لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب

في جميع أجزاء الكـرة الأرضـية وكـان في إمكانهـا أن تشـعل كـل شيء قابل للاحتراق.

ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمـدنا ولـو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رمادا منذ زمن بعيد.

ولو كان قمرنا يبعد عنا 20000 ميلا بدلا من بعده الحـالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه 60000 ميل لكـان المـد يبلـغ من القـوة بحيث أن جميع الأرضي تغمر مرتين في اليـوم بمـاء متـدفق يـزيح الجبال نفسها.

ولو كان ليلنا أطول مما هـو عليـه الآن عشـر مـرات لأحـرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل مـا نبت على الأرض.

ولو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمئـة أو أكـثر من الهـواء بـدلا من 21 بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العـالم تصـبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شـجرة لا بد أن تلهب الغابـة كلهـا ولـو كـانت نسـبة الأوكسـجين 10 بالمئـة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

ولولا المطر لكـانت الأرض صـحراء لا تقـوم حيـاة عليهـا فلـولا الرياح والبحار والمحيطات لمـا كـانت حيـاة ولـولا أن المـاء يتبخـر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة ولولا أن البخـار أخـف من الهواء لما كانت الحياة.

ولو كـانت ميـاه المحيطـات حلـوة لتعفنت وتعـذرت بعـد ذلـك الحيـاة على الأرض حيث إن الملح هـو الـذي يمنـع حصـول التعفن والفساد ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لمـا كـان ملح وبالتـالي ما كانت حياة.

ولـو كـانت الأرض كعطـارد لا يـدير إلا وجهـا واحـدا منـه نحـو الشمس ولا يدول حـول محـوره إلا مـرة واحـدة في خلال الـدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كـان قسـم من الأرض ليلا دائمـا والآخر نهارا دائما لما عاش أحد حيث الليل قـائم أو النهـار دائم ولا كانت حياة.

ولو لم تكن قـوانين الجاذبيـة موجـودة فمن أين تلتقي الـذرات وجزيئات الـذرات ومن أين تكـون الشـمس شمسـا والأرض أرضـا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكـون الحياة وكيف يسير الإنسان.

وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حــتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظهـا بـالغلافين الجوي والمائي اللـذين يحيطـان بهـا ولصـارت الحـرارة بالغـة حـد الموت.

ولــو كــانت الإلكترونــات ملتصــقة بالبروتونــات داخــل الــذرة والـذرات ملتصـقة ببعضـها بحيث تنعـدم الفراغـات لكـانت الكـرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعنــدما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشـاهده الآن على فـرض وجـود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لمـا أمكن وجـود تـراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبـات إن مواقـع الإلكترونـات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تنتظم في ترتيب معين فهي لا تزيــد عن ثمانية إلكترونات إلا في المـدار الأول فإنـه لا يتسـع لأكـثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتتح مدار آخـر فمثلا إذا كـان للعنصـر أحـد عشـر إلكترونـا اتخـذ اثنـان المدار الأول والمدار الثاني يتسـع لثمانيـة فقـط فيتخـذ الإلكـترون المتبقي مدارا ثالثا وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخـارجي عن ثمانية علما بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانيـة إلكترونــات واتحــاد العناصـر ببعضـها يتماشـى على أسـاس هـذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحـاد بين إلكتروناتهـا فإذا كان عدد إلكترونات المدار الخـارجي للعنصـر أقـل من ثمانيـة فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخـر فالـذي في مـداره الخـارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونان أمـا الـذي في مـداره الخـارجي ثمانية فهو خامل ولا يستقبل إلكترونا واحدا.

ولـولا قـوانين الحـرارة لمـا بـردت الأرض ولمـا كـانت صـالحة للحياة.

ولولا الجبال لتناثرت الأرض ولما كـان لهـا مثـل هـذه القشـرة الصالحة للحياة.

ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة.

وهكذا..

4 ـ المصور

قلنا: عرفنا الاسم الثالث.. فحدثنا عن الاسم الرابع.

قال: الاسم الرابع هو المصور..

قلنا: فما يعني هذا الاسم؟

قال: كما أن الإبداع لا يكـون إلا بإحـداث مـا لم يكن.. فـإن من الإبداع – كـذلك – لا يكمـل إلا بتصـوير مـا أبـدع علي هيئـة خاصـة تميزه عما سواه..

لقـد ذكـر لنـا الجـواد أن النصـوص المقدسـة عـبرت عن هـذا المعنى باسم من أسماء الله الحسنى هو (المصـور).. وقـد أخبرنـا كذلك أنه ورد فيها الدلالة على أن الله هو مبدع جميع مـا نـراه من صور الكائنات وهيئاتها.

ففي القرآن يمن الله على عباده بأنه عـدل صـورهم في نفس الوقت الذي كان قـادرا على تشـويهها، قـال تعـالى:﴿ الَّذِي خَلَقَـكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار:7 ـ 8)

وقال عن مشيئته المرتبطة بتصوير الجنين:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَـوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:6)

وقال يمن على عباده بقوة أجسامهم وسلامتها:﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْـدِيلاً ﴾ (الانسـان:28)، وقـد ورد عن ابن عبـاس في تفسـيرها:(لغيرنـا محاسـنهم إلى أسـمج الصور وأقبحها)

ويذكر القرآن تنوع الكائنات في طريقة مشيها، ويسـتدل بـذلك على طلاقـة مشـيئته، قـال تعـالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَـقَ كُـلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَـاءٍ

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:45)

وينبه القرآن إلى النظر في أطوار الخلق التي يمر بها الإنسان ليعاين طلاق المشيئة الإلهية في التصوير، قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم:54)

ويذكر القرآن الصور المختلفة والطاقات المختلفة الموهوبة للملائكة ـ عليهم السلام ــ وينبه بذلك إلى طلاقة مشيئته، قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر:1)

سكت (بينيديتو كروتشي) قليلا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم جيدا.. لقد كان الثلج يتساقط بغزارة.. وقد كسا بلونه الأبيض الجميل جميعا ما نراه فأحاله إلى منظر ممتلئ جمالا.. قال لنا الجواد حينها: انظروا إلى المصور العظيم كيف كسا الكون بهذه الحلة الجديدة الجميلة..

أذكر جيدا أني قلت حينها: إن الأمر لا يقتصر على ظاهر ما نراه.. فكل بلورة من بلورات هذا الثلج تأخذ شكلا خاصا.. ويعتقد الباحثون أنّ متراً مكعباً من الثلج يحتوي على 350 مليون بلورة، وهذه البلورات جميعها تتّخذ شكل مضلّع سداسي، بيد أنّ هذه المضلّعات السّداسية تختلف فيما بينها من ناحية الشكل الذي تتّخذه..

إنّ هذه البلورات الثلجية التي تتجمع لتأخذ أشكالاً عديدة مثل الصّحون الصغيرة والكبيرة، أو الشكل النجمي أو حتى الشكل الدقيق جداً الذي يشبه رأس إبرة تحقق هذا الاختلاف في التشكل بوسيلة مثيرة للحيرة في العقول..

وقد جلب هذا التركيب البلوري لحبات الثلج انتباه الباحثين منذ سنوات عديدة.. فقد أجريت الأبحاث ومازالت مستمرة منذ سنة 1945 لاكتشاف العوامل التي تشكل هذه البلورات بهذه الأشكال

المختلفـة.. فحبّـة الثلج تتـألف من أكـثر من مئـتي بلـورة ثلجيـة، والبلورات الثلجية هي عبارة عن مجموعـة من جزيئـات من المـاء مرتبة ومنظمة بتناسق بـاهر فيمـا بينهـا.. وتوصـف هـذه البلـورات الثلجية بأنها بناء معماري بارع جداً.

وفي يوم آخر، وأمام فراشة جميلة، قال لنا الجواد: انظروا إلى هذه اللوحة الرائعة.. إنها من تصوير المصمم البديع.. انظـروا، فلن تجدوا أبداً أي خلل في ترتيب ألوانها وتنسـيقها مهمـا كـان صـغيراً جـداً.. انظــروا إلى ألوانهــا المثــيرة الجذابــة إنهــا تبعث الحــيرة والإعجاب في نفوسنا.

ثم قـال: إنّ هـذه الفراشـات ليســت مثـيرة بـألوان أجنحتهـا فحسب، بـل لهـا خصـائص أخـرى عجيبـة وغريبـة ولافتـة للانتبـاه، فأجسامها ذات تصميم خارق من كافة الوجـوه.. فهي تقتـات على ما تمتصه من رحيق الأزهار، وكثيراً ما تقتات على الرحيق الموجود في أعمـاق الأزهـار بواسـطة أعضـاء طويلـة في أجسـامها تـدعى ببروبوسيس، وهو عضو شبيه باللسان يستخدم لامتصاص الرحيــق في الأزهار أو لشرب الماء، وعندما لا تكـون الفراشـات في حاجـة إلى استعمال هـذا اللسـان تطويـه إلى الـداخل، وعنـد إطلاق هـذا اللسان بطوله يصبح طول الفراشة ثلاثة أضعاف طولها الأصلي.

وفي يوم آخر، وأمام طائر الغرنـوق قـال لنـا الجـواد: إن ريش هذا الطائر يتكون من نصل وعلى جانبـه 650 ريشـة ناعمـة، وفي كل ريشة توجد 600 رويشة متقابلة، وفي كل رويشة يوجــد 390 خطافـاً تربـط الرويشـات بعضـها ببعضـها الآخـر، وهي تبـدو مثـل سـحّاب الملابس في ارتباطهـا بعضـها ببعض.. وهـذه الرويشــات ترتبط بقوة ومتانة إلى درجة أنّ الدّخان المنفوث لا يستطيع النفـاد من خلالها.. وإذا حدث وأن انفصـلت الرويشـات بعضـها عن بعض، فـإنّ الطّـير ينقض عليهـا بمنقـاره بسـرعة ويعيـدها إلى وضــعها الطبيعي.

إنّ هذه الطريقة في تركيب ريش الطير مهمة جـداً في عمليـة الطيران، فالذي يكسب الطير المقدرة على الطيران هو عدم نفاد الهواء من خلال الريش..

ومن المزايا الأخرى لريش الطيور، والتي تخطف النظـر أيضـاً، تلوّنـه بـألوان مختلفـة.. ومصـدر هـذه الألـوان هـو بعض الصـبغات الجلدية التي تتكون في جسـم الطـير في مراحـل تكـوّن الـريش، إضافة إلى تأثر الجسم بألوان الوسط الذي يعيش فيه الطير.

إنّ ريش الطير يتألف من مادة الكاراتين، وهذه المادة معرضة للتلف تحت ظروف البيئة المختلفة، لـذا فـإن الـريش يتم تجديـده بين كل مدة وأخرى؛ إلا أنّـه بعـد كـل مـدة تجديـد يكتسـب الطـير الألوان الزاهية في ريشه مرة أخرى لأنّ الريش يسـتمر في النّمـو حسب نـوع الطـير ولـون ريشـه والنقـوش الموجـودة عليـه حـتى يكتمل هذا النمو.. وإن هذا التلون في الريش والتصـميم المـدهش في تركيبه دليلان بارزان على بديع صنع الله وجميـل خلقـه وسـعة علمه جل جلاله.

وفي يوم آخر، وأمام مرآة صادفتنا وقف الجواد طويلا، ثم قـال لنا: انظروا إلى وجوهنا على هذه المرآة.. ألا تـرون التنـاظر الرائـع بين العناصر المكونة للوجه؟

إن هذا التناظر الجميل سـمة من سـمات الجمـال الـتي يمتلئ بها الكون..

إن الكائنات الحيـة جميعـا تمتلـك تركيبـاً منتنـاظراً.. انظـر إلى الأحيـاء البحريـة تجـدون التنـاظر الرائـع نفسـه، فالأسـماك مثلاً والسرطانات البحرية وبراغيث البحر والقشريات البحرية وغيرهـا.. كلها تملك هذا التركيب المتناظر الجميل.

إن دعـاة نظريـة التطـور الـذين يتبنـون فكـرة المصـادفة في وجود الكائنات يعجزون عن إيجاد تفسير منطقي أمام هذا الترتيب والتناظر المنظم والتنوع المدهش للألوان، بل هم يظلون عـاجزين أمام هذه الظـواهر الخارقـة في إرجـاع سـبب وجودهـا إلى فكـرة المصادفة السّمجة.. وحتماً سيمكثون في عجزهم هذا مهمـا كـانت ادعاءاتهم التي يحاولون بها تفسير هذا التنوع المدهش في الألوان والنقوش، وهذا التناظر والترتيب الخارقين.

وهـذه الحقيقـة سيتوصـل إليهـا كـل ذي عقـل مـدرك.. حـتى تشـارلز داروين مؤسـس نظريـة التطـور اضـطر إلى الاعـتراف

بالعجز التام أمام هذه الحقيقـة، فقـد قـال: (لا أعتقـد أن الانتخـاب الطبيعي كان الوسط الذي حدث داخله ظهور حوادث طبيعية مثـل الـبريق اللـوني أو حضـانة ذكـور الأسـماك للـبيض أو ظهـور إنـاث الفراشات ذات اللمعان الأخاذ)

إن أي إنسان عاقل مدرك لا يسـتطيع أن يـدعي أن المصـادفة كانت سبباً في ظهور هذه المظاهر الجميلـة الزاهيـة في الطبيعـة، مثــل الفراشــات الملونــة الجذابــة والأزهــار كالبنفســج والــورود المختلفـة وثمـار الفراولـة وحبّـات الكـرز وطيـور الببغـاء وطيـور الطاووس وحتى النّمور. فهـذه الكائنـات قـد منحت هـذه الصـفات الجميلة من قبل الله الخالق الفاطر القادر على كل شيء.

5 ـ المغني

قلنا: عرفنا الاسم الرابع.. فحدثنا عن الاسم الخامس.

قال: الاسم الخامس هو المغني..

قلنا: ما يعني هذا الاسم؟

قال: هو يعني أن الله خالق هذا الكون ومبدعـه قـد وفـر لكـل كائن جميع ما يحتاجه، فأغناه به عن سواه.

قلنا: فحدثنا كيف تعرفتم على هذا الاسم؟

قال: كنا ذات يوم مع الجواد في مأدبة غداء.. وقد زارنـا حينهـا، ولأول مـرة عـالم من علمـاء البيئـة الحيويـة، كـان اسـمه (إلتـون) [1]قدم به أحد رفاقنا بعد أن ملأه شوقا لأحاديث الجواد.

في مأدبة الغداء.. التفت الجواد إلى رفاقي، وقال: ألا تقــرؤون

---

1) أشير به إلى (تشارلز سذرلاند إلتون) (1900-1991م)، وهو عالم أحيـاء إنجلـيزي وُلد في مانشستر، وتخرج في جامعة أكسفورد عـام 1922م وعمـل فيهـا إلى أن تقاعـد في عام 1967م.. اشتُهر بكونه رائـد علم البيئـة، وهـو العلم الـذي يُعـنى بعلاقـة الأحيـاء ببيئتها وعلاقة بعضـها ببعض.. فقـد أدرك أن الحيوانـات والنباتـات لهـا متطلباتهـا الغذائيـة الخاصة، مما دعاه إلى تطوير مفهوم البيئة الملائمة التي تنص على أن كل نوع من أنـواع الكائنات الحية له وظيفة خاصة ومكان خاص داخل بيئته.. فأشار إلى الحاجـة إلى الكثـير من النباتات الخضراء لتأمين غذاء القليل من آكلات الأعشاب، والتي تقوم بدورها بتـأمين غذاء عدد أقل من آكلات اللحوم.. وقد أطلق إلتون على هذا الترتيب اسم الهرم الغذائي (انظر: الموسوعة العربية العالمية).. ولا يخفى سر اختياره هنا.

في هذه الوجبة التي من الله بها علينا شيئا؟

قلنا: وما تقرأ أنت؟

قال الجواد: أنا أقرأ هذه اللحظة في سطور هذه الوجبة اسم (المغني).. إنه اسم مكتوب في كل لقمة نأكلها، أو شربة نشربها.

قلنا: كيف ذلك؟

قال الجواد: بما أن البروفيسور الكبير (إلتون) قد شرفنا بزيارته اليوم، فسنحاول من خلال المعارف التي علمه الله إياها أن نتعلم كيف نقرأ هذا الاسم في سطور هذه النعم التي أفاضها الله علينا، فقد قال تعالى:﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)﴾ (فاطر)

قال ذلك، ثم التفت إلى إلتون، وقال: أخبرني – سيادة البروفيسور- عن هذا الطعام الذي نأكله.. هل هو نافلة نستطيع أن نستغني عنها.. أم أنه شيء أساسي ضروري لا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال؟

قال إلتون: لاشك أن الطعام ضروري.. ولا أحسب أن هذا يحتاج إلى أي خبرة أو أدلة لإثباته.

قال الجواد: الخبرة ليست في إثبات هذا.. ولكن في إثبات وجه الضرورة فيه.

قال إلتون: صدقت.. فهذه الأشياء يعرفها المختصون.

قال الجواد: فاذكر لنا وجه الضرورة لهذا الطعام.

قال إلتون: إن جسم الإنسان يحتاج لنموه وحركته، ولكي يكتسب وقاية من الأمراض إلى توفير كميات مستمرة من المواد الغذائية لتدخل إلى كل خلية في الجسد.

قال الجواد: فما هذه المواد؟

قال إلتون: هي كثيرة أهمها الزلاليات (البروتينات)، والأملاح، والمواد النشوية، والدهنية، والفيتامينات والماء.. كما أن كل خلية بحاجة إلى إخراج دائم لبقايا التفاعلات الكيماوية وفضلاتها وإلا

أهلكتها تلك البقايا والفضلات.

قال الجواد: فهل العملية التي تتم بها توفير هذه الآليات يسيرة سهلة، أم معقدة صعبة؟

قال إلتون: بـل هي معقـدة صـعبة.. إن إمـداد الكائنـات الحيـة بهذه المواد يستدعي أمرين.. لا يمكن أن تتم التغذية من دونهما..

قال الجواد: فما هما؟

قال إلتون: أولهما المواد الضرورية الـتي يحتـاج إليهـا الجسـم، وبالكمية المناسبة.. والثاني الأجهزة التي لها القدرة على استعمال هذه المواد وتمثيلها في الجسم..

المواد:

قال الجواد: فحدثنا عن الحاجة الأولى.

قال إلتون: إن جسمنا – لكي يستطيع أن يحافظ على سـلامته وقوته- يحتاج – كمـا ذكرنـا – إلى المـواد الصـالحة لغـذاء الخلايـا.. وهي تتمثـل في الأحمـاض الأمينيـة.. والمـواد السـكرية.. والمـواد الدهنية.. والفيتامينات.. والأملاح.. والماء.

قال الجواد: فأين نجد هذه المواد الضرورية لحياتنا؟

قال إلتون: إن معظمها – ما عدا الماء- يوجد في صورة مركبة معقدة في مختلف النباتات أو لحوم الحيوانـات، الـتي تغـذت على هذه النباتات، أو ألبانها..

قال الجواد: فالمصدر الأصلي ـ الخـام ــ لمـا ذكـرت من مـواد غذائية هو هذه النباتات التي تكسو الأرض؟

قال إلتون: أجل.. فالنباتات هي المواد الخام التي يتشكل منهـا الغذاء.

قـال الجـواد: فمن أين للنبـات كميـات الغـذاء الهائلـة اللازمـة لتغذية كل كائن حي؟

قال إلتون: أولا.. هناك البذور.. أو (الأصـول النباتيـة).. ونحصـل عليهـا من نباتـات سـابقة.. والنباتـات السـابقة من بـذور وأصـول سـابقة.. وهكـذا.. حـتى نصـل إلى الأصـل الأول لهـذه النباتـات المتنوعة.

ثم هناك التربة الصالحة للزراعة بكميات هائلة تكفي لحاجة كل الكائنات الحية.

ثم هناك الماء، وهو مـوفر بكميـات تكفي حاجـة كـل الكائنـات الحية، وهو ميسر أيضا، فيمكن أخذه من الأنهار الجارية، أو العيون، أو الآبـار، أو الميـاه الجوفيـة المخزونـة قريبـاً من سـطح الأرض.. وأصل هذا الماء تلك الأمطار الـتي تـنزل من السـحب على الأرض باسـتمرار بمعـدل (16 مليـون طن في كـل ثانيـة).. وهي تسـاعد الحياة كثيرا باعتبارها تنزل سيولاً هائلة في شكل نطف صـغيرة، لا تضر زرعاً، ولا إنساناً ولا حيواناً.

ثم هناك الهواء.. فبغـير الهـواء لا تنبت نبتـة على وجـه الأرض.. والهواء الصالح لتكـوين الغـذاء هـو (ثـاني أكسـيد الكربـون) الـذي نخرجـه من أجسـامنا ومن أجسـام كـل الحيوانـات، وبهـذا يكـون الإنسان والحيوانات مصدراً لمادة من المواد الخام اللازمة لصـناعة الطعام.

ومن دقائق الخلق والتقدير أن (ثاني أكسيد الكربـون) لـو بقي في الجـو لخنـق كـل كـائن حي، ولكن النباتـات تأخـذه باسـتمرار، وتخرج لنا (أكسجين) عوضاً عن الذي استهلكناه في أجسامنا.

ثم هنـاك ضـوء الشـمس، الـذي يأخـذه النبـات من الشـمس بواسطة المادة الخضراء الموجودة في خلايا النباتات، والذي يصـل إلى وجه الأرض بالقدر الكافي، المناسـب للحيـاة، فلـو بعـدت عنـا الشمس نصف المسـافة لتجمـد كـل نبـات وكـل حي، ولـو قـربت نصف المسافة بيننا وبينها لاحترق كل كائن حي.

ثم هنـاك مـا يسـمى (المصـانع الخضـراء) في النبـات.. وهي مصانع عجيبة تدخل إليها هذه المواد الخـام من أملاح ومـاء وهـواء وضوء شمس.. فتصنع منها جميعا سكراً يتحول إلى مختلف المواد الغذائيـة من نشـويات ودهـون وبروتينـات وفيتامينـات.. وذلـك

بواسطة إنزيمات مركبة خاصة، وتفاعلات كيماوية دقيقة مرتبة.

وهذه المصانع الخضراء عبارة عن نقط خضـراء صـغيرة تسـبح في بعض خلايا النبات، وخاصة خلايا الأوراق.. وينتج النبات من هذه المصانع الخضراء كميات وفيرة هائلـة تكفي لتصـنيع المـواد الخـام السابقة إلى أغذية مناسبة صالحة كافية لغذاء كل الكائنات الحية.

ومن بديع صـنع هـذه المصـانع أنهـا تقـوم بعملهـا في عمليـات كيماوية طويلة متلاحقة، وفي سلسلة متتابعة في الخطـوات حـتى يكون الناتج هي تلك الثمار اللذيذة الشهية التي ليست إلا مخــازن، خزن فيها الغذاء وأحكم حفظه فيها.

قال الجواد: فكيف يتسنى للنبات الحصول على مـا ذكرتـه من مواد خام ليسلمها بعد ذلك إلى هذه المصانع؟

قال إلتون: إن ذلك - أيضا- يتم عبر عملية معقـدة من الصـعب أن نفصل الحديث عنها في هذا المجلس.

قال الجواد: فهلا اختصرتها لنا.

قال إلتون: أما المـاء.. فقـد عرفنـا أنـه يصـل إلى التربـة الـتي تتشربه..

وأما الأملاح، فهي تذوب في التربة مكونة محلولاً مائياً.. وتقــوم الماصات الجذرية الموجـودة في البـذور النباتيـة، بامتصـاص المـاء والأملاح الذائبـة فيـه بقـوة (الضـغط الأسـموزي).. ثم تقـوم هـذه الماصات الجذرية بتوصيل الماء والأملاح الذائبة إلى أنـابيب خاصـة موجودة في الجذور قد أعدت لاستقبال الماء والأملاح، ورفعـه إلى شـتى أجـزاء النبـات، حيث يصـل في فـروع صـغيرة إلى المصـانع الخضراء الصغيرة.

أما الهواء، فيدخل إلى المصانع النباتيـة بواسـطة ثغـور صـغيرة قد أعدت بإحكام، وتنتشر في الطبقة السطحية للأوراق، وقد خلق الخالق سبحانه خليتين حارسـتين أو أكـثر تقـوم هـذه الخلايـا بـدور البواب الذي يفتح ويقفل بنظام، وبحسب الحاجة.

وأما الضوء، فيصل رأساً إلى المصانع الخضـراء المنتشـرة في

أجزاء النبات فوق سطح الأرض.. وقـد كـان تصـميم وضـع النبـات متناسباً مع هذا الطلب منذ أن خرج ذلك الجزء النبـاتي من البـذرة المنبتة الذي شق الأرض وترابها إلى أعلى، لا إلى أسفل كما يفعل الجزء الثـاني الـذي سـيكون الجـذر، ويحمـل معـه أصـول الأجـزاء النباتيـة العليـا من سـاق، وأغصـان، وأوراق، وأزهـار، وثمـار.. ولا يخطئ حامل الأوراق هذا في اتجاهـه، كمـا لا يخطئ الجـزء الـذي سيكون الجذر حتى لو وضعت البذرة مقلوبة، فإن حامـل المصـانع الخضراء يعرف طريقه دائماً إلى أعلى، حيث يوجد ضوء الشمس.

الأجهزة

قال الجواد: لقـد عرفنـا كيـف وفـر اللـه الحاجـة الأولى.. وهي تحضير المواد التي يحتاج إليها الجسـم لتوفـير غذائـه.. فهـل يكفي ذلك لحصول الغنى؟

قال إلتون: لا.. الموجود في النباتات مواد خام، لا تصـلح رأسـاً لتغذية خلايا الجسم مباشرة..

قال الجواد: فقد انبعثت حاجة جديدة إذن؟

قال إلتون: أجل.. إنها الحاجة إلى أجهزة خاصة، ومـواد خاصـة تقوم بإعداد هذه المواد الخام، وتحويلها إلى مـواد صـالحة مناسـبة لغذاء الخلايا.. ثم توصيلها لمحالهـا من الجسـم إذ لا معـنى لتوفـير المواد المطلوبة دون توصيلها إلى المكان المطلوب.

قال الجواد: فكيف وفرت هذه الحاجات؟

قال إلتون: لقـد أعـدت في جسـم الإنسـان وجميـع الحيوانـات أجهزة كاملة دقيقة لا عمل لها إلا تغطية ما تتطلبه هذه الحاجات..

قال الجواد: فهلا ذكرت لنا بعضها.

قال إلتون: **أولها (الجهاز الهضـمي)**.. والـذي يبـدأ بـالفم، وفيه يقطع الطعام (الخام) إلى قطع صغيرة بواسطة الأسنان التي تحركهـا عضـلات المضـغ، ثم يطحن لكي يسـهل هضـمه، كمـا أن هضماً جزئياً يبدأ بواسطة اللعاب الذي تفرزه غدد خاصـة موجـودة

في الفم، والذي يساعد بلزوجته على انـزلاق اللقمـة في المـريء إلى المعـدة، ويقـوم اللسـان بعمليـة تقليب الطعـام في الفم ليتم خلطه باللعاب، ثم قذف اللقمة إلى البلعوم.

ثم ترمي اللقمة إلى الحنجرة حيث يفتح لها لسان المزمار باب المريء، ويسـد عليهـا بـاب القضـية الهوائيـة، وتـنزلق اللقمـة إلى المعدة بواسـطة حركـات دوديـة في المـريء كمـا يسـاعدها على الانزلاق ما يفرزه المريء من إفرازات مخاطية.

وفي المعدة تسـتمر عمليـة الهضـم، حيث يتحـول الطعـام إلى سائل يسمى (سائل الكيمـوس) الـذي تفتح لـه فتحـة البـواب في المعدة، ويتجه إلى الاثنى عشـر حيث تسـتمر عمليـة الهضـم الـتي هي تحويـل المـادة الخـام من الطعـام إلى مـادة مناسـبة صـالحة لتغذية خلايا الجسم، ثم منهـا إلى الأمعـاء الدقيقـة، حيث تسـتكمل عمليـات الهضـم النهائيـة فتصـبح المـواد الزلاليـة أحماضـاً أمينيـة، والمواد النشوية سكراً، والمواد الدهنية أحماضاً دهنية وجلسرين..

قـال الجـواد: فقـد تحـولت المـواد الخـام إلى المـواد في هـذا الجهاز.. فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. لا يكفي ذلك فإن الطعام بهـذه الصـورة يحتـاج إلى أعضاء أخرى تقوم بتوزيعه إلى الجسم بحسب حاجاته.

قال الجواد: فما هذه الأعضاء؟

قال إلتون: هي تجتمع في جهاز يسـمى (**الجهـاز الـدوري**).. وهو يقوم بدوريات هائلة، مستمرة في الدماء، تقوم بالدوران على كل جزء، وكل نقطة في الجسـم، فتأخـذ من كـل نقطـة ومن كـل جهاز ما هو مكلـف بإعـداده.. وتقـوم هـذه الـدوريات بإيصـاله إلى المكان الخاص الذي أعدلـه في الجسـم.. ولـذلك فهـذه الـدوريات تمر على الأمعاء الدقيقة، كمـا تمـر على المعـدة والمـريء والفم، ولكنها لا تأخذ الطعـام إلا من الأمعـاء الدقيقـة حيث تمت عمليـات الهضم.

ولهـذا الجهـاز الـدوري محطـة ضـخ مركزيـة، هي القلب الـذي يقوم بإرسال هذه الـدماء المتدفقـة باسـتمرار.. ويمكنـك أن تضـع

يدك الآن على قلبك لتحس عمله الجاد في إرسال هذه الدماء الدائرة إلى استقبالها مرة ثانية، وذلك في أضخم شكة مواصلات على الأرض.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (**الجهاز اللمفاوي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: الجهاز اللِّمفاوي(1) هو شبكة من الأوعية الدقيقة التي تشبه الأوعية الدموية.. وهو يقوم بإعادة السوائل من أنسجة الجسم إلى مجرى الدم.. وهذه العملية ضرورية، لأن ضغط السوائل في الجسم يجعل الماء والبروتينات وغيرها من المواد تتسرب باستمرار خارج الأوعية الدموية الدقيقة المسماة بالشعيرات.. ويقوم هذا السائل الراشح والمسمى السائل الخلالي بغمر وتغذية أنسجة الجسم.. وإذا لم يجد السائل الخلالي الزائد طريقه إلى الدم، فإن الأنسجة تنتفخ وتتورم؛ ولذا فإن معظم السائل الزائد يرشح إلى داخل الشعيرات الدموية التي يكون ضغط السائل فيها منخفضًا، ويعود الباقي عن طريق الجهاز اللمفاوي، ويسمى اللِّمف..

بالإضافة إلى هذا.. فإن هذا الجهاز يعد أحد أجهزة دفاع الجسم ضد العدوى، حيث يقوم برشح الجسيمات الصغيرة والبكتيريا التي تدخل الجسم بوساطة كتل صغيرة من الأنسجة توجد على طول الأوعية اللمفاوية، وتشبه حبة الفاصوليا في الشكل، وتسمى العقد اللِّمفاوية.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (**الجهاز الإخراجي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

---

1) يعتبر بعض العلماء الجهاز اللِّمفاوي جزءًا من الجهاز الدوري، لأن اللِّمف يأتي من الدم ، ويعود إليه.

قال إلتون: إن عملية التصنيع السابقة الـتي تتم في الجسـم أو في داخل الخلايا يتخلف عنها فضلات وبقايـا.. ومـا لم تطـرح هـذه الفضلات والبقايـا يتعـرض الإنسـان للهلاك.. فلـذلك وفـر للإنسـان جهاز يقوم بعملية إخراج لهـذه المـواد المتبقيـة الـتي لا فائـدة من بقائها.

وتبدأ عملية الإخراج عن طريق المعي الغليظ الذي يحمل بقايـا الطعام الذي لم يذب في الإنزيمـات الهاضـمة ويخرجـه غائطـاً من فتحة الشرج، وتقوم الرئتان بـإخراج ثـاني أكسـيد الكربـون وبخـار الماء المتولد في عمليات التصنيع والبناء داخل الخلايا.. وأمـا الغـدد العرقية الموجودة على الجلد فمنها يخرج (الملح والبولينـا والمـاء) كما أن هناك كليتين وما يتصل بهما من حالب ومثانة ومجـرى بـول وعن طريقها ترشح (البولينا وحـامض البوليـك والمـاء) من الـدماء وتخرج إلى الخارج بواسطة مجرى البول.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قـال إلتـون: لا.. الجسـم مـا زال يحتـاج إلى جهـاز آخـر اسـمه (**الجهاز العصبي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: هذا الجهاز يقوم بالإشـراف على سـير وتنظيم كـل عمليـة من العمليـات السـابقة، وكـل عمليـة أخـرى من عمليـات الجسم.

***

بقي الجواد يسأل إلتون، وإلتون يجيبه إلى أن أصبحنا نـرى في تلك اللقمة من الفضل ما لا يمكن إحصاؤه ولا حصره، فالتفتنا إلى الجواد، وقلنا: لقد عرفنا صنعة البديع التي تدل على كونه قد أغـنى كل شيء بكل ما يحتاجـه.. فأسـمعنا من كلماتـه الـتي تعـرف بهـا إلينا.. والتي تدل على هذا المعنى.

قال الجواد: لقد انطلقت في حديثي مع أخي من توجيـه ربـاني نص عليه قوله تعالى:﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24)﴾ (عبس)

ثم ذكرنا ربنا ببعض ما أفاض علينا من فضله في صناعة الطعام مما سمعنا بعض تفاصيله من أخينا إلتون، فقال:﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)﴾ (عبس)

وفي آية أخرى ذكر بعض أسباب ذلك الإغناء، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام)

وفي آية أخرى ذكر ما قدر الله في الأرض من أقوات، فقال:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ﴾ (فصلت)

وأخبرنا أنه هو الذي وفر لكل ما في الكون ما يحتاجه، فقال:﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)﴾ (لنجم)

وقد ذكر المفسرون أن الإغناء هو ما آتاه الله لعباده من الأجهزة، وما وفره لهم من أنواع القوت واللباس وغيرها.. والإقناء هو كل ما زاد على ذلك.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الحاجات التي وفر الله لعباده، والتي لا يستقيم لهم العيش من دونها، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)﴾ (الفرقان)، وقال:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ (النبأ)

وأخبرنا ﷺ عن بعض حديث الله تعالى لنا، فقال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(1)

***

وهكذا ظل الجواد يحدثنا عما ورد في القرآن وحديث محمد مما زادنا إيمانا بأن ربنا هو المغني الذي أعطى كل شيء ما يحتاجه ليكمل وجوده ويستمر.. بل زاد على ذلك، فأعطاه من الكمالات ما هو غني عنه، وما لا يفتقر إليه في استمرار وجوده.

6 ـ الحافظ

قلنا: عرفنا الاسم الخامس.. فحدثنا عن الاسم السادس.

قال: الاسم السادس هو الحافظ..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصحابي إلى هضبة عالية كانت في ضواحي المدينة.. وقد تعجبنا إذ رأينا فيها مرصدا فلكيا مجهزا بكل التجهيزات الحديثة والدقيقة، فسألنا عن

1) رواه مسلم.

صـاحبه، فأخبرنـا أنـه صـاحبه، فزادنـا عجبنـا منـه ومن اهتماماتـه العلمية التي لم نجد نظيرا لها في أصحابنا المختصين أنفسهم.

وقـد زاد عجبنـا عنـدما قارنـا بين حياتـه البسـيطة في مسـكنه البسيط مع تلك التجهيزات ذات التكلفة العالية..

قال له بعض أصحابنا – وكـان اسـمه (جـاليليو)(1) - مازحـا: لـو أنك بدل هذا التلسكوب اشتريت قصرا لكنت أهنأ عيشا.

ابتسم الجواد، وقال: إن القصر الـذي أسـكنه حينـذاك سـيكون سجنا وقفصا يحول بيـني وبين رؤيـة عـوالم اللـه الـتي أعبـده من خلال تأملها.. وفوق ذلك سيضع على عيني حجبا تحـول بيـني وبين قـراءة رسـائل اللـه الـتي يرسـلها إلي كـل حين عـبر هـذا الكـون العظيم.. وفوق ذلك كله سيمنعني من التعرف على اللـه من خلال أسمائه الحسنى المكتوبة في سطور الكائنات.

ثم نظـر إلى جـاليليو، وقـال لـه مازحـا: هـل تـرى العصـفور المسجون في قفص الذهب راضيا عن سكناه؟

قال جاليليو: لا.. وكيف يرضى المسجون؟

قال الجواد: ولكنه مسجون في قفص من ذهب.

قال جاليليو: السجن سجن سواء كان ذهبا أو فضة.

قـال الجـواد: فقـد فهمت سـر اهتمـامي بهـذا بـدل اهتمـامي بالقصور.

قال جاليليو: ولكننا متحررون..

قـال الجـواد: اسـمح لي أن أقـول لـك بـأن أكـثر من تـراهم متحـررين هم في الحقيقـة مسـجونون في سـجن كبـير اسـمه الأرض.. لقد ذكر الله ذلك، فقـال:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَـا لَكُمْ إِذَا

(1)أشير به إلى جاليليو (1564 ـ 1642م)، وهـو عـالم فلكي وفيزيـائي إيطـالي. كـان يدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصـرة. اسـتخدم ولأول مـرة التلسـكوب الانكسـاري بشكل فعّال لكشف حقائق جديدة ومهمة عن علم الفلك. اكتشف أيضًـا قـانون الأجسـام المتساقطة وقانون البندول. كما طور التلسكوب الانكساري وحسّنه. (انظـر: الموسـوعة العربية العالمية)

قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾ (التوبة)

وذكر المؤمنين، واهتمامهم بأكوان الله، فقال:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾ (آل عمران)

قال له جاليليو مازحا: لا بأس.. فلنسلم أنك تقرأ في هذه الأكوان رسائل الله وأسماء الله.. فهلا قرأت لنا بعض ما لا نراه من رسائل ربك التي يرسلها عبر ما نراه من هذه الكواكب.

سار بنا الجواد قليلا أما تلسكوبه الضخم، ثم أرانا كوكبا من الكواكب البعيدة، وقال[1]: أترون ذلك الكوكب البعيد؟

قال له جاليليو: أجل.. إنه (**بلوتو**)، وهو كوكب بارد جداً.. فدرجة حرارته نحو (-238) درجة مئوية، وله جو لطيف يكون في حالته الغازية فقط عندما يكون أقرب إلى الشمس في مداره الشبه اهليلجي، أما في الأوقات الأخرى فيصبح جوه كتلة من الجليد.

قال الجواد: فـ (بلوتو) إذن كرة مغلفة بالجليد.. وهي لا تصلح للحياة[2].

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**نبتون**)، وهو أيضاً كوكب بارد جداً ودرجة حرارته حوالي (-218) درجة مئوية، وجوه يحتوي على غاز الهيدروجين والهليوم والميتان.. وهو سام للحياة وتهب فيه الرياح

---

1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (خلق الكون) لهارون يحيى.

2) الحياة بالمعنى المتعارف عليه عندنا، وإلا فإن كل شيء حي كما ورد في النصوص المقدسة انظر: (أكوان الله)

بسرعة 2000 كيلومتر في الساعة عاصفةً عبر سطح الكوكب.

قال الجواد: فهو مثل أخيه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**أورانوس**) وهو كوكب غازي فيه صخور غازية فيه صخور وجليد على سطحه ودرجة حرارته (-214) درجة مئوية وجوه يحتوي على الهيدروجين والهليوم والمتيان وبالتالي فهو غير ملائم لحياة الجنس البشري.

قال الجواد: فهو مثل أخويه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**زحل**).. وهو ثاني أكبر الكواكب في المجموعة الشمسية، ويتميز بخاصية في امتلاكه جملة من الحلقات المحيطة به، وهي مكونة من الغازات والصخور والجليد، وتعتبر واحدة من أجمل الأشياء حول زحل، وهي مكونة كلياً من غازين (75% هيدروجين و25% هيليوم)،

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. فمن أراد أن يهبط على زحل فالأفضل له أن يصمم سفينته الفضائية بشكل تشبه فيه قارب منفوخاً واسعاً، ولا ينبغي أن ينسى أن درجة الحرارة الوسطية تصل إلى (-178)درجة مئوية.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**المشتري**)، وهو أضخم كواكب النظام الشمسي، واتساعه يعادل 238 مرة اتساع الأرض.. وهو مثل زحل.. أي أنه كوكب غازي..، وطالما أنه من الصعب أن نميز بين الجو والسطح على مثل هذا الكوكب فمن الصعب أن نقول ما هي

درجـة حـرارة السـطح، لكنهـا في أعـالي الجـو تصـل في الغلاف الجوي حوالي (–143 درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. وهو بالإضافة إلى برودته الشـديدة يلاحـظ في جوه ما يدعى (النقطة الحمراء العظمى)، وقـد لـوحظت قبـل ثلاثمائة سنة، ويعرفها الفلكيون الآن بأنها عبارة عن نظـام عاصـفة ضخمة هائجـة في جـو المشـتري لعـدة قـرون، وهي من الاتسـاع بحيث تستطيع ابتلاع كوكبين بحجم الأرض.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قـال جـاليليو: أجـل إنـه (**المـريخ**).. ومعظمـه غـاز كربـون.. وسـطحه في كـل الأمـاكن يطفح بـالبثور، وهي عبـاة عن ثقـوب لفوهات بركانية، أو نتيجة لصدمات النيازك والريـاح القويـة العاتيـة التي تهب عبر السطح حاملة معها عواصف رملية والتي تدوم أياماً وأسـابيع متواصـلة، وتتغـير درجـة الحـرارة كثـيراً وقـد تصـل إلى مستويات منخفضة في حدود (–53 درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قـال جـاليليو: أجـل.. فجـو المـريخ ليس مكانـاً ملائمـاً للحيـاة بالرغم من أنه ساد الاعتقاد لفترة ما بأن المريخ ربما كـان يحتـوي على شكل من الحياة، لكن كل الأدلة بينت أنه عالم لا حياة فيه.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**عطارد**)، وهو عالم صخري صغير مدمر بالحرارة والإشعاع من الشمس، ودورانـه حـدث لـه إبطـاء بسـبب قربه من الشمس بحيث يصـنع ذلـك الكـوكب ثلاثـة دورات كاملـة محورية حول نفسه في الوقت الذي يأخذه ذاته ليدور مرتين حـول الشمس.. وبتعبير آخـر فـإن سـنتين من عطـارد تسـاوي ثلاثـة من أيامه.. وبسـبب تلـك الـدورة اليوميـة المطولـة يكـون أحـد وجهي عطارد حاراً تماماً بينما الطرف الآخر يكون بارداً تماماً، والفرق بين درجتي حرارة وجهي النهار والليـل لعطـارد يزيـد على ألـف درجـة

مئوية.

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل... فمثل تلك البيئة لا تسمح بالحياة فيها..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**الزهرة**)، وهي مغطاة بسحب ساطعة.. ودرجة حرارتها عند السطح هي (450 درجة مئوية)، هي كافية لانصهار الرصاص.. وجوها يحتوي على طبقات غازية من حامض الكبريت، وسمكها يبلغ عدة كيلومترات.. ولذلك فإنها عندما تمطر لا تمطر ماء بل تمطر حمضاً.

قال الجواد: فلا يمكن لأي إنسان إذن أو لأي كائن حي آخر أن يعيش في جوها ولو لثانية واحدة.

قال جاليليو: أجل.. إلا إذا أراد أن ينتحر.

قال الجواد: فلننزل بعد هذه الجولة إلى هذه الأرض التي فرشها الله لنا.. ألا ترون أنها تختلف كثيراً عن الكواكب الأخرى..

قال جاليليو: أجل.. فكل ما فيها ينبض حياةً.. جوها.. وتضاريسها.. وسطحها..ودرجات حرارتها الملائمة.. وحقلها المغناطيسي.. ومصادر عناصرها.. وهي بالإضافة إلى ذلك موضوعة على بعد مناسب من الشمس.

قلنا لصاحبنا: ذكرت الجملة.. فهات التفصيل.

قال جاليليو: إن درجة الحرارة، والجو هي أول العوامل الأساسية للحياة على الأرض.. خاصة لمثل تلك الكائنات الحية المعقدة كالجنس البشري.

وقد أتى هذان العاملان المختلفان كلياً إلى الوجود نتيجة انقلاب الشروط لتصبح مثالية لهما..

وأحد تلك العوامل هي المسافة بين الأرض والشمس، فالأرض لا يمكن أن تكون مقراً للحياة إذا كانت أقرب إلى الشمس مثل

الزهـرة، أو كـانت بعيـدة مثـل بعـد المشـتري.. والجزيئـات ذات الأسـاس الكربـوني يمكن أن تبقى حيـة بين حـدين همـا (-20) و(120)، والأرض هي الكوكب الوحيد الذي له درجة حـرارة وسـطية بين هذين الحدين.

وعندما يفكر شخص في الكون ككـل مستعرضـاً ضـيق مجـال درجات الحرارة فتلـك مهمـة صـعبة جـداً لأن الحـرارة في الكـون تتراوح بين بلايين الـدرجات في أسـخن النجـوم إلى درجـة الصـفر المطلق أي لـ (-273س)

وفي مثل ذلك المجال الواسع لدرجات الحرارة يكون الفاصــل الحراري الذي يسمح للحياة بأن توجد هو ضئيل جـداً بالفعـل، لكن كوكب الأرض له هذا الفاصل.

لقد أثار الجيولوجي الأمريكي (فرانـك بـريس) ومثلـه (ريمونـد سيفر) الانتبـاه لمتوسـط درجـات الحـرارة السـائدة على الأرض.. وقد لاحظـا - كمـا نعلم - أن الحيـاة ممكنـة ضـمن فاصـل حـراري ضيق، وذلك الفاصل هو من واحد إلى اثنين بالمئة من المجـال بين درجة حرارة الصفر المطلق ودرجة حرارة سطح الشمس..

والاحتفاظ بهذا المجال الحـراري مرتبـط بكميـة الحـرارة الـتي تشعها الشمس، وكذلك بالمسافة بين الأرض والشمس.

ووفــق الحســابات فــإن نقصــان 10% من طاقــة الإشــعاع الشمسي سـيؤدي إلى تغطيـة سـطح الأرض بطبقـات من الجليـد سمكها عدة أمتار، وإذا زادت تلـك النسـبة عن ذلـك بقليـل، فكـل الكائنات الحية سوف تتجمد وتموت.

قال الجواد: فدرجة حرارة الأرض هي وحدها الـتي جعلت منهـا كوكبا حيا.

قال جاليليو: لا.. لا يكفي أن تكون درجات الحـرارة المتوسـطة مثالية، بل يجب أن تكون الحرارة المتوفرة أيضاً موزعة بالتســاوي تقريباً على سطح الكوكب..

قال الجواد: فما الذي أمن هذا التوزيع المتساوي؟

قال جاليليو: من ذلك أن محور دوران الأرض يميل بزاوية 23و 27 على مستوى دائرة البروج، وهذا الميل يمنع الإفراط الحـراري للجو في المنـاطق بين القطـبين وخـط الاسـتواء وهـو يسـبب لهـا اعتـدلاً حراريـاً أكـثر.. وإذا لم يكن ذلـك الميـل موجـوداً فالتـدرج الحراري بين القطبين وخط الاستواء سيكون أكثر ارتفاعاً ممـا هـو عليه، والمناطق المعتدلة سـوف لن تكـون معتدلـة بعـد أو ملائمـة للعيش فيها.

ومن ذلـك سـرعة دوران الأرض حـول محورهـا.. فهي تسـاعد أيضاً في حفظ التـوازن الحـراري في حالـة تـوازن، وتقـوم الأرض بدورة واحد كل 24 سـاعة، والنتيجـة هي فـترات متناوبـة قصـيرة تقريباً من الليل والنهار، وبسبب قصـرهما يكـون التـدرج الحـراري بين الطرفين المضيء والمظلم للكوكب معتدلاً تماماً، وأهمية ذلك يمكن رؤيتها في المثال المتطرف لعطـارد، حيث أن يومـه أطـول من سنته فيكون الفرق بين درجات حرارة النهار والليل فيه حوالي ألف درجة مئوية.

ومن ذلــك أن جغرافيــة الأرض تســاعد - أيضــاً - في توزيــع الحـرارة وتسـاويها على سـطح الأرض، بحيث يكـون الفـرق بين درجتي حرارة المنـاطق القطبيـة والاسـتوائية للأرض حـوالي مئـة درجة مئوية فقط، وإذا كان مثل ذلك التدرج الحراري موجوداً على مساحات مستوية كليـاً لا تضـاريس فيهـا فسـتكون النتيجـة رياحـاً سرعتها عالية جداً ربمـا بلغت ألـف كيلومـتر في السـاعة وجارفـة معها كل شيء في مسارها، ولكن بدلاً عن ذلـك فـالأرض مملـوءة بـالعوائق الجيولوجيـه الـتي توقـف الحركـات الهائلـة للهـواء الـتي يسـببها التـدرج الحـراري.. وتلـك العوائـق هي السلاسـل الجبليـة والممتدة من المحيط الهادي في الشـرق إلى المحيـط الأطلسـي في الغرب.. وفي البحر تنتقـل الزيـادة في الحـرارة في المنـاطق الاستوائية شمالاً وجنوباً، والفضل في ذلك لقابلية الماء المثلى في نقل الحرارة وتبديدها.

قال الجواد: فهل لكتلة الأرض وحجمها دور في جعلها متناســبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فحجم الأرض ليس أقـل أهميـة للحيـاة من

بعـدها عن الشـمس وسـرعة دورانهـا وتضاريسـها الجغرافيـة.. فبـالنظر إلى الكـواكب الأخـرى نـرى أن هنـاك تفاوتـاً كبـيراً في أحجامهـا، فعطـارد حجمـه صـغير وأصـغر بعشـر مـرات من حجم الأرض بينما المشتري أكبر منها بحوالي 318 مرة.

لقـد علـق الجولوجيـان الأمريكيـان (فرانـك بـريس) و(ريمونـد سيفر) على مدى ملاءمة الأرض من هذه الناحية، فقـالا: (إن حجم الأرض هو تماماً ما ينبغي أن يكون عليه، فهي ليست صـغيرة جـدا فتخسر جوها لكون جاذبيتها الثقالية عندئذ صغيرة فلا تستطيع منـع هروب الغازات منها إلى الفضاء، وهي ليسـت كبـيرة بالقـدر الـذي يجعل جاذبيتها الثقالية تزداد كثيراً فتحتفظ بجو غزي أكبر بمـا فيهـا غازات ضارة)

قال الجواد: فهل لأعمـاق الأرض الـتي لا نراهـا دور في جعلهـا متناسبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فأعماق الأرض مصممة بطريقة تخصصـية مضبوطة، وذلك من ناحية لبها وحقلها المغناطيسي القـوي والـذي له دور حيوي هام في حفظ الحياة، ووفق ما كتبه العالمان (بريس وسـيفر) فـإن (أعمـاق الأرض هي محـرك عملاق متـوازن حراريـاً بلطف.. وقوده النشاط الإشعاعي.. وعندما تباطـأت حركتهـا صـار نشاطها الجيولوجي يتقدم بخطوات بطيئة موزونـة.. ولنفـرض أنـه ربمـا لم ينصـهر الحديـد ويغـوص ليشـكل لبـاً سـائلاً، والحقـل المغناطيسي ربمـا لم يتطـور إطلاقـاً.. فـإذا كـان هنـاك زيـادة من الوقود (أي النشاط الإشـعاعي) وكـان المحـرك يـدور أسـرع فـإن غازات البراكين والغبار بما حجبت الشمس وعندئـذ سـيكون الجـو كثيفـاً، والسـطح سـيكون مـدمراً بـالزلازل اليوميـة والإنفجـارات البركانية)

قــال الجــواد: فللحقــل المغناطيســي دور في جعــل الأرض متناسبة مع الحياة؟

قال جـاليليو: أجـل.. فالحقـل المغناطيسـي الـذي تحـدث عنـه الجيولوجيون له أهمية كبيرة في الحياة، وينشـأ في جـوف الأرض، وهو يحتوي على عناصر ثقيلة مثل الحديد والنيكـل، وهمـا معـدنان

قادران على حمل شحنات مغناطيسية، والجـوف الـداخلي صـلب، أما اللب الخارجي الذي يعلوه فهو سائل، وتتحرك هاتان الطبقتـان من اللب حول بعضهما البعض، وتلك الحركة هو التي تولـد الحقـل المغناطيسي الأرضي، ويمتد هذا الحقل بعيداً خلف السـطح، وهـذا الحقل يحمي الأرض من تأثيرات الإشعاع الضار الوارد من الفضـاء الخارجي، أما الإشعاعات الوردة من النجوم عدا الإشعاع الشـمس فهو لا تستطيع السفر عبر ذلك الدرع، فحزام (فان آلن) الذي تمتد خطوطه المغناطيسية عشـرة آلاف ميـل من الأرض تحمي الكـرة الأرضية من هذه الطاقة المميتة.

وقد حسبت طاقة السحب البلازمية التي يأسـرها حـزام (فـان آلن) فوجد أنها تبلغ في بعض الأحيان مستويات عالية ربما وصـلت لأكـثر من مئـة بليـون مـرة من طاقـة القنبلـة الـتي ألقيت فـوق (هيروشيما)

ومـا هـو معلـوم فـإن الأشـعة الكونيـة ضـارة على جميـع المستويات، والحقل المغنـاطيس هي تقريبـاً بحـدود بليـون أمبـير، وهذا أكثر مما ولده الجنس البشري عبر التاريخ كله.

قال الجواد: فلنفرض أن ذلك الدرع لم يكن موجودا؟

قـال جـاليليو: إذا لم يكن ذلـك الـدرع الحـامي موجـوداً فمن المفـروض أن الأرض دُمـرت بالإشـعاعات الضـارة والمؤذيـة من وقت لآخر.. وبالتالي لم يكن للحياة أن تظهـر على الأرض إطلاقـاً، ولكن كما أشار (بريس وسيفر) فإن لب الأرض مصـمم تمامـاً كي يحفظ سلامه الأرض.

ابتسم الجـواد، وقـال: أليس من وفـر هـذا الـدرع الـذي يحمي الأرض هو الحافظ؟

قال جاليليو: أجل.. بل هو أعظم حافظ.

قال الجواد: أتدري من هو؟

قال جاليليو: من هو؟

قال الجواد: إنه الله.. وقد كنت تقرأ لنا حروف هـذا الاسـم من

خلال أكوانه..

قال جاليليو: لم أفهم ما الذي تقصده.

قال الجواد: إن الله الذي أرانا هذه الكواكب جميعا، وعلمنا ما تحمله من سموم الموت هو الذي حفظ لنا الحياة على هذه الأرض.. ولذلك، فإننا عندما نبصرها نقرأ من خلالها اسم الله (الحافظ) الذي لولاه لأكلتنا أشعة السماء، وابتلعتنا أعاصير الأرض.

لقد ذكر لنا ربنا في كلماته المقدسة أنه على كل شيء حفيظ.. فقال:﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)﴾ (هود).. وقال:﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)﴾ (سبأ).. وقال:﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)﴾ (الشورى).. وقال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾ (الحجر).. وقال:﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)(الأنبياء).. وقال:﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)﴾ (يوسف)..وقال:﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)﴾ (الحجر)

7 ـ الفاطر

قلنا: عرفنا الاسم السادس.. فحدثنا عن الاسم السابع.

قال: الاسم السابع هو الفاطر..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصحابي إلى حديقة للحيوان.. وهناك أرانا الجمل، وذكر لنا أن القرآن حظ على النظر إليه وإلى كيفية خلقه، ففيه:﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)﴾ (الغاشية)

ومن خلال المعارف التي بثها إلينا عن الجمل عرفنا باسم اللــه الفاطر..

قلنا: وما علاقة الجمل بالفاطر؟

قال: لقد ذكر لنا الجواد أن الفاطر اسـم يـدل على الـذي وفـر لكل صنعة من الإتقان والكمال ما يحميها من الانفطـار والانشـقاق والنقص.. وقد ذكر القرآن الكـريم هـذا المعـنى.. فقـال يحث على النظر إلى السماء:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ (الملك)

وفي هذه الإشارة إلى أن من النواحي المراعاة في إبداع اللــه تعالى هذه الناحية المهمة، والتي تحفـظ للكـائن وجـوده في إطـار الأجل الذي حدد له.

قلنا: ما دام الجمل آية من آيات الله الدالة على كونـه فـاطرا.. فحدثنا عنه.

قال: إن ما كشفه العلم حديثاً عن بعض الحقـائق المذهلـة في خلق الإبل يفسر لنا بعض السر في اختيار الله للإبـل لتكـون محـل نظرنا(1).

فأول مـا يلفت الأنظـار في الإبـل خصائصـها البينـات والشـكل الخارجي الذي لا يخلو تكوينه من لطـائف تأخـذ بالألبـاب، فالعينـان محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانهما القذى والرمال.

أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز، فضلاً عن أن الشعر يكتنفهـا من كل جانب، ليقيها الرمال التي تذروها الرياح، ولهما القـدرة عن الانثناء خلفاً والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية.

أما المنخران، فيتخذان شكل شقين ضـيقين محـاطين بالشـعر وحافتهما لحمية، فيستطيع الجمل أن يغلقهمـا دون مـا قـد تحملـه الرياح إلى رئتيه من دقائق الرمال.

1) انظر: كتاب رحيق العلم والإيمان، الدكتور أحمـد فـؤاد باشـا.. وقـد ذكرنـا هـذا مـع تفاصيل أخرى ترتبط به في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

أما ذيله، فيحمل على جانبيه شعراً يحمي الأجـزاء الخلفيـة من حبات الرمل التي تثيرها الرياح السافيات كأنهـا وابـل من طبقـات الرصاص.

أما قوائم الجمل، فهي طويلة لترفع جسمه عن كثير ممـا يثـور تحته من غبار، كما أنها تساعده على اتساع الخطو وخفة الحركة.

وتتحصن أقدام الجمل بخف يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يـدوس الجمـل بهـا فـوق الأرض، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومـة، وهـو مـا يصـعب على أيـة دابة سواه، وهذاما يجعله جديراً بلقب (سفينة الصحراء)

لهذه الخصائص وغيرها مـا زالت الإبـل في كثـير من المنـاطق القاحلة الوسيلة المثلى لارتياد الصحارى، وقد تقطع قافلة الإبل بما عليها من زاد ومتاع نحوا من خمسين أو ستين كيلومترا في اليــوم الواحـد، ولم تسـتطع السـيارات بعـد منافسـة الجمـل في ارتيـاد المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة.

ومن الإبل أيضاً ما هـو أصـلح للركـوب وسـرعة الانتقـال، مثـل الرواحل المضمرة الأجسام التي تقطـع في اليـوم الواحـد مسـيرة مائة وخمسين كيلومترا.

ومما يناسب ارتفـاع قـوائم الجمـل طـول عنقـه، حـتى يتنـاول طعامه من نبـات الأرض، كمـا أنـه يسـتطيع قضـم أوراق الأشـجار المرتفعة حين يصادفها، هذا فضلاً عن أن هذا العنـق الطويـل يزيـد الرأس ارتفاعاً عن الأقذاء، ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال.

وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعـد للرحيـل يعتمـد جسـمه الثقيـل على وسـائد من جلـد قـوي سـميك على مفاصـل أرجلـه، ويرتكز بمعظم ثقله على كلكله، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو إنسان طحنه طحناً.

وهذه الوسائد إحدى معجزات الخـالق الـتي أنعم بهـا على هـذا الحيوان العجيب، حيث أنها تهيئـه لأن يـبرك فـوق الرمـل الخشـنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمـل سـواها مفترشـاً لـه، فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى.

والجمـل الوليـد يخـرج من بطن أمـه مـزودا بهـذه الوسـائد المتغلظة، فهي شيء ثـابت مـوروث وليسـت من قبيـل مـا يظهـر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

قلنا للجواد: فقد أعد اللـه تعـالى الإبـل إعـدادا من أجـل مهـام السفر الصعبة!؟

قال الجـواد: ليس ذلـك فقـط.. أو بـالأحرى ذلـك مـا يمكن أن يعرف بالنظر البسيط القاصر.

قلنا: فهل هناك نظر آخر أعمق وأطول؟

قـال الجـواد: أجـل.. هنـاك أشـياء تحتـاج إلى نظـر أعمـق، أو بأجهزة تعين البصر القاصر.

قلنا: فحدثنا عن بعض ما دل عليه النظر الأعمق.

قال الجواد: منها أن الجمل يحافظ على مياهـه بقـدر الإمكـان، لأنه في صحراء قليلة الميـاه، فلـذلك لا تـراه يتنفس من فمـه، ولا يلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد به العطش، وهـو بـذلك يتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

وهو لا يفرز إلا مقدار ضئيلاً من العرق عنـد الضـرورة القصـوى بفضـل قـدرة جسـمه على التكيـف مـع المعيشـة في ظـروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحارة بين الليل والنهـار، ويسـتطيع جهـاز ضـبط الحـرارة في جسـم الجمـل أن يجعـل مـدى تفـاوت الحرارة نحو سبع درجات كاملـة دون ضـرر، أي بين 34م و41 م، ولا يضطر الجمل إلى العـرق إلا إذا تجـاوزت حـرارة جسـمه 41م ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار، أما في المساء فإن الجمل يتخلص من الحـرارة الـتي اختزنهـا عن طريـق الإشـعاع إلى هـواء الليل البـارد دون أن يفقـد قطـرة مـاء، وهـذه الآليـة وحـدها تـوفر للجمل خمسة ألتار كاملة من الماء.

ولا يفوتنا أن نقارن بين هذه الخاصة التي يمتاز بها الجمل وبين نظيرتها عند جسم الإنسان الذي ثبت درجة حرارة جسمه العاديـة عند حوالي 37 م، وإذا انخفضت أو ارتفعت يكون هذا نذير مـرض

ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع، وربما تـوفي الإنسـان إذا وصـلت حرارة جسمه إلى القيمتين اللتين تتراوح بينهما درجة حرارة جسم الجمل (34م و41 م)

و هنـاك أمـر آخـر يسـتحق الـذكر، وهـو أن الجسـم يكتسـب الحرارة من الوسـط المحيـط بـه بقـدر الفـرق بين درجـة حرارتـه ودرجة ذلك الوسط، ولو لم يكن جهاز ضبط حرارة جسـم الجمـل ذكياً ومرنا بقدرة الخالق اللطيـف لكـان الفـرق بين درجـة حـرارة الجمل ودرجة حرارة هجير الظهيرة فرقاً كبـيراً يجعـل الجمـل إلى 41م في نهار الصحراء الحارق يصبح هذا الفرق ضـئيلاً وتقـل تبعـاً لذلك كمية الحرارة التي يمتصـها الجسـم، وهـذا يعـني ان الجمـل الظمآن يكون أقدر على تحمل القيظ من الجمل الريان، فسـبحان الله العليم بخلقه.

ويضيف علماء الأحياء ووظائف الأعضاء سببا جديداً يفسر قدرة الإبـل على تحمـل الجـوع والعطش عن طريـق إنتـاج المـاء الـذي يحتاجه من الشحوم الموجودة في سـنامه بطريقـة كيماويـة يعجـز الإنسان عن مضاهاتها.

فمن المعروف أن الشـحم والمـواد الكربوهيدراتيـة لا ينتج عن احتراقها في الجسم سوى الماء وغـاز ثـاني أسـيد الكربـون الـذي يتخلص منه الجسـم في عمليـة التنفس، بالإضـافة إلى تولـد كميـة كبيرة من الطاقة اللازمة لواصلة النشاط الحيوي.

ومعظم الدهن الذي يختزنه الجمل في سنامه يلجأ إليه الجمـل حين يشح الغذاء أو ينعدم، فيحرقه شيئاً فشياً ويذوى معـه السـنام يوماً بعد يوم حتى يميل على جنبه، ثم يصبح كيساً متهدلاً خاويـاً من الجلد إذا طال الجوع والعطش بالجمل المسافر المنهك.

و من حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الـدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أي حيوان آخـر ويكفي دليـل على ذلـك أن نقارن بين الجمـل والخـروف المشـهور بإليتـه الضـخمة المملـوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء 11كجم من الـدهن في إليته، نجد أن الجمل يختزن ما يفـوق ذلـك المقـدار بـأكثر من عشرة أضـعاف (أي نحـو 120 كجم)، وهي كميـة كبـيرة بلا شـك

يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثـاني أكسـيد الكربون.

ولهذا يستطيع الجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف بدون مـاء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصـيبه بـالهزال وتفقـده الكثـير من وزنه، وبالرغم من هـذا فإنـه يمضـي في حياتـه صـلدا لا تخـور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب (تعزى قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلـك الأملاح في بـول شـديد التركـيز بعـد أن تسـتعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم)فيعب منـه عبـا حـتى يطفئ ظمأه.

و ثمة ميزة أخرى للإبل تهيئه لهذه المهام الصعبة، فإن الجمــل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء، حـتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحـة أو المـرارة، وذلك بفضل استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بـول شديد التركيز بعد أن تسـتعيدا معظم مـا فيـه من مـاء لـترده على الدم.

والأعجب من هذا كلـه أن الجمـل إذا وضـع في ظـروف بالغـة القسوة من هجير الصحراء اللافح فإنه سوف يسـتهلك مـاء كثـيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء، مع هواء الزفـير حـتى يفقـد نحـو ربع وزنه دون ضـجر أو شـكوى، والعجيب في هـذا أن معظم هـذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه، ولم يسـتنفذ من مـاء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبددا لها من سطح جسمه.

قلنا: فكل هذا من الخصائص التي وفرت لهذا الحيـوان ليكـون مركبا صالحا في الصحراء القاحلة.

قـال الجـواد: هـذا بعض مـا تمكن العلم من معرفتـه.. وهنـاك الكثير مما لا يزال في طي الغيب.. وكلها برهـان على أن اللـه هـو الفاطر الذي وفر لهذا الخلق ما يحتاج إليه في تلـك البيئـة الصـعبة التي وجد فيها.. ولولاه لما تمكن الإنسـان في القـديم من اخـتراق الصحراء.

***

التفت إلينـا صـاحبنا (بينيـديتو كروتشـي)، وقـال: هـذا حـديثي وحديث أصحابي مع ذلك الـولي الصـالح.. لقـد عشـت في رحـاب كلماتـه أيامـا جميلـة.. ولكن كلاليب الـدنيا سـرعان مـا جـذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو مجـادلات عقيمـة، ومناصـب رفيعـة، وألقاب هي كالسراب الذي يحسبه الظمـآن مـاء حـتى إذا جـاء لم يجده شيئا.

سادسا ـ الملك

في اليوم التالي.. أيقظنا في منتصف الليل رجل منا.. كان مميزا بيننا بكثرة الاهتمام بنا، وكأنه مسؤول عنا.. وكان في اهتمامه بنا يكاد ينشغل عن نفسه انشغالا كليا.

كان كل حين يسأل عن كل فقيد، أو جائع، أو مريض، أو محتاج إلى أي شيء.. فإذا ما وجده سارع إلى كل فرد منا يطلب منه أن يقدم له ما أطاق من الخدمات، يأمره في ذلك وينهاه.

وكان شديد الاهتمام بالنظام.. النظام في كل شيء.. ولذلك كان يتشدد علينا فيه.. بل يتأمر علينا بسببه.. وقد كنا من غير شعور منا نشعر بضرورة إمرته.. فلم يكن يصلح إلا لها.. ولم تكن تصلح إلا له.. ولم نكن نحتاج في ذلك المحل حاجتنا إلى من ينظم أمرنا، ليخفف عنا بعض ما كنا فيه.

وكان مع رحمته تلك ونظامه الصارم شديدا قاسيا على كل من رآه يسلك سلوكا خاطئا.. أو يخاطب غيره بعنف وبذاءة.. أو يتصرف في تلك الغابة القاسية بأي نوع غير مستقيم من التصرفات حتى أن بعضنا مرة غضب من سلوكه معه، وقال: لكأن من يراك تخاطبنا بهذا يتصور أنك قد ملكت هذه الغابة أبا عن جد.. وإلا فما حرصك عليها كل هذا الحرص؟

لم يجبه صاحبنا بشيء.. فقد كان أميل إلى الصمت منه إلى الكلام.. وإلى السلام منه إلى الصراع..

لذلك كله لم يكن يصارع أحدا.. بل كان يرسل بسماته مع أوامره.. فكنا نخضع لها.. أو قل كنا نخضع لبسمته وطلاقة وجهه أكثر من خضوعنا لأوامره الصارمة.

في ذلك اليوم.. أو في تلك الليلة أيقظنا من نومنا.. وقد ملأ البشر وجهه، وهو يقول: أبشروا.. لقد فتح علي اليوم من معرفة الله ما أحسب أننا نقترب به من ربنا الحقيقي.

فرحت الجماعة جميعا، وقالوا: هيا.. بشرنا.. هل تذكرت شيئا يدلنا على ربنا؟

قال: أجل.. لقد تذكرت الآن معاني مهمة جدا لهـا صـلة كبـيرة بما نحن فيه.. لقد كانت تلـك المعـاني مخزونـة في خزانـة مغلقـة داخـل عقلي.. ولم يتح لهـا أن تعـود إلي لأراهـا إلا الآن.. وبعـد أن سمعت ما سمعت من رفاقي.

أنا الآن أراها.. وكأنها حاضـرة معي.. وقـد خشـيت أن لا يصـبح الصـباح حـتى تعـزب عـني.. ولـذلك أيقظتكم في هـذا الـوقت.. واعذروني على ذلك.

قالوا: كيف تقـول هـذا؟.. إننـا نبحث عن ربنـا.. ولا يصـدق في البحث عن ربه من منعه النوم عنه.. فهيا عجل بحدثيك، فقد ملأتنـا أشواقا.

قال: قبل أن أحـدثكم عمـا عرفتـه عن ربي.. أحـدثكم أولا عن نفسي.. فلذلك علاقـة كبـيرة بمـا عرفتـه عن ربي.. وقـد قـال لي بعض من التقيت به في رحلة البحث عن الله (من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه)

لقد كنت في بداية حياتي.. بل في فترة طويلة منها ملكا..

تعجبت الحاضـرون، فقـال: لا تتعجبـوا.. هـذه هي الحقيقـة.. ولعلكم قد لاحظتموها في سلوكي معكم..

قال رجل منا: من أنت منهم؟.. وعلى أي بلاد كنت ملكا؟.. فأنا أعرف ملوك العالم واحدا واحدا.

قال: لقد كان يطلق علي (بيدرو الثاني)[1]..

صاح الرجل: لقد عرفتك.. لطالما كنت أشبهك في نفسي بـه.. لكني كنت أنفي ذلك محيلا أن تكون أنت هو ذلك الملك الذي حكم

1) بيدرو الثاني (1825-1891م). تُوِّج ملكًا للبرازيل عـام 1841م. وبـالرغم من أنـه كان ابن 15عامًا، إلا أنه أحكم السيطرة على مقاليد الحكم، وحـاز تقـديرًا واسـعًا لفـرط إنسانيته واعتداله.. واستطاعت البرازيل في سني حكمه أن تعاون الأرجنتين في التخلص من طاغيتها خوان مانويل دي روزاس. وفي عام 1867م قـام بيـدرو بفتح نهـر الأمـازون للتجارة الدولية.

وقامت حكومة بيدرو مابين 1871 و1888م باستصدار قوانين لتحريم تجـارة الرقيـق. وبذلك فقد الإمبراطور التأييد الذي كان يلقاه من كبار الملاك. ومـا لبث أن عزلـه الجيش من السلطة عام 1889م وأقام جمهورية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

البرازيل بالرغم من أنك لم تتجاوز حينها خمسة عشر سنة.

قـال: صـدقت.. لقـد بـدا لأبي (بيـدرو الأول)(1) أن يتخلى عن السلطة.. وقد سلمها لي وأنا لم أتجاوز تلك السن.

قال الرجل: ولكنك لم تلبث أن تركت الملك، أو تركك الملك.

قال: صدقت.. وإلا لما كنت الآن بينكم.. ولكن ذلـك لم يحصـل إلا بعد أكثر من ثلاثين سنة استطعت خلالها أن أقدم لشعبي الكثير من الخـدمات.. نعم يراهـا البعض غـير صـالحة.. ولكن هـذا هـو الحكم.. فكل من لا يعجبه شيء لا يجد أمامه إلا الحاكم لينتقده.

قلنـا: دعنـا من الحـديث عن نفسـك.. وحـدثنا عن المعـارف المرتبطة بربنا.

قال بيدرو: المعارف المرتبطة بربنا مرتبطة بما كنت أتولاه من الملـك.. وقـد فتحهـا اللـه علي في بعض تلـك السـنين الـتي كنت أتولى فيها عرش البرازيل.

في بعض تلك السنين سمعت أن رجلا حكيما دخـل بلـدنا، وقـد كان هو الآخر ملكا، وكـان - على مـا علمت - ملكـا صـالحا.. ولكن قومه بغـوا عليـه.. فلم يلبث معهم إلا قليلا حـتى دبـروا لـه مكيـدة لقتله.. لكنه فر منهم، وأوى إلى بلادي.. وقد حملـني الـذكر الطيب الــذي سـمعته عنــه إلى اسـتدعائه إلى مجلسـي، ثم جعلــه من خواصي.. وقد استفدت ما أريد أن أبثه لكم من المعارف منه.

قال رجل منا: فما كان اسمه؟.. وما كان مصيره؟

قال: أما اسمه، فهو - على حسب ما ذكر لي - (يحـيى)، وبمـا أن والده كان اسمه (يحيى بن الحسين)، فقد كان الناس يطلقـون عليه (يحـيى بن الحسـين)(2) ، ويطلقـون عليـه لقب (الهـادي إلى الحقّ المبين).. وكانوا لا ينادونه إلا به.

1) بيدرو الأول (1798-1834م). وهو أيضًا بيـدرو الرابـع للبرتغـال، ابن الملـك جـون السادس ملك البرتغال. ولد بلشبونة. ولكنه هرب إلى البرازيل عام 1807م، مـع العائلـة المالكـة خوفـا من هجـوم القـوات الفرنسـية. وأعلن وصـيًّا على عـرش البرازيـل عـام 1821م. وفي العام التالي أعلنت البرازيل استقلالها وصار بيدرو إمبراطورًا لهـا في ظـل دستورها الجديد. لكنه لم يقدر على مواصلة الحكم وفق الضوابط الدستورية، فتنحى عن الحكم وسلم السلطة لابنه بيدرو الثاني. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

أما مصيره، فقد كان مؤسفا غاية الأسف.. لقد أرسل إليه قومه الذين بغوا عليه من دس له السم، فمات مسموما في بلاطي وعلى مرأى عيني.. وقد حرموني بذلك كما حرموا رعيتي من حكمته وصفاء عقله ودماثة أخلاقه.. وأضافوا فوق ذلك تهمة لي لا تزال تدنس فترة حكمي.. وقد استغلها خصومي بعد ذلك للإطاحة بي.

دعونا من هذا.. فوقتنا لا يكفي للخوض في مثل هذه الشؤون.. ولهذا فلن أحدثكم اليوم عن الحكم الكثيرة التي استفدتها منه.. والتي ترتبط بنظام الملك وغير ذلك.. ولكني سأحدثكم عما يرتبط بموضوعنا..

في مجلس من المجالس التي اجتمعت به فيها، قلت له مازحا: مرحبا أيها الملك..

ابتسم، وقال: لو كنت ملكا لما فررت إلى بلادكم.. ولما استطاع قومي أن يغروا بي سفهاءهم.

قلت: إذا كان الأمر كذلك.. فكلنا لسنا ملوكا، بل ليس هناك ملك في الدنيا.. فكلنا معرض لما تعرضت له.. وكلنا لم يذق من صفاوة الملك ما ذاق من كدره.

شجعه هذا الحديث على أن يحدثني عن ربه، فقال: أجل..

---

2) أشير به إلى الإِمام الهادي إلى الحقّ المبين، أبي الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد بالمدينة المطهرة سنة 245هـ ، وحمل إلى جده القاسم فوضعه في حجره المبارك وعوّذه، وقال لابنه: بم سمّيته؟ قال: يحيى، وقد كان للحسين أخ يسمى يحيى توفي قبل ذلك، فبكى القاسم حين ذكره وقال: هو واللّه، يحيى صاحب اليمن. ـ إلى أن قال: ـ أقام اللّه به الدين في أرض اليمن وأحيا به رسوم الفرائض والسنن، فجدد أحكام خاتم النبيين، وآثار سيد الوصيين.

قيامه سنة 280هـ، وله مع القرامطة الخارجين عن الإِسلام نيف وسبعون وقعة كانت له اليد فيها كلها، ومع بني الحارث نيف وسبعون وقعة ـ إلى أن قال: ـ وخطب له بمكة المشرفة سبعة سنين كما ذكر ذلك في عمدة الطالب وغيره، وقبضه اللّه إليه شهيداً بالسم وهو في ثلاث وخمسين سنة ليلة الاَحد لعشر بقين من ذي الحجّة سنة 298هـ، ودفن يوم الاِثنين في قبره الشريف المقابل لمحراب جامعه الذي أسّسه بصعدة.

وهو مؤسس ما عرف بالدولة الهادوية التي حكمت خلال الفترة (284 – 1006 هـ)، وهو جد سلالة الرسيين التي حكموا اليمن في فترات متقطعة حتى عام 1962.(مجد الدين المؤَيدي: شرح الزلف: 62 ـ 70 بتلخيص).

صدقت أيها الملك المبجل.. فلو أنا طرحنا من عقولنا الحجب التي تحول بينها وبين التفكير السليم لعلمنا أن الملك الحقيقي هو الله.. أما من عداه، فهم مجرد نـواب ووكلاء مسـتعارين لمـدد محـدودة، ومحال محدودة.. أما الله، فهو الملك الحقيقي(1) الذي بسط ملكه على كل شيء، وامتد ملكه لكل زمن، ولم يعزب عن ملكه شـيء في الأرض ولا في السماء.

كان يقول هذا بروحانية عذبة.. ثم قـرأ بعـدها من القـرآن هـذه الآية:﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْـكِ تُـؤْتِي الْمُلْـكَ مَنْ تَشَـاءُ وَتَنْـزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَـدِكَ الْخَيْـرُ إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)﴾ (آل عمران)

ثم قـال لي بعـدها: انظـر هـذه التعـابير الـواردة في كتابنـا المقدس.. إن الله يخاطبنا من خلالها ليقول لنا: إن الملك الحقيقي له.. وله وحده.. وليس من عداه سوى مبتلون ببعض المسـؤوليات ليمـيز الخـبيث منهم من الطيب، والصـادق منهم من الكـاذب، والإنسان منهم من الشيطان.

ثم التفت إلي، وقال: إن ربنـا يعلمنـا أسـرار الملـك الحقيقي.. فالملـك الحقيقي هـو الـذي لـه السـلطة المطلقـة على الأكـوان جميعا.. وفي جميع الأوقات.. وليس على ثلة محدودة من النـاس.. في بقعة محدودة من الأرض.. في حيز محدود من الزمان.

لقد أشار القرآن إلى هذا في الآيات التالية لهذه الآية.. فقد ورد

---

1) جاء اسم (الملك) في القرآن على وجوه متعددة، هي:

المالك: قال الله تعالى: مالك يَوْمِ الدين

الملك: قال تعالى: فتعالى الله الملك الحق (طه: 114)، وقال: هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس (الحشر: 23)، وقال: مَلِكِ الناس

وقد ورد لفظ (الملك) في القرآن أكثر من ورود لفـظ (المالـك)، وقـد علـل ذلـك بـأن الملك أعلى شأناً من المالك.

مالك الملك: ، قال تعالى: قُلِ اللهم مالك الملك (آل عمران: 26)

المليك: قال تعالى: عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (القمر: 55)

لفظ الملك: قـال تعـالى: الملـك يَوْمَئِذٍ الحـق للـرحمن (الفرقـان: 26)، وقـال تعالى: لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض (البقرة: 107)

فيها: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) (آل عمران)

ففي هذه الآية والتي قبلها يخبرنا ربنا بأنه يعز من يشاء، ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه، وبلا مجير عليه، وبلا راد لقضائه، فهو صاحب الأمر كله بما أنه - سبحانه - هو الله.. وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله.

ويخبرنا أنه صاحب هذه الحركات الخفية المتداخلة.. حركة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل; وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.. الحركة التي تدل على يد الله بلا شبهة ولا جدال، متى ألقى القلب إليها انتباهه، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق.

وتخبرنا الآية الكريمة أن الله هو الرزاق الذي يتولى جميع الخلائق برزقه، ويمن عليه بفضله وتدبيره.

وفي موضع آخر يخبرنا القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك من ملوك الأرض أغراه ملكه، فتوهم لنفسه الألوهية، فحاجة إبراهيم عليه السلام بالقدرة التي يعجز عن مثلها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾ (البقرة)

انظر كيف حاج إبراهيم عليه السلام هذا الملك.. وهي حجة ينهار لها كل ملك من ملوك الأرض..

فليس هناك من الملوك من له القدرة على صرف الأذى عن نفسه، أو جلب ما يريد لها من نفع.. ولذلك توجهنا نصوصنا المقدسة إلى الاعتماد على الله باعتباره الملك الحقيقي..

ففي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يخاطب غلاما صغيرا.. يبين له من خلاله تجليات الملك الإلهي، والتي تجعله الحصن

الوحيد الذي يلجأ إليه المحتاجون.. لقد قال له:(يا غلام إني أعلمك كلمات: إحفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعَنْ باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(1)، وفي رواية:(احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إِلَى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

***

بعد أن حدثني عن هذه المعاني وغيرها تحركت في همة لست أدري سببها للتعرف على ربي.. ربي الذي يدل عليه كل شيء.. فقلت له: إن لحديثك متعة لا تدانيها متعة.

قال: ذلك – يا جناب الملك المكرم – لكونه حديثا عن الله.. فالله قد أودع في جميع الفطر محبته، ومحبة الحديث عنه.

قلت: فما بالنا نغفل عنه.. بل نكاد نلغيه من الوجود.

قال: هي نفوسنا التي تطالبنا أن نكون آلهة.. ولو أنا تخلصنا من حجب نفوسنا لما كان هناك شيء أحب إلينا من الحديث عنه أو الحديث إليه..

لقد قال الصالحون يذكرون ذلك، ويوازنون بينه وبين اللذات التي تعب في تحصيلها الملوك: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)

قلت: فحدثني عن ربي.. حدثني عن هذا الملك العظيم الذي لم نؤت الملك إلا منه وبه.

قال: اذكر لي – يا جناب الملك المكرم – ما يحتاجه الملك من صفات وقدرات.. وسأذكر لك علاقتها بالله.. فقد جعل الله لنا بفضله وكرمه النماذج المعرفة به من خلال هذه المملكة البسيطة

1) روا ه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

التي نعيش فيها.

1 ـ الكبير المتعال

قلت: من صفات الملك أن يكون له من الكبرياء والعظمة ما يملأ العيون، وتخضع له القلوب، ولا يطمع في الوصول إليه طامع..

قال: وكل هذا لا يمكن أن يتصف ملك من الملوك إلا ملك الملوك.. وقد وفى للدلالة على ما ذكرته اسمان من أسماء الله الحسنى، هما (الكبير)، و(المتعال).. وقد وردا مقترنين في قوله تعالى:﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)﴾ (الرعد)

الكبير:

قلت: فحدثني عن اسمه (الكبير)

قال: لقد ذكر هذا الاسم، في القرآن.. فقد ورد مقترنا بالمتعال، كما ورد مقترنا بالعلي، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)﴾ (غافر)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: لا يكون الكبير كبيرا إلا إذا اكتمل وجوده، فلم يكن به أي نقص أو قصور..

قلت: فمن هو كامل الوجود؟

قال: لا يكمل الوجود إلا بشيئين: أن يكون دائما لا انقطاع له.. وأن يكون ذاتيا لا تبعية له.

فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص.. ولذلك يقال للإنسان إذا طالت مدة وجوده إنه كبير، أي كبير السن،

طويل مدة البقاء.

وهذان المعنيان للكبير لا يصدقان إلا على الله.. فالله هو الكبير الحقيقي، فهو دائم الوجود أزلا وأبـدا.. ووجـوده هـو الوجـود الـذي يصدر عنه وجود كل موجود.. فإن كان الذي تم وجـوده في نفسـه كاملا وكبيرا، فالذي حصل منه الوجود لجميـع الموجـودات أولى أن يكون كاملا وكبيرا.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتدبير المملكة الإلهية؟

قال: المملكة الحقيقية لا يـديرها إلا الكبـير الحقيقي.. ذلـك أن كمـال العـدل وكمـال الرحمـة لا تتمـان إلا من خلال ملـك لا تفنيـه الأيام، ولا يستبد به الضعف، ولا يتسلل إلى طاقاته القصور.

المتعال:

قلت: صدقت في هذا.. فحدثني عن اسمه (المتعال)

قال:لقد ذكر الله تعالى هذا الاسـم في القـرآن كمـا ذكـره في كتبه المقدسة السابقة عليه، ففي القرآن، قال تعالى:﴿ اللـهُ الـذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)﴾ (الروم)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: المتعال هو الذي لا رتبة فوق رتبتـه.. بـل جميـع المـراتب منحطة عنه..

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن المتعال مشتق من العلو.. والعلو هو المقابل للسفل.. وهو إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميـع الأجسـام الموضـوعة بعضـها فـوق بعض.. وإمـا في الـرتب المعقولـة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي.

فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني.. وكل مـا لـه الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة.

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إن العلو يطلق على التدريجات العقلية كما يطلق على التدريجات الحسية..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إذا قدرت شيئا سببا لشيء ثان، والثاني سبب لثالث، والثالث لرابع إلى درجات كثيرة.. فالواقع في الرتبة الأخيرة – مثلا - هو الأسفل الأدنى، والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان.

وهكذا في التفاوت الذي بين العلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص..

قلت: وعيت هذا.. فما تريد به؟

قال: إن الله تعالى منزه عن أن يحده المكان، فلذلك لا يراد بعلوه ما نفهمه من علو الكائنات علوا حسيا بعضها فوق بعض.. بل المراد به ما هو أشرف من ذلك وأعظم، وهو أن الموجودات لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق سبحانه وتعالى في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتى لا يتصور أن يكون فوقه درجة، وذلك هو العلي المطلق، وكل ما سواه فيكون عليا بالإضافة إلى ما دونه، ويكون دنيا أو سافلا بالإضافة إلى ما فوقه.

قلت: فهلا وضحت لي هذا بمثال يقربه لي.

قال: من الأمثلة على ذلك أن العقل يقتضي انقسام الموجودات إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسبب، والسبب – كما تعلم - فوق المسبب فوقية بالرتبة.. ومن هذا الباب، فإن الفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب.

والموجودات تنقسم كذلك إلى ميت وحي.. والحي ينقسم إلى ما ليس له إلا الإدراك الحسي، وهو البهيمة، وإلى ما له مع الإدراك الحسي الإدراك العقلي.. والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلى ما

يعارضه في معلوماتـه الشـهوة والغضـب، وهـو الإنسـان، وإلى مـا يسلم إدراكه عن معارضة المكدرات.. والذي يسلم ينقسم إلى مـا يمكن أن يبتلى به، ولكن رزق السلامة كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله تعالى..

وهكذا ففي أي تقسيم من تقسيمات العقـول نجـد للـه تعـالى المرتبة التي ليس فوقها مرتبة.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتنظيم المملكة الربانية؟

قال: لا تستقيم المملكة إلا بملك قد حاز من الرتب أعلاها.. فلا ينافسه في كماله منافس، ولا يتطلع إلى جلاله متطلع.

2 ـ العزيز الحكيم

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون عزيزا حكيما؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهمـا.. فالملك الحقيقي لابد له من العزة بجميع معانيها، كما لا بـد لـه من الحكمة بجميع مراتبها.

قال: فقد ذكرت الكتب المقدسة أن اللـه هـو العزيـز الحكيم.. بل قرنت بينهما في مواطن كثيرة.

العزيز:

قلت: فحدثني عن (العزيز)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القرآن كما ورد ذكره في الكتـاب المقدس..

أما القرآن، فقد ورد فيه قوله تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ المَلِـكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُـؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيـزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)﴾ (الحشر)

وقال:﴿ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ (5)

هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (6)﴾ (آل عمران)

وقال:﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (18)﴾ (آل عمران)

وقال:﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (96)﴾ (الأنعام)

وقال:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)﴾ (فاطر)

وقال:﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ (181) وَالحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ (182)﴾ الصافات)

قلت: ففسره لي.

قال: العزيز يطلق على معان كثيرة كلها كمال، سأقتصر منها على أربع.

قلت: فما أولها؟

قال[1]: هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه.. فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز.. فكم من شيء يقل وجوده، ولكن إذا لم يعظم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزا، وكم من شئ يعظم خطره، ويكثر نفعه، ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزا، كالشمس مثلا فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما.

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان.. فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد إذ لا أقل من الواحد، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا الله تعالى، فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان، فيمكن

1) المقصد الأسنى للغزالي.

وجود مثلها في الكمال والنفاسة.

وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء حتى في وجـوده وبقائـه وصفاته وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل.

والكمـال في صـعوبة المنـال أن يسـتحيل الوصـول إليـه على معنى الإحاطة بكنهه، وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجـل، فلا يعرف الله إلا الله، فهو العزيز المطلق الحق لا يوازيه غيره.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثاني؟

قال: المعـنى الثـاني للعزيـز هـو الغـالب الـذي لا يُغلب، ولهـذا تقول العرب في أمثلتها: من عز بز، أي مَنْ انتصر أخذ ما راق له.. وعلى هـذا قولـه تعـالى:﴿ وَعَـزَّنِي فِي الْخِطَـابِ (23)﴾ (ص) أي غلبني في الخطاب.. فالقاهر الذي انتصر مع أنـه قـد يغلب ويقهـر يسمى عزيزا، فكيـف بالقـاهر الـذي لا يمكن أن يغلب.. وذلـك هـو الله، فهو وحده العزيز الذي لا يغلب بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَـالِبٌ عَلَى أَمْـرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (21)﴾ (يوسف)، وقال:﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)﴾ (التوبة)

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثالث؟

قال: المعنى الثالث هو القوي الشديد.. ومنه قولـه تعـالى:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)﴾ (يس)، أي قويناهم وشددناهم بثالث.. فإذا كان القادر الـذي قد يضعف يسمى عند الناس عزيزا، فكيف بالقادر الـذي يسـتحيل أن يضعف.. وليس ذلك إلا الله تعالى.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الرابع؟

قـال: المعـنى الرابـع، هـو بمعـنى الُمِعـز، فنحن نقـول: الأليم، ونقصد المؤلم.. ولهذا، فلا عزيز إلا من أعزه الله:

الحكيم:

قلت: فحدثني عن (الحكيم)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القـرآن ، فقـد قـال تعـالى:﴿ وَمَـا أَرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِـلُّ اللـهُ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (4)﴾ (إبراهيم)

وقال:﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ (9)﴾ (النمل)

قلت: ففسره لي.

قال: الحكيم هو ذو الحكمة..

قلت: فما الحكمة؟

قال: للحكمة معنيان: معنى علمي، ومعنى عملي..

أما المعنى العلمي، فهو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلـوم.. وأجل الأشياء هو الله سبحانه وتعالى، ولا يعرف كنه الله غير اللـه، ولذلك فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجـل الأشـياء بأجـل العلـوم.. إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصـور زوالـه المطـابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء ولا شبهة، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى.

وأما المعنى العملي، فإنه يقال لمن يحسـن دقـائق الصـناعات ويحكمها ويتقن صـنعتها حكيم، وكمـال ذلـك - أيضـا - ليس إلا للـه تعالى فهو الحكيم الحق الذي دل على حكمته كل شيء.

والله بعد ذلك كله هو صاحب الحكمة، فهو يعطيهـا لمن يشـاء، وينزعها ممن يشاء، قال تعالى:﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـراً كَثِـيراً وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلا أُولُـو الأَلْبَـابِ (269)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَـرْيَمُ إِنَّ اللـهَ يُبَشِّـرُكِ بِكَلِمَـةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهـاً فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْـدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّـالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي وَلَـدٌ وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَـرٌ قَـالَ كَـذَلِكِ اللـهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُـهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالأِنْجِيلَ (48)﴾ (آل عمران)

3 ـ المولى النصير

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون مولى يفزع إليه، ونصيرا يستنجد به؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهما.. فالملك الحقيقي هو من فزعت إليه رعيته، واستنجد به المستضعفون منهم.

قال: وهذان الوصفان لا ينطبقان حقيقة إلا على الله.

المولى:

قلت: فحدثني عن اسمه (المولى)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَإِنْ تَوَلوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)﴾ الأنفال)، وقال:﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلى الصَّالِحِينَ (196)﴾ (الأعراف)

قلت: فحدثني عن معناه.

قال: المولى هو الذي كلما افتقرت إليه وجدته أقرب إليك منك.. فهو يرحمك، وينصرك، ويرزقك، ويعطيك ما سألته، وما لم تسأله.

وهو أعلم بك منك، فلذلك لا يعطيك إلا ما ينفعك، ولا يهديك إلا إلى ما يرفعك.

النصير:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، ففيه:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ (250)﴾ (البقرة)

قلت: فحدثني عن معناه.

قال: من كان له أعداء فإنه يحتاج إلى النصير..

قلت: وهل هناك من لا عدو له.. حتى الإنسان مع نفسه، فإن له عدوا بين جنبيه لا طاقة له بمقاومته.

قال: ولذلك كان الله هو النصير الوحيد الذي ينصرك من كل عدو، ويحفظك من كل بلاء، ويعينك على كل هم.

4 ـ المعطي المعين

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يعطي من احتاج، وأن يعين من ضعف وعجز؟

قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.

قال: فالله هو المعطي المعين.. فلا شيء إلا من عطائه، ولا شيء إلا بإعانته.

المعطي:

قلت: فحدثني عن اسمه (المعطي)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، ففيه:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)﴾ (الإسراء)

قلت: ففسره لي.

قال: المعطي سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وتولى أمره ورزقه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن موسى ﷺوهو يصف عطاء ربه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه:50)، وقال عن عطاء الآخرة:﴿ وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاء رَبك عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:108)

وعطـاء اللـه قـد يكـون عامـا أو خاصـا، فالعطـاء العـام يكـون للخلائق أجمعين، والعطاء الخاص يكون للأنبياء والمرسلين وصـالح المؤمـنين، فمن العطـاء العـام مـا ورد في قولـه تعـالى:﴿ كُلاًّ نُمِـدُّ هَــؤُلاءِ وَهَــؤُلاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّكَ وَمَـا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُـوراً ﴾ (الإسراء:20)، والمراد بالعطاء هنا تمكين العبد من الفعـل ومنحـه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه أو قضاء الله وقدره.

ومن العطاء الخـاص اسـتجابة الـدعاء وتحقيـق مطلب الأنبيـاء والصالحين الأولياء، ومن ذلـك الـدعاء والعطـاء في قـول سـليمان ﷺ:﴿ رَبِّ اغفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلكا لا يَنبَغِي لأَحَـدٍ مِّنْ بَعْـدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّـيَاطِينَ كُل بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَـذَا عَطَاؤُنَـا فَـامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص:39)، وكذلك في دعـاء زكريـا ﷺ حيث قال:﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ (مريم:5)، فحقق الله - عز وجل - مطلبه وأعطاه ما تمناه فقال:﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْـمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ (مريم:7)، وقال عن عطائه للمؤمنين في الآخرة:﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ (النبأ:36)

المعين:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، ففيه:﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ المُسْـتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ (يوسف)

وقال:﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ وَرَبُّنَا الـرَّحْمَنُ المُسْـتَعَانُ عَلَى مَـا تَصِفُونَ (112)﴾ (الأنبياء)

قلت: ففسره لي.

قال(1): أليس كل عمل يعمله الإنسـان تتوقـف ثمرتـه ونجاحـه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤديــة إليه، وانتفاء الموانـع الـتي من شـأنها بمقتضـى الحكمـة أن تحـول

1) انظر: تفسير المنار.

دونه؟

قلت: أجل.. ما تقوله صحيح.

قال: فإن الله تعالى مكن الإنسان بما أعطاه من العلم والقـوة من دفع بعض الموانع وكسـب بعض الأسـباب، وحجب عنـه البعض الآخـر ليبقى لـه من الحاجـة مـا يـدعوه إلى التعـرف إلى مـولاه ليستعين به عليه.

قلت: سمعتك تردد كثيرا في صلاتك هـذه العبـارة:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ (5)﴾ (الفاتحـة).. فمـا تريـد بهـا؟ ولم جمعت بين العبادة والاستعانة؟

قال: هذه كلمات من كلمات الله علمنا اللـه فيهـا كيـف نناجيـه ونـدعوه.. وهي تعلمنـا أن نلجـأ إلى اللـه في كـل حالـة حـتى في عبادتنا له.. فلا يعبد الله من لم يعنه الله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد دل العقل والنقل على أنه لا حول عن معصية اللـه إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

قلت: فاذكر لي دليل العقل.

قـال(1): لقـد دل العقـل على هـذا من وجـوه: منهـا أن القـادر متمكن من الفعل والترك على السوية، فما لم يحصل المـرجح لم يحصـل الرجحـان، وذلـك المـرجح ليس من العبـد، وإلا لعـاد في الطلب، فهو من الله تعالى، فثبت أن العبـد لا يمكنـه الإقـدام على الفعل إلا بإعانة الله.

ومنها أن جميع الخلائق يطلبون الدين الحـق والاعتقـاد الصـدق مـع اسـتوائهم في القـدرة والعقـل والجـد والطلب، ففـوز البعض بدرك الحق لا يكون إلا بإعانة معين، وما ذاك المعين إلا الله تعالى، لأن ذلك المعين لو كان بشراً أو ملكاً لعاد الطلب فيه.

ومنها أن الإنسان قد يطالب بشيء مدة مديدة ولا يأتي بـه، ثم

1) انظر: التفسير الكبير.

في أثناء حال أو وقت يأتي به ويقدم عليه، ولا يتفق له تلك الحالــة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تدعوه إلى ذلك الفعـل، فإلقـاء تلك الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

قلت: فاذكر لي دليل النقل.

قال: لقد قال تعالى على لسان موسـى ﷺ مخاطبـا لقومـه:﴿ استعينوا بِاللـه واصـبروا إِنَّ الارض لِلَّهِ يُورِثُهَـا مَن يَشَـاء مِنْ عِبَـادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: 128)

وقد ورد في بعض الآثار الإلهية قولـه تعـالى: (وعـزتي وجلالي، لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثـوب المذلـة عنـد الناس، ولأخيبنه من قربي، ولأبعدنه من وصـلي، ولأجعلنـه متفكـراً حيران يؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيــوم، ويرجو غيري ويطرق بالفكر أبـواب غـيري وبيـدي مفـاتيح الأبـواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني)

5 ـ الرزاق الطبيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يرزق رعيته ويغـنيهم عن كـل فاقة، ويزيد على ذلك، فيوفر لكل من مرض منهم مـا يحتاجـه من دواء؟

قلت: أجـل.. لا يكمـل الملـك إلا بـذلك.. ومـا ذكرتـه هـو من الخدمات الأساسية التي لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو الرزاق الطـبيب.. فلا رزق إلا منـه، ولا شـفاء إلا به.

الرزاق:

قلت: فحدثني عن اسمه (الرزاق)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، فقد قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ

مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (60)﴾ (العنكبوت)

وقال:﴿ قُل مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُل أَفَلا تَتَّقُونَ (31)﴾ (يونس)

قلت: ففسره لي.

قال[1]: لو تأملنا الحقيقة والواقع، فإنا سنرى أنه لا رزق إلا من الله، وكل رزق من سواه فهو مجاز لا حقيقة له:

فالله تعالى إذا رزق يرزق مما هو ملكه.. أما الآخرون، فهم ليسوا سوى وسائط للرزق الإلهي.. ولا يحق اسم الرزاق إلا ممن يرزق مما هو ملكه.

والله تعالى يرزق جيمع أنواع الرزق المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، والظاهرية والباطنية، والعلنية والخفية، أما غيره، فهو إن إنما يعطي غيره عطاء محدودا من جميع النواحي.

والله تعالى يأخذ بعين الاعتبار حاجة العباد عند تقدير أرزاقهم، ويرزقهم بما يناسب أحوالهم، لأنه عليم بأسرار المرتزقين الظاهرة والباطنة، أما غيره، فعلمه يحول بينه وبين ذلك.

والله تعالى هو الرزاق الذي لا تنفد خزائنه أبدا، لأن خزائن كل الأشياء بيده، كما قال تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾ (الحجر)، في حين يتصف الآخرون بالمحدودية التامة من هذه الجهة، كما يتصفون بالمحدودية في غيرها.

والله تعالى هو الرازق الذي يتناول من مائدته الصديق والعدو، فجميعهم يتزودون من نعمته بمقتضى كونه الرحمن الرحيم.. لكن غيره لا يفكرون سوى بأصدقائهم وأقاربهم.

---

1)انظر: نفحات القرآن للشيرازي، عند تفسير قوله تعالى:.. وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) (المائدة)

والله تعالى لا ينتظر لقاء عطائه وإنعامه جزاء ولا شكورا، لانه غني من كل ناحية، لكن غيره ينتظرون ألف لون من قبيل ذلك.

والله تعالى واسع الرزق شامله يبدأ منذلحظة انعقاد النطفة في عالم الرحم، ويستمر طيلة مرحلة وجود الجنين في بطن أمه، وبعد الولادة من خلال حليبها وحنانها، وحتى لحظات الموت الأخيرة.. وليس ذلك إلا لله.. ولذلك قال تعالى عند ذكر دعاء المسيح ﵇ بنزول المائدة:﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)﴾ (المائدة)

الطبيب:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الطبيب)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، فقد قال تعالى:﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)﴾ (التوبة)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: الله تعالى هو الشافي الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد يبرأ الداء مع انعدام الدواء، وقد يشفي الداء بلزوم الدواء، ويرتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما باعتبار قدرة الله سواء، فهو الشافي الذي خلق أسباب الشفاء، ورتب النتائج على أسبابها، والمعلولات على عللها، فيشفي بها وبغيرها، لأن حصول الشفاء عنده يحكمه قضاؤه وقدره، فالأسباب سواء ترابط فيها المعلول بعلته، أو انفصل عنها، هي من خلق الله وتقديره، ومشيئته وتدبيره، والأخذ بها لازم علينا من قبل الحكيم سبحانه، لإظهار الحكمة في الشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام.

6 ـ المؤمن الرقيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن أن يأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم فلا يظلمون عنده.. وإذا ظلموا سرعان ما يقتص من ظالميهم.. وأنه يطلع على جميع شؤون المملكة، فيعرف جميع شؤونها وأحوالها، فيميز العادل من الظالم، والطيب من الخبيث؟

قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.. وما ذكرته هو من الخدمات الأساسية التي لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو المؤمن الرقيب.. فلا أمان إلا منه، وهو الرقيب الذي أحاط علما بكل شيء، فلا يعزب عنه شيء دق أو جل.

المؤمن:

قلت: فحدثني عن المؤمن.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)﴾ (الحشر)

قلت: فحدثني عنه.

قال: المؤمن هو الذي يوفر لك من الأمن والأمان ما يجعلك بمأمن من كل عدو ظاهر أو خفي.. وليس ذلك إلا ربك.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال ذاكرا نعمته على قريش:﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾(قريش)، وقال ضاربا المثل بقرية من القرى الظالمة:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)﴾ (النحل)

قلت: ولكنا نشعر بأنواع من المخافة؟

قال: إنما سلط الله علينا بعض المخاوف لنبحث عنه، فلا يمكن أن يؤمننا من المخاوف غيره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُـونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ (البقرة)

قلت: فإذا لجأ إلى الله؟

قال: من لجأ إلى الله، فسيشعر بالأمن الحقيقي.. الأمن الــذي لا تستطيع أي جهة في الدنيا أن توفره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَالَّذِينَ هَــادُوا وَالنَّصَــارَى وَالصَّــابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ وَقَـالُوا لَنْ يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَلَـهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)﴾ (البقرة)،

قلت: ولكن هـؤلاء الـذين ذكـرتهم يشـعرون بنفس المخـاوف التي يشعر بها غيرهم؟

قال: شتان بينهما، فـالمؤمن إذا خـاف يكـون خوفـه محـدودا.. وهو يخاف، ويعلم أن الله سينصره لا محالة.. ولذلك لا تراه يخـاف إلا الله.. لقد ذكر الله ذلـك، فقـال مخـبرا عن مقالـة السـحرة في تحديهم لفرعون:﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَـا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُـوتُ فِيهَـا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)﴾ (طه)

الرقيب:

قلت: فحدثني عن الرقيب.

قال: لقد ورد ذكره في القـرآن الكـريم، قـال تعـالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الذِي تَسَاءَلُونَ بِـهِ وَالأَرْحَـامَ

إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1)﴾ (النساء)

قلت: ففسره لي.

قـال: إن اللـه العليم السـميع البصـير لا يغيب عنـه شـيء في الأرض ولا في السماء.. بل لا يغيب عنـه السـر وأخفى.. ومن كـان كذلك فهو أولى باسم الرقيب من كل رقيب:

لقد ذكر الله تعالى ذلك، ونبه عباده إليه، فقال:﴿ مَـا يَكُـونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة،7)، وقـال:﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيـدٌ (17) مَـا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ (18)﴾ (ق)، وقـال:﴿ وَأَسِـرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) ﴾ (الملك)، وقال:﴿ وَمَا تَكُـونُ فِي شَـأْنٍ وَمَـا تَتْلُـو مِنْـهُ مِنْ قُـرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُـونَ مِنْ عَمَـلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُـهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَـا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّـمَاءِ وَلَا أَصْـغَرَ مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْبَـرَ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ (61)﴾ (يونس)، وقال:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَـا إِلَّا هُـوَ وَيَعْلَمُ مَـا فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَـا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَـابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ (59) وَهُـوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَـرَحْتُمْ بِالنَّهَـارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيـهِ لِيُقْضَـى أَجَـلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)﴾ (الأنعام)، وقال مخبراً عن موعظة لقمان ﷺ لابنه:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)﴾ (لقمان)

قلت: لاشك أن من يعلم هذا سيحجز عن شر كثير.

قال: أجل.. ولهذا، فإن شعور المؤمن برقابة ربه لا يحوجه إلى أي شرطي أو قوانين تحد من حريته الجامحة.

7 ـ الحكم العدل

قلت: ما أعظم تأثير هذا في الإصلاح الاجتماعي.. فحــدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكـون حكمـا بين رعيتـه إليـه ترجع في أحكامها وقوانينها وفصل خصوماتها.. ويكون له في نفس الـوقت من العـدل مـا يحمي بـه أحكامـه من طغيـان الجـائرين، وتعسف الظالمين.

قلت: ذلك صحيح.. ولا يستقيم الملك العادل إلا بما ذكرت.

قال: ولذلك، فإن من أسماء الله الحسنى (الحكم العدل)

الحكم:

قلت: فحدثني عن الحكم.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعـالى:﴿ وَإِنْ كَـانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالذِي أُرْسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْـبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ (87)﴾ (الأعراف)

قلت: ففسره لي.

قـــال[1]: أنت تعلم – حضـــرة الملـــك- أنّ تنظيم شـــؤون المجتمعـــات البشـــرية بحاجـــة إلى ثلاث ســـلطات (الســـلطة التشـريعية).. وهي السـلطة الـتي تتكفّـل بسـنّ القـوانين الكفيلـة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من إضاعة الحقـوق، و(السـلطة التنفيذية) التي تنفّذ ما صادقت عليـه السـلطة التشـريعية وتتولاّهـا عــادةً الحكومــات والــوزراء والــدوائر الحكوميــة.. و(الســلطة القضــائية)، وهي المســؤولة عن معاقبــة المتخلّفين عن القــانون والمجرمين والمعتدين.

قلت: أجــل.. فكـل الحكومـات تحتـوي على هـذه السـلطات الثلاث، وهي تختلف فيما اختلافا شديدا.

قال: في رؤيتنا التوحيدية التي علمنا إياها كتابنا المقـدس نـرى

1) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

أن هذه السلطات الثلاثة لا تستمد إلا من الله(2)، فالله هو الذي شرّع القوانين، وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة، وعليه فانّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعيتها عن طريق الإذن الإلهي طبق الشرائط والأوامر.

لقد ذكر القرآن هذا في مواضع كثيرة.. فالله تعالى يقول:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾ (المائدة)، ويقول:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)﴾ (النساء)، ويقول:﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)﴾ (الأنعام).. وغيرها من الآيات الكثيرة.. وكلها تدل على أن الله – بحكم كونه ملكا على عباده – هو الحاكم عليهم، فلا يحق لعبد أن

2) تحدثنا بتفصيل عن هذا في (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

يتصرف في مملكة ربه مخالفا لأحكامه.

ليست النصوص المقدسة وحدها من دل على هذا.. حتى العقل السليم يدل عليه..

فلا شكّ أنّ كلّ عارف بالله مقرّ بتوحيده يذعن بنفاذ أمر الله في عالم الوجود، وعندما يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فإنّه سوف لا يتردّد في ولايته وحكومته التشريعية، لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير فغيره لا يكون أهلا للتشريع، ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فإنّه هو الذي يجب أن يحكم على العباد ويقضي في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّوجلّ وتدبيره بدون إذنه.

بالإضافة إلى هذا، فإن القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويلبّي حاجاته الماديّة والمعنوية، ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة أو طويلة، ويكون ذا ضمان تنفيذي كاف وذا تقبّل وإنشداد في المجتمع الإنساني.. ولا يمكن أن يصدر هذا القانون إلا من خالق الإنسان العالم بحاجاته.

فالمشرِّعُ الحقيقي ينبغي أن يكون عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة، وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقّة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي، ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين.

وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فهو ناشئ من فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية، ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلّف الكتب الكثيرة من قبل المفكّرين تؤكد أن الإنسان مجهول لا يمكن معرفته معرفة شاملة حقيقية.. فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

إضافة إلى هذا، فإن الإنسان محتاج إلى غيره، ولـذلك نجـد أنّ كلّ مجموعة تسنّ القوانين في إحـدى المجتمعـات البشـرية تأخـذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

إضافة إلى أن الإنسان غير مصون عن الخطـأ والاشـتباه، ولـذا تكـون القـوانين البشـرية عرضـة للتغيّـر المسـتمرّ، وذلـك لظهـور عيوبهـا ونقائصـها وأخطائهـا بمـرور الـزمن.. نعم قـد يبـادر إلى إصـلاحها، ولكن عيوبـا أخـرى تظهـر.. وهكـذا، ولهـذا أصـبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القـوانين بشـكل دائم، اختباراً لا طائل فيه، ولا نهاية له.

العدل:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (العدل)

قال: لقد ورد ذكره في القـرآن الكـريم، قـال تعـالى:﴿ وَوُضِـعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)﴾ (الكهف)

قلت: ففسره لي(1).

قال: إنك لو تأملت – حضرة الملك- في أفعال الله، فسـتجدها كلها جارية على سـنن العـدل والاسـتقامة، ليس فيهـا شـائبة جـور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة، وبين العـدل والحكمـة.. ومـا ينزلـه سـبحانه بالعصـاة والمكـذبين من أنـواع الهلاك والخـزي في الدنيا، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب، ولا يعذب إلا بعد إقامة الحجـة، فهو سبحانه لا يأمرهم إلا بمـا فيـه مصـلحة خالصـة أو راجحـة، ولا ينهاهم إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

وهكذا هو سبحانه في حكمه بين عباده يوم فصل القضاء، كمـا قال تعالى:﴿ وَنَضَعُ الْمَـوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِـبِينَ (47)

---

1) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذا الاسم في فصل (العدل) من هذه الرسالة.

﴾ (الأنبياء)

وهكذا هو سبحانه وتعالى في تسييره لشؤون الكون جميعا.. قال تعالى حاكيا قول هود عليه السلام لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:56)

8 ـ الصبور الستير

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس الملك هو الذي يكون له من سعة الصدر ما يجعله لا يضيق كل حين على رعيته.. ويكون له مع ذلك الصبر من حسن الستر ما يتجاوز به عن بعض خطاياهم؟

قلت: أجل.. فلا يكون الملك ملكا إلا بهذا..

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الصبور الستير.

الصبور:

قلت: فحدثني عن الصبور.

قال: لقد ورد ذكره في نصوصنا المقدسة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)﴾ (يونس)

قلت: ففسره لي.

قال[1]: الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم، ويجريها على سنن محدود، فلا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل، ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يودع كل شيء في أوانه، على الوجه الذي يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

1) انظر: المقصد الأسنى، للغزالي.

بخلاف صبر العبد، فإنه لا يخلو عن مقاساة، لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب، فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا، وإذ جعل باعث العجلة مقهورا.

أما باعث العجلة في حق الله تعالى فهو معدوم، ولذلك فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود، ولكنه مقهور.

الستير:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الستير)

قال: لقد ورد هذا الاسم في نصوصنا المقدسة، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ)(1)

قلت: فحدثني عنه.

قال: الستير سبحانه وتعالى هو الذي يستر عباده فلا يفضحهم، ويحب الستر، ويبغض القبائح، ويأمر بستر العورات، ويبغض الفضائح، ويستر العيوب على عباده وإن كانوا بها مجاهرين، ويغفر الذنوب مهما عظمت، وإذا ستر الله عبدا في الدنيا ستره يوم القيامة.

ولهذا لا يلجأ من طلب الستر إلا إليه، وفي الحديث أنه ﷺ لم يكن يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)(2)

9 ـ القابض الباسط

1) رواه أبو داود.

2)رواه أبو داود.

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس الملك هو الذي بيده مقاليد جميع الأمور، فهو يقبض منها ما شاء، ويبسط منها ما شاء، لا معقب له في ذلك، ولا راد؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهـذا.. بـل إن الملـوك تتنافس في الحصول على أكـبر الصـلاحيات الـتي تمكنهـا من كـل هذا.

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهـو وحده القابض الباسط.

القابض:

قلت: فحدثني عن القابض.

قال: لقد ورد ذكـره في القـرآن الكـريم، قـال تعـالى:﴿ مَنْ ذَا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللـهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)﴾ (البقرة)

قلت: ففسره لي.

قال: القابِضُ سبحانه هو الذي يمسك الرزق وغـيره عن العِبـادِ بلطفه وحِكمته، ويَقبِضُ الأرْواحَ عند المَمات بأمره وقدرته، ويُضَـيِّقُ الأسباب على قوم كما يُوَسِّعها على آخرين ابتلاء وامتحانا.

ولذلك لا يلجأ إلا إليه، ولا يستعاذ إلا به، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (اللهمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْـتَ، وَلاَ هَادِي لِمَا أَضْلَلتَ وَلاَ مُضل لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِي لِمَـا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَـرَّبْتَ، وأعـوذ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ منا)(1)

وكان يقول: (اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْـرَاتِ، وَتَـرْكَ الْمُنْكَـرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْـرَ مَفْتُـونٍ)

1)رواه أحمد.

(1)

الباسط:

قلت: فحدثني عن الباسط.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ (26)﴾ (الرعد)

وقال:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30)﴾ (الإسراء)

وقال:﴿ اللهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)﴾ (الروم)

قلت: ففسره لي.

قال: الباسط هو الذي يبسط لك من كل ألوان المواهب والكرم والفتح ما يغنيك به عن سؤال غيره.

وهو من يعطيك من ألوان العطايا الخالية عن الأعواض والأغراض(2)..

وهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء(3)..

وهو الذي ينفتح بعنايته كل منغلق، وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى

---

1)رواه الترمذي.

2) من شرح الغزالي لاسم الوهاب، وهما متقاربان.

3) من شرح الغزالي لاسم الكريم، وهما متقاربان.

ملكوت سمائه وجمال كبريائه[1]..

10 ـ الغفور الغيور

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس من صفات الملك أن يغار على حرماته أن تنتهك، وعلى مقدساته أن تداس.. ولكنه مع غيرته يسرع إلى المغفرة والعفو إن رأى فيمن انتهك الحرمة ذلة، أو أنس منه ندما؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهذا.. بل لا يكون الملك عادلا رحيما إلا إذا توفر فيه ذلك.

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الغفور الغيور.

الغفور:

قلت: فحدثني عن الغفور.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، ففيه:﴿ (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)﴾ (الزمر)

وفيه:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)﴾ (الحجر)

قلت: ففسره لي[2].

قال: الغفور هو الذى لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، فكل أحدٍ مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته، وكَرَمه فإن اللَّه عز وجل وسعت رحمته كل شيء، ومغفرته أعظم من كل ذنب.

والغفور هو من يخاطب عباده بقوله: (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن

---

1) من شرح الغزالي لاسم الفتاح، وهما متقاربان.

2) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا الاسم في رسالة (رحمة للعالمين).

آدم، لو بلغت ذنوبُك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)(1)

ويخـاطبهم بقولـه:﴿ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعًـا إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ (53)﴾ (الزمر)

وهو الذي دعا إلى مغفرته من زعم أن المسيح هـو اللـه، ومن زعم أن المسيح هو ابن اللـه، ومن زعم أن عزيـرًا ابن اللـه، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثـــالث ثلاثـــة.. كلهم يخـــاطبهم بقولـــه:﴿ أَفَلَا يَتُوبُـــونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74)﴾ (المائدة)(2)

الغيور:

قلت: حدثتني عن الغفور.. فحدثني عن الغيور.

قال: لقد أخبر رسـول اللـه ﷺ عن غـيرة اللـه، فقـال مخاطبـا أمته: (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْـدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُـهُ، يَـا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللـهِ لَـوْ تَعْلَمُـونَ مَـا أَعْلَمُ لَضَـحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)(3)

وقد ورد في القرآن الكـريم الآيـات الكثـيرة الدالـة على غـيرة الله من أن تنتهك محارمه:

فقــد قــال متوعــدا الكــافرين الظــالمين من عبــاده:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُــرَنَّهُمْ وَالشَّــيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِــرَنَّهُمْ حَــوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْـزِعَنَّ مِنْ كُـلِّ شِـيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَـدُّ عَلَى الـرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِـلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَـا كَـانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَــا جِثِيًّا (72)﴾ (مريم)

1)رواه الترمذي ، وقال: حديث حسن.

2)من حديث موقوف على ابن عباس.

3) رواه البخاري.

وقال ردا على من زعم له الولد:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ (مريم)

وقال متوعدا من سخر من نبيه ﷺ واستهزأ بكلامه:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)﴾ (المدثر)

وقال مخاطبا الجن والإنس:﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)﴾ (الرحمن)

قلت: ففسره لي.

قال: لقد وضع الله في هذا الكون من القوانين المنظمة ما يحفظه ويملؤه بالعدل والرحمة والنظام.. ولذلك، فإن كل من انتهك حرمة هذا النظام، أو أساء التعامل مع عدل الله ورحمته نزل به ما ينزل بالمجرمين من أليم العقاب.

فمن لم يكن أهلا لرحمة الله ومغفرته كان أهلا لانتقامه وعقوبته، قال تعالى معرفا عباده به:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)﴾ (الحجر)

***

التفت إلينا صاحبنا (بيدرو الثاني)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل والولي الصالح والملك العادل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. بل لا أكتمكم أني استفدت منها كثيرا

في ترقيـع مـا تقطـع من مملكـتي، ووصـل مـا انخـرم بيـني وبين رعيتي.

لكني للأسف انشغلت بالاسـتفادة من الأسـماء عن البحث عن المسمى.. ولولا أن الله الـرحمن الـرحيم تـداركني بلطفـه، فأعـاد إلى ذاكـرتي السـاعة تلـك الأيـام الجميلـة الـتي نعمت فيهـا بتلـك الصحبة الشريفة لكنت الآن من الغافلين.

سابعا ـ العدل

في اليوم التالي لذلك اليوم أيقظنا رجل منا في أعـدل أوقـات الليل وأسكنها، وهو يقول: اسـتيقظوا إخـواني لقـد تـذكرت أشـياء مهمة في حياتي.. لكأني أراها الآن رأي العين.. فهلم لأحدثكم عنها عسانا نقترب بها من ربنا الحقيقي الذي نبحث عنه.

استيقظ جميع أصحابي، وراحوا يمسحون ما بقي من آثار النوم عن عيونهم، وهم يرددون مستبشـرين: بـورك فيـك.. هلم حـدثنا.. فما أعظم أشواقنا إلى معرفة ربنا.

جمع صاحبنا أنفاسـه، ثم قـال: لن أحـدثكم عن ربي إلا بعـد أن أحدثكم عن نفسي.. فقد علمت من خلال أحاديث رفـاقي أن اللـه تعالى لا يتجلى لعباده إلا بحسب اهتماماتهم وهممهم..

قلنا: فمن أنت؟.. وما كانت همتك؟

قال: أما أنا فقد كنت رجلا من (الهزازين)(1).. وقد كانت همتي

---

1) الهـزازون أو (Shakers)ـ أعضـاء طائفـة مسـيحية في الولايـات المتحـدة تسـمى (الجمعية المتحدة للمعتقدين في العودة الثانية للمسيح)، ويسمَّوْن الهـزازين نظـرا لأنهم كانوا في بداية تاريخهم يهتزون انفعـالا خلال طقوسـهم الدينيـة.. أسسـت آن لي جماعـة الهزازين في عام 1772م تقريبًا في مدينة مانشستر بإنجلترا.

وتشمل مبادئهم الأساسـية النقـاء العـذري، والحب، والسـلام، والعـدل.. ولهـذا اخترنـا الحديث عنهم هنا.

وهم يعبرون عن هذه المبـادئ من خلال ممارسـتهم حيـاة العزوبـة، والأخـوة العالميـة الشاملة، والامتناع عن العنف، واقتسام الممتلكات والبضائع.

وفي عام 1774م، هاجرت آن لي وثمانية من تابعيهـا من إنجلـترا، وفي عـام 1776م استقروا في ووتـرفليت بـنيويورك. وجـذبت نشـاطات لي التنصـيرية العديـد من الأتبـاع.. وبدأوا في تكوين مجتمعـات أخـرى للهـزازين على نمـط تعـاليم لي بعـد موتهـا في عـام 1784م. وقد تأسست جماعة الأم الكبرى للهزازين المسماة لبنان الجديدة في نيويـورك عام 1787م.

وفي حـوالي عـام 1850م تقريبًـا، وعنـدما كـان الهـزازون في قمـة شـعبيتهم، عـاش حـوالي 6000 من الأعضـاء في مجتمعـات تمتـد من مين إلى كنتـاكي. وتعكس عنـايتهم بقراهم تأكيدهم على الدقة في العمل والنظام، أما الاختراعـات مثـل المناشـير الدائريـة ومشابك الغسيل فتعكس خيال الهزازين وبراعتهم.

ونظرًا لأنهم لا يعتقدون في الزواج وإنجاب الأطفال، فقد اعتمـد الهـزازون على تبـني الأطفال للمحافظة على عدد جماعتهم. وبدأ عدد الهزازين في التناقص بعد انتهاء الحرب

كما كانت همة رفاقي جميعا هي البحث عن العدل والسلام.. ولذلك لم أكن أهتم كثيرا باللاهوت مع أني كنت أزور الكنيسة كل حين.. وأهتز كما يهتز رفاقي جميعا أثناء ممارسة الطقوس الدينية.

قال رجل منا: كيف تزور الكنيسة، وأنت لا تهتم باللاهوت؟

قال: أصدقك القول في هذا.. فأنا مع زيارتي للكنيسة، وانتمائي لجمعية من جمعياتها أبعد الناس عن الله.. ولهذا لم أنظر إلى الكنيسة إلا كمؤسسة يمكنني أن أستثمرها وأتعاون مع أفرادها في تحقيق ما تهفو إليه نفسي من العدل والحب والسلام.

أما الله.. فقد رأيت من خلال قراءاتي للكتاب المقدس أن الحديث عنه لن يزيدني إلا بعدا عن رفاقي الذين ألفتهم وألفوني.. فلذلك كنا في مجالسنا لا نتحدث إلا عن العدل، وعن ترقب المسيح الذي سيأتي بالعدالة المطلقة.. أما الله فلم نكن نتحدث عنه أبدا.

قال الرجل: لم؟

قال: لقد رأيت أن (الله) – بحسب ما تلقننا إياه الكنيسة- تتناقض صفاته مع العدل الذي تنتسب إليه طائفتنا.. ولم نشأ جميعا أن نعكر صفوها بذلك.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحا.

قال: لا بأس.. ولو أن ذلك سيصرفني عما أريد أن أبثه لكم من حقيقة العدل الإلهي الذي لا تطيق العقول تصور حده.

وقبل أن أذكر لهم هذا سأقص عليكم قصة تختصر ما يرطن به قومنا من أحاديث حول الكفارة والفداء وعلاقتها بالعدل الإلهي:

كان هناك أحد الملوك، وكان عنده مجموعة من العبيد، وكان شديد المحبة لهم.. ولكنهم – ولغير سبب معقول- خانوه، وتمردوا عليه، وعصوه، ولم يتركوا شيئاً يغضبه إلا فعلوه، ولم يسمعوا ولا

الأهلية الأمريكية في عام 1865م. وتعيش القلة الباقية منهم ولا يتجاوز عددهم نحو 6 أشخاص في ساباثدي ليك في ولاية مين، وكانتربري في ولاية هامبشاير. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

أمرا واحـدا لـه، وهكـذا اسـتحقوا عقوبتـه.. بـل إن عقوبتـه طـالت أولادهم وأحفادهم أيضا مع كونهم لم يقعوا فيما وقع فيه آباؤهم.

لكن ذلك الملك الطيب، وبسبب حبه لهم أراد أن يعفــو عنهم.. فراح إلى تصرف غريب يقوم به.

لقد كان له ولد طيب هو كأبيه تماما في رحمتـه وعدلـه.. وقـد رأى الأب أنه لا يعفى عن الأحفاد الذين ورثوا الخطيئة عن الأجــداد إلا بتقديم ابنا قربانا لنفسه..

ولذلك عمد إلى ابنه الوحيد، فقربه لهؤلاء العبيـد، ثم قـال لهم: هذا الولد هـو أنـا أو كأنـه أنـا بالضـبط، لا فـرق بيـني وبينـه، ولأني أحبكم وأريـد أن أسـامحكم، فخـذوا ابـني هـذا واضـربوه وأهينـوه وعذبوه واقتلوه شر قتله على الصليب.. نعم اصلبوه واقتلوه، وبعد هذا سأسامحكم على الخطيئة التي فعلها أجدادكم)

قام أحدنا، وقال: عن أي خرافة تحدثنا؟.. نحن نريد أن نتعــرف على ربنا.. وليس لدينا الوقت لنسمع خرافات العجائز.

ابتسم صاحبنا الهزاز، وقال: هذه – للأسـف – ليسـت خرافـة.. هذه هي العقيدة التي تريد منا كنائسنا أن نقتنع بها، بل تريد منا أن نؤمن بها... هذه هي عقيدة الصلب والفداء..

انظـروا مـدى الانحطـاط الـذي يوقعنـا فيـه رجـال ديننـا حين يوهموننا أن رب هذا الكون العظيم بهذه الصفة..

قال رجل منا: ولكن.. ألم يكن يستطيع أن يقول لهـؤلاء العبيـد اذهبوا فقد سامحتكم؟.. فيسامحهم بكل بساطة كما نفعـل عنـدما نشاء.

قال آخـر: مـا علاقـة ابنـه بهـؤلاء العبيـد؟.. مـا ذنب ذلـك الابن المسكين الذي ما جاء أساساً إلا ليقتل بلا ذنب ولا خطيئة فعلها؟

قال آخر: كيف يصدق عاقـل أن اللـه يفعـل ذلـك؟ أين العـدل الإلهي في ذلك؟ ألم يكن الله يستطيع أن يقول اذهبوا فقد غفرت لكم؟.. ألم يكن يستطيع ذلك الإلـه الضـعيف أن يغفـر للبشـر دون أن يصلب ابنه أو يصلب نفسه على الصليب؟ ولماذا يحاسـبنا اللـه

على ذنب لم نرتكبه أساسا؟

قال آخـر: لا.. لا.. لا يمكن أن يقـول هـذا الكلام مسـيحي يقـرأ الكتاب المقدس.. لاشك أن ما تقوله غير صحيح.

قال الهزاز: ليت الأمر كما تقول.. لقد ذكرت لكم أني كنت ابنا للكنيسة.. وقد كان من أول الدروس التي ألزمنا حفظهـا مـا يمكن تسميته بالمفهوم الكنسى للخطيئة الموروثة، وهـو أن كـل إنسـان يولد خاطئاً، لأن أبانا آدم وأمنا حواء عصـيا اللـه وأكلا من الشـجرة المحرمة، فوقعا في الخطيئة، وبـذلك يكـون آدم وزوجتـه ونسـلهم يستحقون جميعاً العقاب على مقتضى العدل الإلهي.

ولكن بمـا أن رحمـة للـه تسـتوجب العفـو، فقـد نتج عن هـذا تناقض بين عدل اللـه وبين رحمتـه، فتطلب الأمـر شـيئاً يجمـع بين الرحمة والعدل، فكانت الفدية التي يتم بها ناموس العدل ويتحقــق بها ناموس الرحمة!

هذا هو القانون الذي فرضه رجال ديننا على الله..

بل زادوا، فذكروا أن من شروط هذه الفدية أن تكـون طـاهرة غير مدنسة.. وبمـا أنـه ليس في الكـون مـا هـو طـاهر بلا دنس إلا الله.. وبما أن الله لا يمكن أن يكـون فديـة.. فقـد أوجبت المشـيئة أن يتخذ الله جسداً يتحد فيه اللاهوت والناسـوت؛ أي جسـداً يكـون إلها وبشراً في الوقت نفسه، فاتحد اللاهـوت والناسـوت في بطن العذراء، فنتج عن هذا الاتحاد إنساناً كاملاً، من حيث هو ولدها وكان الله في الجسد إلهاً كاملاً[1]، وقد تمثل هذا كله في المسيح الــذي أتى ليكون فديه لخلقه.. وكان ذلك هو الفداء.

ثم قدم هذا الإله ذبيحة ليكون ذبحــه إعفـاء البشـر من جريمـة الخطيئة، فمن أجل ذلـك مـات المسـيح على الصـليب.. وهـذا هـو الصلب.

وكان هذا كله كفارة لخطايا البشر وتخليصهم من الهلاك.. وهذا هو الخلاص.

---

1) طبعا تختلف الفرق المسيحية في الموقف من هذا.. ولكن قصـدنا هـو اتفاقهـا في الموقف من الفداء.

ولما كان البشر كلهم خطاه بخطيئة أبيهم آدم وأمهم حواء فهم هالكون، ولا ينجيهم من هذا الهلاك سوى إيمانهم بالمسيح الفادي.

قال رجل منا: ولكن هؤلاء يتناقضون مع أنفسهم..

قال آخر: بل يتناقضون مع الكتـاب المقـدس.. ففيـه النصـوص الكثيرة التي يمكن أن نكتشـف من خلالهـا أن اللـه عـادل.. ففيـه: (أصغي أيتها السماوات فـأتكلم ولتنصـت الأرض إلى أقـوال فمي. لينهمر تعليمي كالمطر، وليقطر كلامي، فيكـون كالطـل على الكلإ وكالغيث على العشب. باسم الرب أدعو، فمجدوا عظمة إلهنا. هـو الصخر، وصنائعه كلها كاملة، سبله جميعهـا عـدل. هـو إلـه أمانـة لا يرتكب جورا، صديق وعادل هو. لقـد اقـترفوا الفسـاد أمامـه، ولم يعودوا له أبناء بل لطخة عار، إنهم جيل أعوج وملتو أبهذا تكـافئون الرب أيها الشعب الأحمق الغبي؟ أليس هو أبـاكم وخـالقكم الـذي عملكم وكونكم؟ اذكروا الأيام الغابرة، وتأملوا في سنوات الأجيـال الماضية. اسألوا آباءكم فينبئوكم، وشيوخكم فيخبروكم) (تثنية 32: 1- 7)

وفيه: (وقال عن سبط جاد: لتحل البركة على من وسـع تخـوم جاد حيث يربض جاد هناك كالأسد، يفترس الذراع مع قمة الـرأس. اختار خير الأرض لنفسه، واحتفظ لنفسـه بنصـيب القائـد: وعنـدما اجتمـع شـيوخ الشـعب أجـرى حـق الـرب العـادل وأحكامـه مـع إسرائيل) (تثنية 33:20- 21)

وفيه: (والآن بعد كل ما جرى علينـا من جـراء أعمالنـا السـيئة وآثامنا العظيمة، نعلم أنك عاقبتنا يا إلهنـا بأقـل من آثامنـا، ووهبتنـا نجاة مثل هذه. أنعود بعد ذلك ونتعدى على وصاياك ونصـاهر الأمم الذين يرتكبون هذه الرجاسات؟ ألا تسخط علينا آنئذ حتى تفنينا فلا تبقى منا بقية ولا نجاة؟ أيهـا الـرب إلـه إسـرائيل، أنت عـادل لأننـا مازلنا بقية ناجية إلى هذا اليوم، وها نحن نمثـل أمامـك في آثامنـا، مع أنه لا حق لنا في ذلك) (عزرا 10: 13 -15)

وفيه: (والآن يا إلهنا، أيها الإله العظيم الجبـار المرهـوب حافـظ العهد ومغدق الرحمة، لا تستصغر كل المشقات الـتي أصـابتنا نحن وملوكنا ورؤساءنا وكهنتنـا وأنبياءنـا وآباءنـا وكـل شـعبك، منـذ أيـام

ملوك أشور إلى هذا اليوم، فقد كنت عادلا في كل ما حل بنا، لأنك عاقبتنا بالحق، ونحن الذين أذنبنا. ولم يطع ملوكنا ورؤساؤنا وكهنتنا وآباؤنا شريعتك، ولا استمعوا إلى وصاياك وتحذيراتك التي أنـذرتهم بها. ولم يعبدوك في ملكهم، ولا حين كانوا يتمتعون بخـيرك العميم الـذي أنعمت بـه عليهم، ولا في أرضـهم الشاسـعة الخصـيبة الـتي بسطتها أمامهم، ولم يرتدوا عن سيئات أعمالهم) (نحميـا 9:ـ 32-35)

قـال الهـزاز: لقـد فـات هـؤلاء أن هنـاك بـدائل كثـيرة مقبولـة ومتوافقة مع سنن الله الماضية في البشر.. وهي جميعــا أولى من اللجوء إلى صلب المسـيح تكفـيرا للخطيئـة ووفـاء بسـنة الانتقـام والعدل.. ومن أهم هذه البدائل ما تعرضـه مصـادرنا المقدسـة من التوبـة، والمغفـرة، والعفـو، وصـكوك الغفـران، والاكتفـاء بعقوبـة الأبوين على جريمتهما.. وكل ذلك من السـنن الـتي يقرهـا الكتـاب المقدس.

لست أدري ما الذي دعا بولس لأن يقـول:(بـدون سـفك دم لا تحصل مغفرة) (عبرانيين 9/22)؟

هل غفل المسكين عن نصوص الكتاب المقدس الكثيرة.. التي تتحدث بإسهاب عن التوبة وقصصها وقبول الله لها؟

ألم يسمع أخبـار المسـيح.. وكيـف كـان يجلس مـع العشـارين والخطـاة، فيتـذمر الفريسـيون والكتبـة لـذلك قـائلين: (هـذا يقبـل خطاة ويأكل معهم) (لوقا 15/2) لكن المسيح كان يعلمهم حرصه على توبتهم؟

ألم يسمع بما أخـبر بـه لوقـا من كلام المسـيح.. فقـد ورد فيـه (لوقا 15/3-7): (وكلمهم بهـذا المثـل قـائلا: أي إنسـان منكم لـه مائة خروف وأضـاع واحـدا منهـا، ألا يـترك التسـعة والتسـعين في البريـة ويـذهب لأجـل الضـال حـتى يجـده، وإذا وجـده يضـعه على منكبيه فرحا ويأتي إلى بيته، ويدعو الأصـدقاء والجـيران قـائلا لهم: افرحوا معي، لأني وجدت خـروفي الضـال.. أقـول لكم: إنـه هكـذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب)؟

ألم يسـمع بـالمثلين اللـذين ضـربهما بـالابن الضـال والـدرهم

الضائع (لوقا 15/8 - 32)؟

ألم يسمع بوعد الله التائبين بالقبول كما في (حزقيال 18/21-23): (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي وفعل حقا وعدلا، فحياة يحيا، لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، بره الذي عمل يحيا، هل مسرة أسر بموت الشرير)

ألم يسمع بما قال يوحنا المعمدان مخاطبا اليهود مذكرا إياهم بأهمية التوبة.. لقد قال لهم ـ كما في (متى 3/7 -9) ـ: (يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا) فالتوبة هي الطريق، وليس النسب كما ليس الفداء؟

ألم يسمع بما قال الرب ـ كما في (الأيام (2)ـ 7/14) ـ: (فإذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم وصلوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الردية فإنني أسمع من السماء)؟

ضرب كفيه بعضهما ببعض، ثم قال: رغم كل هذه النصوص المقدسة وغيرها.. يقول قومنا: (التوبة مهما كان شأنها ليست بكافية للصفح عما مضى من خطايانا)

***

قلنا: دعنا من كل هذا.. فنحن نعرفه جميعا.. وحدثنا بما أردت أن تحدثنا عنه.

قال: بعد أن امتلأت نفسي بالغثاء الذي ذكرته لكم حنت روحي لإلهها.. إلهها الحقيقي الذي لم تدنسه يد الأهواء.

وقد صادف أن شعرت بذلك الحنين في جزر ممتلئة بالطهر والعفاف والجمال.. لعلكم تعرفونها.. إنها (جُزُر القُمُر)(1)

1) هي قطر عربي إفريقي، يتكون من عدة جزر تقع في المحيط الهندي محصورة ما بين أراضي قارة إفريقيا غربًا، وجزيرة مدغشقر شرقًا، أي أنها تقع عند المدخل الشمالي لمضيق موزمبيق.

وهي تتكون من أربع جزر بركانية كبيرة ورئيسية.. وهي في مقدمة جهات إفريقيا المدارية التي دخلها الإسلام.. ولهذا، فإن معظم سكان هذه الجزر من المسلمين.

لقد سرت إليها في مهمة تبشيرية.. لكني ظفرت فيها ببشارات أغنتني عن كل البشارات التي كنت أحملها.

كان أول من صادفني عند نزولي من القارب الذي نقلني إليها رجل وضيء ممتلئ هيبة ووقارا، كان الناس يطلقون عليه (عليا الهادي)(1).. لقد كان – كمسماه – عليا وهاديا.. وقد استفدت منه في الفترة القصيرة التي صحبته فيها ما لم أستفد مثله طول عمري.. ولولا أن الدنيا جذبتني بكلاليبها لما رضيت لحياتي خيرا من صحبته والتتلمذ عليه.

عندما نزلت من القارب، ورآني، قال لي: أهلا بأخينا الذي يريد أن يبشرنا بالخلاص.

فرحت كثيرا لقوله هذا، وظننت أني قد ظفرت بأول مستعد للخلاص الذي يبشر به قومنا.. بل طمعت في أن أحول من هذا الصيد السهل شباكا أصطاد به غيره.

لكن أملي خاب من أول الكلمات التي بدأ يخاطبني بها..

وقد اخترناها هنا تنبيها على أهميتها من جهة، ولكون حاكمها الحالي حاكم مسلم ملتزم داعية عادل، لكنه لا يجد أعوانا على الهمة العظيمة التي يحملها.

1) أشير به إلى الإمام (علي الهادي) (212ـ 254هـ)، وهو الإمام العاشر من الأئمة الاثني عشر – حسب مذهب الإمامية – وهو ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد بن الحسين الشهيد بن علي أمير المؤَمنين.

كان المثل الكامل للورع والاِيمان والتقوى، معظماً عند العامة والخاصة، ذا هيبة ووقار.

قال ابن شهر آشوب: كان أطيب الناس بهجة، وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب، وأكملهم من بعيد، إذا صمت عَلَتْه هيبة الوقار، وإذا تكلّم سماه البهاء، وهو من بيت الرسالة والاِمامة، ومقرّ الوصيّة والخلافة.

قال اليافعي: كان متعبّداً فقيهاً، إماماً، استفتاه المتوكل.

وقال ابن حجر: كان علي الهادي وارث أبيه علماً وسخاءً.

توفي في زمن المعتز العباسي في الثالث من رجب، وقيل: لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره بسامراء.. وذكر بعضهم أنه مات مسموماً. (انظر: حياة الاِمام علي الهادي، وموسوعة أصحاب الفقهاء)

نعم أملي خاب في ذلك الحين.. لكـني شـعرت بعـدها أن تلـك الرحلة قلبت حياتي رأسا على عقب.

لقد محت كلماته الممتلئـة بالحكمـة والإيمـان جميـع مـا حـاول رجال الكنيسة أن يشحنوه في عقلي من وساوس.

كان أول ما قال لي عندما جلست معه في حديقـة من حـدائق تلك الجزيرة الجميلة: لقد سمعت من بعض إخوانك المبشرين أنـه بعد أن هزمت الخطيئة آدم سلب الله منه الحرية والإرادة، فأصـبح حراً في إتيان الإثم، غير حرٍ في صنع المعروف.

قلت، كما تعودت أن أقول من غـير أن أعي مـا أقـول: أجـل.. فالعقاب المعقول للذنب هـو الـذنب بعـده، بعـد تخلي رحمـة اللـه عنه.

قال: وسـمعت أنهم يـذكرون أن الخطيئـة أصـبحت مركبـة من طبيعة الأبوين، وانتقلت منهما وراثة إلى سائر أبنائهما.. فلذلك يولد الطفل وهو ملطخ بأوزار الذنوب.

قلت: صـدقوا في ذلـك.. فوبـاء الخطيئـة قـد سـرى إلى هـذا الطفــل وراثــة.. لقــد ذكــر ذلــك، ونص على ســببه القــديس أوغوسطينوس، فقد قال يشـرح ذلـك: (إن آدم هـو ــ كمـا يـروي سفر التكوين ـ أول إنسان خلقـه اللـه على الأرض، وهـذا الإنسـان قـد ارتكب الخطيئـة الأولى الـتي يـروي الفصـل الثـالث من سـفر التكوين أحداثها، وبسبب وضعه المميّز في الفــردوس ومســؤوليته الشاملة كجدّ للبشرية كلها، فقد انتقلت الخطيئة بالوراثـة منـه إلى جميع الناس)

وصور القديس (توماس أكويناس) ذلـك بالـذنب تذنبـه الـروح، لكنه ينتقل إلى أعضاء وجوارح الإنسان.

وشبه (كالوني) أحد علماء البروتسـتانت انتقـال الخطيئـة لبـني آدم بانتقال الوباء، فقال:(حينما يقال: إننا استحققنا العــذاب الإلهي من أجل خطيئة آدم، فليس يعني ذلـك أننـا بـدورنا كنـا معصـومين أبرياء، وقد حملنا ظلماً ذنب آدم.. الحقيقة أننـا لم نتـوارث من آدم العقاب فقط، بل الحق أن وباء الخطيئة مستقر في أعماقنـا، على

سبيل الإنصاف الكامل، وكذلك الطفل الرضيع تضعه أمه مستحقاً للعقاب، وهذا العقاب يرجع إلى ذنبه هو، وليس من ذنب أحد غيره)

وبرر (ندرة اليازجي) هذه العقيدة تبريرا حسنا، فقال: (آدم هو مثال الإنسان، الإنسان الذي وجد في حالة النعمة وسقط، إذن سقوط آدم من النعمة هو سقوط كل إنسان، إذن خطيئة آدم هي خطيئة كل إنسان، فليس المقصود أن الخطيئة تنتقل بالتوارث والتسلسل لأنها ليست تركة أو ميراثاً.. إنما المقصود أن آدم الإنسان قد أخطأ، فأخطأ آدم الجميع إذن، كل واحد قد أخطأ، وذلك لأنه إنسان)

قال: وهكذا أصبح البشر جميعاً خطائين.

قلت: صحيح ذلك، وللأسف.. لقد قال عوض سمعان في كتابه (فلسفة الغفران في المسيحية) يفسر ذلك: (وبما أن آدم الذي ولد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعصيانه حياة الاستقامة التي خلقه الله عليها، وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلاً، إذن كان أمراً بدهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره، لأننا مهما جُلنا بأبصارنا في الكون لا نجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً، ولذلك قال الوحي: (بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم) (رومية 5/12 - 21)

ابتسم، وقال: بعد أن ذكرت لي ما ذكرت هل تأذن لي في أن أطرح بعض التساؤلات الثقيلة التي لم أجد لها جوابا؟.. اسمح لي فأنا ثقيل بطبعي.. لا أستطيع أن أجامل، ولا أن أكتم.. ربما كان هذا من دلائل إخلاصي وصدقي في البحث.. وربما كان نوعا من الهرطقة..

على العموم.. أنا لا أقصد إلا البحث عن الحقيقة..

قلت: تحدث كما يحلو لك.. فلن تجد عندي إلا الجواب الكافي، والمرهم الشافي.

قال: أنا – كأهل هذه البلاد- ولدت مسلما، ونشأت مسلما.. ولكني – مع ذلك- أبحث عن الحقيقة، وأحن إلى الخلاص.. وقد

رأيت من خلال تأملات عميقة أن الحقيقة يختزنها العدل.

فالعدل هو القيمة الكبرى التي تحكم الوجود.. تصور لو لم يكن هناك عدل في الكون.. فهل يمكن أن تراه بالصورة التي هو عليها الآن..

قلت: أنا مثلك أحب العدل.. بل أنا من جماعة مسيحية لا هم لها إلا البحث عن العدل، والتبشير به.. بل لم آت هذه البلاد إلا للتبشير بالعدل الذي جاء به المسيح.

قال: جيد جدا.. فأنا وأنت إذن نتفق في الهدف، ولكنا نختلف فقط في الوسيلة إليه.. ولست أدري هل الحق مع ما نشأت عليه، أم مع تلك العقيدة التي سمعت إخوانك المبشرين يدعون إليها.

قلت: لقد عرضت علي ما يذكره إخواني من المبشرين، لكنك لم تعرض علي العقيدة التي نشأت عليها.. أم أنك تستحي من ذكرها.. لا تستحي.. قل ما تشاء.. فالباحث عن الحقيقة لا يستحيي من شيء.. لقد مررت على بدائيين كثيرين.. ربما كان لهم من العقائد ما هو أغرب من العقيدة التي تريد أن تحدثني عنها.

قال: ما دمت قد ذكرت ذلك، فسأذكر لك الأركان التي تقوم عليها عقيدتنا في هذا الباب.. ربما نستطيع جمعها في أربع كلمات: البراءة، والتكليف، والمدد، والمجازاة.

1 ـ البراءة

قلت: فحدثني عن الركن الأول.. حدثني عن البراءة.

قال: إن نصوصنا المقدسة تدل على أن الإنسان خلق بريئا لم يتلبس بأي معصية.. بل إن المعصية عارضة عليه، وهي لا تعرض عليه إلا بسبب ما يكتسبه من عمل..

وبالرغم من أننا نتفق معكم في أن آدم وقع في المعصية إلا أننا نختلف في آثارها..

فنحن نرى أن معصية آدم قاصرة عليه.. بل نرى فوق ذلك أن آدم ﵇ استغفر الله، وتاب إليه، وأن الله تعالى برحمته قبل

توبته..

لقد ورد في القرآن الكريم النص على توبة اللــه على آدم ﵇، ففيه:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ) (البقرة:37)

قلت: ولكن آدم نزل من الجنة.. وقد اشتركت معـه ذريتـه في هذا النزول.. ألا تعتبر ذلك عقوبة؟

قـال: لا.. ليس ذلـك عقوبـة.. لأن آدم أصـلا خلـق ليمتحن في الأرض.. فلا يمكن أن يمتحن في الجنة.. لقـد ذكـر القـرآن الكـريم هذا، ففيه:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الـدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)﴾ (البقرة)

قلت: لكنه مع ذلك ورث ذريته الاستعداد للخطيئة.

قال: هو لم يورثهم ذلك.. بل هم أصلا خلقوا مستعدين لــذلك.. فالوظيفة التي كلفوا بها تقتضي هذا.. لقد ذكر النبي ﷺ هذ، فقال: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)(1)

قلت: فــأنت تتفــق معي إذن في أن الإنســان خلــق ملطخــا بالمعصية.

قال: أنا لم أقل هذا.

قلت: لقد كنت تذكره.

قال: فرق كبـير بين اسـتعداد الإنسـان للمعصـية، وبين تلطخـه بها.. لقد ذكرت لك أن الإنسان خلق بريئا من التلطخ بأي معصية.. هو كالصفحة البيضاء.. ولكنه باختياره وإرادته قد يلطخ صفحته..

لقد ذكرت نصوصنا المقدسة هذا، ففي الحـديث: (كـل مولـود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملـة - فـأبواه يهودانـه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هـل تحسـون

(1) رواه مسلم وغيره.

فيها من جدعاء)[1]

وفي حديث آخر: (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)[2]

وفي حديث آخر: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بي)[3]

إن هذا حقيقة من حقائق الإسلام الكبرى.. فالأصل في الإسلام براءة الإنسان من كل ذنب لم يفعله..

لقد ورد في القرآن الآيات الكثيرة الدالة على هذا.. سأسوق لك منها ما يكفي لدلالتك على ذلك.. ففيه:﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15)﴾ (الأعراف).. أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

وفي آية أخرى:﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ (فاطر: 18)

وفي آية أخرى:﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى) (لنجم:39)

وفي آية أخرى:﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً) (مريم:80)

وفي آية أخرى:﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إلا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ (مريم)

إن هذه النصوص وغيرها كثير تقرر المسؤولية الفردية، وأن كل إنسان مسؤول عن خاصة نفسه في عمله وسلوكه وحياته، ثم

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

هو نتيجة هذه المسؤولية سيحاسب وحده، وسيلقى الله وحده.

وقد حدثني آبائي عن آبـائهم أن أبـا حنيفـة خـرج ذات يـوم من عند الصادق، فاستقبله موسى بن جعفـر، فقـال لـه: يـاغلام! ممّن المعصية؟ فقال: (لا تخلو من ثلاثة: إمّا أن تكون من اللـه عزّوجـلّ وليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذّب عبده بما لم يكتسـبه، وإمّـا أن تكون من الله عزّوجلّ ومن العبد فلا ينبغي للشـريك القـوي أن يظلم الشريك الضـعيف، وإمّـا أن تكـون من العبـد وهي منـه فـإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجودِه)

وقيل لموسى بن جعفر: أيكـون العبـد مسـتطيعاً؟، فقـال: نعم بعد أربع خصال: أن يكون مخلّى السـرب، صـحيح الجسـم، سـليم الجـوارح، لـه سـبب وارد من اللـه عزّوجـلّ، فـإذا تمّت هـذه فهـو مستطيع.. فقيل له: مثل أي شيء؟.. فقـال: يكـون الرجـل مخلّى السرب، صحيح الجسم، سليم الجوارح لا يقدر أن يزني إلاّ أن يرى امرأة فإذا وجد المرأة فإمّا أن يعصم فيمتنع كما امتنع يوسف، وإمّا أن يخلي بينـه وبينهـا فـيزني وهـو زان ولم يطـع اللـه بـإكراه، ولم يعص بغلبة)

وقـال موسـى بن جعفـر: (في التـوراة مكتـوب مسـطور: ياموسى! إنّي خلقتك واصطفيتك وقوّيتك وأمرتك بطاعتي، ونهيتك عن معصيتي، فإن أطعتني أعنتـك على طـاعتي، وإن عصـيتني لم أعنـك على معصـيتي، ولي المنّـة عليـك في طاعتـك، ولي الحجّـة عليك في معصيتك)

وقال الحسين: (الناس في القَدَر على ثلاثـة أوجـه: رجـل زعم أنّ الله عزّوجلّ أجبر الناس على المعاصي فهذا قـد ظلم اللـه عـزّ وجلّ في حكمه وهو كافر، ورجل يزعم أنّ الأمر مفوّض إليهم فهذا وهن الله في سلطانه فهـو كـافر، ورجـل يقـول: إنّ اللـه عزّوجـلّ كلّف العباد مـا يطيقـون، ولم يكلّفهم مـا لا يطيقـون، فـإذا أحسـن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ)

وسئل الرضا عن قـول اللـه عزّوجـلّ:﴿ وَتَـرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)﴾ (البقرة)، فقال: إنّ اللـه تبـارك وتعـالى لا يوصـف بـالترك كمـا يوصـف خلقـه، ولكنّـه مـتى علم أنّهم لا يرجعـون عن

الكفــــر والضــــلال منعهم المعاونــــة واللطــــف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم)

وسـئل عن قـول اللــه عزّوجـلّ:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ (7)﴾ (البقـرة)، فقال: (الختم هو الطبع على قلوب الكفّار عقوبة على كفرهم كمـا قال تعالى:﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)﴾ (النساء)

وسئل عن الله عزّوجلّ هل يجبر عباده على المعاصـي، فقـال: (بل يخيّرهم ويمهلهم حتّى يتوبوا)

قيل له: فهل يكلّف عباده ما لا يطيقـون؟ فقـال: (كيـف يفعـل ذلك وهو يقول:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)﴾ (فصلت)

قلت: ولكن ألم تقرأ هـذه الآيـة:﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَـالَهُمْ وَأَثْقَـالًا مَـعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت: 13).. وهذه الآية:﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (النحل: 25)

قـال: هاتـان الآيتـان لا تعارضـان النصـوص السـابقة.. بـل هي تؤيدها وتقويها.

قلت: كيف ذلك.. أنا أراهما متعارضتان.

قـال: أجبـني.. أرأيت لـو أن شخصـا أخطـأ فشـرب الخمـر أو ارتكب أي معصية.. ألا يحاسب على ذلك؟

قلت: بلى..

قال: أرأيت لو أنه لم يكتف بشربه ولا بمعصيته.. بل راح ينشـر المعاصي ويدعو إليها ويستعمل كـل الأسـاليب لـذلك، فغـر بسـببه ناس كثيرون.

قلت: يحاسبون جميعا على ما فعلت أيديهم.

قال: ألا ترى أنه سيتميز عنهم بمزيد من العقاب؟

قلت: بلى.. فهو لم يكتف بأن يعصي.. بل راح يحـرض عليهـا..

وربما كان التحريض أكبر من الخطيئة نفسها.

قال: ولـذلك نصـت تينـك الآيـتين على أن الإنسـان قـد يتحمـل أوزار غيره إن كان سببا فيها..

وقد وردت النصوص الكثيرة تدل على هذا.. وتعتبر أن الداعيــة للأعمال حسنة أو سيئة ينال جزاء دعوته أو إثمها:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (من سن في الإسلام ســنة حسنة فله أجرها وأجر من عمـل بهـا من بعـده من غـير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سـن في الإسـلام سـنة سـيئة كـان عليـه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)(1)

وفي حديث آخر:(إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفـاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر، وويل لعبد جعلـه الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير)(2)

ابتســمت، وقلت: فــأنت تريــد أن تنســخ مــا ذكــره الآبــاء والقديسون بما ورد في القرآن..

قال: لا.. لم أقصد ذلـك.. ليس القـرآن وحـده هـو الـذي يقـرر هذا.. لقد قـرأت الكتـاب المقـدس.. فوجدتـه يقـرر هـذه الحقيقـة تقريـرا قطعيـا لا شـك فيـه.. ولسـت أدري كيـف غـاب ذلـك عن قديسينا الأجلاء..

سأقرأ عليـك بعض مـا أحفظـه من نصـوص الكتـاب المقـدس التي تدل على هذا، كما قرأت لك من نصوصـنا المقدسـة مـا يـدل عليه:

لقد ورد في (حزقيـال 18/20 -ـ 21): (النفس الـتي تخطيء هي تمــوت، الابن لا يحمــل من إثم الأب، والأب لا يحمــل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون)

وفي (التثنيـة 24/16): (لا يقتـل الآبـاء عن الأولاد، ولا يقتـل

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه ابن ماجه وغيره بسند فيه لين.

الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل)

وفي (إرمياء 31/30): (بل كل واحد يموت بذنبه، كـل إنسـان يأكل الحصرم تضرس أسنانه)

وفي (إرميا 32/19): (الذي عيناك مفتوحتان على كل طـرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه، وحسب ثمرة أعماله)

وفي (الأيـام (2)ـ 25/4): (لا تمـوت الآبـاء لأجـل البـنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته).

وفي (حزقيال 18/17): (فإنه لا يموت بإثم أبيه)

وفي (التكوين 18/23 ـ 25): (أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكـان ولا تصـفح عنـه من أجل الخمسين باراً الذين فيـه، حاشـا لـك أن تفعـل مثـل هـذا الأمر: أن تميت البـار مـع الأثيم، فيكـون البـار كـالأثيم. حاشـا لـك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً)

كما أنكر المسـيح الخطيئـة الأصـلية بقولـه ــ كمـا في (يوحنـا 15/22 ـ 24) ـ: (لو لم آت وأكلمهم، لم تكن لهم خطيئـة، وأمـا الآن فليس لهم حجة في خطيئتهم... لو لم أعمـل بينهم أعمـالاً لم يعملها آخر، لما كانت لهم خطيئة، أمـا الآن فقـد رأوا وأبغضـوني).. إن هذا النص لا يتحدث عن خطأ سابق عن وجـوده، بـل عن خطـأ وقع فيه بنو إسرائيل تجاهه، هو عدم الإيمان بالمسـيح، وليس فيـه أي ذكر للخطيئة الموروثة، بل هو ـ كما يبدو ـ لا يعرف شيئاً عنها.

2 ـ التكليف

قلت: وعيت هـذا.. فحـدثني عن الكلمـة الثانيـة.. حـدثني عن التكليف.

قال[1]: المراد بالتكليف - - على حسب المصطلح الإسـلامي - الوظيفة التي ندب الله لها البشر على هـذه الأرض، وقـد عـبر عن هذه الوظيفة في القرآن الكريم تعـابير مختلفـة، لكـل منهـا دلالتـه

1) تحدثنا بتفصيل عن هذه المسألة في رسالة (أسرار الأقدار)، وبعض مـا نـذكره هنـا ملخص منها بحسب ما يقتضيه المقام.

الخاصة، ولكل منها علاقته بالعدل الإلهي في التكليف.

فقد عبر عن التكليف بكونه أمانة، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:72)، ثم قال بعدها:﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (الأحزاب:73)

فهاتان الآيتان تجمعان جميع دلائل العدالة الإلهية في تكليف الإنسان:

وأول ذلك أن الإنسان خير في قبول التكليف، فقبله عن طواعية تامة ورضى خالص، بل إنه تعالى ـ من باب العدالة المطلقة ـ قدم عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ليكون للإنسان أسوة في حال الامتناع، ولكنه رضي عن طواعية تامة بهذا التكليف.

وجاء في الآية الثانية الإخبار بالجزاء الذي يرتبط بالقدر الذي تؤدى به الأمانة لا بأي ارتباط آخر، وهو ما يقتضيه العدل.

أما إخباره تعالى بأن الإنسان ظلوم جهول، ففيه دلالة قوية على السر الذي جعله مستعدا لتحمل الأمانة، فظلمه يحمل بذور العدل، وجهله يحمل طاقة التعلم، فكانت طاقاته التي وهبها تؤهله لهذا التكليف.

وعبر عن التكليف - أيضا- بالخلافة، كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

فليس المراد بالخلافة التي تتحدث عنها الآية الكريمة الخلافة الممثلة في شخص آدم ﵇، بل هي شاملة للجنس البشري كله، بدليل أن ما تخوف منه الملائكة من الإفساد في الأرض وسفك الدماء لم يتحقق في آدم ﵇، وإنما تحقق في البشرية على امتدادها التاريخي.

وقد أشارت آيات كريمة أخرى إلى هذا الاستخلاف العام، ومنها قوله تعالى على لسان هود ﵇ لقومه:﴿ وَاذْكُـرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَـاءَ مِنْ بَعْدِ قَـوْمِ نُـوحٍ ﴾ (لأعـراف: من الآية69)، وقولـه تعـالى:﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَــرَ فَعَلَيْــهِ كُفْــرُهُ وَلا يَزِيــدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتـاً وَلا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر:39)

وهـذه النصـوص جميعـا، والـتي ورد التعبـير فيهـا عن التكليـف بالخلافة تشير إلى عدالة الله المطلقة:

فالتعبير بالخليفة، أو اصطلاح (الخلافـة) نفسـه يقتضـي حريـة المكلف فيما استخلف فيه وعـدم تقيـده إلا بـالموازين الـتي أمـره مستخلفه بإقامتها.. فالخلافة مسؤولية، والمسؤولية لا يقوم بهـا إلا الكائن الحر، فبدون الاختيار والحرية لا تتحقق المسؤولية.

ولهذا استنتجت الملائكة من إخبار الله لها بأنـه سـيجعل خليفـة على الأرض أنه سيجعل الكائن الحر المختار، ومثـل هـذا يمكن أن يصــلح في الأرض، ويمكن أن يفســد فيهــا، لأن الاختيــار والإردة تسويان بين الجهتين.

وفي قولــه تعــال:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَــاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْــدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:14)، وقوله تعالى على لسان موسى ﵇:﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْـتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرَ كَيْفَ تَعْمَلُـونَ﴾ (لأعـراف: من الآية129) إشـارة إلى هـذه الحريـة التي أوتيهـا الإنسـان ليسـتقيم تكليفـه، فقـد عـبر تعـالى عن غايـة التكليف بأنها مجرد النظر إلى أعمالهم، لا حملهم على أعمـالهم أو إجبـارهم عليهـا، كمـا قـال ﷺ:(إن الـدنيا حلـوة خضـرة، وإن اللّـه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الـدنيا واتقـوا النسـاء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء)(1)

والله تعالى مع إخباره عن علمه بحقيقة هذا الخليفة والذي رد بـه على الملائكـة، لم يحاسـب الخلـق على علمـه فيهم، بـل تـرك لأعمالهم المجال لذلك.

---

1) رواه مسلم.

ثم إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى أن نتيجة الاستخلاف هي الـتي تحـدد مصـير الإنسـان، فتجعلـه من الكـافرين أو من المؤمنين قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْـرُهُ وَلا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتـاً وَلا يَزِيـدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر:39)

وعـبر عن التكليـف - كـذلك- بالعبـادة،كمـا قـال تعـالى:﴿ وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ﴾ (الـذريات:56)، فقـد حصـر اللـه تعالى غاية الخلق في هذه الآية في العبادة.

وقد وردت النصوص الكثيرة في القرآن الكريم تخـبر عن هـذه الغاية التي هي تفسير للأمانة والخلافة السابق ذكرهما، ومن ذلــك قوله تعالى في إخباره عن الغاية من إرسال الرسـل:﴿ وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُـدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحـل: من الآية36)، وقال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُــوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا أَنَـا فَاعْبُـدُونِ﴾ (الانبيـاء:25)، وقـال تعـالى:﴿ وَمَـا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَـا فَاعْبُـدُونِ﴾ (الانبياء:25)

قلت: فالتكليف الذي كلف البشـر بأدائـه إذا هـو العبـادة.. فمـا معنى العبادة؟.. وهل للتكليف بالعبادة علاقة بالعدل الإلهي؟

قال: لقد اتفقت هذه الأمة على أن العبادة اسم جامع لكـل مـا يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانـة وبـر الوالـدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر وغيرها من ألوان العبادات.

وتشـمل كـذلك مـا لـه علاقـة بـالأحوال والمعـارف كحب اللـه ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمــه والشـكر لنعمـه والرضـا بقضـائه والتوكـل عليـه والرجـاء لرحمتـه والخوف لعذابه وغيرها.

وهذه الألوان جميعا، والتي تتلون بها عبادة الله تعالى، تسـتلزم ركنين:

الركن الأول هو الذلة المطلقة لله، كما يقال: طريــق معبــد اذا كان مذللا قد وطئته الاقدام.

والركن الثاني هو كون ذلك الخضــوع ناشـئا عن طواعيــة تامــة لله تعالى، وهذا هو الجانب الذي أبته السموات والأرض من تحمــل الأمانــة، لأن الــركن الأول من العبــادة، وهــو الخضــوع المطلــق لله،والذي لا سلطة للخاضع فيه ولا اختيار هو عمل الكــون جميعــا، كمــا قــال تعــالى:﴿ وَلَـهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْـدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (الانبياء:19)، وقال تعــالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْـجُدُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْض طَوْعــاً وَكَرْهــاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَـالِ﴾ (الرعـد:15)، وقـال تعـالى:﴿ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهـاً وَإِلَيْـهِ يُرْجَعُـونَ﴾ (آل عمـران: من الآية83)

***

قلت: فما علاقة العبادة بعدالة التكليف؟

قال: إنها علاقة واضحة ظاهرة..فالله تعالى لم يكلف خلقــه أن يعبدوه أو يعرفــوه أويحبــوه رغم أنــوفهم، بــل تــرك ذلــك لعقــولهم وقلوبهم لتعبد الله عن طواعية تامــة واختيــار تــام، ثم تتحمــل بعــد ذلك نتيجة اختيارها.

قلت: ولكني سمعت بــأن من المســلمين من يقولــون بــالجبر، معللين بذلك بأن من أركان الإيمان الإيمان بالقضاء والقدر.

قــال: لقــد أســاء هــؤلاء فهم الإيمــان بالقضــاء والقــدر.. فليس المراد منه ما يفهمون.

قلت: لقد قرأت لعلماء كبار يقولون هذا.

قال: إما أنك لم تفهمهم وإما أنهم مخطئون..

لقــد حــدثني آبــائي عن آبــائهم من آل رســول اللــه ﷺ.. وهم أعرف الخلق بالله، وبمراد اللــه، وبــدين اللــه.. أن رجلا دخــل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: أخبرنــا عن خروجنــا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمــنين: (أجــل

ياشيخ! فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من الله وقدر)، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي ياأمير المؤمنين! فقال: (مهلا ياشيخ! لعلّك تظنّ قضاءاً حتماً وقدراً لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة، ولا لمحسن محمدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدريّة هذه الأُمّة ومجوسها، ياشيخ! إنّ الله عزّوجلّ كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)

فنهض الشيخ وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته

يوم النجاة من الرحمن غفرانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً

جزاك ربّك عنّا فيه إحسانا

وذكر بعضهم الجبر والتفويض عند الإمام الرضا، فقال: ألا أُعطيكم في هذا أصلا لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحد إلاّ كسرتموه؟ قلنا: إن رأيت ذلك.. فقال: (إنّ الله عزّوجلّ لم يُطع بإكراه، ولم يُعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، هو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادّاً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه)، ثمّ قال: (من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه)

وسأل زنديق الحسين، فقال: أخبرني عن الله عزّوجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين وكان على ذلك قادراً؟ فقال: (لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذا ما كانت

فعلهم لم تكن جنّة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته واحتجّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، وبمعصيتهم إيّاه العقاب)

قال الزنديق: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشرّ من العبد هو فعله؟

قال الحسين: العمل الصالح العبد يفعله والله به أمره، والعمل الشرّ العبد يفعله والله عنه نهاه..

قال الزنديق: أليس فعله بالآلة التي ركّبها فيه؟

قال الحسين: نعم، ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر بها على الشرّ الذي نهاه عنه.

قال الزنديق: فإلى العبد من الأمر شيء؟

قال الحسين: ما نهاه الله عن شيء إلاّ وقد علم أنّه يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلاّ وقد علم أنّه يستطيع فعله لأنّه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال الزنديق: فمن خلقه الله كافراً يستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟

قال الحسين: إنّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنّه إنّما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجّة من الله فعرض عليه الحقّ فجحده، فبإنكاره الحقّ صار كافراً.

قال الزنديق: فيجوز أن يقدّر على العبد الشرّ ويأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن يعمله ويعذّبه عليه؟

قال الحسين: إنّه لا يليق بعدل الله ورأفته أن يقدّر على العبد الشرّ ويريده منه، ثمّ يأمره بما يعلم أنّه لا يستطيع أخذه، والإنزاع عمّا لا يقدر على تركه، ثمّ يعذّبه على تركه أمره الذي علم أنّه لا

يستطيع أخذه)

وسئل: هل منع الله عمّا أمر به؟ وهل نهى عمّا أراد؟ وهل أعان على ما لم يرد؟

فقال: أمّا ما سألت: هل منع الله عمّا أمر به؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلك لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منع إبليس لعذره ولم يلعنه.

وأمّا ما سألت: هل نهى عمّا أراد؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلك لكان حيث نهى آدم عن أكل الشجرة أراد منه أكلها، ولو أراد منه أكلها ما نادى عليه صبيان الكتاتيب:﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ﴾ (طه)، والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأمّا ما سألت عنه من قولك: هل أعان على ما لم يرد؟ فلا يجوز ذلك، وجلّ الله تعالى عن أن يعين على قتل الأنبياء وتكذيبهم، وقتل الحسين بن علي والفضلاء من ولده، وكيف يعين على ما لم يرد، وقد أعدّ جهنّم لمخالفيه، ولعنهم على تكذيبهم لطاعته، وارتكابهم لمخالفته ; ولو جاز أن يعين على ما لم يرد لكان أعان فرعون على كفره وادّعائه أنّه ربّ العالمين! أفترى أراد الله من فرعون أن يدّعي الربوبية؟)

***

قلت: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن كيف يكون العدل في التكليف، والبشر يتعرضون لاختبارات مختلفة متناقضة؟.. فهذا يختبر بالفقر.. وهذا يختبر بالغنى.. وهذا يبتلى بالصحة.. وهذا يبتلى بالمرض.. وهذا يعيش في الصحارى القاحلة أو في الأراضي المتجمدة.. وهذا يعيش في السهول اليانعة، والجنان الوارفة.. وهذا يعمر إلى أن تمل الأيام مرآه.. وهذا يختطف، فلا يكاد تبصره الحياة، ولا يكاد يبصرها.. وهذا يقبل عليه الخلق، بل يتفانون فيه، وهذا يعرضون عنه، بل يسارعون في أذاه.

ألا تحمل هذه الاختبارات المتناقضة علامات الجور والظلم؟

فكيف يستوي في الامتحان كل هؤلاء وحياتهم لم تستو؟ (1)

قال: إن ما نـراه ممـا نتوهمـه تناقضـا هـو في الحقيقـة منتهى العدالة والحكمة والرحمة الإلهية..

قلت: كيف ذلك؟

قـال: ألم تخـرج يومـا لرؤيـة المباريـات الـتي تقـام للرياضـات المختلفة؟

قلت: بلى.. لقد خرجت كثيرا.. فأنـا من هـواة الرياضـة بجميـع أنواعها.. هل علي في ذلك من حرج؟

قال: لا.. لا حرج عليـك في ذلـك.. ولكن أجبـني هـل رأيت في بعض تلك المباريات مبـاراة في الملاكمـة بين العـداء الـذي يبـاري الضباء في عدوه مع بطل العالم في الملاكمة؟

قلت: لا.. ولو حدث هذا.. فسيكون نوعا من المزاح.. فلا طاقة للعداء أن ينازل الملاكم في اختصاصه.

قال: ألا ترى ذلك عدلا؟

قلت: لا شك أن ذلك مجاف للعدل.

قال: وهل من العـدل أن يكلـف السـباح المـاهر بمسـايفة من تمرن على المسايفة حتى صارت رياضته التي اختص فيها؟

قلت: لا يعقل هذا.. كما لا يعقل أن يختبر الطبيب في الهندسة، أو يختبر المهندس في التشريح.

قال: ومثل هـذا يقـال في كـل اختبـارات الـدنيا، فيسـتحيل أن يتساوى الخلق جميعا في اختبار واحد لتعدد مواهبهم وطاقاتهم.

قلت: ما غرضك من كل هذا؟

قال: ما ذكرناه في اختبـارات الـدنيا هـو نفسـه مـا يحصـل في

---

1) ذكرنا الجواب المفصل على هذا في رسالة (أسـرار الأقـدار)، ومـا نـذكره هنـا هـو ملخص مختصر منه.

اختبارات الله تعالى لخلقه.. فبما أن طاقاتهم مختلفة ومواهبهم مختلفة، فلذلك من عدل الله تعالى أنه يعاملهم بحسب أحوالهم المختلفة.

وهذه المعاملة ترجع إلى خبرة الله بخلقه، كما قال تعالى عند ذكر التنوع في بسط الرزق وقبضه:﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:27) أي لو أعطاهم فوق حاجتهم التي تختلف باختلاف طبائعهم وأحوالهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان.

والشاهد هنا هو ختمه الآية بإرجاع علة ذلك إلى خبرة الله وبصره بخلقه، كما ورد في الحديث القدسي:(إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)(1)

ويدل على هذا ما ورد في الحديث من اختبار الله لثلاثة نفر في بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى، ليخرجوا ما يخفيه جوهرهم من صفات، فبعث ملكا فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب هذا عني، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.

1) رواه الخطيب.

وبعد مدة أنتجت تلك الأنعام التي اختبروا بها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من غنم.

وعندما اكتملت لهم النعمة عاد الملك ليختبرهم من جديد، فأتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا؛ فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له: مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال رجل مسكين، وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك(1).

فهذا الحديث يدل على أسرار تنوع البلاء سواء للشخص الواحد أو للمجتمع ككل، ولهذا يوجد في كل مجتمع من المجتمعات، بل في حياة كل شخص الاختبارات المختلفة المتناقضة التي قد يتصورها عشوائية بينما هي تسيير من الله ليظهر الإنسان ما يخفيه جوهره من صفات.

زيادة على هذا، فإن الله تعالى يختبر عباده بعضهم ببعض، فيختبر القوي بضعف الضعيف ليرى هل يعينه أم يتسلط عليه، ويختبر الغني بالفقير، هل ينفق عليه أم يستسخره، ويختبر الصحيح بالمريض هل تطغيه نعمة الصحة أم تجعله متواضعا لربه.

وإلى هذا الإشارة بالآيات القرآنية التي تذكر سر اختلاف البشر

---

1) رواه البخاري ومسلم.

في المتاع الدنيوي كقوله تعـالى: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)

فقد ربطت الآيـة الكريمـة بين التكليـف الـذي هـو الخلافـة في الأرض والاختبار باختلاف الدرجات الذي يعني التفـاوت في الأرزاق والأخلاق والمحاسـن والمسـاوي، والمنـاظر والأشـكال والألـوان، وكأنه يشير بذلك إلى ان الخلافة تقتضي هذا التفاوت.

وتشير إلى ذلك آية أخرى تبين أثر هـذا التفـاوت في العلاقـات بين البشر والتي يتمحض عنها جوهر الإنسان وحقيقته الـتي تؤهلـه للثواب او العقـاب، قـال تعـالى: ﴿ نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: من الآية32)

أي أن العلة في ذلك التفاوت هي أن يسخّر بعضُـهم بعضـاً في الأعمال، لاحتياج بعضهم لبعض.

وفي نفس الوقت، فإن الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار مثالا مصغرا عن الدار الآخرة، فلذلك ينبه القـرآن الكـريم الضـمائر إلى أن هذا التفـاوت المحـدود سـيعقبه في الآخـرة تفـاوت لا محـدود، فلذلك يقترن ذكر المتاع الدنيوي بالمتاع الأخروي، كما قال تعـالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْبَـرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَـرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الاسراء:21)

وقال تعالى بعد ذكر المتاع الـدنيوي الـذي يحـرص على جمعـه المترفون: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنْـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَـادِ﴾ (آل عمـران:15)، وقـال تعـالى: ﴿ وَمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَلَلـدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ أَفَلا تَعْقِلُـونَ﴾ (الأنعام:32)

وأعطى مثالا لهذا التفاوت المحدود في الدنيا بالمقارنة مـع مـا ينتظر الإنسان في الآخـرة من نعيم أو عقـاب، كمـا قـال تعـالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَـاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَـاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْـفَرّاً

ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْــوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:20)

ثم إن الله تعالى بعد كل هذا أخبر أنه لا يختــبر الإنســان إلا في حدود ما آتاه من أشياء، كما قال تعالى:﴿ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَـا آتَـاكُمْ ﴾ (المائدة: من الآية48)، وقال في الآية السابقة جامعـا بين الخلافـة والبلاء:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْضَـكُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُــورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:165)

ولهذا تقترن العبادات بالاستطاعة، بـل إن اللـه تعـالى برحمتـه نوع التكاليف لينال كل امرئ ما يتناسب مع وضعه وطبيعته وحاله، فلا يميز الإنسان إلا بحسب عمله.

بـل إن اللــه تعـالى عــوض من لا يســتطيع عملا من الأعمــال بأعمال أخرى يمكنه من خلالها أن يتدارك ما فاته، ومما يقرب هذا المعنى ما روي في الحديث أن ناسا من الفقراء قـالوا: يـا رسـول الله، ذهب أهل الدثور[1] بالأجور، يصلون كمـا نصـلي، ويصـومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكـل تكبـيرة صـدقة، وكل تحميدة صدقة وكل تهليلـة صـدقة، وأمـر بـالمعروف صـدقة، ونهي عن المنكـر صـدقة)[2].. فـالنبي ﷺ في هـذا الحـديث أرشـد الفقــراء إلى مــا يكنهم فعلهم ليعوضــهم عن الصــدقات الــتي لا يملكون إخراجا.

بـل إن الرسـول ﷺ في تقسـيمه لأصـناف النـاس اعتـبر هـذه الناحية، فقال:(مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مــالا وعلما، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقه، ورجل آتـاه اللـه علما ولم يؤته مالا، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجر سـواء، ورجـل آتـاه اللـه مـالا ولم يؤتـه علما ولا مالا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الــذي

---

1)الدثور بالثاء المثلثة: الأموال، واحدها: دثر.

2) رواه مسلم.

يعمل، فهما في الوزر سواء) (1)

ولهذا ورد في الحديث اعتبار النية من أهم أصول الجـزاء، قـال رسول الله ﷺ:(يا أيهـا النـاس إنمـا الاعمـال بالنيـات، وإنمـا لكـل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرتـه إلى اللـه ورسـوله، فهجرتـه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصـيبها أو امـرأة يتزوجهـا فهجرته إلى ما هاجر إليه) (2)

وبذلك.. فإن أي شخص حتى ولو كان مقعدا يمكنه أن ينال من الفضل والجزاء ما ينال أي عامـل مهمـا أوتي من قـوة، وقـد قـال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات:(لقد تـركتم بالمدينـة أقوامـا ما سرتم مسـيرًا، ولا أنفقتم من نفقــة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)

فتعجبـوا، وقـالوا: يـا رسـول اللـه، وكيـف يكونـون معنـا وهم بالمدينة؟

فقال رسول الله ﷺ مبينا أن السـير إلى اللـه قـد لا يحتـاج أي جارحة من الحوارح:(حبسهم العذر)(3)

***

قلت: وعيت هذا.. ولكن لم اختلفت الشرائع التي هي الإجابات الصحيحة على اختبارات الله تعـالى، فكـان في الشـرائع مـا يميـل إلى التشـديد، ومنهـا مـا يتطلـع إلى رفـع الحـرج، بـل يجعـل ذلـك قاعدته العامة؟ أليس البشر كلهم عبيدا لرب واحـد، ويقعـون تحت اختبار واحد؟ فلماذا تختلف الإجابات؟ ولمـاذا يفضـل بعضـهم على بعض؟

قـال: الإجابـة على هـذا كالإجابـة على مـا سـبق، فاللـه تعـالى العالم بأحوال عباده ومـا يختزنـه خلقهم من مواصـفات هـو الـذي شرع لهم ما يتناسب مع تلك الأحوال.

---

1) رواه أحمد وهناد وابن ماجة والبيهقي والطبراني في الكبير.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أبو داود وغيره.

وكمثال بسيط يقـرب هـذا المعـنى أن موسـى ﵇ أمـر قومـه بأمر واضح بسيط هو أن يذبحوا بقرة، كما قال تعالى على لسـانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (البقرة: من الآية67) وقـد جـاء بهـا منكـرة لتـدخل أي بقـرة في هـذا الأمـر كمـا روي عن عبيـدة السلماني قال:(لو لم يعترضوا لأجـزأت عنهم أدنى بقـرة، ولكنهم شدَّدوا فشـدَّد عليهم حـتى انتهـوا إلى البقـرة الـتي أمـروا بـذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال:(واللّه لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً) (1)

وكـان أول جـواب لهم ينم عن سـوء أدبهم أن قـالوا:﴿ أَتَتَّخِـذُنَا هُــزُواً ﴾، فــرد عليهم ﵇:﴿ أَعُــوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُــونَ مِنَ الْجَــاهِلِينَ﴾ (البقرة: من الآية67)

فعـادوا إلى جـدالهم ليقولـوا:﴿ ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَـا مَـا هِيَ ﴾ (البقرة: من الآية68)

فقال موسى ﵇:﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْـرٌ عَـوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: من الآية68)

فلم يكفهم هذا، بل عادوا ليسألوا:﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ (البقرة: من الآية69)

فقال موسى ﵇:﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَـا تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية69)

فلم يكفهم هذا، فالأمر في تصورهم لا زال مشـتبها يحتـاج إلى تفصيل وتوضيح، فقالوا:﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: من الآية70)

فقال موسى ﵇:﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَـرَةٌ لا ذَلُـولٌ تُثِـيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا ﴾ (البقرة: من الآية71)

وبعد هذا التردد الطويل، وتكليف موسى ﵇ أن يرجع إلى ربـه من أجـل الاستفسـار عن بقـرة، قـالوا بسـوء أدبهم:﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (البقـرة: من الآية71) وكـأنهم كـانوا يعرفـون البقـرة من

1) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

قبل، واكتفى القرآن الكريم بأن عقب عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: من الآية71)

فمثل هذا النموذج الذي يكاد يملي اختياره على الله كيف لا يشدد عليه، بل إنهم هم الذين شددوا على أنفسهم، والله الرحمن الرحيم تعامل معهم كتعامله مع الخلق جميعا برحمته التامة الشاملة.

ومن الأمثلة على هذا مما يتعلق بشريعة بني إسرائيل أن ما طبعوا عليهم من عصيان وتمرد اقتضى أن تكون شريعتهم متناسبة مع هذه الطبيعة حتى أنهم بمجرد مجاوزتهم البحر طلبوا أن يجعل لهم موسى ﷺ شريكا مع الله، كما قال تعالى:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (لأعراف:138)

ولذلك فإنهم لم يقبلوا شريعة الله إلا بعد أن رفع فوقهم الطور، كما قال تعالى:﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (النساء:154)، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (لأعراف:171)

وكان سر هذه المعاصي أن طبيعتهم المتأبية كانت تأبى الخضوع لغير هواها، ولذلك قالوا لموسى ﷺ في قصة البقرة بعد الأخذ والرد:﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (البقرة: من الآية71)، وكأنهم هم الذين يحددون الحق، أو كأنهم هم الذين يحددون لله ما يأمرهم به.

وهذا ما فعلوه مع رسول الله ﷺ حين أبوا على الله أن يغير القبلة، فسماهم الله لذلك سفهاء، فقال تعالى:﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (البقرة: من الآية 142)، ثم رد عليهم بقوله تعالى:﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: من الآية142)

انطلاقا من هذا أخبر الله تعالى أن هذه الطبيعة القاسية

المتأبية هي الِسر فيما لحق شريعتهم من التشديد، كما قال تعالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (النساء: 160ـ 161)، أي بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله وغير ذلك من الآثام شدد عليهم فحرمت عليهم الطيبات كان أصلها حلالا.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض النماذج عن هذه الطيبات المحرمة، كما قال تعالى:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام:146)

فعلة هذا التحريم كما نصت الآية الكريمة هو أنه جزاء يتناسب مع بغيهم وعدوانهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل:118)

والقرآن الكريم ينص على أن هذه المحرمات كان أصلها حلالا لبني إسرائيل لولا أن تدخلوا بأهوائهم أو ألحوا في السؤال فحرم عليهم ما أحل لهم، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:93)

هذا نموذج عن أثر الطبيعة في نوع الأحكام والشرائع..

وهو أمر غير مستغرب عقلا ولا واقعا، فالقوانين المنظمة لحياة المساجين ليست نفس القوانين المنظمة لحياة الطلبة، لأن طبيعة كل واحد تحتم أن يوضع لها قانون خاص يتناسب معها.

ومن رحمة الله أن الشريعة الخاتمة، والتي لم تكن معلقة بطائفة معينة أو زمن معين كان من خصائصها رفع الإصر الذي وجد في الشرائع السابقة، كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: من الآية157)

ولذلك عبر عنها بأنها شريعة الفطرة، أي تتناسب مع الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالمؤثرات الخاجية، كما قال تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:30) بخلاف شريعة بني إسرائيل التي شرعت لفطرة انتكست وانحرفت عن مسارها.

ولهذا عندما عرض على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء الخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام:(أصبت الفطرة) (1)فاللبن باق على أصل خلقته، بخلاف الخمر الذي تحول بالتخمر عن طبيعته.

3 ـ المدد

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الثالثة.. حدثني عن المدد.. ما تريد به؟

قال: أمن العدل أن يرسل الجندي إلى المعركة من غير أن يدرب على خوضها، أو من غير أن يحمل السلاح الذي يعينه على خوضها؟

قلت: لا.. ليس من العدل ذلك.. بل إن من يفعل ذلك يوشك أن لا يريد به إلا إصابة الجندي في مقاتله.

قال: وكذلك من عدل الله أن أمد الله جنده من المكلفين بما يعينهم على المعركة التي كلفوا بخوضها.

قلت: أي معركة؟

قال: ألم تعلم أن الله استودع للإنسان أمانة، وطالبه بأدائها؟

قلت: ولكن هذه ليست معركة.. فتحمل الأمانة ليس فيه شيء

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

من الصراع.

قال: لا.. فيه صراع كبير.. هناك صراع من داخل النفس.. وهناك صراع من خارجها.

قلت: صراع من داخل النفس!؟

قال: أجل.. لقد ذكرت لنا النصوص المقدسة أن الإنسان زود بطاقات يمكن أن تستعمل في الخير، ويمكن أن تستعمل في الشر(1).. ولذلك فإن الإنسان سيحتاج إلى نوع من الحرب مع نوازع الشر التي تريد أن تزاحم نوازع الخير فيه.

قلت: وعيت هذا.. فما العدو الخارجي الذي يتربص بالإنسان.

قال: الشيطان.. الشيطان هو العدو الأكبر الذي أقسم أن يغوي الإنسان لينصر طاقات الشر فيه.. لقد ذكر الله لنا ذلك، وحذرنا منه.. قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)﴾ (النساء)، وقال مخبرا عن مقالة الشيطان يوم أمر بالسجود لآدم:﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)﴾ (ص)

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الذي أعين به الإنسان على خوض هذه المعركة.. وما مدى العدل الذي في هذا المدد؟

قال: مدد كثير.. كله من فيض الله الهادي..

قلت: فاذكر لي منه ما يجعلني أعي ما تقول.

1) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

قال: سأذكر لك أربعة أنواع من المدد الإلهي وردت بجميعها نصوصنا المقدسة.

طاقات:

قلت: فما المدد الأول؟

قال: المدد الأول هو ما زود به الإنسان من طاقات لأداء ما طلب منه من تكليف، ومواجهة ما يواجهه من صراع.. لقد ذكر الله تعالى لنا هذا بعد ذكره إرادته في جعل الإنسان خليفة على الأرض، فقد قال بعدها:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:31)

ففي هذه الآية الكريمة نستشف الكثير من الحقائق المرتبطة بمؤهلات التكليف، ومنها أن الله تعالى ـ لجعل آدم عليه السلام خليفة ـ وفر له من العلم ما يستطيع أن يؤدي بها مهمة الخلافة.

وقد عبر الله تعالى عن هذا العلم الذي أوتيه الإنسان في بدء الخلق بأنه علم الأسماء كلها.. وهي تعني معاني كثيرة كلها لها علاقة بالطاقات التي يحتاج إليها الإنسان لأداء وظيفتها.

قلت: فما هذه الأسماء؟

قال: منها الأسماء التي تتعلق بما استخلف فيه، وهو كل ما يتعلق بحياته على الأرض من معارف أساسية، ومن لغة يستطيع بواسطتها بناء علاقاته وإنماء معارفه.

وإلى هذا النوع الإشارة بالروايات الواردة عن سلفنا الصالح، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس من قوله:(علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها)، وعن سعد مولى الحسن بن علي قال:(كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها)، وقال ابن عباس:(علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب)(1)

وهذه الروايات كلها تدل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله

---

1) انظر في هذه الروايات: الدر المنثور:1/120.

تعالى علمها آدم ﷺ جملة وتفصيلا، ولم يرد في النصوص ما يحدد هذه اللغة التي علمها آدم ﷺ، لعدم الحاجة إلى ذلك.

وروي من جهة أخرى ما يدل على أن آدم ﷺ عرف بخصائص الأشياء التي يتعامل معها ومنافعها ومضارها، وفي هذا روي عن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمي كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه.

وهذا يدل ـ كذلك ـ على ان المعارف الأساسية للإنسان في جميع المجالات معارف توقيفية لا اجتهادية.

ومنها الأسماء المتعلقة بالمستخلف عليه.. وهو أيضا من المعارف الأساسية التي يحتاج إليها في أداء وظيفة الخلافة..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإخبار بأن جميع الكون، دقيقه وجليله يستند إلى أسماء الله الحسنى التي تمده بمعاني الوجود التي هو عليها.

ويدل على هذا أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة (الأسماء) معرفة إلا وأراد بها الأسماء الحسنى، كما قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (لأعراف:180)، وقال:﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء:110)، وقال:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (طـه:8)، وقال:﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:24)

أما الأسماء الورادة نكرة، فلها بعض الدلالة، لأنها وردت في التسميات الخاطئة للأوثان التي عبدت من دون الله، وكأن أسماء الله بذلك أعيرت ـ من باب الشرك ـ لتلك الأوثان، قال تعالى عن يوسف ﷺ:﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: من الآية40)، وقال:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

(لنجم: من الآية23)

قلت: وعيت هذا، ولكن كيف ذكر قرآنكم أن الملائكة جهلت معرفة الأسماء مع ما لها من القرب من الله؟

قال: ذلك يرجع إلى أن أسماء الله لا يحصرها الحاصر، وهي تتعلق بكل الأشياء.. ولذلك لا يعرف شيء منها إلا من له علاقة به.

فالملائكة ـ عليهم السلام ـ مفطورون على الطاعة، وتستحيل في حقهم المعصية، فلذلك قد لا يدركون من أسماء الله التي يعرفونها ما يتعلق بالمغفرة والتوبة، فذلك لما عرضت هذه الأسماء أخبروا عن جهلهم بها وردوا العلم فيها إلى الله.. ولعله لأجل هذا أسرع آدم ﵇ بالتوبة بمجرد اقتراف المعصية لما علمه من أسماء الله المقتضية لذلك.

رسل:

قلت: إن كل ما ذكر من مؤهلات التكليف يخص آدم ﵇، فكيف يكون العدل في تكليف البشرية جميعا بمؤهلات وهبت لفرد منها؟

قال: مع أن المعارف التي تلقاها آدم ﵇ ورثها لذريته، إلا أن رحمة الله تعالى لم تكتف بهذا التوريث الذي قد يدخل فيه من التحريف ما ينحرف به مسار الإنسان، بل زودت الإنسان بمدد آخر هو المدد الثاني.. وهو من أهم الأمداد.

قلت: فما هو؟

قال: لقد زود الله الإنسان بمعلمين دائمين للأسماء والحقائق، ولهذا قال تعالى لآدم ﵇ بعد نزوله إلى الأرض:﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: من الآية38)

ولذلك أخبر تعالى أنه لم يخل القرى من الأنبياء والرسل المقومين لأقوامهم والمعرفين بالفطرة الأصلية، والمعلمين للأسماء، والهادين إلى الإجابات الصحيحة على اختبارات التكليف،

قال تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:24)، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:36)

فهاتان الآيتان الكريمتان تدلَّان على أن كل الأمم السابقة أرسل الله لها من ينذرها، ويعرفها بوظيفتها، وبمقتضيات هذه الوظيفة، ولذلك نبه من قد يتصور أن الأنبياء مقصورون على ما ورد ذكرهم في القرآن الكريم إلى وجود غيرهم، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: من الآية78)

ولذلك من الأخطاء الشائعة اعتقاد النبوة خاصة بمناطق معينة كالشام والحجاز ونحوها، بل على سلالات معينة كسلالة إبراهيم ﵇، بل إن النبوة تشمل الأرض جميعا، ولكن القرى لم تلق بالا لهؤلاء الأنبياء، فلذلك نسوا، وأهمل ذكرهم،أو حرفت تعاليمهم (1).

ولذلك كان من عدل الله ورحمته بخلقه أن لا يحاسبهم إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى:﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام:131) أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحد إلا بعد إرسال الرسل إليهم.

ولهذا تستفهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ المعذبين عن إرسال الرسل إليهم بمجرد إلقائهم في العذاب، كما قال تعالى:﴿ كُلَّمَا

---

1) للأسف، فإن المؤرخين المسلمين ــ ابتداء من الطبري وغيره ــ تأثروا بالتاريخ الإسرائيلي، فراحوا ينقلونه حرفيا معتبرين أنه حقائق ثابتة، وقد نقله عنهم كثير من كتاب قصص الأنبياء.

والناظر في هذا التاريخ يكاد يحصر الخير والنبوة في محل معين من العالم.. وأن ما عداه كأنه لا علاقة له بالله، ولا بالتكاليف.. وقد ورد في الحديث عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا). قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمّ غَفِير) قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: (آدم) قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: (نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاه قِبَلا) رواه ابن مردويه وغيره.

أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك:8 ـ 9)، وقال تعالى:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر:71)، وقال تعالى:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر:37)

وقد بين الله تعالى سنته في ذلك ـ والتي لا تبديل لها ــ فقال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الاسراء: من الآية15)

قلت: ولكن الرسل معدودون ومحدودون.. وأنت ترى أن أجيالا مرت على البشرية لم يرسل لها فيها رسول واحد.

قال: لقد تفضل الله على عباده برحمته، فأنزل عليهم كتبا فيها كلامه لهم.. ليعرفهم فيها بنفسه، وبحقيقتهم، ووظيفتهم، ويدعوهم بكل الأساليب ليتخلصوا بها من كل الحجب، ويقضوا على كل العصابات التي تحول بينهم وبين الامتحان العظيم الذي أعده لهم.

وكتب الله لا تعد ولا تحصى، وكلمات الله إلى خلقه لا تنفذ، قال تعالى:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:109)، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان:27)

والله تعالى ـ برحمته ـ أمد عباده في أول لحظة احتاجوا فيها إلى كلماته ليضمدوا بها الجراح التي أحدثتها فيهم عصابات الغفلة، قال تعالى:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:37)

وظلت هذه الكلمات هي السيف الأعظم الذي يحطم حجب الغفلة، ويقضي على عصاباتها، قال تعالى:﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (يونس:82)

وسر ذلك يرجع إلى التأثير العظيم الذي جعله الله في هذه الكلمات، قال تعالى:﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:21)

والبشرية التي تاهت عن الله، فاستحقت بذلك أن تطبق عليها قوانين العدالة الإلهية لم تته لأن الله حرمها من كلماته، وإنما تاهت لأنها احتقرت كلمات الله، أو تدخلت فيها كما يتدخل المجرمون، فيحولون من القوانين وسائل إجرام، قال تعالى عن المبدلين الذي تدخلوا في كتب ربهم ينسخونها بما ينسجم مع أهوائهم:﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)﴾ (آل عمران)

وقال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80)﴾ (البقرة)

ولو أن هذه البشرية تخلصت من أهوائها، وراحت تقرأ رسائل ربها بصدق، فإنها تجد الحق أمامها أقرب إليها من كل شيء، قال تعالى:﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)﴾ (المائدة)

وقال تعالى:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) ﴾ (المائدة)

وفي تلك اللحظات ستنزل عليهم جميع بركات الله التي حجبتها عنهم عصابات الغفلة، قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾ (المائدة) (1)

قلت: ولكن كلمات الله قد يساء فهمها، وهي على العموم لا تغني عن المبلغين والشارحين.

قال: ولذلك كان من رحمة الله وعدله بين عباده أن جعل في البشر خلفاء للرسل يحفظون هديهم.. ولا يخلو منهم زمان.. لتقوم بهم الحجة على عباده، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:32)

وقال رسول الله ﷺ:(لا نزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)(2)

وقال:(لن تخلو الارض من ثلاثين مثل ابراهيم خليل الرحمن، بهم تغاثون، وبهم ترزقون، وبهم تمطرون)(3)

وقال:(إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن إنما دخولها برحمة الله، وسخاوة الانفس، وسلامة الصدر، ورحمة لجميع المسلمين)(4)

فهذه الأحاديث وغيرها كثير يثبت لطف الله بعباده.. فكل من

1) يسيء كثير من المبشرين فهم مثل هذه النصوص، فيتصورون بذلك أن القرآن الكريم الذي نص على تحريف كتبهم هو الذي دعاهم إلى الرجوع إليها، وأنهم بذلك على الحق، وقد رددنا على هذه الشبهات بتفصيل في رسالتي (أنبياء يبشرون بمحمد)، و(الكلمات المقدسة)

2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

3) رواه ابن حبان في تاريخه عن أبي هريرة.

4) رواه البيهقي في الشعب.

احتاج الوصول في أي لحظة وجد من يدله عليه(5).

ولهذا، فإن الله تعالى لا يقيم الساعة إلا بعد أن تنفذ الأرض من أوليائه، قال ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض: الله الله)(2)، وقال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)(3)

أجواء:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الثالث؟

قال: المدد الثالث هو تفريغ الإنسان للاختبار بتيسير حياته على الأرض، بحيث لا يستهلك وقته في رعاية جسده وحفظ وجوده.. ويشير إلى هذا قوله تعالى عقب الآية المخبرة عن غاية الخلق:﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ (الذريات:57)، ثم تعقيبها بقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذريات:58)

ففي ذلك كله إشارة إلى تفريغ الإنسان إلى ما طلب منه من مزاولة الخلافة، وأداء ما أمر به من عبادة.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من النصوص الدالة على تيسير الحياة على الأرض وتوفير ما يحتاجه الإنسان من مرافق ليتفرغ للتكليف.

وهذا سر من أسرار تسخير الأشياء للإنسان ليتناول منها باسم الله ما يحتاجه وجوده على هذه الأرض، وليكون اختبارا من جهة أخرى، ولذلك يعرض القرآن الكريم أنواع المسخرات لتشير إلى مدى التفرغ الذي أوتيه الإنسان لمزاول التكليف:

ومن المسخرات المذكورة في القرآن الكريم تمهيد الأرض وتيسير الحياة عليها حتى صارت كالدابة الذلول، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

5) انظر تفاصيل ذلك في رسالة (أهل الله) من هذه المجموعة.

2) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

3) رواه أحمد.

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:15)

ومنها تسخير الوسط والأجواء التي يعيش فيها الإنسان كما قال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (ابراهيم:33)، وقال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل:12)، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج:65)

ومنها تسخير جميع الكائنات الحية التي على الأرض للإنسان، كما قال تعالى:﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج:37)، وقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

بل إن القرآن الكريم يخبرنا عن تسخير ما في السموات كتسخيره ما في الأرض للإنسان، كما قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان:20)، وقال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:13)

ومن خلال ما ورد في النصوص، فإن الغرض من هذا التسخير ليس هو تفريغ الإنسان لعبودية الله فقط، بل هناك غرض آخر يرتبط بالتكليف، وهو اختبار سلوك الإنسان مع هذه المسخرات، هل يتعامل معها باسم الله، أم باسمه هو، وهل ينسبها إلى الله أم ينسبها إلى نفسه، ولذلك عقب تعالى على تسخير الحيوانات المركوبة بقوله تعالى:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:13)

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن المقصد من تفريغ

الإنسان عبادته لله، كما قال تعالى:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ (الشرح:7)، أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل:8)، أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته.

وقد ورد في الحديث القدسي:(يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك)(1)

وإلى هذا المعنى أشار الأثر الإلهي المشهور:(ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)

ولذلك يشير العارفون إلى هذا المعنى في تربية السالكين حتى لا ينشغلوا بما ضمن لهم عما طلب منهم، كما قال ابن عطاء الله معبرا عن ذلك:(اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ، دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ)

أنوار:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الرابع؟

قال: ما بثه الله من أنوار الهداية.. فهي كالمصابيح تضيء للسالكين إلى الله دروب الهدى.

قلت: فما هذه الأنوار؟

قال: أعظمها نور الله.. فمن عرف الله تعالى رأى كل ما في الكون أنوارا من أنوار الهداية، فكل شيء يدل على الله، وكل شيء يعرف بالله، حتى ما نتصوره من حجب تحجب عن الله هي

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

في حقيقتها أدلة على الله وهادية إليه.

فإن من أسمائه تعالى النور والظاهر والهادي، فهو النـور الـذي اسـتمدت منـه جميـع الأشـياء وجودهـا، قـال تعـالى:﴿ اللَّهُ نُـورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: من الآية35)

وهو الهادي الذي دل على نفسه بكل شيء ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53)

فكيف بعد هذا يتصور أن يحتاج إلى ما يـدل عليـه و﴿ هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:3)

وكيف يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه، و(جميع ما في العالم شـواهد ناطقـة وأدلـة شـاهدة بوجـود خالقهـا ومـدبرها ومصـرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته) (1)

فإن كان البشر يستدلون بعقولهم التي يتيهون بها على الكــون على حياة الكاتب وليس لها من شاهد إلا ما أحسسنا به من حركـة يده، (فكيف لا يظهر عندنا مـا لا يتصـور في الوجـود شـيء داخـل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتـه وجلالـه، إذ كـل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودهـا بنفسـها ولا حركتهـا بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك)

ولهذا لا يرى العارف الذي أعمـل مـا أعطـاه اللـه من طاقـات ومـواهب (إلا اللـه تعـالى، ولا يعـرف غـيره، يعلم أنـه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهى تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويـرى فيـه الفاعـل، ويـذهل عن الفعـل من حيث إنـه سـماء وأرض وحيـوان وشجر،بـل ينظـر فيـه من حيث أنـه صـنع الواحـد الحـق فلا يكـون نظره مجاوزا له إلى غيره)(2)

ولهذا، فإن أول نور من أنوار الهداية هـو اللـه، فاللـه هـو النـور

1) الإحياء:6/382.

2)الإحياء:6/382.

الذي يستدل به، ولا يحتاج للاستدلال عليه.

ولهذا يقول العارفون في مناجاتهم:(إلـهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور مـا ليس لك حتى يكون هو المظهر لـك؟ مـتى غبت حـتى تحتـاج إلى دليـل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟)

ويرددون مع أبي الحسن الشاذلي:(كيف يعرف بالمعـارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجـود كل شيء)

فهذا النور من أنوار الهداية كاف واحده لإضاءة جميـع ظلمـات الكـون، وكـاف وحـده لخـرق جميـع حجب الغفلـة، ولحـرق جميـع عصابات الغواية.

قلت: أنعم به من نور.. فما غيره؟

قال: أكوان الله**..**

قلت: أليست الأكوان هي سبب الغفلة؟

قال: عندما ننظـر إلى الأكـوان بمنظـار الغفلـة تكـون من جنـد الغفلة ومددها.. لكنا إن نظرنا إليهـا بمنظـار اليقين والإيمـان، فإنـا سنراها مرائي تتجلى فيها الحقيقة بأكمل صورها..

ولهذا اعتبر القرآن الكريم الكون جميعا هاديا إلى اللـه ومعرفـا بالله.. ولهـذا دعـا الخلـق الغـارقين في أو حـال الجـدل إلى إغلاق أسـفارهم الـتي تبحث عن وجـود اللـه لينظـروا:﴿ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّـمَاءِ كَيْـفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)﴾ (الغاشية)

والله تعالى يخاطب العقـول جميعـا الـتي يتفـق البشـر جميعـا على أن لهم منها النصيب الأوفر، بل إن أكبر مسبة لهم أن يتهمهم أحـد في عقـولهم ليقـول لهم:﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:164)

ويعـرفهم بـ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقـاً لَكُمْ وَسَـخَّرَ لَكُمُ الْفُلْـكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (ابراهيم:32)

ويسأل عقولهم التي تشـق الشـعر بـذكائها، ليقـول لهـا:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل:60)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَـا أَنْهَـاراً وَجَعَـلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَـلَ بَيْنَ الْبَحْـرَيْنِ حَـاجِزاً أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:61)

ويقـول لهـا:﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل:62)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـاتِ الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَـعَ اللَّهِ تَعَـالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ (النمل:63)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:64)

بعد هذا، وهو رشحة من محيـط الـدلائل على اللـه، هـل يمكن لعاقل أن يقول بأن الكون حجاب عن الله، وهـو كتـاب اللـه الـذي تجلى لعباده من خلاله.

وهـل يمكن أن نجعـل أولئـك المسـدلين حجب الغفلـة أصـلا، ونجعـل كـل هـذه الـدلائل أنـوارا كاسـفة؟.. أم نتصـور أن شـمس الكون تحجبها تلك الأكف الهزيلـة الـتي تريـد أن تحـول بين الخلـق وإبصارها؟

***

قلت: أنعم بما ذكرت من أنواع المدد.. ولكن ألا ترى أن كتابكم المقدس الذي ينص على ما ذكرت من معان هـو نفسـه من يخـبر بـأنواع كثـيرة من السـدود تمنـع الضـال من الهدايـة والكـافر من الإيمان!؟

فكيف يحطم الضال أو العاصي حصـون الختم والطبـع والأكنـة والغطاء والغلاف والحجاب والوقرة والغشاوه والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمي والصد والصرف والضلال والإغفال والمرض والخذلان والأركاس والتثبيط والتزيين التي يحدثنا القـرآن الكريم أنها حواجز منيعة تحول بين الكافر والإيمان[1]!؟

وكيف تفسـر مـا ورد في القـرآن من أن اللـه هـو الـذي وضـع الحجب التي تحول بين عباده والإيما.. فقد ورد فيه:﴿ إِنَّا جَعَلْنَـا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدّاً فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ﴾ (يّـس:9) ثم ذكـر نتيجـة هـذه السـدود بقولـه:﴿ وَسَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يّـس:10)

وفيه الإخبـار عن ختم اللـه على القلـوب والأسـماع:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَى سَـمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَـارِهِمْ غِشَـاوَةٌ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:7)، وفيه:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَـوَاهُ وَأَضَـلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِـهِ وَجَعَـلَ عَلَى بَصَـرِهِ غِشَـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثـية:23)

قـال: ألا تـرى أن المجـرم في أي قـانون من قـوانين الـدنيا يحاسب ويعاقب بحسب جرائمه، فقد يكتفى بحجزه أياما معدودة، قد يتلقى فيها بعض التوجيهات، ثم يطلق لحال سبيله.

وقد تزيد جريمته، فيشتد عليه بحسبها، بل قد يحكم عليـه بـأن يقضي حياته محجوبا في السجن، أو يقضى عليه بالإعدام؟

قلت: صحيح هذا.. ولكن ما علاقته به؟

قال: أهـذا السـلوك الـذي سـلك مـع المجـرم بسـبب جرائمـه سلوك عادل أو ظالم؟

---

1) انظر الإجابة المفصلة على هذه الشبهة في رسالة (أسرار الأقدار)

قلت: بل هو سلوك عادل.. وكل الفطر تسلم لذلك.

قـال: فمـا ذكـره القـرآن الكـريم من المصـطلحات الحسـية المرتبطة بهذا لا يعني إلا هذا.

قلت: لم أفهم.. كيــف يحبس القلب أو كيــف يختم عليــه.. ثم يكون ذلك الحبس والختم عقوبة عادلة.

قال: أرأيت لو وهب للمتحنين في أي امتحان ورقة بيضاء نقيـة كنقاوة الفطرة الإنسانية، فاشتغل بعض الطبة بتلطيخ تلك الورقــة إلى أن أصبحت ورقـة سـوداء لا محـل فيهـا لأي إجابـة صـحيحة أو خاطئة، فهل يقال بأن مراقب الامتحـان إن أخـبر الممتحن العـابث بأن ورقته قد طبع عليها أو ختم عليها، فليس فيها محل لأي جواب يكون المراقب قد أجبره على ذلك الطبع والختم؟

قلت: لا.. المراقب هنا يصف الحقيقة..

قال: فمثل ذلك تماما ورقة الفطرة الإنسـانية، وصـفحة القلب إن ملأها صاحبها بصنوف المعاصي..

لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإشارة إلى هـذا.. فاللـه تعـالى عنـدما حـدثنا عن شخصـية المطفـف المحتـال الـذي يتعامـل مـع الحقائق الكبرى انطلاقا من مصالحة الضـيقة المحـدودة، فتختصـر الدنيا والآخرة عنـده في تلـك المكاييـل الـتي يكيـل بهـا، وفي تلـك الفوائد التي يجنيها.. بدأ فأخبرنا بمصيرهم الأخروي الذي ينتهي بهم إلى سجين، وهي السجن الضيق، وهو سجن يتناسـب مـع قلـوبهم التي ضاقت عن الحقائق واكتفت بالمكاييـل، قـال تعـالى:﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9)﴾ (المطففين)

والآيات الكريمة لا تقتصر على عـادة القـرآن الكـريم في ذكـر العقوبة دون ذكر التهم الموجهـة لأصـحابها، فلـذلك جـاء بعـد هـذه الآيات ما يبين انسجام العقوبة مع نفسية وسـلوك صـاحبها، فقـال تعالى:﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَـذِّبُ بِـهِ إِلَّا كُـلُّ مُعْتَـدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُــوبِهِمْ مَــا كَــانُوا يَكْسِــبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُـونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَـالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَـالُ هَـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) ﴾ (المطففين)

فالآيات الكريمة تتحدث عن علة تلك العقوبة العظيمة، وهو أن هؤلاء الذين يتعرضون لصنوف الهداية من المرسلين أو من ورثتهم ينحجبون بالغفلة التي أفرزتها الأهواء في قلوبهم عن رؤية الحق أو الاستماع له، فلذلك ينسبون تلك الآيات التي يتلوهـا المؤمنـون إلى أساطير الأولين.

وهم في ذلــك يشــبهون ذلــك الممتحن الــذي يلطخ صــفحته البيضاء الطاهرة بصنوف العبث والعشوائية.

ثم بينت الآيات السبب لذلك، وهو لا يختلـف عن السـبب الـذي جعل الممتحن يلطخ ورقة إجابته، وهو ما نص عليه قولـه تعـالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ ﴾ (المطففين:14)، أي أن كسبه وعمله وحركة قلمه هي التي ملأت فطرته بقعا منحرفــة حالت بينها وبين التعرف على الحق أو سلوكه.

وقد فسر ﷺ الآية بقولـه:(إن العبـد إذا أذنب ذنبـاً كـانت نكتـة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صـقل قلبـه، وإن زاد زادت، فـذلك قول اللّه تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾)(1)

وإن أردنا تمثيلا واقعيا آخر على هذا، وهو ما يكاد ينطق به هــذا الحديث الشريف هو ما نعرفـه في الواقـع من تـأثير الإدمـان على الجسد، بحيث لا يملك صاحبه دفع آثاره، فالمدمن هـو الـذي أقبـل على ما أدمن عليه باختياره، ولكنه نتيجـة للمبالغـة فيـه وصـل إلى حالـة المتحكم فيـه بعـد أن كـان متحكمـا في نفسـه، كمـا قـال الشاعر:

تولع بالعشق حتى عشق

فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة

1) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فلما تمكن منها غرق

والقلب في ذلك كالجسد، قد يتمكن منه ما بالغ فيـه إلى الحـد الذي لا يبقى في قلبه محلا لغيره، وحينذاك يغلق قلبـه أو يقفـل أو يختم عليه، ويكون ما حاق به من ذلك أمرا غـير مسـتغربا، ويكـون هو الجاني على نفسه في كل ذلك.

ولذلك لم ترد هذه التعابير في القرآن الكريم إلا مـع من اشـتد في كفره وبالغ فيه إلى درجت محقت من قلبه كل استعداد للخير، أما الكفار العادي، فإن أكثر من تبع الأنبيـاء ونـالوا فضـل صـحبتهم كانوا كفارا، وانتقلـوا إلى الإيمـان لأنـه لم يختم على قلـوبهم بختم الإدمان.

4 ـ المجازاة

قلت: وعيت هـذا.. فحـدثني عن الكلمـة الرابعـة.. حـدثني عن المجازاة.

قال: لقد نصت جميع نصوصنا المقدسة على أن كل جزاء يناله الإنسان خيرا أو شرا، في الدنيا أو الآخرة هو ثمرة من ثمار كسبه، وحصاد من نبت زرعه، فلا ينال الإنسـان إلا مـا كسـبت يـداه، قـال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـاهُمْ لِيَـوْمٍ لا رَيْبَ فِيـهِ وَوُفِّيَتْ كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:25)

قلت: إن في نصوصنا المقدسة مـا يـدل على هـذا أيضـا.. فمـا أسهل الدعاوى.. وما أسهل نقضها.

قال: لا.. ليس في نصوصنا المقدسة أي تنـاقض في هـذا.. بـل إنها جميعا في منتهى التكامل والتوافق والعقلانية.

أعجبتني أحاديثه، فرحت أسـتفزه بقـولي: فمـا الكلمـات الـتي تعلمتها من نصوصك المقدسة في هذا؟

قال: كلمات كثيرة.. سأقتصر لك منها على أربع كلمات.

أما أولاها فهي المساواة.. فالجزاء الإلهي يتساوى فيه الجميـع، فلا يفضـل فلان من النـاس على غـيره.. ولا تفضـل فيـه أمـة على

غيرها.. فالخلق كلهم خلق الله.. والعـدل يقتضـي أن يعـاملوا كلهم معاملة واحدة.

وأما الثانية، فهي المـوازين.. فـالجزاء الإلهي مـوزون بمـوازين دقيقة تسجل كل شيء، ولا يغيب عنها شيء.

وأما الثالثة، فهي المحاكمة.. فالجزاء الإلهي لا ينالـه صـاحبه إلا بعد أن يحاكم محاكمة عادلة، يتاح لـه فيهـا أن يستشـهد من يشـاء من الشهود، ويدافع عن نفسه بما استطاع أن يدافع.

وأما الرابعة، فهي التوافق.. فالجزاء الإلهي متوافـق تمامـا مـع الأعمال، وكأنه حصاد لبذور الأعمال، فمن زرع شـوكا لن يجـني إلا شوكا.

المساواة:

قلت: أنعم بما ذكرت.. فحدثني عن أولاها..

قال: إن الوصف الأول للجزاء الإلهي هو المساواة، فالله تعالى يعامل عباده معاملة واحدة، والمعاملة الواحدة تقتضـي أن يجـازى كل شخص بحسب عمله، لا بحسب هواه.

ولهذا كانت آخر آية من القرآن الكريم، أو آخـر وصـية من اللـه لعباده هي قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيـهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:281)

وهو المعنى الذي أكدته بتعابير مختلفـة كثـير من آيـات القـرآن الكريم، قال تعـالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسـاً إِلَّا وُسْـعَهَا لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقـرة: من الآية286)، وهـذه الآيـة الكريمـة جمعت بين العدالتين: عدالة التكليف وعدالة الجزاء.

وبهذا، فإن كسب الإنسان وحده هو الذي يحدد مصيره، والعدل يقتضي تفرد الكسب بتحديد المصير حتى لا ينجح في هذا الامتحان إلا الجادون المجتهدون الصـادقون، كمـا قـال ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواهـا وتمـنى

على الله)(1)

والمراد بالهوى هنا هو كل ما يتصوره الإنسان فكرا سليما أو ذوقا رفيعا أو كشفا صادقا يحول بينه وبين ممارسة العمل الذي كلف به الخلق جميعا، أو يجعل له من المزية ما ليس لغيره مما يتناقض مع نظام العدل الذي بني على أساسه الكون.

ولهذا ما ذكر الهوى في القرآن الكريم إلا مذموما، وقد قال ابن عباس:(ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى:﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (لأعراف: من الآية176)، وقال تعالى:﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (الكهف: من الآية28)، وقال:﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّه﴾ (الروم: من الآية29)، وقال:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ﴾ (القصص: من الآية50)، وقال:﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (صّ: من الآية26)) (2)

ولهذا نفى القرآن الكريم كل ما يتوهمه الإنسان من الأهواء والعلل التي يتصور أنها قد تلغي عدالة الله:

ومنها تصوره ارتباط مصيره بمجرد أمانيه وأحلامه وأوهامه، وكأن أوهامه هي التي تملي على الله ما يطلبه، أوكأنه يريد أن يساوي لذات أمانيه بعرق ودماء وجهد العاملين المخلصين، قال تعالى نافيا هذا الوهم:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ (النساء:123 ـ 124)

وقال منكرا على من غرته الأماني:﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (لنجم:24)أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له، وقد عقبت هذه الآية بقوله تعالى:﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (لنجم:25)، وكأنها تشير إلى أن عجز الأماني وقصورها عن تحقيق مطالب الإنسان في الدنيا هو نفسه عجزها وقصورها عن تحقيق مطالبه في الآخرة.

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

2) القرطبي:16/167.

ومنها الفهم الخـاطئ لحقيقـة الشـفاعة، حيث حولتهـا الأمـاني القاصرة إلى وساطة كوساطات الدنيا تعمق الجور، وتولــد الظلم، فلذلك عقبت الآيات السابقة من سورة النجم بقوله تعالى:﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَـيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْـدِ أَنْ يَـأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:26)

والشفاعة في حقيقتها ـ والتي تدل عليها النصوص ـ هي جــزاء كسائر أنواع الجزاء التي ينالها الخلق في الآخرة لأعمال عملوها أو صفات اتصفوا بها، وليست كما يتوهم من أنهـا وسـاطة ينجـو على أساسـها قـوم في الـوقت الـذي يحـرم منهـا غـيرهم مـع تسـاوي الاستحقاق، لأن ذلك لا يتناسب مع العدل المطلق الذي بنيت عليـه قوانين الآخرة.

ولذلك أخبر ﷺ أنـه لا ينتفـع من لا يسـتحق من أمتـه من هـذه الشفاعة، فقال ﷺ في موعظة جمع لها الصحابة ﵃:(أيهـا النـاس إنكم محشورون إلى الله عزَّ وجلَّ حفاة عراة غرلا ﴿ كَمَا بَـدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (الانبياء: من الآية104)، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبـراهيم، ألا وإنـه يجـاء برجـال من أمـتي فيؤخـذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقـال: إنـك لا تـدري مـا أحـدثوا بعـدك فأقول كما قال العبد الصـالح:﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (117) إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ (118)﴾ (المائدة)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) (1)

ومن الأهواء التي تصـورها الخلـق بـديلا عن الكسـب الاغـترارا بالأنساب، وتوهم أنها من القوة بحيث تحول بين اللـه وعقوبـة من يستحق العقوبـة، فيتسـاوى في منطقهـا الصـائم القـائم بالسـكير الفاجر لأن نسب الفاجر ـ على حسب هذا الـوهم ــ من القـوة مـا يلغي عدالة الله بين عباده.

ولهذا أنكر تعالى على الأمم قبلنـا هـذا الـوهم، فقـال تعـالى:﴿ وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُـلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ

1) رواه البخاري ومسلم.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:18)

وأخبر تعالى أن لكل أمة ما كسبت، فلا يسأل إلا المكتسب، قال تعالى:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:134)، أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم.

وقد أشار تعالى إلى هذا عدم جدوى هذا الوهم بقوله على لسان يعقوب ﴿:عليه السلام يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: من الآية67)

وإلى هذا أيضا يشير قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ من أن الأمر لله وحده، قال تعالى:﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:128)

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(ما من رجل يسلك طريقا يطلب فيه علما إلا سهل الله له طريق الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)(1)

وفي هذا الحديث جمع لطيف بين المجتهد الذي يسلك طريق العلم، فيسلك بسلوكه طريق الجنة، وبين من يكتفي بالقعود مع التغني بأمجاد سلفه التي لا تغني عنه شيئا.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشتد في نفي هذه الأنواع من الأوهام، وقد قرأ مرة قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13)

ثم قال:(فليس لعربى على عجمى فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لاسود على أبيض فضل، ولا لابيض على أسود فضل، الا بالتقوى، يا معشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على

---

1) رواه مسلم.

أعناقكم، ويجئ الناس بالاخرة، فانى لا أغني عنكم من اللـه شـيئا) (1)

وهـذا القـانون الإسـلامي هـو الفاصـل بين فهم الإسـلام لـدور الكسـب، وبين فهم المسـيحية الـتي تربـط مصـير الخلـق جميعـا بخطيئة أبيهم آدم ﵇، ثم تربط تكفير الخطيئة بمن لم يعملها.

ومنهـا وهم الانتسـاب إلى مـذاهب أو أديـان مـع الخلـو من الأعمال، فيتصور المتوهم أن انتسابه وحده كاف في نجاته، ولذلك قال تعالى رادا على بني إسـرائيل في قـولهم:﴿ لَنْ يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ (البقرة: من الآية111)

وقد رد الله تعالى على هذا الوهم بقوله تعـالى:﴿ تِلْـكَ أَمَـانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: من الآية111)

ويدخل في هذا الوهم هذه التصنيفات الكثيرة الـتي امتلأت بهـا أسماع الأمة من تقسيمها إلى سنة وشيعة وغيرها.. فيحسـب كـل سـني أنـه قـد ظفـر بـالفردوس الأعلى مـا دام قـد احتكـر سـوق السنة..ويحسب الشيعي أن غيره عامة لن يرقى إلى رتبته مـا دام قد احتكر سوق أهل البيت..

وهذه كلها أوهام..

فالله تعالى قسم عباده أقساما كثـيرة.. وليس منهـا واحـد من هذه الأقسام، فقد قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:32)

فكل صنف من هذه الأصناف قد يكون سنيا، وقد يكون شـيعيا، وقد يكون من غيرهما.

فاللـه تعـالى بعدلـه لن يسـأل النـاس يـوم القيامـة عن متـون العقائد، وهل حفظوها، وإنما يسألهم عمـا انطـوت عليـه جـوانحهم من الإيمان، وعما كسبته جوارحهم من السلوك.

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن رجلا كـان قبلكم رغسه(2) الله مالا وولدا، فقـال لبنيـه لمـا أحتضـر: إي أب كنت لكم؟ قـالوا: خـير أب، قـال: إني لم أعمـل خـيرا قـط فـإذا مت فـأحرقوني ثم اسحقوني، قم اذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله فقال: ما حملك؟ قال مخافتك فتلقاه برحمته)(3)

فهذا الرجل ـ على حسب هذا الحـديث الصـحيح ــ كـان يحمـل عقيدة منحرفة في قدرة الله تعالى (3).. فهو تصور أنه إن فعل بـه ما فعل لن يقدر الله على جمعه، ومع أن هذه العقيدة عقيدة كفــر إلا أن الله تعالى برحمته نظر إلى قصده ونيته، فغفر له.

ومنها وهم من ألفوا الرشوة في الدنيا، فيتصورون أن بإمكانهم رشوة الملائكة، أو ربما رشوة الله تعالى، قـال تعـالى:﴿ فَـالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَـوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد:15) أي لو جاء أحـدكم اليـوم بملء الأرض ذهبـاً ومثله معه ليفتدي به من عذاب اللّه ما قبل منه.

ومنها أوهام كثـيرة تخـالف سـنة اللـه في التعامـل مـع خلقـه، والذي أثبته في الكتب السالفة كما أثبته في القـرآن الكـريم، قـال تعـالى في آخــر سـورة النجم الـتي جمعت أوهـام القاعـدين عن الكســب:﴿ أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي تَـوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْـدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَــى (36) وَإِبْـرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَـعَى (39) وَأَنَّ سَـعْيَهُ سَـوْفَ يُـرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)﴾ (النجم)

---

2)رغس: أي أكثر له منهما ويبـارك لـه فيهمـا، والـرغس: السـعة في النعمـة والبركـة والنما (النهاية:2 / 283).

3) رواه البخاري ومسلم.

3) وقد ورد في طرق أخرى مـا يؤكـد هـذا، فقـد روى أحمـد والحكيم والطـبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده يرفعه قال: كان عبد من عباد الله آتاه الله مالا وولدا، فذهب من عمره عمر وبقي عمر، فقال لبنيـه: أي أب كنت لكم؟ قـالوا: خـير أب، قال: إني والله ما أنا بتارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذتـه أو تفعلـون بي مـا أقـول لكم، فأخــذ منهم ميثاقــا قــال: أمــا الاول فــانظروا إذا أنــا مت فـأحرقوني بالنــار، ثم اسحقوني، ثم انظروا يوما ذا ريح فأذروني لعلي أضـل اللـه، فـدعي واجتمـع، فقيـل: مـا حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه.

فهذه سنة الله التي لا تحتمل التغيير ولا التبديل، وكل ما يتوهم أنه شذوذ عنها، فسببه اختلاط المفاهيم أو تدخل الأهواء فيها.

وبناء على هذا فإن الخلق في الدنيا والآخـرة يصـنفون بحسـب أعمالهم، ويجازون بحسب أصـنافهم، فلا يـدخل في كـل صـنف إلا من وفر من دلائل انتسابه ما يؤهله لذلك.

ولهـذا نفت الآيـات القرآنيـة الكثـيرة أي مسـاواة بين العامـل والمتكاسل، أو بين المصلح والمفسد، قال تعالى:﴿ أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (صّ:28)

وفي آيـــة أخـــرى يســـتفهم مســـتنكرا:﴿ أَفَنَجْعَــلُ الْمُسْــلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم:35)

وقد شبه الله تعالى ـ لتقريب الصورة للأذهان ـ ولإقناع العقـل المجادل بصحة هذا التصنيف ـ بعدم تسـاوي التعامـل مـع مـا نـراه من المحسوسات، فقال تعالى:﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيث﴾ (المائدة: من الآية100)

وشبه ذلك بالبحار المختلفة الطعوم والمنافع، قال تعالى:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَـرَابُهُ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَـاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ فِيـهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر:12)

وشبه ذلك بالتمايز الذي نراه بين الحي والميت، فقال تعالى:﴿ وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَحْيَـاءُ وَلا الْأَمْـوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْـمِعُ مَنْ يَشَـاءُ وَمَـا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:22)

وشبه الفريقين من المؤمنين وغيرهم بالمنعم عليهم بـالحواس والفاقـدين لهـا، قـال تعـالى:﴿ مَثَـلُ الْفَـرِيقَيْنِ كَـالْأَعْمَى وَالْأَصَـمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هـود:24)، وقـال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ أَمْ هَـلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: من الآية16)

وشبه الفريقين بالأحرار والعبيد، فقال تعالى:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً

رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:76)، وقال تعالى:﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:29)

ولهذا، فإنه لا يستوي ـ في ميزان العقل ـ المجتهد بالمتكاسل والعامل بالمقعد والقائم بالنائم، قال تعالى:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:9)

ولا يستوي المجاهدون المضحون بأنفسهم في سبيل الله بالراكنين إل مخادع الرخاء، قال تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:95)

وهذا التفريق شامل لأجزية الدنيا والآخرة، قال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية:21)

فحكمة الله وعدالته التي قام عليها السموات والأرض تأبى المساواة بين المسيء والمحسن، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (لنجم:31)

قلت: وعيت هذا.. ولكن هذا خاص بالمكلف.. فكيف يتحق العدل مع غير المكلف؟ مع ذلك الصبي الذي مات وهو يحمل بذور الخير والشر، والتي لم تسق بعد فتنبت.. أو مع ذلك الفلاح الذي عاش في أقاصي الأرض منهمكا مع محراثه لا يعلم بإله، ولا يعرف نبيا.. أو مع ذلك المعتوه الذي يرمى بالحجارة، ولو كان عاقلا لتبين معدنه، وتحقق خبثه أو طيبه.. إن قلنا بأنهم يدخلون الجنة، فبأي عمل عملوه؟ وإن قلنا بأنهم يدخلون النار، فبأي جناية جنوها؟ وإن قلنا: إن أمرهم للمشيئة، أو لعلم الله فيهم، فلماذا لم

يكن أمر الخلق جميعا للمشيئة، فلم تقم محكمة القيامة، ولم يكن هناك حساب ولا كتب ولا مـوازين؟ وإن قلنـا: إن أمـرهم للرحمـة، فقد يقول البالغ: لماذا يارب لم تتوفني صبيا لتشملني رحمتك التي شملت الصبي؟ ويقول العاقـل: لم يـارب لم تـذهب عقلي لأبصـر من الرحمة ما يبصره المجنون؟ ويقـول الفيلسـوف: لم يـا رب لم تجعلني في غياهب الجهل التي حميت بها ذلك الفلاح البسـيط من التعرض لمقتك وعقابك؟ (1)

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة أن هؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة التكليف في الدنيا تتاح لهم هذه الفرصـة في الآخـرة.. فقـد ورد فيها أن الله تعالى يرسل إليهم رسولا، وإلى كـل من لم تبلغـه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنـة، ومن عصـاه دخـل النـار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار(2).

ومما ورد في هذا أن رسول الله ﷺ قال:(أربعة يمتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسـمع، ورجـل أحمـق، ورجـل هـرم، ورجـل مات في الفترة، أما الأصم فيقـول:(يـا رب قـد جـاء الإسـلام ومـا أسمع شيئا) وأما الأحمق فيقول:(يا رب قد جاء الإسلام والصـبيان يرمونني بالبعر) وأما الهرم فيقـول:(يـا رب قـد جـاء الإسـلام ومـا أعقل شـيئا) وأمـا الـذي مـات في الفـترة فيقـول:(مـا أتـاني لـك رسول)، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسـولا أن ادخلـوا النار، قال ﷺ:(فوالذي نفسي بيده لو دخلوهـا لكـانت عليهم بـردا وسلاما، ومن لم يدخلها سحب إليها)(3)

قلت: ولكن الدار الآخرة دار جزاء لا دار التكليف.. فكيف يكلف هؤلاء بالعمل؟

---

1) ذكرنا المسألة بتفاصيلها والأقوال الـواردة فيهـا في رسـالة (أسـرار الأقـدار)، وقـد اكتفينا هنا بذكر ما ترجح لدينا من الأقوال مما نرى انسجامه مع العدالة الإلهية.

2) وقد تكلم العلماء بالإنكار على هذه الأحاديث واعتبارها من الضـعف بحيث لا تنهض للاستدلال بها، وقد رد ابن كثير على ذلك بقوله:(إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها مـا هـو حسـن، ومنهـا مـا هـو ضـعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كـانت أحـاديث البـاب الواحـد متصـلة متعاضـدة على هـذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها) (تفسير ابن كثير: 5/58)

3) رواه النسائي والحاكم وابن مردويه.

قال: مع أن لهؤلاء أحوالهم الخاصة الـتي قـد لا يشـاركهم فيهـا غيرهم إلا أن الأدلـة متظـافرة على أن هـذا الاعتقـاد السـائد ليس على عمومه، فقد قال تعالى:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَـاقٍ وَيُـدْعَوْنَ إِلَى السُّـجُودِ فَلا يَسْـتَطِيعُونَ﴾ (القلم:42)، وقـد ثبت في الحـديث أن المؤمنين يسجدون للّه يوم القيامة، وأن المنـافق لا يسـتطيع ذلـك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خـر لقفاه (1).

وفي حديث الآخر ورد في الرجل الـذي يكـون آخـر أهـل النـار خروجاً منها، أن اللّه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غـير مـا هـو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول اللّه تعالى:(يا ابن آدم ما أغـدرك!) ثم يأذن له في دخول الجنة(2).

زيادة على ذلك ما ثبت في النصـوص الكثـيرة من الامتحانـات والأسئلة التي يتعرض لها أهل القبور.

قلت: ولكن ألا تـرى غرابـة واسـتحالة أن يكلفهم اللّـه دخـول النار، لأن ذلك ليس في وسعهم؟

قـال: ولكن ذلـك في وسـعهم من جهـة، وهـو مـع مشـقته لا يختلف كثيرا عن الكثير من التكاليف التي يطلب بها الفوز بسـعادة الأبد:

ومنهـا أن اللـه تعـالى يـأمر العبـاد يـوم القيامـة بـالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كـالبرق، وكـالريح، وكأجاويـد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشـي، ومنهم من يحبـو حبـواً، ومنهم المكـدوش على وجهـه في النـار، وليس مـا ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم.

ومنها ما ثبت في السنّة بأن الدجال يكون معه جنـة ونـار، وقـد أمر ﷺ المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحـدهم من الـذي يـرى

1) رواه البخاري.

2) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والنسـائي والدارقطنى في الرؤية والبيهقي في الأسماء والصفات.

أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً(1)، وهذا يشبه إلى حد كبير هذا الامتحان الذي تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الله تعالى أمر بني إسرئيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها اللّه عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل (2)، وهو لا يقل مشقة على النفوس مما تعرض له هؤلاء.

زيادة على ذلك كله، فإن أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ (وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يطيعونه أو يعصونه، فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم بردا وسلاما، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره، والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر، هل يوطن نفسه عليه أم لا؟فإن أقدم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه)(3)

ومن هذا الباب أمر الله تعالى الخليل ﵇ بذبح ولده، ولم يكن مراده تعالى من ذلك سوى امتحانه على مدى امتثاله وتسليمه وتقديمه محبة الله على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

بل إن عباد النار ـ مع كفرهم ـ يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولا يقولون: ليس ذلك في وسعنا مع تألمهم

---

1) الحديث طويل، وهو مروي في أكثر أصول السنة، وموضع الشاهد منه قوله ﷺ: (إنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نبي بعدي ثم يثني فيقول: أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا وإنه أعور وإن ربكم عز و جل ليس بأعور وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار فمن ابتلي بناره فليستعن بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم)، وبهذا اللفظ راه أبو داود وابن ماجه.

2) كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:54)

3) أحكام أهل الذمة:2/1152.

بها غاية الألم، (فعباد الرحمن إذا أمـرهم أرحم الـراحمين بطاعتـه باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهـو إنمـا يـأمرهم بـذلك لمصلحتهم ومنفعتهم)(1)

بل إن اقتحامهم النـار المفضـية بهم إلى النجـاة لا تختلـف عن الكي الذي يحسم الـداء، أو هي بمنزلـة تنـاول الـداء الكريـه الـذي يعقب العافية.

فليس أمـرهم بـدخول النـار من بـاب العقوبـة في شـيء، لأن (الله تعالى اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمتـه ألا يعـذب من لا ذنب له، بـل يتعـالى ويتقـدس عن ذلـك كمـا يتعـالى عمـا ينـاقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النـار للخلاص منهـا هـو عين الحكمـة والرحمـة والمصـلحة، حـتى لـو أنهم بـادروا إليهـا طوعـا واختيـارا ورضي حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يـأمرهم بـه لكـان ذلـك عين صـلاحهم وسـبب نجـاتهم، فلم يفعلـوا ذلـك ولم يمتثلـوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضـاه وصـلاحهم، بـل هـان عليهم أمره وعـزت عليهم أنفسـهم أن يبـذلوا لـه منهـا هـذا القـدر الـذي أمرهم به رحمة وإحسانا لا عقوبة)(2)

الميزان:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثانية.

قال: كما أن العدل سار في جميع المكلفين، فلا يقـدم أحـدهم على غيره إلا بما كسبت يداه، فإن العدل كذلك سار في المـوازين التي توزن بهـا الأعمـال، فلا يظلم أحـد مثقـال ذرة، قـال تعـالى:﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كَـانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)

وهذه الموازين تعتمد على الأعمـال الـتي أحصـاها اللـه تعـالى على عباده، فلم يغادر صغيرة ولا كبـيرة، قـال تعـالى في موعظـة لقمان ﵇ لابنه:﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَـأْتِ بِهَـا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيـفٌ

1) أحكام أهل الذمة:2/1155.
2) أحكام أهل الذمة:2/1156.

خَبِيرٌ﴾ (لقمان:16)

وقد أخبر تعالى عن مقالة المكلفين حين يبصرون دقة موازين الله، فقال تعالى:﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:49)

ولذلك فإن الإنسان يرى في القيامة كل ما كسبت يداه ابتداء من مثاقيل الذر، وهذا من العدل الذي يجعل المتهم مبصرا لجرائمه وذنوبه التي يحاكم على أساسها، قال تعالى:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7 ـ 8)

وقد أخبر تعالى أن ثقل هذه الموازين بالأعمال الطيبة هو الكفيل بالنجاة، قال تعالى:﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف:8)، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المؤمنون:102)

وبخلافه من خفت موازينه، قال تعالى:﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (لأعراف:9)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:103)

ومن مظاهر العدل الإلهي التي لا يمكن وصفها أن الله تعالى لا يزن الأعمال فقط، كما نفعل في الدنيا حين نكتفي بتقييم الأعمال دون نظر إلى ما يحيط بها من ملابسات، فنقع بذلك في أخطاء كثيرة وجور عظيم.

لكن الله ـ بعدله ـ يزن العمل، وكل ما يرتبط بالعمل من قريب أو من بعيد، ولهذ ورد التعبير عن الميزان في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

فمن موازين الله العادلة **ميزان الأعمال**، وهو ميزان مختص بوزن الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلكل عمل عند الله تعالى وزنه الخاص، وقيمته الخاصة.

وقد ورد في النصوص أن هذا الميزان يزن كل شيء.. الصغير والكبير.. الجليل والحقير.. ذلك أن الملائكة الكتبة يكتبون كل شيء.. كما قال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ (ق)

وقد روي في الحديث عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ:(إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها، سخطه إلى يوم يلقاه) قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث(1).

ومن الأحاديث التي رويت فيما يوزن في هذا الميزان ويثقله قوله ﷺ:(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)(2)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن)(3)

ويروى أن رسول الله ﷺ لقي أبا ذر فقال:(ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله، قال:(عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما)(4)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن)(5)

1) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن.

2) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واللالكائي.

3) رواه الطبراني.

4) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند جيد.

5) رواه أبو داود والترمذي وصحح وابن حبان واللالكائي.

ومن موازين الله العادلة التي تقـام في يـوم المحاكمـة الأكـبر **ميزان آثار الأعمال**، وهو ميزان مختص بوزن آثار الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهو من دلائل العدل المطلق، وأنه لا يظلم أحد.

وهـذا المـيزان يسـتحيل أن تقيم مثلـه أي محكمـة من محـاكم الدنيا، ذلك أن محاكم الدنيا ـ في جزائهـا الإيجـابي أو السـلبي ــ لا تسـتطيع أن تمـد من تريـد أن تجازيـه بـالعمر الـذي يكفي لـذلك الجزاء.

ويشـير إلى هـذا المـيزان قولـه تعـالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يّــس: 12)

ويشير إليه قولـه تعـالى:﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَـالَهُمْ وَأَثْقَـالاً مَـعَ أَثْقَـالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عَمَّا كَـانُوا يَفْتَـرُونَ) (العنكبـوت:13)، وقولـه تعـالى:﴿ لِيَحْمِلُــوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَــةً يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (النحل:25)

فهـذه النصـوص تخـبر أن اللـه تعـالى لا يحاسـب على العمـل فقط.. بل يحاسب على آثاره سواء كـانت سـلبية أو إيجابيـة، وقـد ورد في الحديث قوله ﷺ:(من دعا إلى هـدى كـان لـه من الأجـر مثـل أجــور من اتبعــه إلى يــوم القيامــة، من غــير أن ينقص من أجورهم شيئا، وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه مِنَ الإثم مثل آثام مَنِ اتبعه إلى يوم من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)(1)

ويشير إلى هذا الميزان من الحديث من قول رسـول اللـه ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرهـا وأجـر من عمـل بهـا من بعــده من غــير أن ينقص من أجــورهم شــيء، ومن ســن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بهـا من غـير أن ينقص من أوزارهم شيء)(2)

ففي هـذا الحـديث يخـبر رسـول اللـه ﷺ عن هـذا النـوع من الموازين، ذلك أن أثر العمل الصالح لا يقل عن العمل نفسه، وأثــر

1) رواه أحمد ومسلم.

2) رواه مسلم وغيره.

الجريمة لا يقل عن الجريمة نفسها.

وهذا من العدل الذي لا يمكن لبشر أن يطبقه.

فالجريمة عندنا جريمة ترتبط بحادثة معينة تبدأ بها، وتنتهي عندها، فالقاتل يتهم بجريمة واحدة هي قتل ضحيته فقط.. بينما آثار تلك الجريمة قد تكون أخطر بكثير من تلك الجريمة الوحيدة.

وعن هذا عبر قوله ﷺ:(ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)(1)

بل إنه ـ يوم القيامة ـ يأتي بعض الناس ممن لم يقتل حشرة، فيحشر في خانة كبار المجرمين.. لا لأنه قتل، ولكن لأنه كتب رواية ملأها بالدماء المسفوكة، أو أخرج فيلما ضمنه ما تختزن نفسه الشريرة من جرائم..

وهكذا بالنسبة للعامل الصالح.. فقد يعمل الرجل العمل الواحد، ويكون له جزؤه لكن الله الشكور الكريم يشكر عبده، فيجازيه بالآثار الإيجابية لذلك العمل.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى معبرا عن أدعية الصالحين الممثلة لأمانيهم:﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) (الفرقان:74)

فهؤلاء الصالحون لم يقصدوا بالإمامة إلا هذا.. فيكونوا قدوة صالحة لغيرهم.. ثم يجيئون يوم القيامة في موازين حسناتهم.

ومن هذا الباب استحب علماء السلوك المسلمين إظهار الأعمال الصالحة، ليكون الصلاح هو السلوك العام الذي يحكم المجتمع المسلم.

وقريب من هذا ما روي من الأعمال التي لا تنقطع بعد موت صاحبها، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد

1) رواه البخاري ومسلم.

موته)(1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)(2)

وهذه الأحاديث وغيرها كانت سببا في ازدهار الحضارة الإسلامية..

فالحضارة الإسلامية لم يقمها الساسة(3)، وإنما أقامها أفراد المجتمع الذين امتلأوا بمثل هذه القيم.. فراحوا يقفون أموالهم كلها في سبيل الله مما نشط العلوم والصحة والنظام.. وقضى على الفقر والتخلف والمرض والجهل.

ومن الموازين التي ورد ذكرها في النصوص، والتي تبين عظم العدل الإلهي (**وزن العامل**).. فالموازين الإلهية لا تكتفي بوزن الأعمال، فقد تصدر مظاهر الخير من قلب مليء بالأمراض، أو قد تصدر بعض الذنوب من القلوب الطيبة، فلذلك يوزن الإنسان نفسه بمقاييس العدالة المطلقة.

ولذلك ورد في الحديث قوله ﷺ:(يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة)(4)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف: من الآية105)

وبخلاف هذا السمين الهزيل قال ﷺ في عبد الله بن مسعود عندما تعجب الصحابة ﷺ من دقة ساقيه:(أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد)(5)

ويفهم بسر هذا الميزان ما ورد من النصوص في الذين

1) رواه ابن ماجه.

2) رواه أبو نعيم.

3) بل شوهوها، انظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

4) رواه ابن عدي والبيهقي.

5) رواه ابن جرير.

يدخلون الجنة بغير حساب، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ: (عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الافق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قيل: من هم؟ قال هم الذين: لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون)[1]

فهؤلاء الذين نالوا هذا الشرف لم ينالوه إلا بتوكلهم على الله، وثقتهم في الله، ولذلك جوزوا بأن لا يحاسبوا، كما جوزي الصابرون بأن ينالوا من الأجور ما لا يمكن حسابه، قال تعالى:﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: 10)

فالصابرون الذي ثبتوا في وجه البلاء وكل ما يصرفهم عن الله ـ والذين جعلهم الله حجة على غيرهم ـ ينالون من الأجور ما لا يمكن تصوره.

وقد روي في الأحاديث التي تذكر موازين الآخرة قوله ﷺ: (تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب)[2]

ومن الموازين العادلة التي تنصب في ذلك اليوم **الميزان المختص بالأجور**، ولعله آخر الموازين، أو هو نتيجة سائر الموازين، وانطلاقا من نتيجته تكون النجاة أو الهلاك.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أبو نعيم.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ:﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)﴾ (المؤمنون)(1)

المحاكمة:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثالثة.

قال: من سمات الجزاء الإلهي أنه لا يتم إلا بعد محاكمة عادلة تتسم بكل ما تتسم به المحاكمة العادلة من أوصاف.. بل لا يمكن لأي محكمة أن تتسم بما تتسم به محكمة العدل الإلهي.

فمع أن الله تعالى يعلم ما فعله عباده من خير أو شر، إلا أنه تعالى ـ عدلا منه ـ لا يحاسبهم بمجرد علمه، بل يحاسبهم كما يحاسب الند نده.. وذلك من عدل الله ورحمته بعباده.

فأول ما تستند إليه هذه المحاكمة العادلة هي الكتب التي كتبها الملائكة ـ عليهم السلام ـ بتوكيل من الله تعالى..

فالله تعالى بحكمته وعدله جعل مع كل إنسان شهودا على أعماله، وجعل لهم سجلات خاصة تتناسب مع طبيعتهم يسجلون فيها حركات الإنسان، وأعماله، ولهذا سماهم الله تعالى (كراماً كاتبين)، فقال تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:10 ـ12)

وقد سمى الله تعالى هؤلاء الملكة الكتبة شهودا، فقال:﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (قّ:21)

وأخبر عن كلام الملاك الذي يقدم شهادته يوم القيامة بقوله:﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) (قّ:23)، قال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته.

---

1) رواه ابن المبارك.

وأخبر أن هؤلاء الكتبة يسجلون كل أعمال الإنسان، فقال تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (قّ:18)

وقد ورد ما يدل على أن هذين الملكين يقفان في جانبي الإنسان، ليكون لهما من القرب ما يسجلان به كل شيء كما قفعله تماما رعاية للعدل، قال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) (قّ:17)

وتستند هذه المحاكمة العادلة أيضا على أنواع الشهود.. وقد ورد في النصوص الجمع بين الكتب المحصية للأعمال والشهود، أو التهم والدلائل، حتى لا يؤاخذ العبد إلا بعد إقامة الحجة الكاملة عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر:69)

فالآية الكريمة ذكرت ثلاثة أركان للعدالة، وهي الكتاب الحاوي للتهم، والشهود المثبتة لها، ثم القضاء بينهم بالحق حتى لا يؤاخذ العبد إلا بمقدار جريمته.

والقرآن الكريم يخبرنا عن أنواع الشهود حتى نأخذ حذرنا:

وأولهم الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (قّ:21)، وقال تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (قّ:18)، وقال تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾ (الانفطار)

ومن الشهود الأنبياء، كما قال تعالى حاكياً عن عيسى ـ عليه السلام ـ:﴿) وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)(المائدة: من الآية 117)

وقال في حق محمد ﷺ وأمته في هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (البقرة:143)، وقال:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً) (النساء:41)

ويدخل في هـذا البـاب قولـه تعـالى عن الأرض:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا) (الزلزلة:4)، أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هـذه الآيـة:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة:4)، ثم قال: أتدرون ما أخبارهـا؟ قـالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها، أن تقول: عمل كـذا وكـذا، يـوم كـذا وكـذا، فهذه أخبارها)(1)

وفي حديث آخـر، قـال رسـول اللـه ﷺ:(تحفظـوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليهـا خـيرًا أو شـرًا، إلا وهي مُخبرة)(2)

بعد كـل هـذا، فـإن اللـه تعـالى ــ بعدلـه ــ يـتيح كـل الفرص للإنسان للـدفاع عن نفسه، حـتى أن لـه الحـق في الطعن في الشهود أنفسهم، حتى لو كانوا ذوي مكانة عاليــة، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ:(يدعى نـوح يـوم القيامـة فيقـال لـه هـل بلّغت؟ فيقـول نعم، فيـدعى قومـه فيقـال لهم هـل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنـوح من يشـهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَــطاً ﴾ (البقــرة: من الآية143) قــال: والوســط العــدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم)(3)

وفي حديث آخر تصوير مفصل لمحاورات ذلـك المشـهد، قـال ﷺ:(يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعي قومه فيقال: هـل بلّغكم هـذا؟ فيقولـون: لا فيقـال لـه: هـل بلغت قومك؟ فيقـول نعم: فيقـال من يشـهد لـك، فيقـول محمـد وأمتـه فيدعى محمد وأمته: فيقال لهم هل بلغ هذا قومـه؟ فيقولـون نعم. فيقال وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (البقرة: من الآية 143)، قـال عـدلاً ﴿ لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ

1) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

2) رواه الطبراني من حديث ابن لَهِيعة.

3) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: من الآية143))(1)

لكن بعض المتهمين من أهـل جهنم يستغل هـذه الفرصة المتاحة له ــ والتي لم يكن يظفر بمثلها في محاكم الدنيا ــ فلا يكتفي برفض كل الشهود، مع كونهم صفوة الله من عباده، بل يحتال بالكذب الذي كان يحتال به في الدنيا، بل يحتال بالقسم بالله الذي كان لا يعترف به، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:23)، وقد قال ابن عباس في تفسيرها:(إنهم لما رأووا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا:﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين﴾)(2)

وحينما يبلغ إنكارهم للشهود منتهاه، ويجادلون في الطعن فيهم كما كانوا يجادلون في الدنيا يأتيهم الله تعالى بما لا يطيقون دفعه، فيقيم عليهم الحجة من أنفسهم، قال تعالى:﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يّس:65)

فهذه الآية تشير إلى أن هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ بعض مشاهد ذلك، وهي تدل على قمة العدالة التي تتيح للمجرم أن يناقش القاضي الأكبر ملك يوم الدين ويجادله وهو يعلم أنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فعن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ:(أتدرون مم أضحك؟) قلنا:(الله ورسوله أعلم)، فقال ﷺ:(من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه:

1) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

2) رواه عبد الرزاق.

انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)(1)

فقــول المتهم في الآخــرة:(رب ألم تجــرني من الظلم) يــدل على الضمانات الكثيرة التي أخذها العباد لإقامــة العدالــة المطلقــة في ذلــك اليــوم، وقولــه:(فعنكن كنت أناضــل) دليــل على مــدى الحرية التي أتيحت له للدفاع عن نفسه.

وقــد ورد في بعض الأحــاديث إشــارة إلى هــذا الصــنف الــذي تستنطق جوارحه، وهم المنــافقون الــذين حــاولوا أن يحتــالوا على قلب الحقــائق في الــدنيا، وخــداع الخلــق بهــا، فلــذلك تبقى هــذه الأحبولة في أيديهم يوم القيامة، ويتصــورون أنهم ســيخادعون اللــه كما خادعوا الخلق،، قال ﷺ في حديث القيامــة الطويــل:(ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابــك وصمت وصلّيت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع ـ قال ـ فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ ـ قال: فيفكــر في نفســه من الــذي يشــهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي ـ قال ـ فتنطق فخــذه ولحمه وعظامه بما كان يعمــل، وذلــك المنــافق، وذلــك ليعــذر من نفسه، وذلك الذي يسخط اللّه تعالى عليه)(2)

وحينذاك يندم الجاحــد على جحــوده، ويــود لــو أنــه اعــترف في البدء لعــل ذلــك أن يخفــف عنــه، وهــذا هــو وجــه الجمــع بين قولــه تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَـدِيثاً ﴾ (النســاء:42) والــتي تفيــد بــأنهم يعــترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شــيئاً، وبين مــا رأينــاه من صــنوف الإنكار.

وكما أن المحاكمة العادلــة تقتضــي تــوفر المحــامين الــذين يــدافعون عن المتهم، فــإن اللــه تعــالى بعدلــه نصــب المحامين الكثيرين من عباده، والذين سماهم الشفعاء.

ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي اللــه أن يشــفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يمكل معه هؤلاء الشفعاء شــيئا، قــال

1) رواه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.
2) رواه مسلم وأبو داود.

تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) (طه:109)، وقال:﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (سبأ: من الآية23)، وقال:﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (الزخرف:86)

التوافق:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الرابعة.

قال: السمة الرابعة للجزاء الإلهي هي أنه جزاء متوافق تماما مع نوع العمل، كما قال تعالى:﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ (النبأ:26)، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا (1).

بل إن النصوص الكثيرة تدل على أن الجزاء المعد في الآخرة هو الصورة المجسدة للكسب، كما قال تعالى:﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام:31)

وقد ورد في الآثار عن أبي مرزوق في تفسير هذه الآية قال: (يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها أنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا واللّه، إلاّ أنَّ اللّه قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك)(2)

وإلى ذلك أيضا يشير قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:161)

وقد قال ﷺ لرجل استعمله على الصدقة، فجاء فقال:(هذا لكم وهذا أهدي لي)، فقام رسول اللّه ﷺ على المنبر، فقال:(ما

1) قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد، ابن كثير:8/307.

2) رواه ابن أبي حاتم.

بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هـذا لكم وهـذا أهـدي لي، أفلا جلس في بيت أبيـه وأمـه فينظـر أيهـدى إليـه أم لا؟ والـذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء بـه يـوم القيامـة على رقبته، وإن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر؟؟، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً(1).

وأخـبر ﷺ أن المتكـبرين يحشـرون يـوم القيامـة محتقـرين ممتلئين ذلة، قال ﷺ:(يحشر المتكبرون يوم القيامـة أمثـال الـذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سـجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الانيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)(2)

ولذلك وردت آيـات القـرآن الكـريم تربـط بين أصـناف الجـزاء والأعمال المتعلقة بها، سواء كان ذلك الجزاء في الدنيا أو الآخرة:

أما في الدنيا، فقد ورد في النصوص الكثـيرة بيـان بعض جـزاء الله لعباده على أعمالهم ليكون ذلك إشـارة إلى مـا ينتظـرهم في الآخرة من الجزاء الخالص.

أما أجزية المؤمنين، فقـد ورد في القصـص القـرآني مـا يشـير إلى ما تعرض له عباد الله الصالحين من فضل الله في الدنيا جزاء وفاقا على أعمالهم الصالحة:

فقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُـفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَـوَّأُ مِنْهَـا حَيْثُ يَشَـاءُ نُصِـيبُ بِرَحْمَتِنَـا مَنْ نَشَـاءُ وَلا نُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ (يوسـف:56)، فقـد ذكـرت الآيـة الكريمـة أن سـبب اسـتحقاقه للتمكين هـو الإحسـان الـذي لا يضـيع جـزاؤه عنـد اللـه تعالى.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْـداً شَكُوراً ﴾ (الاسراء:3) فقد عقب الجزاء بكونه عبدا شكورا.

وقـال تعـالى عن آل لـوط عليه السلام: ﴿ إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِـباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (القمر:34) ثم قال بعـدها: ﴿ نِعْمَـةً مِنْ عِنْـدِنَا

1) رواه الطبراني في الكبير وغيره.
2) رواه أحمد والترمذي.

كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (القمر:35)

وقال تعالى عن الصـابرين من بـني إسـرائيل: ﴿ وَأَوْرَثْنَـا الْقَـوْمَ الَّذِينَ كَـانُوا يُسْتَضْـعَفُونَ مَشَـارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا الَّتِي بَارَكْنَـا فِيهَـا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَـبَرُوا وَدَمَّرْنَـا مَـا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (لأعراف:137)، فهذا الجزاء الكريم ثمرة من ثمار صبرهم.

وبمثل ذلك، وعلى ضده جاء الإخبـار عن الكفـار من السـابقين من قوم نوح وعاد وثمود وفرعـون ولـوط ومـدين وغـيرهم الـذين أهلكوا بذنوبهم في الوقت الذي نجى اللـه فيـه الأنبيـاء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم، كما قال تعالى مبينا تلك السنة: ﴿ فَلَمَّا نَسُـوا مَـا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّـوءِ وَأَخَـذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُـوا بِعَـذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (لأعراف:165) فالجزاء الذي تعرضوا له هو نتيجة طبيعية لفسقهم.

أو هو نتيجة حتمية لظلمهم، كما قال تعـالى: ﴿ فَكُلّاً أَخَـذْنَا بِذَنْبِـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِـباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْـهُ الصَّـيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:40)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامـاً فَأَخَـذَهُمُ الطُّوفَـانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

أو هو نتيجة حتمية لبغيهم، كما قال تعـالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَـا عَلَيْهِمْ شُـحُومَهُمَا إِلَّا مَـا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَـطَ بِعَظْمٍ ذَلِـكَ جَزَيْنَـاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام:146)

أو هو نتيجة حتمية لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَـا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سـبأ:17)، وقال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (لأنفـال:52)، وقـال تعـالى: ﴿ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَكَفَـرُوا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَـوِيٌّ شَـدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر:22)

أو هـو نتيجـة حتميـة لتكـذيبهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ كَـدَأْبِ آلِ

فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ﴾ (آل عمـران:11)، وقـال تعـالى:﴿ وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل:113)، وقال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:189)

أو هو بعبارة جامعة نتيجـة حتميـة لـذنوبهم، كمـا قـال تعـالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ كَـانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (غـافر:21)، وقـال تعـالى:﴿ كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـاهُمْ بِـذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (لأنفال:54)

وأول ذنوبهم وأخطرها هو معصية الرسل الذين كلفـوا بتبليغهم رسالات الله، وقال تعالى:﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ (الحاقة:10)، وقال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:139)

قلت: ولكن ألا تـرى أن من الكفـار من يعيش مرغـدا ويمـوت مترفا لا يصيبه جرائر ذنوبـه ولا تهلكـه كـثرة معاصـيه.. فهـل لهـذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟ ومـا السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بـل صـار فتنـة تصـد القلوب عن دين الله؟

قال: إن عدالة الله المطلقة، ورحمتـه التامـة الشـاملة، والـتي سبقت غضبه تتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغـه من الحجج مـا يكفي لعودته، فإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيـز مقتـدر بمجـرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرتـه ورحمتـه، فقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَـبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (الكهف:58)

وأخبر تعالى أن كل القـرى الـتي نـزل عليهـا العـذاب لم يـنزل عليها إلا بعـد الإمهـال الكـافي لإقامـة الحجـة، قـال تعـالى:﴿ وَلَقَـدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَـانَ

عِقَابِ﴾ (الرعد:32)، وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:48)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة طويلة من الإمهال وإقامة الحجة، قال تعالى مسلياً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه:﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج:44)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح عليه السلام كل تلك الآماد الطويلة، وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى الله، وقد ينتكسون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ:(إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:102))(1)

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:33) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه،، قال تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:55 ـ 56)، وقال تعالى:﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

1) رواه البخاري ومسلم.

لِأَنْفُسِـهِمْ إِنَّمَـا نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدَادُوا إِثْمـاً وَلَهُمْ عَـذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:178)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هـذا الابتلاء هـو الـذي يمـيز الخـبيث من الطيب، ويمـيز بين الـراغب في اللـه، والـراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى مَـا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُـوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ففي الآية الكريمة إشـارة إلى أن تعجيـل الجـزاء قـد يـؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾

ولهذا يرد في القرآن الكـريم الإخبـار بـأن الجـزاء الحقيقي هـو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخـبرا عن جـزاء المؤمـنين:﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخـرف: من الآية35) وقـد ورد هـذا المعـنى عقب ذكـر زخـارف الحيـاة الـدنيا الـتي يتهـافت عليهـا الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بمـا أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى:﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْـوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَـا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:55)

فهذا الإمهال ـ إذن ـ كما ينطوي على معـاني الرحمـة والعـدل، وينطـوي على معـاني الانتقـام ممن لم يعـرف للنعمـة حقهـا ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الـذي يقتضـي سـتر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

قلت: وعيت هذا.. فكيف يكون الجزاء وفاقا في الآخرة؟

قال: لقد ربط الله تعـالى بين الجـزاء المعـد للكفـار والعصـاة، وبين أعمالهم، كما ربـط بين الجـزاء المعـد للمؤمـنين، وبين أنـواع أعمالهم، فكلا من السعادة والشقاوة في الآخرة منوط بالأعمال:

أما ارتباط الجزاء المعد للمؤمنين بالعمـل، فتنص عليـه الآيـات

الكثيرة في معرض التهنئة للمؤمنين على أعمـالهم، قـال تعـالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ (الطـور:19) وقـال تعـالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة:24) وقال تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المرسلات:43)

ويذكر القرآن الكريم فرح المؤمنين بما قدموه من أعمال بعـد أن رأوا أنـواع الجـزاء المعـدة لهم، قـال تعـالى:﴿ وَنَزَعْنَـا مَـا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـارُ وَقَـالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَـدِيَ لَـوْلا أَنْ هَـدَانَا اللَّهُ لَقَـدْ جَـاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنَـا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ (لأعـراف:43)

وعدل الله المرتبط برحمته، لا ينقص لهم أي جزاء يجازيهم به، ولو أضـيف من ذلـك الجـزاء لأبنـائهم، قـال تعـالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَـا أَلَتْنَـاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور:21)

ويربـط اللـه تعـالى بين صـبرهم على تحقيـق حكمـة اللـه من خلقهم وبين جزائهم، فيقول تعالى:﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَـوْمَ بِمَـا صَـبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:111) ويقول تعالى:﴿ وَجَـزَاهُمْ بِمَـا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (الانسان:12)

ولا يتعارض هذا مع مـا ورد من النصـوص من أن دخـول الجنـة هـو بمحض الرحمـة، كمـا قـال ﷺ:(لن يـدخل أحـداً منكم عملُـه الجنـةَ)، قـالوا:(ولا أنت يـا رسـول اللّـه؟)، قـال:(ولا أنـا إلا أن يتغمدني اللّه تعالى برحمة منه وفضل)(1)

بل كما أخبر تعالى عن مقالة المؤمنين بعد دخـولهم الجنـة من أنهم يقولـون:﴿ الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنَـا لَغَفُـورٌ شَـكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَـا دَارَ الْمُقَامَـةِ مِنْ فَضْـلِهِ لا يَمَسُّـنَا فِيهَـا نَصَـبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:34 ـ 35)

فإن أقل نعمة من نعم الله تعـالى على عبـاده لا تكفئهـا جميـع طاعـات العبـد، بـل إن الطاعـة نفسـها نعيم من نعم اللـه، فكيـف

1) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

يكون النعيم جزاء على النعيم، وقد ورد في الحديث عن جابر قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفـا فقال: يا محمد! والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عباده عبد اللـه تعالى خمسـمائة سـنة على رأس جبـل في البحـر عرضـه وطولـه ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا والبحر المحيط به بأربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عينا عذبة بعرض الاصـبع تـبيض بمـاء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج في كل ليلـة رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلـك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عند وقت الاجل أن يقبضه ساجدا وأن لا يجعل للارض ولا لشئ يفسده سبيلا حتى يبعثـه وهـو ساجد، ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنـا، فنجـد لـه في العلم أنه يبعث يوم القيامة

فيوقف بين يدي اللـه تعـالى فيقـول لـه الـرب تبـارك وتعـالى: أدخلوا عبدي الجنة برحمـتي، فيقـول: يـا رب! بـل بعملي، فيقـول الله: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعملـه، فتوجـد نعمـة البصـر قـد أحاطت بعبادة خمسـمائة سـنة وبقيت نعمـة الجسـد فضـلا عليـه، فيقول: ادخلوا عبدي النار، فيجر إلى النـار فينـادي: رب! برحمتـك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقـف بين يديـه فيقـول: يـا عبـدي! من خلقك ولم تكن شيئا؟ فيقول: أنت يـا رب! فيقـول: من قـواك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من أنزلـك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المـالح وأخـرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج في السنة مرة؟ وسألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بـك؟ فيقـول: أنت يـا رب! فقـال اللـه: فـذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، قال جبريل: إنما الاشـياء برحمـة الله يا محمد(1).

وهذه النظرة النافية للغرور هي التي تقي المؤمن من انحراف بعض الناس والطوائف الذين جرهم فهمهم الخاطئ لمعنى العـدل الإلهي إلى أن يطلبـوا الجـزاء من اللـه، كمـا يطلبـه الأجـير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم.

وكأنهم يتصورون أن الجنة عـوض حقيقي عن العبـادة، أو كـأن

1) رواه الحكيم الترمذي، والحاكم، وابن حبان.

العبادة عوض حقيقي ينتفع به الله تعالى عما يقولـون علـوا كبـيرا، فالله تعالى غني عن العـالمين إن أحسـنوا أحسـنوا لأنفسـهم، وإن أسـاؤا فلهـا، لهم ماكسـبوا وعليهم مـا اكتسـبوا، من عمـل سـالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل قول اللـه تعـالى لعبـاده: (ياعبادى أني حرمت الظلم على نفسي وجعلتـه بينكم محرمـا فلا تظـالموا ياعبـادى أنكم تخطئـون بالليـل والنهـار وأنـا أغفرالـذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادى كلكم ضال إلا من هديتــه فاســتهدونى أهــدكم ياعبــادي كلكم جــائع إلا من أطعمتــه فاستطعموني أطعمكم ياعبـادي إنكم لن تبلغـوا ضـري فتضـروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادى لو أن أولكم وآخــركم وإنســكم وجنكم كـانوا على أتقي قلب رجـل منكم مـا زاد ذلـك في ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ياعبادي لـو أن أولكم وآخــركم وإنســكم وجنكم إجتمعــوا في صــعيد واحــد فســألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك في ملكي شـيئا إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجـد خـيرا فليحمـد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(1)

فهذا الحديث الجـامع لحقيقـة علاقـة اللـه بعبـاده هـو الأسـاس الذي يفهم به المـؤمن المـراد من العـدل الإلهي المـزين بالرحمـة الإلهية.

ولكن العدل الإلهي مع ذلك يقتضـي اختلاف أصـناف العـاملين، ولــو دخلــوا جميعــا برحمــة اللــه إلى الجنــة، فلا يســتوي الطــائع والمقصر، ولا القريب مع البعيد.

ولذلك صنف المؤمنون في القرآن الكـريم بتصـنيفات مختلفـة كلها ثبت لها دخـول الجنـة، قـال تعـالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَـابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾(فاطر: 32)

1) رواه مسلم.

ثم قال تعقيبا على هذا التصنيف:﴿ جَنَّاتُ عَـدْنٍ يَـدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر:33)

لكن درجـــات النعيم تختلـــف بحســـب الأعمـــال، وذلـــك من مقتضيات العدل الإلهي، حتى لا ينال كل امرئ إلا ما كسبت يداه.

ولعلـه لأجـل هـذا خـوطب المؤمنـون في الجنـة وهـنئوا بـأن أعمالهم هي التي أهلتهم لذلك، فقد ورد ذلـك عنـد ذكـر المقـربين الطيبين، كمـا قـال تعـالى:﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ طَيِّبِينَ يَقُولُـونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل:32)

وفي سورة الرحمن بعد ذكر نعيم المقربين قـال تعـالى:﴿ هَـلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)﴾ (الرحمن) بينما لم يذكر ذلك عند نعيم غيرهم.

وفي سورة الواقعة بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى:﴿ جَـزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)﴾ (الواقعـة)، وعنـدما ذكـر نعيم غـيرهم من أهل اليمين لم يذكر ذلك.

وبذلك، فـإن الأعمـال لم تـؤهلهم لـدخول الجنـة، وإنمـا أهلتهم لدرجات الجنة، كما قال عبد اللـه بن مسـعود:(تجـوزون الصـراط بعفـو اللـه، وتـدخلون الجنـة برحمـة اللـه، وتقتسـمون المنـازل بأعمالكم)(1)

وقـد نص القـرآن الكـريم في مواضـع كثـيرة على اسـتحقاق المؤمنين للدرجات بحسب أعمالهم، فقال تعـالى:﴿ وَلِكُـلٍّ دَرَجَـاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:132)

بل أخبر أن درجات الجنة أكثر بكثـير من درجـات التفاضـل في الدنيا، قال تعالى:﴿ انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنَا بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الاسراء:21)

وأخـبر أن الـدرجات العليـا من اسـتحقاق من تحققـوا بحقيقـة الإيمان، فقال تعالى:﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقّـاً لَهُمْ دَرَجَـاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (لأنفال:4)

---

1) رواه هناد بن السري وعبد بن حميد في الزهد.

وهذا القانون الذي يتقاسم المؤمنون على أساسه نعيم الجنة ودرجاتها هو نفس القانون الذي يتقاسم به أهل جهنم دركات النار، والذي عبر عنه قوله تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف:19)

فلا يتساوى أهل جهنم في العذاب كما لا يتساوى المؤمنون في النعيم، بل لكل حسب عمله وجهده ووسعه، قال تعالى:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) (الاسراء:21)

هذا عن نعيم أهل الجنة.. وعلاقة عملهم بها..

أما ارتباط الجزاء المعد لأهل جهنم من الكفار والعصاة بالعمل، فتنص عليه الآيات القرآنية الكثيرة في مواضع مختلفة:

منها أن يعرض ذلك على صيغة الوعيد الإلهي الذي لا يتخلف، قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس:8)

أو أن يعرض على صيغة التبكيت والسخرية، كقوله تعالى:﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:82)، أو قوله تعالى:﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر:84)، أو قوله تعالى:﴿ وقال تعالى:﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:36)

أو على صورة إجابة أهل النار أنفسهم، كما في هذا المشهد القرآني، قال تعالى:﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر:42 ـ 47)

وهذا يدل على قناعة أهل النار باستحقاقهم لها على مقتضى العدل الإلهي، فعدل الله تعالي الذي يقيم عليها أصناف الحجج، ويدع لهم فرص الدفاع عن أنفسهم بما شاءوا من الأساليب يضطرهم في الأخير إلى التسليم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:49)

فهذه الآية الكريمة تـدل على ان الكفـار يـرون أعمـالهم، وهي تـوزن، فيتعجبـون من إحصـاء اللـه لكـل شـيء مـع إقـرارهم بمـا عملوه.

ومن عدالــة اللــه في أهــل جهنم أن جعــل لكــل ذنب جــزاءه الخاص وعقوبته التي تتناسب معه، فلا يعاقب العبـد إلا بمـا عمـل، كمـا قـال ﷺ في الحـديث القدسـي:(ياعبـادي إنمـا هي أعمـالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجـد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (1)

ولذلك جعل الله تعالى جهنم دركات مختلفة بعضها فوق بعض، كما قال تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَــالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف:19)

وقال في الفـرق بين الطـرق المختلفـة لتعـاملهم:﴿ وَمِنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِـدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ﴾ (آل عمران: من الآية75)

بل ورد في السنة ما يدل على أن أهل جهنم مقسمون بحسب نفسياتهم وأسباب إعراضهم عن الله، وذلك في قوله ﷺ:(المــرء مـع من أحب) (2)، وقولـه ﷺ:(خمس صـلوات من حافـظ عليهن كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافـظ عليهن لم يكن له نور يوم القيامة ولا برهان ولا نجاة وكـان يـوم القيامـة مـع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف)(3)

***

التفت إلينا صاحبنا الهزاز، وقال: هـذا حـديثي مـع ذلـك الرجـل الفاضـل.. لقـد عشـت في رحـاب كلماتـه أيامـا جميلـة.. ولكـني.. سرعان ما تثاقلت إلى الأرض بعد أن عرضت علي بعض المناصب الرفيعة.. فصرت بدل أن يهتز قلبي لله محبة وشوقا وأنسا أحــرك أعضائي وأرقص بها في حركات هي أقرب إلى البهلوانية منهـا إلى

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه محمد بن نصر.

الإيمان.

لكن الله الرحمن الرحيم تـداركني بلطفـه، فأعـاد إلى ذاكـرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

ثامنا ـ الرحيم

في اليوم التالي.. ومع طلوع الفجر الصادق قام رجل منا، وأخذ يصيح فينا بأن نقوم، وهو ممتلئ بشرا وسرورا.

وقد كان هذا الرجل ألطفنا بنا، وأحننا علينا.. وكان صاحب مشاعر حساسة، وخلق رفيع..

قمنا إليه، ونحن مثله ممتلئون بشرا وسرورا، وقلنا: هات.. بشرنا.. عرفنا بربنا.

قال - وثغره يفتر عن ابتسامة عذبة -: الحمد لله.. لقد هداني الله رب العالمين اليوم إلى معارف كثيرة.. لعلها أهم المعارف المرتبطة بما نحن فيه.. لقد تذكرتها الآن، وكأنها رأي العين.. ولست أدري ما الذي كان يحجبها عني.

قلنا: فما موضوعها؟

قال: رحمة الرحيم.. ولطف اللطيف.. وكرم الكريم.. وحنان الحنان.. ومنن المنان.. إن المعارف المرتبطة بهذه الأسماء هي العيون التي تنفتح بها خزائن رحمة الله على عباده..

وقد وفقني الله في فترة من فترات حياتي أن أتعرض لمن علمني علومها، وكشف لي أسرارها.. ولكن الغفلة حجبتني عنها.. والحمد لله الذي أتاح لها أن تعود إلى وعيي من جديد ليعود معها ذلك الأنس الجميل الذي تنعمت به عندما تعرفت عليها.

سأعرفكم بنفسي أولا قبل أن أعرفكم بالمعارف التي هداني الله إليها..

أنا (جون ماسفيلد)(1).. وقد كنت شاعرا رقيقا.. وكان قلبي كقلب كل شاعر ممتلئا بالأحاسيس المتدفقة..

---

(1) أشير به إلى (جون ماسفيلد) (1878 ـ 1967م)، وهو شاعر وروائي وناقد وكاتب مسرحي إنجليزي.. أصبح شاعر البلاط في إنجلترا عام 1930م لمدة 37 عامًا.. وُلد في مقاطعة هيرفورد ووستر.. ويشتهر بشاعر البحر، وشاعر تراب وغثاء الأرض وشاعر الكسيح والأعرج والضرير في المطر والزمهرير.. وكثير من أعماله يدور حول الحب والمأساة بين الناس في شروبشاير، وبين المتشردين ورجال البحر.

ولا يجذب الشاعر الرقيق شيء مثلما تجذبه الرحمة.. ولذلك كنت أبحث عن إلهي من خلال سر الرحمة.

وبما أني في بداية حياتي كنت أدمن على قراءة الكتاب المقدس.. فقد أثر ذلك في علاقتي بالله تأثيرا خطيرا.. عشت بسببه متألما فترة طويلة من حياتي.. كنت حينها أحمل صورة مشوهة عن الله.. صورة ممتلئة بالقسوة والغلظة والجفاء..

لقد تحول الله – بسبب تلك القراءات المتتالية - في خاطري قاسيا ظالما متعديا.. لا يملي إلا الأوامر الممتلئة بالقسوة والظلم والتعدي.

قال رجل منا: كيف تقول ذلك، وقد ورد في الكتاب المقدس النص على كون الله رحيما بعباده:

لقد ورد في (مزمور: 103:ـ 1-ـ 19) هذه الفقرات الجميلة.. (باركي يا نفْسي الرّبَّ، ويا كُلَ أحشائي اَسمَهُ القدُّوسَ باركي يا نفْسي الرّبَّ ولا تَنسَي جميعَ حسَناتِهِ، يغفِرُ جميعَ ذنوبي ويشْفي جميعَ أمراضي. يفتَدي مِنَ الهُوَّةِ حياتي، وبالرَّحمةِ والرَّأفةِ يُكلِّلُني. يُشبِعُ بالطَّيِّباتِ جوعي، فيَتَجدَّدُ كالنَّسْرِ شبابي. الرّبُّ يُجري العَدلَ. ويَقضي لِجميعِ المظلومينَ. عَرَّفَ موسى طُرُقَهُ وبَني إِسرائيلَ أعمالَهُ. الرّبُّ رحومٌ حنونٌ، صَبورٌ وكثيرُ الرَّحمةِ. لا يُخاصِمُ على الدَّوام، ولا إلى الأبدِ يحقُدُ. لا يُعامِلُنا حسَبَ خطايانا ولا حسَبَ ذُنُوبِنا يُجازِينا. كارتِفاعِ السَّماءِ عَنِ الأرضِ ترتَفِعُ رَحمتُهُ على خائِفيهِ. كبُعدِ المشرِقِ مِنَ المغربِ يُبعِدُ عنَّا معاصيَنا. كرحمَةِ الأبِ على بَنيهِ يرحَمُ الرَّبُّ أتقياءَهُ، لأنَّهُ عالِمٌ بِجبلتِنا ويذكُرُ أننا تُرابٌ. الإنسانُ كالعُشْبِ أيّامُهُ، وكزهرِ الحقلِ يُزهِرُ. تعبُرُ رِيحٌ فلا يكونُ، ولا يُعرَفُ مَوضِعُهُ مِنْ بَعدُ. أمَّا رَحمةُ الرَّبِّ فمِنَ الأزَلِ وإلى الأبدِ على خائِفيهِ. عَدلُهُ لِبَني البنينَ، للذينَ يُراعونَ عَهدَهُ ويذكُرونَ فيَعمَلونَ بأوامِرِهِ. عرشُ الرّبِّ ثابِتٌ في السَّماءِ، وملكوتُهُ يسُودُ على الجميعِ)

وقد كتب أكثر من 100 كتاب، واشتهر لأول مرة بمجموعة شعره أغنيات المياه المالحة (1902م). وأكثر أعماله ذيوعًا في أشعاره القصصية الطويلة الرحمة الأبدية (1911م)؛ الأرملة في الشارع الجانبي (1912م)؛ الملوث (1913م)؛ رينارد الثعلب (1919م) (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

ولا يخفى سر اختياره في هذا المحل.

قال: نعم.. لقد كنت أقرأ هذه النصـوص فـأمتلئ فرحـا.. ولكن فرحي سرعان ما يمتلئ بالكآبة عندما أقرأ النصوص الأخرى الــتي ترتد على تلك النصوص، فتنسخ معانيها الجميلة.

سأقرأ عليك منها لتكتشف الحقيقة بنفسك..

لقـد ورد في (أشـعياء66 /ـ 16): (لأن الـرب بالنـار يعـاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب)

لقد كنت أقرأ هذه النصوص المقدسة.. فأكاد أفر من الله هربا منه.. وهربا من قسوته:

لقد جـاء في وفي (ارميـا: 48/10): (ملعـون من يعمـل عمـل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم)

وقد وجدت فوق ذلك أن الكتاب المقـدس هـو الكتـاب الوحيـد فى العالم الذى يـأمر بقتـل الأطفـال.. حـتى كتب النازيـة لم تـأمر بقتل الأطفال الرضع أو شق بطون الأمهـات وإخـراج مـا فيهـا من أجنة وقتلهم.. بل حتى الأطفال والشيوخ والنسـاء والحمـير والغنم والبقر لم يسلموا من القتل والذبح على ضـوء تعـاليم إلـه الكتـاب المقدس:

لقــد ورد في (حزقيــال:9 /6): (الشــيخ والشــاب والعــذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسـان عليـه السـمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت)

وفي (يشوع: 6 /21): (وحرّموا كل مـا في المدينـة من رجـل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف)

وفي (صموئيل 1:15 /2): (هكـذا يقـول رب الجنـود. إني قـد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريـق عنـد صعوده من مصر)

وفي (صــموئيل 1:15 /3): (فــالآن اذهب واضــرب عمــاليق وحرمـوا كـل مـا لـه ولا تعـف عنهم بـل اقتـل رجلا وامـرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)

وفي (صموئيل 15:1 /8): (وأمسك اجاج ملك عماليق حيّا وحرّم جميع الشعب بحد السيف.وعفا شاول والشعب عن اجاج وعن خيار الغنم والبقر والثنيان والخراف وعن كل الجيد ولم يرضوا ان يحرّموها. وكل الأملاك المحتقرة والمهزولة حرّموها وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا: ندمت على أني جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله)

انظروا.. فمن فرط قسوة الرب ندم وغضب على شاول لأنه عفى عن الملك (أجاج) وبعض الحيوانات؟

وفي (هوشع:13 /16):(تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم والحوامل تشقّ)

وفي (مزمور:137 /8): (يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا.. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة)

وفي (إرميا45 /4): (هكذا تقول له. هكذا قال الرب. هانذا اهدم ما بنيته واقتلع ما غرسته وكل هذه الأرض)

وفي (عاموس:2 /3): (واقطع القاضي من وسطها واقتل جميع رؤسائها معه قال الرب)

وفي (إرميا 16 /3): (لأنه هكذا قال الرب عن البنين وعن البنات المولودين في هذا الموضع وعن امهاتهم اللواتي ولدنهم وعن آبائهم الذين ولدوهم في هذه الارض ميتات امراض يموتون.لا يندبون ولا يدفنون بل يكونون دمنة على وجه الارض وبالسيف والجوع يفنون وتكون جثثهم أكلا لطيور السماء ولوحوش الارض)

بل حتى النصوص التي نفخر بها، ونتصور من خلالها رحمة الله المطلقة بعباده كما في (رومية:8 /32): (الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء) كنت أراها نصوصا ممتلئة بالقسوة، فكيف يقسو والد على والده بتلك

القسوة التي حصلت للمسيح بالصلب[1].

قلنا: كلنا يعرف ما في الكتاب المقدس من أمثال هذه النصوص.. ولكنا اجتمعنا بك لتحدثنا عن ربنا الحقيقي.. ربنا الذي لم تشوه صفاته أقلام الكتبة الكذبة.

قال: أجل.. سأحدثكم عن ذلك.. فلأجله جمعتكم..

ففي يوم من أيام الله لا أزال أذكره جيدا التقيت رجلا لم ألتق مثله في حياتي.. تعلمت على يده من أسرار رحمة الله ما نسخ عني تلك الأباطيل التي ملأني بها الكتاب المقدس..

قلنا: أين التقيت به؟

قال: في السجن..

قلنا: عجبا.. أمثلك دخل السجن؟

قال: لم أدخله مسجونا.. بل دخلته شاعرا.

قلنا: أراك تزيد الإغراب إغرابا.. فأوضح.

قال: لقد ذكرت لكم أني شاعر.. وشاعر يحن إلى تصوير الألم أكثر من حنينه إلى تصوير الأمل.. ولذلك جعلت قبلتي لليتامى والمساكين والمستضعفين والمحرومين..

في تلك الأيام التي التقيت فيها من تعلمت على يده أسرار الرحمة الإلهية.. بدا لي أن أزور السجن..

وهناك استقبلني من كان يعرفني من مسؤوليه.. وقدموا لي كل قرابين الاحترام.. وقد سألتهم أن يضعوني بين يدي السجناء.. لأحدثهم، ويحدثوني.. وقد استغربوا ذلك مني كما استغربتم أنتم ذلك مني.

لكن أحدهم قال لي: لاشك أنك سمعت بالسجين العجيب الذي دخل سجننا هذه الأيام.

---

1) طبعا هذا على ما يعتقد المسيحيون، وسنرى الأدلة الكثيرة المثبتة لخلاف ذلك في هذه السلسلة.

قلت: لا.. لم أسمع.. ولكن ما قصته؟

قال: لقد زارنا في هـذه الأيـام سـجين عجيب لم نـر مثلـه في حياتنا..

قال آخر: أجل.. إنـه سـجين أسـرنا بكلماتـه.. لقـد صـرنا نـرى أنفسنا سجناء بالنسبة للجنة الفسيحة التي يعيش فيها.

قال آخر: أجل.. منذ سمعت كلماته، وأنا لا أحن لشـيء حنيـني للعمـل في هـذا السـجن.. ولسـت أخـاف من شـيء خـوفي من خروجه منه.

قلت: لقد شوقتموني.. فمن هذا السجين العجيب؟

قال مسؤول السجن: إنه رجل تجرع كل الآلام.. لقد ذاق وأهل بيته من الألم ما لم يذق مثله أحد.. ومع ذلك تراه كـالبحر المحيـط لا يتحرك، ولا يتزعزع.

قال آخر: بل إن الإعدام ينتظره.. فلم يبق بينه وبين المـوت إلا أيام معدودة.. ومن حسن حظك أننا لم نعدمه قبل حضورك.

قلت: فهل يعلم بأنه سيعدم قريبا؟

قال المسؤول: أجـل.. وقـد تعجبت من موقفـه عنـدما أعلمتـه بالخبر.. لقد ظللت وقتـا طـويلا أتـردد في إخبـاره، وفي الأسـلوب الذي أخبره به.. ولكني ما إن دخلت عليه، وهـو يحـدث رفاقـه في السجن، وأخبرته حتى نظر إلي بابتسامته المعهودة، وشكرني كمـا كان يشكرني كل حين.. ثم راح يواصـل حديثـه.. وكـأني لم آت لـه بما تتزعزع له قلوب الرجال.

قلت: لقد رغبتموني في الجلوس إليه.. فما اسمه؟

قـال المسـؤول: لقـد اختـار أصـحابه أن يطلقـوا عليـه لقب (الكاظم)(1)

______

1) أشير به إلى الإمام الجليل (موسى الكاظم بن جعفـر الصـادق) (128 ـ 183 هــ)، وهو سابع أئمة أهل البيت – على مـذهب الاثنـا عشـرية- ويعـرف بألقـاب متعـددة منهـا: الكاظم ـ وهو أشهرها ـ والصابر والصالح.

قال آخر: ليس هناك لقب يصدق عليه كما يصدق عليه هذا اللقب.. لكأنه بحر محيط لا يكدر، ولا يتغير.

نهضت من الكرسي الذي كنت أجلس عليه.. وقلت: لا.. لا يمكنني الصبر أكثر من هذا.. مر يا صديقي.. يا صاحب السجن بإيداعي معه هذه الأيام.. أريد أن أسجن معه إلى أن يأتيه أجله.

ابتسم مسؤول السجن، وقال: لقد أصابك ما أصابنا.. إن كل

كان أعبد أهل زمانه وأزهدهم وأفقههم، وكان يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، وقد أخذ عنه العلماء فأكثروا، ورووا عنه في فنون العلم ما ملأ بطون الدفاتر، وألّفوا في ذلك المؤلّفات الكثيرة، المروية عنهم بالأسانيد المتصلة، وكان يعرف بين الرواة بالعالم.

وكان جليل القدر، عظيم المنزلة، مهيب الطلعة، كثير التعبّد، عظيم الحلم، شديد التجاوز حتى لقّب بالكاظم، وقد لاقى من المحن ما تنهدّ لهولها الجبال، فلم تحرك منه طرفاً، بل كان صابراً محتسباً كحال آبائه وأجداده.. وكان أحمد بن حنبل إذا روى عنه قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي ابن الحسين، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ ، ثم قال أحمد: (وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق)

وقد روي عن أبي حنيفة أنّه حجّ في أيّام الصادق، فلمّا أتى المدينة دخل داره وجلس ينتظر فخرج صبي، فسأله أبو حنيفة عن مسألة، فأحسن الجواب، قال أبو حنيفة: فأعجبني ما سمعت من الصبي، فقلت له ما اسمك؟ فقال له: (أنا موسى بن جعفر..) فقلت له: ياغلام ممّن المعصية؟ فقال: (إنّ السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث، إمّا أن تكون من الله وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وأمّا أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وأمّا أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فبكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته)

وكان يسكن المدينة، فأقدمه المهدي بغداد وحبسه، فرأى في النوم الإمام عليّا وهو يقول: يامحمد: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسِدُوا في الأَرض وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم ﴾ (محمّد: 22) فأطلقه وردّه إلى المدينة، فأقام بها إلى أيام هارون الرشيد.

من كلامه: (وجدت علم الناس في أربع: أوّلها: أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة: أن تعرف ما أراد منك، والرابعة: أن تعرف ما يخرجك عن دينك)

وقال: (المؤمن مثل كفتي الميزان كلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه)

وقال: (تفقّهوا في دين الله فإنّ الفقه مفتاح البصيرة وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً)

وقد اتفقت كلمة المؤرّخين على أنّ هارون الرشيد قام باعتقال الإمام الكاظم وإيداعه السجن لسنين طويلة، مع تأكيده على سجّانيه بالتشديد والتضييق عليه، وذكر أنّه لما طال به الحبس كتب إلى الرشيد يقول:(إنّه لم ينقضِ عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون)

من تراهم من رفاقنا يحلمون بما تحلم به.. كلهم يستعمل كل الأساليب والوسائل ليتصنت على تلك الكلمات العذبة التي يتفوه بها ذلك الفم الطاهر.

قلت: هيا.. أسرع.. مر بي إلى السجن.. أريد أن لا يشعر إلا بأني سجين كسائر السجناء.. فأنا أخشى إن عرف حقيقتي أن يتغير عن الصفة التي حدثتموني عنها.

ابتسم المسؤول، وقال: لا تزال لا تعرفه.. والله لو حضر ملك هذه البلاد بنفسه لما اهتز له عرق، ولا تحرك له جفن.. إنه كالجبل الصامد.. يفعل ما يراه صوابا.. لا يهمه من يكون معه.. ولا يهمه من يكون ضده.

قال آخر: وهذا الذي جعله يتردد على السجون كل حين..

قال آخر: لقد حاول كل الطغاة إغراءه.. لكنهم كانوا كمن يحاول أن يحرك الجبل عن مكانه.

قلت: هيا.. أنا ذاهب إليه.. أمرتم أو لم تأمروا.

ضحك صديقي صاحب السجن، وقال: مهلا.. هل تريد أن تدخل السجن بثيابك.. لأهل السجن ثيابهم.. ولا يمكنك أن تكون سجينا من دونها.

قلت: هلم لي بها.

***

دخلت إلى السجن.. فرأيته كالشمس أو قريبا من الشمس.. وكان المحيطون به منشغلون تماما بالنظر إليه، وبسماع كلماته..

عندما دخلت نظر إلي، والابتسامة على شفتيه، وقال: مرحبا بشاعر المستضعفين.. هلم لأدلك على رب المستضعفين..

ولم يزل ذلك الأمر بالإمام يُنقل من سجن إلى سجن حتى انتهى به الآمر إلى السّندي بن شاهك،وكان فاجراً فاسقاً، لا يتورّع عن ارتكاب أي شيء تملّقاً ومداهنة للسلطان، فغالى في التضييق عليه حتى جاء أمر الرشيد بدسّ السم له، فأسرع السندي إلى إنفاذ هذا الأمر العظيم، فاستشهد بعد طول سجن ومعاناة، وذلك في سنة ثلاث وثمانين ومائة. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

تعجبت من معرفته بي.. لكني حاولت أن أظهر أمامـه بوصـف المستكبر المتعجرف، فقلت: ومن أنت حتى تعرفني بـربي؟.. لقـد قـرأت الكتـاب المقـدس.. واكتفيت بمـا عرفـني بـه أنبيـاء اللـه وقديسوه.

قال: في أي سفر؟.. أفي سفر (حزقيـال:9 /6) الـذي يقـول: (الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليـه السـمة وابتـدئوا من مقدسـي. فابتـدأوا بالرجـال الشيوخ الذين أمام البيت)؟

أم في سفر (يشوع: 6 /21) الذي يقول: (وحرّموا كل مـا في المدينـة من رجـل وامـرأة من طفـل وشـيخ حـتى البقـر والغنم والحمير بحد السيف)؟

أم في سفر (صـموئيل 1:15 /3) الـذي يقـول: (فـالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل مـا لـه ولا تعـف عنهم بـل اقتـل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)؟

في أي هذه الأسفار؟

لم أجد مـا أجيبـه بـه، فقـال: ليس هـذا وحـده مـا في الكتـاب المقدس.. فهو وإن حوى الضلال، فقد حوى الهدى..

ففيه أن الرب:(حنونٌ رحومٌ. بطيءٌ عنِ الغضَبِ، كثيرُ الرَّحمةِ) ((يوئيل 2: 7)

لست أدري كيف تخليت عن كبريائي، وقلت: فكيـف تحكم في هذا التناقض؟

قال: لاشك أن النصوص التي تشـوه الـرب من كتابـة الكذبـة.. والنصوص التي تمدحه من كتابة الكتبة.

قلت: وما أدراك.. لعـل النصـوص الـتي تشـوهه هي النصـوص التي تذكر الحقيقة.

قال: لا.. يستحيل ذلك.. يسـتحيل أن تتنـاقض كلمـات اللـه مـع أكوان الله.

قلت: ولكن الكل ورد في كتاب واحد.

قال: إن عناية الله بعباده تـداركتهم فأرسـلت من التصـحيحات ما لم تفطنوا إليه.

قلت: أين هي؟

قال: في القرآن الكريم في عهد الله الأخير لعباده.. لقد تدارك الله الرحيم عباده بعـدما حرفـوا وغـيروا وبـدلوا بكتـاب يصـحح مـا وقعوا فيه من أخطاء.

قلت: إن التسليم لكلامك يقتضي بحوثا كثـيرة.. فمـا أدراني أن محمد نبي حتى أصدق أن له كتابا قد أوحي إليه.

قال: ومن أخبرك أن أنبياء الكتاب المقدس أنبيـاء حـتى تسـلم لهم؟

قلت: لقد آتاهم اللـه من المعجـزات والـدلائل مـا يـبرهن على ذلك؟

قال: وقد آتى الله محمدا من الآيات والـبراهين مـا آتـاهم.. ولا تزال آياته تسطع كل يوم بجديد.

قلت: فأنت الآن تبشر بذلك؟

قال: أنا الآن بين أصحابي من السجناء أبشرهم باللـه الـرحمن الرحيم اللطيف الكريم الذي من علي وعليهم من المنن ما لا يعده العـاد، ولا يحيـط بـه المحيـط.. فـإذا عرفـوا رحمـة اللـه وشـربتها أرواحهم أدركوا أن الله الرحيم الـرحمن يسـتحيل أن يـترك عبـاده هملا دون أن ينقــذهم برســول يخلصــهم من أهــوائهم ونفوســهم وشياطينهم ليزج بهم في بحار رحمة الله.

قلت: فأنت تتخذ إذن من الدعوة لربك الرحيم وسـيلة للـدعوة لدينك ونبيك؟

قال: إن كان ديني هو الدين الحـق.. وإن كـان نبـيي هـو النـبي الصادق الذي دلت على نبوته كل الدلائل.. فما الحرج في أن أدعو إليه، وأستعمل كل الأساليب المشروعة لذلك..

هل ترى أن الطبيب الذي وفقه الله، فهـداه لأنـواع من الـدواء عجز عنها غيره من الأطباء مخطئا إن عرف الناس بجدوى الأدويـة التي وفقه الله لاكتشافها؟

قلت: بل هو مخطئ إن قصر في ذلك.

قال: فذلك الطبيب هو أنا.. لقد سرت في الأرض.. وبحثت في الأديان والمذاهب.. ولم أترك أحدا إلا سـألته.. ولكـني لم أجـد دينـا انسجم مع الكـون.. ولم أجـد معـارف ترتبـط بمصـدر هـذا الكـون تنسجم مع قوانين الكون وسننه مثلمـا وجـدت في الإسـلام، وعنـد نبي الإسلام.

قلت: والمسيحية؟.. لعلك لم تطلع على تلك الرحمة العظيمـة التي يذكرها الكتاب المقدس عن إله المسيحيين..

لعلك لم تقرأ ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قـال: (أيهـا الاحبـاء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكل من يحب الله فقد ولد من الله)(يوحنا1/4:7)

وقد كتب يوحنا هذه العبـارة الـتي لا يوجـد مثلهـا في أي كتـاب من الكتب المقدسة: (لأنه هكذا أحب اللـه العـالم حـتى بـذل ابنـه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به) (يوحنا 3: 16)

ابتسم، وقال[1]: لقد أصابني في فترة من حياتي بعض الانبهـار من هذه العبارات الجميلة.. لكني عندما حـاولت أن أعيش معانيهـا لم أجد فيها من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.. بل عندما طبقت تلك العبارة على موازين الكون لم أجد لها أي وزن.

قلت: لكني وجدتها تزن كل شيء.

قال: لا بأس.. لنترك الجدل.. ولنترك الأنا.. ولنبحث فيما يقـول العقل.. العقل الذي وضع برنامجه ربنا ورب الخلائق جميعا..

لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلـك العبـارة الأخـيرة الـتي بهرتك كما بهرت الملايين من غير أن يعرفوا معناها.

---

1) بعض ما نذكره هنا من حوار ذكرنا مثله أو قريبا منه في رسالة (ثمـار من شـجرة النبوة) من هذه السلسلة، فصل (روحانية)

ألا ترى أنها تحمل تصويرا مشوها عن الله يصرف القلوب عنه.. بل قد يملؤها ببغضه!؟

قلت: ما تقول؟.. إنها تدل على رحمة الله التي لا حدود لها.

قال: سنطبق مقاييس عقولنا على هذا.. أجبني.. أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم سرعان ما تحولت إلى حليم رحيم.. ولكنك لم تعف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه على الصليب، وتقتله شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر ما تفعله، قلت لهم: لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفر عن خطايانا بغير هذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفت إلي، وقال: ألا ترى هذا نوعا من الجنون!؟

هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب الله العالم، ولا يحب ابنه؟.. ثم.. هل الذي يحب العالم يقتل ابنه الوحيد!؟

ثم.. كيف نثق بإله لم يشفق على ابنه من أجل غفران خطيئة

مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية 8: 32): (الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين)

لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة.

ألا توجـد طريقـة أخـرى عنـد إلـه المحبـة بـدلاً من قتـل ابنـه المزعوم لإنقاذ غيره!؟

وهل اقتضت رحمته ألا يُعـالج هـذه الجريمـة إلا بجريمـة أبشـع منها؟

وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حجر على اللـه المغفـرة في رسالته إلى العبرانيين (9:ـ 22)، فقال: (وكل شئ تقريبـا يتطهـر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة).. أهذا إله يمكن أن يكـون محبوبـا.. الإلـه العاشـق للـدماء.. الـذي لا يكفـر الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيف يتطهر العباد الذين لم يجاهدوا أنفسهم في ذات اللـه.. أبالانتحار.. حتى يقدموا قرابين لله الذي يحب الـدماء.. أم بالإيمـان والذكر والعبادة والتوجه!؟

لم أجد ما أقول، فقال: لا بأس.. ففي الكتاب المقدس ما يفنـد كل هذه الأباطيل التي نسبت لربنا ورب المسيحيين ورب الخلائـق جميعا.. لقد جاء فيه ما يبين أن الله الرحيم الـرحمن أكـرم من أن يحتاج إلى الذبيحة حتى يطهر عباده.. اسمع ما ورد في (هوشـع: 6 : 6-7): (إني أطلب رحمة لا ذبيحة، ومعرفتي أكثر من المحرقات. ولكنكم مثل آدم، نقضتم عهدي)

وفيه (هوشـع 14:ـ 1-3): (ارجـع تائبـا يـا إسـرائيل إلى الـرب إلهك، لأنك قد تعثرت بخطيئتك. احملوا معكم كلام ابتهال وارجعـوا إلى الرب قائلين له: انزع إثمنا، وتقبلنا بفائق رحمتك، فنزجي إليك حمـد شـفاهنا كـالقرابين. إن أشـور لن تخلصـنا، ولن نعتمـد على خيول مصر لإنقاذنا، ولن نقول للأوثان صنعة أيدينا: (أنتم آلهتنا) لأن فيك وحدك يجد اليتيم رحمة)

وفي (ميخا 6:ـ 6-8): (يارب: بمـاذا أتقـدم عنـدما أمثـل أمـام

الرب وأسجد في حضرة الله العلي؟ هل أتقدم منه بمحرقات وبعجول حولية؟ هل يسر الرب بألوف أنهار زيت؟ هل أقرب بكري فداء إثمي وثمرة جسدي تكفيرا عن خطيئة نفسي؟ لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان ما هو صالح. وماذا يبتغي منك سوى أن تتوخى العدل، وتحب الرحمة، وتسلك متواضعا مع إلهك)

وفي (مزمور 40:ـ 6): (لم ترد أو تطلب ذبائح ومحرقات عن الخطيئة، لكنك وهبتني أذنين صاغيتين مطيعتين)

وفي (مزمور 51: 16 – 17): (فإنك لا تسر بذبيحة، وإلا كنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى. إن الذبائح التي يطلبها الله هي روح منكسرة. فلا تحتقرن القلب المنكسر والمنسحق ياالله)

وفي (مزمور 69: 30 –31): (أسبح اسم الله بنشيد وأعظمه بحمد. فيطيب ذلك لدى الرب أكثر من محرقة: ثور أو عجل)

وفي سفر (إرمياء: 7:ـ 22): (هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ضموا محارقكم إلى ذبائحكم وكلوا لحما، لأني لم أكلم آبائكم ولا أوصيتكم يوم أخرجتهم من أرض مصر بشأن محرقة وذبيحة، بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلا: إطيعوا صوتي فأكون لكم إلها وأنتم تكونون لي شعبا، وسيروا في الطريق الذي أوصيتكم به ليحسن إليكم)

نظر إلي، وقال: هذه الحقائق التي ذكرها الأنبياء تنقض تلك الدعاوى التي ادعاها بولس.. فالله أرحم من أن يحتاج إلى ذبيحة.

قلت: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بهذا.. لكن ألم تر في سائر الأديان ما تجد فيه ضالتك؟

قال: بلى.. لقد وجدت..

قلت: فلم لم تلتزم بها.. وذهبت إلى هذا الذي يدعونه محمدا.

قال: لقد وجدت فيها الحق مختلطا بالباطل.. والخير معجونا مع الشر.. والأهواء متلبسة بالحكمة..

وقد قلت لنفسي عندما وجدت كل هذا: يستحيل على من ملأ

هذا الكون بمظاهر رحمته التي لا حـدود لهـا أن يـدع الأمـر هكـذا.. لابــد أن يرســل إلينــا من يمــيز الحــق من الباطــل، والطيب من الخبيث..

قلت: وقد وجدت ذلك في الإسلام؟

قال: أجل.. لقد وجدت القـرآن الكـريم.. كلام اللـه العظيم.. لا يفتأ كل حين من التذكير برحمة الله..

لقد كانت أول آية صادفتني هي:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) ﴾ (الفاتحة).. ثم وجدت هذه الآيـة الكريمـة تـردد في بدايـة كـل سـورة.. وكأنهـا تقـول لنـا: إن صـاحب هـذا الكلام هـو إلـه رحيم رحمن..

ثم قرأت القرآن تحت ظلال هـذا الاسـم.. فوجـدت أن القـرآن كله كتاب رحمة..

اسمع لهذه السورة التي سميت في القرآن بسورة الــرحمن.. اسمع..

راح يقـرأ: ﴿ الـرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُـرْآنَ (2) خَلَـقَ الْإِنْسَـانَ (3) عَلَّمَـهُ الْبَيَـانَ (4) الشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ بِحُسْـبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّـجَرُ يَسْـجُدَانِ (6) وَالسَّـمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَـوْا فِي الْمِـيزَانِ (8) وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلَا تُخْسِـرُوا الْمِـيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَـا فَاكِهَـةٌ وَالنَّخْـلُ ذَاتُ الْأَكْمَـامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْـفِ وَالرَّيْحَـانُ (12) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَـانَّ مِنْ مَـارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)﴾ (الرحمن)

هذا بعض ما في هـذه السـورة من تعـداد مظـاهر رحمـة اللـه بعبـاده.. إنـك إن تأملتهـا وتـأملت المعـاني العظيمـة الـواردة فيهـا والواردة في القرآن جميعا تجدها جميعا تصب في ناحيتين: كلاهمـا لا غنى عنهما للإنسان.. بل لا غنى عنهما للكون جميعا..

إنهما: العناية بما يحتاجه الكائن في جانبـه التكويـني.. والهدايـة التي يحتاجها الكائن ليبصر الحياة بالصـورة الحقيقيـة الـتي صـورها

الله..

لقد ذكر القرآن كلا الأمرين في الحوار الذي جـرى بين موسـى وفرعون، فقال:﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَـا مُوسَـى (49) قَـالَ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَـالُ الْقُـرُونِ الْأُولَى (51)﴾ (طه)

إن قولـه:﴿ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ﴾ يـدل على العناية.

وقوله:﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ يدل على الهداية.

قلت: فهل ستحدثني عنهما؟

قال: أجل.. سأحدثك، وأحدث أصحابي عنهمـا من خلال قـراءة اسمين من أسماء الله الحسنى دلت عليهما أكـوان اللـه، وكلمـات الله.

قلت: فما هما؟

قال: الرب.. والهادي.

1 ـ الرب

قلت: فحدثني عن الرب.

قال: لقد امتلأ كتابنا المقدس بذكر مـا أفـاض اللـه على عبـاده من نعم عنايته بهم..

ومن ذلك منته عليهم بالتكريم، ومـا يتطلبـه التكـريم من أنـواع التسـخير، قـال تعـالى:﴿ وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّـلْنَاهُمْ عَلَى كَثِـيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلًا (70) ﴾ (الإسراء)

ومن ذلك ما هيأه لهم من أنواع الألطاف المرتبطة بالبيئة الـتي وجدوا فيها، فهي مهيأة لهم أرضا وسماء، قال تعـالى:﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِـيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ وَأَنْهَـارًا وَسُـبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ (15) وَعَلَامَـاتٍ وَبِـالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَـدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُـقُ كَمَنْ لَا يَخْلُـقُ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)﴾ (النحل)

ومن ذلك ما أخرج لهم من الأرض، وما أنزل لهم من السماء، وما سخر لهم من البحار والأنهار.. قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾ (إبراهيم)

ومن ذلك ما سخر لهم من أسباب الحياة، وأسباب حفظ الحياة، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)﴾ (الأنبياء)

ومن ذلك ما هيأه لهم من وجود الجنسين جميعا، وما يثمر ذلك من بقاء النسل وحفظه، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)﴾ (النحل)

ومن ذلك هذا المعرض من النعيم الذي من الله به على عباده، فقال:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ (النبأ)

***

بعد أن قرأ علي الكاظم هذه النصوص المقدسة وغيرها سألته: ما السر في ترديد كتابكم المقدس لهذه المعاني مع أنها ملاحظة بالعين.. معروفة بالبديهة.. فكلنا رأى الجبال والأنهار

والبحـــار.. وكلنـــا تنعم بشـــرب المـــاء، واستنشـــاق الهـــواء، وأكـــل الطعام؟

قال: إن القرآن ينقلنا بما يذكره من نعم الله من تناولها من يد نفوسنا أو يـد أهوائنـا أو يـد الطبيعـة العميـاء لتنتاولهـا من يـد اللـه مبدعها وصانعها والمان بها على عباده.

وبذلك يضعنا القرآن بين يدي الحقيقة.. فلا يتحـرر الإنســان ولا يتنعم بغير الحقيقة..

ولهذا، فإن هناك فرقا كبيرا بين نظرة المؤمن للأشـياء ونظـرة الغافل الجاحد لهـا.. فـالمؤمن نسـب النعم لأصـحابها، وتنعم بتلـك النسبة.. أما الجاحد فهو في تخرصاته وكبريائـه وتيهـه عن الحـق لا يستشـعر شـيئا من اللـذة الـتي يستشـعرها المـؤمن وهـو يتنـاول الأشياء من يد الله، قال تعالى:﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُـرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (يونس:66)

وقـــال عن الـــذين اتخـــذوا من دونـــه أوليـــاء:﴿ قُـــلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ لا يَمْلِكُـونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُـرَكَاءَ خَلَقُـوا كَخَلْقِـهِ فَتَشَـابَهَ الْخَلْـقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد:16)

وهــؤلاء خبطــوا وخلطــوا، فـ:﴿ جَعَلُـوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَـرْثِ وَالْأَنْعَـامِ نَصِـيباً فَقَـالُوا هَـذَا لِلَّهِ بِـزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُـرَكَائِنَا فَمَـا كَـانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَـا كَـانَ لِلَّهِ فَهُـوَ يَصِـلُ إِلَى شُـرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الأنعام:136)

ونتيجة خلطهم وخبطهم أنهم يعبدون السـراب، ويـدعون من لا يملك شـيئا، قـال تعـالى:﴿ قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَــا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سـبأ:22)

بـل لـو كـان بيـد هـؤلاء أي ملـك، فـإن ملكهم سـيبقى قاصـرا عليهم، قال تعالى:﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَـإِذاً لا يُؤْتُـونَ النَّاسَ

نَقِيراً ﴾ (النساء:53)، وقـال تعـالى:﴿ قُـلْ لَـوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الْأِنْفَـاقِ وَكَـانَ الْأِنْسَـانُ قَتُـوراً ﴾ (الاسراء:100)

وهؤلاء الجاحدون ــ الـذين غفلـوا عن ملكيـة اللـه للأشـياء في الدنيا ـ سيدركونها يوم القيامة، ولذلك يجيئ التعبير القرآني مخـبرا عن ملكية الله للأشياء في الآخرة، وهو لا يعني عدم ملكيته لها في الدنيا، وإنما هو إخبـار عن تعـرف الجاحـدين والغـافلين حينهـا على هذه الملكية، كما قال تعالى:﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة:4)

وهؤلاء الجاحدون ــ كمـا يخـبر القـرآن الكـريم ــ يقـرون بهـذه الملكية:﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْـكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر:16)

بالإضـافة إلى هـذا، فهنـاك من المعـاني الذوقيـة مـا لا يجـده المؤمن إلا بهذه المعاني التي ذكرها القرآن الكريم.

قلت: مثل ماذا؟

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لـك هـذا.. أرأيت لـو أن شخصـا محبوبا لك تقدم لك بهدية.. مهما كانت قيمتها.. هل يقتصـر نظـرك للهدية على ما تحويـه من منفعـة، فتقيمهـا على أسـاس ذلـك.. أم أنك تنظر إليها نظرة خاصة؟

قلت: بـل أنظـر إليهـا نظـرة خاصـة.. ففي الهديـة دلالـة على العلاقـة الحميمـة الـتي تربطـني بالمهـدي.. ولـذلك لا أنظـر إليهـا بالمقاييس المادية.. بل أنظر إليها بمقاييس لا يمكن التعبير عنها..

قال: فهكذا المؤمن في تناوله لنعم اللـه.. وهـذا مـا دلنـا عليـه القـرآن الكـريم وربانـا عليـه.. فـالمؤمن ينظـر إلى النعم ويتناولهـا كهدايا من ربه.. ولذلك يجد لها من المتعـة والنعمـة مـا لا يجـد لهـا غيره.

2 ـ الهادي

بعـد أن جعلـني الكـاظم أشـعر بـالنعم الكثـيرة الـتي أنسـتنيها الغفلة، سألته: لقد حدثتني عن المنعم.. فحدثني عن الهادي.

التفسير:

قال[1]: لقد دلني عقلي أن كل نعمة تحتاج إلى منعم.. فوصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب.. وتأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم.. ورعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءهـا أب وأم.. ووجود بيت فيـه كـل وسـائل الراحـة نعمـة وراءهـا نـاس عملـوا.. وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءهـا مباشـرة من أعطى واعتنى.

أترى هذه المعطيـات الكثـيرة الـتي ليسـت من صـنع الإنسـان للإنسان ليس وراءها منعم أنعم بها؟

قلت: بلى.. وأنا وأنت جميعا ننسب ذلك لله..

قال: فالكون إذن يدل على أن الله رحيم رحمن..

قلت: ذلك صحيح..

قال: فالعقل إذن يدل على هذا؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: والكتاب المقدس الذي يتضمن تعليمات اللـه لعبـاده لابـد أن يحوي هذا، ويدل عليه، ولا يتناقض معه.. فـإن تنـاقض معـه دل ذلك على أن صاحب الكلمات ليس هو صاحب الأكوان.

قلت: إن هذا يفتقر إلى دليل.

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لـك المسـألة، ويكـون في نفس الوقت دليلا عليها.

أرأيت لو أن جيشا من الجيوش كـان يتـولاه قائـد حكيم ممتلئ بالرحمة والرأفة واللطـف.. كمـا يمتلئ في نفس الـوقت بكـل مـا تتطلبه القيادة من طاقات وخصال..

وقد عـرف جيشـه منـه هـذا مـدة طويلـة.. ولـذلك كـان يتلقى أوامره بنفس منشرح، وطواعية تامة..

1) انظر: كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى.

ولكن الجيش فجأة يفاجأ برسائل تأتيه يـزعم أصـحابها أنـه من ذلـــك القائـــد الـــرحيم يطلب منهم فيهـــا قتـــل المستضـــعفين المظلومين.. واستئصالهم وإبادتهم.. فمـا تـرى موقـف الجيش من ذلـك؟.. هـل تـراه يشـك في أولئـك الرسـل، وفي الرسـالة الـتي يحملونها؟

قلت: أجل.. لابد أن يتسرب إليهم من ذلك.. وهذا يدعوهم إلى الاتصال بالقائد للتأكد من مدى صحة الأوامر التي أرسل بها.

قـال: فهـذا الجيش حكم على الأوامـر الـتي أتتـه من طـرف الرسل انطلاقا من معرفته الشخصية بالقائد؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فطبق هذا على المعنى الـذي طرحتـه لـك.. فاللـه الـذي عود عباده على رأفته ورحمته ولطفـه وكرمـه يسـتحيل أن يصـدر منه من الأوامر ما يتناقض مع هذا..

قلت: أسلم لك أن في بعض الكتاب المقدس ما يتناقض مع ما يدل عليه الكون من رحمـة اللـه.. ولكن هـل تـرى في القـرآن مـا يتوافق مع الكون في هذه الناحية؟

قال: في الفترة التي قطعت فيها قيـود التقليـد، ورحت أسـس عقيدتي على ما يقتضيه العقل.. بحثت في جميع ما يسميه النــاس كتبا مقدسة.. فلم أجد كتابا ممتلئا بمعاني الرحمة واللطف والكرم مثـل القـرآن الكـريم.. إنـه كـالمرآة الـتي تتجلى على صـفحتها الكائنات بأجمل صورها وأوضحها وأدقها..

لكأن الكون جميعا اختصر في حروف القرآن وكلماته..

في تلك الأيام.. التقيت رجلا ممتلئا بأنوار الحكمة.. كـان اسـمه (بديع الزمان).. وكـان رجلا ينتهج منهج القـرآن الكـريم في ضـرب الأمثال.. وقد حدثني حينها عن أسرار التوافق بين القرآن والكـون، فـذكر لي(1) – على سـبيل التمثيـل- أن حاكمـا عظيمـا ذا تقـوى

1) انظر: كليـات رسـائل النـور (لبـديع الزمـان النورسـي)، الكلمـات، الكلمـة الثانيـة عشرة.. وقد قدم لها بـديع الزمـان بقولـه: (هـذه الكلمـة تشـير الى موازنـة اجماليـة بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشـير أيضـاً الى خلاصـة مختصـرة لمـا

وصلاح وذا مهارة وإبـداع أراد أن يكتب القـرآن الحكيم كتابـة تليـق بقدسية معانيـه الجليلـة، وتناسـب إعجـازه البـديع، فـأراد أن يُلبِس القرآن الكريم ما يناسب إعجازه السامي من ثـوب قشـيب خـارق مثله.

فطفق بكتابـة القـرآن، وهـو مصـور مبـدع، كتابـة عجيبـة جـداً مستعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة ليشير بهـا إلى تنـوع حقائقـه العظيمة، فكتب بعض حروفه المجسمة بالألماس والزمرد، وقسماً منها باللؤلؤ والمرجان، وطائفة منها بالجوهر والعقيق، ونوعـاً منهـا بالذهب والفضة.. حتى أضفى جمالاً رائعـاً وحسـناً جالبـاً يعجب بهـا كل من يراها سواء أعلم القراءة أم جهلها.. فـالجميع يقفـون أمـام هذه الكتابة البديعة مبهوتين يغمرهم التبجيل والإعجـاب، ولا سـيما أهل الحقيقة لما يعلمون أن هذا الجمال الباهر يشف عما تحته من جمال المعـاني، وهـو في منتهى السـطوع واللمعـان وغايـة اللـذة والذوق.

ثم إن هذا الحـاكم العظيم عـرض هـذا القـرآن البـديع الكتابـة، الرائع الجمال، على فيلسوف أجنبي، وعلى عالم مسلم.. وأمر كل واحد منهمـا بتـأليف كتـاب حـول حكمـة هـذا القـرآن.. ملمحـاً الى اختبارهما ليكافئهما.

وقد استجاب كلا الرجلين لهذا الطلب:

أمـا الفيلسـوف - وقـد كـان بالإضـافة إلى خبرتـه بالفلسـفة مهندسا بارعا، ومصورا فنانا، وكيميائيا حاذقا، وصائغا مـاهرا - فقـد كتب كتابه وفق ما يتقنه من مهارات، وما يجيده من فنـون.. ولهـذا اقتصـر كتابـه على البحث عن نقـوش الحـروف وجمالهـا، وعلاقـة بعضها ببعض، وأوضاع كل منها، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب.. ولم يتعـرض في كتابـه إلى معـاني ذلـك القـرآن العظيم قط، إذ أنه جاهل باللغة العربية جهلاً مطبقاً، بل لم يـدرك أن ذلـك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفـه عن معـان جليلـة، وإنمـا حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق..

تلقنه حكمة القرآن من تربية الانسـان في حياتيـه الشخصـية والاجتماعيـة فضـلاً عن انهـا تضم اشارة الى جهة تـرجح القـرآن الكـريم وأفضـليته على سـائر الكلام الإلهي وسـموه على الاقوال قاطبة)

أما العالم المسلم، فما إن نظر الى تلـك الكتابـة البديعـة حـتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم.. فلم يصرف اهتمامه الى زينتــه الظاهرة، ولا شغل نفسه بزخارف حروفه البديعة، وانما توجه كليـاً ـ وهو التواق للحق ـ الى مـا هـو أسـمى وأثمن وألطـف وأشـرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسوف الاجنبي بملايين الأضـعاف، فبحث عما تحت تلك النقـوش الجميلـة من حقـائق سـامية جليلـة وأسرار نيرة بديعة فكتب كتابه تفسيراً قيمـاً لهـذا القـرآن الحكيم، فأجاد وأتقن.

بعـد أن أنهيـا كتابيهمـا.. قـدّم كـلٌ منهمـا مـا كتبـه الى الحـاكم العظيم..

فتناول الحاكم أولاً مؤلَّف الفيلسوف ونظر اليه ملياً.. فـرأى أن ذلك المعجب بنفسه والمقدس للطبيعـة، لم يكتب حكمـةً حقيقيـة قط، مع أنه بذل كل ما في طوقه، إذ لم يفهم معاني ذلك الكتاب، بل ربما زاغ واختلط عليه الأمر، وأظهـر عـدم توقـير وإجلال لـذلك القـرآن، حيث أنـه لم يكـترث بمعانيـه السـامية، وظن أنـه مجـرد نقوش جميلة وحروف بديعة، فبخس حق القرآن وازدراه من حيث المعنى.. لذا رد الحاكم الحكيم مؤلَّف ذلك الفيلسوف وضربه على وجهه وطرده من ديوانه.

ثم أخـذ مؤلَّف العـالم المسـلم المحقـق المـدقق، فـرأى أنـه تفسير قيم جداً، بالغ النفع.. فبارك عمله، وقدر جهده، وهنّأه عليـه وقال: (هذه هي الحكمة حقاً، وانما يطلق اسم العالم والحكيم حقاً على صاحب هـذا المؤلَّف، وليس الآخـر إلاّ فنـان صـنّاع قـد أفـرط وتجاوز حدّه)

قلت: ما يقصد صاحبك بهذا المثال؟

قال: لقـد ذكـر لي أن ذلـك القـرآن الجميـل الـزاهي، هـو هـذا الكـون البـديع.. وذلـك الحـاكم المهيب هـو سـلطان الأزل والأبـد سبحانه وتعالى.

أمـا أول الـرجلين- أي ذلـك الأجنـبي – فيمثـل وعلم الفلسـفة والحكمة وسائر ما نعرفه من علوم مادية..

وأما الثاني.. فهو القرآن الكريم وتلاميذه..

قلت: لا أزال لا أفهم قصدك من إيراد هذا المثال.

قـال: لطالمـا أقـول لنفسـي: إن صـاحب هـذا الكـون البـديع يستحيل أن يتركنا هملا لا يعرفنا بنفسه.. بل يستحيل أن يترك هـذا الكون من غير تفسير.. ولذلك رحت أبحث عن تفسير يفسـر هـذا الكون.. ولم أجد في جميع ما يطلق عليه النـاس كتبـا مقدسـة مـا يفي بهذا بهذا الغرض سوى القرآن الكريم.

لقـد قـال لي بـديع الزمـان حينهـا: (نعم، ان القـرآن الكـريم المقـروء هـو أعظم تفسـير وأسـماه، وأبلـغ ترجمـان وأعلاه لهـذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور.. إن ذلك الفرقـان الحكيم هـو الـذي يرشـد الجن والإنس الى الآيـات الكونيـة الـتي سطّرها قلمُ القـدرة الإلهيـة على صـحائف الكـون الواسـع ودبجهـا على أوراق الأزمنة والعصور.. وهـو الـذي ينظـر الى الموجـودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بـالمعنى الحـرفي، أي ينظـر اليهـا من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسـنَ خلقـه! مـا أجملَ خلقه! ما أعظم دلالتـه على جمـال المبـدع الجليـل.. وهكـذا يكشف أمام الأنظار الجمالَ الحقيقي للكائنات.

أما ما يسـمونه بعلم الحكمـة وهي الفلسـفة، فقـد غـرقت في تزيينات حروف الموجـودات، وظلّت مبهوتـة أمـام علاقـات بعضـها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقـة.. فبينمـا كـان عليهـا أن تنظـر الى كتاب الكون نظرتها الى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظـرت اليهـا بـالمعنى الاسـمي، أي أن الموجـودات قائمـة بـذاتها، وبـدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هـذا! بـدلاً من:مـا أجمـل خلـق هـذا، سـالبة بهـذا القـول الجمـال الحقيقي للشـئ.. فأهانت باسنادها الجمال الى الشئ نفسه جميع الموجـودات حـتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة..)

ثم قال لي: (نعم! إن الفلسفة الملحـدة إنمـا هي سفسـطة لا حقيقة لها وتحقير للكون وإهانة له)

الشكر:

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى من واجب العقول أن تنسجم كلمات الله المقدسة مع النعم التي أنعم بها؟

قلت: كيف تعتبر ذلك واجبا؟

قال: ألست ترى الذي يحسن إليك أقل إحسان يسوؤه أن تجحده، وتكفر نعمه عليك؟

قلت: ذلك صحيح.. ولكننا نفعل ذلك بسبب قصورنا البشري.. أما الله، فهو أعلى وأجل.

قال: صحيح.. ما قلته عن تنزيه الله صحيح.. فالله الكريم الجواد لا يضره سخط الساخطين كما لا ينفعه شكر الشاكرين.. ولكن ألا ترى أن تعريف الله لعباده بأنه هو مصدر ما هم فيه من النعم ليشكروه فضل منه عليهم؟

قلت: لم أفهم هذا.

قال: أرأيت لو أثقلتك الديون.. وتربص أصحابها بك الشر بسببها.. ثم فجأة يأتيك ظرف يحوي من المال ما يسد ديونك.. ثم تأتيك بعدها الظروف من أصناف الأموال لتسد جميع حاجاتك.. ألست تشتاق لمعرفة هذا المنعم الذي من عليك بجميع هذه المنن؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فهكذا الفطر السليمة.. فإنها إن تأملت النعم المفاضة عليها جعلتها تبحث عن صاحبها لتشكره[1]..

---

1) هذه المسألة تسمى في (علم الكلام) بمسألة (شكر المنعم)، وقد اختلف المتكلمون فيها، فذهب المتكلمون من السنة إلى توقف وجوب شكر المنعم على السمع، بينما ذهب الإمامية والمعتزلة إلى وجوب شكر المنعم عقلا.. ومن الأدلة التي استدلوا بها على ذلك:

1 - أن شكر المنعم واجب بالضرورة وآثار النعمة علينا ظاهرة، فيجب أن نشكر فاعلها، وإنما يحصل بمعرفته.

2 - أن معرفة الله تعالى واقعة للخوف الحاصل من الاِختلاف، ودفع الخوف واجب بالضرورة.

قلت: ما قصدك من كل هذه المقدمات؟

قال: أقصد منها أن كلمات الله المقدسة لابد أن تحتوي على هذه المعاني.. لابد أن تذكر عناية الله بعباده.. لأن كلمات الله للإنسان كنعمه كلاهما إما يغطي حاجاته، أو يجيب عن تساؤلاته.

قلت: صدقت في كل هذا.. فهل في كتابكم المقدس ما يدل على هذا؟

قال: بل جميع كتابنا المقدس يدل على هذا.. جميع القرآن الكريم ذكر لنعم الله على عباده، ومطالبة منه لهم بشكرها..

بل إن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا ديدن جميع أنبياء الله.. فكلهم عرف الخلق بنعم الله، وكلهم دعاهم إلى شكرها:

لقد أخبر الله عن إبراهيم ﷺ، فذكر أنه:﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(121) ﴾ (النحل)

وذكر خطاب موسى ﷺ لقومه الجاحدين المخاصمين لربهم، الذين غمر القنوط حياتهم، فصاروا ينظرون بعين سوداوية لكل الأشياء، فلا يرضيهم شيء، ولا تسعدهم نعمة، فقال:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (ابراهيم:6)

3- أنه يلزم المخالفين - القائلين بأن معرفة الله تعالى واجبة بالسمع لا بالعقل - ارتكاب الدور المعلوم بالضرورة بطلانه، لأن معرفة الإيجاب تتوقف على معرفة الموجب فإن من لا نعرفه بشيء من الاعتبارات البتة نعلم بالضرورة أنا لا نعرف أنه أوجب، فلو استفيدت معرفة الموجب من معرفة الإيجاب لزم الدور المحال!

4- أنه لو كانت المعرفة إنما تجب بالأمر لكان الأمر بها إما أن يتوجه إلى العارف بالله تعالى أو إلى غير العارف والقسمان باطلان، فتعليل الإيجاب بالأمر محال.. أما بطلان الأول فلأنه يلزم منه تحصيل الحاصل وهو محال.. وأما بطلان الثاني: فلأن غير العارف بالله تعالى يستحيل أن يعرف أن الله قد أمره وأن امتثال أمره واجب، وإذا استحال أن يعرف أن الله تعالى قد أمره وأن امتثال أمره واجب استحال أمره وإلا لزم تكليف ما لا يطاق.

ومع أن المسألة أخروية إلا أن الأحوط فيها ما ذكره الإمامية والمعتزلة.. وقد تحدثنا عن مسائل لها علاقة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار)

وأخبر عن موسى ﷺ ذكره لنعمة ربه، وعدم استسلامه لقومه بسببها، قـال تعـالى:﴿ قَـالَ رَبِّ بِمَـا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُـونَ ظَهِـيراً لِلْمُجْرِمِينَ(17)﴾ (القصص)

وفي آية أخرى يأمرهم ﷺ بذكر نعم الله المعنوية عليهم، قـال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِـهِ يَـا قَـوْمِ اذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَـالَمِينَ (20)﴾ (المائدة)

ولجحود بني إسرائيل بقي الأمر بذكر نعم الله وعـدم التطـاول بها على عبـاده مسـتمرا بعـد موسـى ﷺ إلى خـاتم النبـيين، قـال تعالى:﴿ سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَـةٍ بَيِّنَـةٍ وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(211)﴾ (البقرة)

ويخبر عن سليمان ﷺ ـ وهو الذي أوتي من الملك ما لم يـؤت أحد ـ فيثني عليـه بوصـف الشـكر لابوصـف الملـك، قـال تعـالى:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَـاحِكاً مِنْ قَوْلِهَـا وَقَـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِـكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19)﴾ (النمل)

وبمثل ذلك أخبر عن رسول الله ﷺ، فقد أمره ربه بذكر النعم، بل بالتحدث بها، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَـدِّثْ ﴾ (الضـحى: 11)، فالتحدث بالنعمة التالي لذكرها منبئ عن قمة الشكر.

وهكذا أمر هذه الأمة.. قال تعـالى:﴿ وَاذْكُـرُواْ نِعْمَـةَ اللّـهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَاتَّقُـواْ اللّـهَ إِنَّ اللّـهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)﴾ (المائدة)

ويأمرها بـذكر نعمـة خـذلان الأحـزاب، وانتصـارالمؤمنين، قـال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَـاءَتْكُمْ جُنُـودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(9) ﴾ (الأحزاب)

وفي آية أخرى يأمر بـذكر نعمـة الحفـظ من الظـالمين، الـذين هموا أن يبسطوا أيديهم على المؤمنين، قال تعالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَنْ يَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ

فَكَفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ(11)﴾ (المائدة)

والقرآن الكريم يذكر وجدان المـؤمن بـأن كـل شـيء من نعم الله، قال تعالى:﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّـكُمُ الضُّـرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (النحل:53)

ويعـدد اللـه بعض نعمـه على عبـاده، النعم الظـاهرة والباطنـة ليشكروه عليهـا، قـال تعـالى:﴿ أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَـخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَـهُ ظَـاهِرَةً وَبَاطِنَـةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتَـابٍ مُنِـيرٍ ﴾ (لقمان:20)

ومن النمـاذج على هـذه النعم، والـتي قـد لا يلتفت لهـا، نعمـة الاستواء على المركـوب، والقـرآن الكـريم يـذكرها عقب الاسـتواء مباشرة، ليـدل بـذلك على وجـوب مصـاحبة الشـكر للنعمـة، قـال تعالى:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَـهُ مُقْـرِنِينَ ﴾ (الزخـرف: 13)

وهذه النعم المذكورة في القرآن الكـريم مجـرد نمـاذج، أو هي جوامع النعم، أما تفاصيلها، وعدها، فهو مستعص غـير ممكن، قـال تعالى:﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (ابراهيم:34)

وتأتي الفاصلة في آية أخرى لتخبر بأن اللـه غفـور رحيم، قـال تعـالى:﴿ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل:18)

وكأن الأولى تشير إلى الإنسان الجاحد المقصر في ذكـر النعم، والثانية تشير إلى الشاكر العاجز عن إحصائها.

السلوك:

قلت: وعيت كل مـا ذكرتـه.. ولعلي أسـلم لـه.. ولكـني لسـت أدري علاقته برحمة الله.

قال: إن ما ذكرته لك مظهر عظيم من مظاهر الرحمة.. لكننا – للأسف - نجد أنفسنا تنشغل عنه بمتاع زائل قليل كما انشغل ذلك الفيلسوف بوصف الجواهر عن الاهتمام بالمعاني التي تكتبها الجواهر.

قلت: أنا لا أزال في غفلتي.. ولذلك أنا أحتاج منك أن تفسر لي علاقة ذلك بالرحمة.

قال: لقد شغلني في بداية طلبي ما شغلك.. وقد سألت عما سألتني عنه بديع الزمان.. أذكر ذلك اليوم جيدا..

لقد نظر إلي حينها، وقال مخاطبا لي كما تعود أن يخاطبني(1): إن مَثَل بناء هذا العالم وإدخال العالم الانساني فيه، كمثل سلطان له خزائن فيها أصناف الجواهر، وله كنوز مخفية، وله مهارة في صنع الغرائب، وله معرفة بعجائب فنون لا تعد وبغرائب علوم لا تحد.. فأراد ذلك الملك أن يظهر على رؤس الأشهاد حشمةَ سلطنتِهِ، وشعشعة ثروته، وخوارقَ صنعتِه، وغرائبَ معرفته، أي أن يشهد كماله وجماله وجلاله المعنوية بالوجهين؛ بنظره، ونظر غيره.

فبنى قصراً جسيماً ذا منازل وسرادقات.. فزينها بمرصعات جواهر كنوزه، ونقشها بمزينات لطائف صنعته، ونظمها بدقائق فنون حكمته، ووسمها بمعجزات آثار علومه، وفرش فيها سفرة ضمت لذائذ نعمه.

ثم دعا رعيته للسير والتنزه، وأضافهم بضيافة لا مثل لها، كأن كل لقمة منها أنموذج لمئات من صنعته اللطيفة.. ثم عين أستاذاً لتعريف ما في ذلك القصر من رموز تلك النقوش وإشارات تلك الصّنائع، ووجوه دلالات تلك المرصعات على كمالات صاحبها، وما ينبغي أن يعامل به من أدب.

وكان مما علمه أن يقول لهم قوله: (أيها الناس! إن مليكي يتعرف إليكم بإظهار ما في هذا، فاعرفوه.. ويتودد إليكم بهذه التزيينات فتوددوا إليه بالاستحسانات.. ويتحبب إليكم بهذه الإحسانات فأحبوه.. ويرحم إليكم فاشكروه.. ويتظاهر إليكم

1) انظر: المثنوي العربي النوري:380. (بتصرف)

فاشتاقوا اليه..)

وهكذا.. وعندما دخل الناس افترقوا إلى فريقين:

أما الفريق الأول، فنظـر الى مـا في القصـر، فقـالوا: لابـد أن يكـون لهـذا القصـر شـأن عظيم.. ثم نظـروا الى المعلم الأسـتاذ فقالوا: السلام عليك! لابد لمثل هذا، من مِثلِكَ.. فَعَلِّمْنَا ممّا علمــك سيدُك.. فنطق فاستمعوا فاستفادوا فعملوا بمرضـيات الملِـك.. ثم دعاهم الملك لقصر خـاص لا يوصـف، فـأكرمهم بمـا يليـق بمثلـه لمثلهم في مثل ذلك القصر..

أما الفريق الثاني، فما التفتوا إلى شئ غـير الأطعمـة، فتعـاموا وتصاموا، فـأكلوا أكـلَ البهـائم، ثم شـربوا من الإكسـيرات الـتى لا تشرب، فسـكروا.. ثم راحـوا يشوشـون على النـاظرين، فأخـذهم جنود الملك فطرحوهم في سجن يليق بهم.

ضرب لي بديع الزمان هـذا المثـال، ثم قـال: إذا تفطنت لسـر التمثيل فانظر إلى صورة الحقيقة..

فأما القصر فهذا العـالم الـذي نـوّر سـقفه بمصـابيح متبسـمة، وزيّن فرشه بأزاهير متزينة.

وأمـا الملـك فهـو سـلطان الأزل والأبـد الـذي ﴿ تُسَـبِّحُ لَـهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)﴾ (الإسراء)

وأما المنازل، فالعوالم المزينة.. كل بما يناسـبه.. وأمـا الصـنائع الغريبة فهي معجزات قدرته.. واما الأطعمـة فهي خـوارق ثمـرات رحمتـه.. وأمـا المطبخ والتنـور فـالأرض وسـطحها.. وأمـا الكنـوز المخفية وجواهرها فالأسماء القدسية وجلواتها.

وأما الاستاذ المعلم ورفقاؤه وتلامذته، فسيدنا محمد والأنبيـاء - عليهم الصلاة والسلام – وورثتهم من الهداة والأولياء.

وأما المسـافرون المـدعوون للسـير والضـيافة؛ فالإنسـان مـع حواشيه من الحيوانات.

وأما الفريقان؛ فأحدهما أهل الإيمان والقرآن الذي يفسّر لأهلـه معاني آيات كتاب الكائنات.. والآخر؛ أهل الكفر والطغيان التـابعون للنفس والشيطان لا يعرفون من الحياة إلا الحياة الدنيوية..

نظر إلي الكاظم، ثم قال: هل ترى من الرحمـة أن يـترك اللـه عبـاده هملا من دون أن يـدلهم على حقيقتهم ووظيفتهم والمصـير الذي يصيرون إليه..؟

قلت: لكنه دلهم على ذلك في الكتاب المقدس؟

قال: ولكنهم حرفوا وانحرفوا.

قلت: هم يتحملون مسؤولية ذلك.

قال: إنما يقول هذا القساة.. أما الرحيم الـرحمن فـإن رحمتـه التي وسعت كل شيء لن تضيق بهذا البشـر المحـدود من خلقـه.. ولذلك أرسل رسـله تـترى ليهـدي عبـاده ويخـاطبهم بكـل أصـناف الخطاب..

انظر كيف رحم الله قرية واحدة، فأرسل لهـا رسـولين.. فلمـا لم يكفيا عزز بثالث.. بل عززهم برابع من الصالحين.. قال تعـالى: ﴿ وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْـحَابَ الْقَرْيَـةِ إِذْ جَاءَهَـا الْمُرْسَـلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الـرَّحْمَنُ مِنْ شَـيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَـلُونَ (16) وَمَـا عَلَيْنَـا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَـالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَـا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُـوا لَنَـرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَـالُوا طَـائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَـلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْـعَى قَـالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) ﴾ (يس)

أتـرى الـذي رحم هـذه القريـة الواحـدة يـترك أممـا كثـيرة من النـاس دون أن يرسـل لهم من الهدايـة مـا يـدلهم على سـبيل السلوك إليه؟

التفت إلى رفاقـه، ثم قـال: مـا بـالي أذهب بعيـدا.. لقـد كنت

تحدثني عن الكتاب المقدس..

قلت: أجل.. إنه وحي الله لأنبياء كثيرين..

قال: لمن أرسلهم الله؟

قلت: لبني إسرائيل.. كل أنبياء الكتاب المقدس من بني إسرائيل..

قال: ألا ترى أن تخصيص شعب واحد بأنبياء كثيرين، وبأسفار كثيرة.. وفي أوقات متقاربة رحمة من الله بذلك الشعب؟

قلت: بلى.. ولهذا هم يزعمون لأنفسهم أنهم شعب الله المختار.

قال: ذلك لعدم فقههم عن ربهم.. وإلا فإن الله الذي رحم ذلك الشعوب بأولئك الأنبياء يستحيل أن لا يرحم غيرهم من الشعوب..

قلت: ولكنكم معشر المسلمين تزعمون أن رسالات الله ختمت بمحمد؟

قال: ذلك لأن شريعة محمد ﷺ قد شملت كل حاجات البشرية.. وقد ضمن لها مع ذلك الحفظ.. فلذلك أغنت عن تعدد الرسل.. لأن الهدف ليس تكثير الرسل، وإنما الهدف بلوغ الرسالة.

السعادة:

قلت: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بكل ما ذكرته.. فما الرحمة التي ينطوي عليها هذا النوع من الهداية؟

قال: إن الرحمة التي تنطوي عليها هذه الهداية لا يمكن تصورها.. إنها ولادة جديدة للإنسان.. ولادة أهم بكثير من الولادة التي خرجت به من العدم إلى الوجود..

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال في السورة التي تعدد مظاهر رحمة الله بعباده:﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)﴾ (الرحمن).. انظر كيف قدم الله نعمة تعليم القرآن

على نعمة خلق الإنسان.

قلت: ما السر في ذلك؟

قال: في فترة بحـثي عن اللـه.. وبعـد أن التقيت بـديع الزمـان سألته هذا السـؤال، فأجـابني بمـا تعـود أن يجيبـني بـه.. لقـد قـال يحكي عن نفسه: في يوم من الأيام الاخيرة للخريف، صـعدت إلى قمّة قلعة أنقرة، التي أصابها الكبر والبلى أكثر مـني، فتمثّلت تلـك القلعة أمامي كأنها حوادث تأريخية متحجرة، واعتراني حزن شـديد وأسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي أنا، ومن هـرم القلعـة، ومن هـرم البشـرية، ومن شـيخوخة الـدنيا.. فاضطرتني تلك الحالة الى النظر من ذروة تلـك القلعـة المرتفعـة إلى أودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشـيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.

فحينمـا نظـرت إلى اليمين الـذي هـو الماضـي باحثـاً عن نـور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيـد على هيئـة مقـبرة كـبرى لأبي وأجدادي والنوع الإنساني، فأوحشتني بدلاً من أن تسلّيني.

ثم نظرت الى يسـار الـذي هـو المسـتقبل مفتشـاً عن الـدواء، فتراءى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثـالي وللجيـل القابل، فأدهشني عوضا من أن يؤنسني.

ثم نظرت إلى زمني الحاضر بعـد أن امتلأ قلـبي بالوحشـة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التأريخيـة على شكل نعش لجنازة جسمي المضطرب كالمذبوح بين المـوت والحياة.

فلما يئست من هذه الجهـة أيضـاً، رفعت رأسـي ونظـرت إلى قمة شـجرة عمـري، فـرأيت أن على تلـك الشـجرة ثمـرة واحـدة فقط، وهي تنظر اليّ، تلك هي جنـازتي، فطأطـأت رأسـي نـاظراً إلى جذور شجرة عمري، فرأيت أن التراب الذي هنـاك مـا هـو إلاّ رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطـا معـاً وامتزجـا، وهمـا يُداسان تحت الاقـدام، فأضـافا الى دائي داء من دون أن يمنحـاني دواءً.

ثم حوّلتُ نظـري على مضـض إلى مـا ورائي، فـرأيت أن هـذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أوديـة العبث وتنحـدر في ظلمـات العـدم، فسـكبتْ هـذه النظـرة السـمَّ على جـروحي بـدلاً من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلـك الجهـة خـيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شـطر الأمام ورنوت بنظري بعيداً، فـرأيت أن القـبر واقـف لي بالمرصـاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفه الصراط الممتـد إلى حيث الأبـد، وتـتراءى القوافـل البشـرية السـائرة على ذلـك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد أمام هذه المصـائب المدهشة التي تأتيني من الجهـات السـت، ولا أملـك سـلاحاً يـدفع عني غير جزء ضئيل من الإرادة الجزئية.. فليس لي إذن أمـام كـل أولئك الأعداء الذين لا حصر لهم، والأشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الإنساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كـان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولا قـوة لـه على إيجـاد شـيء، وليس في طوقه إلاّ الكسب فحسب، حيث لا يسـتطيع أن يمضـي إلى الزمان الماضي ويـذبّ عـني الاحـزان ويسـكتها، ولا يمكنـه أن ينطلق إلى المستقبل حتى يمنع عنّي الأهـوال والمخـاوف الـواردة منه، أيقنت ألاّ جدوى منه فيمـا يحيـط بي من آلام وآمـال الماضـي والمستقبل.

وفيما كنت مضـطرباً وسـط الجهـات السـت تتـولى عليّ منهـا صـنوف الوحشـة والدهشـة واليـأس والظلمـة، إذ بـأنوار الإيمـان المتألقـة في وجـه القـرآن المعجـز البيـان، تمـدني وتضـيء تلـك الجهات الست وتنورهـا بـأنوار بـاهرة سـاطعة مـا لـو تضـاعف مـا انتابني من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلـك الانوار كافية ووافية لإحاطتها.

فبدّلت تلك الانوار السلسلة الطويلة من الوحشـة إلى سـلوان ورجـاء، وحـولّت كـل المخـاوف الى انس القلب، وأمـل الـروح الواحدة تلو الاخرى.

نعم، إن الإيمان قد مـزق تلـك الصـورة الرهيبـة للماضـي وهي كـالمقبرة الكـبرى، وحوّلهـا إلى مجلس منـوّر أنـوس وإلى ملتقى الأحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين...

ثم إن الإيمان قد أظهر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يـتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو إلاّ مجلس ضـيافة رحمانيـة أعدّت في قصور السعادة الخالدة.

ثم إن الإيمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضـر التي تبدو هكذا بنظر الغفلة، وأشهدني أن اليـوم الحاضـر إنمـا هـو متجر أخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.

ثم إن الإيمان قد بصّرني بعلم اليقين أن ما يبـدو بنظـر الغفلـة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمـر على شـكل نعش وجنازة. أنها ليسـت كـذلك، وإنمـا هي انطلاق لـروحي – الـتي هي أهل للحياة الابدية ومرشحة للسعادة الأبديـة – من وكرهـا القـديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.

ثم إن الإيمان قـد بيّن بأسـراره؛ أن عظـامي ورميمهـا وتـراب بداية خلقتي، ليسا عظاماً حقيرة فانية تـداس تحت الأقـدام، وإنمـا ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.

ثم إن الإيمان أراني - بفضل أسرار القرآن الكريم - أن أحـوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم – كما ظنّ في بادىء الأمر – بـل إنهـا نـوع من رسائل ربانية ومكـاتيب صـمدانية، وصـحائف نقـوش للأسـماء السبحانية قد أتّمت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنهـا نتائجهـا في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين.

ثم إن الإيمان قد أوضـح لي بنـور القـرآن ان ذلـك القـبر الـذي أحدق بي ناظراً ومنتظراً ليس هو بفوهة بئر، وانما هـو بـاب لعـالم النـور. وأن ذلـك الطريـق المـؤدي إلى الأبـد ليس طريقـاً ممتـداً ومنتهياً بالظلمات والعـدم، بـل إنـه سـبيل سـوي إلي عـالم النـور، وعـالم الوجـود وعـالم السـعادة الخالـدة.. وهكـذا أصـبحت هـذه الأحـوال دواء لـدائي، ومرهمـاً لـه، حيث قـد بـدت واضـحة جليـة فأقنعتني قناعة تامة.

ثم، ان الإيمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من – الجـزء الاختيـاري

– الذي يملك كسباً جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها إلى قدرة مطلقة، وينتسب بها إلى رحمة واسعة، ضد تلك الكثرة الكاثرة من الأعـداء والظلمات المحيطة، بل إن الإيمان نفسه يكـون وثيقـة بيـد الجـزء الاختياري. ثم إن هذا الجزء الاختياري الـذي هـو السـلاح الإنسـاني، وإن كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، إلاّ أنه اذا استعمل باسم الحـق سـبحانه، وبـذل في سـبيله، ولأجلـه، يمكن أن ينـال بـه – بمقتضى الإيمان – جنة أبدية بسعة خمسمائة سـنة. مَثَـلُ المـؤمن في ذلك مثل الجندي إذا استعمل قوته الجزئية باسـم الدولـة فإنـه يسهل له أن يؤدي اعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما أن الإيمان يمنح الجزء الاختياري وثيقة، فإنه يسلب زمامه من قبضـة الجسـم الـذي لا يسـتطيع النفـوذ في الماضـي ولا في المستقبل، ويسلمه الى القلب والروح، ولعدم انحصار دائـرة حيـاة الروح والقلب في الـزمن الحاضـر كمـا هـو في الجسـد، ولـدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المسـتقبل في دائـرة تلك الحياة، فإن ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئيـة مكتسـباً الكلية.. فكما أنـه يـدخل بقـوة الإيمـان في أعمـق أوديـة الماضـي مبدداً ظلمات الاحزان، كذلك يصعد محلقـاً بنـور الإيمـان إلى أبعـد شواهق المستقبل مزيلاً اهواله ومخاوفه.

***

بعد أن أجابني الكاظم على كل تساؤلاتي من غـير أن يتـبرم أو يضجر، سألته قائلا: اسمح لي أن أسألك سؤالا قد يكون محرجا..

قال: تفضل.. لا حرج عليك.

قلت: لقد أخبرني مسؤول السجن بأنك ستعدم بعد أيام.

ابتسـم، وقـال: يسـتحيل ذلـك.. يسـتحيل أن يعـدمني إلا الـذي أوجدني.. ورحمة الرحمن الرحيم تأبى أن تقضــي على من أنعمت عليه بنعمة الوجود بالإعدام.

قلت: لقد ذكر لي مسؤول السجن هـذا.. وذكـر لي أنـه عنـدما أبلغك شكرته.. ثم لم تهتم بقوله.

قال: ذلك لأنه تكلم بشيء مستحيل.

قلت: هل عندك من العلاقات ما يؤمنك من حكم الإعدام؟

قال: أنا عبد الله.. من الله علي بنعمة الوجود.. ويستحيل أن يسلبها مني أحد إلا الذي أعطاني إياها.. وقد ذكرت لك أنه أرحم من أن يسلبها مني.

قلت: ولكنا نرى كل يوم القتلى.. فهل ترى أن القتلة ليسوا هم القتلة.

قال: فرق كبير بين القتل والإعدام.. القتل ينقلك من حياة إلى حياة.. أو يخرجك من رحم ضيق إلى فضاء أوسع وأفسح.. أما الإعدام والإفناء فذلك مستحيل لأن الذي تكرم بالوجود يستحيل أن يسلبه منا.

قلت: فأنت لا ترى الموت إعداما إذن.

قال: لأنه ليس إعداما.. الموت – يا أخي – هو رحلة أنتقل بها من هذه الأرض المحدودة الضيقة إلى حياة أكرم وأوسع.. فالذي رحمني في هذه الحياة لا شك أنه سيرحمني في الحياة الأخرى.

قلت: أنت واثق كثيرا في نفسك؟

قال: بل أنا واثق كثيرا في ربي.. فالله الرحمن الرحيم الذي لم يعودنا إلا الكرم يستحيل أن نرى منه إلا الكرم.

لقد رأى رسول الله ﷺ امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقال رسول اللّه ﷺ:(أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول اللّه)، قال:(فواللّهِ، للّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال ﷺ:(جعل اللّه

1) رواه البخاري.

الرحمة مائة جزء فأمسك عنـده تسـعة وتسـعين جـزءاً وأنـزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تـتراحم الخلائـق، حـتى ترفـع الدابـة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (1)

قلت: ألهذا لم تتأثر عندما ذكر لك هذا؟

قال: وكيف أتأثر، وهو يبشرني بأفضل يوم انتظرته في حيـاتي جميعا؟.. إن أفضل يوم ينتظره المؤمن هو لقاؤه لربه..

قلت: أنا لا أزال لا أعي ما تقول.. فهلا زدتني توضيحا.

قـال: عنـدما يمـوت الإنسـان المـوت المتعـارف عليـه، والـذي يحزن الناس من أجلـه، ويـترقبون مجيئـه، ويختلفـون في تـرقبهم، تولد حينذاك الروح في عالم أكمل من هذا العالم.

وصـفات مولـود الـروح الـذي تمخض عن فـترة الحيـاة الـدنيا، كصـفات الجـنين الـذي تمخض عن رحم الأم، فقـد يكـون سـليما معافى ترتسم في وجهه براءة الطفولة العذبـة، وقـد يكـون جنينـا مشوها مريضا منفرا يود من حوله لو تلقفه بـاطن الأرض قبـل أن يتلقفه مهد أمه الذي أعد له.

ولكن الفرق بين الحـالين عظيم، فجـنين الـدنيا لا خيـار لـه، ولا تكليف، فليس له أي دخـل في تحديـد جيناتـه، ولا التمـيز بصـفاته، ولكن جنين الآخرة ملوم معاتب على كل الأحوال، لأن صفة روحـه التي قدم بها على الملأ الأعلى هو الذي حددها، وهو الذي اختارهـا، وهو الذي رغب فيها.

فلذلك كانت الدنيا محطة للآخرة، أو هي بتعبير آخر رحم الحياة الأبدية، تتحدد من خلالها معالمها وصفاتها وصـورها، فصـور الأرواح في الآخرة هي صور الأعمال والتوجهات والهمم في الدنيا.

وهذه الحياة الآخرة، والـتي يفصـل المـوت بينهـا وبين النشـأة الأولى، ليست شيئا مخيفا أو محزنـا للصـالحين، فيـوم المـوت هـو يوم عيدهم الذي يلاقون فيه ربهم الـذي طـال اشـتياقهم لـه، وهـو يوم خلاصهم من سجن الجسد وضيقه، وهو يوم روحهم وريحانهم.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك: (تحفة المـؤمن المـوت)(1)، وقال: (الموت ريحانة المؤمن)(2)

ثم التفت إلي، وقال: لقد ذكر القـرآن الكـريم مواقـف الخلـق في لحظة الاحتظار، وهي اللحظة التي سيعيشها كل مخلوق مهمـا طال عمره:

فذكر المقربين فقال عنهم:﴿ فَأَمَّا إِنْ كَـانَ مِنَ الْمُقَـرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ(89)﴾ (الواقعة)

وذكــر أهــل اليمين، فقــال عنهم:﴿ وَأَمَّا إِنْ كَـانَ مِنْ أَصْـحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(91)﴾ (الواقعة)

وذكر المكـذبين الضـالين، فقـال عنهم:﴿ فَنُـزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(94)﴾ (الواقعة)

قلت: دعني من حـديث القـرآن.. وحـدثني بمـا يقـول العقـل.. كيف يتحول الموت من شبح مزعج إلى صديق مـؤنس؟.. ألا تـرى هذا محالا في موازين العقول؟

قال: أرأيت لو قيل للناس.. لجميع النـاس: إن هنـاك فـترة من حياتكم بعد بلوغكم الشيخوخة، أو بعد إصابتكم بمرض خطير يشل أعضاءكم جميعا تولـدون من جديـد.. لا شـيبا كمـا كنتم، بـل شـبابا أقوياء.. ويمتد شبابكم أمدا لا ينتهي.

قلت: أيمكن أن يكون ذلك؟

قال: لو قيل ذلك، ورآه الناس بأعينهم.

قلت: يرون الشيخ الكبير ينـام أمـامهم، ثم في الصـباح يرونـه، وقد اخضر عوده، واشتدت أوصاله، وقام قوامه.

قال: نعم.. لو رأو ذلك بأعينهم، كيف يكون حالهم؟

قلت: إنهم حينها يبدلون كل أشعارهم التي قالوها عن الشـباب ليمدحوا بها الشيخوخة، وحينها لن يقول أبو العتاهية:

1) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم.

2) رواه الديلمي.

فياليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرَهُ بما فعل المشيبُ

بل سيقول:

فياليتَ الشباب يعودُ يوماً فأخبرَهُ بأفضال المشيبُ

قال: لماذا، أليست الشيخوخة ضعفا؟

قلت: بلى، هي ضعيف، ولكنها – بما ذكرته – تصبح طريقا إلى القوة.. والخلق مجمعون على حمد الضعف المؤدي إلى القوة، وعلى ذم القوة المؤدية إلى الضعف.

قال: فكيف لو اقتنع هذا الخلق بأن الموت لا يختلف عن نوم ذلك الشيخ، وأن ذلك الشيخ سيستيقظ ليرى نفسه، وقد عاد شابا يافعا قويا.. ليس هذا فقط، وإنما يرة أمامه كل شيء كان يحلم به ولا يصل إليه.. ليس هذا فقط، وإنما يطمأن بأنه لن يدب الضعف إليه، ولن يصيبه الألم ولا الحزن ولا اليأس ولا الجوع ولا العري ولا ما كان يصيبه في الدنيا من الآفات.

قلت: حينها سيكون الموت أكبر أمنية، وأعظم طريق من طرق السعادة، وحينها لن يبعث الأعداء على أعدائهم بالقنابل، وإنما يبعثون لهم بالطعام والدواء ليستبقوا حياتهم.

قلت ذلك فرحا فقد كاد يستخفني الطرب، ولكني عدت فقلت: ولكن هل هذا ممكن؟

قال: من عرف رحمة الله التي دل عليها كل شيء لا يقتنع عقله فقط بذلك، وإنما يراه رأي العين..

قلت: فما ذكر كتابكم المقدس في هذا؟

قال: لقد أخبرنا كتابنا المقدس بكل التفاصيل الدقيقة المرتبطة بهذا حتى صرنا نرى الجنة رأي العين[1].. ونرى معها من رحمة الله ولطفه وكرمه ما لا يمكن لجميع حبر الدنيا أن يعبر عنه.

قال ذلك، ثم التفت إلى من معه، وقال: لقد كنت قبل أن تأتي

1) انظر فصل (السعادة) من رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

إلينا أحدث هؤلاء الأصدقاء عن بعض ما أعد الله لعبـاده الصـالحين في جنانه من كرمه وفضله..

انظر إلى السرور يكسو وجوههم.. وإلى السكينة الـتي تنتشـر في محياهم..

قلت: فحدثني كما حدثتهم.. فإني أشعر أن الحقيقـة تتجلى في كتابكم المقدس بأنصع صورها وأجملها.

رفع رأسه إلى السماء، ثم راح يرتل في خشوع:﴿ وَلِمَنْ خَـافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (49) فِيهِمَـا عَيْنَـانِ تَجْرِيَـانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (51) فِيهِمَـا مِنْ كُـلِّ فَاكِهَـةٍ زَوْجَـانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُـرُشٍ بَطَائِنُهَـا مِنْ إِسْـتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَــا تُكَــذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِــرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَــانٌّ (56) فَبِــأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَــا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (61)﴾ (الرحمن)

ثم رتل بعدها:﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّـابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُـونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُـوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَـارِيقَ وَكَـأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَــةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُـورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُـؤِ الْمَكْنُـونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْـوًا وَلَا تَأْثِيمًـا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْـدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَـةٍ (33) وَفُـرُشٍ مَرْفُوعَـةٍ (34) إِنَّا أَنْشَـأْنَاهُنَّ إِنْشَـاءً (35) فَجَعَلْنَـاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)﴾ (الواقعة)

ثم رتل بعدها:﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا

(5) عَيْنًـا يَشْـرَبُ بِهَـا عِبَـادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَـا تَفْجِـيرًا (6) يُوفُـونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُـكُورًا (9) إِنَّا نَخَـافُ مِنْ رَبِّنَـا يَوْمًـا عَبُوسًـا قَمْطَرِيـرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَـبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيـرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَـا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَـرَوْنَ فِيهَـا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَـافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَـةٍ مِنْ فِضَّـةٍ وَأَكْـوَابٍ كَـانَتْ قَـوَارِيرَا (15) قَـوَارِيرَ مِنْ فِضَّـةٍ قَـدَّرُوهَا تَقْـدِيرًا (16) وَيُسْـقَوْنَ فِيهَـا كَأْسًـا كَـانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِـبْتَهُمْ لُؤْلُـؤًا مَنْثُـورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَـابُ سُـنْدُسٍ خُضْـرٌ وَإِسْـتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)﴾ (الإنسان)

كـان يرتـل بخشـوع آسـر.. وكنـا كمن يشـاهد تلـك المشـاهد الجميلة التي تحكي صورها تلك الآيات المقدسة[1].

***

بعد أن غمرنا بـأنوار تلـك المشـاهد المقدسـة.. وبعـد أن لاحت أنوارها علينا، التفت إلي، وقال: هل تشعر الآن برحمة الله الـرحيم الرحمن؟

قلت: إني أشعر بها الآن أكثر مما شعرت بها في حياتي جميعا.

قال: لو أني.. وجميـع الخلـق.. وجميـع ذرات الرمـال.. وجميـع قطـر الأمطـار.. اسـتحلن ألسـنا، ورحن نحـاول أن نعـبر عن بحـار رحمة الله، فلن نجد لها قرارا، ولن نحد لها حدا..

***

بقيت في صـحبته إلى أن أمـر بـه إلى المقصـلة، وقـد كنت حاضـرا حفلـة تتويجـه بتـاج الشـهاده.. وقـد كـان منظـرا لا يمكن

1) سنرى التفاصيل المرتبطة بمعانيها في (فصل السعادة) من رسالة (أسرار الحيـاة) من هذه السلسلة.

تصوره.. لقد كنا جميعا حزانى متألمين ما عدا الكاظم فقد كان ممتلئا سعادة وسرورا.. وقد جعلنا في ذلك الموقف نوقن تمام اليقين أنه يملك من المعرفة بالله ما كنا جميعا نفتقر إليه.

***

التفت إلينا صاحبنا (جون ماسفيلد)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو قيد ذهبي قيدني به الملوك حين جعلوني شاعرا للبلاط.. فنسيت صاحبي.. ونسيت المعارف العظيمة التي علمني إياها.. ورحت أسرع إلى البلاط.. وبدل أن أكتب القصائد في مدح ربي الرحمن الرحيم رحت أكتبها في مدح من رماني بعد ذلك في الشارع بقسوة وغلظة.

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلى ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

تاسعا ـ الودود

في اليوم التالي(1).. ومع تنفس الصبح سمعنا صوتا يصيح بتأوه وشوق (الله.. الله.. الله)(2).. يمـد بهـا صـوته، وكـأن روحـه كـانت تنطق بكل حرف من حروفها.

أسـرعنا إلى مصـدر الصـوت، وقـد تعجبت كمـا تعجب رفـاقي

---

1) كما ذكرنا في الفصول الماضـية السـبل النقليـة والعقليـة للتعـرف على اللـه، فإنـا سـنحاول في هـذا الفصـل التعـرف على المنهج العرفـاني أو الصـوفي، وهـو منهج من المناهج الشرعية.. بل هو أقرب المناهج إلى الشريعة، وأيسـرها على العامـة والخاصـة.. وقد اخترنا أن نجعله في خاتمة الفصول باعتبار هذا المنهج هو المنهج الذي آل إليه الكثير من المتكلمين.. وهذا لا يعني الانتقاص من سائر المنـاهج.. بـل نـرى تكاملهـا.. فالمنـاهج العقلية والنقلية تخاطب العقل.. وهـذا المنهج يخـاطب الوجـدان.. ولا تنـاقض إن اختلـف محل الخطاب.

2) يعترض البعض على ذكر اللـه بهـذه الصيغة، وهـو اعـتراض غـير وجيـه من وجـوه متعددة:

منها أنه ورد في الحديث عن النبي ﷺ مشروعية هذا الـذكر، ففي الحـديث عن النـبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقـال في الأرض اللـه، اللـه)، وفي روايـة عنـه:(لا تقـوم الساعة على أحد يقول: الله، الله) (رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان)

وروى أحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمـر النـبي ﷺ فكفوا فقال: ما كنتم تقولون؟ قلنا: نذكر اللـه ، اللـه، فقـال: إني رأيت الرحمـة تـنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال: الحمد لله الـذي جعـل في أمـتي من أمـرت أن أصبر معهم.

ومنها أن الكثير من العلماء أفتوا بمشروعية ذلك بناء على ما ورد من النصوص، فقد قال العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة عند شرح البسملة وتبحثـه عن لفـظ (اللـه) روى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه أي الله اسم الله الأعظم، وبـه قـال الطحـاوي: وكثير من العلماء وأكثر العارفين حتى أنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به كمـا في شرح التحرير لابن أمير حاج. (حاشية ابن عابدين ج1ص5 -7)

وقال الخادمي:(واعلم أن اسم الجلالة (الله) هو الاسـم الأعظم عنـد أبي حنيفـة والكسـائي والشعبي وإسماعيل بن إسحاق وأبي حفص وسائر جمهور العلماء وهو اعتقاد جمـاهير مشـايخ الصوفية ومحققي العارفين فإنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم الله مجردا قال الله لنبيه المصطفى ﷺ: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾.

وقال الجنيد: (ذاكر هذا الاسم (الله) ذاهب عن نفسه متصل بربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته)

وقال ابن عجيبة:(فالاسم المفرد (الله) هوسلطان الأسماء وهو اسـم اللـه الأعظم ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمـه ودمـه وتسـري أنـواره في كلياتـه وجزئياته..)(تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية ص 15)

جميعا إذ كان الصائح بذلك الصوت رجل من قومنا كان اسمه (جاستن مارتن)(1).. وقد كان مسيحيا، صوفيا في مسيحيته.. وكان دائم الذكر لـ (جاستن الشهيد)، ولم نكن نسمع عنه الحديث عن الإسلام، ولا عن إله المسلمين.

لكنا في ذلك اليوم سمعناه يصيح بما ذكرته لك، فلذلك تعجبت غاية العجب.

وقال أبو العباس المرسي:(ليكن ذكرك (الله، الله) فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمرة فبساطه العلم وثمرته النور وليس النورمقصودا لذاته بل لما يقع به من الكشف والعيان فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على سائر الأذكار لتضمنه جميع ما في (لا إله إلا الله) من العقائد والعلوم والآداب والحقائق) (نور التحقيق ص 174)

ومن المعاصرين يقول محمد سعيد رمضان البوطي: (ولكن عامة المسلمين من غيرهم أي الذين ينكرون الذكر بالاسم المفرد (الله) لا يجدون حرجا من ان يذكروا الله بأي من أسمائه وصفاته المفردة أو يذكروه بشيء من الصيغ أو الجمل الدالة على معنى يتضمن حكما من أحكام التوحيدأو التنزيه ودليلهم على ذلك صريح قول الله عز وجل واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (الأعراف:25).. ومن المعلوم أن أول أسمائه تعالى الله، وقال تعالى واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين(الأعراف: 205)

وذكر الله في النفس أعم من أن يقيد بمدلول جملة ذات معنى متكامل يتضمن حكما من أحكام التوحيد او التنزيه فإن الجملة من مستلزمات التراكيب اللفظية والذكر النفسي قد لا يعتمد على شيء من هذه التراكيب وإنما يكون بإجراء اسم الجلالة أو أي صفة من صفات الله تعالى كالخالق الرزاق المصور الحكيم.. وغيرها على القلب بحيث يكون يقظا لشهود الله تعالى ففي اسمه المفرد أو أي صفة من صفاته المعروفة. (السلفية، البوطي، ص 193-194)

أما ما يورده بعضهم من أن الاسم الله المفرد لا يؤلف جملة مفيدة تامة يحسن السكوت عليها كقولنا الله غفور، فقد أجاب العلماء على ذلك بأن الذاكر باسم الله المفرد إنما يخاطب الله وحده وهو جل جلاله عالم بما في نفسه مطلع على سريرته فلا يشترط في الخطاب معه ما يشترط في الخطاب مع البشر من جعل الكلام تاما مفيدا يحسن السكوت عليه.

وقول (الله ، الله) إنما هو نداء بحذف أداة النداء وأصله (يا الله، يا الله) كقوله تعالى يوسف أعرض عن هذا(يوسف: 29)، وأصله يا يوسف، ثم إن المنادى عند النحويين مفعول به لفعل محذوف وأصل الكلام (أدع الله) وقد يكون المبتدأ الله والخبر الله أو اسم من أسماء الله عز وجل، ويكون هناك في القلب (العفو، الرحيم..) وذلك كما أراد أحدهم أن يشبه شجاعة زيد بشيء آخر فلم يستطع فقال: زيد زيد.

1)أشير به إلى (جاستن مارتن)، وهو المعروف بـ (جاستن الشهيد) ، وقد وُلد في إحدى مدن السامرة في فلسطين سنة 89م، وآمن بالمسيحية سنة 133م، واشتهر في سنة 140م إلى أن استُشهد سنة 168.. وقد كتب عدَّة كتب دفاعاً عن المسيحية، منها رسالة للإمبراطور (تيطس أنطونيوس بيوس)، ورسالة للإمبراطور (ماركوس أنطونيوس) ولأعضاء مجلس الشيوخ في روما ولسكانها.. وله محاورة مع (تريفو

مكث مدة، وهو يتأوه بشوق منشدا اسم الله بأصوات رخيمة لذيذة..

بعد فترة انتبه إلينا، فرآنا ملتفين حوله قد ملأنا العجب من حاله، فقال، والبسمة تملأ شفتيه: عذرا.. لم أنتبه لحضوركم.. هل من جديد؟

قال رجل منا: أنت هو الجديد.. وقد جئناك لنسمع منك كما سمعنا من رفاقك.

قال جاستن: وما تريدون أن تسمعوا مني؟

قال الرجل: كيف وصلت إلى هذه الحال؟.. أخبرنا.. فإننا نشعر بأننا من خلال كلماتك التي كنت ترددها نكاد نقترب من ربنا.

قال جاستن: صدقت.. أنا نفسي أشعر بما تشعرون به..

قال الرجل: فكيف لم تخبرنا من قبل؟

قال جاستن: تلك قصة طويلة حجبتني عنها حجب كثيرة.. ولن تفهموا آخرها حتى تسمعوا أولها.

قال الرجل: فهلم حدثنا، فما أشوقنا لحديث يوصلنا إلى ربنا.

قال جاستن: لاشك أنكم تعرفون أن اسمي هو (جاستن مارتن)

قال الرجل: أجل.. وهذا ما زاد في عجبنا من حالك.. فجاستن رجل من المسيحية.. ونراك الآن تتغنى باسم إله المسلمين.

قال جاستن: إله المسلمين هو نفسه إله المسيحية الحقيقي قبل أن يلحقها من التحريف ما لحق.. لقد ذكر قرآن المسلمين

اليهودي) باقية إلى الآن، وهي تُظهر تبحّره في فلسفة فيثوغورس وأفلاطون، وأنه رأى أن الأسلم التمسّك بالمسيحية.. وتكلم عن الأناجيل الأربعة، وقال: إن المسيحيين كانوا يتعبدون بتلاوتها في معابدهم، وتكلم عن رسائل بولس وبطرس ويوحنا وسفر الرؤيا.. (انظر: شبهات وهمية، للدكتور القس منيس عبد النور)

وقد اخترناه هنا لبيان أن الأديان في أصلها لا تختلف في كون الله ودودا، وسنرى في هذا الفصل من النصوص من الكتاب المقدس ما يدل على ذلك.

هذا، فقال:﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)﴾ (العنكبوت)

بل إن إله المسلمين هو نفسه إله جميع هذه الأمم.. وهذه المذاهب.. وهذه الأفكار.. قبل أن يلحقها دنس التشبيه، والتمثيل والتحريف.. وقبل أن يتخذ أحبارها ورهبانها (الله) وسيلة لمكاسبهم وأهوائهم ودنياهم.

قال الرجل: فكيف تعرفت على إله المسلمين.. وأنت جاستن المسيحي الذي لا يعرف إلا المسيحية؟

قال جاستن: في البداية.. وفي مقتبل عمري عندما فتحت عيني على الحياة بأبعادها الكثيرة كنت أشعر بشوق عظيم لمصدر وجودي، ومصدر وجود هذا الكون جميعا.

وقد قلبت طرفي في الكون أبحث عنه.. وأبحث عن سبل الاتصال به.. لكني لم أظفر في فترة طويلة من حياتي على غير السراب.

في البداية سقطت على بعض الملحدين الذي راح يزين لي عبادة الطبيعة.. وهي في الحقيقة ليست إلا عبادة السراب والوهم الذي إذا جئته لم تجده شيئا.

ثم انتقلت من السراب إلى عبادة الأنداد.. فامتلأ قلبي بأهواء كثيرة لم تزده إلا ألما[1].

وبعد أن شببت عن الطوق، وتخلصت من القفص الذي أرادت الشياطين أن أقضي عمري بين قضبانه رحت أبحث عن الله.. فقد علم عقلي أنه لابد لهذا الكون من إله.. بل لابد له من إله في غاية الجلال والجمال.. وأنه إله يستحق أن يكون محبوبا لكل عاقل كامل في عقله.

وقد كان أول ما شدني إلى الدين – بسبب تنشئتي الأسرية – هو نصوص من الكتاب المقدس رحت أكررها كل حين إلى أن

---

1) انظر رسالة (سلام للعالمين)، فصل (القلب)

حفظتها عن ظهر قلب..

كان منها صلاة يسوع الكهنوتية، والتي يقول فيها: (يـا أبت، قـد أتت الساعة: مجد ابنك ليمجدك ابنك بما أوليتـه من سـلطان على جميع البشر ليهب الحياة الأبدية لجميـع الـذين وهبتهم لـه. والحيـاة الأبديـة هي أن يعرفـوك أنت الإلـه الحـق وحـدك ويعرفـوا الـذي أرسلته يسوع المسيح. إني قد مجدتك في الأرض فأتممت العمـل الذي وكلت إلي أن أعمله فمجدني الآن عندك يا أبت بمـا كـان لي من المجد عنـدك قبـل أن يكـون العـالم. أظهـرت اسـمك للنـاس الذين وهبتهم لي من بين العالم. كانوا لك فوهبتهم لي وقد حفظوا كلمتك وعرفوا الآن أن جميع ما وهبته لي هو من عندك وأن الكلام الذي بلغتنيه بلغتهم إياه فقبلوه وعرفوا حقا أني من لـدنك خـرجت وآمنوا بأنك أنت أرسلتني. إني أدعو لهم ولا أدعـو للعـالم بـل لمن وهبتهم لي لأنهم لك. وجميع ما هو لي فهو لك وما هو لك فهـو لي وقد مجدت فيهم.لست بعد اليـوم في العـالم وأمـا هم فلا يزالـون في العالم وأنا ذاهب إليك. يا أبت القدوس احفظهم باسمك الـذي وهبته لي ليكونوا واحـدا كمـا نحن واحـد. لمـا كنت معهم حفظتهم باسمك الذي وهبته لي وسهرت فلم يهلك منهم أحـد إلا ابن الهلاك فتم ما كتب. أما الآن فإني ذاهب إليك. ولكني أقـول هـذه الأشـياء وأنـا في العـالم ليكـون فيهم فـرحي التـام. إني بلغتهم كلمتـك فأبغضهم العالم لأنهم ليسوا من العالم كما أني لسـت من العـالم. لا أسـألك أن تخـرجهم من العـالم بـل أن تحفظهم من الشـرير. ليسـوا من العـالم كمـا أني لسـت من العـالم. كرسـهم بـالحق إن كلمتـك حـق. كمـا أرسـلتني إلى العـالم فكـذلك أنـا أرسـلتهم إلى العالم وأكرس نفسي من أجلهم ليكونوا هم أيضا مكرسين بالحق. لا أدعو لهم وحدهم بل أدعو أيضـا للـذين يؤمنـون بي عن كلامهم. فليكونوا بأجمعهم واحدا: كما أنك في، يـا أبت، وأنـا فيـك فليكونـوا هم أيضا فينا ليؤمن العالم بأنـك أنت أرسـلتني. وأنـا وهبت لهم مـا وهبت لي من المجد ليكونوا واحدا كمـا نحن واحـد: أنـا فيهم وأنت في ليبلغوا كمال الوحدة ويعـرف العـالم أنـك أنت أرسـلتني وأنـك أحببتهم كما أحببتني. يا أبت، إن الـذين وهبتهم لي أريـد أن يكونـوا معي حيث أكون فيعاينوا ما وهبت لي من المجد لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم. يا أبت البار إن العالم لم يعرفك أما أنـا فقـد عرفتـك وعرف هؤلاء أنك أنت أرسلتني. عـرفتهم باسـمك وسـأعرفهم بـه

لتكون فيهم المحبة الـتي أحببتـني إياهـا وأكـون أنـا فيهم) (يوحنـا: 17/1-26)

بــالرغم من أن الكثــير من النصــوص في الكتــاب المقــدس متناقضة إلا أنها كانت بالنسبة لقلبي ملاذا يشـعرني بـالأنس.. فقـد كنت أشعر بالحاجة إلى رب محب.. وقد كان في هذه النصوص ما يدلني على أن ربي محب.

لكني مع ذلك كنت أتألم كثيرا عندما أقرأ في الكتاب المقـدس التناقضات الكثيرة التي تصور ذلـك الحب أحيانـا بصـور لا تتناسـب مع جلال الإله وكماله.. ولذلك كنت أميـل إلى وجـود التحريـف في الكتاب المقدس.. وقد كان أول من دلني عليه هو سميي (جاسـتن مـارتن).. فقـد كـان من الآبـاء الأوائـل الـذين أشـاروا إلى وجـود التحريف وخاصة في حواره مع تريفو[1].

---

1) ومما ورد في ذلك الحورا قوله: (وانا بعيد كل البعد من أن اضع ثقتي في معلميك (اليهود) الذين يرفضون الإعتراف بالنسخة السبعينية التي ترجمها السـبعون الـذين كـانوا مع بطليموس (بأمر من بطليموس) ملك مصر، وأخذوا في تلفيق نسـخة أخـري. وأرغب منك أن تدرك انهم حذفوا كليا نصوصا كثيرة من تلك النسخة الـتي ترجمهـا السـبعون ان هذا الرجل الذي صلب عبر عنه بتعبيرات تثبت انه إله وانسان وانه يصلب ويمـوت، ولأني أعلم أنكم لا تقـرون بـذلك فسـوف أتجنب تلـك النقـاط وسـوف أناقشـك معتمـدا علي النصوص التي مازلتم تعترفون بها.

لقد أقررت بالنصوص التي ذكرتها لك لكنـك تعـارض المعـني (هـا العـذراء تلـد) لكنـك تقول ان النص يقرأ (ها امراة شابة تحبل)، وقد وعدتك أني سوف ابـرهن لـك ان النبـوة لا يشير الي حزقيا كما علموك ولكن تشير الي المسيح والآن اليك الدليل..

وهنا قال تريفو: نسألك أولا، وقبل أي شيء أن تخبرنا عن تلـك النصـوص الـتي تـزعم أنها مسحت كليا؟

قال جاستن: سوف أفعل كما تحب: من نص عزرا الذي ذكر فيـه شـرائع عيـد الفصـح أزالوا عنه ما يلي:(وقال عزرا للناس , هذا الفصح هـو مخلصـنا وملجأنـا, إن فهمتم ذلـك وآمنت قلوبكم , وتواضعنا له وكان رجاءنا فيه فلن يهجـر هـذا المكـان الي الأبـد , هكـذا يقول السيد رب الجنود، ولكن ان لم تؤمنوا ولم تسمعوا له تكونون سـخرية الأمم) (هـذا النص اختفي تماما. أشار اليه آدم كلارك في تفسيره لعزرا 10:44)

ومن أرميـا أزالـوا النص التـالي (انـا (كنت) كشـاة سـيقت الي الـذبح، ولم أعلم انهم تآمروا علي قائلين لنفسد عليه خبزه ونقطع ذكره من أرض الاحياء)(يبـدوا أن محـاولات إخفاء هذا النص فشلت فلم يختف، فهو في(ارميا 11:19)

ولكن نص ارميا مازال يوجد في بعض النسخ اليهود لأن ازالتهـا تمت حـديثا، ومن هـذا النص يتضح ان اليهود تشاوروا عن المسيح ليصـلبوه ويقتلـوه، وهـو أيضـا الـذي تنبـأ عنـه اشعياء في انه سـوف يسـاق كـالخروف إلى الـذبح مصـورا ايـاه في شـكل حمـل وديـع،

ولهذا كنت أناضل بكل قوة على أن النصوص التي ورد فيها مـا يشوه محبة الإله مدسوسة في الكتاب المقدس، وليست منه، وقد جمعت من الأدلـة على ذلـك مـا قضـيت طـول عمـري في البحث عنه.

ولكني مع ذلـك كلـه كنت أتـألم.. لأني لم أسـمع كلمـات الإلـه السليمة من أي تحريف.

وقد ظللت على هذا مدة طويلة من عمري.. إلى أن جاء اليوم الذي أذن الله فيه أن أجد غايتي.. ولكـني بعـد أن وجـدتها، وأيقنت بما فيها من الحقائق والجمال أعرضت عنها.. ولم أتذكرها إلا هــذه اللحظات..

لقد حق في ما قاله قرآن المسلمين فيمن أتتـه آيـات اللـه، ثم انسلخ عنها.. لقد قال في حقه:﴿ وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (الأعراف)

***

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق، فنبهناه إلى ما كان يرمي الحديث عنه، فقال: لا أزال أذكـر ذلـك اليـوم جيـدا.. إن المشـاعر الجميلة التي شعرتها فيه لم أشعر بمثلها في حياتي أبدا..

وكونهم في موقف صعب منها أجدفوا.

ومن أرميا ايضا أزالوا النص القائل: (الرب الإله تذكر شعبه الميت من اليهود الراقدين في القبور فصعد يبشرهم بالخلاص)

وكلمة الخشب حذفت من (مزمور 96)

ومن مزمور 95 (ـ 96) قطعوا هـذه العبـارة الصـغيرة (من الخشـب) من قـول داود: (قولوا أنتم بين الأمم الرب قد ملك بالخشـب (يقصـد الصـليب) وأبقـوا (قولـوا انتم بين الأمم)

إلى آخر الحوار، وقـد ذكرنـا التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بهـذا في رسـالة (الكلمـات المقدسة) من هذه السلسلة.

لقد كنت فيه قريبا جدا من الله.. ولولا الأهواء التي تثاقلت إليها لكنت الآن وليا من الأولياء.. أو قديسا من القديسين.

كنت في إسطنبول قرب مسجد أياصوفيا[1].. وهناك خطر على بالي تلك الأجيال الكثيرة من المسيحيين والمسلمين التي مرت على ذلك المكان.

وقلت في نفسي: يا ترى.. أين هم الآن.. وهل ظفروا بمقصودهم.. أم أنه حيل بينهم وبينه؟

بينما أنا كذلك إذ ربت على كتفي رجل، وقال: ابحث عن مكان لك في العربة المقدسة التي تريد أن ترحل إلى الله.. فلا يهمك من قعد ولم يركب فيها.

قلت: أيمكن أن نرحل إلى الله، ونحن نحتفظ بهذه الأجساد؟

قال: إن كنت تتعلق بجسدك، وترتبط به.. فلا يمكنك أن ترحل.. لا يمكن أن يركب في العربة المقدسة إلا من طرح جميع الأكفان التي تحول بينه وبين ربه.

قلت: كيف ذلك؟.. وأنى ذلك؟

قال: إن كنت صادقا فسترى بجانب هذه الديار من الهداة والمرشدين ما لا يراه إلا الصادقون.

قلت: أيمكن أن أرى ما لا يرى غيري؟

قال: الصادق يرى ما لا يرى الكاذب.

قلت: كيف هذا؟

قال: ألا ترى أن الجاحدين حيل بينهم وبين معرفة الله حتى

1) أيا صوفيا أروع وأشهر نموذج للعمارة البيزنطية في العالم.. وكانت كاتدرائية بناها جستنيان الأول بين عامي 532 و537م في إسطنبول. وبُنيت قبّةٌ أعلى من القبة الأصلية، بين عامي 558 و 563م بعد أن تشوّهت القبة الأولى، إثر زلزال. واستعمل المبنى مسجدًا بعد عام 1453م، عندما فتح الأتراك المدينة. وأصبحت أيا صوفيا مُتْحَفًا عام 1935م. وتعني عبارة أيا صوفيا في اليونانية القديمة الحكمة المقدسة.

ونرمز بها هنا إلى ما يرمي إليه هذا الفصل من محاولة بيان المنهج العرفاني الصوفي في البحث عن الله.

أنكروا وجوده؟

قلت: بلى.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا؟

قال: أما العارفون فلم يروا في الأكوان غير مولاهم.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فقد أجبت على سؤالك إذن.. الصادق يرى ما لا يرى غيره.. فالله يكشف له من أسرار الخصوصية ما ينحجب عن رؤيته الغافلون.

قال ذلك، ثم انصرف عني..

***

ما هي إلا لحظات قليلة حتى ربت على كتفي رجل آخر، وقال: هلم إلينا إن كنت تريد أن تركب العربة المقدسة.. فلا يمكن أن يجد مولاه أو يطمع في وصاله من لم يتشرف بالركوب فيها.

قلت: من أنتم؟.. فلا يمكنني أن أركب مع من لا أعرفهم.

قال: نحن قوم عرفنا أن ربنا أعظم من أن تحيط به العقول.. فرحنا نبحث عنه بقلوبنا وأرواحنا.. لقد سمعناه يقول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ (مريم:96).. وسمعناه يخبرنا بأن من أسمائه الحسنى (الودود)(1) كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (البروج:14).. وأخبرتنا آيات كثيرة بطريق الوصول إلى محبة الله.. فرحنا نجاهد أنفسنا على التخلق بها.. فلا يمكن أن يمكّن الله أحدا من التعرف عليه إلا إذا كان محبا.. فالمعرفة بذر الحب.. كما أن الحب بذر المعرفة:

---

1)الودود من أسماء الله تعالى يحتمل معنيان:

أحدهما: أنه الواد لعباده ، أي المحب لهم ، ولهذا قرنه باسمه الغفور إعلاما بأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه، ويوده.

والثاني: أنه المودود ، وعلى هذا يكون سر اقتران الودود بالغفور ، هو استدعاؤه مودة العباد له ومحبتهم إياه باسم الغفور.

ولاشك في اقتران كلا المعنين، فالله يحب عباده، وهم يحبونه.

لقد جعلنا الطريق إلى ربنا - بدل الجدل العقلي - هو البحث عن تلك المظان..

قلت: وما تلك المظان؟

قال: كثيرة.. يتربع على عرشها (**الإحسان**).. فهو الخصلة الجامعة لجميع مجامع الخير، قال تعالى:﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:195).. وقال:﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:134).. وقال:﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:148)..

قلت: فما ترى السر في هذه المحبة؟

قال: لقد عرفنا به نبينا ﷺ فقال: (إن الله جميل يحب الجمال)، والمحسن هو الذي اكتمل جمال روحه حتى صار مجلاة للحق، وصار بذلك أهلا لمحبة الحق، كما قال تعالى:﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) ﴾ (الرحمن) وقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) الحسنى وزيادة﴾ (يونس)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا يمكن أن يكشف أحد منا عن أسراره إلا لمن يحبه ويثق فيه ويرى منه ما يدله على صدق محبته.. ولاشك أن الإحسان هو من أهم دلائل هذا الصدق.. فهل هناك غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا ربنا **الطهارة** بجميع معانيها، فقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)﴾ (البقرة)، وقال لنا: ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة:108).. فلذلك رحنا نسارع إلى الطهارة بكل أنواعها.. طهارة الحس وطهارة المعنى.. وطهارة الجسد، وطهارة القلب.

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فالقلب الذي طهره ماء التوبة والإنابة قلب قد بذرت فيه شجرة الجمال، وصفيت مرءاته لتستعد لتجلي أنوار الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا **التقوى الحاجزة عن معصية الله**، فقال: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: 76)، وقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:4)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا شك أن المعصية هي الحجاب الحائل بين الحق وعباده، فإن أزيل هذه الحاجز بالتقوى تقرب القلب من الرب، وصار أهلا لمحبته.

صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا **الصبر**، فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران:146)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن جميع مجامع الخير مرتبطة بصبر صاحبها في ذات الله، أو في طاعته، أو عن معصيته، أو على مقاديره.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **التوكل على الله**، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:159)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك في ارتباط التوكل بمحبة الله.. ذلك أن التوكل هو ثقة العبد في الله وإحسان الظن به، وهو صادر عن التوحيد المحض الذي يغيب فيه القلب عن غير الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **القسط**، فقال: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ

بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: من الآية42) وقال:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:8)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن المقسط الذي أخلص في عبوديته لربه، وذبح بسيف الحق جميع أهوائه أهل لكل خير.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **التضحية**، فقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:4)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن التضحية، مع توحد المضحين هو قمة سمو العلاقات بين المؤمنين، وكلاهما دليل على التوجه الخالص لله.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **اتباع رسول الله** ﷺ، فقال:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران:31)

فكل ما ورد عن رسول الله ﷺ طريق من طرق محبة الله، فرسول الله ﷺ هو محبب العباد إلى الله، ومحبب الله إلى عباده، فهو واسطة الحب المقدس.

لم أجد ما أجيبه به عندما ذكر لي هذا.. فرحت أقول له: وعيت هذا.. ولكن هل يمكن للقلوب والأرواح أن تتشرف بمعرفة ربها؟

قال: لقد سمعنا رسول الله ﷺ يقول حاكيا عن ربه تعالى: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأنا أكره

مساءته)[1]

لقد رأينا ربنا في هذا الحديث يرسم لنـا المنهج الصـحيح الـذي نصل به إليه.

إنه منهج بسيط.. وفيه بعض الجهد.. ولكنه جهد لذيذ.. والنتــائج فيه محتمة.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: أنت تعلم أن البشر يختلفون في الطـرق الـتي يسـلكونها إلى اللـه.. وقـد ارتضـى كـل قـوم منهجـا من المنـاهج.. وللـه من الطرائق بعدد أنفـاس الخلائـق.. أمـا نحن، فقـد ارتضـينا مـا ذكـره الحديث منهجا.. إن هذا الحديث يرسم هذا المنهج بدقة.

قلت: فما هو هذا المنهج؟

قال: الحب.. الحب هو أقرب الطرق التي تصل بهـا إلى ربـك.. ذلك أن ربك ودود.. والودود يقرب من تودد إليـه.. ومن تقـرب إلى الله عرفه..

ألم تسمع إلى ربنا.. وهو يقول لنا:(وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع بـه وبصـره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشــي بهــا، وإن سألني لأعطينه) [2]

***

لســت أدري الوجهــة الــتي ذهب إليهــا بعــد أن حــدثني بتلــك الأحاديث.. ولكن الذي أعلمـه هـو أنـه بـذلك الكلام قـد أشـعل في قلبي من الأشواق مـا جعلـني أرى مـا لم أكن أرى، وأسـمع مـا لم أكن أسمع.

---

1) رواه البخاري وغيره.

2) رواه البخاري وغيره.

كان أول ما سمعت بعد أن انصرف عني صوت امرأة تنشد:

أحبك حُبين حب الهوى ... وحبا لأنّك أهل لذاكا
فأما الذي هو حُب الهوى ... فشغلي بذكرك عَمّن
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فلستُ أرى الكون حتى
فما الحمدُ في ذا ولا ذاك ... ولكن لك الحمد في ذا

اقتربت من مصدر الصوت، فإذا امرأة في مقتبل شبابها.. كـان على وجهها من أنوار الإيمان ما لم أر مثله في حياتي.. وقد تعجبت من ذلك غاية العجب، فتقدمت إليها، وقلت لها: أي حبيب هذا الذي ملك عليك قلبـك، فلم ترضـي بـأن تحبيـه حبـا واحـدا حـتى أحببتـه حبين؟

قالت: لا يحب حبين إلا الجميل الذي لا يفنى ولا يزول، ولا يتغير ولا يتحول.

قلت: ليس ذلك إلا الله.

قالت: فما أبخس بضاعة من باع قلبه لغـير اللـه، أو أنس بغـير مولاه..

قلت: لم؟

قالت[1]: إن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله.. وفيه وحشة لا يزيلهـا إلا الأنس بـه في خلوتـه.. وفيـه حـزن لا يذهبـه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتمـاع عليه والفرار منه إليه.. وفيه نـيران حسـرات لا يطفئهـا إلا الرضـى بأمره ونهيه وقضـائه ومعانقـة الصـبر على ذلـك إلى لقائـه.. وفيـه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليـه ودوام ذكـره وصـدق الإخلاص

1) من كلام جميل معروف لابن القيم.

له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً.

قالت ذلك، ثم راحت تنشد بصوت عذب:

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ فَأُحِسُّ مِنْها في الفُؤادِ
لاَ عُضْو لِي إِلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأنَّ أعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا
غنى بهم حادي الأحبة في فأطار منهم أنفسا وقلوبا
فأراد مقطوع الجناح بثينة وهمو أرادوا الواحد

قلت: عهدي بمن هن مثلك في مثل سنك وجمالك الانشغال بحب آخر غير هذا الحب الذي تنشدينه؟

قالت: لقد كنت كذلك إلى أن رزقني الله زيارة بيته الحرام[1]، وبينما أنا أطوف في هزيع الليل المظلم سمعت صوت فتاة شابة تطوف بالبيت، وهي تقول:

أبى الحب أن يخفى وكم قد فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي وإن رمت قربا من حبيبي تقربا
ويبدوا فأفنى ثم أحيا به له ويسعدني حتى ألذ وأطربا

فقلت لها: يا أختاه.. أما تتقين الله.. أفي مثل هذا المكان تتكلمين بمثل هذا الكلام؟ فالتفتت إلي، وقالت: يا نفيسة[2] الخير..

---

1) الحكاية في الأصل رواها الجنيد، وقد تصرفنا فيها بما يقتضيه المقام.

2) أشير به إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (145 - 208 ه = 762 - 824 م) ها، وعن آبائها، وهي صاحبة المشهد المعروف بمصر، وهي تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث.. ولدت بمكة، ونشأت في المدينة، وتزوجت إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق..وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت فيها.. حجت ثلاثين حجة.. وكانت تحفظ القرآن.. وسمع عليها الامام الشافعي، ولما مات أدخلت جنازته إلى دارها وصلت عليه.. وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهي أمية، ولكنها سمعت كثيرا من الحديث.. ولي أبوها إمرة المدينة للمنصور، ثم حبسه دهرا..ودخلت هي مصر مع زوجها (انظر: الأعلام، للزركلي)

إن التقى شردني كما تري عن وطني

أفر من وجدي به فحبه هيمني

ثم قالت: يا نفيسة.. أتطوفين بالبيت أم برب البيت؟ فقلت: أطوف بالبيت.. فرفعت رأسها إلى السماء، ثم قالت: سبحانك ما أعظم مشيئتك في خلقك.. خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار..

ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون ... إليك وهم أقسى قلوبا من

وتاهوا فلم يدروا من التيه ... وخلوا محل القرب في

فلوا أخلصوا في الود ... وقامت صفات الود للحق

ثم تعلقت بأستار الكعبة، وقالت:

أنت تدري يا حبيبي من حبيبي أنت تدري

ونحول الجسم والدمع يبوحان بسري

يا عزيزي قد كتمت الحب حتى ضاق صدري

ثم قالت: إلهي.. بحبك لي إلا رددت علي قلبي، فقلت لها: من أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: ألا ترين كيف جيش من أجلي الجيوش، وأنفق الأموال، وأخرجني من دار الشرك، وادخلني في التوحيد، وعرفني نفسه بعد جهلي إياه، فهل هذا إلا لعناية بي؟ فقلت لها: كيف حبك له؟ فقالت: أعظم شيء وأجله.. فقلت لها: وتعرفين الحب؟ فقالت: فإذا جهلت فأي شيء أعرف؟ إنه الحلو المجتنى ما اقتصر، فإذا أفرط عاد خبلا قاتلا، أو فسادا معطلا.. وهو شجرة غرسها كريه، ومجناها لذيذ.. ثم ولت وهي تقول:

وذي قلق لا يعرف الصبر ... له مقلة عبرى أضر بها ...
وجسم نحيل من شجى ... فمن ذا يداوي المستهام ...
ولا سيما والحب صعب ... إذا عطفت منه العواطف ...

عندما سمعت منها ذلك تحرك في قلبي من الحب المقدس ما كان ساكنا.. واشتعل فيه ما كان خامـدا.. والحمـد للـه أن من علي ربي بتشـريفي بالسـلوك إليـه.. وشـرفني بعـد ذلـك، فملأ قلـبي بمحبته.

قالت ذلك، ثم رفعت يـديها إلى السـماء، وأخـذت تقـول: إلهي وسيدي ومولاي لو أنـك عـذبتني بعـذابك كلـه لكـان مـا فـاتني من قربك أعظم عندي من العذاب.. ولو نعمتني بنعيم أهل الجنة كلهم كانت لذة حبك في قلبي أكثر.

إلهي لو أمرت بي إلى النار ما وجدت للنـار حـرارة مـع حبـك.. ولو أمرت بي إلى الجنة لما وجـدت للجنـة لـذة مـع حبـك.. فحبـك غلب كل شيء.

قلت: إنك تبالغين في وصفك للحب.. ألـه كـل مـا تـذكرين من قيمة؟

قالت(1): لولا الحب مـا دارت الأفلاك.. ومـا تحـركت الكـواكب النبــيرات.. ولا هبت الريــاح المســخرات.. ولا مــرت الســحب الحاملات.. ولا تحركت الكواكب النبـيرات.. ولا تحـركت الأجنـة في بطون الأمهـات.. ولا انصـدع عن الحب أنـواع النبـات، واضـطربت أمواج البحار الزاخرات.. ولا تحـركت المـدبرات والمقسـمات.. ولا سـبحت بحمـد فاطرهــا الأرضــون والســماوات، ومــا فيهــا من المخلوقات.

قـالت ذلـك.. ثم انصـرفت عـني إلى ذكـر ربهـا، والانشـغال

1) هذا الذي نذكره من قولها من كلام ابن القيم في الجواب الكافي، ص 38.

بمناجاته.

***

ما سـرت قليلا حـتى سـمعت صـوتا يقـول[1]: (إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليـك، وسـربلتني بمعرفتـك، وأمكنتني من لطفـك، ونقلتـني وقلبتـني في الأعمـال سـتراً وتوبـةً وزهـداً وشـوقاً ورضـاً وحبـاً، تسـقيني من حياضـك، وتهملـني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشـغوفاً بقولـك، ولمـا طـر شـاربي ولاح طائري فكيف أنصـرف اليـوم عنـك كبـيراً وقـد اعتـدت هـذا منـك صغيراً، فلي ما بقيت حولـك دندنـة وبالضـراعة إليـك همهمـة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف)

لسـت أدري كيـف صـحت فيـه من حيث لا أشـعر: اللـه يطلب أعمالا لا أقوالا.

ابتسم، وقال: لأن يمتلئ قلـبي بمثقـال خردلـة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب.

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لو سمع الخلـق صـوت النياحـة على الـدنيا في الغيب من ألسـنة الفنـاء لتسـاقطت القلـوب منهم حزنا، ولو رأت العقول بعيون الإيمان نزهـة الجنـة لـذابت النفـوس شوقا، ولو أدركت القلوب كنـه المحبـة لخالقهـا لانخلعت مفاصـلها ولها، ولطارت الأرواح إليـه من أبـدانها دهشـا.. سـبحان من أغفـل الخليقة عن كنه هـذه الأشـياء وألهـاهم بالوصـف عن حقـائق هـذه الأنباء.

ثم طأطأ رأسه، وقال: يـا (جاسـتن) الليـل طويـل فلا تقصـره بمنامك.. والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك.

***

1) هذا الكلام الحكيم ليحيى بن معاذ.

تركته، وسرت إلى محل آخر وجدت فيه رجلا كأنه الشمس أو قريب من الشمس، وقد أحاط به قوم كأنهم الهالة التي تحيط بالشمس، وكان مما سمعته منه قوله لهم(2): الوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ماله من غيره.. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه.. بل إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض.. وإنما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره، وذلك ليس بوجود حقيقي.. فالموجود الحق هو الله تعالى، كما أن النور الحق هو الله تعالى.

لقد قال الشاعر العارف يعبر عن ذلك:

الله قل وذر الوجود وما ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله أن حققته ... عدم على التفصيل

واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي

من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال

والعارفون بربهم لم ... شيئاً سوى المتكبر

ورأوا سواه على الحقيقة ... في الحال والماضي

ومن هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.. (88)﴾ (القصص) لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض ؛ وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط.. فلكل

2) هذا التحليل العقلي كما هو ظاهر للغزالي من (مشكاة الأنوار)، بتصرف اقتضاه المقام.

شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربـه ؛ فـإذن لا موجـود إلا الله تعالى ووجهه. فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا.

إن هـؤلاء لم يفتقـروا إلى يـوم القيامـة ليسـمعوا نـداء البـاري تعالى:﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)﴾ (غافر).. بل هذا النداء لا يفـارق سـمعهم أدبـا.. ولم يفهمـوا من معـنى قولـه (اللـه أكبر) أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معـه غـيره حتى يكون أكبر منه ؛ بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعيـة.. بل ليس لغيره وجـود إلا من الوجـه الـذي يليـه.. فـالموجود وجهـه فقط.. ومحال أن يقال إنه أكبر من وجهه.. بل معناها أنه أكـبر من أن يقال له أكبر بمعـنى الإضـافة والمقايسـة، وأكـبر من أن يـدرك غيره كنه كبريائه، نبيا كان أو ملكا.. بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله.. بل كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائه دخولا ما.

ثم سـكت قليلا، وقـال: العـارفون - بعـد العـروج إلى سـماء الحقيقة - اتفقوا على أنهم لم يـروا في الوجـود إلا الواحـد الحـق.. لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار لـه ذلك حالا ذوقيا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واسـتغرقوا بالفردانيـة المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبـق فيهم متسـع لا لـذكر غـير اللـه ولا لـذكر أنفسـهم أيضـا، فلم يكن عندهم إلا الله، فسكروا سكرا دفع دونـه سـلطان عقـولهم، فقـال أحدهم:(أنا الحق)، وقال الآخر:(سبحاني مـا أعظم شـأني).. وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى.

فلما خف عنهم سـكرهم وردوا إلى سـلطان العقـل الـذي هـو ميزان الله في أرضه، عرفـوا أن ذلـك لم يكن حقيقـة الاتحـاد بـل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه (أنا من أهـوى ومن أهوى أنا)

***

بعدها سرت في نـواحي ذلـك المسـجد.. فـرأيت حلقـة يجلس فيها رجل عليه هالة من نور كان يقال له (الجيلاني)(1)

وقد سمعته يقول مخاطبا أحد المحيطين به(2): كن مع الله عزّ وجلّ كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مـع اللـه عـزّ وجلّ بلا خلق وجـدت، وعن الكـل فـنيت.. وإذا كنت مـع الخلـق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، واتـرك الكـل على بـاب خلوتك، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرّك، وتشـاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربـه.. فـإذا جهلك علم، وبعدك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا: ما ثم إلا خلق وخالق، فإذا اخترت الخالق فقل للخلق:﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:77)

ثم التفت إلى آخـر، وقـال: يـا هـذا: الفنـاء إعـدام الخلائـق، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذ يسقيك ربّك ما يسقيك، ويزرع فيـك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة، ثم الـوجود. وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

ثم التفت إلى آخـر، وقـال: ضـاق أبى الأمـر يومـاً فتحـرك في

---

1)أشير به إلى الشيخ الجليل (عبد القادر الجيلاني)، وهو عبد القـادر بن أبي صـالح بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، ولد بجيـلان في ايـران، ووفـد بغـداد شـاباً سنــة 488هــ، وتفقه على عدد من مشايخها خاصـة أبي سـعيد المُخَـرَّمي.. جلس للوعـظ سـنة 520هـ، وحصل له القبول من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه.

صنف مصنفات كثيرة في الأصول والفروع وفي أهـل الأحـوال والحقـائق منهـا مـا هـو مطبوع ومنها مخطوط ومنها (إغاثة العـارفين وغايـة مـنى الواصـلين)، و(أوراد الجيلاني)، و(آداب السـلوك والتوصـل إلى منـازل السـلوك)، و(تحفـة المتقين وسـبيل العـارفين)، و(جلاء الخاطر في الباطن والظاهر)، و(حـزب الرجـاء والانتهـاء)، و(رسـالة في الأسـماء العظيمة للطريق إلى الله)، و(الغُنية لطالبي طريق الحـق)، وهـو من أشـهر كتب الشـيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزءان، و(الفتح الرباني والفيض الرحماني): وهـو من كتب الشيخ المشهورة وهو عبـارة عن مجـالس للشـيوخ في الوعـظ والإرشـاد.. و(فتـوح الغيب)، ومن هذه الكتاب استفدنا ما نذكره عنه.

2) من (فتوح الغيب) المقالة السابعة والسبعون فـي الـوقــوف مــع اللـه و الـفـنــاء عـن الـخـلـق (بتصرف)

النفس، فقيل لي: ماذا تريد؟ فقلت: أريد موتاً لا حياة فيه وحيـاة لا موت فيها؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحيـاة الـتي لا موت فيها؟قلت: الموت الذي لا حياة فيه مـوتى عن جنسـي من الخلـق فلا أراهم في الضـر والنفـع، ومـوتى عن نفسـي وهـوائي وإرادتي ومنـائى في الـدنيا والأخـرى فلا أحس في جميـع ذلـك ولا أجد.

و أما الحياة التي لا موت فيها: فحياتي بفعل ربى عـزّ وجـلّ بلا وجودي فيه، والموت في ذلـك وجـودي معـه عـزّ وجـلّ، فـكـانــت هـذه الإرادة أنـفـس إرادة أردتـهـا مـنـذ عـقـلـت.

ثم التفت إلي، وقـال(1): اصرف نظرك عن الجهـات كلهـا.. ولا تبصبص على شئ منها.. فما دمت تنظر إلى واحدة منها لايفتح لك جهة فضل الله عـز وجـل وقربـه.. فسـد الجهـات جميعـا بتوحيـده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك.. فحينئـذ يفتح عين قلبـك جهة فضل اللـه العظيم، فتراهـا بعيـني رأسـك إذا ذاك شـعاع نـور قلبـك وإيمانـك ويقينـك فيظهـر عنـد ذلـك النـور من باطنـك على ظاهرك كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلـة الظلمـاء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشـرق ظـاهر الـبيت بنـور باطنـه، فتسكن النفس والجوارح إلى وعد اللـه وعطائـه عن عطـاء غـيره ووعـد غـيره عـز وجـل.. وارحم نفسـك ولا تظلمهـا ولا تلقهـا في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلـق والحـول والقوة والكسب والأسباب فتوكل إليهـا، فتسـد عنـك الجهـات ولم تفتح لك جهة فضل الله عز وجل عقوبـة ومقابلـة لشـركك بـالنظر إلى غيره عز وجل، فإذا وجدتـه ونظـرت إلى فضـله ورجوتـه دون غيره وتعاميت عما سواه، قربك وأدناك، ورحمك وربـاك وأطعمـك وسقاك، وداواك وعفـاك، وأعطـاك وأغنـاك، فلا تـرى بعـد ذلـك لا فقرك ولا غناك.

***

بعد أن سمعت تلك الكلمـات العذبـة من ذلـك الـولي الممتلئ بأنوار الإيمان سرت من غير أن أعلم أين ولا لماذا.. وهل أنا أسـير

---

1)انظر: المقالـة الثامنـة والخمسـون فـي صـرف الـنـظـر عــن كـل الـجـهــات، و طـلـب جـهـة فـضـل الله تـعـالـى (بتصرف)

في المكان أم أسير في الزمـان.. أم أسـير على الأرض، أم أحلـق في أجواء السماء.

فجـأة سـمعت صـوتا عـذبا يـترنم بأجمـل مناجـاة سـمعتها في حياتي.. لقد كنت نسيتها.. ولكني الآن.. وبعد أن حرك اللـه لسـاني بذكره أذكرها جيـدا.. أذكرهـا حرفـا حرفـا.. وكلمـة كلمـة.. وكـأني أسمعها لأول مرة..

لقد كـانت في ظاهرهـا مناجـاة لكنهـا في باطنهـا كـانت تمتلئ بالإجابة الشافية عن كل التساؤلات الخطيرة التي شغلت الفلاسفة والمفكرين أجيالا طويلة.

لن أطيــل عليكم.. ســأقرأ عليكم المناجــاة كمــا ســمعتها.. واسـمحوا لي أن أتفاعـل معهـا.. فلا يمكن لكلمـات الربـانيين أن تسرد كما يسرد سائر الكلام..

قال ذلك.. ثم رفع يديه إلى السماء، وأخـذ يـترنم بهـذه الأغنيـة المضمخة بعطر الإيمان(1):

إلهي، أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟!

إلهي، أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟!

إلهي، إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقـاديرك منعـا عبـادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء.

إلهي، مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.

إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفـة بي قبـل وجـود ضـعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟!

إلهي، إن ظهرت المحاسن مـني فبفضـلك، ولـك المنـة علي.. وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجة علي.

إلهي، كيف تكلني إلى نفسي وقـد تـوكلت لي؟! وكيـف أضـام

---

1) هذه المناجاة مروية عن الإمام الحسين، وعن ابن عطاء الله السكندري.. ولا حاجة للتحقيق في الأصح منهما، لأن المعـاني الـواردة فيهـا معـان ورد مثلهـا عن أهـل الـبيت.. والعبرة بالمعاني لا بكسوة الألفاظ.

وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟!

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك.. وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟! أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟! أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك؟! أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟! أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت إليك؟!

إلهي، ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!

إلهي، ما أقربك مني وما أبعدني عنك!

إلهي، ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟!

إلهي، علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء.

إلهي، كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك.. وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك.

إلهي، إن القضاء والقدر غلبني. وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني.. فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي. وأغنني بفضلك حتى استغني بك عن طلبي.

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك.. وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك. ولم يلجأوا إلى غيرك.. أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم. وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم.. ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟!

لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا.

كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟!

وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟!

يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسـته فقـاموا بين يديـه متملقين.. ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقـاموا بعزتـه مسـتعزين.. أنت الذاكر قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان قبـل توجـه العابـدين، وأنت الجواد بالعطـاء قبـل طلب الطـالبين، وأنت الوهـاب، ثم لمـا وهبت لنا من المستقرضين.

إلهي، اطلبني برحمتك حتى أصل إليك.. واجـذبني بمنـك حـتى أقبل عليك.

إلهي، إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك.. كمـا أن خـوفي لا يزايلني وإن أطعتك.. فقد دفعتني العوالم إليك. وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلهي، كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف اهان وعليك متكلي؟!

إلهي، كيف أستعز وفي الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتني؟!

إلهي، كيـف لا أفتقـر وأنت الـذي في الفقـر أقمتـني! أم كيـف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني!

إلهي أنت الذي لا إلـه غـيرك، تعـرفت لكـل شـيء فمـا جهلـك شيء.. وأنت الذي تعرفت إلي في كل شـيء فرأيتـك ظـاهرا في كل شيء وأنت الظاهر لكل شيء.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار.. يا من تجلى بكمـال بهائـه فتحققت عظمتـه الأسـرار.. كيـف تخفى وأنت الظـاهر؟! أم كيـف تغيب وأنت الـرقيب الحاضـر؟! إنـك على كـل شي قدير.. والحمد لله وحده.

***

بعد أن ألقى جاستن هـذه المناجـاة بانفعـال وتواجـد عظيمين، التفت إلينا، وقـال: بعـد أن سـمعت هـذه المناجـاة الرقيقـة دخلت إليـه.. فوجدتـه جالسـا كالشـمس المتربعـة في فلكهـا يحيـط بهـا مريدون كالأقمار.. زيتهم يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار.

قال أحدهم: يا سيدنا.. لقد ذكر المتكلمون أدلة كثيرة على الله.. وقد حصل بينهم الخلاف في بعضها.. فما ترى الدليل على الله؟

قال: الله هو الدليل على الله..

قال المريد: كيف ذلك؟

قال: معرفة الله على قسمين: معرفة برهان، ومعرفة عيان.. أما البرهان، فللمتكلمين.. وأما العيان فللمشاهدين.. ففي الوقت الذي يتيه فيه العلماء بحثا عن الأدلة، ويتنازعون وفق ما تقتضيه أنظارهم يجلس العارفون المتخلصون من كثافة حجاب العقل المقيد بقيود الحس والوهم في أرائك جنة المشاهدة والمكاشفة واليقين.

قال المريد: من هم المشاهدون؟

قال: من لم تحجبهم الأكوان عن ربهم.. ومن استدلوا بالله على الله(1).. فشَتَّانَ بَينَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِاللهِ ومن يَسْتَدِلُّ على الله.. المُسْتَدِلُّ بِالله عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ، فأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجودِ أَصْلِهِ.. ومن استدل على الله، فذلك مِنْ عَدَمِ الوُصولِ إليَهِ.. وَإِلّا فَمَتى غابَ حَتّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟!.. وَمَتى بَعُدَ حَتّى تَكونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوْصِلُ إلَيْهِ؟!

قال المريد: فكيف يتحققون بهذا؟

قال: بالصفاء.. فإنه:

إذا سكن الغدير على	وجنب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا	كذاك الشمس تبدو
كذاك قلوب أرباب التجلي	يرى في صفوها الله

قال المريد: ولكن الحجب التي تحول بيننا وبينه كثيرة..

---

1) سنذكر هنا ـ بتصرف ـ بعض ما أورده ابن عطاء الله في حكمه من الطريق إلى معرفة الله على منهج أهل المحبة.

قال: الحـق ليس بمحجـوب، وإنمـا المحجـوب أنت عن النظـر إليه.. إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولـو كـان لـه سـاتر لكـان لوجوده حاصرا، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، واللـه هـو القـاهر فوق عباده.

ثم رفع رأسه إلى السماء(1)، وقال: الكـون كلـه ظلمـة ،وإنمـا أناره ظهور الحق فيه.. فمن رأى الكون ولم يشـهده فيـه أو عنـده أو قبله أو بعده فقد أعـوزه وجـود الأنـوار.. وحجبت عنـه شـموس المعارف بسحب الآثار.

فهو سبحانه كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهـر كـل شـيء!.. وكيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر بكـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر في كـل شـيء!.. وكيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر لكـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجـود كـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شـيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شـيء!.. وكيـف كيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو أقـرب إليـك من كـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء ولـولاه مـا كـان وجـود كـل شيء!

ثم التفت إلى محدثه، وقـال: ألا تـرى أن من العجب أن يظهـر الوجود في العـدم؟.. ألا تـرى أن من العجب أن يثبت الحـادث مـع من له وصف القدم؟

قال المريد: إن ما تقوله، وما يقوله جميـع أوليـاء اللـه جميـل.. ولكن عموم الناس لا يرون ما تذكره..

قال: لا يصل إلى هذه المعرفـة إلا من محـا صـور الأكـوان من مرآته.. فلا يمكن أن يتجلى الله في قلب ممتلئ بالأصنام.

قال المريد: لم؟

قال: لأن الله واحد.. ولا يعاين الواحد إلا من تخلى عن الأنداد.

1) لا نريد بهذا ما يفهمه البعض من الجهة، فقـد ذكرنـا أن اللـه تعـالى عنهـا وتقـدس، ولكنا نريد ما تعارفنا عليه مما هو من باب تعظيم الله، لا من باب تحديد الجهة.

قال المريد: لم؟

قال: كيف تريـد لقلب أن يشـرق وصـور الأكـوان منطبعـة في مرآته؟ أم كيف تريده أن يرحل إلى الله وهو مكبل بشـهواته؟.. أم كيـف يطمـع أن يـدخل حضـرة اللــه وهـو لم يتطهـر من جنابـة غفلاته؟.. أم كيف يرجو أن يفهم دقـائق الأسـرار وهـو لم يتب من هفواته؟!)

قال المريد: فقد أيأستنا من أنفسنا إذن؟

قال: لا.. فلولا ميادين النفوس ما تحقق سـير السـائرين.. إذ لا مسافة بينك وبينـه حـتى تطويهـا رحلتـك.. ولا قطيعـة بينـك وبينـه تمحوها وصلتك.

قال المريد: فكيف نصل إلى الله، ونحن ممتلئون بالمساوئ؟

قـال: لـو أنـك لا تصـل إلى اللـه إلا بعـد فنـاء مسـاويك ومحـو دعاويك فلن تصل إليـه أبـدا.. ولكن إذا أراد أن يوصـلك إليـه سـتر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه.

***

بعد أن سمعت تلك المعاني العظيمة شعرت بأن الكثافة الـتي كـانت تمسـك بي إلى الأرض تكـاد تـزول.. وصـرت أشـعر وكـأني أرفرف مع الطـير في السـماء.. ثم لم أجـد نفسـي إلا وأنـا أحمـل رسالة لم أعرف من صاحبها، ولا لمن يراد إرسالها.

فتحتها لأعرف ما فيها.. فوجدت فيها هذه العبارة التي حفظتهـا من طول تـردادي لهـا: (إلى شـيخي وقـدوتي ومـولاي ودليلي إلى ربي حجة الإسلام أبي حامد الغـزالي.. سـلام اللـه عليكم ورحمتـه وبركاته..

سيدي.. لقد طوتني ظلمات الأكـوان.. وحجبـتي أنـواء الأزمـان عن السير إلى ربي.. فصف لي من الطرق أخصرها، وعلمـني من

الأسرار أدقها.. لعلي أفتح بها من أبوابي ما انغلق، وأرتق بها من حالي ما انفتق)

عندما قرأت الرسالة شعرت بداع عميق في نفسي يدعوني إلى البحث عن هذا الذي أرسلت له الرسالة..

فرحت أسير في ذلك المحل الممتلئ بالغرابة..

وقد استوقفت بعضهم فيه، وسألته عن هذا الغزالي الذي أرسلت له تلك الرسالة، فقال لي: ألا تعرف الغزالي؟.. إنه أحد قواد العربة المقدسة.. إنك أمام بيته.. وليس عليك إلا تدق بابه ليفتح لك.

ما إن مددت يدي إلى الباب لأدق عليه حتى سمعت صوتا جهوريا يقول لي: ادخل يا جاستن؟

تعجبت من معرفته باسمي، فقلت: كيف عرفت اسمي؟

قال: ادخل وافتح الرسالة واقرأها علي..

ازداد عجبي منه، لكني لم أجد إلا أن أدخل، وأفتح الرسالة، كما طلب مني.. ثم قرأتها له كما قرأتها لكم.

سار خطوات قليلة، وأحضر الدواة والقلم، ثم سلمهما إلي، وقال: اكتب على ظهر الرسالة ما أمليه عليك.

أمسكت بالقلم والدواة، فراح يملي علي قوله(1): (اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها.

وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل لعبة الشطرنج، إذا عرفها فرح بها، ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى، وفرح

1) هذه الرسالة ملخصة بتصرف من (كيمياء السعادة) للغزالي.

بها، ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذة القلب المعرفة.

وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحاً.

وليس موجودا أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته؛ فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته.

وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت.

ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضوؤه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

أما الطريق إلى هذه المعرفة.. فقد اختلفت فيها الخلائق.. وقد طلبت مني أن أصف لك أخصر الطرق وأيسرها، وأقربها إلى تحصيل المراد.. وأنا سأجيبك إلى طلبك..

فاعلم أن أقرب الطرق إلى الله هو طريق اسمه (الودود).. فبهذا الاسم يتقرب العباد إلى ربهم.. وبه يسيرون إليه.. وبه يصلون إليه.

فلا يمكن لقلب أن يعرف ربه ما لم يعرفه ربه.. هكذا تحدث جميع الأولياء..

وقد وصفوا الطريق المختصر لذلك، فذكروا أن أن القلب مثل المرآة، وأن فيه استعدادا جبليا لمطالعة أنوار الملكوت.

فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائما: (الله - الله – الله) بقلبه، ولسانه، إلى أن يصير لا خير معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئا إلا الله سبحانه وتعالى انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجملية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه

ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ: (زويت لي الأرض، فـرأيت مشـارقها ومغربهـا)، وقـال اللـه عـز وجـل:﴿ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)﴾ (الأنعام)، لأن علوم الأنبياء - عليهم السلام - كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريــق الحواس، كما قال تعـالى:﴿ وَاذْكُـرِ اسْـمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْـهِ تَبْتِيلًا (8)﴾ (المزمل)، معناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهـير القلب من كـل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية.

وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبـوة، وكـذلك علم الأولياء؛ لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق، كما قال تعـالى:﴿ آتَيْنَـاهُ رَحْمَــةً مِنْ عِنْـدِنَا وَعَلَّمْنَـاهُ مِنْ لَـدُنَّا عِلْمًــا (65)﴾ (الكهف)

وهذه الطريـق لا تفهم إلا بالتجربـة، وإن لم تحصـل بالـذوق لم تحصـل بـالتعليم.. والـواجب التصـديق بهـا حـتى لا تحـرم شـعاع سعادتهم، وهو من عجـائب القلب. ومن لم يبصـر لم يصـدق، كمـا قال تعالى:﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَـأْتِهِمْ تَأْوِيلُـهُ كَـذَلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَـانْظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ (39)﴾ (يونس)، وقوله:﴿.. وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) ﴾ (الأحقاف)

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبيـاء والأوليـاء؛ لأن جـوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمـل منـه مـرآة ينظـر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك لأنه قد تلف.

وكذلك كـل قلب إذا غلب عليـه الشـهوات والمعاصـي لم يبلـغ هذه الدرجة وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة، كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة)(1)، وقال تعالى:﴿ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا..(172)﴾ (الأعـراف).. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبيـة كمـا قـال تعـالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (30)﴾ (الروم)، والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

1) رواه البخاري ومسلم.

مِثْلُكُمْ.. (110)﴾ (الكهف)

فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد)

قال: هل كتبت كل ما طلبت منك كتابته؟

قلت: أجل.. لقد كتبت كل ما طلبت مـني.. ولكـني محتـار في صـاحب الرسـالة.. لقـد وجـدتها في يـدي فجـأة، وأنـا لا أعلم لمن أوصلها.

قال: فاحتفظ بالكتاب لنفسك.. وسيأتي اليوم الذي تعرف فيـه أصحاب الرسالة.

قلت: ولكنهـا أمانــة.. ولابــد أن أوصــلها إلى أهلهـا في أقــرب وقت.. ولا يمكنني أن أفعل ذلك ما لم أعرف صاحبها الآن.

قال: لكل شـيء أوانـه.. خـذ هـذه الرسـالة.. وخزنهـا عنـدك.. وارحل بها إلى كل محل.. فربمـا تـرى أهلهـا في يـوم من الأيـام.. وحينذاك اقرأها عليهم، وبلغهم سلامي.

***

أخرج لنا جاستن ورقة من جيبه، وقال: هذه هي الرسالة الــتي أملاها علي الغزالي.. وهي التي جعلتني أذكـر تلـك الأيـام الجميلـة التي تحركت فيها للبحث عن ربي..

قلنا: فكيف وجدتها؟

قال: عندما ذكر لي ذلك خبأتهـا في حقيبـة من الحقـائب الـتي أضع فيها حاجاتي النفيسة.. وقد غفلت عنهـا بسـبب الأهـواء الـتي اجتذبتني.. وبينما كنت اليوم أنظر في تلـك الحقيبـة إذا بي أجـدها، وأجد معها كل تلك الذكريات الجميلة التي ذكرتها لكم.

قلنا جميعا بصوت واحد: لاشك أن الغزالي كتب هــذه الرســالة لنا.. فهلم نفعل ما أمرنا به.. فلعل الله أن يفتح علينـا بـذكر اسـمه ما فتح على أوليائه وقديسيه.

***

قلنا ذلك، ثم رحنا جميعا نردد بصوت واحد (الله.. الله.. اللــه).. وبقينا على ذلك إلى أن مر اليوم جميعا من غير أن نشـعر بـه.. ولا أن نشعر بمـا حولنـا.. لقـد عرفنـا بالـذوق مـا لم نسـتطع معرفتـه بتقليب الأدلة.. ووجوه النظر..

لقـد تجلى لنـا في ذلـك الحين مـا لا تسـتطيع قـراطيس الـدنيا جميعا أن تعبر عنه.

عاشرا ـ الصمد

بعد أن أمضينا ما يقرب من اليوم نلهج مع صاحبنا (جاستن مارتن) بذكر اسم الله.. وفي الثلث الأخير من الليل.. شعرنا بروحانية تسري في كل خلية من خلايانا، بل في كل ذرة من ذراتنا.. فاستحال كل شيء أمامنا أنوارا صرفة تدلنا على الله، وتعرفنا به.

في ذلك الحين، وفي ظلال تلك اللذة الروحانية العميقة، قام صاحبنا الأول الذي ذكرته لك في بداية حديثي عن رحلتي هذه..

قام، وقال: أبشروا أيها الجمع المبارك.. فالرب الذي عرفتموه هو (الله) الحقيقي الذي إذا دعي أجاب، وإذا سئل أعطى، وإذا استعيذ أعاذ.. وقد من الله علي، فعرفت من أسرار إجابته ما أريد أن أحدثكم به اليوم، على درب من سبقني من المتحدثين.

لقد حدثكم من قبلي عن الله الواحد القدوس الحميد البديع الملك العدل الرحيم الودود.. وأنا سأحدثكم عن الله الصمد المجيب الذي لا يرد من سأله، ولا يخيب من أمل فيه وفي فضله.

وقبل أن أحدثكم حديث هذه الأسماء، أحب أن أعرفكم باسمي.. وسر علاقتي بهذه الأسماء.

أما اسمي فهو (محمد)..

أما مسماي، فهو مسمى رجل سار في كل الأرض يبحث له فيها عن ملجأ ممن يحاربونه ويطاردونه.. وهو ينتظر بكل شوق ذلك اليوم الذي يتقدم فيه لرفع راية الله لتنشر أنوارها على العالم أجمع.

اندهشت الجماعة المحيطة به من قوله هذا، ورددوا جميعا: فأنت مسلم إذن؟

قال: أجل.. أنا مسلم بفضل الله وحمده ومنته.

قال واحد من الجمع: فلم لم تبادر بتعريفنا بربنا؟

قال آخر: لم تركتنا نخوض غمار البحث الشاق المجهد بنفوسنا الضعيفة القاصرة؟

قال آخر: لم تركت لعقولنـا الحريـة في البحث عن ربنـا، وأنت تعرفه.. ألم يكن الأولى بك أن تتقدم، فتقود جمعنـا لتسـير بـه إلى الله؟

ابتسـم محمـد، وقـال: أولا.. لقـد اسـتننت في هـذا بسـنة أبي إبراهيم – عليه السلام -.. فقد ذكر الله من أساليب دعوتـه لقومـه هـذا الأسـلوب، فقـال:﴿ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْـلُ رَأَى كَوْكَبًـا قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَـرَ بَازِغًـا قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لَأَكُـونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَـرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَـالَ يَـا قَـوْمِ إِنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَـا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (79)﴾ (الأنعام)

انظروا كيف مهـد إبـراهيم – عليـه السـلام – بهـذه التمهيـدات جميعا ليعرف الخلق بالخالق.

هذا أولا.. أما ثانيا.. فقد رأيت أني لـو بـدأت وبـادرت بالحـديث عما علمني ديني من المعارف المرتبطة بربي.. لانتفض كـل واحـد منكم وثارت فيه من النخوة ما يدعوه إلى الدعوة لدينه والتعصـب له، لذلك آثرت أن تكونوا أنتم أول المتحدثين.

والحمد للـه.. فـإني أرى اللـه قـد فتح عليكم من المعـارف مـا جعلكم أهلا لأن تحقق لكم المطالب، وترفـع لكم الحاجـات.. وهـذا الوقت وقت مبارك أخبرنا رسـول اللـه ﷺ أن اللـه يجيب فيـه من سأله، ويعطي فيه من طلبه.

قال رجل منـا: أهـذا هـو الـوقت الوحيـد الـذي يجيب اللـه فيـه السائلين؟

قال محمد: لا.. الله جواد كريم يجيب عباده في كـل الأوقـات.. ولكـل الحاجـات.. ولكن هـذا الـوقت كأوقـات أخـرى كثـيرة يمتلئ

بالنورانية.. وهي مناسبة جليلة لصفاء النفس، ورقـة القلب وسـمو الروح.. والدعاء لا يرفع إلا إذا صدر من روح سـامية ونفس صـافية وقلب رقيق.

ولذلك أدعوكم –إخواني – لترفعوا أيديكم إلى اللـه.. وادعـوه.. وناجوه(1).. فقد ألهمني الله بأنه سيستجيب في هذا الحين لكل ما تطلبونه.

***

رفع أحدنا يديه، وقال(2): إلهي ألبستني الخطايـا ثـوب مـذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمـات قلـبي عظيم جنـايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي، ويا سؤلي ومنيتي، فـو عزتـك مـا أجـد لـذنوبي سـواك غـافرا، ولا أرى لكسـري غـيرك جـابرا، وقـد خضعت بالانابة إليك، وعنوت بالاستكانة لـديك، فـإن طردتـني من بابك فبمن ألوذ!؟ وإن رددتني عن جنابك فبمن أعـوذ!؟ فـوا أسـفا من خجلتي وافتضاحي، ووالهفا من سوء عملي واجتراحي!

إلهي هل يرجع العبد الآبـق إلا إلى مـولاه!؟ أم هـل يجـيره من سخطه أحد سواه!؟

إلهي إن كــان النــدم على الــذنب توبــة، فــإني وعزتــك من النـادمين، وإن كـان الاسـتغفار من الخطيئـة حطـة فـإني لـك من المستغفرين، لك العتبى حتى ترضى.

يا مجيب المضطر، يا كاشف الضر، يا عظيم البر، يا عليمـا بمـا في السـر، يـا جميـل السـتر استشـفعت بجـودك وكرمـك إليـك، وتوسلت بجنابك وترحمك لديك، فاسـتجب دعـائي، ولا تخيب فيـك رجـائي، وتقبـل توبـتي، وكفـر خطيئـتي بمنـك ورحمتـك يـا أرحم الراحمين.

---

1) آثرنـا أن نقتصـر في هـذا الفصـل على ذكـر بعض مـا أثـر من مناجـاة أوليـاء اللـه الرقيقة.. وخاصة مناجاة سجاد آل محمد ﷺ.. فهي مناجاة تجمع ألوان المعرفـة.. بـل هي تعبر عن الحقائق الإيمانية بمنتهى الرقة والجمـال.. وهي في قوتهـا الدلاليـة أقـوى بكثـير من كثير من الصيغ الجدلية الممتلئة بالجفاف.

2)من دعاء السجاد في مناجاة التائبين (ببعض تصرف)

***

رفع آخر يديه، وقال(1): إلهي إليك أشكو نفسا بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الامل، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوء ة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة.

إلهي أشكو إليك عدوا يضلني، وشيطانا يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزين لي حب الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى.

إلهي إليك أشكو قلبا قاسيا، مع الوسواس متقلبا، وبالرين والطبع متلبسا، وعينا عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما يسرها طامحة.

إلهي لا حول ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك. فأسألك ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيتك، أن لا تجعلني لغير جودك متعرضا، ولا تصيرني للفتن غرضا، وكن لي على الاعداء ناصرا، وعلى المخازي والعيوب ساترا، ومن البلايا واقيا، وعن المعاصي عاصما، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(2): إلهي أتراك بعد الايمان بك تعذبني!؟ أم بعد حبي إياك تبعدني!؟ أم مع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمني!؟ أم مع استجارتي بعفوك تسلمني!؟ حاشا لوجهك الكريم أن تخيبني، ليت شعري أللشقاء ولدتني أمي، أم للعناء ربتني!؟ فليتها لم تلدني ولم تربني، وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني؟ وبقربك وجوارك خصصتني؟ فتقر بذلك عيني وتطمئن له نفسي.

***

---

1) من دعاء السجاد في مناجاة الشاكين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة الخائفين (ببعض تصرف)

رفع آخر يديه، وقال[1]: يا من إذا سأله عبد أعطاه، وإذا أمل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه وأدناه، وإذا جـاهره بالعصـيان ستر على ذنبه وغطاه، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه.

إلهي من الذي نزل بك ملتمسا قراك فمـا قريتـه!؟ ومن الـذي أناخ ببابك مرتجيا نـداك فمـا أوليتـه!؟ أيحسـن أن أرجـع عن بابـك بالخيبة مصروفا، ولست أعرف سواك مولى بالاحسان موصـوفا!؟ كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك!؟ وكيـف أؤمـل سـواك والخلـق والامـر لـك!؟ أأقطـع رجـائي منـك وقـد أوليتـني مـالم أسـإله من فضلك؟ أم تفقـرني إلى مثلي وأنـا أعتصـم بحبلـك!؟ يـا من سـعد برحمته القاصدون، ولم يشـق بنقمتـه المسـتغفرون كيـف أنسـاك ولم تزل ذاكـري!؟ وكيـف ألهـو عنـك وأنت مراقـبي!؟ إلهي بـذيل كرمـك أعلقت يـدي، ولنيـل عطايـاك بسـطت أملي، فأخلصـني بخالصة توحيدك، واجعلني من صفوة عبيدك.

***

رفع آخر يديـه، وقـال[2]: إلهي إن كـان قـل زادي في المسـير إليك، فلقد حسن ظني بالتوكل عليك، وإن كان جرمي قد أخـافني من عقوبتك، فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتـك، وإن كـان ذنبي قـد عرضـني لعقابـك، فقـد آذنـني حسـن ثقـتي بثوابـك، وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك، فقد نبهتني المعرفـة بكرمـك وآلائك، وإن أوحش ما بيني وبينك فـرط العصـيان والطغيـان، فقـد آنسني بشرى الغفران والرضوان.

إلهي استشفعت بك إليك، واسـتجرت بـك منـك، أتيتـك طامعـا في إحسانك، راغبا في امتنانك، مستسقيا وابل طولك، مسـتمطرا غمام فضلك، طالبا مرضاتك، قاصـدا جنابـك، واردا شـريعة رفـدك ملتمسا سني الخيرات من عندك، وافدا إلى حضرة جمالك، مريـدا وجهك، طارقا بابك، مستكينا لعظمتك وجلالك، فافعـل بي مـا أنت أهله من المغفرة والرحمـة ولا تفعـل بي مـا أنـا أهلـه من العـذاب والنقمة برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

1) من دعاء السجاد في مناجاة الراجين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة الراغبين (ببعض تصرف)

***

رفع آخر يديه، وقال[1]: اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنـا معصـيتك، ويسر لنا بلوغ ما نتمنى من ابتغاء رضوانك، وأحللنا بحبوحة جنانك، واقشع عن بصائرنا سـحاب الارتيـاب، واكشـف عن قلوبنـا أغشـية المرية والحجـاب، وأزهـق الباطـل عن ضـمائرنا، وأثبت الحـق في سـرائرنا، فـإن الشـكوك والظنـون لـواقح الفتن، ومكـدرة لصـفو المنائح والمنن.

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنـا بلذيـذ مناجاتـك، وأوردنـا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيـك، وهمنـا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليـك إلا أنت. إلهي اجعلـني من المصـطفين الاخيـار، وألحقـني بالصـالحين الابـرار، السـابقين إلى المكرمـات المسـارعين إلى الخـيرات، العـاملين للباقيـات الصـالحات، السـاعين إلى رفيـع الدرجات، إنك على كـل شـئ قـدير، وبالاجابـة جـدير، برحمتـك يـا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال[2]: سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله! وما أوضح الحق عند من هديته سبيله! إلهي فاسلك بنـا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، قـرب علينا البعيد، وسهل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الـذين هم بالبدار إليـك يسـارعون، وبابـك على الـدوام يطرقـون، وإيـاك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون الـذين صـفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضـيت لهم من فضلك المـآرب، وملات لهم ضـمائرهم من حبـك، ورويتهم من صـافي شـربك، فبـك إلى لذيـذ مناجاتـك وصـلوا، ومنـك أقصـى مقاصدهم حصلوا، فيامن هو على المقبلين عليه مقبـل، وبـالعطف عليهم عائد مفضـل، وبالغـافلين عن ذكـره رحيم رؤوف، وبجـذبهم إلى بابه ودود عطوف.

1) من دعاء السجاد في مناجاة المطيعين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة المريدين (ببعض تصرف)

***

رفع آخر يديه، وقال[1]: إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا.

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريتك واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شئ يقطعه عنك. اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباهم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لابصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة. يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية المحبين. أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك،. أن تجعلك أحب إلي مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائدا إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائدا عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك علي وانظر بعين الود والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الاسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال[2]: إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك، ولا لي ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك وشفاعة نبيك، نبي الرحمة، ومنقذ الامة من الغمة، فاجعلهما لي سببا إلى نيل غفرانك، وصيرهما لي وصلة إلى الفوز برضوانك، وقد حل رجائي بحرم كرمك، وحط طمعي بفناء جودك، فحقق فيك أملي، واختم بالخير عملي، واجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك،

1) من دعاء السجاد في مناجاة المحبين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة المتوسلين (ببعض تصرف)

وبـوأتهم دار كرامتـك، وأقـررت أعينهم بـالنظر إليـك يـوم لقائـك، وأورثتهم منازل الصدق في جـوارك. يـا من لا يفـد الوافـدون على أكرم منه، ولا يجد القاصدون أرحم منه، يـا خـير من خلا بـه وحيـد، ويا أعطف من آوى إليه طريد. إلى سعة عفوك مددت يدي، وبذيل كرمـــك أعلقت كفي، فلا تولـــني الحرمـــان، ولا تبلـــني بالخيبـــة والخسران، يا سميع الدعاء يا أرحم الراحمين.

***

رفـع آخـر يديـه، وقـال[1]: إلهي كسـري لا يجـبره إلا لطفـك وحنانك وفقري لا يغنيه إلا عطفك وإحسانك، وروعتي لا يسكنها إلا أمانك، وذلتي لا يعزها إلا سـلطانك، وأمنيـتي لا يبلغنيهـا إلا فضـلك، وخلتي لا يسـدها إلا طولـك، وحـاجتي لا يقضـيها غـيرك، وكـربي لا يفرجه سوى رحمتك، وضري لا يكشفه غير رأفتك، وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعـتي لا يطفيهـا إلا لقـاؤك، وشـوقي إليـك لا يبلـه إلا النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا يردهـا إلا روحك، وسـقمي لا يشـفيه إلا طبـك، وغمي لا يزيلـه إلا قربـك، وجــرحي لا يبرئــه إلا صــفحك، ورين قلــبي لا يجلــوه إلا عفــوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمـرك. فيـا منتهى أمـل الآملين، ويـا غاية سؤل السائلين، ويـا أقصـى طلبـة الطـالبين، ويـا أعلى رغبـة الراغبين، ويا ولي الصالحين، ويا أمان الخـائفين، ويـا مجيب دعـوة المضـطرين، ويـا ذخـر المعـدمين، ويـا كـنز البائسـين، ويـا غيـاث المسـتغيثين، ويـا قاضـي حـوائج الفقـراء والمسـاكين، ويـا أكـرم الاكــرمين، ويــا أرحم الــراحمين. لــك تخضــعي وســؤالي، وإليــك تضرعي وابتهالي. أسألك أن تنيلني من روح رضـوانك وتـديم علي نعم امتنانك. وها أنا بباب كرمـك واقـف، ولنفحـات بـرك متعـرض، وبحبلـك الشـديد معتصـم، وبعروتـك الـوثقى متمسـك. إلهي ارحم عبدك الذليل، ذا اللسان الكليل والعمل القليل وامنن عليه بطولـك الجزيل، واكنفه تحت ظلـك الظليـل، يـا كـريم يـا جميـل، يـا أرحم الراحمين.

***

بقينـا على هـذه الحـال إلى أن طلعت الشـمس من غـير أن

1) من دعاء السجاد في مناجاة المفتقرين (ببعض تصرف)

نشعر بها، ولا أن نشعر بشـيء ممـا حولنـا.. فقـد جعلنـا ذكـر اللـه ومناجاته نعيش في عوالم من الأنس لم نر مثلها طيلة حياتنا.

لكنا فجأة.. ونحن على تلـك الحـال الـتي وصـفتها لـك، سـمعنا شهيقا وبكاء كثيرا استغربنا له.. فقد كان له من الصدى ما لم يكن لأصواتنا المحدودة أن تحدثه.

فتحنا أعيننا، والتفتنا إلى ما حولنا، فوجدنا ناسا كثيرين يحيطون بنا، وهم يرفعون أيديهم إلى السماء كمـا نرفعهـا، وتنحـدر الـدموع من مآقيهم مثلما تنحدر من مآقينا.

لقد ملأنا ذلك المشهد بالعجب.. فراح أحدنا يسألهم عن سرهم وسـر حضـورهم، فقـام أحـدهم، وقـال: نحن قـوم من أهـل هـذه البلاد.. طردتنا الأرض، أو طردنا أهل الأرض، فلم نجد ملجأ إلا هـذه الأرض الوعرة التي وقعتم فيها، وقد كنا نسأل رب هذا الكـون كـل حين أن يدلنا عليه، وأن يعرفنا به، وأن يأوينا إذ طردنا النــاس، وأن يحمينا إذ قهرنا الناس، وأن يقربنا إذ قلانا الناس.. وها قد اسـتجاب لنا ربنا.. فقـد سـمعنا من ذكـركم لـربكم ومناجـاتكم لـه مـا زادنـا معرفة به، وحبا له، وأنسا به.

ونحن نشعر الآن أننا قـد ولـدنا ولادتنـا الحقيقيـة.. فلا خـير في حياة لا يعرف صاحبها ربه.. ولا خير في عيش لا يأنس صـاحبه فيـه بملك هذا الوجود ومالكه ومدبر أمره.

قال آخر: أنتم أهل الله الذين ظللنـا نحلم بـأن نـراكم، ونسـمع كلامكم، ويسري إلينا من أحوالكم مـا يخرجنـا من أوهـام النفـوس ودجل الشياطين.

قال آخر: لقد من الله علينـا أخـيرا فأرسـل لنـا من دلنـا عليـه، ونحن شاكرون فضله، حامدون نعمته، ولا نطلب منـه إلا أن يـذيقنا من الأنس به والشوق له ما أذاقكم، وأن يسقينا من الشراب الذي سقاكم.

قال آخر: بينما كنا في بيوتنا نأوي إلى الظلمـة والفنـاء.. ونحلم بالعدم والألم.. سمعنا صياحكم باسم (اللـه).. لقـد كـانت صـيحات حـارة قويـة أشـعلت في قلوبنـا من الأشـواق مـا لم تشـعله أي

صيحة.. فلذلك جئنا على رؤوس أقدامنا نسعى لنشــرب معكم من ذلك النبع الذي لا يظمأ من شرب منه.

بعد أن تحدث الجمع بهذه الأحاديث طلبـوا منـا أن نسـير معهم إلى المحل الذي يقيمون فيه، وقد عجبنا إذ رأيناه لا يبعد عنا كثيرا.. ولكن القدر صـرفنا عن البحث عنـه.. لنبحث بدلـه عن اللـه.. وقـد حمدنا الله على ذلك.. وعرفنا ما تختزنه الآلام من أنواع النعم التي يحجب عنها الغافلون.

الخاتمة

بعد أن حدثني الشيخ الصالح عن نبأ هذه الرحلة، وما حصل لـه فيها استغرق في صمت عميق، قطعته عليه بقـولي: فكيـف انتهى أمركم بعد أن دلكم الله على سبيل النجاة، وبعد أن شـرفكم قبـل ذلك، فعرفكم بـه، ورفعكم إلى تلـك المقامـات السـنية.. مقامـات الأولياء والصديقين.

قال: لقد ذهبنا إلى أولئك القوم الكرام، فوجدنا معادنهم أصفى المعـادن وأكرمهـا.. فمـا إن لاح لهم من نـور اللـه مـا لاح حـتى اسـتحالوا أنـوارا صـرفة.. فكـان منهم العـارفون والعابـدون والزاهدون.. وقـد أبى رفـاقي جميعـا أن ينصـرفوا عنهم أو يرضـوا بحياة بديلة عن حياتهم.. إلا أنا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: بعد أن مكثنا في صحبتهم أياما سمع قومنا بنبئنا، فأرسلوا لنا طائرة خصوصية لتنقذنا، وتعيدنا إلى بلادنا.. لكن رفـاقي جميعـا أبوا أن يعودوا.. لقد التصقوا بالمكان الذي عرفوا فيـه ربهم، فـأبوا أن ينصرفوا عنه، أو يرضوا بمكان آخر بدله.

قلت: ولكنك ذكرت لي أنه كان مكانا وعرا شاقا.

قال: وقد ذكرت لك أنهم عرفوا الله فيه..

قلت: فما في ذلك؟

قال: كل أرض عرفت الله فيها، فهي عرفات أنسـك، ومعـراج روحك، وكعبة قلبك.. ولا يشقى من عرف ربه، ولا يحـزن من أنس بمولاه.

قلت: ولكن الله يعرف في كل مكان.

قال: الله لا يحجبه المكـان ولا الزمـان.. ولا يحويـه المكـان ولا الزمان.. ولكن النفس قد تختلف لديها المحال.. والعاقل هـو الـذي يختار من الأرض ما يأنس فيه بربه، ويتفرغ فيه لمـولاه.. لقـد ذكـر الله ذلك، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَـةُ ظَـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَـالُوا

فِيمَ كُنْتُمْ قَـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ لَا يَسْـتَطِيعُونَ حِيلَـةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُـوًّا غَفُورًا (99)﴾ (النساء)

ثم قــال بعــدها:﴿ وَمَنْ يُهَــاجِرْ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ يَجِــدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَـاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًـا (100)﴾ (النساء)

فهذه الهجرة إلى الله.. وهذا هو الفرار إلى الله.

ألسنا نفر من أرض إلى أرض طلبا للرزق.. أو طلبـا للجـاه.. أو طلبا للعافية؟

قلت: بلى.. ولا حرج علينا في ذلك.

قال: ليس الحرج في ذلك.. ولكن الحرج أن نرحـل لأجـل كـل شيء، ثم لا نكلف أرجلنا خطوة واحدة من أجل البحث عن ربنـا أو الاتصال به.

قلت: ذلك لأن ربنا معنا في كل المحال.. ألم يقل الله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾ (الحديد)؟

قال: ذلك صحيح.. ولكن الشأن ليس في أن يكـون ربنـا معنـا، وإنما الشأن في أن نكون نحن مع ربنا.. فربنا تستوي لديه المحال، ولكنا نحن الذين تحجبنا الغفلة، ويحتوينا الهوى، فيمنعنـا من السـير إلى ربنا.. لقد قـال أوليـاء اللـه في ذلـك:(الحـق ليس بمحجـوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشـيء فهـو لـه قاهر:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.. ﴾ (الأنعام:18)

قلت: صدق أولياء الله في ذلك.. ولكنهم هم أنفسـهم يـذكرون

أن السير إلى الله سير القلوب لا سير الأقدام.. لقد قال ابن عطاء الله في ذلك:(لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السـائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعـة بينـك وبينـه حـتى تمحوها وصلتك)

قال: صدق ابن عطاء الله في ذلك.. ولكن النفس الراكنـة إلى الهـوى المتثاقلـة إلى الأرض تحتـاج إلى طي مسـافات الأجسـام لتصل إلى الذي لا تحجبه المسافات، ولا تحول دونه الحوائل.

لقـد ذم اللـه المتثـاقلين إلى الأرض القاعـدين عن البحث عن مولاهم، أو عن السلوك إليه، وذكر لهم نموذجا عن ذلـك، فقـال:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (الأعراف)

قلت: سلمت لك بهذا، وقد ذكـرني حـديثك هـذا بأبيـات جميلـة من الشعر كنت أسمعها وأنا صبي تنشد في حلقات الذكر، فتهزني هزا.. كان الحادي يترنم بقوله:

أخاطر في محبتكم بروحي — وأركب بحركم أما وأما

وأسلك كل فج في هواكم — وأشرب كأسكم لو كان

ولا أصغى إلى من قد — ولي أذن عن العذال

أخاطر بالخواطر في — وأترك في رضاكم أبا

سقطت دمـوع حـارة من عيـني الشـيخ الصـالح عنـد سـماعة الأبيات، فمسحها بيده برفـق، ثم قـال: لقـد آثـر رفـاقي جميعـا أن يعيشـوا مـع أولئـك الصـالحين ليقضـوا مـا بقي لهم من عمـر مـع مولاهم إلا أنا، فقد تثاقلت إلى الدنيا، وركنت إلى الهوى.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: لقد امتطيت الطائرة إلى حيث كان أخي في الفاتيكان..

قلت: ألم تسلم بعد كل هذا؟

قال: بلى.. لقد من الله علي فنطقت بما عجزت طول عمـري أن أنطق به.. لقد أسمعت تلك الجبال جميعا أكبر شـهادة في هـذا الوجود (شهادة أن لا إله إلا الله.. وأن محمدا رسول الله)

لقــد صـحت بهـا.. فشـعرت عنـد صـياحي بهـا من الســرور والسعادة ما لم يستطع جسمي تحمله.

وعندما زرت أخي في مكتبه، كان أول مـا نطقت بـه بين يديـه هو تلك الشهادة..

وقــد عجبت عجبـا شـديدا إذ رأيت أخي ثابتـا لم يتحـرك، ولم يصبه ما كنت أتوقعـه منـه، بـل اكتفى بقولـه: لقـد كنت أعلم أنـك ستنطق بها.. ولم يكن لك إلا أن تنطق.. فيستحيل على من تعرض لتلك الشمس العظيمة أن يعرض عنها.

قلت: فهلم ننطق بها جميعا.

قال: وددت لو أني فعلت ذلك.. ولكن أنت تراني الآن كما ترى نفسك على أعتاب ذلك الكرسي الذي ظللنا طول عمرنا نحلم بأن نجلس عليه.

قلت: أنت الـذي تحلم بــه، أمــا أنــا فقــد نطقت بهــا أخــيرا.. ويستحيل أن أكون بابا بعدها.

ابتسم، وقال: لكأني بك نسيت من أنا.. ونسـيت من أنت.. أنـا وأنت شيء واحد..

نعم.. لقد تحديتني، فصحت بتلك الشـهادة بين الجبـال والآكـام والصخور.. ولكنك لا تستطيع أن تنطق بها في غير تلك المحال..

صحت: بل سأنطق بها.. سأصرخ بها ليسمعها العالم أجمع.

ضحك بصوت عال، وقال: فجرب إذن.. اخـرج إلى الخـارج.. أو اكتف بأن تصيح بها هنا في مكتبي.

أردت أن أصيح، فإذا بي أشعر بتلك الخرسـانة المسـلحة تقـف

بيني وبين الصراخ.

قلت: ما الذي فعلت بي حتى منعتني من النطق بما اقتنع به كل كياني؟

قال: أنا لم أفعل لك شيئا.. ولكن صراخك في هذا المحل يحتاج إلى موافقتي.. وبما أني لم أوافق، فإنه يستحيل أن تنطق بكلمة واحدة.

قلت: فهيا نصيح بها جميعا.

قال: أتريدنا أن نضحي بذلك المنصب الرفيع؟

قلت: إن الله الكريم المنان سيمن علينا بالمناصب التي لا يمكن لأي كرسي في الدنيا أن يعوضها.

قال: لقد نبت حب ذلك المنصب في قلبي.. ولا يمكنني أن أعيش لحظة واحدة بعد أن يزول حبه من قلبي.

قلت: فماذا أفعل أنا؟

قال: كن مسلما كما تشاء.. قم الليل.. وصم النهار.. واذكر ربك آناء الليل وأطراف النهار.. ولكن شيئا واحدا لن أسمح لك به ما حييت..

قلت: الصراخ في الملأ بتلك الشهادة العظيمة؟

قال: أجل.. يمكنك أن تذهب إلى الجبال، وتصيح بها بين الصخور.. بل يمكنك أن تسمعها لنبات الأرض، ولنجوم السماء.. ولكني لن أسمح لك أبدا أن تحدث بها، أو تصيح بها بين الناس.

***

شعرت أني في محاولة إقناعي لأخي كمن يحاول أن يحول من الحجارة ذهبا، فلذلك ركنت إلى الصمت.. وفي ذلك المساء سرت إلى ضاحية المدينة حيث تتربع بعض الجبال العالية.. وهناك رفعت صوتي كما لم أرفعه من قبل ناطقا بتلك الشهادة العظيمة.

وقد ظللت على هذا فترة من عمري.. ثم إني جعلت في بيـتي خلـوة منفـردة عن النـاس كنت أردد فيهـا مـا تعلمتـه من أذكـار.. وكنت أناجي فيها الله بما كان يلهمني الله من مناجاته.

وقد وجدت في ذلك من السعادة والأنس ما لا يمكن لأحــد في الدنيا أن يجده.

هذا الكتاب

هذه الرواية تحاول أن تنشر في قلب المؤمن وغـير المـؤمن أهمية معرفة الله وضرورتها، وأن الحيـاة لا تسـتقيم من دونهـا، وأن القلب لا يدرك ضالته من دونها.

وهي تتوسـل لـذلك بكـل أنـواع الحجج العقليـة والعاطفيـة وغيرها..

وتـدور أحـداثها حـول رجـل دين مسـيحي يـزور المؤلـف، ثم يحكي له قصة اهتدائـه للـه، والـتي بـدأت من خلال تكليفـه من طرف الكنيسة بالذهاب صـحبة هيئـة علميـة أرسـلها الفاتيكـان لحضور مـؤتمر علمي حـول اللـه في الأديـان المختلفـة.. وقبـل الوصول إلى المؤتمر نزلت الطائرة الـتي تقلهم اضـطراريا في مكان مجهول، وحين ييأسس الركاب من أن ينقذهم أحد يقفون مواقـف مختلفـة.. أمـا الملاحـدة واللاديـنيين، فمنهم من ينتحـر، ومنهم من يصاب بالجنون.. وأما غيرهم، فيتضرعون إلى اللــه.. كل حسب دينه الذي يعتقده.. لكن شخصا منهم خاطبهم بقوله: (نحن من بلاد مختلفة.. منا من يؤمن باللـه.. ومنـا من لا يـؤمن به.. ونحن نختلف فيما بيننا اختلافا شديدا في معارفنا المرتبطة بالله.. ولا يمكن لـدعواتنا أن ترتفـع للآلهـة المزيفـة.. فلـذلك لا منــاص لنــا من البحث عن الإلــه الحقيقي حــتى نرفــع أكفنــا بالضراعة إليه)

وهنا يبدأ كل باحث من الهيئة العلمية يدلي بشهادته الصـادقة عن معارفه التي وصل إليها من خلال زيارته لبلاد المسلمين..

وفي الأخير.. وبعد اهتدائهم لله.. ودعائهم له، قيض اللــه لهم من ينقذهم..